المنهج التربوي للسيرة النبوية

٧

التربية القيادية

محمد رسول الله والذين معه - جيل الحديبية

د. منير الغضبان

الجزء الرابع

دار الوفاء


منتدى إقراء الثقافي

التربية القيادية

محمد رسول الله والذين معه

جيل الحديبية

الطبعة الرابعة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت : ٣٤٢٧٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

المنهج التربوي للسيرة النبوية

(٧)

التربية القيادية

محمد رسول الله والذين معه

جيل الحديبية

الجزء الرابع

منير الغضبان


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى جيل الصحوة الإسلامية الذى يبحث عن قيادات

أهدى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمين ،وعلى آله وصحبه ،ومن سار على طريقه إلى يوم الدين ، وبعد .

فهذا هو الجزء الرابع من التربية القيادية من المنهج التربوى للسيرة النبوية. وهذا الجزء السابع من السلسلة ؛إذ أن الأجزاء الثلاث الأولى فى التربية الجهادية.

ويبدأ الحديث فيه عن المجتمع الإسلامى والجيل الإسلامى على أبواب الخندق، وهو الجيل الذى تم إعداده ليواجه أعظم هجوم فى تاريخ الجزيرة العربية وقوامه عشرة آلاف مقاتل تعاهدت قياداتهم فيه على: (لتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل) .

ثم انتهت كما قال عز وجل: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١) .

لنتابع المسيرة مع هذا الجيل القائد ،الذى انتقل لمرحلة الهجوم بعد الدفاع كما حدد ذلك القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام: « والآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وتنتقل عملية التربية من جيل الصبر إلى جيل النصر الذى يحتاج إلى مواصفات عليا فى ضبط النفس، والتجرد عن الدنيا، وتحدثنا تفصيلا عن مواصفات بناء هذا الجيل وتابعنا مسيرة التربية معه حتى كان على مشارف مكة فى الحديبية. وشهدنا عظمة التربية لهذا الجيل الرائد الذى عاد بصلح الحديبية وقلبه مكلومٌ لفوات الفتح فى مكة. حيث عاد للمدينة ليتلقى هناك أعلى الأوسمة من رب العزة على صبره وانضباطه وطاعته واستعداده للتضحية فيكون خير أهل الأرض، كما قال فيه قائده ومربيه عليه الصلاة والسلام. وليشهد بعد أقل من شهر تحقيق موعود الله فى المغانم الكثيرة التى يأخذها، ولكن من خلال مخاض عسير، وتربية أعسر استمرت قرابة شهرين، انضم إليه خلالها خيرة أهل الأرض المقيمون على ثغور الإسلام فى الحبشة واليمن ودوس ،ثم مكة بعد

---

(١) الأحزاب / ٢٥ ــ ٢٧ .

ذلك. ويحمل لواء الجيل القيادى فى الأمة حيث تنزل مواصفاته من رب السماء والأرض ،وإنه الجيل الذى كانت البشرية ترنو إليه وتترقبه من لدن موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - حيث تحدثت التوراة والإنجيل عنه ليكون واقعاً حياً يمشى على الأرض، ويتأهب لقيادة البشرية، وتغيير مسيرتها من الظلمات إلى النور؛ مصداقاً لقوله عز وجل:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١] .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

الفصل الأول

الأحـــزاب

١ـ ذكر موسى بن عقبة فى المغازى قال: (خرج حيى بن أخطب بعد قتل بنى النضير إلى مكة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ. وخرج كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى فى بنى غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف تمر خيبر. فأجابه عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان ابن حرب بقريش، فنزلوا بمر الظهران، فجاءهم من أجابهم من سُليم مدداً لهم، فصاروا فى جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب . وذكر ابن إسحاق بأسانيده أن عدتهم عشرة آلاف قال: وكان المسلمون ثلاثة آلاف)(١) .

٢ـ حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ،عن عمه موسى بن عُقبة قال: (خرج أبو سفيان وقريش ومن اتبعهم من مشركى العرب معهم حيى بن أخطب واستمدوا عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فأقبل بمن أطاعه من غطفان وبنو أبى الحقيق كنانة بن الربيع سعى فى غطفان وحضهم على القتال على أن لهم نصف تمر خيبر. فزعموا أن الحارث ابن عوف أخا بنى مرة قال لعيينة بن بدر وغطفان: يا قوم أطيعونى، ودعوا قتال هذا الرجل وخلوا بينه وبين عدوه من العرب، فغلب عليهم الشيطان، وقطع أعناقهم الطمع، فانقادوا لأمر عيينة بن بدر على قتال رسول الله ﷺ وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بنى أسد وهما حليفان أسد وغطفان، وكتبت قريش إلى رجال من بنى سُلَيم أشراف بينهم وبينهم أرحام فأقبل أبو الأعور فيمن اتبعه من بنى سليم مدداً لقريش. فخرج أبو سفيان فى آخر السنتين فيمن اتبعه من قبائل العرب، وأبو الأعور فيمن اتبعه من بنى سليم ،وعيينة بن بدر فى جمع عظيم؛ فهم الذين سماهم الله الأحزاب) (٢) .

٣ـ قال ابن إسحاق: ثم كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس. . .وقالوا:إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى وحيى بن أخطب النضرى وكنانة بن أبى الحقيق النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٣٩٣ .

(٢) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٣/ ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ،وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؛ فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ (١) وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (أى النبوة) ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾(٢) .

فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واستعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه. وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

قال ابن إسحاق:(فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المُرى فى بنى مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع) (٣) .

* * *

١ـ لقد كانت عبقرية التخطيط فى هذه الغزوة لأبى جهل يهود ـ حيى بن أخطب، واسم أبى جهل هذا أطلقه عليه المسلم العظيم محمد بن كعب القرظى رضي الله عنه إذ يقول فيه كان حيى بن أخطب رجلاً مشؤوماً ، هو شأم بنى النضير قومه ، وشأم بنى قريظة حتى قتلوا ، وكان يحب الرئاسة والشرف عليهم. وله فى قريش شَبَهٌ (أبو جهل بن هشام) (٤) .

وأين كان حيي ومن معه حتى جاؤوا إلى مكة؟

---

(١) قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ قال الشيخ الفقيه أبو ذر: الجبت والطاغوت كل ما يعبد من دون الله تعالى. وقال بعضهم: الجبت الكاهن، وقيل : الساحر، وقال الفراء: الجبت حيى بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف.

(٢) الآيات من سورة النساء / ٥١ – ٥٥ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٨ – ٣٠٠ .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٤٥٥ .

يقول ابن إسحاق على أعقاب غزوة بنى النضير :(فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر: سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها، دان لهم أهلها) [1] .

فقد كان مركز تجمعهم خيبر. وانضم إليهم أبو عامر الفاسق الذى لم يستشف غِلُّه وغيظه فى أحد حين خذله قومه ولم يجيبوه. وانضم إليهم سادة يهود بنى وائل .

يقول محمد بن عمر:

لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير سِرًّهم، وقريظة من ولد الكاهن من بنى هارون ـ فلما قدموا خيبر خرج حيى بن أخطب وكنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلى من الأوس من بنى حفظة، وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ،فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً. قال أبو سفيان: هذا الذى أقدمكم ونزعكم؟ قالوا: نعم ، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله. قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً . أحب الناس إلينا من أعاننا على حرب محمد. قال النفر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل، ففعلوا وتحالفوا على ذلك وتعاقدوا .

إن الهدف الذى يشفى غيظ قلوب اليهود محدداً ولا يقبل التعدد، إنه الاستئصال التام من الجذور (نحن معكم حتى نستأصل محمداً) وهو هدف لم يتغير ولم ولن يتبدل على مر العصور. وهذا الهدف قد أعلنه حيي بن أخطب مذ لحظة وصول رسول الله ﷺ المدينة. حيث قال له أخوه أبو ياسر:

ـ فما تقول فيه؟

ـ قال: عداوته والله ما بقيت.

والجانب الثانى العجيب هو هذه الجرأة السافرة على الله والوقاحة فى عملية تأكيد التحالف على الحرب، هو أن يخرج خمسون من بطون مكة مع هؤلاء البضعة عشر من اليهود ويدخلوا تحت أستار الكعبة متعاهدين متواثقين ـ وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة ـ على حرب محمد ﷺ.

وحيي بن أخطب طاغوت يهود يعلم أن محمداً حق. منذ لحظة وصوله المدينة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٦٩ .

حيث قال له أخوه أبو ياسر:

ـ أهو؟

ـ هو هو.

إنه هو هو الذى فى كتبهم وأسفارهم ،وهو الذى بشر به موسى وعيسى، وهو الذى يتوكفون قدومه، وهو النبى الحق المرسل من عند الله، ومع ذلك يجرؤ أن يقود هؤلاء الطواغيت الصغار معه، وأن يقود قريش لحرب رسول الله ﷺ، بل يجرؤ أكثر من ذلك أن يدخل تحت أستار الكعبة، ويلصق كبده فيها معاهداً قريشاً على حرب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام. وهو يعلم أن محمداً حق، أما يخشى أن يمسخه الله وحزبه قردة وخنازير كما مسخ أجداده. ولكن حب الزعامة يعمى ويصم.

ونقف عند هذا المشهد من جانب آخر، فالحلف بين اليهود أهل الكتاب الأول، وبين عبدة الأصنام والأوثان على حرب النبى الذى بشرت به كتب اليهود. وهو حلف يحرص على ستار القداسة، وستار الشرعية ولا مكان لتغليظ العهد إلا عند الكعبة، لقد اكتفى أبو جهل قريش بالأخذ بحلق الكعبة، على أن يدعو قائلاً اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة.

أما أبو جهل يهود فقد تجاوز أبا جهل قريش، ودعا إلى الالتصاق بالكعبة مباشرة لتوثيق الحلف والحرب ضد رسول الله ﷺ. فهل هناك أقدس من هذه الراية ؟

واهتبلها أبو سفيان فرصته، ليأخذها فتوى من الأحبار والرهبان الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

قال: يا معشر اليهود ،أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد، ديننا خير أم دين محمد؟ فنحن عمار البيت، وننحر الكوم، ونسقى الحجيج، ونعبد الأصنام. قالوا: اللهم أنتم أولى بالحق منه، إنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن وتعبدون ما كان عليه آباؤكم. فأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (١) .

ولابد أن يشعر حملة العقيدة، أن الحرب المسعورة التى يشنها عليهم الطواغيت من اليهود ومن الحاكمين كثيراً ما تتخفى تحت أستار الدين، وكثيرا ما تنطلق باسمه، وكثيراً ما تحمل شعاراته، وهذا من أوقح النماذج التى تبرز ذلك. فهم يشهدون لعبدة الأوثان والأصنام بالهدى، وهم حملة الكتاب الأول، وهم وراث دين الله فى الأرض. وقادهم

(١) النساء ١ / ٥١ .

الصراع على السلطة إلى هذه المواقع الآثمة.

والمبدأ الثالث الذى يبرز أمامنا فى هذا الحلف الدنس هو الذى قرره أبو سفيان: أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد، فهى المفاصلة الكاملة بين الفريقين والحزبين، حزب محمد وصحبه وحلفائه، وحزب الشيطان والطاغوت . وعلى رأسه حيي وبنو الحقيق، وأبو عامر الفاسق وأبو سفيان بن حرب.

ثلاثة مبادئ خارجة من إطار الزمان والمكان ما أحوج المؤمنين إلى أن يعوها :

المبدأ الأول : هدف أعداء الإسلام الاستئصال الشامل من الجذور :(نحن معكم حتى نستأصل محمداً ،ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل) .

المبدأ الثاني: الرايات الدينية المزيفة التى تحارب الإسلام ودعاته باسم الدين وباسم الإسلام وبشعارات الإسلام (فالعهد بين أستار الكعبة، وعلى رأسه أحبار يهود وورثة الحنيفية ودين إسماعيل كما يزعمون)

المبدأ الثالث: المفاصلة التامة بين الدعاة والطغاة (أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد) .

٢ـ ولم تنته مهمة اليهود وزعيمهم حيي فى دفع قريش للمواجهة، بل كان تخطيطهم أعمق من ذلك وأبعد من ذلك. فقريش لن تستطيع أن تجند لحرب محمد ﷺ أكثر من أحابيشها وأكثر أقرب الناس رحماً بها .

وقد بلغت قوتها أن تبرز ثلاثة آلاف رجل لغزو المدينة، وقد أثبتت غزوة أحد أن هذا الرقم لا يكفى لاستئصال الإسلام من المدينة والمسلمين، إذ فشل فى تحقيق هذا الهدف قبل عامين، فلا بد من البحث عن حلفاء آخرين ينضمون للساحة، فمضت اليهود بزعامة كبير مجرميهم حيى إلى قبيلة غطفان كبرى القبائل العربية آنذاك أو من كبرياتها، وراحوا يدعونهم إلى حرب محمد ﷺ وإذا كانت قريش ذات هدف فى حرب النبى ﷺ؛لتحافظ على كيانها وعلى وجودها. أما غطفان فلا تفهم إلا فى لغة المصلحة، والغنيمة والمال. واليهود بطبيعتهم المادية الحسية الغليظة وبأنانيتهم البغيضة يستطيعون التفاهم مع أمثال هذه النوعيات، ومن أجل هذا عرضوا نصف ثمار تمر خيبر على غطفان على الرواية الأولى، وتمر خيبر كله لعام كامل كما فى رواية الواقدى مقابل دخولهم الحرب ضد رسول الله ﷺ، وكان أسرع الناس استجابة لهذا النداء اليهودى من سماه رسول الله ﷺ (الأحمق المطاع) فى قومه عيينة بن حصن.

وعيينة بن حصن هذا هو وارث أمجاد أبيه وجده حذيفة بن بدر الذى طار صيته

فى حرب داحس والغبراء فهو الذى أشعل الحرب بين عبس وذبيان ووضع فى وجه داحس من صدَّها أثناء السباق فسُبِقت. فكلاهما عريق فى البغى والجاهلية.

يقول محمد بن عمر:

فخرجت اليهود حتى أتت غطفان، وأخذت قريش فى الجهاد، وسيرت فى العرب تدعوهم إلى نصرها وألَّبوا أحابيشهم ومن تبعهم ، ثم خرجت اليهود حتى جاؤوا بنى سُلَيم فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش، ثم ساروا فى غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا فأنعمت بذلك غطفان، فلم يكن أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن.

وإذا كان عيينة بن حصن موغر الصدر على المسلمين، وقد سبق أن وقعت بعض المعارك الجانبية بينه وبين المسلمين، فإن الحارث بن عوف المرى الغطفانى كان له موقف آخر، أقرب إلى الحكمة والتعقل منه إلى الضغينة والحقد، ولم يكن يرى الاصطدام مع المسلمين، خصوصاً والتقارب كبير بين ديار الأوس والخزرج وديار غطفان، ولا معنى لفتح جبهة قريبة عليهم من المسلمين.

لقد كان الحارث بن عوف زعيماً مرموقاً فى بنى غطفان وهو المشهور بحكمته فى الجاهلية قبل الإسلام . فإذا كان حصن بن حذيفة بطل حرب داحس والغبراء مع أبيه حذيفة بن بدر وهما أبوا عيينة فإن الحارث بن عوف هو بطل المصالحة وحقن الدماء فيها، وهذا دوره بين الفريقين عبس وذبيان فساروا حتى نزلوا (بنو عبس) على الحارث ابن عوف بن أبى حارثة المرى ليلاً ـ وكان عند حصن بن حذيفة (والد عيينة). فلما عاد قيل له: هؤلاء أضيافك ينتظرونك ، قال: بل أنا ضيفهم، فحياهم وهشَّ إليهم. وقال: من القوم؟ قالوا: إخوانك من بنى عبس، وذكروا ما لقوا وأقروا بالذنب فقال: نعم وكرامة لكم: أكلم حصن بن حذيفة، وعاد إليه، فقيل لحصن: هذا أبو أسماء (الحارث) قال: ما ورد إلا لأمر. فدخل الحارث فقال: طرقتُ فى حاجة، قال: أُعطيتَها، قال: بنو عبس وجدت وفودهم فى منزلى. قال حصن: صالحوا قومكم، أما أنا فلا أدى ولا أتدى، قد قتل آبائى وعمومتى عشر من بنى عبس.

وفى ذلك قال زهير بن أبى سلمى معلقته يمدح الحارث بن عوف، وهرِم بن سنان ويذكر هذه الحرب ويقول :

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما ... تنزل ما بين العشيرين بالدم
فأقت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وُجِدتما ... على كل حالٍ من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عِطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروفٍ من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معدٍ هدينما ومن يستبح كنزاً من المجد يُعظم(١)

فحكيم غطفان الحارث بن عوف المرى قال:(تفرقوا فى بلادكم ولا تسيروا إلى محمد. فإنى أرى أن محمداً أمره ظاهر، لو ناوأه مَنْ بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة) .

ولكن رأى عيينة فى الحرب كان أقوى، فلم يكن له خيار من متابعة قومه، كما تابع عتبة بن ربيعة قومه من قبل، وكان أول قتلى بدر من المشركين. بعد ما سعى فى الصلح وحمل دية حليفه عامر بن الحضرمى.

وهذه صورة الجيش الذى تحرك نحو المدينة :

(وخرجت قريش ومن تبعها من أحابيشها أربعة آلاف، وعقدوا اللواء فى دار الندوة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس، وكان معهم من الظهر ألف بعير وخمسمائة بعير، وأقبلت سُلَيم فلاقوهم بمر الظهران يقودها سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبى الأعور الذى كان مع معاوية بن أبى سفيان بصفِّين، وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب، وخرجت بنو أسد وقائدها طلحة بن خويلد الأسدى، وخرجت بنو فزارة وأوعبت،وهم ألف يقودهم عيينة بن حصن، وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رعيلة وهم أربعمائة لم توعب أشجع، وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بنو مرة وهم أربعمائة.

قالوا: وكان القوم جميعاً الذين وافوا الخندق من قريش وسُلَيم وغطفان وأسد عشرة آلاف، فهى عساكر ثلاثة، وعناج الأمر إلى أبى سفيان) .

أما بنو سُلَيم فلا عجب أن تنضم إلى المعركة، لسببين: أولهما: الثارات التى بينها وبين محمد ﷺ ، وهى التى غدرت بالمسلمين فى بئر معونة، واستجابت لعامر بن الطفيل فى قتل شهداء بئر معونة. وثانيهما : للحلف القائم بين سُلَيم وقريش فحلف سيدها سفيان بن عبد شمس هو مع حرب بن أمية والد أبى سفيان القائد الأعلى لجيش المشركين، والذى انتهت إليه زعامة قريش. وللحلف دوره الكبير فى الحياة العربية، ومن أجل هذا كان موقف سُلَيم واضحاً ابتداءً حين قالوا لليهود ووعدوهم أن يخرجوا

(١) أيام العرب لمحمد جاد المولى بك وزملائه : ٢٦٩ ـ ٢٧٣ مقتطفات .

إذا سارت قريش، ولم يكونوا بحاجة إلى تمر خيبر ليخرجهم من مضاربهم نحو غزو المدينة .

وحين ننظر إلى الأعداد الضخمة التى اجتمعت نحو يثرب، نجد أن المجموع الكلى يختلف عن المجموع التفصيلى، فالمجموع الكلى هو عشرة آلاف، والمجموع التفصيلى هو أربعة آلاف من قريش وحلفائها وأحابيشها، بزيادة ألف عن عدد غزوة أحد، وألف لسليم، ولغطفان ألفان تقريباً من فزارة وأشجع ومرة . فيكون العدد سبعة آلاف وهذا يعنى : أن قبيلة أسد الضخمة والتى تنافس غطفان قد حشدت ثلاثة آلاف حتى بلغ مجموع الأحزاب العتاة عشرة آلاف مقاتل، وأسد مثل غطفان سبق أن خاضت معارك جانبية ضد رسول الله ﷺ. وبين أسد وغطفان حلف واضح دائم حتى أنهما ليسميان الحليفين .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « غفار وأسلم ومزينة ومن كان من جهينة خير من الحليفين أسد وغطفان وهوازن وتميم دبر لهم فإنهم أهل الخيل »(١) .

وهكذا اجتمعت الأحزاب من كل حدب وصوب على حرب الله ورسوله.

ولكن هل يكفى أن يشارك اليهود ببضعة عشر رجلاً منهم ويقودوا هذه الآلاف المؤلفة للموت؟ وحيى بن أخطب هل يكتفى بهذه المشاركات الوجدانية دون أن يخرج باليهود فى أتون الحرب؟ إنه لن يستطيع الآن أن يقود أهل خيبر لهذه المواجهة، ولكن لا يزال فى المدينة فصيل كبير من اليهود يمكن أن يشاركوا فى الحرب، هم بنو قريظة. لكنهم حلفاء محمد ﷺ. فليزج بكل ما يملك من طاقة لتدمير هذا الحلف من الداخل، ولو نجح بذلك لتم تطويق محمد والقضاء عليه كما قال جل شأنه:

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (٢).

وكان حيي بن أخطب يقول لأبى سفيان بن حرب ولقريش فى مسيره معهم: إن قومى قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافرة، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً. فلما دنوا قال أبو سفيان لحيى بن أخطب :ائت قومك، حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد. فذهب حيي حتى أتى بنى قريظة، وكان رسول الله ﷺ حين قدم صالح بنى قريظة والنضير ومن بالمدينة من اليهود ألا يكونوا معه ولا عليه . ويقال :صالحهم على

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد برقم (١٤٧٢) ص ٨١٢ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن .
(٢) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .

أن ينصروه ممن دهمه منهم، ويُقيموا على معاقلهم الأولى التى بين الأوس والخزرج .

فكان محمد بن كعب القرظي يحدث يقول:

(كان حيي بن أخطب رجلاً مشؤوماً؛ هو شأم بنى النضير قومه، وشأم قريظة حتى قتلوا، وكان يحب الرئاسة والشرف عليهم، وله فى قريش شبه أبو جهل بن هشام. فلما أتى حيى إلى بنى قريظة كرهت بنو قريظة دخوله دارهم فكان أول من لقيه غزّال ابن سموأل فقال له حيى: قد جئتك بما تستريح به من محمد، هذه قريش قد حلّت وادى العقيق، وغطفان بالزغابة، قال غزّال: جئتنا والله بذل الدهر! قال حيي: لا تقل هذا! ثم وجّه إلى باب كعب بن أسد فدّق عليه، فعرفه كعب وقال: ما أصنع بدخول حيى علىّ، رجل مشؤوم قد شأم قومه، وهو الآن يدعونى إلى نقض العهد! قال: فدقّ عليه فقال كعب: إنك امرؤ مشؤوم قد شأمت قومك حتى أهلكتهم، فارجع فإنك إنما تريد هلاكى وهلاك قومى .فأبى أن يرجع، فقال كعب: يا حيي ، إنى عاقدت محمداً وعاهدته، فلم نر منه إلا صدقاً . والله ما أخفر لنا ذمة، ولا هتك لنا ستراً، ولقد أحسن جوارنا. فقال حيي: ويحك إنى جئتك ببحر طام وبعز الدهر . جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وجئتك بكنانة حتى أنزلتهم برومة، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة إلى نقمى، قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل، والعدد عشرة آلاف، والخيل ألف فرس، وسلاح كثير، ومحمد لا يفلت فى فورنا هذا، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألاّ يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: ويحك! جئتنى والله بذل الدهر، وبسحاب يبرق ويرعد ليس فيه شيء، وأنا فى بحر لُجّى، لا أقدر على أن أريم[1]دارى، وما لى معى والصبيان والنساء، فارجع عنى، فإنه لا حاجة لى فيما جئتنى به.

قال حيى: ويحك أكلمك. قال كعب: ما أنا بفاعل. قال: والله ما أغلقت دونى إلا لجشيشتك[2] أن آكل معك منها، فلك علىّ أن لا أدخل يدى فيها. قال: فأحفظه[3] ففتح الباب، فدخل عليه، فلم يزل يفتله في الذروة والغارب[4]حتى لان له. فقال: ارجع عنى يومك هذا حتى أشاور رؤساء اليهود. فقال: قد جعلوا العهد والعقد إليك فأنت ترى لهم. وجعل يلح عليه حتى فتله عن رأيه فقال كعب بن أسد: يا حيى ،قد دخلتَ فيما ترى كارهاً له، وأنا أخشى ألاّ يُقتل محمد، وتنصرف قريش إلى بلادها، وترجع أنت إلى أهلك، وأبقى فى عقر الدار، وأُقتلُ ومن معى. فقال حيى: لك ما

(١) أريم : أغادر .

(٢) الجشيشة : أن تطحن الحنطة ثم تلقى فى القِدر ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ .

(٣) أحفظه : أغضله وأثار حفيظته .

(٤) الذروة والغارب : أعلى ظهر البعير ،أى لم يزل يخدعه كما يُخدع البعير إذا كان نافراً .

فى التوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سيناء، لئن لم يقتل محمد فى هذه الفورة، ورجعت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا محمداً، لأدخلنّ معك حصنك، حتى يصيبنى ما أصابك. فنقض كعب العهد الذى كان بينه وبين رسول الله ﷺ. ودعا حيي بالكتاب الذى كتب رسول الله ﷺ بينهم فشقَّه حيي. فلما شقَّه حيي علم أن الأمر قد لحم وفسد، فخرج على بنى قريظة، وهم حلَق حول منزل كعب بن أسد فخبَّرهم الخبر. يقول الزبير بن باطا: وإهلاك يهود تُولّى قريش وغطفان، ويتركوننا فى عقر دارنا وأموالنا وذرارينا ولا قوة لنا بمحمد ! ما بات يهودى على حزم قط، ولا قامت يهودية بيثرب أبدا. ثم أرسل كعب إلى نفر من رؤساء اليهود خمسة؛ الزبير بن باطا، ونباش ابن قيس، وغزال بن سموأل، وعقبة بن زيد، وكعب بن زيد، فخبَّرهم خبر حيي، وما أعطاه حيي أن يرجع إليه فيدخل معه فيصيبه ما أصابه. يقول الزبير بن باطا: وما حاجتك أن تُقتل ويُقتل معك حيي! قال: فأسكت كعب، وقال القوم: نحن نكره أن نُزرى برأيك أو نخالفك، وحيي من قد عرفت شؤمه. وندم كعب بن أسد على ما صنع من نقض العهد، ولحم الأمر لما أراد الله من حربهم وهلاكهم)[(١)] .

هؤلاء هم الأحزاب، وفى الميزان البشرى يجب أن تسقط المدينة فى أقل من أربع وعشرين ساعة حيث يطبق عليهم العدو من كل ناحية، أو تستسلم دون قتال، ولا نبالغ إذا قلنا : إن أعظم محنة عانى منها المسلمون فى التاريخ الإسلامى كله هى هذه المحنة. وهنا تبدو عظمة سيد ولد آدم كيف واجه المحنة، وبأى صف واجهه، وما هو دور التربية التى تبدو ثمارها اليوم، هذا ما نشهده فى الفصل القادم بإذن الله.

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤٥٥ ـ ٤٥٧ .

الفصل الثانى
القائد الأعظم

وهنا نشهد عظمة القائد الذى ينقذ أمته من أعنف الأعاصير فى عبقرية التخطيط والمواجهة، ويواجه الأعداء المنقضين عليه من كل جانب وذلك كله فى أقل قدر ممكن من الخسائر .

١ـ الاستخبارات:

وقائد عظيم بدون استخبارات هو أعجز من يحقق أى نصر، فكيف بلغ أمر هذا الجيش اللجب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؟!

(فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة، خرج ركب من خزاعة إلى النبى ﷺ، فأخبروه بفصول قريش، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً)(١) .

(وأما ما كان من أمر سيدنا رسول الله ﷺ فإن خزاعة عندما تهيأت قريش للخروج أتى ركبهم رسول الله ﷺ فى أربع ليالٍ حتى أخبروه. فندب الناس، وأخبرهم خبر عدوهم)(٢) .

(. . . إلى أن جاء عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ، بلغنى أنَّ بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وقال: « من نبعث يعلم لنا علمهم ؟ » فقال عمر: الزبير بن العوام،فكان أول الناس بعث رسول الله ﷺ الزبير ابن العوام، فقال:« اذهب إلى بنى قريظة » ، فذهب الزبير ينظر. ثم رجع فقال: يا رسول الله ، رأيتهم يصلحون حصونهم ، ويدرِّبون طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم. فذلك حين قال رسول الله ﷺ: « إن لكل نبى حوارياً وحواريّ الزبير وابن عمتى ») (٣) .

(وعن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً يقول: قال رسول الله ﷺ: « من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا. ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال :

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٤٤ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٥١٤ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤٥٧ .

«من يأتينا بخبر القوم؟ » فقال الزبير: أنا، ثم قال: «إن لكل نبى حوارياً، وإن حوارىّ الزبير »)[1] .

(وعن عبد الله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبى سلمة مع النساء فى أطم حسان، فنظرت فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف، قال: رأيتنى يا بنى؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال : « من يأت بنى قريظة ، فيأتينى بخبرهم » فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبى وأمى، أخرجه الشيخان وقال الترمذى: حديث حسن)[2] .

فقد غدت صورة العدو واضحة جلية أمام ناظرى الرسول ﷺ، وقد قام بعدها عليه الصلاة والسلام بخطوة لاحقة للتثبيت من الأمر أكثر. فلعل المواجهة تجلى الموقف أكثر. وتلقى أضواءً على الواقع النفسى والمادى للعدو أكثر.

(روى البزار عن مالك بن وهب الخزاعى أن رسول الله ﷺ بعث سليطاً وسفيان ابن عوف الأسلمى طليعة يوم الأحزاب، حتى إذا كان بالبيداء التفت عليهما خيل لأبى سفيان. فقاتلا حتى قتلا) [3] .

وفى مغازى موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهرى قال:

(... وبعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أخا بنى عبد الأشهل، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوّات بن جبير إلى بنى قريظة ليكلموهم، ويناشدوهم فى حلفهم، فانطلقوا حتى أتوا باب حصن بنى قريظة استفتحوا ففُتح لهم فدخلوا عليهم، فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف. فقالوا: الآن وقد كسروا جناحنا ـ يريدون بجناحهم المكسورة بنى النضير ـ ثم أخرجوهم وشتموا النبى ﷺ شتماً فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه، فقال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة: إنا والله ما جئنا لهذا ولَمَا بيننا وبينهم أكثر من المشاتمة. ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير، أو أمَرَّ منه، فقالوا: أكلت أير أبيك. فقال: غير هذا من القول كان أجمل وأحسن منه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ حين يئسوا مما عندهم. فعرف رسول الله ﷺ فى وجوههم الكراهية لما جاؤوا به، فقال: « ما وراءكم ؟ » فقالوا: أتيناك من عند أخابث خلق الله، وأعداءُ

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى برقم (٤١١٣) ج ٧/ ٤٠٦ .
(٢) المواهب اللدنية للقسطلانى ١/ ١١٢ .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٥١٤

لله عز وجل ولرسوله، وأخبروه بالذى قالوا؛ فأمرهم رسول الله ﷺ بكتمان خبرهم)[1] .

۲ـ الشورى :

(فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبى ﷺ فأخبروه بفصول قريش، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً، فذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم فى أمرهم بالجدّ والجهاد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله، وشاورهم رسول الله ﷺ، وكان رسول الله يكثر مشاورتهم فى الحرب ، فقال: « أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها ونخندقها علينا؟ أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل؟ » فاختلفوا فقالت طائفة: نكون مما يلى بعاث إلى ثنية الوداع إلى الجرف. فقال قائل: ندع المدينة خلوفاً ! فقال سلمان: يا رسول الله ،إنا إذ كنا وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبى ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا فكره المسلمون الخروج، وأحبوا الثبات فى المدينة)[2].

إن تجربة أحد علّمت الأمة المسلمة دروساً عظاماً، ومن أهم هذه الدروس أن تدع قيادة المعركة واستراتيجيتها لكبار القادة، وعلى رأسهم المصطفى ﷺ. ولكن الدرس الأهم الذى علمهم إياه القرآن أن حق إبداء الرأى مصون والشورى مهمتها أن تستمع لكل الآراء ولا حجر على رأى أحد .

وكان رأى سلمان تأكيدا للرأى الذى طرحه سيد القادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ قال: « أنبرز لهم من المدينة أم نكون فيها ونخندقها علينا ».

وكان رأى سلمان الفارسى رضي الله عنه اعتماداً على خبرته فى حرب الفرس لغيرهم ـ والفرس عريقون فى الحرب والمواجهة ـ أن اختار رأى البقاء فى المدينة، وإقامة الخنادق حولها، قال: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس، وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين.

وهذه خبرة جديدة لم يكن للعرب عهد بها، فقد كان جوابهم يوم أحد كما قال ابن أبى: (يا رسول الله ، كنا نقاتل فى الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى، ونجعل معهم الحجارة والله، لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا، ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام، ونقاتل بأسيافنا فى السكك) .

---

(۱) دلائل النبوة للبيهقى ۳/ ٤٠٣ .

(۲) المغازى للإمام الواقدى ۲/ ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

فقتال المدن عندهم هو داخل المدينة وفى السكك، ومن فوق الصياصى والآطام، أما الحيلولة دون دخول العدو للمدينة بإقامة الخنادق والمتاريس، فهذا ما لم تعهده الحرب العربية آنذاك.

والخبرة العربية القديمة فى قتال المدن كما يقول ابن أبى: تحتاج إلى إعداد طويل وبطىء ، كما يقول: فربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا. ولكن عامل الوقت الآن هو أخطر العوامل، فما هى إلا أيام إلا وجيش العدو فى المدينة. فلابد من الاستفادة من عامل الوقت هذا فى اتخاذ القرار المناسب الذى تتغير نتيجة المعركة على ضوئه.

٣ـ العزيمة والتنفيذ :

إن قادة الأمم هم الذين يستطيعون مواجهة الأزمات باستغلال الطاقات والأوقات. فقد انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيام من انفصال قريش من مكة عن طريق وفد خزاعة حليفة النبى ﷺ. فلا بد من الاستفادة بأقصى ما يمكن بعد اتخاذ القرار المناسب ليتم العمل قبل وصول قريش وحلفائها إلى المدينة. ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ** ﴾ (١) ..

وقد اتجه الرأى عند المسلمين جميعاً بالأخذ برأى سلمان الفارسى رضي الله عنه.

(فحدثنى أبو بكر بن أبى سبرة قال: حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن جهم؛ أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلعا (٢) خلف ظهره، ويخندق من المذاد(٣) إلى ذباب(٤) إلى راتج(٥).

فعمل يومئذ فى الخندق، وندب الناس، فخبَّرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم إلى سفح سلع، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم فى الخندق لينشِّط المسلمين وعملوا واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرازين ومكاتل يحفرون به الخندق، وهم يومئذ سلم للنبى ﷺ يكرهون قدوم قريش، ووكَّل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه،

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .
(٢) سلع: الجبل المعروف الذى بسوق المدينة.
(٣) المذاد: اسم أطم لبنى حرام من بنى سلمة غربى مسجد الفتح.
(٤) ذباب: أكمة صغيرة يفصل بينها وبين سلع ثنية الوداع.
(٥) راتج: الجبل الذى إلى جنب جبل بنى عبيد غربى بطحان.

فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بنى عبيد، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان) [1] .

(ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، وكان حفره ستة أيام وحصنه، ونزل رسول الله ﷺ دبر سلع، فجعله خلف ظهره، والخندق أمامه، وكان عسكره هناك، وضرب قبة من أدم وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذى بأصل الجبل جبل الأحزاب . . .)[2].

لقد انتهت غزوة الخندق قبل أن تبدأ، فقد صعق المشركون لهذه الخطة الحربية التى لم يعهدوا مثيلاً لها فى تاريخهم ،ولابد أن نشير من جهة ثانية إلى أن المصطفى ﷺ يقطف الآن ثمار التربية الخالدة التى أنشأ عليها هذا الجيل الفريد فى التاريخ. فاتخاذ القرار خطوة حاسمة ولا شك، لكن تنفيذ القرار والمتابعة الحية المستمرة له هى أخطر من القرار نفسه، فكان عليه الصلاة والسلام يرعى بشخصه الكريم ، ويوزع المسؤوليات كاملة، ويتابع التنفيذ خطوة خطوة ، حتى قام ذلك الخندق العظيم الذى حطم على حجارته هجوم الأحزاب كلها .

٤ـ القدوة العظمى:

وما كان يمكن أن يتم الحفر بهذه السرعة، وبهذه الإمكانيات الهائلة، لو لم يكن القائد الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ الركن الأساسى فى التنفيذ ليس تشريف الحضور فقط، وليس قطع الشريط فقط، وليس المرور على العمال فقط، بل هو سيد العمال ـ عليه الصلاة والسلام.

عن حميد قال: سمعت أنساً رضي الله عنه يقول:

خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من نصب وجوع قال:

« اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة »

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا [3]

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبرَّ بطنه يقول :

«والله لولا الله ما اهتدينا   ولا تصدَّقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا   وثبِّت الأقدام إن لاقينا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٤٥ ، ٤٤٦ .   (٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٥٤ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ /٣٩٢ برقم (٤٠٩٩) .

إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا»
ويرفع بها صوته: أبينا أبينا) (١) .

وفى رواية عن البراء قال: (لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب يقول...... ثم يمد صوته بآخرها)(٢) .

وحدثنى ابن أبى سبرة، عن صالح بن محمد بن زائدة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبى واقد الليثى ، قال: رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، فأجاز من أجاز، وردَّ من رد وكان الغلمان يعملون معه، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم، ولكنه لما لحم الأمر، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذرارى، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب فى المكتل، ولقد رأيته يوماً بُلِغَ منه، فجلس رسول الله ﷺ، ثم اتكأ على حجر على شقِّه الأيسر، فذهب به النوم فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه، وأنا قربت منه، ففزع ووثب فقال: « ألا أفزعتمونى! » فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة
اللهم العن عَضَلاً والقارة فهم كلَّفونى أنقل الحجارة(٣)

فكان ممن أجاز رسول الله ﷺ يومئذ ابن عمر وهو ابن خمس عشرة ، وزيد بن ثابت وهو ابن خمس عشرة، والبراء بن عازب وهو ابن خمس عشرة.

أى تربية فى البناء تفوق هذه التربية، فلا داعى أن يتكلم أو يصدر الأوامر، ويلح ويهدد ويتوعد من ينكل عن العمل بالسجن أو الموت، أو اتهامه بالخيانة العظمى لإعدامه، حيث سهَّل دخول العدو للمدينة. إنما كان يكفى سيد ولد آدم أن يكون بين الغبار والحجارة يحمل ويحفر ويقطع وينشر مع صحبه، وحين يرى من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان رسوله الحبيب، وقد أغبر بطنه وعلاه التراب، يغرف بالمسحاة التراب، ويضرب مرة بالمعول ، ومرة يحمل التراب فى المكتل، هل يمكن أن يتردد لحظة، أو يتلكأ لحظة عن العمل إلا أن يكون منافقاً ،مغموصاً عليه فى النفاق.

(١، ٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٣٩٩ ، ٤٠٠ برقم (٤١٠٥ ، ٤١٠٦) .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤٥٣ .

إن كثيراً من الأمم قد اندثرت عندما جاءها مثل هذا الغزو، ولم تعد له عدته، واستبيحت بيضتها، وسبى نساؤها، وقتل رجالها، وإن عظمة القادة لتبرز فى أمثال هذه المحن، فتواجه الأعاصير بأعاصير أعظم، وتحبط الهجوم منذ لحظاته الأولى .

(فانتهوا ـ أى المشركون ـ إلى مكان قد أغفله المسلمون، فجعلوا يكرهون خيلهم ويقولون: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها. قالوا : إن معه رجلاً فارسياً، فهو الذى أشار عليهم بهذا. قالوا: فمن هناك إذن)[1] .

٥ ـ الروح المعنوية:

روى الإمام أحمد والشيخان وغيرهم عن جابر بن عبد الله، والإمام أحمد بسند جيد عن البراء بن عازب وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمرو بن عوف، والطبرانى بسند جيد عن ابن عباس، والبيهقى وأبو نُعيم من طريقين عن ابن شهاب، ومحمد بن عمر عن شيوخه، ومحمد بن إسحاق عن شيوخه :

(إن المسلمين عرض لهم فى بعض الخندق صخرة ـ وفى لفظ: كُدية عظيمة شديدة بيضاء مدوَّرة لا تأخذ فيها المعاول ـ فكسرت حديدهم، وشقَّت عليهم، وفى حديث عمرو بن عوف: أنها عرضت لسلمان ،وذكر محمد بن عمر أنها عرضت لعمر بن الخطاب، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ وهو فى قبة تُركية فقال: « أنا نازل » ثم قام وبطنه معصوب بحجر من الجوع، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذَواقاً، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح من ذلك الماء عليها، فيقول من حضرها: والذى بعثه بالحق إنها عادت كالكثيب المهيل ما ترد فأساً ولا مسحاة. فأخذ المعول من سلمان، وقال: « بسم الله » وضرب ضربة فكسر ثلثها، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن فأضاء ما بين لابتى المدينة، حتى كأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: « أعطيت مفاتيح اليمن، إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب » ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، وبرق منها برقة فخرج نور من قِبل الروم فأضاء ما بين لابتى المدينة ،فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: «أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحُمْرَ من مكانى الساعة »، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتى المدينة. فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: « أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلابِ من مكانى هذا وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا بالنصر » ، فاستسرَّ المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بأن وعدنا النصر

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٧٠ .

بعد الحصر، وجعل يصف لسلمان، فقال سلمان: صدقت يا رسول الله، هذه صفته، أشهد أنك رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ:

« هذه فتوح يفتحها الله تعالى بعدى يا سلمان، لتفتحن الشام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته وتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحد، وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى فلا كسرى بعده » .

قال سلمان: فكل هذا قد رأيت.

قال أبو هريرة ـ فيما رواه ابن إسحاق ـ حيث فتحت هذه الأمصار زمان عمر وزمان عثمان ومن بعده : افتحوا ما بدا لكم، فوالذى نفس أبى هريرة بيده، ما فتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله تعالى محمداً مفاتيحها قبل ذلك) (١) .

فهؤلاء المحاصرون الآن بما لا قبل لهم به من بنى قريظة وغطفان وقريش، قد يشتد عليهم الحصار، ويبادون جميعاً، وقد يتمكن الأحزاب من تجاوز الخندق فينقضون على المسلمين ويبيدونهم عن بكرة أبيهم. فليس عند المسلمين المؤن الكافية من الطعام، وقد يُقضى عليهم جوعاً وعطشاً، كل ذلك يمكن أن يقع. وقد لا يتمكنون من حفر الخندق، ويبادرهم المشركون قبل الانتهاء منه، فيكونوا جميعاً أسرى وسبايا وقتلى بأيديهم، كل هذا يمكن أن يقع. وقد بلغ الخوف مبلغه من المسلمين كما قال تعالى بأدق وصف وأروعه :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (٢) .

هذه الاحتمالات كلها واردة ويأتى هنا دور القيادة العظمى، التى ترفع المعنويات، وتعالج الرعب والخوف، وتواجه الزلزال الشديد. فإذا القائد المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم لا يذوقون ذواقاً منذ ثلاثة أيام، وهم يجهدون بالحفر، يستمعون إلى تباشير النصر. ليس الآن فقط، ولكنه النصر الممتد أقصى المشرق والمغرب، حتى ليسقط كسرى وقيصر ـ قادة الدنيا ـ بأيدى المسلمين، وتنهار اليمن والشام والعراق تحت سنابك خيلهم ، فأى تعبئة، ورفع للمشاعر تعدل هذه التعبئة، وتعادل هذه الثقة بموعود الله تعالى؟! وهم المحاصرون من فوقهم ومن أسفل منهم.

ومن المبشرات التى ترفع الروح المعنوية إلى الأوج ، حين بلغ رسول الله ﷺ غدر

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/٥١٩، ٥٢٠ . (٢) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .

بنى قريظة (فسلموا عليه وقالوا : عضل والقارة ، أى: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه.

فقال رسول الله ﷺ: « الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين » .

فى الوقت الذى يمكن فيه لقائد آخر أن يسلِّم بلده، ويعلن استسلامه أمام هذا التظاهر العظيم من أهل الأرض عليه، لكن التكبيرة والبشرى يأتيان فى أحلك الظروف وأشد حالات الهول .

ومن المبشرات كذلك والتى رسم بها رسول الله ﷺ خطا فى الأفق البعيد معلن فيه انتهاء مرحلة وابتداء مرحلة جديدة، وهى الانتقال منذ الآن من الدفاع للهجوم. ما رواه سليمان بن صرد قال : سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه:

« الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم ») (١).

٦ ـ المأدبة الربانية :

عن عبد الواحد بن أيمن ، عن أبيه قال:

(أتيت جابراً رضي الله عنه فقال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كُدية(٢) عرضت فى الخندق،فقال: « أنا نازل» ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً. فأخذ النبى ﷺ المِعول فضرب به فى الكدية، فعاد كثيباً أهيل أو أهيم (٣) ،فقلت: يا رسول الله ائذن لى إلى البيت . فقلت لامرأتى : رأيت بالنبى شيئاً ما كان فى ذلك من صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندى شعير وعَناق (٤) فذبحتُ العَناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم بالبُرمة (٥) ثم جئت النبى ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافىِّ (٦) قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيِّم ولى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: « كم هو»؟ فذكرت له، فقال: كثير طيِّب. قال: « قل لها :لا تنزع البُرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى» . فقال: « قوموا » ، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَنْ معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: « ادخلوا ولا تضاغطوا »، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمِرُ

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٠٥ برقم (٤١١٠) . (٢) الكُدية: القطعة الصلبة الصماء .

(٣) كثيباً أهيل أو أهيم: صارت رملاً يسيل ولا يتماسك . (٤) العَناق: الأنثى من المعز .

(٥) البُرمة: القدر .

(٦) الأثافى: الحجارة التى توضع عليها القِدر حتى تنضج .

البرمة والتنور إذ أخذ منه، ويقرِّب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا، وبقى بقية قال: « كلى هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة » [1].

وعن سعيد بن ميناء قال: (سمعت جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال: لما حفر الخندق رأيت بالنبى ﷺ خَمَصاً [2] شديداً، فانكفيت إلى امرأتى فقلتُ: هل عندك شيء؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً .فأخرجت إلىَّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهَيْمة داجن [3] فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى برمتها ثم ولَّيتُ إلى رسول الله ﷺ .فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهيمة وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبى ﷺ:« يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سوراً [4] فحيهلا بكم ». فقال رسول الله ﷺ: « لا تُنزلنَّ برمتكم ولا تخبزُن عجينكم حتى أجيء ». فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدُمُ القوم ، حتى جئت امرأتى فقالت: بك وبك، فقلتُ: قد فعلتُ الذى قلت، فأخرجت له عجيناً ، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: « ادع خابزة ، فلتخبز معى، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها» ،وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى[5] ، وإن عجيننا ليخبز كما هو)[6] .

إنه عليه ـ الصلاة والسلام ـ الذى يعد المسلمين بكنوز كسرى وقيصر. والذين استبشروا بموعود رسول الله ﷺ لهم، هو الذى يرون على يديه هذه المعجزات الخالدة. حيث يكفى طعام النفر القليل دون العَشَرة إلى طعام ألف من أصحابه وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا ليخبز كما هو، فهؤلاء أهل الله وأولياؤه. صبروا على الجوع ثلاثاً ما ذاقوا ذواقاً. فأعدَّ ـ الله تعالى ـ لهم هذه المأدبة الربانية، والضيافة الإلهية على يد عبده ورسوله محمد ﷺ، يتقوون بها على طاعة الله، وعلى العمل الشاق الدؤوب فى حفر الخندق « يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم » .

ويبقى الخير البشرى الذى يحس فيه العبد المؤمن بشعور رسوله ﷺ، وقد أصابه الجوع، وربط بطنه بالحجر، فيقوم بمأدبة تتناسب مع محمد ﷺ وخاصة أصحابه ليعلنها رسول الله ﷺ على الملأ كله :« يا أهل الخندق ،إن جابراً قد صنع لكم سوراً فحيهلا بكم» .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٣٩٥ برقم (٤١٠١) .
(٢) الخمص : خموص البطن من الجوع . (٣) بُهيمة داجن : سمينة .
(٤) سوراً : صنيعاً . (٥) لتغط كما هى : تغلى وتفور .
(٦) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٠٥ برقم (٤١٠١).

إنه جابر بن عبد الله ابن الشهيد العظيم عبد الله بن عمرو بن حرام، وجابر لم ينس بعد ما صنع ـ الله تعالى ـ له بدَين أبيه ، وما صنع له بجمله، يوم بارك الله به عنده حتى عاش أربعين عاماً ينعم ببركته.

وتطالعنا تلك المرأة اللبيبة العاقلة التى ساق لها جابر أهل الخندق. (قالت: هل سألك؟ قلت: نعم) .ويزيل الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ التعارض بين الروايتين ، هذه والتى تقول له بها :بك وبك ، فيقول:(فى هذا السياق اختصار وبيانه فى رواية يونس قال: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ وقلت: جاء الخلق على صاعٍ من شعير وعَناق ، فدخلت على امرأتى أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين. فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلتُ: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا. فكشفت عنى غما شديداً. فى الرواية التى تلى هذه : فجئت امرأتى فقالت: بك وبك ، فقلت : قد فعلتُ الذى قلتِ . . . ويجمع بينهما بأنها أوصته أولاً بأن يعلمه بالصورة، فلما قال لها : إنه جاء بالجميع ظنت أنه لم يعلمه فخاصمته فلما أعلمها أنه أعلمه سكن ما عندها لعلمها بإمكان خرق العادة، ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها. وقد وقع لها مع جابر فى قصة التمر أن جابراً أوصاها لما زارهم رسول الله ﷺ الا تكلمه، فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف نادته: يا رسول الله ،صلِّ علىَّ وعلى زوجى. فقال: « صلى الله عليك وعلى زوجك» . فعاتبها جابر ، فقالت له: أكنت تظن أن الله يورد رسوله بيتى ولا أسأله الدعاء. أخرجه أحمد بإسناد حسن فى حديث طويل) (١) .

والمأدبة الثانية : كانت مأدبة عمرة بنت رواحة ـ رضى الله عنها :

(وحدثنى سعيد بن ميناء أنه حُدِّث أن ابنة لبشير بن سعد قالت: دعتنى أمى عمرة بنت رواحة، فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بغذائهما. فانطلقت بها ،فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى فقال: « ما هذا معك؟ » قلتُ: تمر بعثت به أمى إلى أبى وخالى ،قال: «هاتيه»، فصببته فى كفَّىْ رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط، ثم دحا بالتمر عليه فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده : « اصرخ فى أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء»، فاجتمعوا فجعلوا يأكلون وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه:إنه ليسقط من أطراف الثوب) (٢).

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٣٩٨.

(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى ص ٢٨٦ .

ما أسعد هذا الجيل الذى شهد هذه المعجزات ، فيصبح الإيمان فى قلبه مثل الجبال الرواسى ، ويرتبط به مصيره بمصير قائده وحبيبه. وإن أطفال هذا الجيل هم أسعد الناس. فما تنقل لنا تفصيلات المعجزات فى الخندق، وتفصيل أخبارها إلا من أطفال هذا الجيل .

فهى عن جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وأمثالهم ممن كانوا ينبتون المنبت الحسن بين أحضان النبوة وعبيرها، وبنت بشير بن سعد، وابن عباس ، وابن عمر، ومعظم هؤلاء أتيح لهم أن يحضروا المعركة للمرة الأولى فى الخندق. ويحدثونا بذاكرتهم الوقادة بما شهدوا ويشهدون من عظمة النبوة ومعجزاتها وخيراتها.

لقد كنا صغاراً وكان يسلب لُبَّنا خطيب مفوه، أو داعية مؤثر. فيسيطر على تفكيرنا وجوارحنا، فكيف بهذا الجيل أبنائه وشبابه ونسائه،وهم يرون سيد ولد آدم بين ظهرانيهم يعلم جاهلهم ، ويطعم جائعهم ، ويمدهم بنور القرآن كل يوم بما يوحى الله تعالى إليه ، يعمل معهم ، ويحفر معهم ، ويحمل التراب على كتفه ، ويربط بطنه من الجوع ، ثم يدعوهم إلى تميرات فإذا هن طعام لأهل الخندق، ويدعوهم إلى عَناق وصاع من شعير، فإذا هو يشبع الألف من العاملين المجاهدين فى حفر الخندق، كيف يعيش هذا الجيل بهذا النبى العظيم ؟ وكيف يتلقى منه؟ وكيف يقتدى به ؟ وكيف يتربى على يديه ؟

إننا مهما تحدثنا عن هذا الجانب أو غيره فنحن أعجز من أن نصف، وأعجز من أن نحس، وأعجز من أن نسعد.

إنما نحاول أن نتلمس وأن نعرف وهيهات هيهات:

إنما مثلوا صفاتك للناس   كما مثل النجوم الماء

٧ـ المتابعة الدؤوبة لتنفيذ القرار :

فليس القائد هو الذى يصدر قراره ويمضى، ولا يدرى ما هو واقع هذا القرار فى عالم التنفيذ، إنما القائد هو الذى يمضى وقته ليلاً نهاراً ساهراً على تنفيذ قراره.

لقد تمت عملية حفر الخندق بأعلى مستوى من التنفيذ والإنجاز، إلا مكاناً واحداً ضيقاً. وثلمة كان يمكن أن ينفذ منها العدو، وذلك إما لخلل فى التنفيذ، أو لصعوبة فى الأرض قاسية حالت دون الاتساع المطلوب، ومنها كان الفوارس يقتحمون الخندق، ويدخلون الأرض الإسلامية. فكيف كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعيش بأعصابه مع

هذه الثلمة أو هذه الثغرة؟!

تقول عائشة ـ رضى الله عنها :

لقد رأيت لسعد بن أبى وقاص ليلة ونحن بالخندق لا أزال أحبه أبداً. قالت: كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلمة فى الخندق يحرسها، حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته فى حضنى، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة يحرسها، ويقول: «ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها». فبينا رسول الله ﷺ فى حضنى قد دفئ وهو يقول: «ليت رجلاً صالحاً يحرسنى». قالت: إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقعة الحديد، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» فقال: سعد بن أبى وقاص. قال: «عليك بهذه الثلمة فاحرسها». قالت: ونام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه) (1) .

ورسول الله ﷺ هو بشخصه يحرس الثلمة، ويترك زوجه الحبيب بنت الرابعة عشرة ليمضى إلى محرسه. وعندما سمع صوت قعقعة سعد لم يطلب منه أن يحرسه، بل طلب منه أن يمضى إلى تلك الثلمة ،فيحرسها بينما يكون دائماً هم قواد الأرض حماية أشخاصهم، والحرس الملكى، والحرس الجمهورى فيه من الأسلحة والعتاد والقوات ما يعادل أو يفوق الجيوش النظامية، فى أيامنا المعاصرة.

هذه ليلة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقد حدثتنا عن سيد ولد آدم: لم تذق عيناه النوم حتى اطمأن على تلك الثلمة. وهذه النوبة الأخرى لأم سلمة ـ رضى الله عنها ـ تحدثنا عما شاهدت فى ليلتها فى قلب المعركة.

(عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال: قالت أم سلمة: كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق، فلم أفارقه مُقامه كله، وكان يحرس بنفسه فى الخندق، وكنا فى قُرٍ شديد، فإنى لأنظر إليه ،قام فصلى ما شاء الله أن يصلى فى قبته، ثم خرج فنظر ساعةً فأسمعه يقول: «هذه خيل المشركين تطيف بالخندق من لهم، ثم نادى: يا عباد بن بشر» . فقال: لبيك! قال: «أمعك أحد؟» قال: نعم أنا فى نفرٍ من أصحابى كنا حول قُبتك. قال: «فانطلق فى أصحابك فأطف بالخندق. فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرة، اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا واغلبهم لا يغلبهم غيرك». فخرج عباد بن بشر فى أصحابه، فإذا بأبى سفيان فى خيلٍ من المشركين يُطيفون بمضيق الخندق، وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل ،فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمى ، فانكشفوا راجعين إلى منازلهم، ورجعت إلى رسول الله ﷺ، فأجده

---

(1) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٧ وفى مجمع الزوائد ٦ / ١٣٤ قال فيه الهيثمى: «قلت: فى الصحيح طرف منه» .

يصلى فأخبرته .

فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين فكانت تقول: يرحم الله عباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها) (١).

وهذه ليلة ثانية من ليالى أم سلمة تحدثنا فيها عن رسول الله ﷺ كيف أمضى ليله :

(عن عبد الواحد بن أبى عون ، عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: والله إنى لفى جوف الليل فى قبة النبى ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة وقائل يقول: يا خيل الله ، وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين: « يا خيل الله » ففزع رسول الله ﷺ بصوته فخرج من القبة، فإذا نفر من أصحابه عند قبته يحرسونها، منهم عباد بن بشر. فقال: «ما بال الناس؟» قال عباد: يا رسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب؛ الليلة نوبته ينادى : « يا خيل الله » ، والناس يثوبون إليه، وهو من ناحية حسيكة ما بين ذباب ومسجد الفتح، فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر: « اذهب فانظر ثم ارجع إلى إن شاء الله فأخبرنى! » قالت أم سلمة: فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً حتى جاءه عباد بن بشر فقال: يا رسول الله ، هذا عمرو بن عبد فى خيل المشركين، معه مسعود بن رخية بن أشجع بن غطفان فى خيل غطفان والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة. قالت: فدخل رسول الله ﷺ فلبس درعه ومِغفره، وركب فرسه، وخرج مع أصحابه، حتى أتى تلك الثغرة فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال: «صرفهم الله، وقد كثرت فيهم الجراحة » قالت: فنام حتى سمعت غطيطه، وسمعت هائعه أخرى. ففزع فوثب فصاح : «يا عبَّاد بن بشر» قال: لبيك، قال: « انظر ما هذا »فذهب ثم رجع فقال: هذا ضرار بن الخطاب فى خيلٍ من المشركين، معه عيينة بن حصن فى خيل غطفان عند جبل بنى عبيد، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه، وركب فرسه، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة فلم يأتنا حتى كان السحر، فرجع وهو يقول: «رجعوا مفلولين، قد كثرت فيهم الجراحة» ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس ، فكانت أم سلمة تقول: قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفى الفتح وحنين لم يكن من ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق؛ وذلك أن المسلمين كانوا فى مِثل الحَرَجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى، والمدينة تحرس حتى

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٤ .

الصباح يسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصيحوا خوفاً، حتى ردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال) (١) .

وبقى حال النبى ﷺ ذلك حتى أمكن إصلاح هذه الثغرة.

(فحدثنى أيوب بن النعمان عن أبيه قال: كان أسيد بن حضير يحرس الخندق فى أصحابه، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل ، فإذا طليعة من المشركين مائة فارس أو نحوها، عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا على المسلمين. فقام أسيد ابن حضير عليها بأصحابه فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنا وولوا. وكان فى المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسى فقال لأسيد: إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفره خيلهم، وكان الناس عجلوا فى حفره. وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق، وأمنوا أن تطفره خيلهم، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة، وكانوا فى قُرٍ شديد وجوع)(٢).

وعندها أمكن للنبى القائد ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن تقرَّ عينه بعد أن سدَّت تلك الثغرة، ويطمئن إلى سلامة التنفيذ فى قراره .

٨ ـ تمزيق شمل العدو :

أصح ما روى فى قضية نُعيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما أورده الزهرى فى حديثه عن ابن المسيِّب قال: (فبينا هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعاً لهما . فقال: إنى كنت عند عيينة وأبى سفيان ،إذ جاءهم رسول بنى قريظة: أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم. قال النبى ﷺ: « فلعلنا أمرناهم بذلك »، وكان نعيم رجلاً لا يكتم الحديث،فقام بكلمة النبى ﷺ فجاءه عمر فقال: يا رسول الله، إن كان هذا الأمر من الله فامضه، وإن كان رأياً منك فإن شأن قريش وبنى قريظة أهون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال، فقال النبى ﷺ: « علىَّ الرجل ردوه » .فردوه فقال: « انظر الذى ذكرنا لك، فلا تذكره » فإنما أغراه، فانطلق حتى أتى عيينة وأبا سفيان فقال: هل سمعتم من محمد يقول قولاً إلا كان حقاً؟ قال: لا. قال: فإنى لما ذكرت له شأن قريظة، قال : « فلعلنا أمرناهم بذلك » .قال أبو سفيان: سنعلم إن كان ذلك ، فأرسل إلى بنى قريظة :إنكم قد أمرتمونا أن نثبت، وإنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم فأعطونا بذلك رهينة ،فقالوا: إنه قد دخلت علينا ليلة السبت ، وإنا لا نقضى فى السبت شيئاً. فقال أبو سفيان: إنكم فى مكر من بنى قريظة فارتحلوا، وأرسل الله

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٦٤، ٤٦٥ .

عليهم الريح، وقذف في قلوبهم الرعب، فأطفأت نيرانهم، وقطعت أرسان خيلهم، وانطلقوا منهزمين من غير قتال) [١] .

أ ـ فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عرف أعماق نُعيم، وطبيعة شخصيته، والدور المزدوج له، فوجهه إلى ذلك، وحين طلب منه أن يكتم السر ، فكأنما أغراه بإفشائه. أما رواية موسى بن عُقبة عن الزهرى، فتشير بشكل أوضح إلى عظمة القائد المصطفى ﷺ فى زرع الشك والبلبلة فى صف الأحزاب واليهود .

(وأقبل رجل من أشجع يذيع الأحاديث. وقد سمع الذى أرسلت به قريش غطفان إلى بنى قريظة والذى رجعوا إليهم وذلك عشاء ، فأقبل نعيم بن مسعود حتى دخل على رسول الله ﷺ قبة له تركية، ومعه نفر من أصحابه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما وراءَك؟» قال: إنه والله ما لك طاقة بالقوم، وقد تحزبوا عليك وهم معاجلوك. وقد بعثوا إلى بنى قريظة أنه قد طال ثواؤنا ، وأجدب ما حولنا، وقد أحببنا أن نعاجل محمداً وأصحابه فنستريح منهم، فأرسلت إليهم بنو قريظة: أن نعم ما رأيتم، فإذا شئتم فابعثوا بالرهن لا يحبسكم إلا أنفسكم. فقال له رسول الله ﷺ: «إنى مُسِرٌ إليك بشىء فلا تذكره». قال: نعم، قال: « إنهم قد أرسلوا إليَّ يدعوننى إلى الصلح، وأرد بنى النضير إلى دورهم وأموالهم» ، فخرج نعيم من عند رسول الله ﷺ إلى غطفان ،فقال رسول الله ﷺ: «إن الحرب خدعة وعسى الله أن يصنع لنا. . .» [٢].

ب ـ وتبدو المحاولة الثانية فى تمزيق شمل العدو من القائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان مقابل انسحابها من المعركة:(ثم إن النبى ﷺ بعث إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح إلا لمراوضته فى ذلك)[٣].

---

(١) المغازى النبوية للزهرى ٧٩ ، ٨٠ وهى رواية عن ابن المسيب ،وعن معمر عنه . والجميع ثقات . وهو إن كان مرسلاً ، لكن مراسيل سعيد بن المسيب قوية .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٤٠٥ وتعدد الروايات وبعضها عن ثقات رغم أنها مرسلة ، توضحها رواية الواقدى التى تشير إلى تردد نعيم أكثر من مرة إلى رسول الله ﷺ ، وأنه كان يرعى الخطة بكل جزئياتها وآثارها ،وما ذكره البيهقى فى روايته عن رغبة يهود فى الصلح ، تجليها رواية الواقدى إلى أن نعيماً هو الذى أقنع اليهود بذلك ، ولم يحدث ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيها إلا عن صدق ، ضمن التوجيه النبوى لجزئيات الخطة ؛ وبذلك ينتفى التعارض بين الروايات . حيث إن رسول الله ﷺ كان حريصاً على كتمان إسلام نعيم ؛ حتى لا تتعرض الخطة لخلل .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣١٠، ٣١١ وقال المحقق فيه : « . . .فيكون الحديث حسناً من طريق البزار والطبرانى ، وتشهد له الطرق الضعيفة عند غيره » .

(فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه. فقالا له: يا رسول الله ، أمراً تُحبُّه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال: « بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب،فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما ». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله ﷺ: « وأنت وذاك » . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا)(١).

جـ ـ لم يكن هناك هم للقائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكبر من فك الحصار، وتفتيت شمل العدو، وتوهين صفّه، فكانت المحاولة الأولى عن طريق عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان، ثم رفض السعدان ذلك. مصممين على الصبر والتضحية، دون تقديم تمرة واحدة للعدو مقابل تراجعه، ثم كانت العملية الثانية، التى زرعت البلبلة والشك فى الصف بين اليهود وقريش وغطفان ،وأثمرت ثمرتَها المرجوة ، حيث عجز حيى بن أخطب أن يرأب الصدع ، أو يقيد لحمة الصف بين الفريقين. ثم كانت العملية الثالثة العظيمة داخل صف الأحزاب بين قريش وحلفائها ـــ غطفان وأسد وسليم. كما ذكرت رواية الإمام البيهقى حين بعث حذيفة إلى داخل صف الأحزاب :

(أخبرنا أبو طاهر الفقيه ... قال :حدثنا محمد بن مسلم بن واردة قال: ... ولكنى أخشى أن أؤسر، فقال:« إنك لن تؤسر» . فقلت: مرنى يا رسول الله بما شئت. فقال: « اذهب حتى تدخل بين ظهرانى القوم فأت قريشاً فقل: يا معشر قريش إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين قريش؟ أين قادة الناس؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدمونكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم، ثم ائت بنى كنانة فقل: يا معشر بنى كنانة، إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين بنو كنانة؟ أين رماة الحدق؟ فيقدمونكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيساً فقل: يا معشر قيس ،إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدمونكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم» ، وقال لى: «لا تحدث فى سلاحك شيئاً حتى تأتينى فترانى» ...) (٢) .

---

(١) المغازى للذهبى ص ٢٨٩ .

(٢) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٣/ ٤٥٣ .

وتشير رواية الإمام البيهقى الثانية إلى نجاح هذه الخطة تماماً، فحذيفة رضي الله عنه هو المكلف بالنداء الأول والثانى (. . . فلما دنا الصبح نادى: أين قريش؟ أين رؤوس الناس؟ فقالوا: أيهات هذا الذى أتينا به البارحة أين بنو كنانة ؟ وأين الرماة؟ فقالوا: أيهات هـذا الـذى أتينا به البارحة. أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان ؟ فقالوا : أيهات هذا الذى أتينا به البارحة ، فتخاذلوا وبعث الله عليهم الريح. . .)(١).

وبذلك لم يدع ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرصة إلا استغلها للنفاذ إلى قلب العدو، وتحطيم معنوياته من جهة وتمزيق صفه من جهة أخرى، وما إرسال حذيفة فى هذا الظرف العصيب من الريح إلا ليكون على بينة من أثر الخطط التى بذلت، لتحطيم الحصار المضروب، وكان فعل الريح فى الحقيقة أضخم من أى فعل آخر فى نفس العدو، جعلت القيادة العليا للجيش التى يمثلها أبو سفيان، تصر على الرحيل والرعب يملأ قلوبهم جميعاً، خشية أن يلحق بهم محمد وأصحابه، فأى قيادة فى هذا الوجود، تعيش خططها، وترعاها، وتقوم على تنفيذها، وتعيش واقع جنودها مثل هذه القيادة ؟! وتصل إلى هذه النتائج العظيمة بأقل قدر ممكن من الخسائر ، بسبعة شهداء فقط وبدون قتال .

٩ـ الدعاء :

وحين تقصر قادة الأرض جميعاً وتصغر بين يدى إمام القادة فى الوجود ، يبقى أنقى قلب خلق الله الذى يتصل بالله تعالى، صلة الرجاء والتضرع أن يزيل الكرب، ويرفع البلاء ، وينزل النصر بعد بذل كل الجهد البشرى الممكن.

(عن عبد الله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنهما ـ قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم »)(٢) .

(عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن جابر بن عبد الله قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فى مسجد الأحزاب يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء. قال: فعرفنا السرور فى وجهه . قال جابر: فما نزل بى أمر غائظ مهم إلا تحينت تلك الساعة من ذلك كاليوم، فأدعو الله فأعرف الإجابة)(٣).

---

(١) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٣/ ٤٥٣ . (٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٠٦ برقم (٤١١٥) .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨٨ وقد رواها الإمام أحمد كذلك .

وكان ابن أبى ذئب يحدث عن رجل من بنى سلمة ، عن جابر بن عبد الله قال: قام رسول الله ﷺ على الجبل الذى عليه المسجد فدعا فى إزار ورفع يديه مداً ، ثم جاءه مرة أخرى فصلى ودعا.

وكان عبد الله بن عمر يقول: (صلى رسول الله ﷺ فى الخريق القابل الصابٌ على أرض بنى النضير وهو اليوم موضع المسجد الذى بأسفل الجبل، ويقال: إنه صلى فى تلك المساجد كلها التى حول المسجد الذى فوق الجبل. قال ابن واقد: وهذا أثبت الأحاديث) .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنهما - قال : قلنا يا رسول الله ، هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: « نعم: اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » . قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم الله - عز وجل - بالريح (١).

وروى ابن سعد عن سعيد بن المسيِّب قال: حصر النبى ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب وحتى قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد »(٢).

وهذا الدعاء وهذا التضرع لرب العالمين من سيد الخلق وأعبد الخلق وأتقى الخلق، استجاب الله - تعالى - له وتجاوبت الريح من هذا النداء كما فى الحديث السابق. (فقد روى ابن أبى حاتم وأبو نُعيم والبزار برجال الصحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما كانت ليلة الأحزاب جاءت الشمال - الصبا - إلى الجنوب - الدبور - فقالت: انطلقى فانصرى الله ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرة لا تسرى بالليل، فغضب الله تعالى عليها فجعلها عقيماً، وأرسل الصبا فأطفأت نيرانهم، وقطعت أطنابهم. فقال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور») (٣).

١٠- تجريد الوحدانية لله :

إن الريح من جنود الله تنطلق إعصاراً عاتياً تدمِّر كل شىء بأمر ربها، وتتحرق شوقاً لنصرة الله ورسوله، وتعرض على أختها الدبور أن تمضى معها، فتتعلل، ويغضب الله عليها فيجعلها عقيماً ؛ لأنها لم تسارع إلى نصرة الله ورسوله ، وتنزل ملائكة السماء بدور مهم هو بث الرعب فى قلوب العدو، فقد استغاث عبد الله ورسوله محمد ﷺ بجبار

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/٥٤١ .

(٣) المصدر السابق ٤/٥٤٥ .

السموات والأرض على جبابرة الأرض.

(فعن قتادة قال: بعث ـ الله تعالى ـ الريح والرعب كلما بنوا بناءً قطع الله أطنابه، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، حتى لقد ذكر لنا: أن سيِّد كل حي يقول: يا بنى فلان هلُمَّ إلى، حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاة النجاة، أُتيتم لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب) (١).

قال البلاذرى: (ثم إن الله تعالى نصر المسلمين عليهم بالريح، وكانت ريحاً صفراء فملأت عيونهم، فداخلهم الفشل والوهن، وانهزم المشركون وانصرفوا إلى معسكرهم، ودامت عليهم الريح، وغشيتهم الملائكة تطمس أبصارهم ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً** ﴾(٢)) (٣) .

قال أبو الخطاب بن رحبة: هذه الملائكة بعثها الله تعالى فنفثت في روعهم الرعب والفشل، وفى قلوب المؤمنين القوة والأمل، فقطعوا مدة ثلاثة أيام (أى المشركين) فى يوم واحد، فارين منهزمين (٤).

فالله تعالى شأنه هو الذى أنهى المعركة بجنوده وريحه، وكانت المعركة كما لخَّصها القرآن الكريم بآية واحدة :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرا** ﴾(٥) ولخَّص ختامها بكلمة واحدة ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزا** ﴾ (٦) .

وعاد رسول الله ﷺ يعلن هذا التجرد لله من الأحزاب بقوله: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ،ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» (٧) ،ثم جعلها كلمة لازمة له طيلة حياته ذاكراً نعمة الله عليه كما روى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الحج أو العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرات ثم يقول: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده » .

وبهذا التجريد الخالص لله ـ الواحد الأحد ـ الذى نزَّل النصر من عنده بملائكته

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/٥٤٦ . (٢) الأحزاب / ٢٥ .
(٣، ٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٥٤٦ . (٥) الأحزاب / ٩ .
(٦) الأحزاب / ٢٥ . (٧) فتح البارى ٧/ ٤٠٦ برقم (٤١١٤، ٤١١٦) .

وريحه. آب المسلمون فى الأرض بعدها وإلى يوم القيامة بالقائد الأعظم والقيادة الفذة فى الوجود يصفها ـ الله تعالى ـ بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[1] فهو قدوة المؤمنين فى الأرض بكل طبقاتهم إلى يوم الدين .

(١) الأحزاب / ٢١ .

العصبة المؤمنة

١ـ القائد الأعظم بلا عصبة مؤمنة عاجز عن أن يفعل شيئاً. ولا أدل على هذه الفكرة من قصة بنى إسرائيل مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام، فموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحد خمسة هم أعظم أهل الأرض، وهم أولو العزم من الرسل. وها هو يُبلغ قومه أمر الله تعالى لهم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ . يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾(١) .

فهم قد اختارهم الله تعالى كما اختار هذه العصبة المسلمة، وجعل فيهم من المميزات والخصائص ما يؤهلهم لهذه المسؤولية، فجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكاً، فهم قادة إذن وشخصيات قيادية، وصدر لهم الأمر من قائدهم الأعلى: **﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾** وحذرهم من مغبة التراجع أو التباطؤ؛ إذ تكون عاقبته الخسارة **﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾** وهو أعظم قادة الأرض وسادتها بعد المصطفى ــ عليه الصلاة والسلام. غير أن العصبة المؤمنة حوله تخاذلت وجنبت، فلم يعفها هذا الموقف من الهزيمة أولاً ثم العقوبة الربانية الصارمة بعد ذلك، وحيل بينها وبين النصر أربعين عاماً، وشرّدت فى التيه، وعلى رأسها كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام ــ **﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾**(٢) .

لقد تخلت القاعدة الصلبة كلها، وخذلت قائدها الأعظم، فلم يعفها شرفها وماضيها، وعبقريتها من العقوبة بطلب قائدها ﷺ: **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ**

---

(١) المائدة / ٢٠ ، ٢١.
(٢) المائدة / ٢٢ ــ ٢٤ .

فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(1).

هذه هى القاعدة الصلبة التى كانت حول موسى ـ عليه الصلاة والسلام، فكيف كانت القاعدة الصلبة والعصبة المؤمنة حول رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام . وقد صدر لها الأمر بالمواجهة؟!

٢ـ فحدثنى أبو بكر بن أبى سبرة فقال: حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن جهم أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب إلى راتج، فعمل يومئذ فى الخندق، وندب الناس فخبَّرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم إلى سفح سلع... وكَّل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه، فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بنى عبيد، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان .

٣ـ هذه هى الأوامر النبوية بحفر الخندق وتوزيعه بين المهاجرين والأنصار، على قوم لم يسبق لهم أن قاموا بمثل هذه المهمة ، فهم يكلفون بها لأول مرة حتى أن آلات الحرب لا يملكونها ، والجوع قد خيَّم عليهم فلا طعام ولا زاد، والبرد القارص ينهش منهم ولا مأوى لهم منه إلا بيوتهم. فكيف تم التنفيذ؟

أـ لم يتعللوا بعدم وجود آلات الحفر، ليتخلصوا من هذه المهمة الشاقة، ويطالبوا قيادتهم بعقد مصالحة مع العدو قبل أن يستبيح بيضتهم. فتغلبوا على هذه المهمة (واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرازين ومكاتل يحفرون به الخندق، وهم يومئذ سلم للنبى ﷺ ، أى بنى قريظة).

ب ـ ولم يقوموا بعصيان مدنى ليسقطوا به الحكومة نتيجة الأزمة الاقتصادية الخانقة، وإجبارهم على العمل وهم هلكى من الجوع، كما فعل قوم موسى يوم أعلنوا عصيانهم **﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾** فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة. وفى الرواية الثانية: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

إنها ليست مظاهرة لإسقاط الحكومة ، بل مبايعة على الموت والفداء والجهاد .

---

(1) المائدة / ٢٥ ، ٢٦ .

قال: يقول النبى ﷺ وهو يجيبهم: «اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك فى الأنصار والمهاجرة» وما أسعدهم فى دعوة نبيهم لهم. أما طعامهم قال: يؤتون بملئ كفين من شعير، فيصنع[1] لهم بإهالة[2] سنخة[3] توضع بين يدى القوم، والقوم جياع وهى بشعة فى الحلق ولها ريح منتن[4].

ولعل هذا الطعام إنما تقدمه السجون فى أيامنا للمجرمين، بينما نقدم المآدم الضخمة والولائم الضخمة لصنعاء الحكومة والعاملين فيها، وعلى المؤمنين الصادقين أن يحفروا الخندق وبالسرعة المطلوبة، وبالمدة المقررة بهذا الطعام البشع فى الحلق، ذى الريح المنتنة. ومع ذلك كانوا أشد ما يكونون التزاماً بأمر حبيبهم المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام.

جـ ـ ولم يثيروا حرباً شعواء على تشغيلهم الأشغال الشاقة ، دون خبرة مسبقة . فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

«اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة »

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

إنه المجتمع الذى يقوم على الحب، والذى لم تشهد البشرية له مثيلاً. ويقوم على الإيمان. ومن الإيمان يستمد الحاكم فيه سلطته.

وأمام هذا الصبر على التعب ، والصبر على الجوع، والصبر على البرد. كانت الاستضافة الربانية الأولى والثانية التى تحدثنا عنها فيما سبق. ورفعت وتيرة الإيمان إلى القمة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[5] .

٤ـ وأدى المؤمنون مهمتهم بنجاح فائق وحُفر الخندق خلال المدة المقررة، ونفذت الخطة الحربية خلال ستة أيام، ومن اللحظات الأولى لوصول الخبر إلى المدينة. كان بدء العمل بها، فلم تضع لحظة واحدة.

واستمر الحصار خمسة عشر يوماً وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكانت

---

(١) يصنع لهم الشعير : يطبخ .

(٢) الإهالة: الدهن الذى يؤتدم به سواءً كان زيتاً أو شحماً أو سمناً.

(٣) سنخة ، أى تغير طعمها ولونها من قدمها ، وقيل : بنون وغين معجمة (أى نشغة) والنشغ القىء ، أى يحصل لهم غثيان عند اذدرادها والأول أصوب.

(٤) ولها ريح منتن: يدل على أنها عتيقة جداً حتى عفنت وانتهت .

(٥) التوبة / ١٢٤ .

المحنة الثانية الرهيبة أن نقض بنو قريظة العهد، وفُتحت جبهة داخلية. فأصبح المسلمون وذراريهم ونساؤهم تحت رحمة اليهود ، فكيف كان موقف العصبة المؤمنة؟!

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾(1).

هذا هو الوصف الربانى لهم، وهذا هو الثناء الإلهى عليهم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ . . . ﴾ إلى آخر الآية قال: إن الله تعالى قال لهم فى سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(2)) (3).

فقد وصلوا إلى ذروة المحنة. وجاءهم مَثَلُ الذين خلوا من قبلهم ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾(4) ، وقال النبى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾. فقد استبشر المؤمنون بأن وصولهم إلى ذروة المحنة والزلزلة يعنى اقتراب نصر الله. وهو وعد الله ورسوله، ويفسر القول الثانى فى التفسير القول الأول. فوعد الله هو فى آية البقرة، ووعد رسوله هو فى قلب الخندق وأثناء الحفر.

فقد روى كثير بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: « أخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها ـ يعنى على قصور الحيرة ـ ومدائن كسرى ـ فأبشروا بالنصر » فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صادق، إذ وُعدنا النصر بعد الحصر فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ذكره الماوردى . . . ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً، والمعنى: ما زادتهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتصديقاً بالقضاء، قاله الحسن . . . ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام فى الخندق قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى، وتوقع ما وعده الله من النصر. . . ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: « يا صريخ المكروبين ،ويا مجيب المضطرين ،اكشف همى وغمى وكربى ،فقد ترى حالى وحال

---

(1) الأحزاب / ٢٢ .

(2) سورة البقرة / ١٢٤.

(3) الدر المنثور للسيوطى ٦/ ٥٨٥ .

(4) الأحزاب / ١١ .

أصحابى» ، فنزل جبريل وقال: « إن الله سمع دعوتك وكفاك هول عدوك » .

فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول:

« شكراً شكراً كما رحمتنى ورحمت أصحابى » .

وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً فبشَّر أصحابه بذلك (١) .

٥ ـ وتصف أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى ﷺ حال المؤمنين وصبرهم فتقول: (قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع، وخيبر، وكنا بالحديبية، وفى الفتح وحنين لم يكن فى ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا مثل الحرجة(٢) وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى والمدينة تحرس حتى الصباح يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال) (٣) .

٦ـ ومستهم البأساء والضراء وصبروا حين البأس صبر الأبطال العظام :(فعن جابر ابن عبدالله ـ رضى الله عنهما ـ قال: قاتلونا يومهم، وفرَّقوا كتائبهم ونحوا إلى رسول ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هَوِى من الليل ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم، وما يقدر رسول الله ﷺ على صلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء. فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله ، ما صلينا! فيقول: ولا أنا والله ما صليت ، حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين ، فرجعت قريش إلى منزلها ، ورجعت غطفان إلى منزلها وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ، وأقام أسيد بن حضير على الخندق فى مائتين من المسلمين، فهم على شفير الخندق إذ كرَّت خيل من المشركين يطلبون غِرَّة عليهم خالد ابن الوليد. فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحشى، فزرق الطفيل بن النعمان من بنى سلمة بمزراقة فقتله. فكان يقول: أكرم الله تعالى حمزة والطفيل بحربتى ولم يهبنى بأيديهما. فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قبته أمر بلالاً فأذن، وكان عبد الله بن مسعود يقول: أمره رسول الله ﷺ فأذَّن وأقام للظهر، وأقام بعد لكل صلاة إقامة إقامة)(٤) .

لقد حفروا بسواعدهم وعرق جبينهم الخندق، وحموه بسيوفهم ورماحهم ،وذادوا عنه وعن المدينة بدمائهم وأموالهم حتى ردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ٧/ ١٤/ ١٥٧ .

(٢) الحرجة : الشجر الملتف أو الشجر الكثير الأغصان .

(٣) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٤) االمصدر نفسه ٢/ ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

وصبروا فى البأساء والضراء وحين البأس، وجاءهم نصر الله. واستحقوا ثناء الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (١) .

٧ـ هذا هو الوصف العام للعصبة المؤمنة. لكنَّ فى هذه العصبة نماذج عالية خالدة فائقة خصها الله تعالى بالذكر فقال عنهم: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(٢) .فلنقف عند هذه النماذج نتملاها،ونتملى عظمة التربية النبوية من خلال عشر نماذج . خمسة منها من المهاجرين، وخمسة منها من الأنصار، ونرى روح النبوة الخالدة المتمثلة فيها. ثلاثة من العشرة المبشرين فى الجنة كانت أعمارهم دون السادسة عشرة من العمر، حين دخلوا مدرسة النبوة رعاهم رسول الله ﷺ بعنايته، ورباهم على عينه. وهم فى سن الحُلُم ودون ذلك. فإذا بهم فى الجلى يقارعون الأبطال العظام، هؤلاء الثلاثة هم على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص:

أ ـ أما على بن أبى طالب الذى ينسب إليه قوله:

سبقتكم إلى الإسلام طُراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمى

(ثم إن رؤساءهم أجمعوا أن يغدوا جميعاً، فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة ابن أبى جهل ،وضرار بن الخطاب، وخالد بن الوليد ،وعمرو بن العاص ،وهبيرة بن أبى وهب، ونوفل بن عبد الله المخزومى، وعمرو بن عبد ود، ونوفل بن معاوية الديلى، فى عدة فجعلوا يطيفون بالخندق، ومعهم رؤساء غطفان: عيينة بن حصن ، ومسعود بن رخيلة، والحارث بن عوف، ومن سُلَيْم رؤساء، ومن بنى أسد طليحة بن خويلد، وتركوا الرجال منهم خلوفاً يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى النبى ﷺ وأصحابه، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون، فجعلوا يُكرون خيلهم ويقولون: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها قالوا: إن معه رجلاً فارسياً فهو الذى أشار عليهم بهذا. قالوا: فمن هناك إذن !

فعبر عكرمة بن أبى جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن وهب، وعمرو بن عبد ود ، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون، وقيل لأبى سفيان: ألا تعبر؟ قال: قد عبرتم فإن احتجتم إلينا عبرنا) (٣).

---

(١) الأحزاب / ١١ . (٢) الأحزاب / ٢٣ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤٧٠ .

قال ابن إسحاق: (وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلمًا ليرى مكانه)[1].

ووقع فى مغازى ابن إسحاق من غير رواية ابن هشام عن البكائى فيها زيادة حسنة رأيت أن أوردها تتميمًا للخبر:

قال ابن إسحاق: (إن عمرو بن عبد ود خرج فنادى: هل من مبارز؟ فقام على رضي الله عنه وهو مقنَّع بالحديد فقال: أنا له يا نبى الله ، فقال: « إنه عمرو اجلس » ونادى عمرو: ألا رجل - يؤنبهم - ويقول: أين جنتكم التى تزعمون أنه من قُتِل منكم دخلها، أفلا تبرزون لى رجلاً ؟! فقام على فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: « اجلس إنه عمرو » ثم نادى الثالثة وقال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم، هل من مبارز؟
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز
وكذاك إنى لم أزل متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقام على فقال: يا رسول الله، أنا له فقال: « إنه عمرو » قال: وإن كان عمراً. فأذن له النبى ﷺ فمشى إليه علىٌّ حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلنَّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا على، قال: ابن عبد مناف؟ فقال: أنا ابن أبى طالب. فقال: غيرك يابن أخى من أعمامك من هو أسنٌّ منك فإنى أكره أن أهريق دمك، فقال له على: ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك. فغضب ونزل فسلَّ سيفه ، كأنه شعلة نار، وأقبل نحو على مغضباً ،وذكر أنه كان على فرسه فقال له على: كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معى فنزل عن فرسه ثم أقبل نحو على .

وقول عمرو لعلى: والله ما أحب أن أقتلك ، زاد فيه غيره: فإن أباك كان لى صديقاً. قال الزبير: كان أبو طالب ينادم مسافر بن أبى عمرو، فلما هلك اتخذ عمرو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣١٢ .

ابن عبد ود نديماً، فلذلك قال لعلى حين بارزه ما قال)[1].

وعند الواقدى:(وأقبل عمرو يومئذ وهو فارس وعلى راجل فقال له على: إنك كنت تقول فى الجاهلية :لا يدعونى أحد إلا إحدى ثلاث إلا قبلتها. قال: أجل. قال على: فإنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين. قال: يابن أخى ، أخِّره هذا عنى. قال: فأخرى ترجع إلى بلادك فإن يكن محمد صادقًا كنت أسعد الناس به ،وإن كان غير ذلك كان الذى تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبدًا، وقد نذرت ما نذرت وحرَّمت الدهن، قال: فالثالثة؟ قال: البراز : قال: فضحك عمرو ثم قال: إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحدًا من العرب يرومنى عليها! إنى لأكره أن أقتل مثلك. وكان أبوك لى نديمًا. فارجع فأنت غلام حدث ، إنما أردت شيخى قريش! أبا بكر وعمر. قال : فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فإنى أدعوك إلى المبارزة فأنا أحب أن أقتلك. فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه.

فكان جابر يحدِّث يقول: فدنا أحدهما من صاحبه، وثارت بينها غبرة فما نراهما. فسمعنا التكبير فعرفنا أنَّ علياً قتله. فانكشف أصحابه الذين فى الخندق هاربين)[2].

وعند ابن إسحاق فى السيرة:(فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش. منهم عمرو بن عبد ود بن أبى قيس ، أخو بنى عامر بن لؤى،وعكرمة بن أبى جهل،وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب ،والشاعر بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا : تهيؤوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ، ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق. . .

فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره، وضرب وجهه، ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا، فقتله علىٌّ رضي الله عنه وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة. . . وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فرَّ وألقى إلينا السلاح لعلك عكرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظليم[3] ما إن تجور عن المعدل

(١) الروض الأنف للسهيلى م٢ / ج٣ / ٢٧٩ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٧٠ ، ٤٧١ .
(٣) الظِّليم : ذكر النعام.

ولـــم تلـــق ظهــــرك مستأنسًا   كـــأن قفـــاك قفـــا فرعــــل(١)

إن ابن السادسة والعشرين ربيعًا أشفق عليه بطل قريش عمرو بن عبد ود من الموت. وطلب إليه أن يعود وأدراجه وليأت لمقابلة ومبارزة أعمامه أو شيخى قريش: أبى بكر وعمر.

لكن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفارس الأول فى مدرسة النبوة لم يكن بطلاً مجربًا فحسب، بل كان داعية عظيمًا قبل البطولة، فها هو يعرض الإسلام على عمرو على أمل أن يضم هذا الفارس الضخم للإسلام ، وحين أعجزه ذلك انطلق معه من فكرة تحييده بحيث يدخره للمستقبل لكن عَمْرًا أبى عليه هذا وذاك. وحين كان لابد من المواجهة فقد أشعل نار غضبه وتحداه لقتله، وكما تقول بعض الروايات:(إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفه ذا الفقار ، وألبسه درعه الحـديدى ، وعمَّمه بعمامته . وقال : « اللهم أعنه عليه » ، وفــى لفظ : « اللهــم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين »(٢) . زاد فى رواية: أنه ﷺ رفع عمامته إلى السماء وقال: « إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر، وحـمزة يـوم أحد، وهذا على أخى وابن عمى فلا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين ») (٣) .

وها هو على فى بنى قريظة بطلها المغوار (وقدَّم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة وابتدرها الناس فسار على بن أبى طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ،فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: « ولم؟ أظنك سمعت منهم لى أذى » قال: نعم يا رسول الله ، قال: « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا » . فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: « يا إخوة القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ » قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا) (٤).

إنهم الثلاثةُ أبطالُ بدر الذين جندلوا أئمة الكفر يوم بدر ، عتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وقد مضى عبيدة شهيداً يوم بدر ، ومضى حمزة شهيداً يوم أحد . وها هو على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاتمة العقد ، إنهم أعز أهله وذويه عليه ، وأخص خاصته ، فلا غرو أن يدعو الله تعالى بنصر علىّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على العدو الألدّ الأشدّ عمرو بن عبد ود .

هؤلاء الأطفال فى أيام البعثة ، هم الأبطال فى أيام الخندق ، وهم ثمرة التربية

---

(١) الفرعل: صغير الضباع.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ مقتطفات ٣/ ٣١١ ـ ٣١٤ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٦٤١ ، ٦٤٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢٥ .

النبوية العظيمة .

ب ـ ومن الغلام عليّ إلى الغلام الزبير الذى قال عنه الذهبى : إنه أول من سلّ سيفه فى سبيل الله ، أسلم وهو حدث له ست عشرة سنة ، وفى رواية : ابن ثمانى سنين ،(فقد روى الليث عن أبى الأسود عـن عـروة قال : أسلم الزبير ابن ثمان سنين ، ونفَحَتْ نفحة من الشيطان أن رسول الله ﷺ أُخذ بأعلى مكة ، فخرج الزبير وهو غلام ابن اثنتى عشرة سنة بيده السيف ، فمن رآه عجب . وقال : الغلام ومعه السيف ، حتى أتى النبى ﷺ فقال : « مالك يا زبير ؟ » فأخبره وقال : أتيت أضرب بسيفى من أخذك)[١] .

لم يأن الأوان بعد لحمل السيوف وللمواجهة . إنما كان ذلك بعد خمسة عشر عاماً أخرى ، حيث اشتد ساعد الزبير وقوى عوده ورشف من رحيق النبوة ما شاء الله تعالى له أن يرشف . فإذا كان عمرو بن عبد ود هو صريع على رضي الله عنه فقد كان نوفل بن عبد الله المخزومى هو صريع الزبير بن العوام الأسدى.

(وحين قُتِل عمرو رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين . فتبعهم الزبير رضي الله عنه وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه نصفين ، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه . فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما رأينا مثل سيفك. فقال : والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد ، وحمل الزبير رضي الله عنه على هبيرة بن أبى وهب وهو زوج أم هانئ أخت على بن أبى طالب ، فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان محقبها الفرس (أى جعلها على مؤخر ظهرها) فأخذها الزبير ، وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه وهو منهزم .

(عن عروة بن الزبير أن ابن الزبير قال له (للزبير) : يا أبت ، قد رأيتك تحمل على فرسك الأشقر يوم الخندق ، قال : يا بنى، رأيتنى ؟ قال : نعم . قال : فإن رسول الله ﷺ ليجمع لأبيك أبويه يقول : « ارم فداك أبى وأمى »)[٢].

وفى مسند أحمد عن عبد الله بن الزبير قال :(لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر ابن أبى سلمة فى الأُطُم التى فيها نساء النبى ﷺ أُطُم حسان . فكان عمر يرفعنى وأرفعه ، فإذا رفعنى عرفت أبى حين يمر إلى بنى قريظة فيقاتلهم)[٣] .

لقد فرَّ أبطال قريش أمام البطولات الهاشمية والأسدية العظيمة التى كانوا لا يأبهون

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٠ وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات » .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٥٠ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » .

لها فى مكة ولا يعيرونها التفاتاً ، فماذا يفعل الغلمان الصغار بأمر محمد ﷺ ؟! ويمر الزمن ، ويكبر الصغار ، ويهدمون دولة الكفر على رأس طواغيتها . ويفر الباقون لا يلوون على أحد .

جـ ـ ولئن كان هذا الغلام الزبير ، قد تربى فى محضن النبوة ، فلا ننسى ذلك المحضن الأول العظيم محضن أمه صفية بنت عبد المطلب أمه ، وعمة النبى ﷺ والتى كانت تعده للبطولة منذ نعومة أظفاره .

(فكانت تضربه وهو صغير ، وتغلظ عليه . فعاتبها نوفل بن خويلد عمه فى ذلك وقال : أنت تبغضينه ! فقالت صفية:

من قال إنى أبغضه فقد كذب
وإنما أضربه لكى يَلَبّ[1]
ويهزم الجيش ويأتى بالسَّلَب
ولا يكن لما له خبء مخَبّ
يأكل ما فى الطل من تمر وحب

وكسر يد غلام ذات يوم فجىء بالغلام إلى صفية فقيل لها ذلك ، فقالت :
كيف وجدت زبراً [2] أقطاً [3] أم تمراً أم مشمعلاً [4]صقراً)[5] .

هذه صفية هى البطل الثالث فى الخندق من المهاجرين يحدثنا حفيدها عباد بن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهم ـ عنها فيقول : (كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت قالت : وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان . قالت صفية : فمرَّ بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنى قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ،وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا وإن أتانا آت . قالت : فقلت: ياحسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. قال :يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئاً احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من

---

(١) يلبّ : ينمو بسرعة . (٢) زبر : الزبير .
(٣) الأقط : ما يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل .
(٤) المشمعل : السريع . (٥) سير أعلام النبلاء ١ / ٤٥ .

الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته . قالت : فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب)[١] .

ولعل هذا الموقف العظيم هو الذى حطّم محاولات يهود فى الهجوم على المسلمين، وبثّ الرعب فى قلوبهم .

د ـ وبطلنا الرابع هو الغلام الزهرى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه الذى أسلم وعمره سبع عشرة سنة ها هو الآن فى الخامسة والثلاثين من عمره يحمل مسؤولية المواجهة ، وحراسة ـ قائده عليه الصلاة والسلام .

روى محمد بن عمر عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :(كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثُلمة فى الخندق يحرسها حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته فى حضنى . فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة . ويقول : « ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها » . فبينما رسول الله ﷺ فى حضنى قد دفئ وهو يقول : « ليت رجلاً صالحاً يحرسنى الليلة » . فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ : « من هذا ؟ » فقال:سعد بن أبى وقاص يا رسول الله . قال : «عليك هذه الثلمة فاحرسها». قالت : فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه)[٢] .

ويصدر لسعد أمر رسول الله ﷺ فى بنى قريظة بالمواجهة :

فعن عائشة بنت سعد عن أبيها قالت : قال لى رسول الله ﷺ:« تقدَّم فارمهم » . فتقدمت حيث تبلغهم نبلى ومعى نيِّف على الخمسين ، فرميناهم ساعة وكأن نبلنا رجل من جراد . فانحجزوا فلم يطلع منهم أحد وأشفقنا على نبلنا أن يذهب ، فجعلنا نرمى بعضها ونمسك البعض)[٣] .

هـ ـ وذاك خامس المهاجرين نُعَيْم بن مسعود الأشجعى رضي الله عنه الذى كتب الله تعالى على يديه هزيمة العدو ، وفعل ما يعجز عن فعله جيش بأكمله ، نستمع إلى قصته بكل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣١٧ ، ٣١٨ ، وقال السهيلى فى الروض الأنف ٢/٣/٢٨١ : « ومجمل هذا الحديث أن حساناً كان جباناً شديد الجبن . وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد ، وقال : لو صح هذا لهُجِيَ به حسان ، فإنه كان يهاجى الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما ، وكانوا يناقضونه ويردون عليه فما عيَّره أحد بجبن ولا وسمه به . فدل ذلك على ضعف حديث ابن إسحاق . وإن صح (كما صححه الزرقانى وغيره) فلعل حساناً أن يكون معتلاً بعلة منعته من شهود القتال . وهذا أولى ما تأول » .

(٢) المغازى للواقدى ٢/٤٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٥٠٠ .

أبعادها النفسية كما رواها الواقدى وهى فى أصلها مروية فى كتب الحديث والسير[1] .

(قال نعيم بن مسعود : كان بنو قريظة أهل شرف وأموال ، وكنا قوماً عرباً لا نخل لنا ولا كرم ، وإنما نحن أهل شاة وبعير. فكنت أقدم على كعب بن أسد، فأقيم عندهم الأيام، أشرب من شرابهم، وآكل من طعامهم ثم يحملوننى تمراً على ركابى ما كانت، فأرجع إلى أهلى، فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ﷺ سرت مع قومى، وأنا على دينى وقد كان رسول الله ﷺ عارفاً. فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب، وهلك الخف والكراع، وقذف الله ـ عز وجل ـ فى قلبى الإسلام، وكتمت قومى إسلامى، فأخرج حتى آتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء وأجده يصلى، فلما رآنى جلس ثم قال: « ما جاء بك يا نعيم؟ » قلت: إنى جئت أصدقك، وأشهد أن ما جئت به هو حق، فمرنى بما شئت يا رسول الله فوالله لا تأمرنى بأمر إلا مضيت له؛ قومى لا يعلمون بإسلامى ولا غيرهم. قال: « ما استطعت أن تخذل الناس فخذل » قال: قلت: أفعل، ولكن يا رسول الله أقول فأذن لى! قال: « قل ما بدا لك فأنت فى حل » قال : فذهبت حتى جئت بنى قريظة فكلما رأونى رحبوا وأكرموا وحيوا وعرضوا علىّ الطعام والشراب فقلت: إنى لم آت لشىء من هذا إنما جئتكم نصبًا بأمركم، وتخوفًا عليكم، لأشير عليكم برأى، وقد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم . فقالوا: قد عرفنا ذلك، وأنت عندنا على ما تحب من الصدق والبر قال: فاكتموا عنى. قالوا: نفعل. قال: إن أمر هذا الرجل بلاء ـ يعنى النبى ﷺ ـ صنع ما قد رأيتم ببنى قينقاع وبنى النضير، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال. وكان ابن أبى الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لنصركم. وأرى الأمر قد تطاول كما ترون. وإنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان بمنزلة واحدة أما قريش وغطفان فهم قوم جاؤوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم. فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كانت الحرب أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم. وأنتم لا تقدرون على ذلك، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وقد غلظ عليهم جانب محمد. أجلبوا عليه أمس إلى الليل، فقتل رأسهم عمرو بن عبد ود، وهربوا منه مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما تعرفون عندكم، فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رَهنًا من أشرافهم تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمداً. قالوا: أشرت بالرأى علينا والنصح، ودعوا له وتشكروا، وقالوا: نحن فاعلون، قال: ولكن اكتموا عنى قالوا: نعم، نفعل، ثم خرج إلى أبى سفيان بن حرب

(١) رواه ابن إسحاق معلقاً ،ورواه عبد الرزاق فى مصنفه ٥ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ مرسلاً عن ابن المسيب ، ورواه الطبرانى فى تاريخه ٢ / ٥٧٨ ، ٥٧٩، ورواه البيهقى فى الدلائل٣ / ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،من طريق ابن إسحاق .

فى رجال من قريش فقال: يا أبا سفيان قد جئتك بنصيحة فاكتم عنى قال: أفعل، قال: تعلم أن بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وأداموا إصلاحه ومراجعته أرسلوا إليه وأنا عندهم أنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم، يعنون بنى النضير. ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك. فإن بعثوا إليكم يسألونكم رُهُنا فلا تدفعوا إليهم أحدًا واحذروهم على أشرافكم. ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفًا. قالوا: لا نذكره، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنى رجل منكم فاكتموا عنى، واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد ﷺ . . . وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحدًا من رجالكم. وكان رجلاً منهم فصدَّقوه.

وأرسلت اليهود غزال بن سمُوأل إلى أبى سفيان بن حرب وأشراف قريش: إن ثواءكم قد طال ولم تصنعوا شيئًا وليس الذى تصنعون برأى، إنكم لو وعدتمونا يومًا تزحفون فيه إلى محمد، فتأتون من وجه، وتأتى غطفان من وجه، ونخرج نحن من وجه آخر لم يُفلت من بعضنا، ولكنا لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهان من أشرافكم يكونون عندنا، فإننا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا فى عقر دارنا وقد نابذنا محمدًا بالعداوة. فانصرف الرسول إلى بنى قريظة ولم يرجعوا إليهم شيئًا وقال أبو سفيان: هذا ما قال نعيم فمر سبع . . . فلما كانت ليلة السبت كان مما صنع الله لنبيه أن قال أبو سفيان: يا معشر قريش ، إن الجناب(١) قد أجدب وهلك الكراع(٢) والخف(٣)، وغدرت اليهود وكذبت، وليس هذا بحين مقام فانصرفوا. . . فبعثوا عكرمة بن أبى جهل حتى جاء بنى قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت فقال: يا معشر اليهود، إنه قد طال المكث، وجهد الخف والكراع، وأجدب الجناب، وإنا لسنا بدار مقامة، اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة قالوا: غدًا السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا رِهانًا من رجالكم يكونون معنا لئلا تبرحوا حتى نناجز محمدًا فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإياه فى بلادنا ولا طاقة لنا به، معنا الذرارى والنساء والأموال، فرجع عكرمة إلى أبى سفيان فقالوا: ما وراءك؟ قال: أحلف بالله إن الخبر الذى جاء به نُعيم حق، لقد غدر أعداء الله ، وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة فى رجال منهم بمثل رسالة أبى سفيان، فأجابوهم بمثل جواب أبى سفيان، وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم: نحلف بالله إن الخبر الذى جاء به

---

(١) الجنَاب : الرحل والفناء .
(٢) الكُراع : اسم لجمع الخيل .
(٣) هلك الخف : كناية عن الإبل .

نُعيم حق، وعرفوا أن قريشًا لا تقيم ، فسُقط فى أيديهم فكرّ أبو سفيان إليهم وقال: إنا والله لا نفعل، إن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت اليهود مثل قولهم الأول، وجعلت اليهود تقول: الخبر ما قال نُعيم، وجعلت قريش تقول: الخبر ما قال نُعَيم وبئس هؤلاء من نصر هؤلاء، وبئس هؤلاء من نصر هؤلاء. واختلف أمرهم فكان نعيم يقول: أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه. وأنا أمين رسول الله ﷺ على سره) (١) .

فقد دخل نُعيم بن مسعود التاريخ فى غزوة الأحزاب، وحقق بعبقريته ما تعجز الجيوش عن تحقيقه، وانضمت الطاقات والكفاءات العربية إلى الصف الإسلامى، ولا شك أن دور سلمان الفارسى فى الإشارة بحفر الخندق، ودور نُعيم بن مسعود فى تخذيل الأحزاب. وأثر هذه العبقريات الضخمة فى تغيير مسار المعركة، لم يكن ليبرز لولا التربية النبوية العظيمة، فسلمان يرعاه رسول الله ﷺ، ويهيئ له الخلاص من الرِّق، ويقود المئات من المسلمين لعونه فى المال والعمل، ولندع لسلمان رضي الله عنه وصف هذه المعونة ثم قال رسول الله: « كاتب يا سلمان»، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير (٢) ، وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ: « أعينوا أخاكم » فأعانونى بالنخل بثلاثين ودية (٣) والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة حتى

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨٠ - ٤٨٤ باختصار . هذا وقد استفاضت كتب السيرة فى حديث نُعيم وصار من الأحاديث المشهورة المرتبطة بغزوة الخندق رغم أنه لم يرد بسند صحيح وهو موقوف على ابن إسحاق فهو منقطع من جهة. وهناك رواية أصح رجالها رجال الصحيح ، تتحدث عن دور نعيم فى هذه المعركة، وأن الرسول ﷺ هو الذى رتَّب هذه الخدعة ننقلها كما وردت فى مغازى الزهرى قال الزهرى فى حديثه عن ابن المسيِّب: فبينما هم على ذلك إذ جاءهم نُعيم بن مسعود الأشجعى، وكان يأمنه الفريقان كان موادعًا لهما، فقال: إنى كنت عند عيينة وأبى سفيان إذ جاءهم رسول بنى قريظة أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم. قال النبى ﷺ: « فلعلَّنا أمرناهم بذلك »، وكان نعيم رجلاً لا يكتم الحديث. فقام بكلمة النبى ﷺ فجاءه عمر فقال: يا رسول الله إن كان هذا الأمر من الله فامضه ، وإن كان رأيًا منك فإن شأن قريش وبنى قريظة أهون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال. فقال النبى ﷺ : « علىَّ الرجل، ردوه» فردوه. فقال: « انظر الذى ذكرنا لك، فلا تذكره لأحد » فإنما أغراه فانطلق حتى أتى عيينة وأبا سفيان، فقال: هل سمعتم من محمد يقول قولاً إلا كان حقًا؟ قالا: لا. قال: فإنى لما ذكرت لى شأن قريظة قال: فلعلنا أمرناهم بذلك، قال أبو سفيان: سنعلم إن كان ذلك مكرًا. فأرسل إلى بنى قريظة: إنكم قد أمرتمونا أن نثبت، وإنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم فأعطونا بذلك رهينة فقالوا: إنا قد دخلت علينا ليلة السبت، وإنا لا نقضى فى السبت شيئًا. فقال أبو سفيان: إنكم فى مكر بنى قريظة، فارتحلوا وأرسل الله عليهم الريح وقذف فى قلوبهم الرعب، فأطفأت نيرانهم، وقطعت أرسان خيولهم وانطلقوا منهزمين من غير قتال. مغازى الزهرى ٨٠ وقد أوردها الواقدى عن معمر عن الزهرى ٢/ ٤٨٦ وقال: وأثبت الأشياء عندنا قول نعيم الأول (أى الرواية السابقة).

(٢) بالفقير : بالحفر أو المكان السهل يُحفر فيه . (٣) الودية: جمع ودى، صغار الفسيل من النخل .

اجتمعت ثلاثمائة ودية. فقال: « اذهب يا سلمان ففقّر لها. فإذا فرغت فائتنى أكون أنا أضعهم بيدى » ففقرت لها وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت منها جئته وأخبرته، فخرج معى إليها نقرب له الودىَّ ويضعه بيده فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقى علىَّ المال فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب فى بعض المغازى فقال: ما فعل الفارسى المكاتب؟ فدعيت له فقال: « خذها فأدِّ بها ما عليك » قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىَّ قال: « خذها فسيؤدى الله عنك» ، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله الخندق حرًا، ثم لم يفتنى معه مشهد(١).

فهو قبل الخندق عبد من العبيد، وقد كان من الممكن أن يُمضى عمره، رقيقًا مع الرقيق، لولا جاءت تلك الرعاية النبوية فحررته من هذا العالم المنكور والبئيس. وسخرت طاقات المسلمين جميعًا لإنقاذه ، بالجهد العضلى، والجهد المالى، والتبرع السخى بفسائل النخل، ولم ينسه رسول الله ﷺ. فكان أول ما ورد له بمقدار بيضة الذهب من الغنائم قال: « أين الغلام الفارسى؟». أو: « ما فعل الفارسى المكاتب؟ ». فقد كان كل همّه منصبًا عليه ليخلّصه من تلك العبودية من الغنائم فإذا به يشهد الخندق حرًا، وإذا به يقلب الموازين كلها، حتى لتصعق قريش من فعلته، وتتحطم خططها كلها على أعتاب الخندق قائلين: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها، قالوا: إن معه رجلاً فارسيًا فهو الذى أشار عليه بهذا، قالوا: فمن هناك إذًا .

هذا ولم يقدم خبرته الحربية فقط، بل قدَّم خبرته الفنية المختصة فى حفر الخندق كما فى رواية الواقدى: وتنافس الناس يومئذ فى سلمان الفارسى فقال المهاجرون: سلمان منا! وكان قويًا عارفًا بحفر الخنادق.

وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به، فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال: «سلمان رجل منا أهل البيت» ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال(٢). وفى رواية الطبرى : (فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى وكان رجلا قويًا فقالت الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال النبى ﷺ: «سلمان منا أهل البيت») (٣) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٥١١ وقال المحقق فيه: « رجاله ثقات وإسناده قوى » .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٤٦ ، ٤٤٧ .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ١٠/ ٨٥ هذا وإن كان فى الروايتين ضعف ، فقد ورد عن على رضي الله عنه قوله عن سلمان: أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا يدرك مقره، وهو منا أهل البيت. وقال المحقق فيه: « رجاله ثقات ». انظر :سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤١ .

وذاك نعيم بن مسعود، كان يمكن أن يحفظ عنه التاريخ أنه لا يكتم سراً، وأنه كان يصانع الناس ويداريهم كما قال عن نفسه: كنا قومًا عربًا لا نخل لنا ولا كرم وإنما نحن أهل شاء وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم، وآكل من طعامهم، ثم يحملوننى تمراً على ركابى ما كانت، فأرجع إلى أهلى .

هذا رجل كان همّه من الدنيا أن يستضيف عند بنى قريظة، ويحافظ على صداقاته مع محمد وقريش وقريظة، ويحقق ثروة وصيتًا وشهرة، فإذا بالإسلام ينقله من هذا السفح ليغدو عبقريًا من عباقرة الحرب، يضع طاقاته فى سبيل الله، ويفتت جيش الأحزاب . يقول عنه الحافظ ابن حجر فى الإصابة :

(نعيم بن مسعود. . . ابن أشجع يكنى أبا سلمة الأشجعى . . . صحابى مشهور له ذكر فى البخارى ، أسلم ليالى الخندق وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان فى وقفة الخندق ، فخالف بعضهم بعضًا وجلوا عن المدينة. . . قتل نعيم فى أوله خلافة على قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل، وقيل : مات فى خلافة عثمان. والله أعلم)(١).

ونشير من طرف آخر إلى عظمة التربية والتوجيه النبوى لنُعيم بن مسعود وقد أعلن إسلامه .

إن من الممكن أن يكون إسلام نُعيم خدعة من العدو، ليجد ثغرة داخل الصف الإسلامى ، والقائد العسكرى لابد أن يضع فى حسبانه مثل هذا الاحتمال فى قلب المعركة وهو على رأس أشجع من غطفان، هذا من جهة ومن جهة ثانية على افتراض أن الأصل صدق نُعيم فى إسلامه كما يقول لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنى جئت أصدّقك، وأشهد أن ما جئت به هو الحق، فمرنى بما شئت يا رسول الله، فوالله لا تأمرنى بأمر إلا مضيت له.

هل يقول له القائد الأعظم والمربى الأعظم: أشهر إسلامك لعله يفتُّ فى عضد الناس أم يقول له : قم باغتيال أحد القيادات الكبرى فى جيش العدو أم يقول له: حاول أن تجر قومك إلى الانضمام إلينا أو من تستطيع ذلك منهم وعدد أشجع أربعمائة فى الجيش أم يقول له: اذهب فقم على ثغرة من ثغور الخندق، وانضم إلى المقاتلين.

كل هذه الاحتمالات واردة ، لكن ما هو جدواها بالنسبة للمعركة؟ بالتأكيد لا تغنى شيئًا ولا تعنى شيئًا فى ميزان المعركة أمام التحام الأحزاب كلها من قريش وغطفان وبنى قريظة فى خطة الإبادة المعتمدة عند المشركين. لقد أدرك عليه الصلاة والسلام بعظمته الخالدة كل هذه الحسابات. واحتمالات الخديعة من نُعيم ، ثم رسم له الخطة التى

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٦/ ٢٤٩ .

يتحرك من خلالها، والهدف الأساسى فيها ، تاركًا له التفاصيل كاملة، ومدخلاً فى حسابه احتمالات عدم صدقه فى الإسلام وقال ﷺ له بعد قوله: وقومى لا يعلمون بإسلامى ولا غيرهم: قال: « ما استطعت أن تخذِّل الناس فخذِّل » . قلتُ: أفعل، ولكن يا رسول الله أقول فائذن لى .قال: « قل ما بدا لك فأنت فى حل » .

وعند ابن إسحاق فى روايته: « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

فأن يكون فردًا مقاتلاً فى الصف، فهو رجل واحد، أما عمله فهو فى قلب صفوف العدو، والحرب ليست فى الضرب والطعن فقط، بمقدار ما هى خطط حربية، وإيقاع فى العدو، ولأهمية التخطيط، والدهاء والعبقرية فى القيادة لخصها عليه الصلاة والسلام بأهم عنصر فيها: « فإن الحــرب خدعة»[1]، كقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « الحج عرفة » . وضمن الخطة النبوية،والتوجيه العظيم تحرك نُعيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحقق هدفه بذكاء بارع، ومزَّق صف الأحزاب وأفسد صفهم.

إننا إذا ذكرنا أن أعظم انتصار حققته قريش وزعماء بنى النضير هو هذا الحلف الضخم الذى شاركت به غطفان وأسد وقريش وكنانة وبنو قريظة، فسيكون أعظم إنجاز ولا شك هو تدمير هذا الحلف، ويكفى أن نذكر أن رسول الله ﷺ قد راوض بنى غطفان سرًا على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة مقابل تخليهم عن الحرب، ونشير أخيرًا إلى أهمية الكتمان ودوره فى تنفيذ هذه المخططات وكيف أن الرجل المزروع فى قلب العدو هو القادر على أن يفتت هذا العدو، أو يقى الحركة الإسلامية من مخططاته.

ونقول: إن شخصية نُعيم بن مسعود التى عُرفت بأنه لا يكتم الحديث. وما رواه عروة عن عائشة فى تقييم هذه الشخصية ، وأن نُعيمًا كان رجلاً نمومًا، هو نفسه بهذه المواصفات حقَّق هذا الإنجاز الضخم عندما أصبح جنديًا مسلمًا يأتمر بأمر نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام. وكيف كان يحرص خلال تنفيذ الخطة على السرية التامة، على توصية أطراف الحلف كلها بكتمان المعلومات التى يقدمها له.

ومن النماذج الفائقة للمهاجرين إلى النماذج الفائقة للأنصار:

أ ـ سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ : سيدا الأوس والخزرج يقومان بمهمة مشتركة فى البداية ،ومهمة مشتركة فى النهاية بعد الذى جرى بينهما فى حديث الإفك. وكيف توترت العلاقات بينهما وثار الحيان الأوس والخزرج، وكادت أن تقع فتنة عظيمة لا يعلم

(١) من الملاحظ أن النص : « الحرب خدعة » هو حديث صحيح رواه أحمد والبخارى ومسلم ، وهو عند مسلم ٣/ ١٣٦١ برقم (١٧٣٩ ، ١٧٤٠) .

إلا الله ـ تعالى ـ مداها، لمستهم يد النبوة الحانية، وفتحت مغاليق القلوب، وأجرى عليه الصلاة والسلام بينهما تلك المصالحة الرائعة فى زيارات متبادلة بينهما، وكى يرعى هذه الأخوة ويحافظ عليها، كان يترك المهمات الضخمة لهما سويًا مع بعضهما. وها نحن نشهدهما عند بنى قريظة ونشهدهما فى مواجهة غطفان.

(ثم دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير فقال: « إنه بلغنى أن بنى قريظة قد نقضوا العهد الذى بيننا وبينهم وحاربوا. فاذهبوا فانظروا إن كان ما بلغنى حقًا، فإن كان باطلا فأظهروا القول. وإن كان حقًا فتكلموا بكلام تَلحنون لى به أعرفه، لا تفتوا أعضاد المسلمين ». فلما انتهوا إلى كعب بن أسد، وجدوا القوم قد نقضوا العهد، فناشدوهم الله والعهد الذى كان بينهم، أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يلتحم الأمر، وألا يطيعوا حيى بن أخطب فقال كعب: لا نرده أبدا قد قطعته كما قطعت هذه القبال بقبال مثله ووقع كعب بن أسد بسعد بن معاذ يسبه ، فقال أسيد بن حضير: تسب سيدك يا عدو الله، ما أنت له بكفء أما والله يابن اليهود لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك فى عقر دارك. فنسير إليك فتنزل من جُمرك هذا على حكمنا . وإنك لتعلم النضير، كانوا أعز منك وأعظم فى هذه البلدة ، وديتك نصف ديتهم، وقد رأيت ما صنع الله بهم، وقبل ذلك بنو قينقاع نزلوا على حكمنا قال كعب: يا بن الحضير تخوفوننى بالمسير إلى؟ أما والتوراة لقد رآنى أبوك يوم بعاث لولا نحن لأجلته الخزرج منها ، إنكم والله ما لقيتم أحدًا يحسن القتال ولا يعرفه، نحن والله نحسن قتالكم! ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام، وشتموا سعد بن عبادة شتمًا قبيحًا حتى أغضبوه فقال سعد بن معاذ: دعهم فإنا لم نأت لهذا ما بيننا وبينهم أشد من المشاتمة؛ السيف. وكان الذى يشتم سعد بن عبادة نباش بن قيس فقال: عصفت ببظر أمك. فانتفض سعد بن عبادة غضبًا فقال سعد بن معاذ: إنى أخاف عليكم مثل يوم بنى النضير. قال غزال بن سموأل: أكلت أير أبيك! قال سعد بن معاذ: غير هذا القول أحسن منه قال: ثم رجعوا إلى النبى ﷺ فلما انتهوا إلى النبى ﷺ قال سعد بن عبادة: عضل والقارة وسكت الرجلان ثم جلسوا) (1).

إنه موقف موحد من قيادة الأوس والخزرج تجاه بنى قريظة الذين كانوا حلفاء الأمس، وهم أعداء اليوم وكانوا حلفاء سعد بن معاذ كذلك سيد الأوس.

ولنشهد الموقف الموحد من قيادة الأوس والخزرج تجاه بنى غَطَفان:

(عبد الرزاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيِّب: فبينا هم على ذلك أرسل النبى

---

(1) المغازى للواقدى ٢/ ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

ﷺ إلى عيينة بن حصن بن بدر الفزارى وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان، وتخذّل بين الأحزاب؟ فأرسل إليه عيينة: إن جعلت لى الشطر فعلت. فأرسل إلى سعد بن معاذ وهو سيد الأوس وإلى سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقال لهما: « إن عيينة بن حصن قد سألنى نصف ثمركما، على أن ينصرف بمن معه من غطفان، ويخذل بين الأحزاب ، وإنى قد أعطيته الثلث فأبى إلا الشطر، فماذا تريان»؟ قالا: يا رسول الله إن كنت أمرت بشىء فامض لأمر الله، فقال رسول الله ﷺ: « لو كنت أمرت بشىء لم أستأمركما، ولكن هذا رأيى أعرض عليكما » قالا: فإنا لا نرى أن نعطيه إلا السيف، قال: « فنعم إذًا » .

قال معمر: فأخبرنى ابن نجيح أنهما قالا له: والله يا رسول الله، لقد كان هذا فى الجاهلية ليمر يجرُّ سربه[1] ما يطمع منه فى بُسرة[2] ، أفالآن حين جاء الله بالإسلام نعطيهم؟ قال النبى ﷺ: « فنعم إذًا ») [3].

وفى رواية ابن إسحاق:(فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ كما حدثنى عاصب بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم عن محصر بن . . . شهاب الزهرى - إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف. . . وهما قائدا غَطَفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصاحبه ،فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله ، أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: « بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم[4] من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة واحدة إلا قرِىً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا !والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » . فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا) .

وهكذا واجه المسلمون عدوهم بصف موحد ، وكلمة متراصة ، بوعى القائدين

---

(١) السرب : القطيع . (٢) البُسر : التمر قبل إرطابه .

(٣) المغازى النبوية للزهرى ، تحقيق : سهيل زكار .

(٤) كالبوكم : أى اشتدوا عليكم وأصله لكلب وهو السُعار .

العظيمين السعدين وإخوانهما ، ولا يفوتنا أن نذكر عظمة التربية لدى هؤلاء القادة . فهما يقولان :

أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ فهم مع هوى حبيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولو لم يكن وحياً يتلى ، وهم من رأيه لو أحب. أما وقد عاد الأمر لهما ، فقد رفضا بإباء وشمم أن يعطوا غطفان ولو تمرة واحدة . وأبديا استعدادهما لمواجهة الموت والحصار مهما اشتد ، وعرف الله صدق العصبة المؤمنة الموحدة ، فبعث الله جنده من الريح ، وجنده من صفوف المشركين؛ ليرفع الغمة عن المؤمنين ، وينزل عليهم نصره .

ب ـ خوات بن جبير : وقد التقطه الإسلام من السفح الهابط ، فقد كان في ذروة الجاهلية وعرامتها وضُرِب به المثل بجاهليته وانكبابه على شهواته .

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهرى : خوات بن جبير هو صاحب ذات النحيين ـ بكسر النون وسكون المهملة ـ تثنية نحى وهو ظرف السمن . فقد ذكر ابن أبى خيثمة القصة من طريق ابن سيرين قال :

(كانت امرأة تبيع سمناً فى الجاهلية فدخل رجل فوجدها خالية ، فراودها فأبت . فخرج فتنكر ورجع فقال: هل عندك من سمن طيِّب ؟ قالت:نعم. فحلَّت زِقاً فذاقه . فقال : أريد أطيب من هذا . فأمسكته وحلَّت آخر،فقال : أمسكيه فقد انفلت بعيرى . قالت : اصبر حتى أوثق الأول . قال : لا وإلا تركته من يدى يهراق ، فإنى أخاف ألا أجد بعيرى ، فأمسكته بيدها الأخرى ، فانقض عليها . فلما قضى حاجته قالت : لا هناك)[1] .

إنه وهو فى الجاهلية أسير شهوته ، ويتفتق ذهنه عن عبقرية يستعملها فى طريقة إرواء هذه الغريزة .

فيخطط النجاح بعينه ، يُمضى ويتنكر ، ويبتكر الوسيلة التى يشغل بها المرأة بكلتا يديها لتكون عاجزة عن المقاومة ويقضى صبوته ولذته ، وتمضى قصته مثلاً يتناقله العرب فيقولون : « أشغل من ذات النحيين »[2] .

وتنفتح عليه منافذ النور ، ويشرق قلبه بالإسلام ، ويمضى إلى غزوة بدر (فأصابه في ساقه حجر ، فرُدَّ من الصفراء ، وضُرب له بسهمه وأجره)[3] . وعند ابن سعد أنه ردَّه من الروحاء .

(١، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١ / ٢ . (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٧٧ .

أما هو فى أحد ، فيقص علينا قصته وهو يحمل القائد العظيم أمير الرماة أخوه عبدالله بن جبير بعد استشهاده :

(لقد ضحكت فى موضع ما ضحك فيه أحد ، ونعست فى موضع ما نعس فيه أحد ، وبخلت فى موضع ما بخل فيه أحد . فقيل : ما هى؟ قال : حملته فأخذت بضبعيه وأخذ أبو حنة برجليه ، وقد سددت جرحه بعمامتى ، فبينا نحن نحمله والمشركون ناحية إلى أن سقطت عمامتى من جرحه فخرجت حشوته ففزع صاحبى وجعل يتلفت وراءه يظن أنه العدو فضحكت . ولقد شرع لى رجل برمح يستقبل به ثغرة نحرى فغلبنى النوم وزال الرمح . ولقد رأيتنى حين انتهيت إلى الحفر له ومعى قوسى ، وغلظ علينا الجبل فهبطنا به إلى الوادى فحفرت له بسية القوس وفيها الوتر . فقلت : لا أفسد الوتر . فحللته ثم حفرت بسيتها حتى أتممنا. ثم غيبناه وانصرفنا)(1) .

لقد كان من العصبة المؤمنة التى غشيها النعاس أمنة من ربها ، ونعس معه إخوانه الربانيون جميعاً : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ . . . ﴾ (2) .

وها هو حديثه لنا فى الخندق ، ضمن البطولات الفردية الفائقة :

(دعانى رسول الله ﷺ ونحن محاصرو الخندق فقال : « انطلق إلى بنى قريظة فانظر هل ترى لهم غِرّة أو خللاً من موضع فتُخبرنى » . قال : فخرجت من عنده عند غروب الشمس . فتدليت من سَلْع ، وغربت لى الشمس فصليت المغرب ، ثم خرجت حتى أخذت فى راتج ، ثم على عبد الأشهل ، ثم فى زهرة ، ثم على بعاث . فلما دنوت من القوم قلت : أكمن لهم . فكمنت ورمقت الحصون ساعة، ثم ذهب بى النوم . فلم أشعر إلا برجل قد احتملنى وأنا نائم. فوضعنى على عنقه ،وانطلق يمشى. قال : ففزعت ورجل يمشى بى على عاتقه . فعرفت أنه طليعة من قريظة واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياءً شديداً حيث ضيعت ثغراً أمرنى به . ثم ذكرت غلبة النوم . والرجل يرقل(3) بى إلى حصونهم . فتكلم باليهودية فعرفته قال : أبشر بجزرة سمينة(4) ! قال : وذكرت ، وجعلت أضرب بيدى ، وعهدى بهم لا يخرج منهم أحد إلا بمعوله فى وسطه . قال : فأضع يدى على المعول(5) فأنتزعه ، وشغل بكلام

---

(1) المصدر السابق ٣/٤٧٦ .

(2) آل عمران / ١٥٤ .

(3) يرقل : يسرع .

(4) بجزرة سمينة : بذبيح سمين تذبحك به يهود .

(5) المعول : الحديدة ينقر بها الجبال . ولعلها المِغْوَل : سلاح ذو نصل حاد طويل لكنه أصغر من السيف. وهو الأرجح .

رجل فوق الحصن . فانتزعته فوجأت به كبده فاسترخى وصاح : السَبُع ! فأوقدت اليهود النار على آطامها بشُعَل السَّعْف ، ووقع ميتاً وانكشف . فكنت لا أدرك ، وأقبل من طريقى التى جئت منها ، وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : « ظفرت يا خوات ». ثم خرج فأخبر أصحابه فقال : « كان من أمر خوات كذا وكذا » . وآتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه يتحدثون . فلما رآنى قال : « أفلح وجهك ! » قلت : ووجهك يا رسول الله . قال : « أخبرنى خبرك » . فأخبرته فقال : « هكذا أخبرنى جبريل » ، وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ ، قال خوات : فكان ليلنا بالخندق نهاراً .

قال غير صالح : قال خوات : رأيتنى أتذكر سوء أثرى عندهم بعد ممالحة وخلصية منى لهم)[1] .

فقد كان صديقاً لليهود قبل الإسلام ، وكان حليفاً لهم مثل نُعَيم بن مسعود . وكان صاحب شراب ونساء . وجاء الإسلام فالتقطه من السفح ، ورفعه إلى القمة . حتى ليأتى جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى رسول الله ﷺ بخبره . ونجدنا مساقين لننقل حادثة أخرى عن خوات رضي الله عنه ونشهد فيها عظمة التربية فى صاحب ذات النحيين :

(أخبرنا وهب بن جرير ، أخبرنا أبى قال : سمعت زيد بن أسلم يحدث أن خوات بن جبير قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ مرَّ الظهران . قال : فخرجت من خِبائى فإذا أنا بنسوة يتحدثن فأعجبننى ، فرجعت فاستخرجت حلة فلبستها ، وجئت فجلست معهن ، وخرج رسول الله ﷺ من قُبَّة ، فلما رأيت رسول الله ﷺ هبته واختلطت ، وقلت : يا رسول الله ، جمل لى شرد فأنا أبتغى له قيداً ، ومضى فاتبعته فألقى إلىَّ رداءه ،ودخل الأراك ،فقضى حاجته ثم توضأ ، فأقبل والماء يسيل على صدره من لحيته . فقال : « أبا عبد الله ، ما فعل ذلك الجمل؟ » وارتحلنا . فجعل لا يلحقنى فى المسير إلا قال : « السلام عليك أبا عبد الله ، ما فعل شراد ذلك الجمل ؟ » فلما رأيت ذلك تغيبت إلى المدينة ، واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبى ﷺ ، فلما طال ذلك علىَّ أتيت المسجد فقمت أصلى ، فخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، فجاء فصلى ركعتين ، فطوَّلت رجاء أن يذهب ويدعنى . فقال : « أبا عبد الله ، طوِّل ما شئت أن تطول فلست بمنصرف حتى تنصرف » . فقلت فى نفسى : والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ ولأبرئن صدره ، فلما انصرفت قال : « السلام عليك أبا عبد الله ،

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ١٤٩/٢ .

ما فعل شراد ذلك الجمل ؟ » . قلت :والذى بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت . فقال : « يرحمك الله » ثلاثاً ، ثم لم يعد لشىء كان)(١).

لقد بقى إنساناً له شهوته وله صبوته ، ولم يتمالك نفسه حين رأى النسوة أن لبس الحلة الجديدة ، وجلس يتحدث معهن ، ورآه رسول الله ﷺ وهو يتحدث مع النسوة ، فاضطرب وقال كلمة تنم عن الاعتذار وتنم عن سيطرة شهوته عليه . فلم يصدر رسول الله ﷺ أوامره فى اعتقاله أو عزله من موقعه القيادى ، أو التشهير به وإسقاط عضويته فى المجتمع الإسلامى ، وقد رآه فى الجرم المشهود ، إنما سمع عذره ولم يغير تعامله معه ، فألقى إليه رداءه وجاءه بعد الوضوء يسأله عن شراد جمله . فهذا الأمر يقلق الحبيب المصطفى ﷺ ، والأصل أن تتقيد شهوة المسلم بقيود الحلال ، فاكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يترك الأمر بينه وبين جنديه العظيم ليسأله كل ما لقيه عن شراد جمله ، واشتد غم خوات حياءً من رسول الله ﷺ ، فأصبح لا يجرؤ على مواجهته ، وإمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتكلم معه بأعلى مستويات الاحترام والود والدماثة ، فيناديه :« أبا عبد الله ».ويذكره بشراد جمله،ومتى يكون له القيد المحكم ، وخوات رضي الله عنه مع حبيبه العظيم لا يعرف كيف يتصرف ، وفى دعابة محببة ودماثة عميقة يقول له: « طول أو لا تطول ، فلست بمنصرف حتى تنصرف » . فيقف الجندى بين يدى قائده الحبيب يلقى إليه جلية الأمر ، أن جمله ما شرد بحمد الله منذ أسلم، ولا يمضى حتى يأخذ من قائده تلك الدعوات الخالدات التى تجعل جمله مطواعاً فى مرضاة الله . « يرحمك الله » ثلاثاً ،وأى ثروة أغنى من هذه الثروة ينصرف بها صاحب ذات النحيين ، وصاحب الجمل الشرود ؟ !

إذا كان الخندق قد حطم هجوم قريش وغطفان ، فما الذى حطم هجوم بنى قريظة وهم خلف المسلمين ، وبين أيديهم الذرارى والنساء فى الآطام ما دون أخذهن قليل ولا كثير ؟ !

الذى أوقف الهجوم اليهودى هو البطولات الفردية من صفية بنت عبدالمطلب والتى قتلت رسول المحاولة الأولى بالاقتراب من الآطام ، والزبير بن العوام وابن صفية الذى كان يصاول ويجاول بنى قريظة ، والسَّبُع خوات بن جبير الذى قتل اليهودى على باب آطام اليهود بسلاحه ، وبطلنا الرابع :

جـ ـ سلمة بن أسلم الحارثى الأوسى : الذى كان على رأس خيالة المسلمين المكلفة بحماية المدينة من الخلف ، فقد حطم الهجوم الذى قام به أبطالهم فى المحاولة

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢/ ١٤٩ .

الأولى ، وحطم الهجوم المخطط والمبيت العام بالاتفاق مع قريش وغطفان فى المحاولة الثانية ، كما نشهد من خلال هاتين الروايتين :

(عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : خرج نباش بن قيس ليلة من حصنهم يريد المدينة ، ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم وهم يقولون: عسى أن نصيب منهم غرة . فانتهوا إلى بقيع الغرقد فيجدون نفراً من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حريش ، فناهضوهم فراموهم ساعة بالنبل ، ثم انكشف القرظيون مولين ، وبلغ سلمة ابن أسلم وهم بناحية بنى حارثة ، فأقبل فى أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم ، فجعلوا يطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود ،وأوقدوا النيران على آطامهم ، وقالوا : البيات ! وهدموا قرنى بئر لهم وهوروها عليهم . فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً)(١) .

(وعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه عن محمد بن مسلمة قال : كنا حول قبة رسول الله ﷺ نحرسه ، ورسول الله ﷺ نائم نسمع غطيطه ، إذ وافت أفراس على سلع ـ وسلع من خلف المسلمين من جهة قريظة ـ فبصُر بهم عباد بن بشر ، فأخبرنا بهم . قال : فأمضى إلى الخيل،وقام عباد على باب قبة النبى ﷺ آخذاً بقائم السيف ينظرنى ، فرجعت فقلت : خيل المسلمين أشرفت عليها سلمة بن أسلم بن حريش فرجعت إلى مواضعنا . ثم يقول محمد بن مسلمة : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرّجه الله)(٢) .

أما أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ والتى كانت مع عائشة وزينب ـ رضوان الله عليهما ـ يتناوبن عند رسول الله ﷺ فقالت :(قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف ـ المريسيع وخيبر وكنا بالحديبية وفى الفتح وحنين ، لم يكن من ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق ؛ وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحرجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، والمدينة تحرس حتى الصباح يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً)(٣) .

د ـ وإذا كان سلمة بن أسلم: قائد خيالة المسلمين تجاه يهود بنى قريظة ،فقد كان عبّاد بن بشر الأوسى قائد خيالة المسلمين والقوات الخاصة حول قبة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام . وندع لأم سلمة ـ رضى الله عنها ـ تحدثنا عن هذا البطل العظيم وصحبه قال الواقدى: حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال: قالت أم سلمة: كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق، فلم أفارقه

(١ ـ ٣) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

مُقامه كله. وكان يحرس بنفسه فى الخندق وكنا فى قرٍّ شديد. فإنى لأنظر إليه قام فصلى ما شاء الله أن يصلى فى قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: «هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، من لهم؟ » ثم نادى: « يا عباد بن بشر» فقال عباد: لبيك! قال: «أمعك أحد ؟» قال : نعم أنا فى نفر من أصحابى كنا حول قبتك . قال: « فانطلق فى أصحابك فأطِف فى الخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم، يطمعون أن يصيبوا منكم غرة ،اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، وأغلبهم لا يغلبهم غيرك! ». فانطلق عباد بن بشر فى أصحابه فإذا بأبى سفيان فى خيل من المشركين يُطيفون بمضيق الخندق. وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم[1] بالرمى، فانكشفوا راجعين إلى منازلهم، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلى فأخبرته. قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذِّن بالصبح وبياض الفجر،فخرج فصلَّى بالمسلمين. فكانت تقول: يرحم الله عباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبدا.

(فحدثنى خارجة بن الحارث عن أبى عتيق السلمى عن جابر بن عبد الله قال: لقد رأيتنى أحرس الخندق، وخيل المشركين تُطيف بالخندق، وتطلب غِرةً ومضيقًا من الخندق فتقتحم فيه، وكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد هما اللذان يفعلان ذلك، يطلبان الغفلة من المسلمين. فلقِينَا خالد بن الوليد فى مائة فارس، قد جال بخيله يريد مضيقًا من الخندق يريد أن يعبر بفرسانه فنضحناهم بالنبل حتى انصرف، فحدثنى إبراهيم ابن جعفر عن أبيه قال: قال محمد بن مسلمة: أقبل خالد بن الوليد تلك الليلة فى مائة فارس فأقبلوا من العقيق حتى وقفوا بالمذاد، وجاه قبة النبى ﷺ. فندرت بالقوم فقلت لعباد بن بشر وكان على حرس قُبة النبى ﷺ وكان قائمًا يصلى، فقلتُ: أُتيت، فركع ثم سجد وأقبل خالد فى ثلاثة نفر هو رابعهم، فأسمعهم يقولون: هذه قبة محمد، ارموا فرموا فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر، فترامينا، وثاب إلينا أصحابنا، وثاب إليهم أصحابهم، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم، ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم، والمسلمون على محارسهم فكلما نمر بمحرس نهض معنا طائفة وثبت طائفة، حتى انتهينا إلى راتج، فوقفوا وقفة طويلة، وهم ينتظرون قريظة يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش يحرس، فيأتون من خلف راتج، فلاقوا خالد بن الوليد، فاقتتلوا واختلطوا، فما كان إلا حلب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية، وتبعه سلمة بن أسلم حتى ردَّه من حيث جاء. فأصبح خالد وقريش وغطَفَان تزرى عليه وتقول: ما

(١) أذلقناهم : أضعفناهم .

صنعت شيئًا فيمن فى الخندق، ولا فيمن أصحر لك. فقال خالد: أنا أقعد الليلة وابعثوا خيلاً حتى أنظر أى شيء تصنع.

فحدثنى ابن أبى سبرة عن عبد الواحد بن أبى عون عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: والله إنى لفى جوف الليل فى قبة النبى ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة، وقائل يقول: يا خيل الله، وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين: يا خيل الله، ففزع رسول الله ﷺ بصوته فخرج من القبة، فإذا نفر من أصحابه عند قبته يحرسونها منهم عباد بن بشر. فقال: « ما بال الناس؟ » قال عباد: يا رسول الله، هذا صوت عمر بن الخطاب، الليلة نوبته ينادى: يا خيل الله. والناس ينوبون إليه وهو من ناحية حسيكة ما بين ذباب ومسجد الفتح. فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر: « اذهب فانظر، ثم ارجع إلىَّ إن شاء الله فخبرنى» قالت أم سلمة: فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ قائمًا حتى جاءه عباد بن بشر فقال: يا رسول الله هذا عمرو بن عبد ود فى خيل المشركين معه مسعود بن رخبة... بن أشجع بن رثب بن غطفان فى خيل غطفان، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة. قالت: فدخل رسول الله ﷺ، فلبس درعه ومغفره، وركب فرسه، وخرج معه أصحابه، حتى أتى تلك الثُغرة، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور. فقال: «صرفهم الله». وقد كثرت فيهم الجراحة. قالت: فنام حتى سمعت غطيطه. وسمعت هائعة أخرى، ففزع ووثب فصاح: « يا عباد بن بشر! »قال: لبيك! قال: «انظر ما هذا». فذهب ثم رجع وقال: هذا ضرار بن الخطاب فى خيلٍ من المشركين، معه عيينة بن حصن فى خيل غطفان عند جبل بنى عبيد، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه وركب فرسه ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثُغرة، فلم يأتنا حتى كان السحر فرجع وهو يقول: «رجعوا مفلولين قد كثرت فيهم الجراحة» ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس)(١).

بقى علينا أن نعلم أن هذه الخيالة التى واجهت خيول المشركين، إنما كانت فقط ستة وثلاثين فرسًا مقابل مائتى فرس لدى المشركين.

هـ ـ وعباد بن بشر رضي الله عنه قائد الحرس الخاص لرسول الله ﷺ هو أحد القمم الثلاثة فى الأوس وهؤلاء الثلاثة هم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر. قالت عنهم عائشة ـ رضى الله عنها ـ : (ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً كلهم من بنى عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير)(٢).

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٣٨ وقال المحقق فيه : « أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ».

وإذا كان حديثنا عن عباد بن بشر فى الفقرة السابقة الذى شهدنا عظمته فى كل لحظة كيف يكون بين يدى قائده، وكيف يتحرك ليواجه العدو على رأس قواته، وشهدنا من قبل عظمته يوم جاءته السهام الثلاثة وهو يقرأ فى تهجده سورة من القرآن وقال: (كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع علىّ الرمى آذنتك، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها) (١) .

أما أسيد بن حضير : فقد رأيناه فى الخندق يوم كان أحد الثلاثة الذين مضوا إلى اليهود. ليثنوهم عن نقضهم العهد. (ووقع كعب بن أسد سيد بنى قريظة بسعد بن معاذ يسبه فقال أسيد بن حضير :تسب سيدك يا عدو الله، ما أنت له بكفء ! أما والله يا بن اليهود لتولينّ قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك فى عقر دارك. فنسير إليك، فتنزل من جُحرك هذا على حكمنا، وإنك لتعلم النضير، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة، وتيك نصف ديتهم، وقد رأيت ما صنع بهم، وقبل ذلك بنو قينقاع نزلوا على حكمنا)(٢) .

وها هو يقف موقفه الأشد من عيينة بن حصن، وقد جاء يتمادى طمعًا فى نخيل الأنصار، ويتلفظ لنصف هذا النخيل مقابل انخذاله مع من معه من غطفان من المعركة.

وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم، وعباد ابن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ مقنَّع فى الحديد. فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ ولا يدرى بما كان من الكلام. فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وجاء عيينة مادا رجليه بين يدى رسول الله ﷺ،وعلم ما يريدون فقال:

يا عين الهجرس(٣) ،اقبض رجليك، أتمد رجليك بين يدى رسول الله؟ ـ ومعه الرمح ـ والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن كان أمرًا من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف متى طمعوا بهذا منا(٤) .

ولا يدع صوفى ذلك فهو ابن أبيه حضير بن سماك، الذى كان قائد الأوس فى بعاث. وهو الذى حقَّق نصر الأوس على الخزرج.

ونجد أسيدًا كذلك فى القيادات الكبرى التى تقوم بمواجهة المشركين.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١ وقال المحقق فيه : « رواه البخارى معلقًا فى كتاب الوضوء ١ / ٢٨٠ وأبو داود وابن خزيمة ».

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٥٨ .

(٣) الهجرس : ولد الثعلب والهجرس أيضاً القرد .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٤٧٨ .

فحدثنى أيوب بن النعمان عن أبيه قال: كان أسيد بن الحضير يحرس الخندق فى أصحابه فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل(١) فإذا طليعة من المشركين مائة فارس أو نحوها. عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا إلى المسلمين فقام أسيد بن الحضير عليها بأصحابه، فراموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنها وولوا وكان فى المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسى. فقال لأسيد: إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفره خيلهم وكان الناس عجّلوا فى حفره، وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق، وأمنوا أن تطفره خيلهم، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة، وكانوا فى قر شديد وجوع.

و ـ أما ثالث الثلاثة وسيدهم فهو البطل العظيم الذى يفتقده أهل السماء وأهل الأرض فى الخندق إنه سعد بن معاذ. ولئن كانت المصيبة الجلل لرسول الله ﷺ فى بدر بابن عمه عبيدة بن الحارث. وفى أحد بعمه حمزة بن عبد المطلب. فقد كانت مصيبته ومصيبة المسلمين والملائكة فى الخندق باستشهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ولنرافق سعد فى لحظاته الأخيرة، ليكون على رأس من قال الله فيهم :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

١ـ نشير ابتداءً إلى حديث رسول الله ﷺ فى فضل دور الأنصار: « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفى كل دور الأنصار خير »(٣) .

٢ـ وسيد بنى عبد الأشهل هو سعد بن معاذ بلا منازع، وهو سيد الأوس جميعًا.

(نقل ابن الكلبى عن عبد الحميد بن أبى عيسى بن جبر عن أبيه أن قريشًا سمعت هاتفًا على أبى قبيس يقول:

فإن يُسلم السعدان يصبح محمد   بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فقال أبو سفيان: من السعدان؟ سعد بكر، سعد تميم؟ فسمعوا فى الليل الهاتف يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً   ويا سعد سعد الخَزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا   على الله فى الفردوس منية عارف

---

(١) تطفره الخيل: تثب منه فى ارتفاع .   (٢) الأحزاب / ٢٣ .

(٣) البخارى فى مناقب الأنصار . وهو فى فتح البارى ٧/ ١١٥ برقم (٣٧٨٩) .

فـإن ثـواب الله للطـالب الهـــدى جنـان مـن الفـردوس ذات رفـارف

فقال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة)[1] .

٣ـ وبإسلامه تحولت عشيرته كلها إلى الإسلام:

أسلم سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير فقال ابن إسحاق: (لما أسلم وقف على قومه فقال: يا بنى عبد الأشهل؟ كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا فضل، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلامكم على حرام رجالكم ونساؤكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما بقى فى دار بنى عبد الأشهل رجل وامرأة إلا وأسلموا)[2] .

د ـ ونعود إليه فى الخندق، وقد شهدناه عند حلفائه الأوس الذين لم يرعوا له حلفًا، ولا ذمة، ورأيناه كالسبع الضارى فى مواجهة غطفان حين قال كما ذكرنا من قبل: (يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرىً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا بك، وأعزنا الله بك به نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك». فتناول سعد بـن معاذ الصحيفة ، ومحا ما فيها من كتاب ثم قال : ليجهدوا علينا)[3] .

إن بعض الرجال ليحققون المنعطفات التاريخية ، وسعد بن معاذ أحد هؤلاء الرجال العظام، الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم، وحققوا أهم المنعطفات فيه، فى إسلامه، وفى موقفه فى بدر، وفى موقفه فى الخندق، وها هو نشهده فى ختام حياته يحقق ذلك المنعطف التاريخى فى بنى قريظة.

٤ـ وكما سقط البطل العظيم حمزة صريعًا غيلة فلا يجرؤ على مواجهة أحد، نجد سعدًا يلقى المصير نفسه من بعيد، قال ابن إسحاق:(وحدثنى أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصارى أخو بنى حارثة أن عائشة أم المؤمنين كانت فى حصن بنى حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن، فقالت عائشة، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب. فمر سعد

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٠ وقال المحقق فيه: « ذكره البخارى فى التاريخ الصغير ١/ ٢٥ ، ٢٦ وعند مسلم وعدد الأبيات اثنان ».

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٠ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣١ ، وقال المحقق عنه: « يكون الحديث حسنًا من طريق البزار والطبرانى وتشهد له الطرق الضعيفة الأخرى عند غيره ».

وعليه درع له مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها، وفى يده حربته يرقد - أو يرفل - بها ويقول:

لبِّث قليلاً يدرك الهيجا حمل   لا بأس بالموت إذا جاء الأجل

فقالت له أمه: الحق أى بنى، فقد والله أخرت. قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى، قالت: وخفت عليه حيث أصاب السهم منه، فرمي سعد بن معاذ بسهم، فقطع منه الأكحل ، رماه كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة حِبَّان بن العرقة أحد بنى عامر بن لؤى، فلما أصابه. قال: خذها منى وأنا ابن العرِقة. فقال له سعد: عرق الله وجهك فى النار، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها. فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة)[1] .

وفى رواية مسلم عن عائشة - رضوان الله عليها - :(أن سعدًا قال : - وقد تحجَّر كلْمه[2] للبرء - فقال : اللهم إنك تعلم أن ليس أحد أحب إلىّ أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه ، اللهم إن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى أجاهدهم فيك ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها[3] واجعل موتى فيها . فانفجرت من لبّته[4] فلم يرعهم - وفى المسجد خيمة من بنى غفار - إلا والدم يسيل إليهم . فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا الذى يأتينا من قبلكم . فإذا سعد بن معاذ يغذُّ[5] دماً ، فمات منها) .

فهو دعاء عجيب ، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم فى الحياة ليست الاستشهاد فقط ، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة ، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام فى قومه وأمته .

ونجد عظمة فراسته يوم يقول : اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم . ومن كان يدرك من الأمة أن هذه هى الحرب الأخيرة بين رسول الله ﷺ وقريش . وقريش تقرع أبواب المدينة بعشرة آلاف مقاتل هى وحلفاؤها ، لكنه يدرك بسعة أفقه ، وبعد نظره ، أن هذه هى آخر محاولة لقريش فهى أعجز أن تفعل بعد الآن أكثر مما فعلته . وهو المعنى الذى حدده رسول الله ﷺ فيما بعد : « الآن نغزوهم ولا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣١٦ ، وقال المحقق فيه فى سير أعلام النبلاء : « رجاله ثقات » .
(٢) كلمه : جرحه .   (٣) افجرها : أى فشق الجراحة شقاً واسعاً .
(٤) من لبته : وفى بعضها : من ليلته . قال القاضى : وهو الصواب .
(٥) يغذ : يسيل .

يغزونا » .

إنه القائد العظيم الذى يستشف بالبصيرة النافذة التى أعطاه الله إياها حجب الغيب وهو يدرس سنن النصر والهزيمة فى الأمم (ولا تمتنى حتى تشفينى من بنى قريظة) .

فهناك هدف آخر يرجوه من ربه قبل أن ينتقل من هذا العالم ، هو أن يشتفى من بنى قريظة حلفاء الأمس غُدّار اليوم وأعداء اليوم ، إنه يعزم على ربه.

وكما نراه لو أقسم على الله لأبره ، فهو وجيه فى السموات والأرض . فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر فى بنى قريظة كله إليه ، وأن يطلب بنى قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ .

إنه لا يحرص كثيراً على الحياة ، بعد انتهاء الجهاد ، وانتهاء المسؤولية ، وتأدية الأمانة المناطة به فى قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب ، ووضعت الحرب بين المسلمين وقريش ، وشفى غيظ قلبه فى الحكم فى بنى قريظة ، وبدأ قطف الثمار للإسلام ، فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة . (فافجر جرحى واجعل موتتى فيه) .

ومن تحتفل السموات بمقدمه ، ويهتز عرش الرحمن لاستقباله لا عجب أن تلبى مطالبه الثلاثة عند ربه . فهو حبيب إلى ربه ومقرب إليه ، وآن الأوان لأن يرى بعينه مصرع بنى قريظة ، ويشهد انحسار المشركين خائبين يجرون أذيال الهزيمة .

٥ ـ (عن جابر قال : رمى سعد يوم الأحزاب فقطعوا أكحله فحسمه النبى ﷺ بالنار ، فانتفخت يده فتركه ، فنزف الدم ، فحسمه أخرى ، فانتفخت يده، فلما رأى ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، فاستمسك عِرقه ، فما قطرت منه قطرة ، حتى نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحكم أن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم . قال : وكانوا أربعمائة . فلما فُرِغ من قتلهم انفتق عِرقُه)[١] .

ونجد تفصيل ذلك عند ابن إسحاق فى السيرة إذ يقول :

(. . . فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ .فتواثبت الأوس ، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع وكانوا حلفاء

---

(١) سيرأعلام النبلاء ١/ ٢٨٢ ، ٢٨٣ وقال المحقق فيه : « أخرجه أحمد والترمذى والدارمى ومسلم وأبو داود عن جابر وعن أنس ـ رضى الله عنهما » .

الخزرج . فنزلوا على حكمه ، فسألهم إياه عبد الله بن أبى بن سلول ، فوهبهم له ، فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ ». قالوا: بلى يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « فذاك إلى سعد بن معاذ ». وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها: رفيدة فى مسجده تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: « اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب » . فلما حكَّمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤوا له بوسادة من أدم ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ، ثم أقبلوا معه على رسول الله ﷺ وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما كثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل . فنعى لهم رجال بنى قريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التى سمع منه . فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » . فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار . وأما الأنصار فيقولون : قد عمَّ بها رسول الله ﷺ . فقاموا إليه . فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن معاذ : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم لما حكمت ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من ها هنا ؟ فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له . فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تُقتل الرجال ، وتُقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثى قال : قال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1] ») .

قال ابن إسحاق : ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار ، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق تُخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم عدو الله حيى بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة)[2] .

---

(١) الأرقعة : السموات .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وبضدها تتميز الأشياء :

فعبد الله بن أبى ربط مصيره بمصير اليهود . وقال لرسول الله ﷺ :

(ثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر منعونى الأحمر والأسود من الناس تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى امرؤ أخشى الدوائر) . ووهبهم رسول الله ﷺ حين ألح وأثقل ، وأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ ، وطفت زعامته على السطح، لكن قال الله تعالى له ولأتباعه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾[1] .

وحَسِبَ بعض الأوس أن هذا الشرف لابن أبى عند الخزرج لابد أن يعامل سعد بن معاذ بمثله فينقذ حلفاءه كما أنقذ ابن أبى حلفاءه ، فراحوا يذكرون سعداً بهذه المزية .

ففى رواية الواقدى : (يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن ، فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه . والضحاك بن خليفة يقول : يا أبا عمرو ، مواليك ، مواليك ، قد منعوك فى المواطن كلها ، واختاروك على من سواك ورجوا عياذك ، ولهم جمال وعدد . وقال سلمة بن سلافة بن رقش : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك وحلفائك ، إن رسول الله ﷺ يحب البقية ! نصروك يوم بعاث والحدائق والمواطن ، ولا تكن شراً من ابن أبى . . . وجعل قائلهم يقول : يا أبا عمرو ، وإنا والله قاتلنا بهم فقتلنا ، وعاززنا بهم فعززنا) .

هذا الاتجاه كان عند بعض رجالات الأوس ، وبعضهم مغموص عليه بالنفاق ، وبعضهم يذكر الماضى كله ، وينسى واقع نقضهم للعهد أو يتناساه ، ولكن هؤلاء لم يكونوا مع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يوم مضوا إلى بنى قريظة يذكرونهم بعهد رسول الله ﷺ ـ وهو أعظم العهود كلها ـ فقال سيدهم كعب : لا نرده أبداً قد قطعته كما قطعت هذا القِبال ـ لقبال نعله . . . ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام ، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتى أغضبوه . . . ولم يكونوا مع سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم قال نباش بن قيس أحد قادتهم لسعد بن عبادة سيد الخزرج: عضضت ببظر أمك . ولم يكونوا مع سعد يوم قال له غزَّال بن سموأل : أكلت أير أبيك .

---

(١) المائدة / ٥١ ، ٥٢.

فسعد إذن غدا أعظم ضراعته عند ربه : اللهم لا تمتنى حتى تشفنى من بنى قريظة. فإذا أمر بنى قريظة كله يلقى إليه ، سواءً اختاره بنو قريظة ليحكم فيهم أو ، اختاره رسول الله ﷺ ليهدئ بعض هذه النفسيات الأوسية . فكان جواب سعد الحاسم القاصم على هذا الرجاء كله من بعض أفراد قومه الذى يلحون عليه ، كلمة واحدة خالدة : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

وعرف هؤلاء الأفراد على ضوء هذه الكلمة أن بنى قريظة قد انتهوا . فنعوهم إلى قومهم . وكان هذا الحكم الذى وافق حكم رب السموات والأرض. « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » .

لكن الأوس لم يكونوا فى معظمهم على رأى طالبى العفو .

(وجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، فقالا : يا رسول الله ، إن الأوس كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، ما كرهه من الأوس من فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه الله. فقام أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله لا تُبقين داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها ، فمن سخط فلا يرغم الله إلا أنفه. . .)(1) .

وإذا كان أمر الله انتهى بابن أبى فهو منهم ﴿ والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِين ﴾ (2) فأين انتهى الأمر بالعظيم الخالد سيد الأوس سعد ؟! . نتابع الخطا معه إلى لحظاته الأخيرة . وقد أقر الله عينه ببنى قريظة ، ووضع الحرب مع قريش .

٦ ـ ها هو سعد رضي الله عنه يرى تحقق كل آماله لحظة واحدة ، فقد أصدر حكمه ، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم ، وها هو جرحه ينفجر.

(أبو إسحاق عن عمرو بن شرحبيل قال : لما انفجر جرح سعد عجَّل إليه رسول الله ﷺ ، فأسنده إلى صدره ، والدماء تسيل عليه فجاء أبو بكر فقال : وانكسار ظهراه على سعد ! فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً أبا بكر » ، فجاء عمر فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . رواه شعبة عنه)(3) .

يزيد بن هارون ، أنبأنا إسماعيل بن أبى خالد عن رجل من الأنصار قال : (لما قضى سعد فى بنى قريظة , ثم رجع انفجر جرحه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فأتاه فوضع رأسه فى حجره ، وسجى بثوب أبيض وكان رجلاً أبيض جسيماً . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إن سعداً قد جاهد فى سبيلك ، وصدَّق رسولك ، وقضى الذى

(1) المغازى للواقدى ٣ / ٥١٥ . (2) البقرة / ٢٦٤ .

(3) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٨٥ وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات لكنه مرسل » .

عليه ، فتقبل روحه بخير ما تقبَّلت به روحاً » فلما سمع سعد كلام رسول الله ﷺ فتح عينيه ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، إنى أشهد أنك رسول الله . وقال النبى ﷺ لأهل البيت : « استأذن الله من ملائكته عددكم فى البيت ليشهدوا وفاة سعد » . قال : وأمه تبكى وتقول :

ويل أمك سعداً　　　حزامة وجداً

فقيل لها : أتقولين الشعر على سعد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعوها فغيرها من الشعراء أكذب » هذا مرسل)[1] .

٧ ـ ويأتى جبريل السفير ـ عليه السلام ـ بين الله تعالى ونبيه محمد ﷺ بالخبر الصاعق والمفرح فى الوقت نفسه (وخرَّج النسائى عن طريق معاذ بن رفاعة عن جابر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذى مات ؟ فتحت له أبواب السماء ، وتحرك له العرش . فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد)[2] .

(يونس عن ابن إسحاق عن معاذ بن رفاعة قال : حدثنى من شئت من رجال قومى ،أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ﷺ حين قُبض سعد معتجراً بعمامة من إستبرق ، فقال : يا محمد ، من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش؟ فقام سريعاً يجر ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات)[3] .

قال ابن إسحاق عن أمية بن عبد الله عن بعض آل سعد أن رجلاً قال :

وما اهتز عرش الله من موت هالك　　　سمعنا به إلا لسعدٍ أبى عمرو

٨ ـ ويتحرك الموكب الكريم على رأسه رسول الله ﷺ ليشهد سعداً بعد وفاته التى جاء يخبر بها جبريل ـ عليه السلام :

(عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد قال : لما أصيب أكحل سعد ، فثقل، حولوه عند امرأة يقال لها : رفيدة تداوى الجرحى ، فكان النبى ﷺ إذا مرَّ به يقول : « كيف أمسيت ؟ » ،و« كيف أصبحت ؟ » فيخبره حتى كانت تلك الليلة التى نقله قومه فيها ، وثقل فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم،وجاء رسول الله ﷺ فقيل :

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٨٥ . وقال المحقق فيه : « بل معضل ؛ لأنه مرسل وفيه من لم يسم وأخرجه ابن سعد ٣/٢/٧ » .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٩٣ ، وقال فيه المحقق : «أخرجه أحمد ٣ / ٣٢٧ والحاكم ١/ ٢٠٦ وصححه ووافقه الذهبى »، وقال الذهبى : قد تواتر قول النبى ﷺ : « إن العرش اهتز لموت سعد فرحاً به» ، وثبت أن النبى ﷺ قال فى حلة تعجبوا من حسنها : « لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذه » . وقال المحقق : « ورد هذا الحديث عن جابر وأنس وحذيفة وعاصم بن عمر بن قتادة عن جدته رميثة . وذكر ابن عبدالبر أنه روى من وجوه كثيرة . وفى شرح المواهب ثبت عن عشرة من الصحابة ١/ ٢٩٢ » .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٢٩٤ .

«انطلقوا به ». فخرج وخرجنا معه. وأسرع حتى تقطع شسوع نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه . فقال : « إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة » فانتهى إلى البيت وهو يُغسل ، وأمه تبكيه وتقول :

ويل أم سعد سعداً حـزامـة وجدًا

فقال : « كل نائحة تكذب إلا أم سعد » ، ثم خرج به قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ، ميتاً أخف علينا منه . قال : « وما يمنعه أن يخف ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»)(١) .

وحتى نعرف عدد الملائكة الكرام البررة ،الذين هبطوا لأول مرة ليشاركوا فى جنازة سعد ،والصلاة عليه ، والذين جاؤوا ممثلين لأهل السموات فى ذلك . نستمع إلى ما رواه النسائى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ومنهم من أرسله ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش ، وفُتحت أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أفرج عنه » يعنى سعداً (٢) .

إنه وفد عز نظيره فى التاريخ، وقلّ نظيره فى التاريخ، إنه مثل وفد سورة «الأنعام» الذى نزل بها جبريل ، على قلب رسول الله ﷺ كما روى الطبرانى بسنده عن ابن عباس: « نزلت « الأنعام» بمكة ليلة، جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك ، يجأرون حولها بالتسبيح »(٣) .

وفى رواية ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدٌ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج » ورسول الله ﷺ يقول: « سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم » (٤) .

لمثل هـذه الأحـداث الفخـام تتنـزل الملائكـة مـن السمـوات العلـى لتشهـد هـذه الأحداث. وها هو رسول الله ﷺ ، يودع سعداً كما روى عبد الله بن شداد : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكيد نفسه فقال: « جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزنك الله ما وعدك » (٥).

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٧ ، وقال المحقق فيه : «أخرجه ابن سعد عن . . . محمود بن لبيد وإسناده حسن» .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٩٥ وقال المحقق فيه : «إسناده صحيح ، وأخرجه النسائى فى الجنائز ٤/ ١٠٠» .

(٣،٤) فى ظلال القرآن ٢/ ٢٢/ ١٠٢٢ . (٥) السير ١/ ٢٨٨ وقال المحقق فيه:«رجاله ثقات ».

٩ـ وتحدثنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ عن وقع فقدان سعد على الأمة المسلمة كلها فتقول:

ما كان أحدٌ أشد فقدًا على المسلمين بعد النبى ﷺ وصاحبيه أو أحدهما من سعد ابن معاذ (١).

ولا عجب فعنده من المقومات والكفاءات، والقدرات، والطاقات ، ما لا يملكها إلا القليل القليل غيره . ولا شيء أعظم فى تقدير هذه الكفاءات ،والطاقات من هذا الحكم النبوى العظيم. من رسول الله ﷺ وهو يسمع بكاء أم سعد تتحدث عن مآثره . فقال: « كل باكية تكذب إلا أم سعد » وفى رواية : « كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد ابن معاذ » .

ولا عجب أن تبكى أم سعد بن معاذ ، إذ كان سيد ولد آدم، وصاحباه خيرة الأمة بعده بكوا سعدًا بكاءً مرًا ، كما تروى لنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ قالت: حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ وهو يموت فى القبة التى ضربها عليه رسول الله ﷺ فى المسجد. قالت: والذى نفسى بيده إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر، وإنى لفى حجرتى فكان كما قال الله : ﴿ **رحماء بينهم** ﴾(٢).

ومع كل هذه المآثر والمحاسن لم ينج سعد رضي الله عنه من ضمة القبر.

(لما انتهوا إلى قبر سعد نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع فى قبره، تغير وجه رسول الله ﷺ، وسبح ثلاثًا ،فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع، ثم كبَّر ثلاثًا ، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرَّج الله عنه»)(٣) .

وتؤكد عائشة ـ رضوان الله عليها ـ فيما ترويه عن النبى ﷺ هذا المعنى: « إن للقبر ضغطة لو كان أحد منها ناجيًا، نجا منها سعد بن معاذ » إسناده قوى(٤) ، وفى رواية : « لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد » (٥) .

ثم آب المسلمون بعد أن ودَّعوا فقيدهم الغالى ليعزى رسول الله ﷺ أم سعد بابنها سعد كما عزاها فى أحد بابنها عمرو، فيقول لها: « ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك؟ فإن

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٩٦ وقال المحقق فيه: « إسناده حسن ».

(٢) الفتح / ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه وقال المحقق فيه : «إسناده حسن ». وأخرجه أحمد ٦ / ١٤١». ونشير إلى أن البكاء كان عندما ثقل سعد ؛لأن النصوص الصحيحة تثبت أن وفاته كانت فى أهله فى بنى عبد الأشهل كما مر معنا.

(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٩٠، وقد ضعفه المحقق ؛ لوجود الواقدى فى سنده.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٩١ .

ابنك أول من ضحك الله إليه، واهتز له العرش »[1] .

١٠ـ وأخيرًا نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن هذه الشخصيات العظيمة، ما كان أن تبرز عبقريتها ،ومواهبها الكامنة الكاملة بين يدى أعظم عظماء الأرض ، محمد رسول الله ﷺ، وهى تمارس مسؤوليتها فى جانب الجندية معظم الأحيان، فكثير من هذه النماذج التى لم يتح لها أن تتربع على مسؤولية الحكم ، والقيادة فى الأمة لتتفجر هذه الطاقات من خلالها، وقضت نحبها بين يدى قائدها ـ عليه الصلاة والسلام.

الثانية: أن سعد بن معاذ رضي الله عنه استشهد وهو فى ريعان شبابه ،فقد كان فى السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعنى أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو فى الثلاثين من عمره. ويعنى كذلك أن هذه السيادة الكبرى التى جعلت قومه يقولون فيه: أفضلنا رأيًا ، وأيمننا نقيبة، والتى لم تجعل فى بيته رجلاً ولا امرأة إلا دخل فى الإسلام ، تلك الليلة أقول: إن هذه السيادة إنما كانت إذن فى العشرينات من عمره ، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين. وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين ، التى هى غاية الأشد.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . . . ﴾[2] .

فأى طراز هذا الذى حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحًا بوفاته ، من دون خلق الله أجمعين.

كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين ، حسن اللحية. فرمى يوم الخندق سنة خمسٍ من الهجرة، فمات من رميته تلك وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ودفن بالبقيع[3] .

هـ ـ حذيفة بن اليمان ـ الأنصارى المهاجرى :

يقول عنه الحافظ الذهبى : (من نجباء أصحاب محمد ﷺ ، وهو صاحب السر، واسمه اليمان . . . مسيل ويقال : حُسيل بن جابر العبسى اليمانى أبو عبد الله حليف الأنصار من أعيان المهاجرين) .

ولسنا بصدد عرض مآثره رضي الله عنه فمسيرته طويلة معنا، وإنما توقفنا عند سعد بن معاذ رضي الله عنه لأننا افتقدناه فلن نجد حديثًا بعد الآن، إنما يهمنا دور حذيفة فى الخندق، مع

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٩١ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٢) الأحقاف / ١٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٩٠

الصفوة المختارة ،من قيادات المهاجرين والأنصار ، بصفتها النماذج العليا التى برزت فى غزوة الأحزاب.

روى الحاكم وصححه ابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طرق عن حذيفة، ومسلم ، وابن عساكر عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه، وابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى، وأبو نُعيم مختصراً عن ابن عمر:

أن حذيفة رضي الله عنه ذكر مشاهد مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، وفى لفظ: فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ لقاتلت معه وأبليت. ففال حذيفة: لا تتمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة واليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ويقولون : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾(١) فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له. فيتسللون ونحن ثلاثمائة(٢) أو نحو ذلك، فاستقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً يقول: « ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة » ، وفى لفظ: « جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة، فلم يجبه منا أحد » . ثم الثانية ثم الثالثة مثله، فقال أبو بكر: يا رسول الله ،ابعث حذيفة. فقلت: دونك(٣)والله فمرَّ علىَّ رسول الله ﷺ وما علىَّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرطًا(٤) لامرأتى ما يجاوز ركبتى. قال: فأتانى ، وأنا جاث على ركبتى فقال:« من هذا؟ » قلت:حذيفة.قال رسول الله ﷺ:«حذيفة؟ » فقال حذيفة : فتقاصرت للأرض فقلت: بلى يا رسول الله،كراهية أن أقوم. قال: «قم» ، فقمت. فقال: « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » فقلت: والذى بعثك بالحق، ما قمت إلا حياء منك من البرد. قال: « لا بأس عليك من حرٍ ولا برد حتى ترجع إلىَّ »قال:وأنا من أشد الناس فزعًا، وأشدهم قُرّا (٥).فقلت: والله ما بى أن أقتل ، ولكن أخشى أن أؤسر.فقال:« إنك لن تؤسر» .قال:فخرجت،فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» قال: فوالله ما خلق الله تعالى فى جوفى فزعًا ، ولا قُرّا إلا خرج. فما أجد شيئًا

(١) الأحزاب / ١٣ .

(٢) لعلها المجموعة التى كان فيها حذيفة، وإلا فعدد جيش المسلمين بلغ ثلاثة آلاف كما يذكر رواة السير.

(٣) دونك: بمعنى خذ.

(٤) المرط: بالكسرة من صوف أو خزٍ أو كتان والمراد هنا الأول.

(٥) القَرُّ: البرد.

فَمضيت ، كأنما أمشى فى حمام، فلما وليت، دعانى، فقال: « يا حذيفة، لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى ». وفى رواية: فقلت: يا رسول الله مرنى بما شئت. فقال ﷺ: « اذهب حتى تدخل بين ظهرى القوم فأت قريشًا فقل: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين قريش؟ أين قادة الناس؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدِّموكم، فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم ، ثم ائت بنى كنانة فقل: يا معشر بنى كنانة إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين بنو كنانة؟ أين رماة الحَدَق[1] فيُقدِّموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم . ثم أئت قيسًا فقل: يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين أحلاس[2]الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدِّموكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم » قال حذيفة: فخرجت حتى إذا دنوت من معسكر القوم ونظرت فى ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار [3]ويمسح خاصرته، وحوله عصبة، قد تفرق عنه الأحزاب وهو يقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فانتزعت سهمًا من كنانتى أبيض الريش، فوضعته فى كبد القوس[4] لأرميه فى ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: « لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى » فأمسكت ورددت سهمى، فلما جلست فيهم أحس أبو سفيان أن قد دخل فيهم غيرهم فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه. . . وفى لفظ : فلينظر من جليسه. فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبى سفيان، ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يُفطن بى فبدرتهم [5] بالمسألة، ثم تلبثت فيهم هنيهة، وأتيت بنى كنانة وقيسًا. وقلت ما أمرنى به رسول الله ﷺ ثم دخلت فى العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر ونادى عامر بن علقمة بن علاثة: يا بنى عامر إن الريح قاتلتى وأنا على ظهر. وأخذتهم ريح شديدة، وصاح بأصحابه فلما رأى ذلك أصحابه جعلوا يقولون: يا بنى عامر الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح فى معسكر المشركين ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم والريح تضرب بهم، فلما دنا الصبح نادوا: أين قريش؟ أين رؤوس الناس؟ فقالوا: أيهات[6]هذا الذى أتينا البارحة. أين كنانة؟ فقالوا: أيهات هذا الذى أتينا البارحة، أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ فقالوا: أيهات هذا الذى أوتينا البارحة. فلما رأى ذلك أبو سفيان أمرهم

(١) رماة الحدق : الحدق جمع حدقة وهى سواد العين والمراد : المهرة فى الرمى .
(٢) الأحلاس: جمع حليس وهو كساء يُجعل على ظهر البعير والمعنى أنهم ملازمون لركوب الخيل.
(٣) يقول بيده على النار: يعبر بها عن التهيؤ للأفعال والاستعداد لها.
(٤) كبد القوس: مقبضها. (٥) بدرتهم: سبقتهم.
(٦) أيهات: لغة فى هيهات ويقصد بها التمنى البعيد.

بأن تحمَّلوا فتحملوا، وإن الريح لتقلبهم على بعض أمتعتهم حتى رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول فجعل يستحثه ، ولا يستطيع أن يقوم حتى حُلَّ بعد. ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ. فلما انتصف بى الطريق ، أو نحو ذلك إذا أنا بعشرين فارسًا أو نحو ذلك معتمين قالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة[1] يصلى، فوالله ما عدا أن رجعت حتى راجعنى القرُّ، وجعلت أقرقف[2]. فأومأ إلىَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى، فدنوت منه، فَسَدَلَ علىَّ من فضل شملته ،وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر[3] صلى. فأخبرته خبر القوم ،وإنى تركتهم يرحلون، فلم أزل نائمًا حتى جاء الصبح. فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: « قم يا نومان » [4].

وذكر ابن سعد أن عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد أقاما فى مائتى فارس ساقة للعسكر، وردءًا لهم مخافة الطلب.

١ـ الصورة التى نقلها حذيفة رضي الله عنه صورة دقيقة،وأمينة خالية من الرتوش،ونحن لا نستطيع أن نشهد تطبيق الآيات القرآنية﴿ . . .**وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾[5] إلا من خلال هذا العرض الذى عرضه حذيفة رضي الله عنه.

فرسول الله ﷺ يعرض رفقته فى الجنة لمن يأتيه بخبر القوم، كما فى رواية مسلم: « ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة » ثلاث مرات، وفى المرات الثلاثة فسكتنا فلم يجبه منا أحد [6] . ورسول الله ﷺ يضمن له السلامة والرجعة والجنة كما فى رواية ابن إسحاق: « من رجل ينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » . فما قام رجل من القوم[7] .

فهل يوجد إغراء للمسلم الملتزم بدينه أعظم من هذا الإغراء، الرفقة لرسول الله ﷺ فى الجنة والعودة سالمًا من المهمة، هذا الخوف و البرد ، الذى بلغ هذا المدى . يعطينا صورة أمينة عن النفس البشرية،فكثيرًا ما يتحدث الواعظون والدعاة عن الإيمان، وأثره على المسلم، وعن العقيدة ، وأثرها فى تكوين النفس ، فيقولون فى ذروة المد الشعورى : إن المؤمن الحقيقى لا يخاف، ولا يمكن أن يخاف، فهو لا يخاف أحدًا إلا

(١) الشملة: كساء صغير يؤتزر به.
(٢) أقرقف: أرعد من البرد.
(٣) حزبه أمر: نزل به.
(٤) يا نومان: يا كثير النوم.
(٥) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .
(٦) مسلم ٣ / ١٧٨٨ / ١٤١٤ .
(٧) السيرة لابن هشام ٣ / ٣٢٢ .

الله. ويشككون بالمؤمن لو اعتراه الخوف ، أو اعتراه الضعف، وهذه صورة تخالف النصوص الثابتة الصحيحة ، فقد أكد القرآن فى أكثر من موقع أن المؤمن الصادق يخاف، والمؤمنون الصادقون يخافون. ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (٢) .

وهذه النصوص الصحيحة فى الخندق تؤكد هذا المعنى، إنما الفرق هو كيف يتصرف المؤمن إذا خاف، وما هى دوافع خوفه، وقصة حذيفة تعطينا الصورة الصحيحة للموقف.

٢ـ فهو وإخوانه المؤمنون لم يستجيبوا لدواعى التنافس، وغلب الخوف من العدو دواعى الإغراء بالسلامة ، والجنة فى هذه اللحظات الرعيبة، لكن الأمر عندما تحدد، وطلب من حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ بشخصه أن يمضى إلى العدو انتهى كل تفكير لديه بالتردد ولم يعد مخيرًا باتخاذ الموقف .(فلما لم يقم أحد، دعانى رسول الله ﷺ فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى) .

وفى الرواية التى ذكرناها ، كان صريحًا فى إبداء عذره ، ومعاناته. قال: «قم»، فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فائتنى بخبر القوم » . فقلت : والذى بعثك بالحق ما قمت إلا حياءً منك من البرد . قال: «لا بأس عليك من حرٍ ولا بردٍ حتى ترجع إلى».

لقد تربى هذا الجيل ، على ألا يقول حين يصدر إليه الأمر، لكننا نذكر بالمقابل أنها المرة الوحيدة فى تاريخ السيرة أن ينتدب رسول الله ﷺ المسلمين لأمر، ولا يوجد من يستجيب له، وهذا يعنى أننا الآن فى ذروة المحنة، التى وصل إليها المسلمون فى تاريخهم كله. ولابد أن نذكر مع ذلك صعوبة المهمة وخطورتها، وهى أن يدخل فى العدو وحده، العدو المتربص، المتوثب للقتل، وليس العدو الغافى الذى لا يدرى بتسلله ودخوله. وكان صريحًا ـ رضوان الله عليه ـ بين سيده، فيما يخاف منه فيقول له: والله ما بى أن أقتل، ولكن أخشى أن أؤسر. فقال: « إنك لن تؤسر» .

٣ـ وحين استجاب الجندى العظيم لأمر قائده ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ التزامًا بأمره رغم كل هذه المخاوف الرهيبة تولاه الله تعالى بعنايته ورعايته .

---

(١) الأنفال / ٢٦ . (٢) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .

(وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قرًا . . . فخرجت فقال: « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ،وعن يمينه ، وعن شماله،ومن فوقه ومن تحته » ، فوالله ما خلق الله تعالى فى جوفى فزعًا ولا قرًا إلا خرج. فما أجد فيه شيئًا. فمضيت كأنما أمشى فى حمام، فلما وليت دعانى فقال: « لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى » فالله تعالى هو الذى يعصم هذه القلوب من الفتنة، والله تعالى هو الذى ينزل السكينة فى قلوب المؤمنين، ويبث الرعب فى قلوب الكافرين، وهو الذى أبدل المؤمنين بعد خوفهم أمنًا، وهى تربية عاشها المؤمنون وفقهوها ألا يعتمدوا على ذواتهم ،وأن يعتمدوا على ربهم ويلجؤون إليه فى الشدائد. والقلوب بيد الرحمن يقلبها كيف شاء، لكنه استحق هذه المكرمة وهذه الرعاية، وهذه العناية عندما استجاب لأمر رسول الله ﷺ، وقام مع كلمة: «قم»، ولبى الأمر ،ولا يزال على حاله من الخوف والبرد. وعندما انطلق بالأمر وهو على هذه الحالة، آتاه عون الله ومدده. وشعر أنه إنسان آخر غير ذلك الإنسان، شعر شعورًا حسيًا. يكاد يلتقطه بيده، ويراه بعينه : فوالله ما خلق الله تعالى فى جوفى فزعًا ولا قرًا إلا خرج فما أجد منه شيئًا فمضيت كأنما أمشى فى حمام) .

٤ـ وإذا كانت خُطة تخذيل العدو ، قد نجحت فى خطوطها الأولى ، فى فقدان الثقة بين اليهود وبين الأحزاب، فكانت الخطة الجديدة هى تمزيق صف الأحزاب نفسه، وإتمام المهمة التى ابتدأ بها نعيم على يدى حذيفة بن اليمان. فهو لابد أن يخذل بين قريش وغطفان، وبين قريش وكنانة ،وبين كنانه وأسد، أن يتابع المهمة فيمزق كل حزب على حدة. فكان التكليف بهذه المهمة. «فائت قريشًا فقل: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا : أين قادة الناس ؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم . ثم ائت بنى كنانة فقل: يا معشر بنى كنانة إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين بنى كنانة؟ أين رماة الحدق؟ فيقدِّموكم فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيسًا فقل: يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا: أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدِّموكم فتصلوا القتال، فيقع القتل فيكم» .

ونفذ الجندى العظيم مهمته كما أوكلت إليه، وحققت هدفها المرجو، وكما قالت اليهود :صدق نعيم. وقالت غطفان : صدق نعيم، وقالت قريش : صدق نعيم، فها هى قريش تقول : أيهات هذا الذى أوتينا به البارحة. وقالت كنانة: أيهات هذا الذى أوتينا به البارحة، وقالت قيس: أيهات هذا الذى أوتينا به البارحة.

وامتنع كل حزب عن الخروج للقتال، كما امتنعت اليهود عن الخروج للقتال.

٥ ـ وفى طبيعة الالتزام المطلوب، وهو يرى هدفًا ثمينًا يمكن تحقيقه، أبو سفيان ابن حرب قائد الأحزاب كلها ، يضرم النار ويتدفأ عليها، ويضع سهمه فى قوسه، وقبل لحظة الرمى للقضاء عليه وقتله، تذكر قول رسول الله ﷺ له قبل وداعه : « لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى ». وبذلك انقطعت كل الدوافع فى داخله ، فى قتل قائد العدو ، ولم تتمكن كل الرغبات الجامعة فى التغيظ الشديد على أبى سفيان ، وفى كسب الشهرة الكبرى بقتل قائد العدو ، أمام الكلمة الحاسمة :« لا تحدثن شيئا ». وأصبح الالتزام هو أعظم الدوافع جميعًا ، والتى يستجيب لها المسلم. وحذيفة لا ينسى فى حياته ذلك الموقف المؤثر، يوم أخذ المشركون منه ومن أبيه عهدًا ألا يكون عونًا لرسول الله ﷺ فى بدر[1] ، وكيف طلب منه المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ الوفاء بعهده ولو مع المشركين، يدرك مدى التربية على الالتزام فى الدرس الذى شهده من نبيه، فيدع كل اجتهاداته جانبًا لينفذ الأمر المحدد.

٦ـ ومثل هذا الرسول الذى يطلب منه أن يكون جاسوسًا فى قلب جيش العدو، لابد أن يملك من المؤهلات ،والطاقات فى سرعة البديهة ، وحسن التصرف ما ينقذه من أى أزمة تواجهه. ولم يكن اختيار الصدِّيق له اعتباطًا. بل كان عن خبرة به، وبإمكانياته حين رشحه لرسول الله ﷺ أن يقوم بهذه المهمة، والاختبار الصعب الذى مرَّ به، وأثبت به كفاءته هو عندما شعرت قيادة العدو به، فأصدرت أمرًا مباشرًا : ليأخذ كل امرئ منكم بيد جليسه، وفى لفظ: فلينظر من جليسه. وفى رواية الواقدى : أن أبا سفيان قال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل إلى جليسه، فى هذه اللحظة الخطرة التى تكوِّن المنعطف الحاد فى نجاح المهمة أو فشلها، وفى كشف الجاسوس أو خفائه،تبدو سرعة البديهة فى التصرف المناسب،وقد كان حذيفة على هذا المستوى العالى من الكفاءة يقول:فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبى سفيان، ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بى فبدرتهم بالمسألة.

٧ـ وحيث كانت المهمة الأولى وهى معرفة خبر العدو، والمهمة الثانية هى تخذيل صف الأحزاب، فقد نفَّذ المهمتين معًا. ولم يأت حتى تأكد من خبر قريش والأحزاب، وكيف قرروا الرحيل.

---

(١) قال حذيفة : ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى ، فأخذنا كفار قريش . فقالوا : إنكم تريدون محمداً ! فقلنا : ما نريد إلا المدينة . فأخذوا العهد علينا : لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل فأخبرنا النبى ﷺ فقال : « نفى بعهدهم ونستعين بالله عليهم » . مسلم برقم (١٧٨٧) ٣/ ١٤١٤ .

ونجد فى رواية الواقدى الصورة واضحة لرحيل القوم ، حيث أصدر القائد العام أبو سفيان أمره بذلك: إنكم والله لستم بدار مُقام، لقد هلك الخف والكراع، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره وقد لقينا من الريح ما ترون! والله ما يثبت لنا بناء ولا يطمئن لنا قِدر، فارتحلوا فإنى مرتحل. وقام أبو سفيان ، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام،ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « لا تحدث شيئاً حتى تأتينى » ثم شئت لقتلته. فناداه عكرمة بن أبى جهل : إنك رأس الناس وقائدهم تقشع وتترك الناس فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه ، وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال : ارحلوا فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفَّ العسكر ، ثم قال لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، لا بد لى ولك أن تقيم فى جريدة [1] من خيل بإيزاء محمد وأصحابه ، فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر . فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان ؟ فقال : أنا أيضاً أقيم ، فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل . قالوا : وذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره .

٨ ـ وحيث إن ملائكة السماء التى حضرت المعركة بقيادة جبريل ـ عليه السلام ـ يعرفون أن حذيفة هو قائد استطلاعات الرسول ﷺ ، فالتقوا به فى منتصف الطريق ، وأخبروه بالقوات الأخرى ، التى عزَّزت الموقف الإسلامى،لينقله إلى رسول الله ﷺ : (ثم خرجت إلى رسول ﷺ ، فلما انتصف بى الطريق أو نحو ذلك إذ أنا بعشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين قالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح . فرجعت إلى رسول الله ﷺ . . .) .

هـذه القـوات التـى أمدَّت قوات المسلمين ، لا تعرف كتب السيرة عنها شيئاً إلا النذر اليسير ، وقـد أشـار القرآن الكريـم لهـا بقولـه تعالـى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾**[2] .

أما الجنود فها هى آثارهم من خلال هؤلاء الخيالة العشرين الذين لقيهم حذيفة رضي الله عنه وأما الريح . . . (فقد روى ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم،والبزار برجال الصحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما كانت ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى

---

(١) الجريدة: هى التى جردت من مفطم الخيل لوجه. (٢) الأحزاب / ٩ .

الجنوب فقالت : انطلقى فانصرى الله ورسوله ، فقالت الجنوب : إن الحرة لا تسرى بالليل . فغضب الله عليها فجعلها عقيماً . وأرسل الصبا ، فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم ، فقال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » .

وروى الإمام أحمد ، والشيخان ، والنسائى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »(١) .

وروى البيهقى عن مجاهد فى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ (٢) قال : يعنى ريح الصبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم عن أظعنتهم ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ قال :الملائكة ، قال : ولم نقاتل يومئذ .

(روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بعث الله تعالى عليهم الريح والرعب ، كلما بنوا بناءً قطع الله أطنابه وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، حتى ذكر لنا أن سيد كل حى يقول : يابنى فلان هلّم إلىَّ . حتى إذا اجتمعوا عنده قال : النجاة النجاة . أُوتيتم . لما بعث الله عليهم من الرعب .

قال البلاذرى : ثم إن الله تعالى ، نصر المسلمين عليهم بالريح ، وكانت ريح صفراء فملأت عيونهم ، فداخلهم الفشل ، والوهن ، وانهزم المشركون ، وانصرفوا إلى عسكرهم ،ودامت عليهم الريح،وغشيهم الملائكة تطمس أبصارهم ، فانصرفوا : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٣)) .

قال أبو الخطاب بن دحية : هذه الملائكة بعثها الله تعالى فنفثت فى روعهم الرعب والفشل ، وفى قلوب المؤمنين القوة والأمل . وقيل : إنما بعث الله الملائكة تزجر خيل المشركين وإبلهم ، فقطعوا مدة ثلاثة أيام فى يوم واحد فارّين منهزمين (٤) .

إن ريح الصبا لتتحرق غيظا ليأتيها الأمر من ربها أن تمضى لنصرة رسول الله ﷺ ، وإن ملائكة السماء الذين يشهدون المعركة فى الأرض ، ليحلمون أن تصدر إليهم الأوامر بنصرة رسول الله ﷺ فى الأرض ، وقد شهد خبرتهم المعركة فى بدر . والصف المؤمن اليوم فى الخندق ، وبعد سنتين من أحد قد تجاوز أزمته ، وأعيد بناؤه ، وصياغته من يد النبوة العظيمة ،فإذا هو خالٍ من أى عتاب أو لوم أو تقريع . وفيه

---

(١) فتح البارى ٧ / ٣٩٩ برقم (٤١٠٥) .
(٢) الأحزاب / ٩ .
(٣) الأحزاب / ٢٥ .
(٤) المقتطفات كلها من سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

الثناء على صدق المؤمنين ، وارتفاعهم إلى مستوى إيمانهم ، وترجمة هذا الإيمان واقعاً حياً يعيشوه ، فى قاعدتهم الجماهيرية الواسعة . وفى الصفوة المختارة منهم كما يقول عز وجل : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١) .

ووعى المؤمنون درس أحد ، فلم يستطع معسكر النفاق وحزبه أن ينزل رجلاً واحداً من الصف المؤمن إلى جواره . بينما استطاع معسكر الإيمان ، أن ينتزع الكثير من معسكر النفاق ويضمهم تائبين ، مخلصين ، معتصمين بالله ويصبحوا أعضاء فى الصف المؤمن ، وتم حصار حزب النفاق حتى ليكاد يختنق من المؤمنين ،وإنما انتشى وانتفش ، وعربد يوم رأى أحبابه من اليهود ، والمشركين قد جاؤوا لمدده .

لقد نجح الصف المؤمن فى توحيد كلمته وخلاصه من حب الدنيا وإرادتها التى أدين بها فى أحد . ونجح فى معركة العقيدة التى خاضها ، فتبرأ من حوله وقوته ، وما زادته المحنة إلا إيماناً وتسليماً . وقد خلص من خط نفسه كلها ، وهو يرى قائده يضرع قبل النصر بقوله : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وبعد إجابة الدعاء والاحتفال بالنصر يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » (٣) .

وجعلها ملازمة له فى حياته كلها ، كلما قفل من الغزو أو الحج أو العمرة ، لتبقى دائماً حية يقظة فى قلوب المؤمنين .

(١) الأحزاب / ٢٢ ـ ٢٧ .

(٢) فتح البارى ٧ / ٤٠٦ رقم (٤١١٥) .

(٣) المصدر نفسه برقم (٤١١٦) .

حزب النفاق وتربيته

ستتان فقط من الجهد الدؤوب فى التربية ، نلاحظ من خلالهما كيف خفت حزب النفاق ، وانكمش على نفسه بعد أن انتشى فى أحد ، وعاد بثلث الجيش جهاراً نهاراً . وانتفش بسلامته ، وسلامة أعضائه حيث أصاب الضر والبلاء المسلمين . فما هو حجم هذا الحزب اليوم ؟

لو تتبعنا كتب السيرة والتراجم لنبحث عن دور حزب النفاق ، فى هذه المعركة لأعيانا البحث حتى نجد ثلاث روايات ، ولولا أن القرآن أثبت هذا الأمر ، لشككنا فى وجود الحزب كله ، لضعف الروايات من الناحية الحديثية .

أولاً : فى السيرة لابن إسحاق نجد هذا النص :

قال : (وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظنَّ المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتِّب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

قال ابن هشام : وأخبرنى من أثق به من أهل العلم : أن معتِّب بن قشير لم يكن من المنافقين ، واحتج بأنه كان من أهل بدر .

قال ابن إسحاق :وحتى قال أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث: يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملأ من رجال قومه . فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة) (1) .

ثانياً : أما فى رواية الواقدى فنجد ما يلى :

(قالوا : ونجم النفاق ، وفَشِل الناس ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وخيف على الذرارى والنساء ، وكانوا كما قال الله ـ عز وجل: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾ (2) ورسول الله ﷺ والمسلمون وجاه العدو ، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم،يعتقبون خندقهم ويحرسونه ، وتكلم قوم بكلام قبيح ، فقال معتِّب بن قشير: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(2) الأحزاب / ١٠ .

يأمن بأن يذهب إلى حاجته ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

فحدثنى صالح بن جعفر ، عن ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكن الله كسرى و قيصر ولتنفق أموالهم فى سبيل الله » ، يقول ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب ، فسمعه معتب فقال ما قال .

واجتمعت بنو حارثة فبعثوا أوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم رسول الله ﷺ فرجعوا بذلك ، وتهيؤوا للانصراف ، فبلغ سعد بن معاذ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا . ثم أقبل عليهم فقال لبنى حارثة : هذا لنا منكم أبداً ، ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا ، فردهم رسول الله ﷺ) (١) .

ثالثاً : والرواية الثالثة فى مغازى موسى بن عقبة عند البيهقى :

(فلما اشتد البلاء على النبى ﷺ وأصحابه نافق ناس كثير، وتكلموا بكلام قبيح. فلما رأى رسول الله ﷺ ما فيه النساء من البلاء والكرب، جعل يبشرهم ويقول: «والذى نفسى بيده ليفرِّجن عنكم ما ترون من الشدة ، وإنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع الله ـ عز وجلّ ـ إلىَّ مفاتيح الكعبة ، وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتنفقن كنوزهما فى سبيل الله ـ عز وجل » .

وقال رجل ممَّن معه لأصحابه : ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق ، وأن تقسم كنوز فارس والروم ، ونحن هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب إلى الغائط، والله لما يعدنا إلا غروراً .

وقال آخرون ممَّن معه : ائذن لنا فإن بيوتنا عورة .

وقال آخرون : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) (٢) .

هذا كل ما ورد فى كتب التراجم والسير عن هذا الموضوع . غير أن كتب التفسير ذكرت تحديداً آخر فى روايتين :

(**الأولى** : عند الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ**

---

(١) المغازى للواقدى ٣ / ٤٦٣ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٤٠٢ .

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [1] أى باطلاً من القول . وذلك أن طعمة بن أبيرق ، ومعتِّب بن قشير . وجماعة نحو سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لَّما فشا فى أصحاب النبى ﷺ من قوله :عند ضرب الصخرة على ما تقدم فى حديث النسائى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية) [2] .

الثانية : وينقل الإمام القرطبى كذلك أن عدد الذين رجعوا إلى بيوتهم بدون إذن رسول الله ﷺ كانوا ثمانين رجلاً .

(قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه) [3] .

وبعد استعراض هذه الروايات جميعاً نتحدث عن حزب النفاق وتربيته .

١ ـ لو طبقنا المعايير الحديثية ، فى الروايات السابقة جميعاً ، لوجدنا أنها تفتقر إلى السند الصحيح ، والذى يثبتها ولو وضعنا فى تبنى هذا الخط ، لكان علينا ألا نذكر هذا الموضوع إطلاقاً ، لعدم ثبوته فى نصوص السيرة . ولكن القرآن الكريم لم يثبته فقط ، وإنما تحدث عنه فى ثمانى آيات طوال ، استغرقت نصف الحديث عن غزوة الأحزاب ، وبنى قريظة مجتمعين ، ومن هنا نرى خطورة الإصرار على ألا نقبل فى السيرة ، إلا النصوص الصحيحة القطعية ، كما نفعل فى الحديث الذى نستنبط منه الأحكام الشرعية ، ولهذا رأينا أن علماء الحديث الكبار ، الذين كتبوا فى السيرة ، لم يطبِّقوا منهجهم المعتمد فى الحديث فيها ، وإنما نقلوا كثيراً من الروايات لمن لا يروون لهم إطلاقاً فى الحديث ، وهذا ما ذكره الدكتور العمرى ـ حفظه الله ـ الذى تبنى هذا الخط فقال : وقد وردت روايات ضعيفة تحكى أقوالهم ، فى السخرية ، والإرجاف والتخذيل ، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير [4] ، وفقه المحدثين الكبار فى هذا المجال جعلهم يبتعدون عن الروايات الضعيفة أو الموضوعة ، ويختارون الروايات الأخرى ، التى تمثل الخط العام لكتاب السير .وفى الوقت الذى لا يأخذون للواقدى رواياته شيئاً فى مجال الحديث النبوى ، نراهم يأخذون عنه فى كل أحداث السيرة ، ولا يكاد يخلو موضوع لا يروى له فيه .

٢ ـ وبالأخذ بروايتى المفسرين ، نجد أكبر رقم ذُكر للمنافقين هو ثمانون وهم الذين رجعوا إلى المدينة دون إذن رسول الله ﷺ ، وقد توعدهم القرآن الكريم لموقفهم

---

(١) الأحزاب / ١٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٧ / ١٤ / ١٤٦

(٣) المصدر نفسه ٧ / ١٤ / ١٤٨ .

(٤) السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمرى ٢ / ٤٢٤ .

هذا بقوله عز وجل : ﴿ لا تجعلوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وهدَّد الذين يمضون بدون إذن ، بخروجهم من الإيمان ، حيث ربط الاستئذان بالايمان حصراً ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

والرواية الثانية التى تذكر أن عدد الذين قالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا سبعون ، ومع الأخذ بهذه الرواية وسابقتها يمكن القول : إن النسبة انخفضت كثيراً عما كانت عليه فى أحد فنسبة سبعين إلى ثلاثة آلاف تختلف كثيراً عن نسبة ثلاثمائة إلى تسعمائة . ففى أحد تكاد تجمع الروايات عن انسحاب ثلث الجيش الإسلامى مع عبد الله بن أبى ، وهذا العدد هو غير المنافقين الذين بقوا فى الجيش ، وأظهروا نفاقهم بعد هجوم خالد ومحنة الجيش الإسلامى . وهذا يؤكد عظمة التربية التى تمت من خلال القرآن الكريم ، وعلى يدى رسول الله ﷺ حتى ليبقى أمراً نشازاً ومستنكراً أو وجود النفاق والمنافقين ، وفى قلب هذه المحنة التى اشتد فيها الخوف إلى أقصاه ، كُشفَتْ هذه النفوس الخبيثة التى وصفها القرآن الكريم بأن فيها مرض ، وكان هذا المرض هو الشك فى الله ورسوله وصدق موعوده (٣) .

٣ـ ونتساءل بعد هذا كله: لم أخذ الحديث عن المنافقين هذا الحجم الضخم رغم ضآلة وجودهم وقلتهم ، بعد أن تقلَّص عددهم فى الصف الإسلامى من ثلاثين فى المائة إلى اثنين فى المائة ؟

والجواب واضح ، إنها التربية القرآنية التى تريد أن تنهى هذا الحزب كله . ومن أجل ذلك ، لم يقف القرآن عند حجمهم وعددهم ، وإنما راح يتابع مواقفهم النفسية من وراء هذه المقولات التى يقولونها ،والتى لا يدع القرآن الكريم منها شاردة ولا واردة إلا ويسجلها ،ويحصى عليهم أنفاسهم ، ويسجل حركاتهم وقناعاتهم ومشاعرهم .

(فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة فى الخناق ، فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين

---

(١) النور / ٦٣ . (٢) النور / ٦٢ .

(٣) نقلاً عن المنهج التربوى للسيرة النبوية ــ التربية الجهادية ١ / ٢٣٠ للمؤلف .

والتخذيل ،وبث الشك ، والريبة فى وعد الله ، ووعد رسوله وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون ، فالواقع بظاهره يصدِّقهم فى التوهين والتشكيك ، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم !فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروَّع أنفسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المهلهل ، فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين، ولا متجملين ، ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ، وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء ، فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان) [1] .

ونمضى مع القرآن الكريم فى تربيته لهذا الحزب المتفكك الذى لم يصل الى مستوى الولاية التنظيمية فى صفة ﴿ **والْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [2] بينما ذكر المؤمنين بقوله : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [3] .

٤ ـ ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾[4] أما ظروف هذا القول فهى كما رواها البيهقى فى الدلائل والطبرانى فى تفسيره ، وابن حجر فى الفتح : عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى قال : حدثنى أبى عن أبيه قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السمر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قويا ، فقالت الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون: سلمان منا ،فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » ، قال عمرو ابن عوف : فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمانِ ،والنعمان بن مقرِّن ، وستة من الأنصار فى أربعين ذراعاً ، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثدى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا ،وشقَّت علينا فقلنا : يا سلمان ، ارق إلى رسول الله فأخبره خبر هذه الصخرة ، فإنا إن نعدل عنها فإن المعدل قريب ، وإما أن يأمرنا فيها بأمره ، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه ، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية ، فقال : يا رسول الله ، بأبينا أنت وأمنا خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة فكسرت حديدنا وشقَّت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك ، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان ، ورقينا عن الشقة فى شقة الخندق ، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان

---

(١) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٨٣٨ .
(٢) التوبة / ٦٧ .
(٣) التوبة / ٧١ .
(٤) الأحزاب / ١٢ .

فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ فصدعها وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ـ يعنى لابتى المدينة ـ حتى لكأن مصباحاً فى جوف ليلٍ مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها ، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون، ثم أخذ بيد سلمان فرقى فقال سلمان : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم ، فقال : « هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا . قد رأيناك تضرب ، فخرج برق كالموج فرأيناك تكبر ، ولا نرى شيئاً غير ذلك ، فقال : « صدقتم ، ضربت ضربتى الأولى ، فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة ، ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم ، أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ،وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر » فاستبشروا المسلمون ،وقالوا :الحمد لله موعود صادق بأن الله وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب فقال المسلمون : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً .

وقال المنافقون : ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ، ويعدكم بالباطل ، يخبركم أنه بَصُرَ من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وإنها تفتح لكم ، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا ، وأنزل القرآن : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ (١) (٢) .

٥ ـ المنافقون يعملون مرغمين كارهين فى الخندق،وهم كالون من التعب والإعياء ، وقلوبهم تفح سماً على محمد ﷺ ، الذى جاءهم بهذا البلاء ، فقد كانوا آمنين من أى اعتداء خارجى . وها هم الآن تعصف بهم الأهوال ، فقريش ، وحلفاؤها على وشك الوصول لإبادتهم والمسلمين. ولكن ما يفعلون وقومهم قد تفانوا جميعاً بحب محمد ﷺ ، واعتنقوا هذا الدين الذى نسوا به حياتهم ، وأهلهم ، وبلدهم ، وليس

---

(١) الأحزاب / ١٢.

(٢) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٣ / ٤١٨ ـ ٤٢٠.

من العقلاء الكبار من بقى على وعيه ـ حسب ظنهم السيئ ـ إلا عبد الله بن أبى . وقد تحطم منذ قليل ، وافتضح بعد غزوة بنى المصطلق ، وحديث الإفك . وها هم يسمعون محمداً ﷺ يتحدث عن كنوز كسرى وقيصر ، فى الوقت الذى يحفرون الخندق ، خوفاً من مداهمة عدوهم لهم ،وها هم الأحزاب قد جاؤوا من الحجاز ونجد، ويجرون فرسان العرب وشجعانهم لاستئصال محمد وحزبه ، وانتشر الرعب والفزع لدى الجميع حتى ما يأمن أحد أن يخرج إلى حاجته .

ولعل المنافقين بقوا يكظمون غيظهم ، عند وصول الأحزاب من قريش وغطفان ، وأسد ، وسليم . فقد لا يتمكن هؤلاء من تجاوز الخندق ، وبقى الحديث همساً وغمزاً ولمزاً فى صفوفهم ، فلم تبدوا البيئة المناسبة بعد لهذا الحديث ، وقد يُقضى عليهم لو وقفوا وحدهم يرجفون ويشككون .

لكن متى انتقل هذا الحديث إلى العلن ، وأصبح تحدياً سافراً بعد أن كان صوتاً مخنوقاً ؟!

نقدر أن ذلك تم بعد نقض قريظة العهد . كما فى رواية موسى بن عُقبة .فقال سعد بن عبادة : عَضَل والقارة ـ يعنى كغدر عضل والقارة ـ بأصحاب الرجيع وسكت الباقون ، ثم جلسوا فقال رسول الله ﷺ : « أبشروا يا معشر المؤمنين ، بنصر الله تعالى وعونه ، إنى لأرجوا أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكن كسرى وقيصر . ولتنفقن أموالهم فى سبيل الله » . يقول ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب . قال ابن عقبة فيما رواه عن ابن شهاب الزهرى : (وانصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم فى بلاء شديد يخافون أشد من يوم أحد ،فقالوا حين رأوا رسول الله ﷺ مقبلا:ما وراءك يا رسول الله؟ قال : « خير فأبشروا » ، ثم تقنّع بثوبه ،فاضطجع ومكث طويلاً واشتد عليهم البلاء والخوف حين رأوا رسول الله ﷺ اضطجع ، وعرفوا أنه لم يأته من بنى قريظة خير ، ثم إنه رفع رأسه فقال :« أبشروا بفتح الله ونصره » ، فلما أصبحوا دنا القوم بعضهم من بعض فكان بينهم رمى النبل والحجارة) (١) .

فالمنافقون إذن عندما استحكمت حلقات المحنة ، ورأوا أنهم قد حصروا من كل جانب ، كما ذكر القرآن الكريم :﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ (٢) .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٤٠٣ .

(٢) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .

في قلب هذا الزلزال ، وفى قلب هذا الخوف الذى أصبح سمة عامة فى الجيش كله ، جاءت بشارة رسول الله ﷺ بالنصر بعد الحصر ، وتفتح البيت العتيق ، وأخذ مفتاحه ، وهلاك كسرى وقيصر، وإنفاق كنوزهما فى سبيل الله . فأما المؤمنون فقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . أما المنافقون فقد أصبح لهم أرض خصبة يعيشون فيها ، وهم يتوقعون أن نهاية محمد قد أزفت . فمن الذى تنقذه من قريظة والأحزاب ، وقد أحاطوا به من فوقه ومن أسفل منه ، عندما انتقل الهمس إلى الزيوع والعلن ، وقالوا : ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق ، وأن نقسم كنوز فارس والروم ، ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب إلى حاجته . والله لما يعدنا إلا غرورا.

وحيث جاء التعبير القرآنى بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ... ﴾ (١) فهذا يعنى أنه لسان حالهم جميعاً ،سيان كان القائل معتب بن قشير أو غيره، وحده أو كان معه آخرون ، لكن هذه القناعة قناعة المنافقين جميعاً ، وقناعة الذين فى قلوبهم مرض .

٦ ـ وأن يعير المنافقون بالكفر ، فهذا لا يضيرهم كثيراً فهؤلاء الأحزاب العشرة آلاف جميعهم كفار . غير أن هذا يؤثر عليهم فى المجتمع الإسلامى ، وحيث ارتفعت معنوياتهم باحتمال انتصار اليهود والأحزاب ، فلن يخافوا من سمة الكفر ، حين تصبح المدينة محتلة من اليهود ، والأحزاب العربية الكبرى .

لكن الذى يندى له الجبين أن يعيروا بالجبن . وهذه هى الحلقة الثانية من ملاحقتهم فى أعماق نفوسهم .﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** ﴾ (٢) . فهى دعوة صريحة للاستسلام للعدو .

وقال آخرون ممن معه : ائذن لنا فإن بيوتنا عورة ﴿ ... **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا** ﴾ . فهو وصم لهم بالكذب ، ووصم لهم بالجبن . فهم يريدون الفرار من المواجهة مع العدو وحربه ، وهم كاذبون حين يزعمون أن هدفهم المحافظة على بيوتهم من غطفان ، والله تعالى يقول :إن هدفهم ليس حماية بيوتهم إنما هدفهم الفرار من المعركة . والدليل على ذلك : ﴿ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا**

---

(١) الأحزاب / ١٢ . (٢) الأحزاب / ١٣ .

اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا ﴾(١). إنه فضح لهم بالجبن وبالكذب ، وبنقض العهد ، وواحدة من هذه تسقط الرجل فى مجتمعه سواء كان المجتمع جاهلياً - بجاهلية تلك الأيام - أو مسلماً ، فالنتيجة واحدة ، إذ يؤكد القرآن أن الكافرين ، لو احتلوا المدينة وأخذوا الأرض والعرض ، لارتدوا كفاراً ، وأجابوا الأحزاب ليفتنوا عن دينهم فهو الفرار من المواجهة ، والرجولة تقتضى مواجهة العدو فى الديار ، وعلى الحدود ، وفى كل مكان فهم قد فقدوا قيم الرجولة كلها غير فقدانهم الإيمان الأصلى .

٧ - وتتم التربية القرآنية الخالدة لهذا الجيب الفارق فى الخور والضعف والذل ، ليرفعه من وهدته فيقول له : **﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً . قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾** (٢) .

فالأجل محتوم ، والنار ولا العار ، وأين الهروب من الله ؟ ويحرص القرآن الكريم على عدم تعميم صفة الجبن والكذب ، والنكث بهم جميعاً ، إنما يتحدث عن طائفة منهم قالت هذا الكلام ، وكذبها السيد العظيم سعد بن معاذ سيد الأوس قبل أن ينزل تكذيبها من فوق سبع سموات (واجتمعت جماعة من بنى حارثة فبعثوا أوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا ، وليس بيننا وبين غَطَفَان أحد يردهم عنا ، فلنرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا فأذن لهم رسول الله ﷺ) (٣) .

لكن التجارب السابقة التى خاضها سيد الأوس مع هذا الفريق من بنى حارثة ، جعله يدرك أبعاد هذا الإذن فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا ، ثم أقبل عليهم فقال : يا بنى حارثة ، هذا لنا منكم أبدا ما أصابنا ، وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا .

وحتى لا تكون القضية اتهاماً من سيد الأوس لهم وحتى لا يبيعوا بطولات هوائية وحتى لا تبلغ بهم القحة أن يخدعوا رسول الله ﷺ جاء القرآن ليفضحهم ، ويفضح نواياهم ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية بعدهم بعد هذه الإدانة الكاملة إلى مراجعة مواقفهم . ومراجعة مواقعهم فيقول لهم : **﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً . قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ**

---

(١) الأحزاب / ١٤ ، ١٥ .
(٢) الأحزاب / ١٦ ، ١٧ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ٥٢٩ .

بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ (١) .

٨ ـ إن التعميم الوحيد الذى مسَّ المنافقين جميعاً هو **﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾**(٢) هو واقع ينضح بنفس كل واحد منهم ، لكنه نعى على المدعين كذباً بحماية دورهم وهم فريق من بنى حارثة .

ولبنى حارثة موقفان مشينان فى الجاهلية والإسلام ، عفا الله تعالى عنهم يوم أحد فى محاولة لرفعهم إلى المستوى الإيمانى المطلوب . **﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾** (٣) . وكانت إحدى الطائفتين بنى حارثة ، حيث أخرج الله خبيئة نفوسهم ، ولكن الله تعالى عصمهم فى اللحظة الأخيرة ، وأما الموقف المشين فى الجاهلية ، وهو الذى تحدث عنه سعد بقوله : يا بنى حارثة ، هذا لنا منكم أبداً ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا .

وبالعودة إلى بطون الكتب نجد هذا الموقف فى حرب بعاث :

(تخلَّف عن الأوس بنو حارثة ، فبعثوا إلى الخزرج : إنا والله لا نريد قتالكم ، فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون فى أيدينا ،فبعثوا إليهم اثنى عشر رجلاً) (٤) .

فالذين فقدوا الأصالة فى الجاهلية بقوا على ضعفهم ، وارتفاع الإسلام بفريق منهم، وبقى الفريق الآخر ساقطًا فمعدن الرجولة عنده مهتدئ فى الجاهلية والإسلام. و « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

وسعد الذى ينعى عليهم هذا الخور فى الجاهلية هو الذى غيَّر بقومه بنى عبد الأشهل، نهاية معركة بعاث، ثم غير بقومه تاريخ الأرض من الجاهلية إلى الإسلام ويبقى الخوار نزلاً فى أى مكان كان، وعظمة التربية القرآنية ألا تعم مواقف الضعف، وتفسح المجال للأفق البعيد كى يمضى نحوه المتثاقلون.

٩ـ ولا يدع القرآن الكريم أى جيب خبيث دون أن يعريِّه، ويكشف زيفه، حتى لا يتخيل ذلك الجيب أنه خدع الله ورسوله **﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى**

---

(١) الأحزاب / ١٦ ، ١٧ .
(٢) الأحزاب / ١٢ .
(٣) آل عمران / ١٢٢ .
(٤) أيام العرب فى الجاهلية ، لجاد المولى بك وزملائه ٧٦ هامش .

الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾[1] . هذا الجيب النتن هو الذى قبع فى بيته، ورفض الخروج إلى المعركة وحاول أن يثنى عزائم إخوانه عن الخروج للمواجهة.

(أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ... ﴾ قال : هؤلاء أناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى دعوا محمداً وأصحابه فإنه هالك مقتول ، ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ قال : لا يحضرون القتال إلا كارهين ، وإن حضروه كانت أيديهم مع المسلمين وقلوبهم مع المشركين)[2] .

وعند القرطبى فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم المنافقون قالوا للمسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا .

الثانى : أنهم اليهود من بنى قريظة قالوا لإخوانهم المنافقين : هلم إلينا ، أى تعالوا إلينا ، وفارقوا محمداً فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً .

والثالث : ما حكاه ابن زيد أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ، فقال له أخوه وكان من أبيه وأمه : هلم إلىّ قد تُبع بك وبصاحبك ـ أى قد أحيط بك وبصاحبك ـ قال : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل بقوله :﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾[3] .

وأياً كان الأمر فهى سمة لفريق من المنافقين تشخِّصهم كأنما هم لمس اليد ورأى العين ، يقول عنها صاحب الظلال : (ثم تأخذ الريشة المعجزة فى رسم سمات هذا النموذج ... ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُم ﴾ ففى نفوسهم كزازة على المسلمين ـ كزازة بالجهد ، وكزازة بالمال ، وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[4] وهى صورة شاخصة واضحة الملامح ،متحركة الجوارح، وهى فى الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان الذى تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار .

---

(1) الأحزاب / ١٨ ، ١٩ .
(2) الدر المنثور للسيوطى ٥ / ١٨٩ .
(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٧ / ١٤/ ١٥٤ .
(4) الأحزاب / ١٩ .

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب عنهم الخوف ،ويجيء الأمن ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ فخرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال ،والشجاعة،والاستبسال ، ثم هم ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ فلا يبذلون شيئاً من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان !

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع فى جيل ،ولا قبيل ، فهو موجود دائماً، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء . وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فهذه هى العلة الأولى ، العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ولم ينجحوا ؛ لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ وليس هناك عسير على الله،وكان أمر الله مفعولاً ، فأما يوم الأحزاب فيمضى النص فى تصويرهم صورة مضحكة مزرية ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ فهم ما يزالون يرتعشون ويتخاذلون ويخذلون، ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت، وأنه قد ذهب الخوف وجاء الأمان . ﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُم ﴾ (١) .

يا للسخرية! ويا للتصوير الزرى! ويا للصورة المضحكة ! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يومًا من الأيام، ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية لا يشاركون أهل المدينة فى حياة ولا مصير ،ولا يعلمون حتى ما يجرى عند أهلها إنما هم يجهلونه، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب، مبالغة فى البعد والانفصال والنجاة من الأهوال، يتمنون هذه الأمنيات المضحكة، مع أنهم قاعدون بعيدون عن المعركة لا يتعرضون لها مباشرة، إنما هو الخوف من بعيد ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٢) .

وبهذا الخط ينتهى رسم الصورة، صورة ذلك النموذج الذى كان عائشًا فى الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة. والذى ما يزال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح وذات السمات ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفس الاحتقار لهذا النموذج

(١ ، ٢) الأحزاب / ٢٠ .

والسخرية منه، والابتعاد عنه وهوانه على الله وعلى الناس) [1] .

١٠ـ لقد حشد القرآن الكريم كل هذا الحشد من الوصف، وكل هذه التعرية، حتى لتفوق آياته الحديث عن المعركة كلها، حتى يفتت هذا الحزب، ويذوب ويفقد أى مبرر لوجوده فلهؤلاء السبعين أو الثمانين من الثلاثة آلاف، تتركز الآيات وينزل الوحى، وتُفضح الخبايا، وتكشف العورات، وتُفتح طرق مغادرة هذا الحزب النتن، بالإقناع والحجة لا بالسيف والذبح . بينما انصب القصاص على معسكر العدو الذى نكث العهد، وخان الأمانة، وتبجح بالكفر، فقُتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، وقُسمت الأموال. أما هنا فلابد من الحرب الإعلامية العنيفة حيناً والرخية حينًا لتدعوهم إلى التوبة والخلاص من هذا الرجس، وبذلك يخضع المنافقون للتربية كما يخضع المؤمنون، ويحرص الإسلام على ألا يبقى فى الصف الإسلامى كله منافق واحد. ويحرص الإسلام على ألا يعمم الخطيئة إلا عندما تكون عامة، وذلك عند قوله عز وجل عنهم: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [2] بينما يدع الحديث بعدها عن الطائفة وعن الفريق منهم، وعن المعوِّقين المجهولين عن الناس، لا عند الله الذى لا تخفى عليه خافية. وهو فى الوقت نفسه تحذير لضعاف الإيمان أن يقعوا فى هذه الحمأة، أو يتأثروا بهذه الأجواء النتنة ؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

---

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢١/ ٢٨٤٠ .

(٢) الأحزاب / ١٢ .

تربيــة الخصوم

ظاهر الأمر أن غزوة الخندق وبنى قريظة قد انتهت، وعاد الأحزاب إلى بلادهم ومضاربهم فى البادية. لكن الحقيقة الكبرى أن هذه الغزوة قد وضعت بصمات كبرى على قيادات اليهود وغطفان، وقريش شعلت لديهم القاعدة النفسية فى تحول خط الحرب كلها فى الأرض العربية.

هذا الخط يعنى استنفاذ كل الطاقات الهجومية نهائيًا فى أرض العرب ضد الإسلام والمسلمين. وهو الخط الذى أعلنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع انتهاء المعركة :

(عن سليمان بن صرد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم») (١).

ولنتتبع آثار هذه الغزوة فى نفسيات هذه القيادات الكبرى، والتى قادتها إلى هذه النهاية المحتومة .

أولاً: قيادات قريش :

١ـ القائد العام أبو سفيان بن حرب :

أ ـ لنشهد هذا النقاش بين زعيم قريش أبى سفيان وزعيم اليهود حيى بن أخـطب (رجع حيى إلى أبى سفيان بن حرب فقال أبو سفيان: ألم أخبرك يا يهودى أن قومك يريدون الغدر؟ قال حيى: لا ،والله ما يريدون الغدر. ولكنهم يريدون الخروج يوم الأحد، فقال أبو سفيان : وما السبت؟ قال: يوم من أيامهم يعظمون القتال فيه، وذلك أن سبطًا منا أكلوا الحيتان يوم السبت فمسخهم الله قردة وخنازير. قال أبو سفيان: لا أرانى أستنصر بأخوة القردة والخنازير. . .) (٢) .

وكانت هذه الزلزلة الأولى له، فهو يستنصر بإخوة القردة والخنازير لينصروه على محمد ابن عمه.

(ثم قال أبو سفيان: قد بعثت عكرمة بن أبى جهل وأصحابه إليهم فقالوا: لا نقاتل حتى تبعثوا لنا بالرهان من أشرافكم، وقبل ذلك ما جاءنا غزال بن سموأل برسالتهم .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر العسقلانى ٧/ ٤٠٥ برقم (٤١١٠).

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨٥ .

قال أبو سفيان: أحلف باللات إن هو إلا غدركم، وإنى لأحسب أنك دخلت فى غدر القوم قال حيى: والتوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سيناء ما غدرت! ولقد جئتك من عند قومٍ هم أعدى الناس لمحمد، وأحرصهم على قتاله، ولكن ما مقام يوم واحد حتى يخرجوا معك! قال أبو سفيان: لا والله ولا ساعة لا أقيم بالناس انتظار غدركم)(١).

ب ـ وكانت هذه الخيبة الفاجعة الثانية ،حين أيس من هذا الحليف. ولم يتردد لحظة واحدة فى غدره، فمضى بالناس فى صورة عصبية ،لا تتناسب مع حلمه وسعة أفقه، خصوصًا بعد الريح العاتية التى أهلكته وقومه:(قال أبو سفيان: إنكم والله لستم بدار مقام لقد هلك الخف والكراع، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون! والله ما يثبت لنا بناء، ولا تطمئن لنا قِدر، فارتحلوا فإنى مرتحل. وقام أبو سفيان وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم فما أطلق عقاله إلا بعدما قام... فناداه عكرمة بن أبى جهل: إنك رأس القوم وقائدهم تقشع وتترك الناس؟ فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال: ارحلوا! فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفَّ العسكر ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله لابد لى ولك أن نقيم فى جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه، فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر. فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضًا أقيم فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس وسار العسكر إلا هذه الجريدة من الخيل) (٢) .

لقد فقد أبو سفيان القائد البطل المحنك أعصابه فى اللحظات الأخيرة، وتصرَّف فى توتر ظاهر حين ركب جمله، وهو معقول ، فما أطلقه إلا بعد أن قام، ولولا مواجهة عكرمة له لكان انسحابًا فوضويًا لا يليق بالقادة الكبار أمثاله.

جـ ـ وعاد فسيطر على الموقف، وكتب رسالة لرسول الله ﷺ، أودعها كل ما عنده من دهاء وعبقرية، ولكنها مع ذلك لم تخف أبدًا وضعه النفسى المتزلزل: فعن أبى وجزة الساعدى قال: لما ملَّت قريش المقام، وأجدب الجناب، وضاقوا بالخندق، وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على بيضة المدينة ،كتب كتابًا فيه: (باسمك اللهم، فإنى أحلف باللات والعزى لقد سرتُ إليك فى جمعنا، وإنا نريد ألا نعود إليك أبدًا حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق فليت شعرى من علمك

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٨٥ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٩٠ .

هذا فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد تبقر فيه النساء)[1] .

ورغم الحرب النفسية التى حاول أبو سفيان أن يشنها على رسول الله ﷺ بالتهديد بالعودة ثانية ،وإيقاع مجزرة كمجزرة أحد، ومحاولة النيل من المسلمين فى خوفهم من المواجهة. لكن من الواضح فى الرسالة كذلك ،أن الحسرة تنهش قلبه لعجزه عن تحقيق شيء من أهدافه، ومن جهة ثانية اعترافه غير المباشر بعظمة الخطة النبوية فى الخندق، والتى أجهضت الهجوم الشرس من الأحزاب على المدينة.

ويأتى جواب سيد القادة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحيث يسد الأفق أمام خصمه أبى سفيان (فلما أتى بالكتاب دعا رسول الله ﷺ أبى بن كعب، فدخل معه قبته، فقرأ عليه كتاب أبى سفيان وكتب إليه رسول ﷺ: « من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب. . . أما بعد فقديمًا غرَّك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العافية حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك : ومن علَّمك الذى صنعنا من الخندق، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكِّرك ذلك») [2] .

لا نبالغ إذا قلنا :إن هذه الرسالة هى أول الدفقات الإيمانية فى قلب أبى سفيان فهى رسالة إلى كيانه كله، وليست رسالة تحدٍ وإذلال . ففى الوقت الذى يكشف فيه أبو سفيان عن خبيئة نفسه وأنه ما جاء الا مستَأصلاً قاصدًا إفناء محمد وصحبه، كان الرد النبوى العظيم أنه سيستأصل الشرك من عند أبى سفيان ولا يستأصله هو ،« وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك » فهو نصر العقيدة وليس نصر الزعامة والجبروت والقوة. وأبو سفيان غير مستأصل، فرسول الله ﷺ يذكرة بذلك. ومن بديع عظمة الله أن يمر الزمن، ويكون أبو سفيان هو رسول محمد ﷺ إلى كسر اللات فى الطائف مع المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنهما .

وفى الوقت الذى يصر فيه أبو سفيان على التهديد ، بيوم كيوم أحد تبقر فيه النساء، ويصر فيه على الذبح، والقتل ، والسحل يتحدث سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن دخوله مكة فاتحًا، لا ذابحًا، وأبو سفيان يدافعه بالأيدى والأكف ؛ لأنه عاجز عن استعمال سلاحه ، وجبروته ، وقوته، دون تهديد بقتله ،وذبحه وسحله.

وفى الوقت الذى يتأجج أبو سفيان غضبًا لنفسه وقومه وعشيرته يرتفع به ـ عليه

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٩٢.

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

الصلاة والسلام ـ هازًا أوتار قلبه، ومزلزلاً كيانه، لينتبه إلى جبار السموات والأرض خالق الخلق، ومالك الملك، فلم يحدثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن عبقريته الفذة فى الخندق، أو عبقرية سلمان الفارسى الذى انضم إليه، أو عظمة جنده الذين نفذوا الخندق بهذه السرعة العجيبة المذهلة، وكلها أمور تستأهل الذكر، وتستأهل الفخر، لكن الأهم عند سيد القادة والدعاة فى الوجود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدخل أبو سفيان فى الإسلام فقال له: «وأما قولك : من علَّمك الذى صنعنا من الخندق، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك به لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك » فهو نصر ربانى خالص من الله تعالى الذى يدفع الضر ويجيب المضطر.

وفى الوتيرة العالية نفسها، وحين يتحدث أبو سفيان برسالته عن الاستئصال والإبادة :« وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا »، ويقتضى جواب هذا الكلام ما يناسبه ، بأن النبى ﷺ سوف يستأصله، وأهله ،وعشيرته ،ويزيلهم من الوجود، عاد بهذا القلب الحاقد ليمسح عنه الران الذى غلَّفه. وحال بينه وبين الإيمان عاد به إلى الله تعالى مالك الملك، وخالق الخلق « وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى » فالله تعالى ينجى والله تعالى ينصر، والله تعالى يفرِّج الكرب، والله تعالى مع المؤمنين وليس مع أبى سفيان ولاته وعزاه التى افتخر بها فى أحد فقال: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ابن الخطاب رضي الله عنه بلسان رسول الله ﷺ:« الله مولانا ولا مولى لكم» ، وحين اعتبر معركة الشرك قد انتصرت فقال: اعل هبل، فجاء الجواب: « الله أعلى وأجل » .

ولننظر إلى آثار هذه الرسالة فى نفسه بعد ذلك.

د ـ انتهى أبو سفيان عسكريًا على أثر هذه الرسالة، وأيس من النصر، وراح يعيد إصلاح أوضاعه الاقتصادية فمضى فى تجارة إلى الشام، غير عابئ بنتائج غيابه الذى قد يكلفه خسارة قيادته، وعندما كان صلح الحديبية وأصبحت مكة فى خطر داهم كان قائدها ماض فى تجارته إلى الشام، وصالحت محمدًا ﷺ على دخوله مكة فى العام القادم، وعلى إيقاف الحرب بينه وبينها عشر سنين .

هـ ـ وبدأ أبو سفيان بعد عودته فى الخط التنازلى نحو المصالحة من آثار تلك الرسالة التى زلزلت كيانه، وعندما بلغه أن محمدًا ﷺ قادم لغزو مكة بدأ يدافعه بالراح مصداقًا لما فى الرسالة، وهو الذى بلَّغ قومه : يا معشر قريش قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ولا طاقة، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وهو الذى وقَّع صك الاستسلام مع محمد ﷺ دون قيد

ولا شرط.

و ـ وحين نقف عند روايات إسلامه نجد ظل الرسالة حيًا بين أيدينا، وأن معركة العقيدة قد حسمت فى النهاية لصالح الإسلام. (فأتى العباس بأبى سفيان حتى أدخله على النبى ﷺ. فقال عباس: يا رسول الله هذا أبو سفيان. فقال أبو سفيان: يا محمد، إنى قد استنصرت إلهى ، واستنصرت إلهك، فوالله ما رأيتك إلا قد ظهرت على، فلو كان إلهى محقًا ، وإلهك مبطلاً لظهرت عليك. فشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . . .) (1) .

لقد انتهى أبو سفيان بعد الخندق، وهزم نفسيًا، وكان مرور الزمن هو الذى أخَّر إيمانه حتى الفتح. ولم يكن من السهل عليه أن ينتقل من القائد العام للمشركين إلى جندى عام فى الصف الإسلامى ، لولا النهاية الحتمية لأفول قوته، والتى شهدها على أعتاب الخندق.

٢ـ عمرو بن العاص :

فى البدايات الأولى نتابع المنحنى النفسى عند عمرو بن العاص رضي الله عنه ومدى تأثير الحرب ضد محمد ﷺ عليه، يقول فى قصة إسلامه فيما رواه الواقدى عن عبد الحميد ابن جعفر عن أبيه قال: قال عمرو بن العاص: (كنت للإسلام مجانبًا معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحدًا فنجوت، ثم حضرت الخندق فقلت فى نفسى: كم أوضع(2) ،والله ليظهرن محمد على قريش، فخلَّفت مالى بالرَّهط(3)وأفلتُ ـ يعنى من الناس ـ فلم أحضر الحديبية ولاصلحها، وانصرف رسول الله ﷺ بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة فجعلت أقول: يدخل محمد قابلاً بمكة وأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف، وما من شىء خير من الخروج وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم، فقدمت مكة فجمعت رجالاً من قومى كان يرون مثل رأيى ويسمعون منى، ويقدمونى فيما نابهم. فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا (4)مع يمن نفس وبركة أمر، قال: قلت: تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد أمرًا يعلو لأمور علوًا منكرًا، وإنى قد رأيت رأيًا قالوا: ما هو؟ قال: نلحق بالنجاشى فنكون عنده، فإن كان يظهر محمد كنا عند النجاشى، فنكون تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا . قالوا: هذا

(1) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه / ٢١٠ .

(2) أوضع البعير راكبه : حمله على سرعة السير . (3) الرهط : موقع قرب ثقيف .

(4) مدرهنا : السيد الشريف .

الرأى! . .(١) .

فهو لا يزال محافظًا على موقفه العنيف من الإسلام ، لكنه انتهى ببصيرته النافذة، وبعد نظره الثاقب إلى أن محمداً ظاهر على قريش لا محالة ، وذلك بعد أن آب من الخندق بغيظه دون شيء .

وقبل مغادرة الخندق لم يجد حرجًا أن يعلن رأيه:(فعن عثمان بن محمد الأخنسى قال: لما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كل ذى عقل أن محمداً لم يكذب. فقال عكرمة بن أبى جهل: أنت أحق الناس ألا يقول هذا. قال عمرو: لم؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك) (٢) .

وانسحاب عمرو بن العاص من المعركة وهو القائد العبقرى الداهية يعنى فقدان أكبر الأركان فى قيادة مكة. فقد كان مع خالد بن الوليد العقل المدبر، والمخطط عندها، ولا أدل على ذلك من قول أحد صحابة رسول الله ﷺ بعد وصولهما إلى المدينة ليدخلا فى حظيرة هذا الدين الجديد: (ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد) (٣) . وقناعة عمرو رضي الله عنه أن محمداً لا يكذب، تعنى إيمانه بصدق محمدٍ فى أعماقه، لكن مخافة مواجهة قومه حالت دون هذا الإعلان.

٣ـ خالد بن الوليد:

إن القائد العسكرى الوحيد الذى حقَّق نصراً جزئيًا فى حربه مع الرسول ﷺ ولمرة واحدة هو خالد بن الوليد ، وخالد يمثل عراقة الخصومة ضد رسول الله ﷺ ، وأصبح هو رمز بنى مخزوم بعد مقتل أبى جهل بن هشام ، والذى كان يقود المنافسة ضد بنى عبد مناف عامة ، وضد رسول الله ﷺ خاصة . وها هو ينقل حالته النفسية بأمانة ، وهو يخوض معركته ضد القائد الأعظم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ (لما أراد الله من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الإسلام ،وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شيء ، وأن محمداً سيظهر)(٤).

ولعله لم يكن كذلك يوم أحد ، وهو يؤكد أنه لم يكن يستجيب لأعماق نفسه ، ولم يكن يصغى لقناعاته الداخلية ، بل يمضى جاداً فى الحرب غير عابئ بالنتائج والهزات، والاضطرابات التى تنال كيانه ؛ ولهذا نراه يقول : إن المحاسبة والإصغاء إلى

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٢ . (٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٩١ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٧٤٤ .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٦ ، والمغازى للذهبى / ٤٧٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٣٨.

حديث النفس إنما تم عندما قذف الله تعالى فى قلبه حب الإسلام، وحضره رشده ، وقام باسترجاع الماضى كله، منذ البدايات الأولى، ونزل إلى أرض الواقع، فقال: (شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف، وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شيء ، وأن محمداً سيظهر) . ولا شك أن هذه المراجعة قد تمت بعد الخندق ، حيث بذل الجهود المستحيلة لإعادة نصر أحد ، ففشل ، وحرص على أن يجد ثغرة عند المسلمين ينفذ منها فعجز، وكاد أن يصطدم بقيادات قريش حين لاموه بذلك (فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن حريش يحرس ، فيأتين من خلف راتج ، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتتلوا واختلطوا، فما كان إلا حلب شاة حتى نظرتُ إلى خيل خالد مولية ، وتبعه سلمة بن أسلم حتى ردّه من حيث جاء ، فأصبح خالد وقريش وغطفان تزرى عليه وتقول: ما صنعت شيئاً فيمن فى الخندق، ولا فيمن أصحر[1] لك ، فقال خالد: أنا أقعد الليلة ، وابعثوا خيلاً حتى أنظر أى شيء تصنع[2] .

وبعثوا خيلاً، ولم تصنع شيئاً ، ومضت أربع وعشرون ليلة وهم عاجزون عن تحقيق أى تقدم . ورأى خالد انهيار أبى سفيان، واندفاعه فى المغادرة ، وكيف كلّف مع عمرو بن العاص بحماية ظهر الجيش المنسحب ريثما يتم انسحابه .

لقد كانت الخندق هى الصدمة النفسية والضخمة التى دفعت به إلى أن يراجع حساباته ، ولكنها لم تكن كافية لتغيير الموقف الجذرى كله، حتى كان يوم الحديبية ، وحدثنا عن فعلها فى نفسه ، وأنها هى التى أوصلت تيار الحق إلى قلبه .

ويروى الواقدى نقاشاً قريباً مما جرى بين عمرو وأبى سفيان (ويقال : الذى تكلم خالد بن الوليد ، ولا ندرى لعلهما قد تكلما بذلك جميعا. قال خالد بن الوليد: قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط . قال أبو سفيان بن حرب: إن أحقَّ الناس ألا يقول هذا أنت. قال: ولِم ؟ قال : نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك أبا جهل)[3] .

ثانياً : قيادات غطفان :

٤ ـ عيينة بن حصن :

لقد كان عيينة بن حصن الفزارى مندفعاً اندفاعاً أعمى لحرب محمد ﷺ ، وسبق أن جمع الجموع قبل الخندق ، وأراد أن يغير على المدينة ، وعوجل قبل تنفيذ مطامعه ، وغزى فى عقر داره ، فلما أن جاءته بنو قريظة تعرض عليه تمر خيبر ، لم يتردد لحظة واحدة فى الانضمام إلى الأحزاب. فالحقد كامن فى قلبه ، يطغى على أى شيء آخر ، بينما كان الحارث بن عوف سيد بنى مرة أبعد أفقاً من عيينة ، وتاريخه فى الصلح بين

(١) أصحر : برز .
(٢) المصدر السابق / ٤٦٦ .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤٩١ .

عبس وذبيان يشهد له بذلك ، وهذا قبيل المعركة .

يقول الإمام الواقدى فى تحليل الشخصيتين: ثم ساروا ـ أى اليهود ـ إلى غطفان فجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، وينصرونهم، ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا ، فأنعمت بذلك غطفان ، ولم يكن أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن .

(ولما أجمعت غطفان السير ، أبى الحارث بن عوف المسير وقال لقومه : تفرقوا فى بلادكم ولا تسيروا إلى محمد ، فإنى أرى أن محمداً أمره ظاهر ، لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة ، فتفرقوا فى بلادهم، ولم يحضر واحد منهم . وهكذا روى الزهرى وروت بنو مرة .

وحدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة قالا : شهدت بنو مرة الخندق وهم أربعمائة ، وقائدهم الحارث بن عوف المرى وهجاه حسان وأنشد شعراً ، وذكروا مجاورة النبى ﷺ ، فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق فى قومه ، ولكنه كان أمثل تقية من عيينة)(١) .

ثم كان الاحتكاك المباشر بين الرجلين ، وبين رسول الله ﷺ حين راح يراوضهما فى تمر المدينة مقابل انسحابهما من المعركة :(فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ ـ كما حدثنى عاصم بن قتادة ومن لا أتهم عن محمد بن مسلم عن الزهرى ـ إلى الحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه. فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك) (٢) .

ورواية ابن إسحاق لا تعرض الفرق الشخصى والنفسى بين الزعيمين بينما نجد فى رواية الواقدى إضاءات متنوعة على طبيعة الرجلين، وطبيعة المحادثات بينهما.

يقول الإمام الواقدى فيما يرويه عن رجاله قال: حدثنا محمد بن عبد الله عن الزهرى عن سعيد بن المسيِّب قال: (قال: حصر رسول الله ﷺ بضع عشرة حتى خُلص إلى كل امرئ منهم الكرب. وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم ، إنك إن تشأ لا تعبد! » فبينا هم على ذلك من الحال أرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف: «أرأيت إن جَعَلْتُ لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلا بين الأعراب؟ » قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك وجاء فى عشرة من قومهما حين تقارب

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣١٠، ٣١١ .

الأمر، فجاؤوا وقد أحضر رسول الله ﷺ أصحابه، وأحضر الصحيفة والدواة وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم، وعبَّاد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ،مقنَّعٌ فى الحديد، فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ، ولا يدرى بما كان من الكلام، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ ، وجد عيينة مادًا رجليه بين يدى رسول الله ﷺ، وعلم ما يريدون فقال: يا عين الهجرس، اقبض رجليك: أتمد رجليك ، بين يدى رسول الله؟ ومعه الرمح، والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح .

لقد كان هجومًا عنيفًا شنَّه سيد الأوس على سيد غطفان، وذلك لتجاوزه الأدب بين يدى رسول الله ﷺ وبالخصيصة الإيمانية عنده، وبعد معرفته بسبب حضوره قال: يا رسول الله ،إن كان أمرًا من السماء فامض له ،وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف، متى طمعوا بهذا منا فأسكت رسول الله ﷺ ودعا سعد بن معاذ ، وسعد ابن عبادة فاستشارهما فى ذلك وهو متكئ عليهما والقوم جلوس، فتكلم بكلام يخفيه، وأخبرهما بما قد أراد من الصلح فقالا: (إن كان هذا أمرًا من السماء فامض له ،وإن كان أمرًا لم تؤمر فيه،ولك فيه هوى،فامض لما كان لك فيه هوى فسمعًا وطاعة. . .) .

إنه موقف عصيب يشهده عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف، وقادة غطفان لمدى الالتزام ،والطاعة ،والانضباط ، والحب بين القائد الأعظم ،وجنده ودرس بليغ يتلقونه بمدى الثقة العميقة،والتفانى لدى قادة الأوس والخزرج برسول رب العالمين . . . وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف، وأخذ سعد بن معاذ الكتاب. فقال رسول الله : « إنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت :أرضيهم ولا أقاتلهم » فقالا : يا رسول الله ﷺ أن كانوا ليأكلون العلهز[1] فى الجاهلية من الجهد ما طمعوا بهذا منا قط أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرىً ! فحين أتانا الله بك، وأكرمنا بك وهدانا بك، نعطى الدنية! لا نعطيهم أبدًا إلا السيف.

لقد كانت كلمات السعدين تنزل كالصواعق على رأس عيينة بن حصن، والحارث ابن عوف، وبقية قادة غطفان بعد أن تلمظوا لتمر يثرب، وتحلبت أشداقهم له.

فقال رسول الله ﷺ: « شقَّ الكتاب ». فتفل سعد فيه ثم شقَّه.

لقد انقلبت الموازين كلها فى رأس قادة غطفان، فقد توقعوا أن قادة الخزرج والأوس قد خذلوا نبيهم، وعضَّهم الجوع نتيجة الحصار، وأبدوا استعدادهم لبذل مالهم

(١) العلهز: هو شيء يتخذونه فى سنى المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار وياكلونه، وقيل : كانوا يخلطون فيه القردان.

وثمرهم إنقاذًا لهم من وطأة الحصار.

وعيينة بن حصن، سليل حذيفة بن بدر الذى أشعل حرب داحس ، والغبراء بشهوته وطمعه، ها هو يهدد ويقول: (فقام عيينة وهو يقول: أما والله للَّتى تركتم خير لكم من الخطة التى أخذتم ، وما لكم فى القوم من طاقة).

وحسب عيينة أنه فى اللحظة الأخيرة سوف يقلب الموازين، فجاءتهم الصفعة الحادة الثانية من عباد بن بشر قائد حرس رسول الله ﷺ: الذى هدده فى البداية بقوله: يا عين الهجرس، اقبض رجليك ، أتمد رجليك بين يدى رسول الله ﷺ؟! والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح. وها هو يصاوله ثانية قائلاً: يا عيينة ، أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع! وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرِّمَّة[1] من الجهد فتأتون ها هنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرىً أو شِرىً ونحن لا نعبد شيئًا ، فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد ﷺ سألتمونا هذه الخطة! أما والله لولا مكان رسول الله ﷺ ما وصلتم إلى قومكم.

إن منطق الأعراب لا يناسبه إلا هذا المنطق، والقوة هى الحكم الفصل معهم، أو الخضوع لابتزازهم ، وهم لا ينطلقون من قيم تحكمهم، والقوة هى السبيل الوحيد التى تدفعهم إلى تغيير موازينهم ، وإعادة حساباتهم. ولننظر إلى آثار هذا الموقف الخالد على أعصاب عيينة والحارث.

فرجع عيينة ، والحارث ، وهما يقولان : والله ما نرى أن ندرك منهم شيئاً ، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم وهنا تبدو الملامح الشخصية للرجلين ، وأثار هذا الموقف عليهما .

يقول الحارث بن عوف : والله ما حضرت إلا كرهاً لقوم غلبونى وما مقامنا بشىء مع أن قريشاً إذا علمت بما عرضنا على محمد ، عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها . قال عيينة : هو الله كذلك .

فابن حصن قد بُهت ، ولا يدرى ما يقول ، ويشعر بخطئه الفادح فى التورط فى هذه الحرب وأين بنو قريظة لتعطيه تمرها هذا العام .

٥ ـ تبايع الحارث :

قوله : أما إنا لم نُصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد ، ويحلل بدقة ووعى النتائج المدوية لهذا الموقف فيقول : والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر

(١) الرِّمَّة : العظام البالية .

فيها دون سائر العرب .

ثم يعرض الجانب الأعمق فى ذاته فيقول :(... مع أنى أرى أمر محمد أمراً ظاهراً ، والله لقد كانت أحبار يهود خيبر ، وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبى من الحرم على صفته ...) .

لقد وصل الحارث موقفه بأعماقه وبأقوال يهود خيبر وأحبارهم عن النبى المنتظر فهو يمكن أن يصيخ إلى داع الهدى ، وأن يجد له موقعاً فى قلبه . أما تفكير عيينة فقد كان بعيداً عن هذا الجانب فقال :

(... إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً ، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها ، ولكنى كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة ، فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى هنا .فليس أمام عيينة إلا مطامحه ولا حد لها ، شهرة ، ومال ، وذكر ، ونصر . أما الحارث الأبعد غوراً منه فأجابه : قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف ، والله لتقاتلنَّ عن هذا السعف ، ما بقى منها رجل مقيم ، وقد أجدب الجناب ، وهلك الخف والكراع .

وطامن عيينة من كبريائه . وأعلن إفلاسه عن تحقيق كل هذه المطامع ، قال : لا شيء .

فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا : ما وراءكم ؟ قالوا : لم يتم الأمر ، رأينا قوماً على بصيرة ، وبذل نفسى دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ، ولا تكلم محمداً ! وإنما يقع حر محمد ببنى قريظة ، إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا ما بأيديهم !

ولم يكن الحارث ليغيب عنه كيد اليهود ، وأنهم هم أشعلوا نار الحرب هذه كلها فقال : بعداً وسحقاً ، محمد أحب إلينا من اليهود) (١) .

وهكذا تجلى أثر هذه المعركة فى نفوس الصاحبين ، حيث اعترف عيينة بعجزه وخطل موقفه من المواجهة وأنه يسبح عكس التيار ، بينما رأينا أصالة موقف الحارث ابتداءً ،وآثار الإيمان فى قلبه قبل أن يدخل حظيرة الإيمان فيما يسمعه عن النبى المنتظر ، وتقييمه الدقيق للمواقف والرجال والأشخاص .

لقد غزى الزعيمان فى أعماقهما ، ووضعت البصمات الأولى عليهما توطئة لإيقاف حربهما ضد الإسلام ، ثم انتهاء بدخولهما حظيرة الإسلام فيما بعد .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤٧٧ ــ ٤٨٠ .

ثالثاً : قيادات اليهود :

٦ ـ كعب بن أسد :

وعلى رأس هذه القيادات سيد بنى قريظة كعب بن أسد ، وها هو ينتظر نتائج الوفادات بعد اشتداد الحصار بينه وبين محمد ﷺ .

قال محمد بن مسلمة : (حصرناهم أشد الحصار ، فلقد رأيتنا يوم غدونا عليهم قبل الفجر ، فجعلنا ندنو من الحصن ونرميهم من كثب ، ولزمنا حصونهم فلم نفارقها حتى أمسينا ، وحضّنا رسول الله ﷺ على الجهاد والصبر ، ثم بتنا على حصونهم ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا وأمسكوا عنه وقالوا : نكلمك . فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فأنزلوا نباش بن قيس فكلّم رسول الله ﷺ ساعة وقال : يا محمد! ننزل على مانزلت عليه بنو النضير ، لك الأموال والحلقة ، وتحقن دماءنا ونخرج من بلادكم بالنساء والذرارى ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأبى رسول الله ﷺ فقالوا : فتحقن دماءنا ، وتسلم لنا النساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، إلا تنزلوا على حكمى » فرجع نباش بمقالة رسول الله ﷺ)(١) .

قال ابن إسحاق : (وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ،وقد كان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم ، قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم ، وأموالكم ، وأبنائكم ، ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ،ولا نستبدل به غيره ،قال : فإذا أبيتم علىَّ هذه فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف ، ولم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدنَّ النساء والأبناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟ قال : إن أبيتم علىَّ فإن هذه الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها . فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّةً .قالوا : نفسد سبتنا علينا ونحدث

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٥٠١ .

فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. قال : ما بات رجل منكم منذ أن ولدته أمة ليلة واحدة من الدهر حازماً) (١) .

لكننا حين نبحث عن جوانب شخصية هذا الزعيم ، نلاحظ أن لديه بعض القيم التى ينطلق منها ،لكنه يخضع فى النهاية لذاته . حيث يعبد ذاته وزعامته :

أ ـ فهو ابتداء قد بهره رسول الله ﷺ بحسن معاملته ، وانتزع إعجابه ، فانظر إليه يقول لحيى بن أخطب : (ويحك يا حيى ، دعنا على عهدنا لهذا الرجل فإنى لم أر رجلاً أصدق ، ولا أوفى من محمد وأصحابه ، والله ما أكرهنا على دين،ولا غصبنا مالاً ، ولا ننقم من محمد وعملك شيئاً ، وأنت تدعو إلى الهلكة ، فنذكّرك الله إلا ما أعفيتنا من نفسك . فقال : والله لا أفعل ولا يختبرها محمد إلى يوم القيامة ، ولا نفترق وهذه الجموع حتى يهلك) (٢) .

لقد غلبه حيى بن أخطب بعد أن عيَّره بالبخل ، وبعد أن مناه بالنصر ، فاستجاب لداعى هواه فى النهاية وأصمَّ أذنيه عن نداء عقله .

ب ـ ثم كانت الفرصة المتاحة والأخيرة لتلافى ما فات ، بعد انسحاب قريش وغطفان وحلفائهم ، وبعد أن أصبحوا على شفا الموت ، وأصبح حكمهم بيد رسول الله ﷺ . فها هى أعماق ذاته تظهر ثانية جلية تدعوهم إلى الهدى . فيقول :

(فرجع نباش إلى أصحابه بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال كعب بن أسد : يا معشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبى الله وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب ، حيث لم يكن نبياً من بنى إسرائيل ، فهو جعله الله وقد كنت كارهاً لنقض العهد ، ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس علينا وعلى قومه ، وقومه كانوا أشوى منا ، لا يستبقى محمد رجلاً إلا من تبعه .

إنه يعرض هذا الرأى ،ويسوق للإقناع به كل ما لديه من حجة ، فيتابع حديثه قائلاً : أتذكرون ما قال لكم ابن فراش حين قدم عليكم فقال : تركت الخمر والخمير والتأمير، وجئت إلى السقاء والتمر والشعير ؟ قالوا : وما ذلك ؟ قال : يخرج من هذه القرية نبى فإن خرج وأنا حى اتبعته ونصرته ، وإن خرج بعدى فإياكم أن تُخدعوا عنه فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه . وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر .

قال كعب : فقالوا: فلنتبعه ولنصدقه ولنؤمن به ، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا فنكون بمنزلة من معه ،لقد سدَّ عليهم الطريق من كل جانب فليكن إيمان المضطر إن لم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ وقال المحقق فيه :«صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع» .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى من رواية إمام المغازى موسى بن عقبة ٣ / ٤٠١ .

يكن إيمان المؤمن ، ولكن الجاهلية العاتية ،وعبودية الهوى سدت عليهم الإصاخة لكلمة الحق .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ (١) قالوا : لا نكون تبعاً لغيرنا ، نحن أهل الكتاب والنبوة ونكون تبعاً لغيرنا ؟ !

فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم . قالوا : لا نفارق التوراة ولا ندع ما كان عليه من أمر موسى) (٢) .ورفضوا ، وما كان ليدع الزعامة ويمضى مع الحق، فليبق معهم زعيماً إلى الأبد ، ومن أئمة النار ، فأصروا على الكفر ،فأصرَّ معهم .

جـ ـ وها هو فى لحظاته الأخيرة بين يدى رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « كعب بن أسد ؟ » قال كعب : نعم يا أبا القاسم . قال : «وما انتفعتم بنصح ابن خراش ، وكان مصدِّقاً بى أما أمركم باتباعى ، وإن رأيتمونى تقرئونى منه السلام ؟» قال : « بلى والتوراة يا أبا القاسم . ولولا أن تعيرنى اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكنى على دين اليهود .

قال رسول الله ﷺ : « قدِّمه فاضرب عنقه » فقدَّمه فضرب عنقه (٣) .

لقد بقى حب الزعامة والخوف من العار لصيقاً به إلى آخر لحظة من حياته .

واختار النار على العار، واختار الكفر على ذهاب السمعة والصيت ، وكان فرعون خيرا منه حين قال: **﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾**(٤).

٧ ـ عمرو بن سعدى :

وقد خطا بعضهم وهو لم تعمه الزعامة خطوة متقدمة فلم يدخل فى دين الله ولكنه رفض نكث العهد . وهو عمرو بن سعدى .

(فحدثنى الضحاك بن عثمان ، عن محمد بن يحيى بن حبان قال : قال عمرو بن سعدى وهو رجل منهم : يا معشر اليهود ، إنكم قد حَالفتم محمداً على ما حالفتموه عليه ، ألا تنصروا عليه أحداً من عدوه ، وأن تنصروه ممَّن دهمه ، فنقضتم ذلك العهد الذى كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه ولم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدرى يقبلها أم لا ؟ قالوا : نحن لا

---

(١) الأنبياء / ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) المغازى للواقدى ٢ / ٥٠١ ، ٥٠٢ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٥٦٦ .
(٤) يونس / ٩٠.

نقر للعرب بخرجٍ فى رقابنا يأخذوننا به القتل خير من ذلك ! قال : فإنى برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة مع بنى سعبة ، فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد ابن مسلمة . فقال محمد بن مسلمة : من هذا ؟ فقال : عمرو بن سعدى . فقال محمد : مر ! اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام .

فخلى سبيله وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح ، فلما أصبح غدا فلم يدر أين هو حتى الساعة . فسُئل رسول الله ﷺ عنه فقال : « ذاك رجل نجاه الله بوفائه » (١) .

وعمرو بن سعدى ليس غريباً على الساحة الإسلامية ، فقد انتشر أمره فى الصف الإسلامى ، كما روى البيهقى بسنده عنه منذ جلاء بنى النضير ، قال :

(لما خرجت بنو النضير من المدينة ، أقبل عمرو بن سعدى فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ، وفكَّر ثم رجع إلى بنى قريظة فوجدهم فى الكنيسة ،فنفخ فى بوقهم فاجتمعوا فقال الزبير بن باطا : يا أبا سعيد ، أين كنت منذ اليوم لم نرك ؟ وكان لا يفارق الكنيسة ، وكان يتأله فى اليهودية . قال : رأيت اليوم عبراً قد عبرنا بها . رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ،قد تركوا أموالهم، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل ، ولا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذى عزهم ، ثم بيَّته فى بيته آمنا ، وأوقع بابن سنينة سيدهم ، وأوقع ببنى قينقاع فأجلاهم وهم أهل جد يهود ، كانوا أهل عدة وسلاح ونجدة فحصرهم ، فلم يُخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم ، فكُلم فيهم ، فتركهم ، على أن أجلاهم من يثرب .

ياقوم ، قد رأيتم ما رأيت فأطيعونى ، وتعالَوا نتَّبع محمداً ،فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى وقد بشرنا به ، ويأمرهم ابن الهيبان أبو عمير ، وابن خراش ، وهما أعلم يهود جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه ، وأمرانا باتباعه ، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ، ثم ماتا على دينهما ، ودفنَّاهما بحرتنا هذه .

فأُسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم ، فأعاد هذا الكلام وخوَّفهم بالحرب والسباء والجلاء ، فقال الزبير بن باطا : قد والتوراة قرأت صفته فى كتاب باطا التوراة التى أنزلت على موسى ، ليس فى المثانى الذى أحدثنا . قال : فقال له كعب بن أسد : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت . قال كعب : ولم والتوراة ما حلت

---

(١) الواقدى فى المغازى ٢ / ٥٠٤ ، ورواه ابن إسحاق فى السيرة لابن هشام ٣ / ٣٣٠ .وقال المحقق فيه : «رواه ابن إسحاق معلقا » .

بينك وبينه قط. قال الزبير : أنت صاحب وعهدنا عقدنا فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أبيت أبينا) [١].

فأقبل عمرو بن سعدى على كعب فقال : أما والتوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سيناء إنه للعز والشرف فى الدنيا ، وإنه لعلى منهاج موسى ، وينزل معه وأمته غداً فى الجنة . قال كعب : نقيم على عهدنا وعقدنا فلا يخفر لنا محمد ذمة ، وننظر ما يصنع حيى ، فقد أخرج إخراج ذل وصغار ، فلا أراه يقر حتى يغزو محمداً . فإن ظفر بمحمد فهو ما أردنا ، وأقمنا على ديننا ، وإن ظفر بحيى فما فى العيش خير وتحوَّلنا من جوازه .

قال عمرو بن سعدى : ولم نؤخر الأمر وهو مقبل ؟ قال كعب : ما على هذا فوق متى أردت هذا من محمد أجابنى إليه . قال عمرو :والتوراة إن عليه لغوثاً ، إذا سار إلينا محمد فتخبأنا فى حصوننا هذه التى قد خدعتنا ، فلا نفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه ، فيضرب أعناقنا . قال كعب بن أسد : ما عندى من أمره إلا ما قلت . ما تطيب نفسى أن أصير تابعاً لقول هذا الإسرائيلى ، ولا يعرفنَّ لى فضل النبوة ولا قَدْرَ الفِعَال. قال عمرو بن سعدى : بل لعمرى ليعرفنَّ ذلك .

فبينما هم على ذلك ،لم يرعهم إلا بمقدمة النبى ﷺ قد حلَّت بساحتهم. فقال: هذا الذى قلت لك. ذلك أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ،وحاربوه فى وقعة الخندق[٢].

فعمرو بن سعدى كان أقرب إلى الإسلام من كعب بن أسد ، الذى لم يكن يضيره ابتداءً إلا أن يحافظ على وجوده وزعامته بمحافظته على عقد محمد وعهده . وبمقدار ما جهد عمرو بن سعدى به ليدفعه إلى الإسلام فيأبى أن يصير تابعاً . بمقدار ما رأينا كعب ابن أسد يجهد مع قومه ليدخلوا فى الإسلام بعد أن أوردهم الهلكة ، ونقض العهد وآن أوان قطع أعناقهم ، ومع ذلك أظهر استعداده للإسلام فى اللحظات الأخيرة بصفته المنقذ الوحيد لهم ، لكن قومه أبوا أن يكونوا تابعين .

وهنا افتراق أمر عمرو بن سعدى عن كعب . ففى الوقت الذى بقى كعب مع قومه يموت معهم ويحيا معهم ، ويغدر معهم وينكث معهم ،غادرهم عمرو بن سعدى قائلاً : فإنى برىء منكم ، وحفاظاً على العهد يخرج حتى لا يحمل مسؤولية الغدر ، ولعله خرج فى اللحظات الأولى التى نكثوا فيها العهد ، فكان جواب محمد بن مسلمة له : مُرَّ ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام . ومرَّ ومضى ، ومضى فيه قول النبى ﷺ :

(١) دلائل النبوة للإمام البيهقى ٣/ ٣٦١،٣٦٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٤٦٤ . وكلاهما روياه عن الواقدى .

« ذلك رجل نجاه الله بوفائه » .

٨ ـ الزبير بن باطا :

أ ـ وهذا زعيم آخر . تتاح له فرصة الإسلام والنجاة ، فيأبى إلا أن يموت على كفره وشركه . إنه الزبير بن باطا ، الذى قال لكعب :

بل أنت صاحب عقدنا وعهدنا فإن اتبعته اتبعناه ، إنه يقسم بقوله : والتوراة قد قرأت صفته بالتوراة التى نزلت على موسى ليس فى المثانى التى أحدثنا . فقال له كعب ابن أسد : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قا ل: أنت . . .).

فعندما تحين الفرصة ويخلو اليهود إلي بعضهم سرعان ما يعترفون بالنبوة ، وذلك كما وصفهم الله تعالى : **﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** (١) .

لقد اعترف عمرو بن سعدى أولا، ثم اعترف الزبير بن باطا ثانياً ، ثم اعترف كعب ابن أسد ثالثاً ، لكنهم جميعاً لم ينتهوا إلى معسكر النبوة ، إلا أن عمرو بن سعدى فارقهم لغدرهم فنجاه الله بوفائه فى دنياه ، كما قال عليه الصلاة والسلام . ولنتابع رحلتنا فى أعماق الزبير .

ب ـ لقد سفَّه رأى كعب بن أسد حين أصاخ لحيى بن أخطب ونكث العهد. وقال: وإهلاك اليهود ، تولى قريش وغطفان ، ويتركوننا فى عقر دارنا وأموالنا وذرارينا ، ولا قوة لنا بمحمد ما مات يهودى على حزم قط،ولا قامت يهودية بيثرب أبداً. وعندما حدثهم كعب بن أسد عن احتمال الانتصارات الموهومة كما مناه حيى ، وما أعطاه حيى أن يرجــع إليه ـ إن لم يكن النصر ـ فيدخل معه فيصيبه ما أصابه . يقول الزبير بن باطا : وماحاجتك إلى أن تقتل ويقتل معك حيى ؟ قال : فأُسكت كعب وقال القوم : نحن نكره أن نزرى برأيك أو نخالفك ،وحيى من عرفت شؤمه ،وندم كعب بن أسد على ما صنع من نقض العهد ولم الأمر لما أراد الله تعالى من حربهم وهلاكهم(٢).

جـ ـ لقد راعى سيد قومه فما أسلم من أجله ، وراعى سيد قومه فما خالفه وهو يرى فى عدم مخالفته هلاك لقومه ،وها هو يراعيه بعد موته ، على حساب عقله ودينه وهو على أعتاب الموت كذلك .

(حدثنى عبد الحميد بن جعفر عن محمد بن يحيى بن حبَّان ، وحدثنى ابن أبى حبيبة عن داود بن الحصين ، وكل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة . قالا : كان

(١) البقرة / ١٤٦ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٣٦٢ .

الزبير بن باطا مَنَّ على ثابت بن قيس (خطيب رسول الله ﷺ) [1] يوم بعاث . فأتى ثابت الزبير فقال : يا أبا عبد الرحمن ، هل تعرفنى ؟ قال : وهل يجهل مثلى مثلك ؟ قال ثابت : إنَّ لك عندى يداً ، قد أردت أن أجزيك بها . قال الزبير : إن الكريم يجزى الكريم ، وأحوج ما كنت إليه اليوم، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه كان للزبير عندى يد ، جزٌ ناصيتى يوم بعاث ، فقال : اذكر هذه النعمة عندك ، وقد أحببت أن أجزيه بها فهبه لى . فقال رسول الله ﷺ : « فهو لك » . فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ قد وهبك لى . قال الزبير : شيخ كبير لا أهل ولا ولد ولا مال بيثرب مايصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله فقال : يا رسول الله ،اعطنى ولده ، فأعطاه ولده ، فقال : يا رسول الله ، اعطنى ماله وأهله . فأعطاه رسول الله ﷺ ماله وأهله. فرجع إلى الزبير فقال :إن رسول الله ﷺ قد أعطانى ولدك ، ومالك وأهلك .

فقال الزبير : يا ثابت ، أما أنت فقد كافأتنى ، وقضيت بالذى عليك .

يا ثابت ، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى عذارى الحى فى وجهه كعب ابن أسد ؟ قال : قُتل . قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى وسيد الحيين كليهما ، يحملهم فى الحرب ويطعمهم فى المحل ، حيى بن أخطب ؟ قال : قُتِل . قال : فما فعل أول غادية اليهود إذا حملوا وحاميتهم إذا ولوا ، غزَّال بن سموأل ؟ قال: قتل . قال : فما فعل الحُوَّل القُلَّبِ الذى لا يؤم جماعة إلا فضّها ، ولا عقدة إلا حلّها ، نباش بن قيس ؟ قال : قُتل . قال :فما فعل لواء اليهود فى الزحف ، وهب بن زيد ؟ قال: قتل قال : فما فعل رفادة اليهود وأبو الأرامل عقبة بن زيد ؟ قال: قتل . قال : فما فعل القمران اللذان كانا يلتقيان بدراسة التوراة ؟ قال : قُتلا . قال :

يا ثابت ، فما خير العيش بعد هؤلاء ، أأرجع إلى دار كانوا فيها حلولا فأخلد فيها بعدهم ؟ لا حاجة لى فى ذلك فإنى أسألك بيدى عندك إلا قدمتنى إلى هذا القتَّال الذى يقتل سراة بنى قريظة ، ثم يقدّمنى إلى مصارع قومى ، وخذ سيفى ، فإنه صارم فاضربنى به ضربة وأجهز ، وارفع يدك عن الطعام ، وألصق بالرأس ، واخفض عن الدماء فإنه أحسن للجسد أن يبقى فيه العنق . يا ثابت ، لا أصبر إفراغ دلوٍ من نضح حتى ألقى الأحبة .

قال أبو بكر : وهو يسمع قوله : ويحك يابن باطا ، إنه ليس إفراغ دلو ، ولكنه عذاب أبدى .

قال: يا ثابت ، قدِّمنى فاقتلنى . قال ثابت : ما كنت لأقتلك . قال: يا ثابت، ما

(١) المغازى للواقدى ٢/٤٥٦ ، ٤٥٧ .

كنت أبالى من قتلنى ولكن يا ثابت،انظر إلى ولدى وامرأتى فإنهم جزعوا من الموت ، فاطلب إلى صاحبك أن يطلقهم وأن يرد إليهم أموالهم ، وأدناه إلى الزبير بن العوام فقدمه فضرب عنقه (١) .

(فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله : ألقى الأحبة . قال : يلقاهم والله فى نار جهنم خالداً فيها مخلداً) (٢) .

هذه هى النفسية اليهودية فى أبعادها وأغوارها ، تعاند الحق وتوقن بأنه الحق ، ومن أجل السمعة والمركز تقتل ، وتعرف أنها على باطل رغم بعض الجوانب الإيجابية من الاعتراف بالحق ، وفعل الخير فى بعض الأحيان .

وتبقى القلة القليلة النادرة منهم ، التى تتمكن من اقتحام كل هذه السدود ، وتنفذ إلى الحق وتؤمن به . وذلك فى النماذج التالية :

٩ ـ ثعلبة بن سعية (٣) وأسيد بن سعية ، وأسيد بن عبيد عمهم :

هؤلاء الثلاثة تجاوزوا قنطرة الضلالة ، وتجاوزوا بحر الباطل ، ومضوا إلى شمس الحق ينهلون منها .

فحدثنى صالح بن جعفر عن محمد بن عقبة عن ثعلبة بن أبى مالك قال : قال ثعلبة ، وأسيد ابنا سعية ، وأسيد بن عبيد عمهم : يا معشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأن صفته عندنا ، حدَّثنا بها علماؤنا ، وعلماء بنى النضير . هذا أولهم ـ حيى بن أخطب مع جبير بن الهيبان أصدق الناس عندنا ـ هو خبَّرنا بصفته عند موته . قالوا: لا نفارق التوراة ، فلما رأى هؤلاء النفر إباءهم نزلوا فى الليلة التى فى صبحها نزلت بنو قريظة فأسلموا فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم .

هذه هى الرواية المختصرة لإسلام هؤلاء الثلاثة . لكن كتب التراجم والسير تنقل لنا تفصيلاً أدق حول قصة إسلامهم ، وذلك بعد نزولهم وأمنهم . ولعل إسلامهم الأول لم يكن فيه اليقين النهائى ، و تم إسلامهم بعد هذه الحادثة العجيبة .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٥١٨ ــ ٥٢٠ . وقد رواه ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهرى ،ورواه موسى بن عقبة فى المغازى مرسلاً عن الزهرى ، ورواه الطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ، ورواه البيهقى فى الدلائل من طريق ابن إسحاق وقد صرَّح عنده بالسماع. انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٣٣٦ .

(٣) اسمه فى كتب التراجم : زيد بن سعنة ، وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى الاختلاف فى اسم أبيه بين (سعنة) و(سعية) .

أخرج الطبرانى ، وابن حبان والحاكم ، والبيهقى ، وأبو نعيم عن عبد الله بن سلام قال : (لما أراد الله هدى زيد بن سعنة ، قال زيد : لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها فى وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه ،يسبق حلمه غضبه ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف جهله وحمله. فابتعت منه تمراً معلوماً إلى أجل ، وأعطيته الثمن . فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت : ألا تقضى يا محمد حقى، فو الله إنكم يا بنى عبد المطلب لمطل ، ولقد كان لى بمخالطتكم علم . فقال عمر بن الخطاب : أى عدو الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ،فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك .

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكون وتؤدة وتبسم ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة [1] ، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً مكان ما روَّعته » ،ففعل . فقلت لعمر: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما به : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فقد خبرتهما، فأشهدك أنى رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً) [2] .

ويترجم الحافظ ابن حجر لزيد بن سعنة بقوله : (... الحبر الإسرائيلى ... آمن وصدَّق وشهد مع النبى ﷺ مشاهده ، واستشهد فى غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر . ورجال الإسناد (فى قصة إسلامه) موثقون ، وقد صرَّح فيه الوليد بالتحديث) [3] .

فمن بنى قريظة جميعاً ومن المئات فيهم شهيدنا زيداً، وأخاه وعمهما يدخلون حظيرة النبوة .

١٠ ـ رفاعة بن السموأل :

وذاك زعيم آخر من زعمائهم لم تعجبه الضلالة كما هو الحال مع الزبير بن باطا ، وذلك لأنه لم يكن بارزاً فى القيادة مثل أخيه ، إنه ابن السموأل رفاعة . وقد كان أخوه غزَّال بن سموأل يطغى عليه ، وقدَّر الله له أن يكون له صحبة مع بنى النجار أخوال رسول الله ﷺ فاستفاد من هذه الصحبة نجاة من الموت ونجاة من النار .

(... ونظر رسول الله ﷺ إلى سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالاته ، وكانت قد صلَّت القبلتين وبايعته ، وكان رفاعة بن سموأل له انقطاع إليها وإلى أخيها

(١) التباعة : المطالبة .

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى ١ / ١٥ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٢٨ .

سليط بن قيس وأهل الدار ، وكان حين حبس (أى رفاعة) أرسل إليها أن كلمى محمداً فى تركى ، فإن لى بكم حرمة ، وأنت إحدى خالاته ، فتكون لكم عندى يداً إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ : « مالك يا أم المنذر ؟ » قالت : يا رسول الله رفاعة بن سموأل كان يغشانا وله بنا حرمة فهبه لى ،وقد رآه رسول الله ﷺ يلوذ بها ، فقال رسول الله ﷺ: « نعم ، هو لك » ثم قالت: يا رسول الله ، إنه يصلى ويأكل لحم الجمل . فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « إن يصل فهو خير له ، وإن يثبت على دينه فهو شر له » . فقالت : فأسلم . فكان يقال له :مولى أم المنذر ، فشق ذلك عليه واجتنب الدار حتى بلغ أم المنذر ذلك فأرسلت إليه : إنى والله ما أنا لك بمولاة ، ولكنى كلمت رسول الله ﷺ فوهبك لى فحصنت دمك وأنت على نسبك ، فكان بعد يغشاها وعاد إلى الدار) [1] .

فها هو إذن ينضم إلى الركب الصغير المؤمن من اليهود الذى قاده زيد بن سعنة كبير أحبار اليـهود وتـنضم إليه أخـيراً ريحـانة بنت زيد النضرية القرظية ـ رضوان الله عليها .

(قالوا : وكانت ريحانة بنت زيد من بنى النضير ، متزوجة فى بنى قريظة ، وكان رسول ﷺ قد أخذها لنفسه صفياً ، وكانت جميلة ، فعرض عليها رسول الله ﷺ أن تسلم فأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد فى نفسه ، فأرسل إلى ابن سعبة فذكر له ذلك ، فقال ابن سعبة : فداك أبى وأمى هى تسلم ! فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها :لا تتبعى قومك ، فقد رأيت ما أدخل عليهم حيى بن أخطب، فأسلمى يصطفيك رسول الله ﷺ .

فبينا رسول الله ﷺ فى أصحابه إذا سمع وقع نعلين فقال : « إن هاتين لنعلا ابن سعبة يبشرنى بإسلام ريحانة » . فجاءه فقال : يا رسول الله ﷺ قد أسلمت ريحانة ، فسرَّ بذلك .

فحدثنى عبد الملك بن سليمان عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أيوب بن بشير المعارى قال : أرسل بها رسول الله ﷺ إلى بيت سلمى بنت قيس أم المنذر ، وكانت عندها حتى حاضت حيضة ، ثم طهرت من حيضها فجاءت أم المنذر فأخبرت النبى ﷺ فجاءها رسول الله ﷺ فى منزل أم المنذر ،فقال لها رسول الله ﷺ : « إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت ، وإن أحببت أن تكونى ملكى أطؤك بالملك فعلت » . فقالت : يا رسول الله ، إنه أخف علىّ وعليك أن أكون فى مِلكك . فكانت فى ملك النبى ﷺ يطؤها حتى ماتت عنده .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٥١٤ ، ٥١٥ .

فحدثنى ابن أبى ذئب قال: سألت الزهرى عن ريحانة فقال: كانت أمةً لرسول الله ﷺ فأعتقها وتزوجها، وكانت تحتجب فى أهلها وتقول: لا يرانى أحد بعد رسول الله ﷺ .

فهذا أثبت الحديثين عندنا ، وكان زوج ريحانة قبل النبى ﷺ الحكم) (١) .

(يقول الحافظ ابن حجر : وأخرج ابن سعد عن الواقدى من عدة طرق أنه ﷺ تزوجها ، وضرب عليها الحجاب ، ثم قال : وهذا الأثر عند أهل العلم .

وأخرج ابن سعد عن الواقدى بسند له عن عمر بن الحكم قال : كانت ريحانة عند زوج لها يحبها ، وكانت ذات جمال ، فلما سبيت بنو قريظة عُرِض السبيُ على النبى ﷺ ، فعزلها ثم أرسلها إلى بيت أم المنذر بن قيس حتى قتل الأسرى ، وفرَّق السبيُ ، فدخل إليها ، فاختبأت منه حياءً . قالت : فدعانى فأجلسنى بين يديه ، وخيَّرنى فاخترت الله ورسوله فأعتقنى وتزوج بى ، فلم تزل عنده حتى ماتت ، وكان يستكثر منها ويعطيها ما تسأله ، وماتت مرجعه من الحج ، ودفنها بالبقيع .وقال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال :حدثنى صالح بن جعفر عن محمد بن كعب قال : كانت ريحانة مما أفاء الله على رسوله،وكانت جميلة وسيمة ،فلما قُتل زوجها وقعت فى السبى، فخيّرها رسول الله ﷺ فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلَّقها ، فشقَّ عليها وأكثرت البكاء فراجعها فكانت عنده حتى ماتت قبل وفاته) (٢) .

هذا هو المجتمع المؤمن الذى انسلخ من هذه الأمة ، وكوَّن وجوداً مستقلاً له عنها، وانضم إلى المسلمين . وقد رعته وغذته أم المنذر سلمى بنت قيس إحدى خالات رسول الله ﷺ ، إذ هى التى ضمت إليه رفاعة بن سموأل ،واختار رسول الله ﷺ بيتها ليكون بيتاً لزوجه ريحانة ـ رضى الله عنها ـ أو ملك يمينه كما فى الرواية الأخرى، وحرص زيد رضي الله عنه على أن ينمى هذا المجتمع ، فهو الذى أقنع ريحانة بالإسلام، وتمثَّل فى هؤلاء الخمسة قوله تعالى فى اليهود :﴿ **مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (٣) .

وكان الرائد الأول لهم جميعاً هو السيد العظيم عبد الله بن سلام ـ رضوان الله عليه .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٥٢٠ ، ٥٢١ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ٤ / ٨ / ٨٨ .
(٣) آل عمران / ١١٠ .

وأخيراً : أمتان وتربية الصف الداخلي :

هذه الأمة النكدة التى ورثت الكتاب ، وأخذت عرض هذا الأدنى ، واتبعت هواها وتمنَّت على الله الأمانى ، ونكثت بعهد ، الله فنزع الله منها الأمانة ، واستحقت اللعنة، وبقى منها أفراد على العهد ، يمثلون الأقلية القليلة الضئيلة ،ولا يحولون دون استحقاق غضب الله عليها ، وسقوطها فى الامتحان الربانى .

هذه الأمة النكدة من اليهود والتى نزعت منها الأمانة ، ونيطت بهذه الأمة الفتية ، التى يقف على رأسها رسول الله ﷺ ، وتمتد فى أعماق الزمن إلى قيام الساعة . هذه الأمة الفتية ، والتى تلقت التربية الدؤوبة المستمرة ، وتعلمت من درس أحد القاسى الدروس الكثيرة . تبرز هذه الأمة فى الخندق أمة عملاقة صابرة مجاهدة ، تستحق رضوان الله وتكريمه ، فأعطاها الله الثمرة .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ (١) .

هذه الأمة الوارثة المسلمة،والتى استلمت الراية من الأمة المغضوب عليها أمة اليهود والتى استحق رجالها القتل ،ونساؤها السبى ،هذه الأمة التى خانت الأمانة ، وحادَّت الله ورسوله ، قضى عل يها بالهلاك إلا هؤلاء الأفراد الخمسة من رجالها ونسائها .

بينما نجد الأمة الوارثة الفتية ، الأمة الربانية لا يسجِّل تاريخها فى الخندق إلا معصية واحدة ومخالفة واحدة لأحد رجالها الكبار ، أبى لبابة بن المنذر رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن المنذر أخا بنى عمرو بن عوف ،وكانوا حلفاء الأوس، لنستشيره فى أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرقَّ لهم ،وقالوا له: أبا لبابة ،أترى أن ننزل على حكم محمد؟ وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط فى المسجد، إلى عمود من عمده ،وقال: لا أبرح مكانى حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت ،

---

(١) الأحزاب / ٢٥ ــ ٢٧ .

وعاهد الله: ألا أطأ بنى قريظة أبدًا وألا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا.

قال ابن هشام: وأنزل الله تعالى فى أبى لبابة فيما قال سفيان بن عيينة عن إسماعيل ابن أبى خالد عن عبد الله بن أبى قتادة: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾** (١) .

قال ابن اسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه قال: « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له فأما إذا فعل ،ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » (٢) .

أما رواية موسى بن عقبة فى مغازيه عن الزهرى ففيها:(. . . وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، واشتد عليهم الحصار، فصرفوا بأبى لبابة بن المنذر، وكانوا حلفاء الأنصار فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لى رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «قد أذنت لك». فأتاهم أبو لبابة، فبكوا إليه وقالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى؟ وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه، وأمر عليه أصابعه، يريهم أنما يريد بهم القتل، فلما انصرف أبو لبابة سُقط فى يده، ورأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة. فقال: والله لا أنظر فى وجه رسول الله ﷺ حتى أُحدث لله توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسى. فرجع إلى المدينة فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد ، وزعموا أنه ارتبط قريبًا من عشرين ليلة. فقال رسول الله ﷺ: « أما فرغ أبو لبابة من حلفائه » ، فذكر له ما فعل فقال: « لقد أصابته بعدى فتنة، ولو جاءنى لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه حتى يقضى الله فيه ») (٣) .

وهكذا رواه ابن لهيعة عن الأسود عن عروة ،وكذا ذكره ابن اسحاق فى مغازيه فى مثل سياق موسى بن عقبة عن الزهرى ،ومثل رواية أبى الأسود عن عروة(٤) .

إن زلة الرجال الكبار كبيرة ،وخاصة من موفد رسول الله ﷺ إلى اليهود ، وهو فى موضع ثقة القائد الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ ولكنها فى نفس أبى لبابة رضي الله عنه أكبر منها فى أى نفس أخرى على الإطلاق ، على عكس ما نتعامل به من زلاتنا، وأخطائنا التى نحقِّرها ،ونصغِّرها، ونبررها، وندافع عنها .وخطيئة أبى لبابة رضي الله عنه أعظم درس تربوى للرجال فى كيفية التعامل مع الخطأ ، فالاعتراف به وأن يربط نفسه بسارية المسجد،

---

(١) الأنفال / ٢٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢٨ ، وقال المحقق فيه: «صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع»، ورواه البيهقى فى الدلائل ٤ / ١٦ ، ١٧ من طريق ابن إسحاق.

(٣ ، ٤) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير / ١٨٧ للدكتور محمد مصطفى الأعظمى .

حيث يعرف الصغير والكبير والغادى والرائح قصته وخطأه، ويتحدث الناس جميعًا به تحطيمًا لهذه النفس المخطئة، وقتلاً لهذه الزلة العنيفة. واستمرار الأمر أيامًا وليالى على هذا الحال، يعنى فى الوقت نفسه عظمة التربية لهذا الجندى ـ القائد ـ الذى استحيا أن يقابل قائده بعد هذه الزلَّة ، وكما تقول رواية ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطًا بالجذع ست ليالٍ تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثنى بعض أهل العلم.

وفى رواية الواقدى: ويقال: مكث خمس عشرة مربوطًا، وكانت ابنته تأتيه بتمرات لفطره، فيلوك منهن ويترك ويقول: والله ما أقدر على أن أسيغها فرقًا ألا تنزل توبتى، وتطلقه عند وقت كل صلاة، فإن كان له حاجة توضأ، وإلا أعادت الرباط، ولقد كان الرباط حزٍّ فى ذراعيه، وكان من شعر، وكان يداويه بعد ذلك دهرًا ، وكان ذلك يبين من ذراعيه بعد ما برئ.

قال الزهرى: فحدثتنى هند بنت الحارث عن أم سلمة زوجة النبى ﷺ قالت: رأيت رسول الله ﷺ يحل رباطه، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته، وما يدرى كثيرًا مما يقول من الجهد والضعف (١) .

إن الرجل منا اليوم لو وقع فى هذه الخطيئة لراح يدافع عنها، بأنه لا يريد أن يغش العدو ، وقد وثق العدو به، ولابد أن يعلمه الحقيقة ، وخاصة أنها ستعرف فيما بعد . إن حالة فقدان التربية، وعبودية الذات لتدفع الكثير من الشباب المسلم،بل ورجالات الدعوة أحيانًا إلى الاستماتة فى دفع الخطأ، واعتباره صوابا وإن اعترف به فهو يرفض أن يعلم به أحد حتى لا تسقط مهابته بين الناس. أما هذا الجيل الذى يعيش مع الله فى الصبح والمساء والسحر، فهو جيل متفرد فى تاريخ البشرية، حيث يندفع أبو لبابة رضي الله عنه لا لينعزل فى بيته معلنًا مقاطعته لمن واجهوه بخطئه، بل ليعلن خطيئته على الملأ، ويذكِّر بها الأمة فى الغدو والعشى، حربًا على هذه النفس التى اقترفت هذه الزلة، وحرقًا للذات لتذوب فى الله.

وكان المجتمع المسلم، لا يعيش جو اللغو والغيبة، والشماتة المتلبسة بالإشفاق التى تبرز عند أخطاء الرجال كما هو الحال فى مجتمعاتنا المريضة،بل كان يعيش جو الألم والحزن الذى خيم عليه كله ، تأثرًا لما ألم بأبى لبابة ـ رضوان الله عليه ـ إنه المجتمع الذى يحس أن لبنة من بنائه قد أصابها التصدع، وعندما تتم المعالجة، وتتنزل التوبة، تعود أفراح المدينة للمجتمع كله.

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٥٠٨ .

حدثنا عبد الله بن يزيد بن قُسيط عن أبيه عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: إن توبة أبى لبابة نزلت فى بيتى. قالت: أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ يضحك فى السحر. فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: «تيب على أبى لبابة». قالت: قلت: أوذنه بذلك يا رسول الله؟ قال: «ما شئت» قالت: فقمت على باب الحجرة ،وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فقلت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال أبو لبابة: لا حتى يأتى رسول الله فيكون هو الذى يطلق عنى، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح أطلقه. ونزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم ﴾(١)) (٢) .

ويقال: نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ . . ﴾(٣) .

وحدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى قال: نزلت فيه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ الآية (٤). وأثبت ذلك عندنا قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا . . . ﴾ (٥).

فالصارخ بالتوبة زوج رسول الله ﷺ، تعلن النبأ الذى غمر المدينة بالفرحة ، والناس يثورون جميعًا ليطلقوه، ويتم الاحتفال السعيد، بأن يكون القائد الأعظم ﷺ هو الذى يفك إساره ، وتعلن عودته إلى الصف من جديد، وقد غفر الله تعالى له خطيئته.

أما فرحة أبى لبابة، فيحدثنا عنها ابن كعب بن مالك رضي الله عنه فيما روى معمر عن الزهرى عن ابن كعب بن مالك قال: جاء أبو لبابة إلى رسول الله ﷺ فقال: أنا أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، فأخرج من مالى صدقة إلى الله ورسوله . فقال النبى ﷺ: «يجزئ عنك الثلث»، فأخرج الثلث، وهجر أبو لبابة دار قومه ثم تاب الله عليه ، فلم يبن فى الإسلام منه إلا خيراً حتى فارق الدنيا (٦) .

ونحن نتحدث عن التربية، لابد أن نذكر فعلها فى نفس أبى لبابة رضي الله عنه وهو أحد القادة الاثنى عشر الذين كانوا نقباء قومهم:

قال الواقدى: حدثنى معمر بن راشد عن الزهرى عن ابن المسيِّب قال:

---

(١) التوبة / ١٠٢ .
(٢) المغازى للواقدى ٢ / ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
(٣) الأنفال / ٢٧ .
(٤) المائدة / ٤١ .
(٥) المغازى للواقدى ٢ / ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
(٦) المغازى للواقدى ٢ / ٥٠٩ .

كان أول شيء عتب فيه رسول الله ﷺ على أبى لبابة بن عبد المنذر أنه خاصم يتيمًا له فى عذق، فقضى رسول الله ﷺ بالعذق لأبى لبابة. فصيَّح اليتيم، واشتكى إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبى لبابة: «هب لى العذق يا أبا لبابة »، لكى يرده رسول الله ﷺ إلى اليتيم. فأبى أبو لبابة أن يهبه لرسول الله ﷺ. فقال: « يا أبا لبابة، أعطه اليتيم، ولك مثله فى الجنة » فأبى أبو لبابة أن يُعطيه.

لقد وقف أبو لبابة عند حقه، ولعله قد تأذى من اليتيم، فلم تطاوعه نفسه أن يتنازل عن حقه، ويعيده له، وهذا المستوى قد يُقبل من الرجل العادى، أما القادة الكبار، والصحب العظام، أما الأنصار أهل البذل والتضحيات ، فهذا الموقف لا يتناسب مع مستوى عظمتهم، وكان هذا مما عتب به رسول الله ﷺ على أبى لبابة.

إننا نستعيد صورة خطيئة الصحابى العظيم أبى حذيفة بن عتبة رضي الله عنه يوم قال كلمته المشهورة: (نضرب آباءنا وأعمامنا وندع عم محمد، والله لو لقيت العباس عم محمد لألجمنه بالسيف) .

ونذكر كيف كانت عملية تربيته التى رفعته إلى الأفق الأعلى (فما زلت أصوم، وأصلى، وأتصدق رجاء أن يكفرها الله عنى ، ولا أرى يكفرها إلا الشهادة.)ورزقه الله تعالى الشهادة فى اليمامة.

وهنا لابـد أن يتلقى أبو لبابة رضي الله عنه درسًا من أخيـه ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه (قال الزهرى: فحدثنى رجل من الأنصار قال: لما أبى أن يعطيه قال ابن الدحداحة، وهو رجل من الأنصار: أرأيت يا رسول الله ،إن ابتعت هذا العَذْقَ فأعطيه هذا اليتيم، ألى مثله فى الجنة؟ قال رسول الله ﷺ : «نعم»، فانطلق ابن الدحداحة حتى لقى أبا لبابة فقال: أبتاع منك عذقك بحديقتى، وكانت له حديقة نخل قال أبو لبابة: نعم. فابتاع ابن الدحداحة العذق بحديقة من نخل فأعطاه اليتيم، فلم يلبث ابن الدحداحة أن جاء كفار قريش إلى أحد، فخرج ابن الدحداحة فقُتِل شهيدًا. فقال رسول الله ﷺ: «رب عَذقٍ مذلل لابن الدحداحة فى الجنة») (١) .

ولا شك أن موقف ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه ألقى بعض الأثر فى نفس أبى لبابة ، وقد ابتاع عذقه بحائطه ، ولكن الزمن مرَّ ، ولم يغير فى موقف أبى لبابة رضي الله عنه شيئًا يذكر.

أما عندما عانى ما عاناه، ولقى ما لقيه من جراء زلته تلك، وهو الذى لا يرضى أن

---

(١) أورد الإمام أحمد الحادثة دون ذكر اسم أبى لبابة فى مسنده ٣/ ١٤٦ عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. ورجاله كلهم ثقات.

يهب عذقه لليتيم ، ولا يهبه لرسول الله ﷺ حيت يعطيه اليتيم، هو هو نفسه عندما نزلت توبة الله عليه، يعرض أن ينزل عن ماله كله صدقة لله ولرسوله، شكرًا لله على توبته عليه، فيقول له ـ عليه الصلاة والسلام ـ « يجزئ عنك الثلث » والانتقال من حبس العذق إلى الانخلاع من الثروة كلها، هو تفسير جذرى فى البناء النفسى لأبى لبابة رضي الله عنه قال أبو لبابة: رأيت فى النوم ونحن محاصرو بنى قريظة كأنى فى حمأة آسنة، فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ثم أرى نهرًا جاريًا، فأرانى اغتسلت منه حتى استنقيت، وأرانى أجد ريحًا طيبة، فاستعبرها أبو بكر فقال: لتدخلنً فى أمر تفتم له، ثم يفرًج عنك، فكنت أذكر قول أبى بكر رضي الله عنه وأنا مرتبط، فأرجو أن تنزل توبتى(١) .

لقد زلزلت هذه المحنة كيانه، وكان يمضى كل ليلة كأنما يتقلب على جمر، ينتظر الفرج ، بفارغ الصبر، إلى أن أذن الله تعالى بتوبته فأعادت هذه التوبة صياغته من جديد ، ودخل فى الصف الإسلامى ، وبين قياداته العليا علمًا من أعلامه ،وانضم إلى صف سعد بن معاذ رضي الله عنه وصف أسيد بن حضير وعباد بن بشر.

لقد كان فى وسط السلم الذى يقف على عتبته وسفحه عبد الله بن أبى وأزلامه وزبانيته، فهو أرقى كثيرًا ، وأعلى من صف المنافقين، وهو بين ضعاف الإيمان على رأسهم جميعًا، لكن الضعف الذى ناله سلَّط عليه الأضواء أكثر فأكثر. لكنه ثبت للمحنة، وتحدى الضعف بعزيمة جبارة، وتحمل خطر هذا الضعف ، حتى ارتقى إلى الصف العالى من جديد.

وهنا تكمن عظمة التربية النبوية، التى استطاعت أن ترفع الضعاف إلى الأفق الأعلى، دون أن تحطمهم تحت مطرقة التعبير بالضعف فيخلدون إليه، ودون أن تمرِّر خطيئاتهم ، فيستهينون بها ، ويستمرئونها فتصبح مألوفة عندهم. فقد كان جوابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الحسم حين رآه مضى وربط نفسه بسارية المسجد: «أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له، فأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله عليه» وهو الموقف نفسه الذى وقفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من خطيئة الكبار، خطيئة كعب: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يحكم الله فيك».

وبهذا الخط التربوى العظيم الصاعد كان امتداد القاعدة الصلبة ،ليس امتدادًا أفقيًا فقط، وليس اتساعًا رقميًا فقط، بل كان امتدادًا عموديًا فى الأعماق، وعملاً هائلاً فى البناء لا يدع فردًا من أفراده دون عناية أو رعاية، فكل فرد فيه مقصود بذاته، ولابد أن

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٥٠٧ .

يكون يمرّ بالتجربة الصعبة ،والامتحان الدقيق،ليُسير معدنه من خلاله. وليس سماح رسول الله ﷺ لأبى لبابة بأن يمضى لليهود، إلا الثقة به وبدينه وعقيدته وإخلاصه، وفقهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنفوس كان فى موقعه. فالزلة العنيفة يتيقظ لها فى اللحظة المناسبة وعلى التو.

(قال: فندمت فاسترجعت. فقال لى كعب (بن أسد): مالك يا أبا لبابة فقلت: خنت الله ورسوله فنزلت ، وإن لحيتى لمبتلة بالدموع)[1] .

فما أروع هذا الخطأ، لنفقه من خلاله عملية البناء!!

(١) المغازى السابق ٢/ ٥٠٦ .

الآن نغزوهم ولا يغزونا
(التربية بالإرهاب)

لقد جلت غطفان وقريش، وقُتلت سراة بنى قريظة ، لكن هذا لا يعنى أن العدو قد انتهى، لقد عادوا إلى مواقعهم،ولا تزال خيبر تمثل قلعة ضخمة للتجمع اليهودى فى الحجاز. لقد فشل الهجوم فشلاً ذريعًا، وتحطمت معنويات العدو، لكن هذا لا يعنى قبول هذا العدو بالأمر الواقع، ولن يتم ذلك قبل عام على الأقل من غزوة الخندق.

أ ـ غزوة محارب خصفة من بنى ثعلبة من غطفان

(عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ صلى بأصحابه صلاة الخوف فى غزوة السابعة غزوة ذات الرقاع، قال ابن عباس: صلى النبى ﷺ ـ يعنى صلاة الخوف ـ بذى قرد . وقال بكر بن سوادة :حدثنى زياد بن رافع عن أبى موسى؛ أن جابراً حدثهم : صلى النبى ﷺ بهم يوم محارب وثعلبة .

وقال ابن اسحاق: سمعت وهب بن كيسان سمعت جابراً : خرج النبى ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل فلقى جمعًا من غطفان ، فلم يكن قتال ، وأخاف الناس بعضهم بعضًا ، فصلى النبى ﷺ ركعتى الخوف ،وقال يزيد عن سلمة : غزوت مع النبى ﷺ يوم القرد) (١).

وحيث رجح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى أن هذه الغزوة قد وقعت بعد قريظة والخندق،وفى نهاية السنة الخامسة ،نسوق هنا ترجيحه ونختم به أحداث السنة الخامسة.

(قوله: « باب غزوة ذات الرقاع » هذه الغزوة اختُلف فيها متى كانت، واختلف فى سبب تسميتها بذلك، وقد جنح البخارى إلى أنها كانت بعد خيبر واستدل بذلك فى هذا الباب بأمور سيأتى الكلام عليها مفصلاً. ومع ذلك فذكرها قبل خيبر فلا أدرى هل تعمد ذلك تسليمًا لأصحاب المغازى أنها كانت قبلها كما سيأتى، أو أن ذلك من الرواة عنه، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتين مختلفتين، كما أشار إليه البيهقى ،على أن أصحاب المغازى مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون فى زمانها؟ فعند ابن إسحاق أنها بعد النضير(٢)، وقبل الخندق سنة أربع. . . وعند ابن سعد ،وابن

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤١٦ ، ٤١٧ الأحاديث (٤١٢٥ـ ٤١٢٧) .

(٢) كنا قد أخذنا برواية ابن إسحاق وعرضناها هناك. وعرضنا لها هنا أخذاً برأى الإمام البيهقى بتعددها وبقدر أسباب تسميتها .

حبان أنها كانت فى المحرم سنة خمس. وأما أبو معسر فجزم بأنها كانت بعد قريظة ، والخندق ،وهو موافق لصنيع المصنف. وقد تقدم أن غزوة بنى قريظة كانت فى ذى القعدة سنة خمس فتكون ذات الرقاع فى آخر السنة وأول السنة التى تليها. وأما موسى ابن عقبة فجزم بتقديم وقوع غزوة ذات الرقاع. لكنه تردد فى وقتها فقال: لا ندرى كانت قبل بدر أو بعدها أو قبل أحد أو بعدها، وهذا التردد لا حاصل له ،بل ينبغى الجزم به أنها بعد غزوة بنى قريظة؛ لأنه تقدم أن صلاة الخوف فى غزوة الخندق لم تكن شرعت ،وقد ثبت وقوع صلاة الخوف فى غزوة ذات الرقاع فدل على تأخرها بعد الخندق. .)[١] .

وبعد أن يناقش الحافظ ابن حجر زمن الغزوة ومع من كانت، فيتحدث عن مكانها قائلاً:

(قوله (نخلاً) هو مكان من المدينة على يومين، وهو بواد يقال له :شرخ وبذلك الوادى طوائف من قبس من بنى فزارة وأنمار وأشجع، ذكره أبو عبيد البكرى.

تنبيه: جمهور أهل المغازى على أن غزوة ذات الرقاع هى غزوة محارب كما جزم ابن إسحاق، وعند الواقدى أنهما ثنتان، وتبعه القطب الحلبى فى شرح السيرة ـ والله أعلم بالصواب) [٢].

وقد أورد الإمام البخارى بصدد حديثه عن غزوة ذات الرقاع قوله:(تابعه الليث ابن هشام عن زيد بن أسلم أن القاسم بن محمد حدَّثه صلى النبى ﷺ فى غزوة بنى أنمار)[٣].

ويعلق الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ على هذه المتابعة بقوله:(لم يظهر لى مراد البخارى بهذه المتابعة ؛لأنه إن كان أراد المتابعة فى المتن لم يصح؛ لأن الذى قبله غزوة محارب وثعلبة بنخل وهذه غزوة أنمار، ولكن يحتمل الاتحاد ؛لأن ديار بنى أنمار تقرب من ديار بنى ثعلبة ، وسيأتى بعد باب أن أنمار من قبائل منهم بطن من غطفان. . . ثم يقول: قلت: قد ظهر لى من هذا وجه المتابعة وهو أن حديث سهل بن أبى حثمة فى غزوة ذات الرقاع متحد مع حديث جابر، لكن لا يلزم من أنمار وكيفية الصلاة فى هذه وفى هذه أن تتحد الغزوة، وقد أفرد البخارى غزوة بنى أنمار بالذكر كما سيأتى بعد باب. نعم ذكر الواقدى أن سبب غزوة ذات الرقاع أن أعرابياً قدم بجلب إلى المدينة فقال: إنى رأيت ناسًا من ثعلبة ومن بنى أنمار قد جمعوا لكم جموعًا، وأنتم فى غفلة منهم فخرج النبى ﷺ فى أربعمائة ،ويقال :سبعمائة. فعلى هذا ،فغزوة أنمار متحدة مع غزوة بنى

(١) فتح البارى ٧/ ٤١٧.
(٢) المصدر نفسه ٧/ ٤١٨.
(٣) المصدر السابق٧ / ٤٢١ برقم (٤١٣٠) .

محارب وثعلبة وهى غزوة ذات الرقاع ـ والله أعلم)(١).

وقد سقنا هذا النص ،وتعليق الحافظ ابن حجر عليه، لتأكيد طبيعة الحرب العنيفة المستعرة، وأن بنى غطفان يعدون العدة ،ويجمعون الجموع للانقضاض على المدينة فى حرب عصابات لا تهدأ ؛ ثأراً لفشلهم فى القضاء على رسول الله ﷺ، وحقداً أن فاتهم ثلث ثمار المدينة ، وفاتهم تمر خيبر، ورسول الله ﷺ بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه الاقتراب من المدينة.

وأهم ما حدث فى هذه الغزوة حدثان مهمان، هما : صلاة الخوف، ومحاولة اغتيال النبى ﷺ ، عرضهما جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ فى حديث واحد:

(عن جابر قال: كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع، فأتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ، فجاء رجل من المشركين، وسيف النبى معلق بالشجرة، فاخترطه فقال له: تخافنى؟ فقال له: «لا». قال: فمن يمنعك منى؟ قال: «الله». فتهدده أصحاب النبى ﷺ، وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين. وكان للنبى ﷺ أربع وللقوم ركعتان. . . وقال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر اسم الرجل : غورث بن الحارث. وقاتل فيها محارب خصفة) (٢) .

وفى رواية جابر الثانية يوضح أكثر حول المحاولة فيقول: فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتًا» فقال لى: من يمنعك منى؟ قلتُ: « الله ». فها هو ذا جالس ، ولم يعاقبه رسول الله ﷺ (٣) .

أما رواية ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن الصلاة فهى:(أن رسول الله ﷺ صلى بإحدى الطائفتين، والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا فقاموا فى مقام أصحابهم، فجاء أولئك فصلى بهم ركعة ثم سلَّم عليهم، ثم قام هؤلاء فصلوا ركعتهم، وقام هؤلاء فقضوا ركعتهم) (٤) .

ويمكن اعتبار هذه الغزوة تابعة لغزوة الخندق، وفى محاولة لبث الرعب فى قلوب غطفان حين يرون محمداً ﷺ يغير على ديارهم، ولم يصلوا بعد إليها، ويرون القرار فيها، وهذا ما حدا بعيينة بن حصن أن يتخذ موقفًا عدائيًا نتحدث عنه فيما بعد .

---

(١) المصدر السابق ٧ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

(٢ ، ٣) المصدر نفسه ٧ / ٤٢٦ برقم (٤١٣٦ ، ٤١٣٥).

(٤) المصدر نفسه ٧ / ٤٢٢ برقم (٤١٣٣) .

السنة السادسة

ب ـ غزوة القرطاء [١] وأسر ثُمامة سيد أهل اليمامة

العين النبوية اليقظة التى تلاحق أرجاء الجزيرة المجاورة ،وتراقب الساحة القريبة والبعيدة كلها، ترى أن بنى عامر بن صعصعة قد ساهموا فى حرب الخندق ، وكانوا جزءاً من الأحزاب، وهذا أحد فروعهم يجمع الجموع لغزو المدينة، ليس الغزو كما هو الحال فى الأحزاب، فقد انتهت هذه الصورة إلى غير رجعية، إنما على طريقة حرب الصحراء فى الكر والفر، دون الحرب النظامية والمواجهة المباشرة. وهذا الذى يفسر اختيار رسول الله ﷺ هذا البطن من بنى بكر بن كلاب من عامر بن صعصعة لغزوة وهو ممعن فى البادية وعلى طريق العراق.

ولنتابع أحداث الغزوة كما وردت فى السيرة :

(حدثنى خالد بن إياس عن جعفر بن محمود قال: قال محمد بن مسلمة: خرجت فى عشر ليالٍ خلون من المحرم، فغبت تسع عشرة ليلة، وقدمت لليلة بقيت من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهراً)[٢] .

حدثنى عبد العزيز بن محمد بن أنس الظَفَرى عن أبيه، وحدثنا عبد العزيز بن سعد عن جعفر بن محمود زاد أحدهما على صاحبه فى الحديث قالا:

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة فى ثلاثين رجلاً فيهم عباد بن بشر ،وسلمة ابن سلامة بن وقش ،والحارث بن خَزَمة إلى بنى بكر بن كلاب، وأمره أن يسير الليل ويكمن النهار، وأن يشنَّ عليهم الغارة ، فكان محمد يسير الليل ويكمن النهار ،حتى إذا كان بالشَّرَبَة [٣] لقى ظُعُنًا. فأرسل رجلاً من أصحابه يسأل من هم ، فذهب الرسول

---

(١) القُرطاء :هم قُرَط وقُرَيْط وقُرَيطة ، ولد عبد الله بن أبى بكر (عبيد) بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ،أحد بطون بنى عامر، وقد ذكر ابن حزم فى الجمهرة عن القرطاء:أن لهم شرف ، وعامر بن صعصعة أعدى العدو لرسول الله ﷺ ،وشاركوا فى غزوة الخندق مع الأحزاب، وعامر بن الطفيل هو من بنى عمهم جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

(٢) الأصح أنها تسعة وخمسون ،كما هى فى سبل الهدى والرشاد عند الصالحى ؛لأن محرم سنة ست يقع الشهر التاسع والخمسين من الهجرة النبوية.

(٣) الشربة: اسم موقع بين السلبلة والربذة.

ثم رجع إليه فقال: قوم من محارب، فنزلوا قريبًا منه وحلّوا وروَّحوا ماشيتهم، فأمهلهم حتى إذا طعنوا أغار عليهم، فقتل نفرًا منهم وهرب سائرهم، فلم يطلب من هرب واستاق نعمًا وشاءً ولم يعرض للظُعُن، ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بنى بكر بعث عبَّاد بن بشر إليهم فأوفى على الحاضر فأقام، فلما روَّحوا ماشيتهم وحلبوا وعطنوا[1] جاء إلى محمد بن مسلمة فأخبره، فخرج محمد بن مسلمة فشنَّ عليهم الغارة، فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ثم انحدروا إلى المدينة. فما أصبح حين أصبح إلا بضيرية [2]مسيرة ليلة أو ليلتين، ثم حذرنا النعم، وحفنا الطلب، وطردنا الشاء أشد الطرد فكانت تجرى معنا كأنها الخيل، حتى بلغنا العداسة، فأبطأ علينا الشاء بالربذة [3]، فخلفناه مع نفر من أصحابى يقصدون به، وطرد النعم فقَدِم به المدينة على النبى ﷺ. وكان محمد يقول: خرجتُ من ضَيرية فما ركبت خطوة حتى وردت بطن نخل، فقُدِم بالنَّعَم خمسين ومائة بعير والشاء وهى ثلاثة آلاف شاة فلما قدمنا خمَّسهُ رسول الله ﷺ ثم فضَّ على أصحابه ما بقى، فعدلوا الجزور بعشر من الغنم فأصاب كل رجل منهم) [4] .

وذكر البلاذرى، والحاكم: أنها كانت فى المحرم سنة ست، وأن ثمامة بن أثال أُخذ منها، وذكر حديث إسلامه [5] .

وذكر الصالحى عنها قوله: (الباب السابع عشر فى سرية محمد بن مسلمة ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى القرطاء ـ وهى بطون من بنى بكر من قيس عيلان ـ وكانوا ينزلون البكرات[6] بناحية ضيرية على رأس تسعة وخمسين شهرًا من الهجرة)[7] .

١ـ سادات الأوس يشتركون فى هذه السرية ،فهى منتقاة بعناية فائقة، وعلى رأسها محمد بن مسلمة رضي الله عنه الذى تهتم السماء به ،حيث يقول: مررت فإذا رسول الله ﷺ على الصفا واضعًا يده على يد رجل، فذهبت، فقال: « ما منعك أن تسلِّم؟ » قلت: يا رسول الله، فعلت بهذا الرجل شيئًا ما فعلته بأحد فكرهت أن أقطع عليك حديثك. من كان يا رسول الله؟ قال : « جبريل، وقال لى: هذا محمد بن مسلمة لم يسلِّم، أما إنه لو سلم رددنا عليه السلام» [8].

---

(١) عطنت الإبل: رويت ثم بركت.
(٢) ضيرية: على بعد سبع ليالٍ من المدينة.
(٣) الربذة: قرية بنجد على بعد ثلاثة أيام من المدينة ، وقيل: أربعة.
(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٥٣٤ ، ٥٣٥ .
(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٧٢ .
(٦) البكرات: ماء لبنى ذؤيب من الضباب وعندها جبالٌ شمخ يقال لها : البكرات، أو البكران موضع بناحية ضرية (الصالحى) .
(٧) المصدر نفسه ٦/ ١١٢ .
(٨) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٧٠ .

وهو الذى نجح فى المهمة الصعبة الأولى ، التى كلِّف بها ، حيث كان مقتل كعب ابن الأشرف على يديه.

وبمرور الزمن أصبح رجل المهمات الصعبة الأولى ، لدى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ورئيس مخابراته .

(وقد كان عمر إذا شكى إليه عامل نفَّذ محمداً إليهم ليكشف أمره) .

وهو الميزان الذى يرضى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أو يوزن به. (فعن موسى بن أبى عيسى قال: أتى عمر مشربة بنى حارثة، فوجد محمد بن مسلمة، فقال: يا محمد ، كيف ترانى؟ قال: أراك كما أُحب، وكما يُحب من يُحبُّ لك الخير قويًا على جمع المال، عفيفًا عنه عدلاً فى قسْمِه، ولو مِلت عدَّلناك كما يعدَّلُ السهم فى الثقاف. قال: الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا ملت عَدَّلونى)(١) .

وكان رجلاً طُوالاً أسمر معتدلاً أصلع وقوراً ،وهو حارثى من حلفاء بنى عبد الأشهل.

هذا هو قائد هذه السرية ، ومعه من رجالات الأوس ،وساداتهم: عباد بن بشر، وسلمة بن سلامة بن وقش، والحارث بن خزمة. فتكاد تكون سرية أنصارية أوسية .

٢ـ وخلال عشرين ليلة تم غزو القوم فى عقر دارهم فقُتل منهم عشرة، واستاقوا النعم والشاء ، فقدم بالنعم خمسين ومائة بعير. والشاء وهى ثلاثة آلاف شاة، وحين نذكر أن عدد البعير فى بدر كان سبعين بعيراً ، يتعقبها المسلمون كل ثلاثة على واحد منهم ، ندرك أهمية هذه الأعداد المضاعفة،المضافة إلى الصف الإسلامى،وحين نذكر أن حصيلة قتلى المشركين فى الخندق هى ثلاثة نشعر بأهمية قتل عشرة من المشركين فى هذه السرية الخاطفة.

٣ ـ ولا شك أن الأثر المعنوى لهذه السرية هو أكبر بكثير من أثرها المادى، فأن يتناقل العرب أن جنود محمد ﷺ كادوا يطرقون أبواب العراق ،ويجوبون فى نجد ،التى شاركت فيها خيالتها الكبرى فى الحرب ، فهى رسالة موجهة إلى الأحزاب والحلفاء ،أن يد محمد ﷺ ستطالهم أينما كانوا ،وفى أى موقع وُجدوا.خصوصًا بعد الصورة التى يريد المشركون أن يرسموها عن رسول الله ﷺ ،أنه لجأ إلى الخنادق خوفًا من المواجهة وحصير فى المدينة، فأنباء هذه السرية الفدائية سوف تخلخل كل المحاولات الإعلامية، والحرب النفسية التى يريد الحلفاء أن يثيروها ضد رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٧٢ .

ففى أقل من شهر ،وبعد غزوة الأحزاب ،وعودتهم بغيظهم لم ينالوا خيرا. كانت هذه السرية تجوب الجزيرة لتطرق مضارب أعز العرب بنى عامر بن صعصعة الذين كانوا يطمحون أن تكون لهم سيادة البادية كلها؛ ولذلك اختار لها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكفأ رجاله وأثقله عنده .

٤ ـ ومكّن الله المؤمنين من الثأر من بنى محارب، الذين اتجهت إليهم غزوة ذات الرقاع عقيب الخندق وقريظة. وها هم الآن يرتعون بجوار المؤمنين (حتى إذا كان بالشريَّة لقى ظعنًا فأرسل رجلاً من أصحابه يسأل جهدهم فذهب الرجل ثم رجع إليه فقال: قوم من محارب. فنزلوا قريبًا منه، وحلّوا وروَّحوا ماشيتهم، فأمهلهم حتى إذا عطنوا أغار عليهم فقتل نفرًا منهم وهرب سائرهم فلم يطلب من هرب ،واستاق نعمًا وشاءً ولم يتعرض للظعن .

إنه هدف جديد جاء عرضًا سهل المنال مع عدوٍ محارب ، ومعلن للعداوة غير القُرطاء ، ولم يتمكن الجيش الذى غزاهم فى عقر دارهم منهم حيث حصلت المواجهة، ولم تحصل الحرب، فكانت هذه السرية الفدائية تقاتل على طريقة حرب الصحراء حيث أصابت ظعنًا من هذا العدو، فقتلت واستاقت نعمًا ،وشاءً، وأعادت الفارين إلى قومهم يخبرونهم بخبر هؤلاء الجن الذين يطلعون عليهم من كل مكان ، وينقضون عليهم كل فج فما جدوى حرب محمد وصحبه؟!

٥ ـ إنما النصر الأهم، والفتح المبين فى هذه السرية هو أسر ذلك الرجل المجهول لديها ، والذى هزَّ أسره ونتائج أسره الجزيرة كلها، وغيرت فيها الموازين رأسًا على عقب. ولنشهد هذا الأسير ،وأحواله ،وهو الذى لم يعرفه المسلمون كما فى النص الصحيح.

(روى الشيخان والبخارى مختصراً ومسلم مطولاً وابن إسحاق عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً قِبَل نجد فجاءت برجل من بنى ضيعة يقال له :ثمامة ابن أثال سيد أهل اليمامة ، ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ فقال : « أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى»)(١) .

٦ ـ ومن اللحظة التى رآه فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرَّر أن يغزوه فى أعماقه لا أن ينتقم منه فى ظاهره فأصدر أوامره :« أحسنوا إساره » فربطوه فى سارية من سوارى المسجد، ودواعى الانتقام قائمة كما فى رواية البيهقى: عن ابن إسحاق (أن ثُمامة كان

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦/ ١١٣ .

رسول مسيلمة إلى رسول الله ﷺ قبل ذلك وأراد اغتياله، فدعا رسول الله ﷺ ربَّه - تبارك وتعالى - أن يمكنه منه فدخل المدينة معتمرًا وهو مشرك، ونفَّذ المسلمون بدقة تعليمات نبيهم - عليه الصلاة والسلام - ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: « اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه » وأمر بلقحته أن يُغدى عليه بها ويراح ، فجعل لا يقع من ثُمامة موقعًا ويأتيه رسول الله ﷺ، فيقول: « ما عندك يا ثمامة؟ » فيقول: عندى خير يا محمد)[1] .

٧ - وتركه - عليه الصلاة والسلام - فى حالة بين الخوف والرجاء دون أن يشير إليه بشىء يأتى إليه فيسأله :« ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندى يا محمد خير، إن تقتل تُقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر،وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد. فقال: « ما عندك يا ثمامة؟». قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال:« ما عندك يا ثمامة»؟ فقال: عندى ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت[2]. لقد عاشر ثمامة ساعات الخوف الرعيبة، وساعات الأمل الفسيحة، فهو يضطرب بينها ولا يدرى أين ترسو به السفينة.

٨ - وكان اتجاه المسلمين بعد أزمة الخندق العنيفة، وبعد أجواء الجوع الشديدة كلها تتجه للاستفادة من سيد أهل اليمامة صاحب ريف الحجاز التى تنطلق منه الخيرات والميرات إليهم، كان اتجاههم هو الرغبة الشديدة فى فداء ثمامة بالمال، أو بالحنطة والبر فهو ربح لا يعادله ربح. ورسول الله ﷺ يشير إلى ذلك قائلاً: « اللهم إن أكلة من لحم جزور أحب إلى من دم ثمامة»، ولا يرون فتح جبهة عليهم من بنى حنيفة بقتله.

٩ - هذه هى النظرة القريبة، أما النظرة البعيدة لرسول الله ﷺ فكانت أبعد غورًا وأعمق أثرًا من مال ثمامة أو دمه، فهو يريد ثمامة كله ،بضمه إلى حظيرة الإسلام فيهز بإسلامه أركان نجد كلها، وأركان الحجاز ، وحيث أكرمه وأفاض عليه الكثير من الإحسان كانت الخطوة الحاسمة فى فقه النفوس، والفراسة النبوية الخالدة فى بناء الرجال هو أن يمن عليه بالفداء دون ثمن ودون مال، وهو أحوج ما يكون إلى المال - عليه الصلاة والسلام - فقال رسول الله ﷺ :« أطلقوا ثمامة » فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٧٩ .

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٦ برقم (١٧٦٤) باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه.

ورسوله. يا محمد ،والله ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى ،والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر [1] .

١٠- ومنذ لحظة إسلامه انقلب إنسانًا آخر،إنه إسلام الأعظُم والجوارح والأعصاب لله، وليس كإسلامنا الذى يؤثر فينا تأثير القوة الضعيفة الواهية التى تكاد تنقطع من التيار، ها هو تيار الإيمان بكل قوته،وبكل فاعليته وبكل تأثيره يتدفق فى أعماق ثمامة، فماذا فعل؟

فلما أسلم جاؤوه بما كان يأتون به من الطعام، وباللقحة، فلم يُصب من حلابها إلا يسيراً فعجب المسلمون من ذلك. فقال لهم رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: « ممَّ تعجبون ، أمن رجل أكل أول النهار فى معى كافر، وأكل فى آخر النهار فى معى مسلم؟ إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى مِعى واحد » .

١١- هذا هو انعكاس الإيمان عن الجانب المادى فيه، وهو على عظمته ضئيل أمام انعكاسه على الجانب المعنوى فيه، فها هو يدخل الآن مكة بدين جديد وعقيدة جديدة.

(قال ابن هشام: فبلغنى أنه خرج معتمراً حتى إذا كان ببطن مكة لبى فكان أول من دخل مكة يلبى، فأخذته قريش. فقالوا: لقد اجترأت علينا ، فلما قدَّموه ليضربوا عنقه قال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم فخلوه . فقال الحنفى فى ذلك :

ومنا الذى لبى بمكة معلناً   برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم) [2]

ولكن الأمر لم ينته عند قوة شكيمته، وعند إعلانه إسلامه فى معقل الوثنية ، وهو مقبل على الموت ،وقطع العنق . إنما تبلغ قمة التحدى ، والاعتزاز بالإسلام أن يعلن فى مكة معقل العداوة لمحمد ﷺ حلفه لمحمد ،وقطعه كل الإمدادات ، والمعونات الاقتصادية عن مكة حتى يأذن له رسول الله ﷺ .

(فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ فقال : لا . ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ ،ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ)[3] .

وبذلك أصبحت مكة عرضة للموت والجوع ، أمام إصرار زعيم بنى حنيفة

---

(١) مسلم ٣/ ١٣٨٦ برقم (١٧٦٤) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨١ .

(٣) مسلم ٣/ ١٣٨٦ برقم (١٧٦٤) .

وإسلامه.

١٢ـ وأن تتناقل الركبان أن سيد بنى حنيفة قد قتل، فهو حدث مهم، لكنه مغرٍ بثأر بنى حنيفة ومريح للأحزاب أن تقوم بنو حنيفة بغزو محمد ﷺ لقتله، وأن تتناقل الركبان أن سيد بنى حنيفة أسر وفُدى من الأسر بالمال الربيح ،فهو أمر مهم وحديث مسلٍ للسمار فى مضارب البادية. لكن أن تتناقل الركبان أن سيد بنى حنيفة ثمامة بن أثال قد أسلم، وقطع المسيرة عن مكة بأمر محمد ﷺ فهو الحدث الجلل الذى تهتز له القيادات وتتماوج به المجالس ،وتعقد له الأندية لدراسة أثاره، وهو يؤكد الخط الرهيب الذى تدفعه الأحزاب، وتكظ بأسنانها دون وقوعه هو أن أمر محمد يعلو علواً منكراً، وأنه لا قبل لأحد بمحمد ولا طاقة ، فنجد كلها بأكبر قبائلها جاهرت بالعداوة ضد محمد ﷺ،وقادت الجموع ضده، وفى أقل من شهرين، يسلم سيد اليمامة وينضم إليه وهى ثغرة فى جدار نجد كلها معقل العدواة الكبرى لسيد تهامة محمد ـ عليه الصلاة والسلام.

١٣ـ وانتقل الأمر من التهديد إلى التنفيذ الواقعى ، وحاصت قيادات مكة حيصة الحمر ، فقد انقطعت عنها الحنطة من ريف اليمامة ، وعضها الجوع بنابه ، وعزَّ الطعام والخبز ، وضجت الناس إلى قياداتهم يرجون حلاً لهذه الأزمة ولو اقتضى الأمر مصالحة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقد أحست المرأة العجوز ، والشيخ الفانى ، والطفل الرضيع بالأزمة.(فمنعهم أن يحملوا منها شيئًا إلى مكة حتى أكلت قريش العلهز[1] [2].

واتجهت الأنظار كلها إلى زعيم مكة أبى سفيان، فقد بدأت زعامته تهتز، وبدأ النقد العلنى يوجه إليه فإلى أين يقودهم فى حربه؟ وهل يدعهم يموتون جوعًا، لهذا التحدى الذى لا طائل تحته؟ !

١٤ـ وتزعزع كيان أبى سفيان، واستعرض الشريط الطويل وقاد الجموع من أقصى الأرض لحرب محمد ﷺ، وعادت الآلاف المؤلفة خاسرة حاقدة لم تنل خيراً، واستنصر بإخوة القردة والخنازير من اليهود، فإذا كان لابد . أليس محمد ﷺ أولى من اليهود بالاتباع؟! ثم يصم أذنه عن هذه الخواطر. لكنه أين يفر من قومه، ومن جوع قومه، فقد يثورون عليه ويهدمون مجده ما لم يعالج الأزمة. وما كان منه وبعد المشاورات المتعددة إلا أن كتب إلى رسول الله ﷺ:

(فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وفى رواية قال: ألست تزعم أنك بُعثت

---

(١) العلهز: شيء يتخذ، وإنه فى سنى المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون فيه القِردان (جمع قراد وهو دويبة صغيرة) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ١١٥ .

رحمة للعالمين؟ قال: «بلى» . قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع وفى رواية: فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا. فكتب رسول الله ﷺ إلى أن يخلى بينهم وبين الحمل وأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١)) (٢).

لقد قبلوا الاستكانة لمحمد، ولجؤوا إليه، لكن بينهم وبين الإيمان والاستكانة لله، والتضرع إليه أشواطًا طويلة لابد أن يقطعوها، حتى يصلوا إلى حظيرة الإيمان.

ونتابع مع ثمامة رضي الله عنه ومع امتداد الزمن فى سبر غور شخصيته، وصدق فراسة النبى ﷺ فيه، وذلك حين برزت فتنة مسيلمة الكذاب وانساقت بنو حنيفة كلها وراء هذا المتنبئ الدعى ، واختاره رسول الله ﷺ ليكون الرمز الإسلامى المواجه لمسيلمة الكذاب (ولما ظهر مسيلمة وقوى أمره أرسل رسول الله ﷺ فرات بن حيان العجلى إلى ثمامة فى قتال مسيلمة و قتله). لكن ثمامة ليس لديه من الجنود ما يستطيع به المواجهة والحرب ، لقد بدأ حربه العلنية لمسيلمة بمواجهته الفكرية .

قال ابن إسحاق :(لما ارتد أهل اليمامة عن الإسلام لم يرتد ثمامة، وثبت على إسلامه هو ومن اتبعه من قومه، وكان مقيمًا باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول: إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله ـ عز وجل ـ على من أخذ به منكم ، وبلاء على من لم يأخذ به منكم) .

وطمع أن يجمع الأنصار والأتباع للمواجهة. لكن طغيان العصبية والقبلية كان أكبر من تأثير الإسلام فى هذه النفوس فلما عصوه واتفقوا على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم ، فهو فى عظمة الإسلام فى مكة، إن فاته أن يجاهد المرتدين، فلن يفوته أن يتمايز وينفصل عنهم.

(ومر العلاء بن الحضرمى ومن معه على جانب اليمامة يريدون البحرين وبها الحطم ومن معه من المرتدين) .

وشعر أن هذه الكوكبة المسلمة هى أهله وهى خاصته يحنُّ إليها حنين الإبل إلى أولادها، وهى ماضية فى جهادها، فوقف خطيبًا فى المجموعة المسلمة معه وقال :

(فلما بلغه ذلك قال لأصحابه من المسلمين: إنى والله لا أرى أن أقيم مع هؤلاء، وقد أحدثوا، وإن الله ضاربهم ببلية لا يقومون بها ، ولا يقعدون، وما أرى أن نتخلف عن هؤلاء يعنى ابن الحضرمى، وأصحابه ، وهم مسلمون ، وقد عرفنا الذى يريدون،

---

(١) المؤمنون / ٧٥ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ١١٥ .

وقد مروا بنا ولا أرى إلا الخروج معهم فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج) .

وأتبع ثمامة رضي الله عنه القول بالفعل، وانضم مع إخوانه المؤمنين إلى إخوانهم المجاهدين (فخرج ممدًا للعلاء ومعه أصحابه من المسلمين، ففت ذلك فى أعضاد عدوهم حين بلغهم مدد بنى حنيفة) .

(وذاق حلاوة النصر على المشركين مع العلاء بن الحضرمى رضي الله عنه فانهزم المشركون وقُتلوا، وقسم العلاء الغنائم ونقل رجالاً، فأعطى العلاء خميصة كانت للحطم يباهى بها رجلاً من المسلمين، فاشتراها منه ثمامة) .

وقد اشترى بذلك الشهادة بعد أن ذاق النصر (فلما رجع ثمامة بعد هذا الفتح رأى بنو قيس بن ثعلبة قوم الحطم خميصة على ثمامة . فقالوا: أنت قتلت الحطم. قال: لم أقتله ولكنى اشتريتها من المغنم. فقتلوه) (١) .

(١) أخرجه الثلاثة . انظر : أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٢٤٨ .

جـ ـ قتل سيد اليهود فى الحجاز
(أبو رافع)

قال ابن إسحاق: (ولما انقضى شأن الخندق، وأمر بنى قريظة، وكان سلام بن أبى الحقيق، وهو أبو رافع ـ فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ ـ وكانت الأوس قبل أُحد قد قتلت كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه، استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل سلام بن أبى الحقيق، وهو بخيبر فأذن لهم.

قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزوج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ﷺ غَنَاء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفى الإسلام. فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك ،ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبدًا قال: فتذاكروا ، من رجل لرسول الله ﷺ فى العداوة كابن الأشرف؟ فتذاكروا ابن أبى الحقيق، وهو بخيبر. فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى قتله، فأذن لهم) (١).

أ ـ هذه الطاقات التى أفنت الحيين فى حرب بعاث، ها هى تتوجه نحو حرب الكفر والكافرين فى الأرض، وبدلاً من أن تزرع الحقد فى القلوب، واليتم فى الأطفال، والترمل فى النساء ،ها هى تمضى فى تنافسها العظيم لإحقاق الحق فى الأرض ،ومطاردة الطواغيت الذين استكبروا فى الأرض وعتوا عتوًا كبيرا .

إن دور الإسلام فى التربية هو توجيه هذه الطاقات وشحذها نحو الخير، وليس إيجادها من العدم، فالشجاعة عند العربى خلق أصيل فى تكوينه، وكانت تهدر هذه الطاقة فى تدمير أمة العرب وإفناء قبائلها ، فليس لهم هم سوى أنفسهم كما يقولون:

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وأصبحت شهرة أيام العرب تملأ الآفاق، وفيها يمارسون أخلاقهم وبطولتهم وشجاعتهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

لقد جاء نبى الهدى والرحمة ليكون هذا المحول العجيب لهذه الأمة، فيجعل الأخوة بين الأوس والخزرج ، الذى استمرت الحروب المنقطعة بينهم قرابة مائة عام ، ليجعل بينهم تنافسًا فى الاستشهاد فى سبيل الله .

وبدلاً من أن يكونوا ملهاة بيد اليهود يمزقونهم بتوزيع التحالف معهم، ويضربونهم بعضهم ببعض ،ها هم اليوم يتصاولون فى تدمير طواغيت اليهود الذين أشعلوا النار، وأوقدوا نار الحرب، وقادوا الأحزاب إلى المدينة .

لقد قضى حيى بن أخطب مع بنى قريظة ، معلنًا استحقاق اليهود غضب الله ولعنته بقوله: لا بأس، ملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ومعلنًا كما أعلن إبليس من قبل إصراره على حرب رسول الله ﷺ، وهو يعرض على الموت لما يعانى من حقد على رسول رب العالمين، وهو يعلم أنه الحق من ربه ،والله ما لمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل. قضى حيى بن أخطب مع بنى قريظة. لكن الثعبان الداكن لا يزال يتلوى فى خيبر، فهو شريك حيى فى تعبئة الأحزاب ضد رسول الله ﷺ ، إنه سلام بن أبى الحقيق وآلت إليه رئاسة خيبر، فهو السيد الأول فيها، ومع أنه من بنى النضير، لكن يهود خيبر، لم يكن فيهم نسب كنسب قريظة والنضير.

لقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما أجلى بنى النضير عن المدينة: « هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة من قريش » (١) .

ولهذا آل أمر يهود خيبر وقيادتهم إلى حيى بن أخطب ، ثم إلى أبى رافع سلام بن أبى الحقيق وكليهما من يهود بنى النضير.

وإن كنا قد رأينا حيى بن أخطب وهو يعلم أن محمدًا رسول الله حقًا مرسل من ربه، وقرر عداوته رغم ذلك ، فلم يكن سلام يختلف عنه فى هذا الأمر.

وهنالك علاقة حميمة وصلة وثيقة بين غطفان واليهود، نتحدث عن آثارها فيما بعد، لكن الذى يعنينا منها الآن هو ثقة سلام بصدق محمد ، ينقلها لنا الحارث بن عوف سيد بنى مرة من غطفان، يقول: أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول: إنا نحسد محمدًا على النبوة حيث خرجت من بنى هارون، وهو نبى مرسل، واليهود لا تطاوعنى على هذا وهو يعرف أن اليهود لابد مهزومون فى حربهم له إن حاربوه، إذ يقول: ولنا منه ذِبحان : واحد بيثرب وآخر بخيبر.

فيقول له الحارث بن عوف: (قلت لسلام: يملك الأرض جميعًا ؟ قال: نعم

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ٣٧٥ .

والتوراة التى أنزلت على موسى ، وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه) (١).

ب ـ ومضى على خط سلفه حيى فى اعتداده بقوته، واستعداده لحرب المسلمين بلا هوادة ، رغم علمه اليقينى بأن محمدًا رسول الله. فأثناء جلاء بنى النضير عن المدينة ندَّت صرخة من عجوز يهودية جزعًا على قطع النخيل لبنى النضير. (فلما قطعت العجوة شقَّ النساء الجيوب ، وضربن الخدود ودعون بالويل . فقال رسـول الله ﷺ: « إن مثل العجوة جُزِع عليه ...» فلما صحن صاح بهم أبو رافع سلام: إن قُطِعت العجوة ها هنا، فإن لنا بخيبر عجوة. قالت عجوز منهن: خيبر يصنع بها مثل هذا . فقال أبو رافع: فضَّ الله فاك! إن لى بخيبر لعشرة آلاف مقاتل) (٢) .

إنه يريد أن يتجلد على المصيبة وهو يعلم أن لليهود من رسول الله ﷺ مذبحتان فى يثرب وفى خيبر ،ولكنه الحقد الأعمى الذى يُفقده صوابه.

جـ ـ وليس أبو رافع مشهورًا فقط، بل سيف أبى رافع له صيت وشهرة ، أهداه رسول الله ﷺ بعد بنى النضير لسعد بن معاذ سيد الأوس. (وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق وكان سيف له ذكر عندهم)(٣).

د ـ وقد تقاسم الدور التآمرى على المسلمين مع حيى بن أخطب، فقد قام حيى بتعبئة قريش بحربها ضد رسول الله ﷺ، بينما كان دور سلام بن أبى الحقيق فى غطفان الشريك الرئيسى الثانى فى غزوة الأحزاب ،فها هو نعيم بن مسعود الغطفانى يحدثنا عن دوره فيقول: (وكان ابن أبى الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لنصركم)(٤).

وهو الذى ضحى بتمر خيبر عامًا كاملاً مقابل هذا النصر. (ثم ساروا فى غطفان فجعلوا لهم تمر خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا فأنعمت بذلك غطفان، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن)(٥) .

هـ ـ وانتهت غزوة الخندق، وقد زرعت الشقاق والحقد فى نفوس الحليفين، وبعد أن سقط حيى بن أخطب صريعًا فى بنى قريظة، فغدا سلام بن أبى الحقيق سيد خيبر بلا منازع.

و ـ من هذا الموقع، كان اختيار الخزرج له، اختيارًا فى غاية التوفيق، فقد يعيد الكرة ثانية ويعبئ اليهود لحرب رسول الله ﷺ ومعهم الأعراب ثأرًا لملحمة بنى قريظة.

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٦٧٧ . (٢) المصدر نفسه ١ / ٣٧٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٤٦٣ . (٤ ، ٥) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨١ ، ٤٨٣ .

مقتل أبى رافع:

عندنا روايتان فى مقتله، والرواية الأولى للبخارى، عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ قال:

(بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع اليهودى رجالاً من الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان فى حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه ، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنَّع بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله ، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت. فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وَدّ. قال: فقمت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له. فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت علَىَّ من الداخل،قلت: إن القوم نذروا بى لم يخلصوا إلىَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت. فقلت: أبا رافع . قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا ، وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال : لأمك الويل، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف. قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ من ظهره، فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت :لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ، فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته، فقال لى: « ابسط رجلك »، فبسطت رجلى فمسحها ، فكأنها لم أشتكها قط)(١) .

ورواية البخارى الثانية (٢) لا تخرج عن المضمون السابق.

لكن الرواية فى السيرة لابن هشام فيها بعض الخلاف عن الرواية السابقة نذكرها كما رواها ابن إسحاق عن الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى ـ رضى

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٤١ برقم (٤٠٤٠) .

(٢) المصدر السابق (٤٠٤١) .

الله عنهما ـ قال:

(.. فخرج إليه الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود ابن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود، حليف لهم من أسلم ، فخرجوا وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة ، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتو دار ابن أبى الحقيق ليلاً، فلم يَدَعوا بيتًا فى الدار إلا أغلقوه على أهله، قال: وكان فى علية له إليها عجلة[1] فأسندوا [2] فيها حتى قاموا على بابه فاستأذنوا عليه، فخرجت إليهم امرأته. فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة. قالت: ذاكم صاحبكم. فادخلوا عليه. قال: فلما دخلنا عليه أغلقنا علينا وعليها الحجرة تخوفًا أن تكون دونه مجاولة [3] تحول بيننا وبينه. قال: فصاحت امرأته فنوَّهت بنا [4] وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فوالله ما يدلنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه كأنه قُبطية [5] ملقاة. قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهى رسول الله ﷺ فيكف يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل. قال: فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله ابن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول: قَطْنى قطنى ،أى حسبى حسبى قال: وخرجنا ، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيئ البصر. قال: فوقع من الدرجة فوثئت[6] يده وثئاً شديدًا ويقال :رجله فيما قال ابن هشام ، وحملناه حتى نأتى به منهرًا من عيونهم فندخل فيه. قال: فأوقدوا النيران واشتدوا فى كل وجه يطلبوننا قال: حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضى بينهم قال: فقلنا: كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات؟ فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم. فانطلق حتى دخل فى الناس. قال: فوجدت امرأته ورجال يهود حوله، وفى يدها المصباح تنظر فى وجهه، وتحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عَتيك، ثم أكذبت نفسى، وقلت: أين ابن عتيك بهذه البلاد ؟ ثم أقبلت عليه تنظر فى وجهه ثم قالت: فاظ [7]وإله يهود. فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسى منها. قال: ثم جاءنا فأخبرنا الخبر. فاحتملنا صاحبنا، فقدمنا على رسول الله ﷺ، فأخبرناه بقتل عدو الله واختلفنا عنده فى قتله، كلنا يدعيه. قال: فقال رسول الله ﷺ: « هاتوا أسيافكم»؛ قال : فجئناه بها فقال لسيف عبد الله بن أنيس:« هذا قتله أرى فيه أثر الطعام » .

---

(١) عجلة: جذع النخلة ينقر فى مواضع ويوضع كالسلم . (٢) أسندوا : علوا.
(٣) مجاولة: حركة تكون بينهم وبينه. (٤) نوَّهت بنا: رفعت صوتها تشهِّر به.
(٥) قُبطية: جمعها قباطى وهى ثياب بيض. (٦) وثئت: أصيبت دون الكسر.
(٧) فاظ: مات.

قال ابن إسحاق. فقال حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف:

لله دَرُّ عصابة لاقيتم ... يا بن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض[1] الخفاف إليكم ... مرحًا[2] كأسد فى عرين مغرف[3]
متى أتوكم فى محل بلادكم ... فسقوكم حتفًا ببيض دُفَّف[4]
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف[5]

١- من الملاحظ أن هذه المجموعة الفدائية كلها من الجيل الجديد الذى يعد ويتربى بعد بدر. فباستثناء عبد الله بن أنيس رضي الله عنه الذى صلى القبلتين، وشهد العقبة وبدراً، فالخمسة الذين ذكروا هم من جيل أحد أو بعد أحد، والقيادة النبوية العظيمة ترعاهم، وتدفع بهم فى خضم الأحداث ليعجم عودهم، ويمارسوا مسؤولياتهم، ويكتبوا صفحات ناصعة فى تاريخهم، ويكفى أن يكون فيهم رجل من الرعيل الأول؛ ليكون الهادى لهم وليكون فقيههم ومرشدهم، وليس بالضرورى أن يكون أميرهم، فقد ذُلِّلَت نفسه، وتمكن الإيمان من قلبه كالجبال الرواسى لا يضير، أن يكون بمقدار ما يهمه أن يحقق دوره فى التربية والهداية، وأن يمثل القدوة المحتذاة بين أخواته.

٢- وأن يكون عبد الله بن أنيس رضي الله عنه جنديًا فى هذه الكوكبة، وليس أميرًا فيها له دلالته الكبرى فى عملية التعليم والتربية وهو العقبى البدرى، المصلى للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس نكرة فى مجال الجهاد والبطولات. فلابد أن نذكر أنه السرية وحده الذى ابتعثه رسول الله ﷺ إلى اغتيال سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى فى أطراف مكة، وهو الذى كان يعد العدة لغزو المدينة، وهو الذى نجح نجاحًا باهرًا فى مهمته تلك، وقتله فى فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هربًا، وعاد برأس سفيان إلى المدينة، فهو مليء بالمجد الذى لا يبارى فيه، تضحية وبلاءً وبطولة. ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ الضخم فى سجلاته عند ربه - عز وجل - قبل أن يكون عند الناس.

وهو درس تربوى خالد، لا شك أن إخوانه أبناء الجيل الجديد قد استوعبوه، ونحن لا نجد مثيلاً لهذه التربية فى عالم الأرض، فالذى يحكم فى الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع

---

(١) البيض: الرقاق السيوف.
(٢) مرحًا: نشاطًا.
(٣) مُغرف: ملتف الأغصان.
(٤) دُفَّف: سريعة القتل.
(٥) المجحف: الذاهب بالنفس والأموال.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٨٠ - ٣٨٤ .

والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس أحد، وإن كان فى مجال الانتصارات والحروب فلا يجوز أن يتقدم عليه من إخوانه أحد، ولكنها التربية النبوية العظيمة التى خطها النبى فى أكثر من موقع ، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ويتدرب على يديه. فلطالما أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان ، فى غِمار الجنود .

٣ ـ وإذا أخذنا بالرواية الثانية الواردة فى السيرة لابن هشام، لوجدنا أن عبد الله ابن أنيس رضي الله عنه هو الذى أنهى أبا رافع اليهودى بالضربة القاضية، وحين تم الاختلاف عمن قتله، كل واحد يزعم ذلك كان حكم رسول الله ﷺ أن عبد الله بن أنيس هو الذى قتله (واختلفنا عنده فى قتله كلنا يدعيه. فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا أسيافكم». قال: فجئناه بها فنظر إليها ، ثم قال: « لسيف عبد الله بن أنيس هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام ») .

٤ ـ ونفقه سر تولية عبد الله بن عتيك إمارة هذه السرية حين نعلم من رواية الواقدى بعض التفصيلات الهامة عن أبيه عن عطية بن عبد الله بن أنيس عن أبيه قال: خرجنا من المدينة حتى أتينا خيبر. قال: وقد كانت أم عبد الله بن عتيك بخيبر يهودية أرضعته، وقد بعثنا رسول الله ﷺ خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، والأسود بن خزاعى، ومسعود بن سنان، فانتهينا إلى خيبر، وبعث عبد الله إلى أمة فأعلمها بمكانه، فخرجت إلينا بجراب مملوء تمرًا كبيسًا وخبزًا، فأكلنا منه ، ثم قال لها: يا أماه إنا قد أمسينا، بيتينا عندك فأدخلينا خيبر، فقالت أمه: كيف تطبق خيبر وفيها أربعة آلاف مقاتل؟ ومن تريد فيها؟ قال: أبو رافع، فقالت: لا تقدر عليه. قال: والله لأقتلنه أو لأقتلن دونه.

فعبد الله بن عتيك، وصلته بأمة اليهودية التى أرضعته، ومدى ثقته بها، وكونه يعرف اليهودية قليلاً، هذه العوامل هى التى ساعدته على نجاح مهمته، وهذا يعنى اختيار الكفاءات المناسبة لتنفيذ المهمات الصعبة والاستفادة من الظروف والعوامل كلها فى خدمة هذه القضية،فليس الأمر مجرد شجاعة قلب،وإن كانت الشجاعة جزءاً رئيسياً من القضية، إنما عملية فهم لغة العدو والتكلم بها ذات أثر فى هذا المجال يفوق شجاعة القلب ، فالعمل فى قلب العدو، يقتضى توفر مثل هذه الأولويات.

وتشير رواية الواقدى ـ رحمه الله ـ إلى أن أم عبد الله بن عتيك ساهمت فى وضع الخطة المناسبة للتحرك داخل الصف اليهودى ، ولا ندرى أيعقل أن تفعل هذا الأمر كله وهى على يهوديتها ، وأن تكون موضع ثقة عبد الله بن عتيك ابنها من الرضاعة ،

بحيث تعرف الهدف ،وتصمت عليه ؟! وإن كان هذا منطوق النص، فهو يعنى أن بالإمكان التغلغل داخل العدو ولو كان ظاهرًا فى عداوته، مقابل مصلحة يحققها أو روابط ينطلق منها.

٥ ـ وها هى أم عبد الله ترسم له معالم الخطة المناسبة لإمكانية الدخول على العدو، وطريقة الوصول إليه والاستفادة من فتح البيوت الدائم. تقول:

فادخلوا عليه ليلاً، فدخلوا عليها، فلما نام أهل خيبر، وقالت لهم: ادخلوا فى خَمَر الناس(١)، فإذا هدأت الرجل فاكمنوا ، ففعلوا ودخلوا عليها . ثم قالت: إن اليهود لا تغلق عليها أبوابها فرقًا أن يطرقها ضيف فيصبح أحدهم بالفناء ولم يُضَف، فيجد الباب مفتوحًا، فيدخل فيتعشى. فلما هدأت الرجل قالت: انطلقوا حتى تستفتحوا على أبى رافع فقولوا: إنا جئنا لأبى رافع بهدية، فإنهم سيفتحون لكم، ففعلوا ذلك، إنها لا تضع خطة الدخول فقط، بل تضع الخطة الكاملة لقتله، ولا شك إن صحت الرواية أنها مؤمنة تكتم إيمانها مثل مؤمن آل فرعون .

٦ـ ونعود إلى رواية البخارى نستمع إلى حديث ابن عتيك رضي الله عنه ونرى فيه عبقرية القيادة، وعظمة البطولة.

فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسَرحِهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف البواب لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب. فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علَّق الأغاليق (٢) على ود (٣). قال: فقمت إلى الأقاليد (٤) فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده وكان فى علالى له ،فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت على من داخل، وقلت :إن القوم إذا نذروا بى لم يخلصوا إلىَّ حتى أقتله.

إنها الجرأة النادرة أن يقتحم داخل بلد العدو، لأول مرة ، وهو لا يعرف عنها شيئًا، إنما هو قد حدَّد هدفه أن يقتل أبا رافع، واستفاد من المعلومات النظرية التى حصل عليها من أمه ، لكننا هنا ابتداء أمام دقة الملاحظة وسرعة البديهة،وعظمة الوعى، واليقظة، فقد انتبه إلى أن الحارس قد علَّق المفاتيح على الوتد، فهذا عنصر

---

(١) خَمَر الناس: جماعتهم وكثرتهم .

(٢) الأغاليق: جمع غَلَق بفتح أوله ما يغلق بها الباب، والمراد بها المفاتيح.

(٣) الود: بتشديد الدال وفتح الواو وهى الوتد . (٤) الأقاليد: جمع إقليد وهو المفتاح.

جديد دخل فى الخطة، لابد أن يستفيد منه إلى أقصى حدود الاستفادة، والتمعت بذهنه هذه الفكرة العجيبة، أن ينقض على المفاتيح فيأخذها، ويغلق الأبواب من الداخل، بحيث لا يمكن الوصول إليه وإلى أبى رافع إلا وقد نفَّذ المهمة، فالمهمة الرئيسية قتله، ولا شك أنه حين التنفيذ، سيفاجأ بجرس وأصوات أو استغاثة، فإلى أن يصلوا إليه، ويخلعوا الأبواب، ويكسروا الأقفال يكون قد قضى عليه، ولا يضيره بعدها أن يقع بين أيديهم فيقطعوه إربًا إربًا، لكن المهم أن تنجح المهمة.

ونتساءل: أين تلقى عبد الله بن عتيك تدريبه؟ وأى حرب عصابات خاضها حتى تفتق ذهنه عن هذه الخطة الجديدة التى دخلت على الخطة القديمة؟ وما هى الكتب، والنشرات، والأفلام، والصور، والدراسات التى اطَّلع عليها؟ ولم يرض بأمر بسيط، إلا رأس أبى رافع، وفى حصون خيبر، وكل سلاحه أنه يرطن باليهودية. وله أم من الرضاعة فى هذا البلد الغريب.

إن كل الذى تلقاه فى مدرسة النبوة العظيمة هذه التربية الخالدة من الإيمان الخالص بالله، والتوكل عليه، والثقة بنصره وعونه، واللجوء إليه، والاستعاذة به، والخلوص من الذات والهوى، والتجرد لله من كل هدف إلا مرضاة الله ورسوله، كل الذى تلقاه فى هذه المدرسة أن يكون ربانيًا. وبهذه النفسية، وبهذا القلب، وبهذا البناء أقبل على تنفيذه مهمته، أما الشجاعة والبطولة وسرعة البديهة، وحدة الوعى، فقد تمت ضمن هذه البيئة التى تربى القادة وأخذت أقصى مداها فى التوجيه والرعاية.

٧ـ (فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت. فقلت: أبا رافع. قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش فما أغنيت شيئًا وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبلُ بالسيف قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره - وفى رواية أخرى للبخارى: حتى سمعت صوت العظم فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى. . .) .

واستفاد ابن عتيك رضي الله عنه من توجيهات أمه، حيث عرف مكانه، وتأكد من ذهاب السمار عنه، وأوى أبو رافع إلى فراشه ليمضى ليلة سعيدة فى التخطيط للقضاء على محمد ﷺ. وسمع النداء فقال: من هذا؟ وانقض ابن عتيك على الصوت، حيث لم يتمكن من السرعة أن يحقق الهدف بالضربة الأولى: تُرى أيُسقط فى يده ويستسلم مثل مئات المحاولات الفاشلة حيث ينتبه أهل الدار على الصياح؟ إن قلبه الجرىء لأكبر من

ذلك كمن فى ناحية بعيدة خارج فى البيت، وعاد إلى الخطة بنفسها بصوت آخر مغيثاً أبى رافع، ولو لم يغير صوته لانكشف. فكل جزئية لو فقدت، لدمَّرت المحاولة، وأجاب أبو رافع مستغيثًا به فأتى ليعيد التجربة متجنبًا الخطأ السابق، ومتجنبًا السرعة التى تفوت الهدف، فضربه الضربة القاتلة، ولم يكتف بذلك حتى سحق عظمه بسيفه ليتأكد من دقة التنفيذ، ونجاح المهمة، وبهدوء نادر، وفى بيت العدو يمضى يفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهى إلى الدرج، وراح ينزل فيه، وتشاء إرادة الله تعالى أن يقع فى امتحان عسير حيث يقع فتنكسر رجله، فهل يستسلم؟ أم يقتل نفسه حتى لا يقع أسيرًا بيد العدو؟ إنه بكل بساطة يعصب جرحه بعمامته ويحلج لا ليغادر الحصن ومكمن الخطر، إنما لشىء آخر هو أعجب ما فى هذه المهمة كلها.

٨ ـ ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور. فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى. فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبى ﷺ. فحدثته، فقال لى: «ابسط رجلك»، فبسطت رجلى فمسحها، فكأنى لم أشتكها قط.

إنه لن يغادر حتى يتأكد من نجاح مهمته، ورجله تنزف دمًا وقد كسرت، ولن يمضى حتى تأكد من نجاح مهمته مع خيوط الفجر، وصياح الديك الذى رافقه صياح الناعى بمقتل أبى رافع، ومضى يكابر على ألمه، ويكابر على جرحه، حتى وصل إلى أصحابه، فقال لهم: النجاء فقد قتل الله أبا رافع.

يا لله ! ما أعظمها من شخصية! فليس يعبد ذاته ليقول: قتلتُ أبا رافع. ويتبجح ويطلق الأشعار والقصائد فخرًا وزهوًا، ولو وضع بهذه المهمة ديوان شعر لكان قليلاً عليها ، كما كان يفعل فرسان الجاهلية وهم يتباهون ببطولاتهم ويتغنون بشجاعتهم،وما ديوان عنترة بن شداد عنا ببعيد، ويوضع مع المعلقات فى الكعبة، إنه جواب خالد خلود الدهر، باق بقاء العمر، قد قتل الله أبا رافع، ولم يعد القتل إلى نفسه إنما أعاده إلى الله عز وجل، دون تبجح أو مباهاة، إنها أمة النبوة تنمو فى ربوع هذه الأرض بقيم جديدة، ونفسيات جديدة ، ومثل عليا جديدة، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل. وهنا تكمن عظمة التربية فى انتزاع الأنانية ، والذات من الذات، والاكتفاء بالقول :قد قتل الله أبا رافع، ولا ينسى أن يحدثنا عن يد النبوة الحانية التى لمست هذا الكسر، فجبرته، وهذا الجرح فضمدته.

فكأنى لم أشتكها قط، وعاد من مهمته أعمق إيمانًا بالله ، وأشد إيمانًا بنبوة رسول الله ﷺ بدل أن يتحول إلى بشر بصورة إله، تنتفخ أوداجه لعظمة بطولته.

٩ـ وندع للحافظ ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى يحدثنا عما تستنبط من أحكام

من هذا الحديث فيقول:

(وفى هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذى بلغته الدعوة وأصر، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسيس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة فى محاربة المشركين، وجواز إبهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدليل والعلامة، لاستدلال ابن عتيك على أبى رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعى، والله أعلم)[1].

١٠ـ وبالعودة إلى رواية ابن إسحاق والتى تلتقى مع رواية الواقدى يعنينا منها المبادئ الكبرى التى تحكم المسلم فى أشد حالات الخطر حوله، فلا يتزحزح ولا يتراجع.

ففى بداية الرواية: (فخرجوا وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك، ونهاهم عن أن يقتلوا وليدًا أو امرأة) .

ثم يأتى المحك العملى لتطبيق هذه المبادئ، وقد يحول تطبيقها دون تحقيق الهدف كله، فتبقى هذه العصبة المؤمنة ملتزمة بإيمانها ومبادئها.

(ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهى رسول الله ﷺ فيكف يده ولولا ذلك لفرغنا منها بليل) .

إن صياح هذه المرأة قد يؤدى إلى قتلهم جميعًا، ومع ذلك فقارنوا بين احتمال هذه النتيجة، وبين تطبيق المبادئ العليا التى أمرهم بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان الالتزام بالأمر مقدمًا على حياتهم جميعًا ، فنحن أمام عقيدة ومنهج تحكم البشرية، ولسنا أمام أهواء وعصابات تريد أن تدمر البشرية، والدعاة اليوم فى الأرض مدعوون إلى الوقوف أمام كل جزئية للالتزام بها، لا أن يحرفوا النصوص، أو يغفلوا بعضها لتحقيق مآربهم وتبرير أخطائهم ومواقفهم ، وطالما أن النصر من عند الله فلا ضير من تطبيق هذه المبادئ) ولو بدا ظاهرًا أن تحقيقها يحول دون النصر، فالنصر الحقيقى هو الالتزام بهذا المنهج ، وسيادتها فى الأرض، لا سيادة الأشخاص على حساب هذه المبادئ .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٤٥ .

د ـ غزوة بنى لحيان

وحين تحرك رسول الله ﷺ باتجاه اليهود، وتم مقتل مسعر الفتنة سلام بن أبى الحقيق تحرك بعد أقل من شهر باتجاه مكة، فى عملية لبث الرعب فى صف قريش وذلك فى هلال ربيع الأول سنة ست. أما ابن إسحاق فيذكر أن ذلك كان فى جمادى الأولى سنة ست بعد ستة أشهر من فتح قريظة[1] .

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة ومحرم وصفرًا وشهرى ربيع وخرج فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع، خبيب بن عدى وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرةً ، فخرج من المدينة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فسلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام، ثم على محيص، ثم على البتراء ثم صفق[2] ذات اليسار فخرج على بين ثم على صخيرات اليمام ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة، فأغذ السير سريعًا حتى نزل على غران وهى منازل بنى لحيان، وغُران واد بين أمج وعُسفان إلى بلد يقال له: سابة، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غرتهم ما أراد قال: « لو أنا هبطنا عسفان[3] لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة » فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم[4] ثم كر رسول الله ﷺ قافلاً ، فكان جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: حين وجَّه راجعًا: « آيبون، تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ،أعوذ بالله

---

(١) سبق وأوردنا غزوة بنى لحيان بعد بنى النضير بستة أشهر، وبعد محنة الرجيع بثلاثة أشهر على ما رجحه الذهبى ـ رحمه الله ـ اعتمادًا على رواية لابن إسحاق أنها كانت بعد صلح بنى قريظة. والصلح كان عند حرب بنى النضير ، حيث رفضوا نقض العهد آنذاك ، وكان ذلك ثأراً لخبيب وأصحابه. ونذكر هذه الحادثة هنا كما رجحها ابن إسحاق ، وبقية الرواة أنها بعد فتح قريظة ، وليس صلح قريظة، وأن يكون الخروج ثانية فى محاولة الثأر من بنى لحيان لغدرهم بخبيب وأصحابه ، حيث لم يقل منهم فى المرة الأولى شيئًا هو المرجح فى عملية التوفيق بين الروايات المتعارضة، وفى التخطيط لإرهاب قريش بعد الخندق، بحيث لا تفكر فى أى محاولة للغزو بعد ذلك، وتناسبًا مع المرحلة الجديدة : «الآن نغزوهم ولا يغزونا ».

(٢) صفق: عدل.

(٣) عسفان: بلدة على ثمانين كيلاً من مكة شمالاً على الجادة إلى المدينة.

(٤) كراع الغميم: تبعد أربعًا وستين كيلاً عن مكة على طريق المدينة ، وتعرف اليوم ببرقاء الغميم.

من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال» (١).

وقال ابن عمرو بن سعد: بعث أبا بكر رضي الله عنه فى عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيذعرهم، فأتوا كراع الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحدًا . . . وغاب ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة(٢).

إنها عملية استطلاعية، هدفت إلى بث الذعر والرهبة فى صفوف العدو، وقد حققت هذا الهدف، كما بثت الذعر فى صفوف بنى لحيان وإن فات رسول الله ﷺ الإيقاع بهم، لكن منطقة الحجاز كلها أصبحت تتحسب لقوة محمد ﷺ، وتتوقع فى كل يوم غزوًا جديدًا لمواقعها .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٥٠، ٥١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٨٧، ٣٨٨ .

هـ ـ سرية عكاشة بن محصن
إلى الغمر(1)

وحيث غزا رسول الله ﷺ قريشًا وغطفان وبنى لحيان واليهود بقتل أبى رافع، بقى هناك عرين آخر شارك فى غزو المدينة، ولم يمس بسوء، فوجَّه رسول الله ﷺ إليه عُكاشة بن محصن. وكان هذا العرين هو بنو أسد، وأمير السرية من بنى أسد كذلك وهو عكاشة بن محصن رضي الله عنه وهو حليف بنى أمية من قريش.

حدثنى ابن أبى سبرة عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت رجلاً من بنى أسد بن خزيمة يحدث القاسم بن محمد يقول: بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً منهم ثابت بن أقرم، وشجاع بن وهب ويزيد بن رقيش، فخرج سريعًا يُغِذ السير، ونذر القوم فهربوا من مائهم فنزلوا علياء بلادهم، فانتهى إلى الماء فوجد الدار خلوفًا فبعث الطلائع يطلبون خبرًا أو يرون أثرًا حديثًا. فرجع إليه شجاع بن وهب فأخبره أنه رأى أثر نَعَمٍ قريبًا، فتحملوا، فخرجوا حتى يصيبوا ربيئة لهم قد نظر ليلته يسمع الصوت، فلما نام فأخذوه وهو نائم، فقالوا: الخبر عن الناس! قال: وأين الناس؟ قد لحقوا بعلياء بلادهم! قالوا: فالنعم؟ قال: معهم، فضربه أحدهم بسوط فى يده. قال: تؤمننى على دمى، وأُطلِعك على نَعَمٍ لبنى عمٍ لهم لم يعلموا بمسيركم إليهم؟ قالوا: نعم : فانطلقوا معه ، فخرج حتى أمعن ، وخافوا أن يكونوا معه فى غدر فقربوه. فقالوا : والله لتصدقن أو لنضربن عنقك! قال : تطلعون عليهم من هذا الظريب(2). قال: فأوفوا على الظريب، فإذا نَعَم روائع، فأغاروا عليه فأصابوه. وهربت الأعراب من كل وجه ، وبنى عكاشة عن الطلب ، واستاقوا مائتى بعير فحدروها إلى المدينة ، وأرسلوا الرجل، وقدموا على النبى ﷺ، ولم يصب منهم أحد ولم يلقوا كيداً(3) .

فالحليفان أسد وغطفان لابد أن يشعرا بالخوف والرهبة بعد فشل هجومهما مع قريش على المدينة. والحرب غدت الآن حربًا نفسية أكثر منها حربًا عسكرية، فخمسة قتلى فى الخندق لا يغنى شيئاً، لكن حصارًا استمر قرابة الشهر، يود أن يستأصل

---

(1) الغمر : هو ماء لبنى أسد على ليلتين من فيد . (2) الظُريب : هو الجبل المنبسط الصغير .
(3) المغازى للواقدى ٢ / ٥٥٠ ، ٥٥١ ، وقد أوردها الذهبى فى مغازيه ٢/ ٣٥٢ ، وفى الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٨٥ ، وفى البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٧٨ ، وتاريخ خليفة ٨٥ .

المسلمين بالمدينة ، عانى المسلمون منه أشد مما عانوا من أى معركة أخرى، واختار رسول الله ﷺ لقيادة السرية نخبة رفيعة المستوى من المهاجرين الأولين،وعلى رأسهم ثلاثة من الرعيل الأول من بنى أسد: عكاشة بن محصن أمير السرية، وشجاع بن وهب، ويزيد بن رقيش، والثلاثة بدريون كذلك ، وثابت بن أقرم بدرى بلوى حليف للأنصار .

و ـ سرية محمد بن مسلمة
(مع غطفان ثانية)

وكانت السرية إلى بنى معاوية وبنى عوال بذى القصة [١]طريق الربذة فى أول ربيع الآخر سنة ست.

حدثنى عبد الله بن الحارث عن أبيه قال: بعث النبى ﷺ محمد بن مسلمة فى عشرة ، فورد عليهم ليلاً، فكمن القوم حتى نام ونام أصحابه فأحدقوا به وهم مائة رجل، فما شعر القوم إلا بالنبل قد خالطتهم، فوثب محمد بن مسلمة وعليه القوس فصاح بأصحابه: السلاح! فوثبوا فتراموا ساعة من الليل. ثم حملت الأعراب بالرماح فقتلوا منهم ثلاثة ثم انحاز أصحاب محمد إليه فقتلوا رجلاً، ثم حمل القوم فقتلوا من بقى، ووقع محمد بن مسلمة جريحًا، فضرب كعبه فلا يتحرك، وجردوهم من الثياب وانطلقوا، فمر رجل على القتلى فاسترجع، فلما سمعه محمد تحرك له فإذا هو رجل مسلم، فعرض علي محمدٍ طعامًا وشرابًا، وحمله حتى ورد به المدينة. فبعث النبى ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلاً إلى مصارعهم، فلم يجد أحداً، واستاق نَعما ثم رجع .قال أبو عبد الله: فذكرت هذه السرية لإبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمة. فقال: أخبرنى أبى أن محمد بن مسلمة خرج فى عشرة نفر: أبو نائلة، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، ونعمان بن أعصر ، ومحيصة بن مسعود ، وحويصة ، وأبو بردة بن نيار ، ورجلان من مزينة، ورجل من غطفان فقتل المزنيان، والغطفانى[٢]. وارتث محمد بن مسلمة فى القتلى. قال محمد: فلما كانت غزوة خيبر، نظرت إلى أحد النفر الذين كانوا ولَّوا ضربى يوم ذى القصة، فلما رآنى قال: أسلمت وجهى لله! فقلت: أولى[٣] .

وحدثنى عبد الرحمن بن زياد الأشجعى عن عيسى بن غميلة، وحدثنى عبد الله بن الحارث بن الفضل عن أبيه زاد أحدهما على صاحبه قالا:

أجدبت بلاد بنى ثعلبة وأنمار، ووقعت سحابة بالمراض إلى تغلمين[٤]. فصارت بنو

---

(١) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً وهو طريق الربذة ، كان يقطنه بنو ثعلبة وبنو عوال.

(٢) شكّك الواقدى فى مقتل العشرة ؛ ولذلك جاء برواية ثانية تشير إلى مقتل ثلاثة فقط وهو الأصح لما روى عن مقتل أو استشهاد البقية بعد ذلك بزمن.

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٥١ ، ٥٥٢ .

(٤) التغلمين: موضع من بلاد بنى فزارة.

محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة ، وكانوا قد أجمعوا أن يُغيروا على سرح المدينة، وسرحهم يومئذ يدعى ببطن هيقا [1] .فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلاً من المسلمين حين صلوا صلاة المغرب، فباتوا ليلتهم يمشون حتى وافوا ذى القصة مع عماية الصبح، فأغار عليهم، فأعجزهم هربًا فى الجبال، وأخذ رجلاً منهم، وجد نَعمًا من نعمهم فاستاقه، ورثَّة من متاع، فقدم به إلى المدينة فأسلم الرجل، فتركه رسول الله ﷺ، فلما قدم عليه خمَّسهُ رسول الله ﷺ وقسم ما بقى عليهم [2] .

(١) بطن هيقا: اسم موضع.
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٥٢ ، وقد ذكر الواقدى أنها كانت فى ربيع الآخر سنة ست وغاب ليلتين .

ز ـ وزيد بن حارثة
والى بنى سليم فى الجموم

وفى هذه السنة ـ وهى سنة ست ـ كانت سرية زيد بن حارثة بالجموم، فأصاب امرأه من مزينة يقال لها :حليمة، فدلتهم على محلّة من محالٍّ بنى سليم، فأصابوا نَعَمًا وشاءً وأسرى ، وكان فى الأسرى زوج حليمة، فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها (١) .

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨١ ط ١٤٠٥ تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط دار الرسالة والمنار .

ح ـ ومع غطفان ثالثة

وذلك فى سرية زيد بن حارثة إلى الطرف (١) فى جمادى الآخرة سنة ست.

حدثنى أسامة بن زيد الليثى عن عمران بن منَّاح قال: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى الطرف من بنى ثعلبة، فخرج فى خمسة عشر رجلاً، حتى إذا كانوا بالطَّرف أصاب نَعمًا وشاءً، وهربت الأعراب وخافوا أن يكون رسول ﷺ قد سار إليهم، فانحدر زيد بن حارثة حتى صبَّح المدينة بالنعم، وخرجوا فى طلبه حتى أعجزهم، فقدم بعشرين بعيراً، ولم يكن قتال فيها، وإنما غاب أربع ليالٍ .

حدثنى ابن أبى سبرة عن أبى رشد عن حميد بن مالك عن من حضر السرية. قال: أصابهم بعيران أوحسابهما من الغنم، وكان شعارنا: أمِت، أمِت (٢) .

ستة أشهر متتالية ، ما تكاد السرية تعود حتى تلحقها الثانية، تجوب الأرض العربية كلها، تنفيذاً للكلمة العظيمة التى صدرت من رسول الله ﷺ: « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وكما رأينا من خلال هذه السرايا ، أنها لم تدع حزبًا من الأحزاب الذين غزوا المدينة إلا غزته فى عقر داره ، فى عمليات حرب الصحراء ، التى لا تعتمد المواجهة المباشرة، إنما تعتمد بث الرعب والفزع فى قلوب هذه الأحزاب جميعًا دون استثناء، فاليهود وقريش وغطفان وأسد وسليم ولحيان، قد وقع بهم غزو لهم فى عقر دارهم جزاءً وِفاقًا على تآمرهم وغزوهم المدينة المنورة، ولعل تكرار اللقاء مع بنى ثعلبة من غطفان لقربهم من المدينة. ومن جانب آخر فهى تربية عملية للجيل الجديد الذى انضم للإسلام حديثًا ، بحيث تتاح له أن يتدرب على المواجهة فيما بعد، ويتلقى من رسول الله ﷺ فى المدينة، أو يمضى مع هذه السرايا التى شارك الرعيل الأول فيها كلها، ليقوم هو بمهمة تربية الوافدين الجدد إلى الإسلام، فهى تربية متكاملة علمية فى جو المسجد، والمدينة، ومصدر النور محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتربية عملية تطبيقية لمفاهيم ومبادئ هذا الدين من خلال الممارسة العملية، والروح الجهادية التى ينبت فيها المسلم وينمو، لتضيف هذه الأعداد الجديدة إلى حزب الله تعالى وتبرز فيها الطاقات، وتتفجر المواهب، وتتجلى القيادات الكفؤ؛ لتأخذ موقعها المناسب من المعركة.

---

(١) الطرف : ماء قريب من المراضى على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة بطريق العراق .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٥٥ .

من تربية جيل الصبر
إلى تربية جيل النصر

نحن أمام مرحلة جديدة على أعتاب صلح الحديبية، وعلى أعتاب استقرار دولى وامتداد عالمى للأمة المسلمة، فلابد أن يهيأ هذا الجيل لهذه المرحلة، والشخصيات الكبرى فيه هى التى تقود الأمة إلى معالم النصر، من خلال غزو العدو وبث الرعب فيه، ولابد أن تظهر جلية أخلاقيات المنتصرين الآن فى شريعة الله، حيث تذوب الذات، والأنانيات ،والغرور، والاعتداد بالنفس ،ليحل محلها الطاعة والانقياد لله.

والبراءة من الذات وربط النصر بالله ـ عز وجل، ثم إفساح المجال أمام الطاقات الجديدة المنضمة حديثًا للإسلام ، لتمارس دورها العظيم فى عملية البناء، وسنشهد بعض معالم هذه التربية من خلال هذه السرايا الخمس ، التى سبقت الحديبية وفى النصف الثانى من السنة السادسة.

أ ـ سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى فزارة

أخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر ، أمَّرَه رسول الله ﷺ علينا ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرَّسنا [1]، ثم شنَّ الغارة [2]، فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسبى وأنظر إلى عُنُق من الناس[3]، فيهم الذراري[4]، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأو السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع [5] من آدم معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمت المدينة وما كشفت لها ثوبًا، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «يا سلمة هب لي المرأة». فقلت: يا رسول الله ، والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا [6]، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق. فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة، لله أبوك[7]» .فقلت: هي لك يا رسول الله ،فوالله ما كشفت لها ثوبًا ، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسًا من المسلمين كانوا أسروا بمكة [8].

لأول مرة ينتزع الصدّيق رضي الله عنه من الوزارة العظمى، وشؤون الدولة والأمة، ليكون قائدًا عسكريًا على سرية متجهة لبني فزارة في نجد. وبنو فزارة هم قيادات بني غطفان، فقد رأينا أن أكبر قادة غطفان الذين غزوا المدينة مع الأحزاب هو عيينة بن حصن الفزاري، سيد بني فزارة، وإليه انتهت زعامة غطفان كما انتهت إلى أبي سفيان زعامة قريش. ونعيد إلى الذاكرة ثانية أن عيينة بن حصن هو حفيد حذيفة بن بدر بطل حرب داحس والغبراء، فقد كانت المواجهة إذن مع قلب غطفان وزعامتها.

أ ـ والبطل الذي برز لنا من جديد ولأول مرة هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه وهو ابتداءً من أسلم التي قال رسول الله ﷺ فيها: « غِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله ».

---

(١) فعرسنا : التعريس نزول آخر الليل .
(٢) شنّ الغارة : أي فرّقها .
(٣) عُنُقٌ من الناس : جماعة .
(٤) فيهم الذراري: يعني النساء والصبيان.
(٥) قِشع: في القاف لغتان فتحها وكسرها وفسره بالكتاب بالنطع وهو صحيح.
(٦) وما كشفت لها ثوبًا: كناية على الوِقاع.
(٧) لله أبوك: كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها.
(٨) مسلم ٤ / ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ برقم (١٧٥٥) .

وكان أول لقاء بين أسلم ورسول الله ﷺ عند الهجرة عندما انضم بريدة بن الحصيب الأسلمى إلى رسول الله ﷺ مع أربعين من قومه، وحمل لواءً دخل به المدينة بين يدى رسول الله ﷺ، وكانت أوامر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أبى ذر الغفارى من بنى غِفار، وبريدة بن الحصيب الأسلمى من أسلم ، أن يمكثا فى قومهما يدعونهم إلى الإسلام.

ففى رواية مسلم فى إسلام أبى ذر قال: فاحتملنا حتى أتينا قومنا غِفار فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رحضة وكان سيدهم . وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقى.

وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله ، نسلم على الذى أسلموا عليه، فأسلموا فقال رسول الله ﷺ: « غِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله »(١).

ومضت بدر وأحد حيث انضم الداعيتان إلى المدينة فأقاما فيها، وبدأت أفواج أسلم وغِفار ترد المدينة بعد الخندق.

ب ـ وكان سلمة بن الأكوع من هذه الأفواج : حيث يصف نفسه بقوله: (وكنت تبيعًا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه، وأحسُه وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ)(٢) .

وجاء إلى المدينة متدفقًا متلهفًا متشوقاً ليجاهد فى سبيل الله .فيقول :(غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات حين أمره رسول الله ﷺ علينا) .

وحين نعود إلى هذه الغزوات التسع مع زيد ـ رضوان الله عليه ـ نلاحظ أنها كانت كلها بعد الخندق، وهى:

١ـ سرية زيد بن حارثة إلى مدين.
٢ـ إلى بنى سليم فى الجموم.
٣ـ إلى العيص.
٤ـ إلى الطرف.
٥ـ إلى جذام من أرضى مسمى.
٦ـ إلى وادى القرى فى رجب.
٧ـ إلى وادى القرى فى رمضان.
٨ ـ إلى أم قرفة .
٩ـ إلى مؤتة.

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة ٤/ ١٩٢٢ برقم (٢٤٧٣) .
(٢) مسلم كتاب الجهاد والسير ٣/ ١٤٣٤ برقم (١٨٠٧) .

وقد كانت هذه السرايا جميعًا خلال السنة السادسة والسابعة، وانتهت بمؤتة حيث استشهد زيد رضي الله عنه فى جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، فهو يخوض خمس عشرة غزوة فى ثلاث سنين، ولا يكتفى أن يكون مع رسول الله ﷺ فى غزواته وكأنما خُلِق للحرب، وستطالعنا بطولاته فيما بعد.

جـ ـ ونشهده هنا وقد استطاع بسهم واحد أن يرميه بين الجبل وبين مجموعة من الناس فيهم الرجال والذرارى والنساء أن يوقف تقدمهم نحو الجبل، ويقودهم جميعًا أسرى بين يديه، وفى ذلك مهارة فائقة فى كيفية الانقضاض على العدو. وبأقل قدر من الخسائر يستاق هؤلاء الأسرى جميعًا، أى بسهم واحد بينهم وبين الجبل.

ويظهر لنا أثر إسلامه العظيم، وقد رأى فى هذا الركب أجمل نساء العرب، فلم تقع عينه قبل ذلك على أجمل منها، وفى غمرة انتصاره وفوزه بهؤلاء الأسرى من النساء ، لم ينكب على هذه الجميلة الفائقة الجمال بلا وعى ولم يفقد أعصابه أو ينهار وراء غريزته، كما يمكن أن يفعل فى الجاهلية، وقد صاروا سبيًا له، إنما كان منضبطًا بدينه وإسلامه ابتداءً، ومضى بهؤلاء الأسرى إلى أميره أبى بكر الصديق رضي الله عنه (فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع من أدم معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلنى أبو بكر ابنتها . . .) .

ها هى إذن صارت حلالاً له بعد أن نفله إياها الأمير، ومع ذلك فتمالك نفسه حتى عن حلاله ،فقدمت المدينة وما كشفت لها ثوبًا .

إنها العفة العظيمة التى تمثل خلُق المنتصر المسلم، فهو سوف يعود المدينة، ويقضى وطره منها، فكانت التربية النبوية الأعنف والأشد حين لقى رسول الله ﷺ وجرى بينهما هذا الحوار.

فقال: « يا سلمة هب لى المرأة » فقلت : يا رسول الله ، لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوبًا .

فلعل رسول الله ﷺ لم يدر أنها أعجبته وأخذت بلبه، ومع ذلك فلم يكشف لها ثوبًا بعد، ومع أن رسول الله ﷺ صمت فى اليوم الأول، ولم يلح عليه بهبتها، لكن مستواه الإيمانى وحبه لرسوله ﷺ دفعه إلى أن يتوقف عن الاقتراب منها، ولقى حبيبه المصطفى فى اليوم الثانى وهو يكابد عاطفته، ويكابد رغبته العارمة فى الاقتراب منها احتياطًا فقط، ولاحتمالات يمكن أن تقع فيطلبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى اليوم الثانى، وهو لا يود أن يكشف لها ثوبًا لو تم ذلك، وصح ما توقعه فى حسه العظيم. ثم لقينى رسول الله ﷺ من الغد فى السوق. فقال لى: « يا سلمة ، هب لى المرأة لله

أبوك » فقلت: هى لك يا رسول الله ،وما كشفت لها ثوبًا) .

ورغم إعجابه بها ، وفتنته بجمالها ، وتعلقه بها ، لم يتردد لحظة فى اليوم الثانى وهو يرى رغبة قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بها ، فى أن يهبها له ، تكون التربية فى أعمق أبعادها لم يقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ :لم يريدها ، حتى ينصرف بسجيته وبمعدنه وبشهامته، وهو لا يشك أنها لذات رسول الله ﷺ فهو يؤثره على حياته، أفلا يؤثره بجاريته ولو كانت من أجمل العرب؟!

وعندما تخلى عن ذاته وعاطفته لله ورسوله عن طواعية ورضًا، عرف فيما بعد أن رسول الله ﷺ إنما يريدها ليستنقذ بها أسرى من مكة، (فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها أناسًا من المسلمين كانوا أسروا بمكة) نذكر هذا عنه وهو الفقير الذى يعمل عند طلحة بن عبيد الله ،يعلف فرسه ويخدمها على قوت يومه، وقد ملك أجمل نساء العرب، فاستوهبها إياه قائده فوهبه إياها، ليفطم هذه النفس على السيطرة على مشاعرها وملاذها، وتتربى على أن تنضبط فى أشد لحظات الإثارة، ولا غرو فقد هجر ماله وأهله فى سبيل الله.

ولاشك أن القادة لابد أن يكونوا من هذا الطراز فى سيطرتهم على ذاتهم ومشاعرهم وأهوائهم ،حتى يتمكنوا من التغيير الحقيقى فى الأرض وفق المنهج الربانى الفريد، وشتان شتان بين منهج الله ومنهج العبيد!!

د ـ ونشير أخيرًا إلى نجاح السرية فى تأدية مهمتها ضمن التخطيط الذى رسمه الصديق رضي الله عنه حيث غزاهم مع خيوط الفجر، وقد وردوا الماء فقتل منهم من قتل، وفرَّ منهم من فر، ليذهب إلى قومه فيحدثهم عن أن محمدًا وأصحابه وصلت طلائعه الفدائية إلى عقر دارهم، وأن ذلك الهجوم الشرس الذى شارك به قائدهم عيينة بن حصن لن يفلت دون عقاب، ولن يمر دون ثأر، وكانوا بغنى عن فتح هذه الجبهة معهم، والتى لن تنتهى أبدًا . فلو قام الإنس والجن إلى محمد لهزمهم، كيف لا وقد صدَّ العرب قاطبة عن أرضه كليلين مهزومين، بعد حصار ما يزيد عن عشرين يومًا. أهلكوا أنفسهم ،وذبحوا ماشيتهم،ونفذت أزوادهم،ولم يحصلوا على العير ولا النفير؟!

ب ـ فى سرية عبد الرحمن بن عوف
إلى دومة الجندل[1] فى شعبان سنة ست

روى ابن إسحاق ومحمد بن عمر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ دعا عبد الرحمن بن عوف. فقال له: « تجهز، فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا أو من الغد إن شاء الله تعالى » .

قال عبد الله: فسمعت ذلك . فقلت: لأدخلنَّ فلأصلينَّ مع رسول الله ﷺ الغداة ولأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف .قال : كنت عاشر عشرة رهط من أصحاب رسول الله ﷺ فى مسجده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وأبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنهم ـ وأنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل فتىً من الأنصار فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس . فقال : يا رسول الله ، أى المؤمنين أفضل ؟ فقال : « أحسنهم خلقاً » . قال : فأى المؤمنين أكيس؟ فقال : «أكثرهم ذكرًا للموت، وأحسنهم استعدادًا له قبل أن ينزل بهم، أولئك الأكياس[2]» ثم سكت الفتى وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا نزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: إنه لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة، وجور السلطان ، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ، ولولا البهائم لم يسقوا ،وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّط عليهم عَدُوٌّ من غيرهم، فأخذ بعضهم ما كان فى أيديهم، وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم »، وفى رواية : « إلا ألبسهم شيعًا وأذاق بعضهم بأس بعض » ثم قال: قد كان رسول الله ﷺ أمره أن يسير من الليل إلى دُومة الجندل، وكان رجاله معسكرين بالجرف[3] ، وكانوا سبعمائة فقال عبد الرحمن : (أحب يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك وعلىَّ ثياب سفرى) فأقعده بين يديه ، ثم نقض عمامته بيده ثم عممه بعمامة من كرابيس [4] سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحو ذلك ثم قال : « هكذا يا بن عوف فاعتم، فإنه أحسن وأعرف » .

---

(١) دُومة الجندل: حصن وقرى من طرف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليالٍ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة.

(٢) أكيس: أعقل أو أوفر عقلاً . (٣) الجرف: على ثلاثة أميال من المدينة.

(٤) الكرابيس: جمع كرباس وهى الثوب الخشن.

ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه، فحمد الله تعالى وصلى على نفسه. ثم قال: « خذه يا بن عوف، اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ،لا تغلُّوا ولا تغدروا، ولا تنكثوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عن الله وسنة نبيكم فيكم » فأخذ عبد الرحمن اللواء وخرج حتى لحق بأصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلَّ بها دعاهم إلى الإسلام فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أبوا أول ما قدم ألا يقضوا إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث، أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى، وكان نصرانيًا، وكان رئيسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه ،وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية.

فكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك، وأنه أراد أن يتزوج فيهم، وبعث الكتاب مع رافع بن مكيث الجهنى ،فكتب إليه رسول الله ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها ،ثم أقبل بها وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن.

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فى سرية إلى دومة الجندل كما سيأتى(١) .

وفى رواية أخرى للواقدى :(أن النبى ﷺ بعث عبد الرحمن بن عوف إلى كلب. وقال: «إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو ابنة سيدهم»، فلما قدم دعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا، وأقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف تُماضِر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم، ثم قدم بها المدينة، وهى أم أبى سلمة)(٢).

١ـ قرار نبوى خالص فى إرسال عبد الرحمن بن عوف فى سرية إلى دومة الجندل.

أما المكان فهو أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النبوية فى الجزيرة العربية ، وتكاد تكون دومة من تخوم الشام ،فهى أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق ، وهى تقوم فى قلب الصحراء العربية وواسطة الصلة بين الروم فى أرض الشام والعرب فى الجزيرة ، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى ، وقد دخلوا فى النصرانية؛ نتيجة جوارهم وتأثرهم بجوار الروم النصارى ، وهى تمثل كذلك أول احتكاك مباشر بين المسلمين وبين النصارى فى جزيرة العرب .

أما رجل السرية ورئيسها فهو عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة،

(١) سبل الهدى والرشاد ١٤٨/٤ - ١٥٠، وهى فى السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣٦٩ - ٣٧١ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٦١ ، ٥٦٢ .

ومن رجال الرعيل الأول واليوم الأول فى الإسلام ، حيث كان أحد الأركان الكبرى للإسلام الذين أسلموا على يدى الصديق رضي الله عنه وحيث إن المهمة ذات جانبين : مهمة دعوية ، ومهمة حربية ،فلابد أن يختار لها أحد الدعاة الكبار الذين تربوا فى محضن الإسلام العظيم منذ أيامه الأولى، وكما كانت مهمة الصديق رضي الله عنه والذى انتزع من مسؤوليات الأمة الكبرى ليقوم بقيادة السرية إلى بنى فزارة، فكذلك انتزع عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه لهذه المهمة الضخمة التى قد تكون مفصلاً من مفاصل الإسلام ونقطة تحول كبرى فى الأرض الإسلامية.

٢ـ وقد لفتت هذه المهمة نظر عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فسارع إلى المسجد ليشهد وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف فيها، وأدرك بحسه الثاقب أن مثل هذه السرية الخطيرة ليست حدثًا عاديًا فى السرايا والبعوث، بل ذات أهمية قصوى فيها ، وعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ جندى جديد ينضم إلى الإسلام، فقد كانت الخندق أول مشاهـده ، ولا يزال فى السادسة عشر من عمره رضي الله عنه وهو إلى جانب جنديته معلم كبير من الحفَّاظ الكبار فى مدرسة النبوة، ولئن تأخر انضمامه إلى الجيش الإسلامى عسكريًا فيه، لكن تلقيه العلم فى مدرسة النبوة لم ينقطع لحظة واحدة منذ وصوله إلى المدينة،وهكذا نقل لنا حديثين بهذه المناسبة،وهو فى المسجد العظيم وبصحبته عشرة،من كبار المسلمين،على رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر،وعمر،وعثمان،وعلى،وخامس العشرة المبشرين عبد الرحمن بن عوف،المرشح لقيادة السرية،وابن مسعود عالم الإسلام العظيم،ومن الأنصار: معاذ بن جبل أمير العلماء،وحذيفة بن اليمان،صاحب سر رسول الله ﷺ، وأبو سعيد الخدرى،وكان أصغرهم وعاشرهم صُحُفيا والمتحدث لنا عنهم عبد الله بن عمر.

وأكرمنا بأن نقل لنا الإجابة النبوية العظيمة عن السؤالين: أى المسلمين أفضل؟ وأى المؤمنين أكيس؟وهذه القيادات الكبرى فى المسجد تتلقى هذا العلم كما يتلقاه الشبان الصغار فيه، فكان أحسن المسلمين خلقًا هو الأفضل وأكثر المؤمنين ذكرًا للموت، وأكثرهم استعداداً له هو الأكيس.

٣ـ ثم نظر ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هذه النخبة العالية من أصحابه ، حيث كان أكثرهم من المهاجرين خاطبهم بقوله : « يا معشر المهاجرين » ، وأفاض عليهم ما أفاض عليه ربه على لسان جبريل ،محذراً من هذه الكبائر الكبرى الخمس وهى المهلكات فى الأمم .

« إنه لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا ظهر فيهم الطاعون

والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة ،وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ، ولولا البهائم لم يسقوا، وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّط عليهم عدو من غيرهم فأخذوا بعض ما كان فى أيديهم، وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم، وفى رواية :« إلا ألبسهم شيعًا وأذاق بعضهم بأس بعض»(١).

والذى يلفت النظر فى هذا الحديث أنه ذكر أمام سبعة من المهاجرين، أربعة منهم حكموا الأمة على منهاج النبوة ،وهم: أبو بكر، وعمر ،وعثمان، وعلى، والخامس منهم كان أحد الستة المرشحين للخلافة، والسادس منهم وهو عبد الله بن عمر رشحه الفاروق ليكون حكمًا ،ومرجحًا بين أهل الشورى، والسابع منهم ابن أم عبد ، عبد الله ابن مسعود عالم الأمة، والأنصار الثلاثة هم من قادة الأنصار، فماذا نستنتج من هذا العرض النبوى فى هذا المشهد ؟

للإجابة على هذا السؤال، وبالوقوف مليًا أمام فقرات الحديث، نلاحظ أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحكم فى الإسلام، وبالدولة فى الإسلام، وتكاد تكون هذه القضايا الخمس هى مسؤولية الدولة بشكل مباشر. فحرب الفاحشة ومقاومتها هى من مهام الحاكم المسلم، وتأدية الزكاة من مهام الحاكم المسلم فى تطبيقها على الأمة، ورأينا الصّديق رضي الله عنه الرجل الأول فى الإسلام، وأحد الشهود العشرة عندما منعت الزكاة من بعض فضائل الأمة يعلن: والله لو منعونى عناقاً (وفى رواية :عقالاً) كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، والزكاة حق المال .

ومسؤولية الحاكم المسلم والمحتسبين الذين يعينهم أن يراقبوا السوق ويمنعوا تطفيف المكيال والميزان ، والمحافظة على عهد الله وعهد رسوله ،هى ابتداء مسؤولية الدولة المسلمة،والحاكم المسلم،والحكم بما أنزل الله هى أول وأولى المسؤوليات للحاكم المسلم. وحيث إننا مع رجال الدولة العشرة، ومع القيادات الكبرى فى الأمة، فلابد من وضع منهج يقرر هذه الكليات الخمس؛ ليشعر رجال الحكم هؤلاء بمسؤوليتهم فى المستقبل، وأن إنقاذ الأمة المسلمة أو دمارها سيكون من مسؤولياتهم كذلك، والمهاجرون السبعة قرشيون ومرشحون للخلافة العظمى،والأنصار الثلاثة مرشحون للوزارة عندهم.

---

(١) ذهب محققو السيرة النبوية لابن هشام جـ١ مكتبة المنار إلى أن الحديث ضعيف ؛لإبهام ابن إسحاق وضعف الواقدى . بينما ذهب الألبانى إلى أن الحديث صحيح وأسند روايته إلى الحاكم وابن ماجه . انظر : صحيح الجامع الصغير ٣٠٦/٦ برقم (٧٨٥٥) .

فنحن إذن أمام تربية القادة الكبار على يد سيد القادة فى الوجود محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

٤ـ ومن هذه التربية العامة لهؤلاء العشرة الكبار، نعود للتربية الخاصة لأحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فهو الذى فقه من مدرسة النبوة أن يكون آخر عهده ـ وهو أمير السرية إلى أقصى الجزيزة ـ من الدنيا هو مثوله بين يدى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليتلقى التعليمات الأخيرة، التى قد تكون سرية أو علنية وليأخذ من رحيق هذا النور النبوى، فيكون زاده فى هذه الصحراء المهلكة، والفيافى المحرقة، يأتى إلى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو بلباسه العسكرى، بحيث يمضى إلى جيشه الذى سبقه وعسكر بالجرف، وليس الجيش سبعة أو سبعين، إنه سبعمائة عليه أن يقودهم عسكريًا، ويرعاهم تربويًا، ويغذيهم ماديًا ونفسيًا، على خط التربية الطويل اللاحب، ويعدهم لأخطر مواجهة عسكرية محتملة قد تكون مع الروم مباشرة أو بشكل غير مباشر، حيث لا ناصر لهم إلا الله .

(أحب يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك وعلىَّ ثياب سفرى) .

وهى تربية عملية لكل القيادات يقدِّمها ابن عوف حيث يتعلم منها المرشحون للقيادة أن يكون آخر عهدهم من الدنيا، وقبل الشروع فى مسؤولياتهم هو المثول بين يدى القائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام .

(فأقعده بين يديه، ثم نفض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة من كرابيس سوداء فأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحو ذلك . ثم قال : « هكذا يا بن عوف ، فاعتم فإنه أحسن وأعرف»، ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه) .

لقد كان التقليد الامبراطورى عند الفرس والروم أن يقوم الامبراطور الأعظم بتسليم قائد جيوشه القيادة ،وإلباسه تاج الحرب،وهنا فالعمائم تيجان العرب .وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعمم عبد الرحمن بن عوف بيده ويقلده تاج القيادة العظمى لهذا الجيش على مشارف الجزيرة ، ويدفع إليه اللواء ليقاتل تحته.

٥ ـ لكن الجديد فى بناء هذه الأمة ليس نقض العمامة وإلباسها على أهميته، إنما الجديد هو جيش المبادئ الذى يتحرك فى هذا الوجود لأول مرة، إنه جيش العقيدة الذى يمضى ضاربًا فى هذه الصحراء المترامية يحمل حديث الله تعالى إلى خلقه، وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمته.

ثم قال: « خذه يا بن عوف ، (أى اللواء) اغزو باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تنكثوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، فهذا

عهد الله وسنة نبيكم فيكم.»

هذه هى المبادئ الثمانية التى ينطلق بها جيش الإسلام فى هذه الأرض، وينساح بها فى هذه الجزيرة.

أ ـ اغزوا باسم الله:

وليس باسم محمد ﷺ فهو عبد الله ورسوله الذى ينقل هذه الرسالة إلى خلقه، ولو كانت مكرمة فى الأرض تستحق أن يكون باسمها غير الله تعالى، لكان هو محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكنه الجيش الربانى الذى يمضى باسم الله وحده فى هذا الوجود. ولا مكان لزعيم أو أمة أو قبيلة أو راية أو وطن أو جيش أو قومية بجوار هذه الراية. كل هذه الرايات تسقط، وتبقى الراية الوحيدة الخفاقة فى هذا الوجود راية الله تعالى.

«اغزو باسم الله». فحزب الله تعالى هو الذى يحيى هذه الصحراء الظمأى بغيث العقيدة الخالصة عقيدة التوحيد.

ب ـ فى سبيل الله :

فلابد أن يتحدد الهدف ابتداء، إنه فى سبيل الله وحده لا يرافقه أى سبيل آخر: لقد علمونا ونحن صغار على مقاعد الدرس نشيداً يقول:

فى سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيد ... كلنا ذو همة شماء جبار عنيد

لا تطيق السادة الأحرار أطواق العبيد ... إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيد

لا نهاب الزمان إن سقانا المحن ... فى سبيل الوطن كم قتيل شهيد

وإبراهيم إمام الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام، وأول المسلمين فى الأرض علمنا كما فى كتاب الله تعالى: **﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾** (١) .

لقد أراد أعداء الله تعالى أن يبنوا مع مشارف هذا القرن العشرين، وثنية الوطن، فيرفعونه ليكون الموت والحياة فى سبيله، ويرفعوا المواطن، ليلقبوه باسم الله، الجبار العنيد، وينزعوا منه أى صفة للعبودية ولو لله، والصراع بينه وبين الزمان الذى يحاول أن يسقيه المحن فلا يهابه؛ لأنه القتيل الشهيد فى سبيل الوطن، بهذه القيم، وعلى هذه المبادئ أنشؤوا جيل الوطنية، وجيل القومية بثالوثها المقدس، الوحدة والحرية والاشتراكية.

---

(١) الأنعام / ١٦٢ ، ١٦٣ .

وإذا الأمر بعد قرنٍ من الزمان، يبيع هؤلاء الأبناء الجدد للقومية العربية، يبيعون أمتهم وقوميتهم وأوطانهم لليهود فى فلسطين، وينهون الصراع حول الوطن والأرض مرحبين باليهود الغزاة من الأرض ومباركين لهم دولتهم الجديدة، وعاصمتهم القدس. حرصًا على السلام العادل المشرف، ويدعون جنود الله تعالى وحدهم فى الساحة، لقتلهم وإبادتهم ؛لأنهم المتطرفون الأصوليون الذين رفضوا هذا البيع، وقاوموا هذه الصفقة، وانتموا إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى علمهم أن يغزوا باسم الله، وفى سبيل الله من كفر بالله.

جـ ـ قاتلوا من كفر بالله :

وليس القتال على المبدأ العربى الثابت:

وأحياناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

فدينهم هو الغزو والسلب وهو شريعة الصحراء، أما هذا الجيش الجديد القوى الفتى، فهو يمضى فى الأرض قدمًا ليقاتل من كفر بالله، ولو كان من أعرق العرب من بنى هاشم وقريش، ولا أدل على ذلك من بدر فاتحة حرب العقيدة بين من قاتل فى سبيل الله من كفر بالله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

وحين يقول أبو سفيان أعل هبل، يكون جوابه: الله أعلى وأجل.

وحين يقول: لنا العزى ولا عزى لكم ،يكون جوابه: الله مولانا ولا مولى لكم .

د ـ ومن المباحات الخمس فى الحرب العربية إلى المحظورات الخمس :

فحيث كانت شريعة الحرب العربية والعالمية تتيح الغِل والغدر والنكث والتمثيل وقتل الوليد والمرأة إن اقتضت الظروف ذلك، جاء الإسلام ليحرِّم هذه المبادئ فى الحرب والتى كانت تنطلق كلها من الرغبة فى السيطرة، والحرص على المجد، والتنازع للشرف والشهرة، وحيث حُدِّد الهدف فى هذه الحرب هو سبيل الله تعالى لا أى سبيل آخر، فالله تعالى لا يقر الغل والغدر والنكث والتمثيل وقتل غير المقاتلين؛ لأن الله تعالى حرَّم الظلم على نفسه وجعله محرمًا بين العباد وأوحى لهم ألا يتظالموا، وما مهمة حزب الله فى الأرض إلا إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وهذا هو عهد الله وسنة النبى ﷺ، ومهمة هذا الجيش هو تنفيذ هذا العهد، وتطبيق هذه السنة. ولقد سمع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قبل دقائق جزاء من نقض

عهد الله وميثاقه وعهد رسوله ـ عليه الصلاة والسلام. (« وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلِّط عليهم عدو من غيرهم فأخذ بعض ما كان فى أيديهم. . . ») .

فلو أخلَّ جيش الرسالة هذا بعهد الله وعهد رسوله ولو كان أميره عبد الرحمن بن عوف، ولو كان جيش رسول الله ﷺ فستكون الهزيمة هى التى تحل بساحته، فليس بين إعلان المبادئ الخمس الأولى، للقادة الكبار وبين إعلان مبادئ الحرب لقادة الجيوش إلا دقائق قليلة.

فلو نُقِضت مبادئ الحرب الإسلامية لانتقضت معها مبادئ الخلافة الإسلامية الراشدة .

٦ـ ثم ماذا كانت نتيجة التربية العملية على ضوء هذه المبادئ النظرية المعلنة؟

فأخذ عبد الرحمن اللواء وخرج حتى لحق بأصحابه، فسار حتى قدم دومة الجندل فلما حلَّ بهم ، دعاهم إلى الإسلام فمكث ثلاثة أيام ، يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أبوا أول ما قدم ألا يعطوا إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى ، وكان نصرانيًا، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية.

ولعل رواية الواقدى تجلى هذا الحدث الهام أكثر، حيث توضح أنه كان ضمن التعليمات الرئيسية ابتداءً، وليس ضمن المبادئ العامة فقط.

حدثنى عبد الله بن جعفر عن ابن أبى عوف عن صالح بن إبراهيم أن النبى ﷺ بعث عبد الرحمن بن عوف إلى كلب .وقال: «إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم (أو ابنة سيدهم) » فلما قدم دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا وأقام [1] على إعطاء الجزية. وتزوج عبد الرحمن بن عوف تُماضر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم.

فالدعوة إلى الله تعالى هدف رئيسى من السرية، وغاية مقصودة ؛ ولذلك لم يبدأ الحرب عبد الرحمن رضي الله عنه مباشرة بعد رفضهم الدخول فى دين الله ـ عز وجل، إنما استمر ثلاثة أيام يدعوهم إلى الله ـ عز وجل. ومن أجل هذا لم يبعث ـ عليه الصلاة والسلام ـ على رأس هذه السرية قائدًا يغلب عليه الجانب العسكرى، إنما بعث على رأسها سيدًا من سادات هذه الأمة، وواحدًا من أكبر دعاتها،فهو يملك من الحِلْم، والحكمة ،والثقافة ،والتجربة ،والعبقرية ،والقدم فى الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، فهو داعيةٌ قبل أن يكون قائدًا عسكريًا مناورًا ولهذا بذل كل طاقاته لتحقيق الهدف الرئيسى الأول ،وهو الدخول فى الإسلام، وكان متريثًا هادئًا خبيرًا بالنفوس والقلوب،

(١) هكذا الرواية : (وأقام على إعطاء الجزية) ونقدر أن هناك سقطاً فى الكلام سهواً . وتقدير الجملة الصحيحة : (وأقام من أقام) بزيادة هاتين الكلمتين ليستقيم المعنى .

فشحن كل الإمكانات الفكرية والحركية؛ لإنجاح هذه المهمة العظمى، وتكلل عمله بفضل الله تعالى بالنجاح الكبير، وخاصة أن الجهد انصب على إقناع الرئيس، حسب توجيهات المصطفى ﷺ.

٧ـ وهذه ظاهرة نادرة أن يستجيب سيد القوم للإسلام، فالأصل أن ينضم أفراد مبعثرون من القبائل للإسلام ، ويحضروا إلى المدينة مهاجرين لله ولرسوله، وحين تقارن مهمة عبد الرحمن بن عوف فى دومة الجندل لا نجد مثيلاً لها إلا المهمة العظمى لجعفر ـ رضوان الله تعالى عنه ـ فى الحبشة حيث تم غزو النجاشى ملك الحبشة، وإقناعه فى الإسلام، والمهمة العظمى لمصعب بن عمير رضي الله عنه فى المدينة، حيث استجاب سادات الأوس والخزرج وزعاماتهم للإسلام، ودخلوا فى دين الله على يد مصعب بن عمير، وهذه هى المهمة الثالثة العظمى فى أقصى الأرض العربية، حيث ينضم سيد بنى كلب فى دومة الجندل الأصبغ بن عمرو إلى الإسلام، وتقبل القلوب والنفوس وراء قائدها ملبية نداء الله تعالى لها بالاستجابة إلى الله ورسوله.

وهذه الشخصيات العظمى الثلاثة هم من الرواد الأوائل، ومن المؤسسين فى المدرسة الإسلامية الأولى بمكة المكرمة ، وأتيح لعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير ـ رضى الله عنهما ـ أن يخوضا معركة الحرب فى أحد، بعد معركة العقيدة، فيستشهد مصعب بعد أن وضع الركائز الأولى لدولة الإسلام فى المدينة، ولم يقبض من زهرة الدنيا شيئًا، كما أتيح لعبد الرحمن ـ رضوان الله عليه ـ أن يخوض معركة أحد، ويجرح عشرين جراحة أدت بعضها إلى أن يكون عنده عرج من شدتها، وها هو يضع ركائز العقيدة الإسلامية شمال الجزيرة العربية، وينضم الكثيرون إلى الإسلام؛ لتغدو دومة الجندل موقعًا جديداً من المواقع الإسلامية ،فى هذه الأطراف المتنائية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب فى المواجهة مع العرب والروم المناوئين للإسلام.

٨ ـ ثم كان التوجيه النبوى المباشر منه ﷺ: «فإن استجابـوا لك فتزوج ابنة ملكهم» .

فيريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يزيد الوشيجة، ويعقد اللحمة بين هذا الملك المسلم ، وبين دولة الإسلام فى المدينة من خلال هذا الزواج، إذ يحتمل أن يكون إسلامه هربًا من السيف، فما أن يغادر الجيش المسلم أرضه ويطمئن إلى بعد الخطر الإسلامى عنه إلا ويرجع عن دينه أو يرتد، فزواج ابنته وكونها فى قلب دولة الإسلام قد توقف مثل هذه الظاهرة وإن كان صادقًا فى إسلامه، فستفتح قلبه للإسلام أكثر، وتربط مصيره بمصير دولة الإسلام، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر أن فلذة كبده مقيمة فى العرين الإسلامى الذى أصبح يحن له حنينة لأرضه وبلده.

٩ـ وعودة إلى هؤلاء السبعمائة الذين مضوا فى هذه السرية إلى مجاهل البيد ،

حيث يمضون فى السير فقط ما لا يقل عن خمسة عشر يومًا فى تدريب عنيف على الجوع والعطش والمشقة والتعب ثم يعودون بعد هذه الجولة كلها دون شيء فلا غنائم ولا أموال ولا جمال ،ولا نعم ،ولا شاء ،ولا سلاح، إنما يعودون بفرحة غامرة ،هى انتصار هذه العقيدة، وانتشار هذا الدين، وتمكنه فى الأرض، وهذه أعظم ثروة يعودون فيها تفوق الغنائم ، وتفوق المكاسب، وتفوق الثروات كلها، فقد تعلموا من قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوله: « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم »[1] .

فكيف إذا أسلم قطاع كبير من قبائل كلب ، وعلى رأسهم سيدهم الأصبغ بن عمرو ؟! هى دورة عنيفة عقيدية ، خالية من كل حظوظ الدنيا .

وهكذا يجب أن تكون تربية جيل النصر ؛ بحيث لا تبطره المكاسب، وتتحلب أشداقه للمغانم ، كما لا يتحسر على فواتها ويندب حظه على فقدانها. إنه جيل يخط فى هذه الأرض معالم أمة جديدة كل فرد فيه أمة بذاته.

وإذا كان السبعمائة فى أحد قد فقدوا النصر؛ لأن فيهم من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ، فلم يتح لهم تلك التجارب العنيفة قبيل المعركة ، لتتم صياغتهم الكاملة على ضوء العقيدة ، وكان الانتشار الأفقى على حساب التغلغل والبناء فى الأعماق فبقيت شريحة منهم دون المستوى المطلوب انهارت أمام إغراء الغنيمة، وعصت الله ورسوله ، وأدت بتصرفها إلى انتزاع النصر من الأمة المسلمة، بينما نجد هؤلاء السبعمائة ، وقد أمضوا قرابة شهر فى الغدو والرواح والإقامة أو ما يزيد عن شهر، يتلقون من القيادات المسلمة العليا كل الدورات التربوية النظرية والعملية والسلوكية، ويصهرون بهذا الدين صهرًا كما تعاد صياغة التركيبات الكيميائية بالنار والحرارة.

١٠ـ ولأول مرة يحكم الإسلام خارج حدوده، ويتعايش المسلمون والنصارى فى دولة واحدة ، فالذين أسلموا تطبَّق عليهم أحكام الإسلام، والذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وتقوم الدولة الجديدة بعد دولة المدينة على طوائف شتى، وعقائد مختلفة وهو تدريب جديد على المجتمعات الجديدة التى سينتقلون إليها فيما بعد، وينساحون فى العراق والشام وفى قلب فارس والروم، فلابد أن يتدربوا على أن لا إكراه فى الدين، وأن العقيدة تنبنى من خلال الحوار لا من خلال السيف، وأن مبادئ الإسلام حين تحكم هذه المجتمعات، وتحقق العدل، والحق فى الأرض هى التى يمكن أن تقود الناس إلى الإسلام، وليس الإرهاب والقوة. وداعيتنا العظيم عبد الرحمن بن

(١) فتح البارى ٧/ ٤٧٦ برقم (٤٢١٠) .

عوف، الذى لم تنثن عزيمته، ولم يفقد أعصابه نتيجة الإصرار على المواجهة من خصومه كان يربى فى الحقيقة مع إخوانه الكبار من الرعيل الأول، جيل الشباب هذا، على كل هذه المعانى العظيمة ؛ ليكون الخميرة الحية، والنواة الكبرى لجيل الحديبية. الذى سيكون خلال أقل من ثلاثة أشهر مجتمعًا جديدًا بعد جيل بدر وأربعة أضعاف ذلك الجيل وتزيد. فيكون جيل الإيمان وجيل الجنة « لن يدخل النار رجل شهد بدرًا والحديبية »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ٣/ ٩٣ وهو صحيح .

جـ- سرية على رضي الله عنه إلى بنى سعد بن بكر بفدك [1]

ثم قال: وحدثنى عبد الله بن جعفر عن يعقوب بن عتبة. قال: خرج على رضي الله عنه فى مائة إلى فدك إلى حى من بنى سعد بن بكر ذلك أن رسول الله ﷺ بلغه عنهم أن لهم جمعًا، يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم الليل وكمن النهار، وأصاب عينًا فأقرَّ له أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصراً، على أن يجعل لهم تمر خيبر [2].

قال الواقدى: وذلك فى شعبان:

(وبلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعًا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى الهمج [3]. فأصاب عينًا فقال: ما أنت؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بنى سعد؟ قال: لا علم لى بهُ. فشدوا عليه، فأقرَّ أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم. فقالوا له: فأين القوم؟ قال: تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل ورأسهم وبر بن عُليم. قالوا: فسر بنا حتى تدلنا. قال: على أن تؤمنونى! قالوا: إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمَّنَّاك، وإلا فلا أمان لك. قال: فذاك! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنهم به وأوفى بهم على فدافد وآكام، ثم أفضى بهم إلى سهولة فإذا نعم كثير وشاء. فقال: هذا نعمهم وشاؤهم فأغاروا عليه فضموا النعم والشاء. قال: أرسلونى! قالوا: لا، حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعى رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم، فتفرقوا وهربوا. فقال الدليل: علام تحبسنى؟ قد تفرَّقت الأعراب، وأنذرهم الرعاء. قال على - عليه السلام -: لم نبلغ معسكرهم، فانتهى بهم إليه، فلم ير أحدًا، فأرسلوه، وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير، وألفا شاة) [4].

إن هدف هذه السرية واضح. هو أن تفتت أى تحالف يمكن أن يتم بين الكفار من اليهود، والمشركين من العرب ومن أجل هذا تراقب التحركات على الساحة العربية

(١) فَدَك: فى عيون الأثر (جـ ٢ / ١٠٩): وبين فداك والمدينة ست ليالٍ، وكذلك فى طبقات ابن سعد وفى معجم البلدان: بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة.

(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى / ٣٥٥.

(٣) الهمج: ماء بين خيبر وفدك. (ويقال: الغمج منا ضبطها الصالحى والزرقانى فى شرح المواهب).

(٤) المغازى للواقدى ٢ / ٥٦٢، ٥٦٣.

كلها، وحتى لا يفاجأ المسلمون بموقف، يفوتهم التصرف بعده ، كانت الخطة عند سيد الخلق أن يبقى زمام المبادرة بيديه، ولا يفلت أى حدث منه، وعظمة القيادة هى التى تتلافى الأزمة قبل وقوعها، لا التى تعالجها وتعالج آثارها بعد وقوعها، وحيث انتقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأمة من الدفاع إلى الهجوم، فها هى قواته تجوب الجزيرة العربية، لتضرب أى تحالف يمكن أن يتم ضدها، وفى مفهوم القوة ، وإثبات الوجود العسكرى قبل إثبات الوجود السياسى لابد أن يشعر كل الحلفاء فى الساحة أنهم أمام قوة لا تقاوم، والعبقرى العظيم، والعسكرى الكبير على بن أبى طالب الذى طارت شهرته فى الآفاق، والذى يسبقه صيته دائمًا قبله، وخاصة بعد أن أجهز على عمرو بن عبد ود العامرى فى الخندق ، أشهر أبطال قريش ، ها هو يُرى العدو الحزم والوعى وسرعة الانقضاض والمبادرة، كما كان يفعل إخوانه من الفدائيين الأنصار، وليس المهم أن تخوض المعركة وتثخن قواتك فى الجراح، إنما المهم أن تهدم العدو بالرعب، وتحيط به بالإحباط ، وتسلم قواتك فتية لك، وهذا الفهم العسكرى هو الذى نفذه على رضي الله عنه فقد أمسك برأس الخيط لهذا العين الذى اختارته بنو سعد بن بكر. ليكون رجلها الدبلوماسى والعسكرى فى إقامة التحالف مع يهود خيبر، وبالوقوع عليه وأسره، أصبحت كل الخيوط بيد على ـ رضوان الله عليه ـ وأصبح رهينة عسكرية بيده، حيث نفذوا المهمة الأولى فى الدلالة على الشاء والنعم ، ورأى أن مهمته قد انتهت لعلَّه يستطيع لو أفلت استدراك ما فاته. لكن وعى الزعيم الهاشمى على ـ رضوان الله عليه ـ كان أكبر من أن يدعه ينطلق فى هذه الصحراء يؤلب الصفوف ضد المسلمين، فأعلمه أنه لن يفلت من الأسر حتى تأمن السرية الإسلامية الطلب من العدو ، ولن تأمن الطلب وهى فى أرض العدو، حتى يقودها الأسير إلى معسكر قومه ، وتتأكد السرية المسلمة أن جمع العدو قد تفرق، وقواته قد انسحبت من المواجهة.

إن اليقظة الكبرى لدى القائد العظيم على رضي الله عنه هى دروس عسكرية عالية فى مدرسة الحرب الإسلامية ، يشرف على تنفيذها أخو رسول الله ﷺ ، وأقرب الناس إليه ابن عمه على بن أبى طالب ، وهى من جهة ثانية خبرة عسكرية ضخمة فى حرب الصحراء ، تضاف إلى رصيد هذا القائد البطل.

وحتى نعرف الصورة لهذه السرية، وهذا الجيش فى نفوس بنى سعد بن بكر، نأخذ صورة من داخل معسكر العدو، ومن قلب بنى سعد بن بكر، التقطها الإمام الواقدى من أحد شهود العيان الذين شهدوا المعركة، وهذه هى الميزة الكبرى التى امتاز بها الواقدى الإمام فى السيرة على كتاب السيرة جميعًا فى التقصى الكامل للخبر. يقول الواقدى: حدثنى أبير بن العلاء ، عن عيسى بن عليلة عن أبيه عن جده ، قال:

إنى لبوادى الهمج إلى بديع (١) ، ما شعرت إلا ببنى سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون. فقلت: ما وهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وبر بن عُليم. فقلت: ما هذا المسير ؟ قال: الشر، سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به، قبل أن نأخذ للحرب أُهَبَتَها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع. قلت: ومن هو؟ قال: ابن أخى، وما كنا نعد فى العرب فتى واحدًا أجمع قلبًا منه. فقلت:

إنى أرى أمر محمد قد أمن وغلظ ، أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع، ثم أوقع بأهل الحصون بيثرب قينقاع وبنى النضير وقريظة، وهو سائر إلى هؤلاء بخيبر. فقال لى وبر: لا تخش ذلك ! إن بها رجالاً وحصونًا منيعة، وماءً واتنًا (٢) لا دنا منهم محمد أبدًا، وما أحراهم أن يغزوه فى عقر داره. فقلت: وترى ذلك؟ قال: هو الرأى لهم.

فمكث على ـ عليه السلام ـ ثلاثًا ، ثم قسم الغنائم، وعزل الخمس وصفّى النبى ﷺ لقوحًا (٣) تُدعى الحَفِدة (٤) قدم بها (٥).

فهذه نفسية قائد العدو وبر بن عليم، يتحدث عن فشل مخططه كاملاً حين بوغت بالقوات النبوية تطارد تجمعاته وتلاحق فلوله، ويعرض السر فى فشل مخططه كله ، حين قُبض على ابن أخيه لولب الحركة كلها شجاعة ودهاء وسياسة ، فهو المكلف بالصلة بيهود خيبر، وكما وصفه: (وما كنا نعد فى العرب فتى أجمع قلبًا منه) .

إننا نذكر على سبيل المقارنة كيف أن حركة إسلامية معاصرة، قامت بثورة مسلحة تواجه بها الطاغوت فى أرضها، وقد أحكمت خطتها، وربطت خيوطها بين التحرك العسكرى على مستوى الجيش، والتحرك الشعبى على مستوى المجاهدين من خلال رجل واحد انتهت عنده أسرار هذا التنسيق كله، وكيف أن الثورة ضربت كلها، وكشفت خيوط التحرك كله حين وقع الرجل المحور أسيرًا بيد الطاغوت. وسالت دماء المسلمين أنهارًا بعدها، ولم تزل تعانى من آثار هذه المحنة حتى اليوم، ومن هنا ندرك عظمة القائد الفتى على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين أخذ الرجل المحور أسيرًا بين يديه ، أنهى به حربًا، وخضد به شوكة كان يمكن أن تؤذى المسلمين فترة طويلة.

ولتربية النصر إذن رجالها، ولا عجب أن يكون ثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة

---

(١) أرض من فدك، وهى مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن المغيرة المخزومى.

(٢) وتن الماء: دام ولم ينقطع.

(٣) لقوحاً : واحدة اللقاح وهى الحلوب .

(٤) الحفدة : سريعة السير .

(٥) المغازى للواقدى ٢ / ٥٦٢ ، ٥٦٣، وانظر : سبل السلام للصالحى ٦ / ١٥٤ ، ١٥٥ .

والذين قد أُعدوا من قبل تدريبًا، وخلقًا، وعسكرية ،وعبقرية ليؤدوا دورهم فى هذه المرحلة. فالصديق من جهة وابن أبى طالب من جهة أخرى، هما الخميرتان الضخمتان المعدتان للتهيئة الفاصلة مع العدو ، وعبد الرحمن بن عوف الذى قاد الجموع إلى أقصى الجزيرة وأقام عرينًا للإسلام هناك، إضافة إلى زيد رضي الله عنه الذى كان بطل هذه المرحلة .

د ـ سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى فى رمضان سنة ست

لقد كانت هذه السرية ثأرًا لسريته فى رجب .

حدثنى أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى قال: حدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن الحسين بن الحسين بن على بن أبى طالب. قال: خرج زيد بن حارثة فى تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبى ﷺ ثم خرج حتى إذا كان دون وادى القرى ومعه ناس من أصحابه لقيه ناس من بنى فزارة من بنى بدر، فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أن قد قتلوا، وأخذوا ما كان معه، ثم استبل [1] زيد فقدم المدينة على النبى ﷺ فبعثه فى سرية .فقال لهم: «اكمنوا النهار، وسيروا الليل»، فخرج بهم دليل لهم، ونذرت بهم بنو بدر فكانوا يجعلون ناطوراً[2] لهم حين يصبحون، فنظر على جبل لهم شرف وجه الطريق الذى يرون أنهم يأتون منه فينظر قدر مسيرة يوم فيقول: اسرحوا فلا بأس عليكم هذه ليلتكم! فلما كان زيد بن حارثة وأصحابه على نحو مسيرة ليلة أخطأ بهم دليلهم الطريق. فأخذ بهم طريقًا أخرى حتى أمسوا وهم على خطأ، فعرفوا خطأهم، ثم صمدوا لهم [3]فى الليل حتى صبَّحوهم، وكان زيد بن حارثة نهاهم حين انتهوا عن الطلب. قال: ثم أوعز إليهم ألاَّ يفترقوا. وقال: إذا كبرت فكبِّروا، وأحاطوا بالحاضر ثم كبَّر فكبَّروا، فخرج سلمة بن الأكوع فطلب رجلاً منهم حتى قتله، وقد أمعن فى طلبه، وأخذ جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر وجدها فى بيت من بيوتهم، وأمَّها أم قِرفة، وأم قِرفة فاطمة بنت ربيعة بن زيد، فغنموا وأقبل زيد بن حارثة، وأقبل سلمة بن الأكوع بالجارية، فذُكر ذلك للنبى ﷺ، فذكر له جمالها. فقال: « يا سلمة ! ما جارية أصبتها ؟ » قال: جارية يا رسول الله رجوت أن أفتدى بها امرأة منا من بنى فزارة، فأعاد رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا يسأله: «ما جاريةٌ أصبتها ؟ » حتى عرف سلمة أنه يريدها فوهبها له، فوهبها رسول الله ﷺ لحزن بن أبى وهب فولدت له امرأة ليس له ولد غيرها[4].

فحدثنى محمد عن الزهرى عن عروة، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: وقدم

(1) استبل من رده : أى صح منه .
(2) الناطور : حافظ الكرم . والمعنى هنا : الطليعة .
(3) صمدوا لهم : ثبتوا لهم وقصدوهم .
(4) المغازى للواقدى ٢ / ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

زيد بن حارثة من وجهه ذلك ورسول الله ﷺ فى بيتى، فأتى زيد فقرع الباب، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه عريانًا، ما رأيته عُريانًا قبلها، حتى اعتنقه وقبله، ثم سأله فأخبره بما أظفره الله به (١).

(وقتل قيس بن المسحر النعمان وعبيد الله ابنى مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر، وأسر عبد الله بن مسعدة وأُخذت جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر، وأمها أم قِرفة، واسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر وكانت عند حذيفة بن بدر، وهى عجوز كبيرة كانت فى بيت شرف من قومها، وكانت العرب تقول: (لو كنت أعزَّ من أم قِرفة ما زدت) ؛ لأنها كانت تعلق فى بيتها خمسين سيفًا كلهم لها ذو محرم، وكان لها اثنا عشر ولدًا كما فى الزهر كتبت بابنها قِرفة قتله النبى ﷺ، وسائر بنيها قتلوا مع طليحة فى الردة، فلا خير فيها ولا فى بنيها ، فأمر زيد بن حارثة بقتل أم قِرفة لسبها سيدنا رسول الله ﷺ فقُتلت قتلاً عنيفًا) (٢) .

١- زيد بن حارثة هو المولى الأول فى الإسلام، وهو حِبُّ رسول الله ﷺ ومتبناه، وقد رُكزت عليه الأنظار والمهمات فى هذه المرحلة. فلم يكن يرد من سرية إلا ويعود إلى أخرى، وقاد فى عام واحد سبع سرايا لرسول الله ﷺ كان هو الأمير فيها بلا منازع، وكما تقول عائشة ـ رضى الله عنها :

(ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا فى جيش قط إلا أمَّره عليهم، ولو بقى بعده لاستخلفه. أخرجه النسائى) (٣).

فهو إذن من أعرق القادة عند النبى ﷺ، ويكفى أن نذكر أنه أمَّره على الجيش الذى فيه ابن عمه جعفر بن أبى طالب ذو الجناحين وشبيه رسول الله ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا. وقد رأينا من قبل مدى تخلقه بخلق النبوة وتأثره بقائده الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى ليؤثره على أبيه وأمه وأهله وهو فى الجاهلية، فقد أتيح له من رحيق النبوة ما لم يتح لمثله من قبل إلا من يعدون على الأصابع، الصِّديق ، وخديجة ، وعلى ـ رضوان الله عليهم ـ وكان هو رابع هؤلاء الأربعة، وقد شهد له رسول الله ﷺ فيما بعد فى الجنة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٦ . ،وأخرجه الترمذى وحسنه فى الاستئذان (٢٧٣٣)، والمغازى للواقدى / ٥٦٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦ / ١٥٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٢٨ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه أحمد وابن سعد فى الطبقات وأبو بكر بن أبى شيبة ثلاثتهم من طريق محمد بن عبد الله الطنافسى عن وائل بن داود عن البهى عن عائشة ، وهذا سند حسن » .

٢ـ وكان خروج زيد رضي الله عنه في رجب خروج تجارة لا خروج معركة، وكان يحاول الاستخفاء مع أصحابه عن عيون الناس، (وكان سببها أن زيد بن حارثة خرج فى تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبى ﷺ فلما كان بوادى القرى) لفظ ابن سعد دون وادى القرى (لقيه ناس من فزارة من بنى بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم) وهذا ظاهر فى لقيهم لهم له فى ذهابه من المدينة إلى الشام (وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره وخبره) وأما ابن إسحاق فقال: إن زيداً لما لقى بنى فزارة بوادى القرى فى سريته التى قبل هذه،وأصيب ناس من أصحابه، وارتث زيد من بين القتلى، حلف ألا يمس رأسه غسل جنابة حتى يغزو بن فزارة، ويجمع بتعدد السبب بأن يكون لما صحَّ ذهب للتجارة فنهبوه، فرجع وأخبره ﷺ (فبعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليهم) فى جيش[1].

٣ـ نستطيع أن نقول : إن العام السادس للهجرة ،وبعد الخندق ، لم يكن يخلو كله من صراع مع غطفان التى بقيت فى حقدها تحاول أن تنال من الإسلام والمسلمين. ولابد لنا أن نعرض لبنى فزارة بإسهاب ، فلهم السهم الأوفى فى هذه المواجهة.

يقول ابن حزم فى كتابه جمهرة أنساب العرب:

(وأما بنو بدر بن عمرو. . . ابن فزارة فهم بيت فزارة وعددهم، وبنوه (أى بدر) حذيفة الذى يقال له : رب معد ، وحَمَل المقتولان يوم الهباءة، ومالك وعوف المقتولان فى أمر داحس والغبراء، والحارث وربيعة وزبان وزيد سادوا كلهم.

فأما حَمَل فلم يعقب ، وولدُ حذيفة، حصن بن حذيفة، وندبة بن حذيفة قتل إثر أمر داحس ، ومالك بن حذيفة، وورد بن حذيفة، وشريك بن حذيفة، وعقبة بن حذيفة.

وولد حصن عشرة ذكور منهم، قيس بن حصن، وعيينة بن حصن ـ كان رسول الله ﷺ يسميه الأحمق المطاع ـ وخارجة بن حصن ، وحسان بن حصن، وجابية بن حصن، وعقبة بن حصن، وعمرو بن حصن .

وولد عيينة بن حصن: عمران، وأبان، وعلى، وسعيد، وعقبة، وحبيب، وزيد، وعنبسة.

وولد ربيعة بن بدر: أم قِرفة وهى التى أمر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بقتلها، فقتلها وقتل جميع بنيها، وكانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر، فولدت له: خرشة،

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٢ / ١٦٣ .

وجبلة، وحكمة، وزُفر، ومعاوية، وأرطأة، وحصين، وعبيد، وشهرباء، وقيس، وحصن ، ومرثد. . .) (١).

ولقد وجهت أعظم الشخصيات لمواجهة بنى فزارة وسيدها عيينة بن حصن، حيث كانت سرية الصدِّيق إليها، وهذه السرية الثانية لزيد بن حارثة.

وكان من الممكن أن تكون نهاية زيد على يد بنى فزارة ، لكن الله تعالى أمدَّ فى عمره، وارتثَّ من بين القتلى، ومضى إلى المدينة، وأقسم ألا يمس رأسه غسل من جنابة ؛حتى يثأر من بن فزارة الذين نهبوه وقتلوا من معه وهم فى طريقهم فى تجارتهم إلى الشام.

٤- وأم قِرفة هذه ، هدف رئيسى من أهداف السرية حتى أن بعض كتب السيرة تشير إلى هذه السرية بأنها لهذا الهدف بالذات كما هو الحال فى المواهب اللدنية للقسطلانى حيث ذكر (سرية زيد إلى أم قرفة) بكسر القاف وسكون الراء وبالفاء وتاء تأنيث (فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التى جرى فيها المثل « أمنع من أم قِرفة» ؛ لأنها كان يعلق فى بيتها خمسون سيفًا لخمسين رجلاً كلهم لها محرم، كنيت بابنها قِرفة قتله ﷺ فيما ذكره الواقدى، وذكر أن سائر بنيها قُتلوا مع طُليحة يوم بزاخة فى الردة، وذكر أن عبد الله بن جعفر أنكر عليه ذلك وهو الصحيح كذا فى (الروض) وفى (الزهر الباسم) أن ولدها اثنا عشر فلا منافاة فالبنون عشرة وبنتان . . . (وأخذوا أم قِرفة وكانت ملكة رئيسة) وعند ابن إسحاق وكانت فى بيت شرف من قومها كانت العرب تقول : لو كنت أعز من أم قِرفة ما زدت (وأخذوا ابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر وعمد قيس بن المحسر) الكِنانى الليثى إلى أم قِرفة وهى عجوز كبيرة ، زاد ابن إسحاق فى رواية يونس فأسرها وابنتها وقتل مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر فأمره زيد بن حارثة (فقتلهما قتلاً عنيفًا) (٢).

ولا عجب أن تضع خمسين سيفًا فى بيتها لرجال كلهم محارم لها، فما ذكره ابن حزم فى الجمهرة يؤكد ذلك ، فأعمامها وأبوها ثمانية، وأولادها عشرة، ولم يتعرض لإخوانها وأولادهم كما لم يتعرض لأولاد أولادها،وأبناء أخواتها وغيرهم من محارمها . ومن أجل هذا استغلت هذا العز والشرف، ووجهته كله لحرب محمد ﷺ، وأرثت بنيها وإخوانها، وأبناء قبيلتها جميعًا الحقد على الإسلام وأهله، وكما تقول بعض روايات السيرة :(أنها جهَّزت ثلاثين راكبًا من ولدها وولد ولدها ،وقالت: اغزو المدينة واقتلوا

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ٢ / ١٦٣ .

محمدًا) [1] . فكأنها كانت بؤرة التجمع الكبرى عند بنى فزارة ، تقود المواجهة المحتمة للإسلام، ويلتف قومها كلهم حولها، حيث بلغت شهرتها الآفاق، وصارت مضرب المثل فى الشرف والسيادة. وإن كان عيينة بن حصن بالمقابل هو الذى انتهت إليه سيادة بنى فزارة ، ومضى فى حرب لا هوادة فيها ضد الإسلام والمسلمين.

٥ـ وكأنما الساحة غدت صراع بقاء وصراع خفاء بين الحزبين الكبيرين فى الساحة العربية؛ وذلك لتجاورهما المباشر فى الصراع، فغطفان يمتدون خارج المدينة من أكثر من اتجاه، وفزارة أقوى قبائلهم، وهم الذين تمرسوا فى الحرب وأفنوا حياتهم فيها فى حرب داحس والغبراء، بحيث أمضوا عشر سنين حتى أفنتهم الحرب وأكلت أخضرهم ويابسهم، وها هم يريدون الآن أن يعيدوها جذعة جديدة بين المسلمين وبينهم ؛ وذلك لوجود حليف قوى قريب ومجاور لهم وهذا الحليف هو اليهود فى خيبر، وخاصة بعد مقتل زعيمهم أبى رافع سلام بن أبى الحقيق، واجتماع اليهود على أسير بن رزام الذى أعلن خطته بقوله: أسير فى غطفان فأجمعهم، ونسير إلى محمد فى عقر داره ، فإنه لم يُغز أحد فى عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد. قالوا له: نعم ما رأيت [2] .

إننا نلحظ جانب العنف فى هذه المواجهات من خلال قتل أم قِرفة، وقتل ابنى مسعدة بن حكمة بن مالك بن عبد، وأسر اثنين من أكبر أشرافهم وهما عبد الله بن مسعدة الأخ الثالث للقتيلين، وجارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر بنت القتيلة الثالثة أم قرفة، ثم تفرق بنى فزارة على أثر المواجهة، رغم أنهم بذلوا جهدًا مضنيًا خلال شهرين وهم يحرسون الطرق حتى لا يفجؤهم جيش محمد ﷺ وكان خطأ دليل المسلمين رحمة ربانية لجنود الله فى فجاج هذه الصحراء، حيث نزلوا على عدوهم من المكان الذى أخطأ بهم دليلهم فيه حيث صبحوهم وقد أحاطوا بالحاضر، وكبر زيد وكبر أصحابه، وحققوا الهدف الكبير فى الإغارة على هؤلاء الأعراب.

٦ـ ويبرز بطلنا من جديد سلمة بن الأكوع الأسلمى ـ رضوان الله عليه ـ جنديًا مغوارًا بين يدى الصدّيق وبين يدى زيد بن حارثة، فيقتل ويأسر، وتكون جارية بنت مالك بنت أم قِرفة هى أسيرته، وأن مسعدة أسيره الثانى، ويعود سلمة لامتحان جديد بين يدى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسأله: « يا سلمة، ما جارية أصبتها؟ ».

قال: جارية يا رسول الله رجوت أن أفتدى بها امرأة منا من بنى فزارة. فأعاد رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا يسأله: «ما جارية أصبتها ؟» حتى عرف سلمة أنه يريدها فوهبها له.

---

(١) المصدر السابق ٢ / ١٦٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ١٧٦ .

إنها أعنف من التجربة السابقة ، ففي المرة الأولى كان جوابه لقائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه يريدها لنفسه ثم وهبها له، فافتدى بها أسرى من المسلمين فى مكة، أما الآن فأشد. وأقوى لمن نجح فى التجربة السابقة أن سلمة يريدها للسبب نفسه الذى أرادها رسول الله ﷺ من قبل، ليفتدى بها امرأة من قومه فى بنى فزارة. ورسول الله ﷺ يسأله: «ما جارية أصبتها ؟». ومع السؤال الثالث يهبها له، ثم ها هو يهبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لخاله حزن بن أبى وهب، فهو لا يفتدى بها الآن، إنما يهبها لغيره.

فلا يغير ذلك شيئًا فى نفس هذا البطل العظيم، الذى أحبَّه رسول الله ﷺ ثم قربه إليه فجعله من أخص خاصته، واختاره من بين المسلمين جميعًا فى الحديبية ليبايعه ثلاث مرات عوضًا عن المرة الواحدة ، ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة فى أصل الشجرة. قال: فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط الناس قال: « بايع يا سلمة » قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس. قال: « وأيضًا » ، ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً ، يعنى ليس معه سلاح ، فأعطانى رسول الله ﷺ جحفة أو درقة، ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال: « ألا تبايعنى يا سلمة » قلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس وفى أوسط الناس. قال: « وأيضًا » فبايعته الثالثة (١) .

أبدى رسول الله ﷺ هذا الاهتمام به وهو الغمر من الناس، حيث كان يعمل أجيرًا لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يقول : (وكنت تبيعًا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه ، وأحُسُّه ، وأخدِمه ، وآكل من طعامه ، وتركت مالى وأهلى مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ) (٢) .

٧ـ ونقف أمام هذا الإهداء لهذه الجارية لحزن بن أبى وهب.

وحزن بن أبى وهب مشرك فى ذلك الوقت، وهو حزن بن أبى وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، فهو من أسياد بنى مخزوم ، وهم العدو الألد لبنى عبد مناف فى مكة ، ومنهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل قائدا قريش فى الخندق بجوار أبى سفيان وأهم أركان حربه.

أما خؤولة حزن بن أبى وهب لرسول الله ﷺ، فهو من طرف أمه آمنة بنت وهب، وآمنة من بنى زهرة لكن أمها هى فاطمة بنت أبى وهب بن عائذ بن عمران، فهو خال أمه آمنة، ولها انتسب ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قال: « أنا ابن الفواطم والعواتك » ، فهى إحدى جداته من الفواطم.

(١ ، ٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤٣٣ برقم (١٨٠٧) .

ولكن السر فى هذا الإهداء والله أعلم هو رسالة لقريش ذات مغزىً عظيم، لعلها ترعوى عن غيها، وبنو مخزوم على رأس المحاربين من قريش، هذه الرسالة هى أن بنت أم قرفة أعز العرب وأمنعهم أصبحت أسيرة بيدى رسول الله ﷺ، وأمها أم قرفة، غدت قتيلة عنده، وحمل رأسها على رمحين إلى المدينة؛ ليعرف العرب جميعًا أن لا طاقة لهم بمحمد وأصحابه، وتعرف قريش بالذات ذلك، وليس بنو مخزوم بأعز من بنى فزارة، وليس عند بنى مخزوم كأم قرفة، يعلق فى بيتها خمسون سيفًا لمحارمها، ومع ذلك، فلم يمنعها هذا من جند الله أن تقتل، ولم يمنع هذا من ابنتها أن تسبى، ثم تهدى إلى حزن ابن أبى وهب سيد بنى مخزوم وأحد أخوال رسول الله ﷺ، فهى رسالة ظاهرها الإهداء، وباطنها بث الرعب والتهديد فى قلب قريش، حين تحدثها نفسها بالمواجهة. وحزن بن أبى وهب لم يسلم حتى الفتح، وإن كان ابنه المسيب من أهل بيعة الرضوان.

٨ ـ وننتهى مع هذه السرية إلى هذا الاستقبال الحافل الذى استقبل به رسول الله ﷺ قرة عينه زيد بن حارثة مظفَّراً، منصوراً، قاتلاً لأم قرفة وقيادات فزارة، وآسراً لابنتها، وبعض قياداتهم كذلك ، وشتان بين الاستقبال السابق، وهو حى من بين الأموات، أو فى عدادهم، وبين الاستقبال الجديد الذى يتناسب مع هذا النصر المؤزر. حتى ليخرج إليه رسول الله ﷺ عريانًا لفرحه به، ولم يخرج لأحد غيره كذلك فهو أخص خاصته من أهله بعد أهله، وهو أسعد الناس به بعد هذا المجد المؤثل. ها هو يعقد تاجًا فوق تاج فى هام النصر، فيغدو رجل الحرب الأول حين يقود سبع سرايا خلال سنة واحدة.

هـ ـ سرية عبد الله بن رواحة
لأسير بن رزام فى شوال سنة ست

ولما قتل أبو رافع سلام بن أبى الحقيق أمَّرت يهود عليهم أسير بن رزام فقام فى يهود فقال: والله ما سار محمد إلى أحد من يهود ، ولا بعث أحدًا من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد، ولكنى أصنع ما لم يصنع أصحابى . فقالوا: وما عسيت أن تصنع؟ قال: أسير فى غطفان فأجمعهم ونسير إلى محمد فى عقر داره فإنه لم يغز أحد فى عقر داره إلا أدرك عدوه بعض ما يريد . قالوا له: نِعْمَ ما رأيت. فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب محمد ﷺ.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فوجَّه عبد الله بن رواحة فى شهر رمضان ومعه ثلاثة نفر سرًا ؛ليكشف له الخبر، فأتى ناحية خيبر، فدخل فى الحوائط[1]وفرَّق أصحابه فى النطاة والشق والكتيبة[2] ، فوعوا ما سمعوا من أسير بن رزام أو غيره، ثم خرجوا بعد مقام ثلاثة أيام، فرجع إلى النبى ﷺ لليال بقين من شهر رمضان، فأخبره بكل ما رأى وسمع، قدم عليه أيضًا خارجة بن حُسيل الأشجعى فاستخبره رسول الله ﷺ ما وراءه. فقال: تركت أسير بن رزام يسير إليك فى كتائب يهود. فندب[3] النبى ﷺ الناس فانتدب له ثلاثون رجلاً.

وذكر ابن عائذ أن عبد الله بن عتيك كان فيهم، وروى محمد بن عمر عن عبد الله ابن أنيس قال: كنتُ فيهم فاستعمل رسول الله ﷺ علينا عبد الله بن رواحة. قال: فخرجنا حتى قدمنا خيبر فأرسلنا إلى أسير إنا آمنون حتى نأتيك فنعرض عليك ما جئنا له. قال: نعم، ولى مثل ذلك منكم؟ قلنا: نعم. فدخلنا عليه فقلنا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك، فلم يزالوا به حتى خرج معهم وطمع فى ذلك، وشاور يهود فخالفوه فى الخروج .وقالوا: ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بنى إسرائيل. قال: بلى قد مللنا الحرب.

فخرج معه ثلاثون رجلاً من يهود، مع كل رجل رديف من المسلمين. قال ابن إسحاق: وجعل عبد الله بن أنيس أسير بن رزام على بعيره . قال عبد الله بن أنيس:

---

(١) الحوائط: جمع حائط وهو هنا البستان . (٢) والنطاة الشق والكتيبة: من حصون يهود خيبر.
(٣) ندب الناس: دعاهم.

فسرنا حتى إذا كنا بقرقرة ثبار [1]وندم أسير وأهوى بيده إلى سيفى ففطنت له، ودفعت بعيرى وقلت: أغدرًا أى عدو الله؟ فدنوت منه لأنظر ما يصنع فتناول سيفى، فغمزت بعيرى وقلت: هل من رجل يسوق بنا؟ فلم ينزل أحد، فنزلت عن بعيرى فسقت بالقوم حتى انفرد لى أسير، فضربته بالسيف فقطعت مؤخرة الرجل وأندرت عامة فخذه وساقه[2]، وسقط عن بعيره وفى يده مخرش[3] من شوحط[4] فضربنى فشجنى مأمومة[5]. وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدًا، ولم يُصَب من المسلمين أحد، ثم أقبلنا إلى رسول الله ﷺ.

وبينا رسول الله ﷺ يحدّث أصحابه إذ قالوا: تمشّوا بنا إلى الثنية نتحسس عن أصحابنا خبرًا، فخرجوا معه، فلما أشرفوا على الثنية إذ هم بسرعان أصحابنا، فجلس رسول الله ﷺ فى أصحابه، فانتهينا إليه ، فحدثناه الحديث. فقال: «قد نجاكم الله من القوم الظالمين».

قال عبد الله بن أنيس: فدنوت من النبى ﷺ فنَفَثَ فى شجّتى، فلم تُقِح[6] بعد ذلك اليوم ولم تؤذنى وكان العظم قد نفل[7]، ومسح وجهى ودعا لى، وقطع لى قطعة من عصاه .وقال: « أمسك هذه معك علامة بينى وبينك يوم القيامة أعرفك بها ، فإنك تأتى يوم القيامة متخصراً » . فلما دفن عبدالله بن أنيس جُعلت معه على جِلْده دون ثيابه [8] .

١ـ طبيعة الأحداث تقتضى أن يتم هذا السير إلى خيبر، فاليهود قد فجعوا بمقتل زعيمهم أبى رافع، واختاروا زعيمًا جديداً ليثأر لهم من محمد ﷺ وأصحابه، وغَطَفان إنما تتحرك بإيحاء مستمر من اليهود، فهذان العدوان المحيطان بالمدينة، لابد من مواجهتهما وكسر شوكتهما، وإدخال الرعب والرهبة فى قلوبهم ؛ ولذلك ما أن انتهت فى شعبان سرية زيد بن حارثة ـ رضوان الله عليه ـ إلى أم قرفة وبنى فزارة، حتى تحركت فى مستهل رمضان سرية الثلاثة تتحسس أخبار يهود خيبر وتحركاتهم المريبة، وثبت للقائد الأعظم ﷺ أن التخطيط الخبيث الماكر لم ينته، وأن مقتل أبى رافع لم ينه حرب يهود خيبر وحقدهم، إنما أحجبها أشتغالاً فهم يسعون فى الأرض فسادًا كما وصفهم الله تعالى، ويشعلون نار الحرب كلما أتيح لهم ذلك.

(١) قرقرة ثبار. موضع على ستة أميال من خيبر.
(٢) أندرت عامة فخذه وساقه: قطعتهما عن جسده.
(٣) مخرش: عصا معوجة الرأس.
(٤) شوحط: نوع من شجر الجبال تتخذ منه القسىُّ .
(٥) المأمومة: الشجة التى بلغت أم الرأس.
(٦) لم تقح: لم يصدر منها قيحًا.
(٧) نفل العظم: فَسَدَ.
(٨) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ١٧٦ ، ١٧٧، وانظر : المغازى للواقدى ٢/ ٥٦٦ - ٥٦٨ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣٥١ ، ٣٥٣ .

٢- وأن تُختار السرية من الأنصار لمواجهة اليهود فهذا أمر طبيعى، فالأنصار هم أدرى الناس بهم حربًا وسلمًا ، وهم أكثر الناس دربة على فنّ التعامل معهم. ومن أجل هذا كان أمير السرية عبد الله بن رواحة أحد أعضاء الحكومة الإسلامية، أى أحد النقباء الاثنى عشر ، فهو سيد قومه بنى الحارث بن الخزرج الذين يمثلون الخيرية الثالثة فى قبائل الأنصار بعد بنى النجار وبنى الأشهل، وكان معه البطلان العظيمان اللذان ساهما فى اغتيال قادة اليهود وهما عبد الله بن أنيس، وعبد الله بن عتيك. فهما خبيرا حرب العصابات فى مدرسة النبوة فابن عتيك وابن أنيس هما اللذان نفذا عملية مقتل أبى رافع، وعند أحدهم خبرة بلهجة اليهود حيث يرطن بلغتهم.

٣- وكانت الخطة النبوية هى محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً حين ابتعث السرية الثلاثين إلى أسير بن رزام ملك اليهود، وعقد هدنة مؤقتة معهم من خلال تتويج أُسير عليهم، وإيجاد نوعٍ من التحالف معهم؛ ولذلك كان دور عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى هذا الاتجاه، ونجحت المباحثات، وجاء أُسير وثلاثون معه إلى المدينة ليتم عقد المعاهدة فيها بإقرار رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فشوكة خيبر قوية وقد تجمع يهود الجزيرة العربية جميعًا فيها، وحصونها من القوة والمنعة ما يجعلها تقف أمام أى هجوم شهورًا طِوالاً ، وإذا كان رسول الله ﷺ قد اعترف بالوجود اليهودى فى المدينة وتعايش معه عندما وفى بعهده، وأنهاه عندما غدر، فلا غرو أن يعترف به خارج المدينة، ضمن خيط أمل ضعيف هو عودة أهل الكتاب إلى رشدهم، وإمكانية استئناف الحوار والمباحثات السلمية لعلها تجلو القلوب من الحقد، وتفتح مجال الدعوة إلى الله من جديد. وكانت تجربة دومة الجندل مع النصارى تجربة فائقة النجاح آنذاك، فيمكن أن تتكرر هذه التجربة مع اليهود، ومع زعيمهم الجديد أسير بن رزام ؛ ومن أجل ذلك دُفع بقادة الدعوة من الرعيل الأول ليحققوا هذا الهدف.

٤- غير أن الحقد اليهودى الذى أُشرب قلوبهم والسم الذى ينفثونه على المسلمين، هو الذى غلب آخر الأمر ، وأفسد الخطة كلها، ورسول الله ﷺ سيد الخلق لا ينظر للقضية من زاوية واحدة فقط، إنما يضع كل الاحتمالات الممكنة فى هذه القضية. ومن أول وأهم هذه الاحتمالات هو عملية الغدر اليهودى والنكث الذى هو جزء أساسى من تفكيرهم وتكوينهم، وهذا هو سر وجود البطلين العظيمين معهما وغيرهما من مدرسة المدينة ؛ ليحققوا الهدف فى المواجهة إن نكث القوم العهد، وصح ما توقعه - عليه الصلاة والسلام، من أن القوم جبلوا على الغدر، ولا يمكن لهم أن يتعاملوا تعامل الشرفاء مع الآخرين.

٥ـ ولم يكن ركوب عبد الله بن أنيس رضي الله عنه مع أسير بن رزام عرضًا، إنما هو ركوب مخطط لهذا البطل الذى لا يعرف قلبه الخوف عندما حدثنا عن نفسه . فقال: يا رسول الله ، ما فرقت من شىء قط.

إنه البطل الذى جُرِّب قبل الآن، وجاء برأس سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى شيطانهم المارد الذى كان يجمع الجموع لغزو المدينة، وهو البطل الذى نظر رسول الله ﷺ إلى سيفه فى مقتل أبى رافع. فقال: « هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام» .

ولذلك من حدة يقظته ، ما أن رأى بوادر الغدر تبرز من أُسير حتى بيَّت قتله قبل أن ينفِّذ غدرته، فنزل يقود به بعيره حتى انفرد به وانقض عليه انقضاض الصاعقة بسيفه البتار وأطاح معظم فخذه وساقه وقطع مؤخرة الرجل ، ولم يكن أُسير بالرجل العادى، فقد كان أسير رجلاً شجاعًا كما وصف، فدافع عن ذاته بالمخرش الذى فى يده وشجَّ رأس ابن أنيس شجة منكرة بلغت العظم فى أم رأسه ، ولكن هذا لم يحل دون قتل ابن رزام.

٦ـ وكانت خطة معدة، فمع مقتل أُسير الذى أراد الغدر ، فلابد من مقتل أصحابه وعددهم كعدد السرية المسلمة، وإذا كان شجعان اليهود، رياحًا فقد لاقوا أعاصير حولهم ، فالكتيبة مدربة أحسن تدريب ، ومعدَّة أعظم إعداد بحيث إن الثلاثين من المسلمين قتلوا الثلاثين من اليهود ، إلا فرداً واحداً أعجزهم هربًا، وفرَّ إلى قومه يحدثهم عما لاقوه من جنِّ المسلمين ، بعد أن كانوا يمنون قومهم برؤوسهم.

٧ـ وهكذا كانت القضية فى الساحة العربية ، مع هذا الجيش المؤمن فإما حلف أو هدنة تحفظ الأرواح ، والأموال ، وتحقق الأمن ، والعافية ، وإما حرب ضروس تفتك بالبغاة والطواغيت، وتبث الرعب والرهبة فى قلوبهم وحيث لم تكن تجربة دومة الجندل، أو تجربة بنى قريظة قبل غدرهم بالمدينة، أو تجربة بنى النضير أو بنى قينقاع، وحيث اختار العدو الحرب، فلتكن التجارب الحاسمة القاصمة، تجربة أبى رافع، وتجربة ابن الأشرف، وتجربة أم قرفة، وختام هذه التجارب بأسير بن رزام. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾[١].

إن البأس فى الحرب ما لم تكن غليظة وشديدة، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وستجعل الحرب تفنى كل شىء وتأكل كل شىء ، فلابد من بث الرهبة والرعب فى قلب العدو، ولابد من الشدة معه حين لا يجدى الحوار أو المناقشة ، ولابد من الغلظة التى تشعر العدو أن من يقاتله لا يخشى فى الله لومة لائم.

---

(١) التوبة / ١٢٣ .

٨ ـ لقد شهد هذا العام السادس تصعيداً عنيفًا جديداً فى عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب فى الصحراء، وتفض تجمعًا أو تحطم عدوًا أو تغتال طاغوتًا، وهى التى أسميناها من قبل : التربية بالإرهاب؛ لتتناسب مع شعار المرحلة التى ابتدأت مع غزوة الخندق: « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وليترجم الشعار واقعًا عمليًا حيًا فى أنحاء الجزيرة العربية كلها، وأسميناها فى هذا الفصل بتربية جيل النصر بعد جيل الصبر، ونشهد حزب الله ينطلق فى الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافة ، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ ، ونشهد حزب الله فى أفراده جميعًا والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية ،والفكرية، والعسكرية ،والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم.

فهو جيل يقف على أهبة الاستعداد ، ليرقى قمة البشرية ، بعد أن أعيد بناؤه وتدريبه بعد أحد، وسقط من سقط من المنافقين، وارتقى الباقون إلى القمة ، ليكوّنوا جيل الحديبية الجديد ، الذى بلغ أربعة أضعاف جيل بدر ، والذى أخذ اسمًا جديداً هو أصحاب محمد، بعد أن كان موزعًا على طبقاته الثلاث: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان وهو ما سنفرد عنه الحديث فى الفصل القادم ومع إهلالة شهر ذى القعدة.

من المدينة إلى الحديبية

غزوة الحديبية :

والسبب في ذلك ما رواه الفريابى ، وعبد بن حميد ،وابن جرير. والبيهقى عن مجاهد ،وقتادة ، ومحمد بن عمر عن شيوخه. قالوا: أُرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين ، محلِّقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه، وعرَّف مع المعرِّفين (١) .

قال ابن سعد ومحمد بن عمر وغيرهما: واستنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب.

قال محمد بن عمر: قدم عليه بُسر بن سفيان بن عمرو الخزاعى فى ليال بقيت من شوال مسلمًا. فقال له رسول الله ﷺ: « يا بسر ،لا تبرح حتى تخرج معنا، فإنا إن شاء الله معتمرون » ، فأقام وابتاع لرسول الله ﷺ بُدنا. فكان يبعث بها إلى ذى الجَدْرِ حتى حضر خروجه، فأمر بها فُجلبت إلى المدينة وسلَّمها إلى ناجية بن جندب الأسلمى فقدَّمها إلى ذى الحُليفة.

واستخلف على المدينة ، قال محمد بن عمر وابن سعد: ابن أم مكتوم. وقال ابن هشام ومن تبعه: نُميلة بن عبد الله الليثى. وقال البلاذرى: بعد أن ذكر ابن أم مكتوم ويقال: أبو رهم كلثوم بن الحصين قال: وقوم يقولون: استخلفهم جميعًا وكان ابن أم مكتوم على الصلاة.

ذكر خروجه ﷺ :

(روى عبد الرزاق ،والإمام أحمد ،وعبد بن حميد ، والبخارى ،وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ،وابن المنذر عن معمر عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، وابن إسحاق عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أنهما حدثاه، ومحمد بن عمر عن شيوخه يزيد بعضهم على بعض، قال محمد بن عمر:

(١) عرَّف مع المعرِّفين: وقف بعرفة.

دخل رسول الله ﷺ بيته فاغتسل، ولبس ثوبين من نسج صُحار [1]، وركب ناقته القصواء من عند بابه وخرج بأم سلمة معه، وأم عمارة وأم منيع أسماء بنت عمرو، وأم عامر الأشهلية، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب لا يشكون فى الفتح للرؤيا المذكورة، وليس معهم سلاح إلا السيوف فى القرب، وساق قومٌ الهدى فسار رسول الله ﷺ يوم الإثنين لهلال ذى القعدة حتى نزل ذا الحليفة[2] فصلى الظهر، ثم دعا بالبُدن وهى سبعون فجُلِّلَت[3] ثم أشعر منها عدة وهى موجهات إلى القبلة فى الشِّق الأيمن ثم أمر ناجية بن جندب فأشعر ما بقى، وقلَّدهن[4] نعلاً نعلاً، وأشعر[5] المسلمون بُدْنهم وقلدوها. وكان معهم مائتا فارس وبعث ﷺ بُسر بن سفيان عيناً له، وقدَّم عبَّاد بن بشر طليعة فى عشرين فارسًا، ويقال : جعل أميرهم سعد ابن زيد الأشهلى[6].

وعن قتادة أن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبره .قال: اعتمر رسول ﷺ أربع عُمَرٍ كلهن فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجته عمرة من الحديبية فى ذى القعدة، وعمرة من العام المُقبل فى ذى القعدة، وعمرة من الجِعرانة حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة، وعمرة مع حجته [7] .

(وعن مروان والمِسور بن مخرمة. قالا: خرج النبى ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما كان بذى الحليفة قلَّد الهدى، وأشعر، وأحرم منها)[8].

ذكـر إحرامه ﷺ:

ثم صلى رسول الله ﷺ ركعتين، وركب من باب المسجد بذى الحليفة، فلما انبعثت به راحلته مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت، ومعظماً له، ولفظ تلبيته :« لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » وأحرم غالب أصحابه وأم المؤمنين أم سلمة بإحرامه،ومنهم من لم يُحرم إلا بالجُحفة، وسلك طريق البيداء [9]ومرَّ

(١) صحار: قرية باليمن ينسب الثوب إليها. (٢) ذو الحليفة: ميقات أهل المدينة .
(٣) جُلِّلَت: أُلبست الجِلال وهو الغطاء.
(٤) قلَّد : رهان فى عنقها قطعة من نعل ليُعلم أنه هدى فيكف الناس عنها.
(٥) أشعرها: وخز سنامها حتى يسيل الدم فيُعلم أنه هدى.
(٦) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ٥٤ - ٥٧ .
(٧) فتح البارى ٧/ ٤٣٩ برقم (٤١٤٨) . (٨) المصدر نفسه ٧/ ٤٤٤ برقم (٤١٥٨) .
(٩) البيداء: هى التى إذا رحل الحاج من ذى الحليفة استقبلها.

فيما بين مكة والمدينة بالأعراب من بنى بكر، ومزينة، وجهينة، فاستنفرهم، فتشاغلوا بأموالهم. وقالوا فيما بينهم: يريد محمد يغزو بنا إلى قوم معدِّين فى الكراع والسلاح، وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور، لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبدًا، قوم لا سلاح معهم ولا عدد.

ثم قدَّم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب بالهدى مع فتيان من أسلم، ومعهم هدى المسلمين ولقى طائفة من بنى نهد، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وأهدوا له لبنًا من نعمهم . فقال: « لا أقبل هدية مشرك » فابتاعه المسلمون منهم،وابتاعوا منهم ثلاثة أضُب [1] فأكل قوم أحِلَّه، وسأل المحرمون رسول الله ﷺ عنها .فقال : « كلوا فكل صيد البر لكم حلال فى الإحرام تأكلونه إلا ما صدتم أو صيد لكم » وعَطَب [2] من ناجية بن جندب بعير من الهدى ، فجاء بالأبواء إلى رسول الله ﷺ وأخبره . فقال: «انحره واصبغ قلائده فى دمه ، ولا تأكل أنت ولا أحد من أهل رفقتك منه ، وخلِّ بين الناس وبينه » .

ذكر حديث أبى قتادة والصعب بن جثامة:

روى الإمام مالك، والستة عن أبى قتادة رضي الله عنه قال: كنت يومًا جالسًا مع رجال من أصحاب النبى ﷺ أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية ، فأبصروا حماراً وحشيًا، وأنا مشغول أخصف نعلى[3]، فلم يؤذِنوننى[4]، وأحبوا لو أنى أبصرته. (وفى رواية :فرأيت أصحابى يتراؤون شيئًا، وفى رواية : يضحك بعضهم إلى بعض) فنظرت فإذا حمار وحشى فقمت إلى فرسى فأسرجته، ثم ركبت، ونسيت السوط والرمح .فقلت لهم: ناولونى السوط والرمح. قالوا: والله لا نعينك عليه، فغضبت فنزلت فأخذتهما، ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته، ثم جئت به وقد مات فوقعوا فيه يأكلونه، ثم إنهم شكوا فى أكلهم إياه وهم حرم، فرحنا وخبأت لرسول الله ﷺ العضد معى، فأدركنا رسول الله ﷺ فسألناه عن ذلك فقال لهم: « هل منكم أحد أمره أن يحمل عليه أو أشار إليه؟ » قالوا: لا. فقال: « كلوا ما بقى من لحمه إنما هو طعمة أطعمكوها الله، هو حلال ، هل معكم منه شىء؟ » فقلت: نعم، فناولته العضد فأكلها وهو محرم.

وروى الإمام مالك والشيخان والترمذى والنسائى عن الصعب بن جثَّامة رضي الله عنه أنه

---

(١) الأضبُ: جمع ضب.
(٢) عطب: مرض وأشرف على الهلاك.
(٣) أخصف نعلى: أصلحه.
(٤) يؤذنوننى: يعلموننى.

أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بودان، فردَّه عليه، فلما رأى ما في وجهه. قال: « إنا لم نرده عليك إلا أنّا حرم » .

وأهدى له إيماء بن رحضة مع ابنه خُفاف بن إيماء رضي الله عنه مائة شاة وبعيرين يحملان لبنًا .فقال: « بارك الله فيكم » ، وفرَّق ذلك رسول الله ﷺ، وأهدى له بعض الأعراب من ودَّان معيشًا (١) وعترًا (٢)وضغابيس(٣)، فجعل يأكل الضغابيس والعتر وأعجبه، وأدخل على أم سلمة منه، وجعل رسول الله ﷺ يعجبه هذه الهدية، ويُرى أصحابه أنها طريفة.

ذكر أمر كعب بن عجرة بحلق رأسه لعذر:

(روى الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والشيخان، والترمذي، وابن جرير، والطبراني عن كعب بن عجرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون قد حصرنا المشركون، وكانت لي وفرة فجعلت الهوام تتساقط على وجهي فمرَّ بي رسول الله ﷺ فقال: « أيؤذيك هوام رأسك؟ » قلت: نعم. قال: « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا » فأمرني أن أحلق، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾(٤). فقال رسول الله ﷺ: « صم ثلاثة أيام، أو تصدَّق بفرق(٥) بين ستة مساكين أو انسك ما تيسر لك » .

ولما بلغ رسول الله ﷺ الجحفة أمر بشجرة فقُمَّ(٦) ما تحتها فخطب الناس .فقال: « إني كائن لكم فرطا (٧)، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه ») (٨).

لبنات في الحديبية:

أ ـ عن عبد الله بن أبي قتادة أن أباه حدثه قال : انطلقنا مع النبي ﷺ عام

---

(١) معيشاً : الطعام وما يعاش به من الخبز .

(٢) العتر: نبت ينبت متفرقًا فإذا قطع أصله خرج منه شيء شبه اللبن وهو المرزجوش، ويقال : المرزنجوش والمردقوش وهو من الفارسي المعرب وهو الزعفران.

(٣) الضغابيس: صغار القثاء.

(٤) البقرة / ١٩٦ .

(٥) الفرق: مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع.

(٦) فقم: فقطع.

(٧) فَرطًا: أجرًا.

(٨) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٥/ ٥٥ - ٥٩ .

الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم.

ب ـ عن مجاهد قال: حدثنى عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يسقط على وجهه. فقال: «أيؤذيك هوامك؟» قال: نعم. فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق وهو بالحديبية لم يبيّن لهم أنهم يحلُّون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله ﷺ أن يُطعم فرقًا بين ستة مساكين، أو يهدى شاة، أو يصوم ثلاثة أيام (١).

جـ ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق فلحقت عمر امرأة شابة. فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجى، وترك صِبية صغارًا والله ما ينضجون كراعًا ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضُبع، وأنا بنت خُفاف بن إيماء الغفارى، وقد شهد أبى الحديبية مع النبى ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا فى الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه. وقال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها. قال عمر: ثكلتك أمك، والله إنى لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا ففتحاه، ثم أصبحنا نستفىء سهماننا فيه(٢).

د ـ عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته. فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم؟! أنتم أعلم (٣).

هـ ـ عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة. قال: كان النبى ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة. قال: «اللهم صلِّ عليهم»، فأتاه أبى بصدقته. فقال: «اللهم صلِّ على آل أبى أوفى» (٤).

و ـ عن عباد بن تميم قال: لما كان يوم الحرَّة، والناس يبايعون لعبد الله بن حنظلة، فقال ابن زيد: علام يبايع ابن حنظلة الناس؟ قيل له: على الموت. قال: لا أبايع على

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٤٤ برقم (٤١٥٩).
(٢) المصدر نفسه ٧ / ٤٤٥ برقم (٤١٦٠).
(٣) المصدر نفسه ٧/ ٤٤٧ برقم (٤١٦٣).
(٤) المصدر نفسه ٧/ ٤٤٨ برقم (٤١٦٦).

ذلك أحدًا بعد رسول الله ﷺ، وكان شهد معه الحديبية (١).

ز - عن يزيد بن أبى عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت (٢).

ح - عن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب - رضى الله عنهما - فقلت: طوبى لك، صحبت النبى ﷺ، وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا بن أخى، أنت لا تدرى ما أحدثناه بعده (٣).

ط - عن يحيى بن أبى قلابة أن ثابت بن الضحاك أخبره أنه بايع النبى ﷺ تحت الشجرة (٤).

ى - عن مجزأة بن زاهر الأسلمى عن أبيه، وكان ممن شهد الشجرة. قال: إنى لأوقد تحت القدر بلحوم الحمر، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: إن رسول الله ﷺ ينهاكم عن لحوم الحمر (٥).

ك - وعن مجزأة عن رجل منهم من أصحاب الشجرة اسمه أهبان بن أوس، وكان اشتكى ركبته، وكان إذا سجد جعل تحت ركبته وسادة (٦).

ل - عن بشير بن يسار عن سويد بن النعمان وكان من أصحاب الشجرة قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه أُتوا بسويق فلاكوه، تابعه معاذ بن شعبة (٧).

م - عن أبى جمرة قال: سألت عائذ بن عمرو رضي الله عنه وكان من أصحاب النبى ﷺ من أصحاب الشجرة: هل يُنقض الوِترُ؟ قال: إذا أوترت من أوله فلا توتر من آخره (٨).

ن - عن صخر بن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر وهو يستلئم(٩) للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة. قال: فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٤٨ برقم (٤١٦٧).

(٢) المصدر نفسه ٧/٤٤٩ برقم (٤١٦٩).

(٣) المصدر نفسه (٤١٧٠).

(٤) المصدر نفسه (٤١٧١).

(٥) المصدر انفسه ٧ / ٤٥١ برقم (٤١٧٣).

(٦) المصدر نفسه (٤١٧٤).

(٧) المصدر نفسه (٤١٧٥).

(٨) المصدر نفسه (٤١٧٦).

(٩) يستلئم: يلبس اللأمة ـ بالهمز وهى السلاح.

الله ﷺ، فهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر[1].

س ـ قال أبو وائل : لما قدم سهل بن حنيف من صفين أتيناه نستخبره .فقال : اتهموا الرأى،فقد رأيتنى يوم أبى جندل لو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت ، والله ورسوله أعلم وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر،ما نسد منها خصمًا إلا تفجَّر علينا خصم ما ندرى كيف نأتى له [2].

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الحديبية:

عن سفيان قال:سمعت الزهرى حين حدَّث هـذا الحديـث حفظـت بعضـه وثبتـنى معمـر عـن عـروة بـن الزبير عـن المسور ابن مخرمة، ومروان بن الحكم يزيد أحدهما على صاحبه. قالا: خرج النبى ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبى ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط[3] أتاه عينه .قال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا ، وقد جمعوا لك الأحابيش[4]، وهم مقاتلوك ،وصادوك عن البيت ،ومانعوك. فـقال: « أشيروا علىَّ أيها الناس: أترون أن أميل إلى عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت فإن يأتونا كان الله ـ عز وجل ـ قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين [5] ». قال أبو بكر: يا رسول الله ، خرجتَ عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجَّهْ له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه على اسم الله [6] .

قالوا:ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ راعهم ذلك، فاجتمعوا وتشاورا. فقالوا : أيريد محمد أن يدخلها علينا فى جنوده معتمرًا، فتسمع العرب أنه دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟! والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تُطْرَف .

ثم قدَّموا خالد بن الوليد فى مائتى فارس إلى كراع الغميم[7]، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم، وخرجوا إلى بلدح[8]، وضربوا بها

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٥٥ برقم (٤١٨٦).

(٢) المصدر نفسه ٧/ ٤٥٧ برقم (٤١٨٩) .

(٣) غدير الأشطاط: موقع تلقاء الحديبية.

(٤) الأحابيش: بنو الهون بن خزيمة بن مدركة وبنو الحارث ، وبنو عبد مناة من كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة.

(٥) محروبين: منهوبين.

(٦) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٥٣ برقم (٤١٧٨، ٤٧١٩) .

(٧) كراع الغميم: واد بين رابغ والجحفة.

(٨) بلدح: وادٍ فى طريق التنعيم إلى مكة.

القباب والأبنية، ومعهم النساء والصبيان، فعسكروا هناك، وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته، ووضعوا العيون على الجبال، وهم عشرة أنفس، يوحى بعضهم إلى بعض الصوت الخفى : فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهى إلى قريش ببلدح، ورجع بشر بن سفيان الذى بعثه عينًا له من مكة، وقد علم خبر مكة والقوم، فلقى رسول الله ﷺ بغدير الأشطاط وراء عُسفان .فقال: يا رسول الله ،هذه قريش سمعت بمسيرك، وخرج معهم العوذ المطافيل(١)، قد لبسوا جلود النمور(٢)وقد نزلوا بذى طوى (٣) يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدَّمها إلى كُراع الغميم . فقال رسول الله ﷺ: « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين(٤)، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة » (٥).

ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة ، فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم فى خيله، فقام بإزائه فصف أصحابه، وحانت صلاة الظهر، فأذَّن بلال وأقام، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، وصف الناس خلفه، فركع بهم ركعة وسجد ثم سلم ،فقاموا على ما كانوا عليه من التعبئة. فقال خالد بن الوليد: قد كانوا على غِرَّة لو حملنا عليهم أصبنا منهم، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآية: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ . . .** ﴾ حتى قوله تعالى :﴿ **. . . إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾(٦) فحانت صلاة العصر ، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف.

ذكر مسير رسول الله ﷺ إلى الحديبية عن غير طريق خالد :

روى البزار بسند رجاله ثقات عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مختصراً ومحمد بن عمر

---

(١) العوذ المطافيل: العوذ : الناقة ذات اللبن ، والمطافيل: الأمهات اللاتى معهن أطفالهن وهى كناية عن خروجهم بنسائهم وأولادهم لطول المقام.

(٢) جلود النمور: كناية عن شدة الحقد والغضب.

(٣) ذو طوى: أشهر وادٍ بمكة.

(٤) وافرين: كاملين.

(٥) تنفرد هذه السالفة: كنىً بذلك عن القتيل ؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه.

(٦) النساء / ١٠٢ .

عن شيوخه قالوا: لما أمسى رسول الله ﷺ قال: « تيامنوا فى هذا العضل(1) » وفى رواية: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحمض(2) فإن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة» كره رسول الله أن يلقاه وكان بهم رحيمًا . فقال: «تيامنوا فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل؟ » فقال بريدة بن الحصيب الأسلمى: أنا يا رسول الله عالم بها. فقال رسول الله ﷺ: « اسلك أمامنا » فأخذ بريدة فى العضل ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة (3) الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش فسلك بريدة بهم طريقًا وعراً أجرل (4) بين شعاب، وسار قليلاً تُنكبه الحجارة وتُعلقه وصار حتى كأنه لم يعرفها قط. قال: فوالله إنى كنت أسلكها فى الجمعة مراراً، فنزل حمزة بن عمرو الأسلمى فسار بهم قليلاً، ثم سقط فى خَمر الشجر(5) فلا يدرى أين يتوجه، فنزل عمرو بن عبد نُهم الأسلمى ،فانطلق أمامهم حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الثنية. فقال: «هذه ثنية ذات الحنظل؟ » فقال عمرو: نعم يا رسول الله، فلما وقف به على رأسها تحدَّ ربه. قال عمرو: فوالله إن كانت لتهمنى نفسى وحدها، إنما كانت مثل الشراك (6)، فاتسعت لى حين برزت فكانت فجاجًا لاجبة (7)، ولقد كان الناس تلك الليلة يسيرون جميعًا معطفين من سعتها يتحدثون، وأضاءت تلك الليلة حتى كأنا فى قمر ، فقال رسول الله ﷺ: « فوالذى نفسى بيده ما مثل هذه الثنية الليلة إلا مثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل : ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ** ﴾ (8) » (9) .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ: « من يصعد الثَّنيةَ (10)، ثنية المرار(11) فإنه يُحط عنه ما حُطَّ عن بنى إسرائيل». قال: فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بنى الخزرج، ثم تتامَّ الناس. فقال رسول الله ﷺ: « وكلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر (12) » فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله لأن أجد

---

(1) العضل: موضع بالبادية كثير الغياض، وقيل :شجرة إذا أكل منها البعير سلحته.

(2) الحمض: اسم موضع من طريق يخرج على ثنية المرار.

(3) القترة: الغبار الأسود.

(4) أجرل: الجرل الحجارة ، وقيل: المكان الصلب الغليظ الشديد .

(5) خمر الشجر : كل ما يترك من شجر أو بناء . (6) الشراك: سيرها الذى على ظهر القدم .

(7) اللاجبة: الطريق الواسع. (8) البقرة / 58 .

(9) مقتطفات من سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى 5 / 62 ـ 64 .

(10 ، 11) الثنية: الطريق بين جبلين، وثنية المرار : شجر مر ، هذه الثنية عند الحديبية.

(12) قيل هو : الجد بن قيس المنافق (كما قال القاضى) .

ضالتى أحب إلىَّ من أن يستغفر لى صاحبكم. قال: وكان رجل ينشد منا ضالة له(١).

ذكر نزول رسول الله ﷺ الحديبية وما وقع فى ذلك من الآيات

عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا. فقال: « أتدرون ماذا قال ربكم؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال الله : أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر بى ، فأما من قال: مطرنا برحمة الله ورزق الله وفضل الله فهو مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بى » (٢) .

وعن أبى إسحاق قال : أنبأنا البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة أو أكثر. فنزلوا على بئر فنزحوها، فأتوا رسول الله ﷺ، فأتى البئر وقعد على شفيرها ثم قال: « ائتونى بدلو من مائها » فأُتى به، فبصق، فدعا، ثم قال: « دعوها ساعة » فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا (٣).

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: عطِش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه. فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم؟» قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ منه، ولا نشرب إلا ما فى ركوتك. قال: فوضع النبى ﷺ يده فى الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال: فشربنا وتوضأنا.

فقلت لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة (٤).

وعن عبد الله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنهما ـ : كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاثمائة، وكانت أسلم ثمن المهاجرين (٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: « أنتم خير أهل الأرض»، وكنا ألفًا وأربعمائة (٦).

أ ـ رؤيا الأنبياء حق :

ولم ير رسول الله ﷺ رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وهى بمثابة الوحى لرسول

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٤ برقم (٢٨٨٠) .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٣٩ برقم (٤١٤٧) .
(٣) المصدر نفسه ٧/ ٤٤١ برقم (٤١٥١) .
(٤) المصدر نفسه (٤١٥٢) .
(٥) المصدر نفسه ٧/ ٤٤٢ برقم (٤١٥٥).
(٦) المصدر نفسه (٤١٥٤) .

الله ﷺ، وقد (أرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه وعرّف مع المعرفين) ، أى أنه وقف فى عرفات مع المسلمين.

وتحمل هذه الرؤيا معنيين لقلب المصطفى - صلوات الله عليه -:

المعنى الأول: هو نصر المسلمين على قريش ، فلا يمكن أن يتم هذا إلا بهزيمة قريش التى تعتبر دخول رسول الله ﷺ وجيشه مكة إذلالاً لها،وهى التى أخرجتهم منها،وهذا متناسب مع الخط الجديد الذى رسمه رسول الله ﷺ لأفق الدعوة الوضيء: « الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» ، وتأتى هذه الرؤيا إعلانًا لإشارة البدء، وبعد سنة وشهر من غزو الأحزاب العربية للمدينة بعشرة آلاف مقاتل.

المعنى الثانى: إقرار نسك العمرة فى هذا الدين الجديد ، وتعظيم البيت فيه؛ إذ لم يرد أى توجيه نبوى قبل هذا العام، وهو نهاية العام السادس للهجرة ، بتأدية هذا النسك بصفته نسكًا إسلاميًا وشعيرة إسلامية وفى حس رسول الله ﷺ أن هذا الأمر قادم. لكن صيغة وإشارة البدء فيه كانت خافية على قلب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - حتى أعلنت فى هذه الرؤيا.

لقد بلغ التجرد لله والوحدانية من الجيل المسلم الرائد أن يتجه إلى الشام وهو فى مكة ثلاثة عشر عامًا أثناء الصلاة حيث كانت القبلة هناك، ولم يكن أكثر من أمل فى قلب المصطفى ﷺ أن تكون قبلته إلى البيت الحرام، ولم يكن ذلك إلا بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة، فأنزل الله تعالى على قلب نبيه: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...** ﴾ (1) .

وبلغ من أدب عبد الله ورسوله النبى العظيم محمد ﷺ ألا يرجو ربه هذا الرجاء فى أعلى مستويات العبودية لله، إنما هى أمنية تجيش فى القلب، وأقر الله تعالى عين نبيه بها ضمن إطار تربوى ضخم يخدم عملية البناء ،وفى جو إثارة الشحناء والغضب من أهل الكتاب الذين كانت القبلة لقبلتهم الشام، وفى جو تأليف القلوب معهم، على أمل الدخول فى هذا الدين الجديد، وكانت الإشارة الثانية إلى تعظيم هذا البيت بعد شهر من تغيير القبلة ، حول حرمة البيت وحرمة الشهر الحرام: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ**

---

(1) البقرة / ١٤٤ .

اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . . . ﴾ (١) .

والناس يفدون إلى المسجد الحرام من كل فج، ولا يدرى رسول الله ﷺ إلا ما يعلِّمه ربه سبحانه متى يحين موعد الاتجاه لهذا البيت تعظيمًا له، فجاءت هذه الرؤيا لتقرَّ عين المصطفى ﷺ وعين المسلمين المؤمنين من حوله، وتترجم فى واقع عملى فى دعوة المسلمين إلى التأهب لأداء نسك العمرة فى مكة، وكانت مفاجأة هزت المجتمع المسلم آنذاك فى هذا الاتجاه، وسيوف مكة لا تزال تقطر دمًا، وقلوب قريش لا تزال تنز حقداً على محمد وأصحابه. فكيف ستكون المواجهة؟!

غيب من الغيب كذلك ، إنما تحولت المدينة وكأنها فى عرس ، حيث يتأهب المسلمون، والشوق والحنين يعتلج فى صدورهم لهذا البيت العتيق، لأداء هذا النسك العظيم، والقلوب المؤمنة لا يضيرها شىء ، فهى واثقة بموعود الله طالما رأى قائدها ونبيها هذه الرؤيا الغرَّاء.

ولا شك أن بعض نوازع الخوف البشرية تعتلج كذلك فيما تحمل هذه الحملة من خطورة المواجهة،وقد عرف المسلمون الإشارة لذلك حين قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لبسر بن سفيان الخزاعى: « يا بُسر ،لا تبرح حتى تخرج معنا ،فإنا إن شاء الله معتمرون» ونفقت سوق البدن بعد ذلك حيث راح المسلمون يبتاعون الهدى لذلك .

وكان حس خطر المواجهة قد برز فى ثلاث إشارات :

الأولى : حيث كان يستنفر رسول الله ﷺ الأعراب حول المدينة للخروج معه إلى العمرة، كما فى رواية ابن الواقدى وتلميذه ابن سعد: (واستنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. . .) .

الثانية : فيما وضَّحه جليًا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث سأل وهو الوزير الثانى، والشريك الثانى فى صنع القرار فلابد من أن يمارس مسؤوليته فى ذلك. فقال: أتخشى يا رسول الله علينا من أبى سفيان وأصحابه، ولم نأخذ للحرب عدتها؟ فقال رسول الله ﷺ: « ما أدرى ولست أحب حمل السلاح معتمرًا » (٢).

الثالثة : ثم تكلم سيد الخزرج سعد بن عبادة فى اقتراح مماثل:

يا رسول الله ، لو حملنا السلاح معنا، فإن رأينا من القوم ريبًا كنا معدِّين لهم.

---

(١) البقرة / ٢١٧.

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٣ .

فقال رسول الله ﷺ: « لست أحمل السلاح، إنما خرجت معتمراً » .

إنها القيادات المسؤولة عن المواجهة تطرح بين يدى رسول الله ﷺ فكرة حمل السلاح خوف المواجهة، ويجيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً: «لست أحمل السلاح، إنما خرجت معتمراً ».

وهو تعظيم لشعائر الله، حيث الأمن والسلام للبيت الحرام ولآميه ولأهله ، فالعرب تضع السلاح فى الأشهر الحُرم ، وذو القعدة من الأشهر الحُرم، وقاصد النسك يضع سلاحه، والمسلمون جاؤوا عُمَّارًا لبيت الله، والسلاح إيذان بالمواجهة ؛ ولهذا لم يكن مع الجيش إلا سلاح المسافرين الآمن؛ السيوف فى القرَب والخيل ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . . . ﴾(١) والبدن والقلائد والهدى إيذاناً بالنسك، وقطعًا لخط التأول ودابر الفتنة تتذرع بها قريش ومن والاها للمواجهة.

ب ـ وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحرك بهذا الركب المؤمن ، الذى لا مثيل له فى الأرض ، من بين العمار ، والزوار بدينهم الجديد الذى يتلقى الوحى من رب العالمين ، آمِّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، وما يقره ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الشرع من عند الله ، فهم يقدمون على هذا النسك بمنطلق جديد ، والمسلمون ينظرون إليه ما يعمل فيأتمون به (ودخل بيته فاغتسل ولبس ثوبين من نسج صحار ، وركب ناقته القصواء من عند بابه).

أما جنوده فقد (خرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب) و (خرج بأم سلمة معه وأم عمارة وأم منيع أسماء بنت عمرو، وأم عامر الأشهلية) . فبالرغم من احتمالات الموت ، لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يمنع من حضور هؤلاء النسوة هذا المشهد .

وأى التزام يرقى إلى هذا المستوى من الالتزام فى أن يستجيب لرسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب فى المسير إلى مكة المكرمة، إلى قلب الموت والإفناء والذبح؟!وهى القمة العليا فى آثار هذه التربية العليا التى فاقت التصور ، فلم ينخذل أحد ، ولم يتراجع أحد ، حتى أن قيادات المنافقين اضطرت للمسير والمسايرة ، مثل عبد الله بن أبى، والجد بن قيس خوفاً من مواجهة هذا التيار الجارف وهم يعلمون أنهم مساقون إلى الذبح ، ولكن سيُقتلون معنوياً لو تخلفوا عن المسير ، ويعيِّرون بالجبن ، وأى سيادة تبقى لهم مع هذا الجبن ، أما الركب المؤمن فكما وصفهم

(١) الحج / ٢٧ ، ٢٨ .

النص :(لا يشكون فى الفتح للرؤيا المذكورة) ـ رغم أنهم ـ (ليس معهم سلاح إلا السيوف فى القرب) فهذا المستوى النفسى الرفيع،والتناغم العالى مع التوجيه النبوى الخالد .

وبعد لباس الإحرام من ذى الحليفة ، كان أن قدَّم الهدى فأشعره ، حيث وخز سنامه حتى يسيل الدم فيعلم أنه هدى ، ثم قلّدهن نعلاً نعلاً ، وبذلك أصبح الإشعار والتقليد من الشعائر الإسلامية ، وقبل لحظات لم يكن المسلمون يعرفون ذلك ، وكُلِّف ناجية بن جندب بإشعار الباقى ، فقد تحقق الهدف من التشريع حين أشعر ﷺ بعض هذا الهدى ورآه الناس يفعل ذلك وهو على ناقته القصواء .

(ثم صلى رسول الله ﷺ ركعتين ، وركب من باب المسجد بذى الحليفة ، فلما انبعثت به راحلته مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له ، ولفظ تلبيته : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » وأحرم غالب أصحابه وأم المؤمنين أم سلمة بإحرامه ، ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة) .

إنها شعائر حية لأول مرة يتلقاها المسلمون ، كأنما ولدوا بها من جديد ، فصلاة ركعتين ، لم تكن عند المعتمرين فى الجاهلية ، ورسول الله ﷺ يؤدى العمرة لأول مرة فى الإسلام ،وجاءت التلبية لتحطم لوثة الشرك التى أفسدت النسك كله،فقد كانت تلبية الجاهلية : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك وما ملك . . .) فقد دخل الشرك حتى فى مناسك الحج والعمرة ، وجاء البشير والنذير ؛ ليخرج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى عالم التوحيد ونور الوحدانية ، فجاءت هذه التلبية التى لبى المسلمون بها ، وأحرموا بها من دون الناس جميعاً ، وانتشر الخبر فى الأرض العربية بتوجه العصبة المؤمنة إلى مكة ، مهلة بالعمرة ، فيأمن الناس جميعاً خروجها ، وفوجئ المسلمون ، وهم على طريق العمرة بقضايا أربعة ، أفتى بها رسول الله ﷺ لهم، وما أسعدهم وهم مع الرحمة المهداة والنور الربانى المنزل . ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ [1] . فأما الكتاب المبين فالقرآن الكريم ، وأما النور ، فمحمد ﷺ ، فبه يرون الوجود والحياة والكون والإنسان.

المعضلة الأولى : حيث ابتاع المسلمون ثلاثة أضُب، والضب إنما يتم صيده ابتداءً . فما هو حكم أكله للمحرم ؟ فقد توقف المحرمون ينتظرون الفتوى من رسول الله ﷺ . فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« كلوا فكل صيد البر لكم حلال فى الإحرام إلا ما

---

(١) المائدة / ١٥ .

صِدتم أو صيد لكم» . وبذلك انتفى الحرج حيث تقرر المبدأ فى حرمة الصيد المباشر أو غير المباشر ، وجواز أكل أى صيد بعد ذلك .

المعضلة الثانية : و عطِب من ناجية بن جندب بعير من الهدى ، فجاء بالأبواء إلى رسول الله ﷺ وأخبره .فقال : « انحره واصبغ قلائده فى دمه ، ولا تأكل أنت ولا أحد من أهل رفقتك منه وخل بين الناس وبينه » .

وتعلم المسلمون بذلك كيف يتعاملون مع الهدى إن أشرف على الهلاك قبل أن يبلغ محله ، حيث يذبح ويأكل منه الناس جميعاً إلا صاحب الهدى .

المعضلة الثالثة : حيث يرويها أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفارس المعلَّم،والذى بقى حالاً ولم يحرم بالعمرة مع المسلمين، وإذا بالحمار الوحشى يتراءى للمسلمين وهو وليمة دسمة لهم فى هذه الصحراء القاحلة، غير أن الصيد يحرم عليهم، والجوع كافر بلغ بهم مبلغه، ويجد أبو قتادة نفسه حرًا وحِلاً فيمتطى صهوة جواده ويشد على الحمار فيعقره، وعادت المشكلة من جديد، ماذا يفعل الحُرم؟ وهل يجوز أن يأكلوا منه أم لا؟ ويتجهون إلى معلم الخير ﷺ، إلى مربى البشرية،فيسأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل أن يعطى الجواب: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليه أو إشارة إليه؟» قالوا: لا. ولهذا رفضوا أن يساعدوه حتى فى مناولته السوط والرمح؛كى لا يكونوا شركاء معه. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« كلوا ما بقى من لحمه، إنما هو طعمة أطعمكوها الله، هو حلال » وكى ينفى الحرج والإثم من نفوسهم جميعًا سألهم: «هل معكم منه شىء ؟ » .

قال أبو قتادة: فناولته العضُد فأكلها وهو محرم.

وتقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الهدايا من جنوده وحلفائه وأكل منها ووزعٍ منها على الجيش الإسلامى صغيرها وجليلها، فتناول الخبز والقثاء والعتر وغيره وسر بها، وقبل هدية خفاف بن إيماء مائة شاة، وفرقها على أصحابه وعلَّم المسلمين أن لا حرج فى الهدية على المحرم، ورفض ـ عليه الصلاة والسلام ـ هدية المشركين.

المعضلة الرابعة: يصفها لنا كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى أكلته الهوام وهو مُحرِم، وراع المربى العظيم منظره ، كما قال: وقف علىَّ رسول الله ﷺ وأنا أنفخ تحت قدر لى، ورأسى يتهافت قملاً وأنا محرم. فقال:« هل يؤذيك هوامك يا كعب؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: « فاحلق رأسك » ونزلت فيه هذه الآية: ﴿. . . **فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**. . .﴾(١) فأمرنى ﷺ أن أذبح شاة أو أصوم ثلاثة أيام أو أطعم ستة

---

(١) البقرة / ١٩٦ .

مساكين .

وكانت هذه فسحة للمسلمين فى الأرض إلى يوم الدين، وتخفى الحادثة فى ثناياها مدى اهتمام المصطفى ﷺ بجنده، وحدبه عليهم إذ قال له - كما فى الرواية الأخرى -: « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا ».

لقد حبس المسلمون أنفسهم عشرين عامًا تقريبًا بالصبر عن أعز مقدساتهم ، حتى جاءهم الإذن بالاتجاه إلى العمرة فانطلقوا وهم أسعد أهل الأرض، دون أن يتألوا على الله ورسوله، ودون أن يقدموا بين يدى الله ورسوله، وحين جاءهم الإذن نفذوا أمر رسول الله ﷺ ، ومضوا إلى مكة وسلاحهم السيوف فقط، دون أن يسجل تاريخ الغزوة حالة مخالفة واحدة لا لفظًا ولا عملاً أنه يرفض المسير إلى هذه التهلكة وهذه المقتلة، إنه الجيل الذى لم تشهد البشرية مثيلاً له فى تاريخها الطويل.

جـ - الأعراب والمنافقون :

وفى مقارنة مستأنية نشهد بها فعل التربية العظيم فى هذا الجيل الذى استعصى ثلثه فى أحد، وبعد سنتين نجحت التربية فى الخندق، أن وجد فيه جيب صغير من المنافقين داخل الصف الداخلى فى المدينة يريد الفرار من المعركة، وينتحل الأعذار أن بيوتنا عورة وما هى بعورة، ويكشفون خبث طويتهم قائلين: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا، ويعوقون المؤمنين ويدعونهم للتخلى عن المواجهة، وألسنتهم حداد على المسلمين فى الخفاء، يأكل الرعب قلوبهم خوفًا من الأحزاب.

نجد أن سنة ثالثة من التربية، قد أدَّت إلى اختفاء هذا الجيب، وأصبح الصف الداخلى من القوة والمتانة والانضباط، ما ينهى كل مظاهر التحدى والمخاتلة من المنافقين، وينتقل الحديث عن الأعراب خارج المدينة، وهذه هى ثمرة التربية العظيمة خلال ثلاث سنوات من الجهد الدؤوب فى البناء والتكوين، حتى ليسير - كما سبق وقلنا - : قادة المنافقين مع الجيش الإسلامى إلى مكة، ولا يجرؤون على إبداء رأيهم فى التخلف، وإن كانت نفثات قلوبهم تنفخ السم، ويكفى أن نعرض صورتين لهذين الزعيمين ، تعريهما من الداخل، وقد شهدا معجزة فوران الماء بالبئر.

يقول ناجية بن الأعجم رضي الله عنه :(... وعلى الماء يومئذ نفر من المنافقين، الجدُّ بن قيس ،وأوس، وعبد الله بن أبى ، وهم جلوس ، ينظرون إلى الماء ، والبئر تجيش بالرواء ، وهم جلوس على شفيرها . فقال أوس بن خولى(١) :

---

(١) أوس بن خولى هذا غير أوس ثالث المنافقين المذكور معهم .

ويحـــك يا أبا الحباب [1] ، أمـا آن لك أن تبصـر ما أنت عليه ؟ أبعـد هـذا شيء ؟ وردنا البئر يتربض[2]ماؤها فتوضأ رسول الله ﷺ فى الدلو، ومضمض فاه فى الدلو، ثم أفرغ الدلو ونزل بالسهم فحثحثها [3] فجاشت بالرواء. قال: يقول ابن أبى: قد رأيتُ مثل هذا. فقال أوس: قبحك الله وقبَّح رأيك ! فيقبل ابن أبى يريد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: « أى أبا الحباب، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟ » [4] فقال: ما رأيت مثله قط. قال: « فلم قلت ما قلت ؟ » قال ابن أبى: أستغفرُ الله! قال ابنه: يا رسول الله استغفر له! فاستغفر له رسول الله) [5].

هذا موقف ابن أبى من معجزة فوران الماء فى البئر، وأما موقفه من المطر، فكما نقل أبو قتادة رضي الله عنه سمعت ابن أبى يقول ونحن بالحديبية ومطرنا بها فقال ابن أبى: هذا نوء الخريف، مطرنا بالشِّعرى [6] .

هذا عن عبد الله بن أبى ، فماذا عن الجد بن قيس؟

يروى لنا أبو قتادة ، الحارث بن ربعى، وهو من بنى سلمة قبيلة الجد نفسه. فيقول: لما نزلنا الحديبية والماء قليل سمعت الجد بن قيس يقول: ما كان خروجنا إلى هؤلاء القوم بشىء! نموت من العطش عن آخرنا ! فقلت: لا تقل هذا يا أبا عبد الله ، فلم خرجت؟ قال: خرجت مع قومى. قلت: فلم تخرج معتمراً ؟ قال: لا والله ، ما أحرمت. قال أبو قتادة: ولا نويت العمرة ؟! قال: لا.

فلما دعا رسول الله ﷺ الرجل فنزل بالسهم، وتوضأ رسول الله ﷺ فى الدلو ومَّج فاه فيه، ثم ردَّه فى البئر، فجاشت البئر بالرواء. فقلت: أبا عبد الله! أين ما قلت؟ قال: إنما كنت أمزح معك لا تذكر لمحمد مما قلتُ شيئًا. قال أبو قتادة: وقد كنتُ ذكرته قبل ذلك للنبى ﷺ. قال: فغضب الجدُّ .وقال: بقينا مع صبيان من قومنا لا يعرفون لنا شرفاً ولا سنًا، لبطن الأرض خير من ظهرها. قال أبو قتادة: وقد كنت ذكرت قوله للنبى ﷺ . فقال: «ابنه خير منه» .

قال أبو قتادة : فلقينى نفر من قومى فجعلوا يؤنبوننى ويلوموننى حين رفعت مقالته إلى رسول الله ﷺ .فقلت لهم: بئس القوم أنتم ! ويحكم ! عن الجدِّ بن قيس تذبون ؟ قالوا: نعم ،كبيرنا وسيدنا. فقلت : قد والله طرح رسول الله سؤدده عن بنى

---

(١) أبو الحباب هو عبد الله بن أبى .

(٢) يتربض : يخرج فى القعب جرعة ماء .

(٣) حثحثها : حرّكها .

(٤) إشارة إلى أن الوحى أعلم رسول الله ﷺ بما قال ابن أبى .

(٥) المغازى للواقدى ٢/٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٦) المصدر السابق ٢/ ٥٩٠ .

سلمة وسود علينا بشر بن البراء بن معرور، وهدمنا المنامات التى كانت على باب الجد، بنيناها على باب بشر بن البراء، فهو سيدنا إلى يوم القيامة (١).

هذا الجد مع المعجزة، فأين الجد مع البيعة ؟

يتابع أبو قتادة حديثه فيقول : فلما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة فرَّ الجد بن قيس فدخل تحت بطن البعير ، فخرجت أعدو ، وأخذت بيد رجل كان يكلمنى فأخرجناه من تحت بطن البعير . فقلت : ويحك ما أدخلك ها هنا ؟ أفرارًا مما نزل به روح القدس ؟ قال : لا ولكنى رُعبتُ وسمعت الهيعة (٢) . قال الرجل :لا نضحت (٣) عنك أبدًا وما فيك خير ، فلما مرض الجد بن قيس ونزل به الموت لزم أبو قتادة بيته فلم يخرج حتى مات ودفن (٤) .

وإذا كان العرب فى الجاهلية يفاخرون بأكرم خصلتين، ويعقدون عليها المفاخر كلها، وهما الكرم والشجاعة ، فنحن نجدها مفقودة عند الجد بن قيس، فها نحن شهدنا شجاعته أثناء البيعة، أما بخله فنشهده من سبب نزع الزعامة منه ،كما أشار أبو قتادة لذلك:

فقد روى الزهرى عن طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن النبى ﷺ قال: «من سيدكم يا بنى سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس. قال: بم تسودونه؟ فقالوا: إنه أكثرنا مالاً وإنا على ذلك لنزنه بالبخل. قال: « وأى داء أدوأ من البخل ، ليس ذا سيدكم ». قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال: « بشر بن البراء بن معرور (٥) » .

تابعه ابن إسحاق عن الزهرى وقال فى روايته: «بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء» (٦) .

وحين نقارن بين الجو فى أحد، حين ينفصل ابن أبى بثلث الجيش .ويقول: أطاعهم وعصانى، لا ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس، وبين موقفه اليوم وهو يمضى جنديًا فى الجيش، لا عزوة له ولا نصير، وقلبه يرتجف أن يعرف الناس ما قال ، وحين نقارن بين الجو فى أحد حين يهم الجد بن قيس أن ينفصل ببنى سلمة ، لكن القيادات المسلمة منعته وبين موقفه اليوم وهو يرتعب أن يعرف محمد مقالته، ندرك فى هذه المقارنة، كيف أن معسكر النفاق قد انتهى وجوده، وإن كان بقى بعض الأشخاص فى

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٥٩٠ ، ٥٩١ .
(٢) الهيعة: الصوت تفزع منه وتخافه من عدو.
(٣) نضح عنه: ذبَّ عنه ودافع عنه.
(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٥٩٠ ، ٥٩١ .
(٥) لعل هذا كان بعد أحد حيث قتل سادات بنى سلمة عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح .
(٦) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١ /١ / ١٥١ .

الخفاء يتحركون دون جدوى.

ولهذا نجد الآيات القرآنية فى سورة الفتح لا تتحدث عن المنافقين فى المدينة أى حديث إنما تذكر اسمهم عرضًا مع الكافرين، إنما تركز الآيات فى حشد ضخم حول المعسكر الجديد الذى بدأ ينضم إلى المدينة من خارج المدينة.

وهو معسكر القبائل العربية المجاورة بأعداد ضخمة، وكيف أن هؤلاء عندما استنفروا تثاقلوا عن الخروج ، كما يصفهم القرآن الكريم فى سبع آيات متتاليات ، فيضع المجهر عليهم ؛ ليحرق موقعهم الذى يعيشون فيه، ويحصر خطرهم من أن يمتد إلى غيرهم :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً . قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١).

والملاحظ من الآيات أنها لا تشير إلى أن المخلَّفين من الأعراب هم من المنافقين، إنما هم من ضعاف الإيمان الذين لم يتعمق الإيمان فى قلوبهم بعد، ولم يملأ كل ذرات كيانهم، وكما وصفهم النص : (ومرَّ فيما بين مكة والمدينة بالأعراب من بنى بكر ومزينة وجهينة فاستنفرهم فتشاغلوا بأموالهم .وقالوا فيما بينهم:

يريد محمد يغزو بنا إلى قوم معدِّين فى الكراع والسلاح،وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور، لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبدًا قوم لا سلاح معهم ولا عدد).

هذه النماذج خارج الصف الإسلامى فى المدينة سوف تتجه الطاقات لتربيتها فيما

(١) الفتح / ١١- ١٧ .

بعد، وذلك بعد أن وجه القائد الأعظم ﷺ وصحبه الأبرار كل طاقاتهم لعملية البناء فى الداخل.

د ـ عدد المسلمين وفضلهم :

وحين نذكر أن عدد المسلمين فى أحد كان سبعمائة ، إذا استثنينا المنافقين ، نجد أن العدد هنا قد تضاعف وزاد عن الضعف ، بينما بلغ أربعة أضعاف أهل بدر. وننقل هنا ما ذكره الحافظ ابن حجر عن عدد أهل الحديبية :

(ووقع فى رواية اسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء كنا أربع عشرة مائة، وفى رواية زهير عنه : أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة أو أكثر،ووقع فى حديث جابر الذى بعده من طريق سالم بن أبى الجعد عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة ، ومن طريق قتادة قلت لسعيد بن المسيب: بلغنى عن جابر أنهم كانوا أربع عشرة مائة .فقال سعيد: حدثنى جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة. . .والجمع بين هذا الاختلاف : أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة. فمن قال : ألفًا وخمسمائة جبر الكسر. ومن قال : ألفًا وأربعمائة ألغاه،ويؤيده قوله فى الرواية الثالثة من حديث البراء : ألفًا وأربعمائة أو أكثر، واعتمد على هذا الجمع النووى ، وأما البيهقى فمال إلى الترجيح وقال : إن رواية من قال : ألف وأربعمائة أصح. . .وأما قول عبد الله بن أبى أوفى : ألفًا وثلاثمائة فيمكن حمله على ما اطلع عليه،واطَّلع غيره على زيادة من الناس لم يطلع هو عليهم،والزيادة من الثقة مقبولة . . .وأما قول ابن إسحاق : إنهم كانوا سبعمائة فلم يوافَق عليه ؛ لأنه قاله استنباطًا من قول جابر . . . وجزم موسى بن عُقبة بأنهم كانوا ألفًا وستمائة، وفى حديث سلمة بن الأكوع عند ابن أبى شيبة ألفًا وسبعمائة . وحكى ابن سعد أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين وهذا إن ثبت تحرير بالغ ، ثم وجدته موصولاً عن ابن عباس عند ابن مردويه ، وفيه رد على ابن دحية حيث زعم أن سبب الاختلاف فى عددهم أن الذى ذكر عددهم لم يقصد التحديد ، وإنما ذكره بالحدس والتخمين ـ والله أعلم) [(١)] .

وتجمع أكثر الروايات وأصحها على أن العدد ألفًا وأربعمائة أو ألف وخمسمائة، وهو ترجيح النووى بجبر الكسر وعدمه .

ولكن الذى يؤسفنا هو غياب الإحصاءات الفردية لجيل الحديبية ، ففى بدر قدَّم كُتاب السيرة سجلاً إحصائيًا كاملاً عن طبقة بدر بالأسماء ، وآخر إحصاء شهدناه فى

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

السيرة هو سجل الشهداء السبعين فى أحد ، لكننا نفتقد بعد ذلك الإحصائيات لطبقة الخندق والحديبية.

هذا وإن افتقدنا هذه الأسماء الخمسمائة والألف، غير أننا أمام تكوين جديد وانصهار جديد بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وبين الذى اتبعوهم بإحسان أطلق القرآن عليهم اسم ﴿ **اَلَّذِينَ مَعَه** ﴾ وهم الصحابة الذين مع رسول الله ﷺ كما فى الآية القرآنية آخر سورة الفتح: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَه...** ﴾ [1] ، وهذا يعنى تكون طبقة جديدة بعد طبقة بدر، هى طبقة الحديبية، تشكل نسيجًا واحدًا ولحمة متكاملة. نتابع كل معالمها من فم رسول الله ﷺ.

١ ـ (قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: « أنتم خير أهل الأرض » ، وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة) [2] .

٢ ـ ويتحدث الحافظ ابن حجر العسقلانى ـ رحمه الله ـ شارحًا هذا النص بقوله: قوله : (قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: « أنتم خير أهل الأرض » هذا صريح فى فضل أصحاب الشجرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما . وعند أحمد بإسناد حسن عن أبى سعـيد الخدرى .قال : لما كان بالحديبية قال النبى ﷺ : « لا توقدوا ناراً بليل »، فلما كان بعد ذلك .قال : « أوقدوا واصطنعوا فإنه لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدَّكم » ، وعند مسلم من حديث جابر مرفوعاً : « لا يدخل النار من شهد بدراً والحديبية » ، وروى مسلم أيضاً من حديث أم مبشر أنها سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة» [3] .

٣ـ (وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ :« من يصعد الثَّنية ثَنِيَّة المُرار فإنه يحط عنه ما يحط عن بنى إسرائيل ». قال: فكان أول من صعدها خيلنا خيل بنى الخزرج، ثم تتام الناس فقال رسول الله ﷺ: « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ .فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم) [4] .

٤ ـ عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « أتاكم أهل اليمن كأنهم قطع السحاب هم خير من على الأرض » .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٤٣ برقم (٤١٥٤) .

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٤٤٤ .

(٤) صحيح مسلم ٤ / ٢١٤٤ برقم (٢٨٨٠) .

قال رجل من الأنصار: ولا نحن يا رسول الله؟ فسكت رسول الله ﷺ ثلاثًا ثم الرابعة قال قولاً ضعيفًا : « إلا أنتم »(1).

فنحن إذن أمام طبقة جديدة، هى طبقة الحديبية، لها سمات ثلاث كما فى النصوص الصحيحة.

الأولى: أنهم خير أهل الأرض .

الثانية: غفر الله لهم جميعًا .

الثالثة: لا يدخل منهم أحد النار .

وهم مكونون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين ، ومن التابعين الذين اتبعوهم بإحسان ، وهم الذين شملهم التعبير القرآنى: ﴿ الَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، وإن كان هذا التعميم لا يُدخل فى صفهم أفراد المنافقين، وزعماءهم عبد الله بن أبى ، والجد بن قيس ، وأمثالهم إن كان لهم وجود فى هذا الصف، فقد ذكرت كتب السيرة الجد بن قيس هذا أنه لم يكن ممن بايع تحت الشجرة ، وبقى مختبئاً فى ظل ناقته . (وقال أبو بكر الحميدى : حدثنا سفيان ،حدثنا أبو الزبير،حدثنا جابر رضي الله عنه قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلا منا يقال له : الجد بن قيس مختبئًا تحت إبط بعيره . رواه مسلم من حديث ابن جريج عن ابن الزبير به) (2) .

ثم أورد حديث الإمام أحمد بقوله: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس ، حدثنا الليث عن أبى الزبير عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »(3) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن هارون الفلاس المحرمى عن. . . أبى الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر » قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره فقلنا : تعال فبايع ، قال: أصيب بعيرى أحب إلىَّ من أن أبايع .

(وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابرًا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة ـ رضى الله عنها ـ: « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » ، قالت : بلى يا رسول الله .

---

(1) المغازى للواقدى ٢ / ٥٨٦ .
(2) صحيح مسلم ٣ / ١٤٨٣ (٦٩/١٨٥٦) .
(3) مسند أحمد ٣ / ٣٥٠ .

فانتهزها فقالت حفصة ـ رضى الله عنها ـ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فقال النبى ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[١]»رواه مسلم[٢])[٣] .

فالنصوص الصحيحة تتضافر كلها على أن أصحاب الشجرة ،هم الذين بايعوا تحتها أو أصحاب الحديبية ، هم الذى بايعوا يوم الحديبية ، فقد تواترت الشهادة من رب السموات والأرض إذن أن هذه المجموعة الفريدة فى هذا الوجود ،وهم خيرة أهل الأرض ،وأنها كلها من أهل الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر. والذى تلكأ عن البيعة مختبئًا تحت ظل ناقته ، وهذا الأخير لم يدخل فى هذا العموم لأنه لم يبايع ، لكن مصيره إلى الله ـ عز وجل. وهذا يعنى كذلك أن التفوق العظيم ، الذى حققته التربية النبوية أدخل أربعة أضعاف جيل بدر فى هذه الخصوصية الفريدة.

وحين نمعن النظر فى تكوين هذه المجموعة الفريدة الخالدة ، نقف عند تكوينها الجديد بالمقارنة مع تكوين أهل بدر. قال ابن إسحاق : (فجميع من شهد بدرًا من المسلمين من المهاجرين والأنصار من شهدها منهم، ومن ضُرب له بسهمه وأجره ثلاث مائة رجل وأربعة عشر رجلا ،من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً ،ومن الأوس واحد وستون رجلاً، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً [٤] .

أما فى الحديبية كانت من قبيلة أسلم كما فى النصوص الصحيحة ثمن المهاجرين .

و (قوله : ثمن المهاجرين. ولم أعرف عدد من كان بها من المهاجرين خاصة ليُعرف عدد الأسلميين، إلا أن الواقدى جزم بأنه كان مع النبى ﷺ فى غزوة الحديبية من أسلم مائة رجل. فعلى هذا كان المهاجرون ثمانمائة)[٥] ،فقد ارتفع إذن عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش كله. وبهذا يكون الأنصار ثمانمائة كذلك.

وهذا الارتفاع الهائل فى عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين إلى ثمانمائة كان معظمه من القبائل العربية المجاورة وهى قبائل صغيره ، إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يغدون إلى المدينة ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية فى كانوا يغدون إلى المدينة ، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية فى المسجد، والتربية العملية فى المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندية الخالصة، ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشؤون فى ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون فى الطاعة والامتثال لأمر الله

---

(١) مريم / ٧١ ، ٧٢ .
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٤٢ برقم (٢٤٩٦) .
(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٦/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٥ .
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٤٤ .

ورسوله ، فنالت قبائلهم بذلك شرفًا ربا على القبائل الكبرى التى تخاذلت وتأخرت فى الانضمام للإسلام .

فهذه أسلم وغفار على رأس هذه القبائل.

فعن خِفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة قال: «لعن الله لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله ، أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ثم خرَّ ساجدًا » فلما قضى الصلاة أقبل على الناس .فقال: « إنى لست أنا قلت هذا ولكن الله عز وجل قاله » (١).

ويرتفعون فى مكان آخر إلى مقام المهاجرين والأنصار بصفتهم القبلية لا بأفرادهم لأن كثيرًا من أفرادهم من المهاجرين.

فعن أبى رهم الغفارى وكان من أصحاب النبى ﷺ فى غزوة تبوك وأن رسول الله ﷺ قال له: « ... فإن أعز أهلى على أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش ، والأنصار،وأسلم ، وغفار » (٢) .

فقد كان عيون المهاجرين عند رسول الله ﷺ من قريش ،ومن أسلم ،ومن غِفار.

ويعود الفضل فى ذلك إلى الرعيل الأول منهم ، واللبنات الأولى التى انضمت إلى الدعوة إلى أبى ذر الغفارى الذى كان خامس من أسلم فى مكة،ومضى داعيًا فى قومه حتى جاءه بسبعين بيتًا من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد ، وانتظر النصف الثانى فانضم بعد الفتح وإلى بريدة بن الحصيب الأسلمى ، الذى تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة ، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك.

أما القبائل الأخرى من مزينة، وجهينة ،وأشجع ،وخزاعة، فقد بدأ شبابها يفدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة وبقى كيان القبيلة على الشرك، أو أسلم ، وبقى أعرابيًا بعيدًا عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يُتح له هذا الفضل ،والاعتراف من رحيق النبوة ، ولهذا وجدنا الآيات التى نزلت فى المخلفين من الأعراب كالصواعق على رؤوسهم ،لتخلفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلامى الماضى إلى الحديبية. وكما فى النص (فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذراريهم ،وهم بنو بكر ،ومزينة ،وجهينة فيقولون فيما بينهم : أيريد محمد يغزو بنا إلى قوم معدِّين مؤيدين فى الكراع والسلاح، وإنما محمد

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٨٨٢، وقال المحقق: « إسناده صحيح ».

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٨٥ برقم (١٦٧٤) ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح رواه مسلم وغيره ».

وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً (١) .

وهؤلاء الذين سينصب عليهم جهد التربية الضخم فى المرحلة القادمة.

ويمكن القول : إن الكيان القبلى الذى انضم إلى الإسلام حتى الحديبية. هم المهاجرون من قريش، والأوس والخزرج ،الذين مثلوا طبقة الأنصار العظمى فى المدينة، وقبيلة أسلم، وقبيلة غِفار ، لكن العدد الضخم الذى وصل إلى ثمانمائة إنما كان من أفراد من قبائل شتى هجرت قبائلها وقومها، وأتت تنضم إلى المجتمع الجديد فى المدينة. وقد خلعت عصبتها وانتماءها السابق ،وهو توفيق ربانى خالص، حيث إن هؤلاء الأفراد قد خلصوا ابتداءً من العصبية القبلية المقيتة ، وتخلوا عنها، وجاؤوا جنوداً فى حزب الله، لا يربطهم بقبائلهم إلا الاسم، وقد تكون قبائلهم ممَّن يعلن الحرب لله ورسوله، فلا يضيرهم ذلك ، بل يحاربونها إذا اقتضى الأمر ذلك ويتربون فى محضن النبوة العظيم على الولاء الخالص لله ورسوله، وهى حكمة ربانية إذن أن يتأخر دخول القبائل فى الإسلام لتتم التربية الخالصة والعناية الفائقة بكل فردٍ على حدة، توجيهًا وبناءً خالصًا من شائبة الانتماء القبلى، كما هو الحال فى بناء السّابقين الأولين من المهاجرين.

ثم انضموا إلى كتلة المهاجرين الأولين التى كانت تنمو باطراد وتتفوق على كتلة الأنصار فيم بعد، وها هى الآن تساويها فى العدد، وهذا سر قول رسول الله ﷺ فى الأنصار : « الأنصار كرشى وعيبتى ، وإن الناس سيكثرون وهم يقلون، فاقبلوا من محسنهم. وتجاوزوا عن مسيئهم » (٢) .

ونلاحظ هنا أننا نفتقد كثيراً جداً من الأسماء الذين هم خيرة أهل الأرض ، ولا تكاد تذكر إلا أسماء القيادات فيهم ، وإن كان أهل الحديبية وأهل بدر فيما بعد قد انتهت إليهم قيادة المسلمين ، وكانوا هم أهل الحل والعقد فى الأمة إضافة إلى مشيخة قريش وقادة الفتوح منهم،ومن أجل هذا نبحث بعناية عن كل اسم حمل هذا الشرف العظيم الخالد بايع تحت الشجرة، وهو الذى سنسهب فى الحديث عنه فى الفقرة التالية:

هـ ـ نماذج من اللبنات الجديدة :

١ ـ أبو قتادة :

وتاريخه حافل بالبطولات ، إنما نتناول بعض المقتطفات منه .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٤ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٨١٠ وقال المحقق : « إسناده صحيح رواه البخارى ٧ / ١٤٠ برقم (٣٨٠١) ، ومسلم وغيرهم » . وكرشى وعيبتى : بمعنى بطانتى وخاصتى كما فسرها ابن حجر .

أبو قتادة الأنصارى السلمى، فارس رسول الله ﷺ شهد أحدًا والحديبية، وله عدة أحاديث، اسمه: الحارث بن ربعى على الصحيح، وقيل: اسمه النعمان، وقيل: عمرو .

روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه عن النبى ﷺ، قال: «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة بن الأكوع» (١) .

الواقدى: حدثنا يحيى بن عبد الله بن أبى قتادة عن أمه عن أبيه قال: قال أبو قتادة: إنى لأغسل رأسى قد غسلت أحد شقيه، إذ سمعت فرسى جروة تصهل، وتبحث بحافرها . فقلت: هذه حرب قد حضرت، فقمت ولم أغسل شقَّ رأسى الآخر، فركبتُ وعلىَّ بُردة فإذا رسول الله ﷺ يصيح : «الفزع ! الفزع !» (٢) .

فهو إذن من الجيل الجديد بعد بدر، وفاز بلقب فارس رسول الله ﷺ، وفى الصحيح أنه خير الفرسان ونقارن بين موقفين طريفين له، ودور التربية فى ذلك :

الموقف الأول: ما رواه الذهبى فى السير: أيوب، عن محمد (ابن سيرين) ؛ أن النبى ﷺ أرسل إلى أبى قتادة فقيل: يترجَّلُ، ثم أرسل إليه، فقيل: يترجَّلُ ثم أرسل إليه، فقيل: يترجَّل. فقال: «احلقوا رأسه» فجاء. فقال: يا رسول الله، دعنى هذه المرَّة، فوالله لأُعتبنك (٣)) (٤) .

فكان أوَّل ما لقى قتل رأس المشركين مَسعدة.

معن القزاز: (حدثنا محمد بن عمرو، عن محمد بن سيرين ؛ أن رسول الله ﷺ رأى أبا قتادة يصلى ويتقى شعره، فأراد أن يَجُزَّه. فقال: يا رسول الله إن تركته لأرضينك، فتركه.

فأغار مسعدة الفزارى على سرح أهل المدينة، فركب أبو قتادة، فقتله، وغشاه ببردته) (٥) .

فشخصية أبى قتادة رضي الله عنه شخصية تهوى الجمال والزينة، وجاءه منادى رسول الله ﷺ فى المرة الأولى. فقيل: يترجل، أى يسرِّح شعره، وهذا أمر طبيعى قد يقع مع كل أحد، لكن الغريب أن يعود الطلب ثانية ومن رسول رب العالمين له. فيأتى الجواب:

---

(١) حديث رواه مسلم ٣/١٤٣٩ برقم (١٨٠٧)، وأحمد ٤/ ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٩ ، ٤٥٠.

(٣) أعتبه: ترك ما يُجِد عليه من أجله، ورجع إلى ما يرضيه عنه بعد إسخاطه عليه.

(٤) قال المحقق فيه: « الحديث مرسل ».

(٥) وكذلك قال المحقق فيه: « الحديث مرسل » ٢/ ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

يترجَّلُ، فكم إذن يأخذ من الوقت فى الاهتمام فى أن يكون شعره حسن، ومنظره جميل .

لقد حض الإسلام على الاعتناء بالشعر كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « من كان له شعر فليكرمه »(١) .

لكن أن يأخذ من وقته كل هذا الزمن ، ويتابع ترجيل شعره ، ويعتذر عن إجابة طلب رسول الله ﷺ لهذا السبب ، فهذا غريب تمامًا فى عالم الرجال.

وإذا بنا نفاجأ بالأغرب الأعجب، يطلبه رسول الله ﷺ للمرة الثالثة، فقيل له: يترجل، لقد غدا حبه للأناقة إذن مرضًا عضالاً، يمضى نهاره كله فى تصفيف شعره، وتحسين منظره، وإبراز هيأته، فلابد أن تكون العقوبة من جنس الذنب، وذلك حين اعتذر للمرة الثالثة بترجيل شعره فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « احلقوا رأسه ».

فلا يجوز أن تبقى مثل هذه العبودية للجمال فى الصف الإسلامى، ولدى رجل من صحب رسول الله ﷺ، فليعاقب بحلق شعره، وهو أعز ما يملكه حتى تُنتزع من قلبه هذه العادة المستحكمة، وتجتث من جذورها من نفسه، ويالها من عقوبة قاسية أشد القساوة على رجل بهذا التكوين، وبهذا الحب لشعره، وجمال منظره، أن يفقد شعره كله، فيفقد جمال شبابه، ونضارة منظره، فماذا فعل ، إنه لن يخالف أمر رسول الله ﷺ، وكاد قلبه يقتله من بين أضلعه لهذه العقوبة الصارمة القاصمة.

جاء إلى حبيبه المصطفى راجيًا معتذراً قائلاً: يا رسول الله ، دعنى هذه المرة، فوالله لأعتبنك.

ومتى كان الرجال عبدة الجمال أصحاب مواقف، وأصحاب عهود، إنهم يمضون عمرهم كله ، ولا تنتزع من نفوسهم أجزاء بسيطة من هذه العادات المستحكمة، وما نراه اليوم فى عالم الموضات لدى النساء والرجال ، وخضوعهم لها وعبوديتهم لها ، يوضح ذلك.

وبفراسة القائد الأعظم ﷺ ، بهذا الشاب الوسيم الأنيق، يقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتراجع عن العقوبة المعلنة ليدع له الفرصة الأخيرة كما يدعى فى مسح هذه الخطيئة الشنيعة، وقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يَدعَهُ فماذا كان؟!

كان ما رأيناه فى الحادثة السابقة التى تلتها:

قال أبو قتادة: إنى لأغسل رأسى، قد غسلتُ أحد شقيه إذ سمعت فرسى جروة

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢ / ١١٠٧ برقم (٦٤٩٣) .

تصهل، وتبحث بحافرها . فقلت: هذه حرب حضرت، فقمت ولم أغسل شِقّ رأسى الآخر، فركبت، وعليّ بردة فإذا رسول الله ﷺ يصيح: « الفزع ! الفزع !» .

إنه أعجب بناء ، وأعظم طراز فى تاريخ البشرية ، حيث يعالج سيد البشرية تربية قادة البشرية.

إنه قبل عهده مع حبيبه الأعظم ﷺ ينادى أولاً وثانيًا وثالثًا. فيقال: إنه يترجَّلُ.

وهنا بعد عهده مع حبيبه، وقد غسل شق رأسه الآخر، وامتطى فرسه كالبرق الخاطف ليسمع النداء العام : « الفزع !الفزع !» ومضى مع الجيش ، لنسمع تتمة المشهد الخالد :

قال: فأدرك المقداد، فسايرته ساعة، ثم تقدَّمه فرسى، وكان أجود من فرسه، وأخبرنى المقداد بقتلِ مسعدة [1] محرزًا ـ يعنى ابن نضلة . فقلت للمقداد: إما أن أموت، أو أقتلَ قاتل محرز فضرب فرسه، فلحقه أبو قتادة فوقف له مسعدة، فنزل أبو قتادة فقتله، وجنَّب فرسه معه [2] .

وسندع الخوض فى التفاصيل إلى البحث القادم، فقد كانت هذه المعركة بعد الحديبية مباشرة ، لكن يكفى أن نقول هنا :إنه فاز بهذا اللقب :(فارس رسول الله) فى هذه المعركة، وفاز بهذه الميدالية الذهبية العليا ،بهذه المعركة:« خير فرساننا أبو قتادة » .

فإذا الشاب الأنيق، المستعبد لهواه، فى تصفيف وترجيل شعره ينشغل به عن إجابة قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثلاث مرات، هو هو نفسه الفارس الأول فى الإسلام، والذى بذَّ المقداد. صاحب أول فرس فى الإسلام فى بدر، ولكن هذا لا يعنى أبدًا أن شخصيته قد تغيرت ، فهو لا يزال يحب الأناقة والجمال والمنظر الوسيم .قال قتادة: كان أبو قتادة يلبس الخز [3] .

ولننظر إلى هذا التعاطف العميق بين القائد الأعظم ﷺ ، وبين جنديه البطلِ الذى صدق وعده ، وقتل أسر العدو. قال: فلما مر الناس تلاحقوا ونظروا إلى بُردتى، فعرفوها .وقالوا: أبو قتادة قُتل! فقال رسول الله ﷺ: « لا، ولكنه قتيل أبى قتادة عليه برده، فخلوا بينه وبين سلبه وفرسه » . قال: فلما أدركنى قال: « اللهم بارك له فى شَعرِه وبَشَرِه، أفلح وجهك، أقتلت مَسعَدة ؟» . قلت: نعم ،ها هى فراسة النبوة

(١ ، ٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٤٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٤٥٦ وقال المحقق فيه : « روى الطبرانى فى الكبير . . . عن عمار بن أبى عمار قال : رأيت زيد بن ثابت ، وابن عباس ، وأبا هريرة ، وأبا قتادة يلبسون مطارف الخز . قال : الهيثمى فى المجمع ٥ / ١٤٥ : « ورجاله رجال الصحيح » .

العظمى تتحقق، ففى الوقت الذى قدَّر الجيش كله أن أبا قتادة قتيل مسجى ببرده ، كان جواب رسول الله ﷺ: « لا ، ولكنه قتيل أبى قتادة عليه بُرده».

ونقترب من أعماق قلب المربى الأعظم ﷺ لنسمع هذا الدعاء الخالد:

« اللهم بارك له فى شعرِه وبَشَرِه ».

الشعر الذى صدر الحكم عليه قبل فترة وجيزة بالحلق للتلكؤ فى الإجابة ثلاث مرات ، هو هو نفسه يُدعى له بالبركة والنماء، فقد أرضى الجندى قائده الحبيب، وذبح قائد العدو مسعدة.

ونختم هذا المشهد فى اقتراب أخفى وأدق كما يحدثنا بطلنا العظيم أبو قتادة.

قال: «اللهم بارك له فى شعره وبشره، أفلح وجهك ، قتلت مسعدة؟» قلت: نعم. قال: « فما هذا الذى بوجهك؟ » قلت: سهم رُميتُ به. وهذا السهم يعنى أنه قد يشوِّه هذا الوجه الجميل الوسيم الأنيق، وأثر الضربة قد تفقده جماله كله. و قلت : سهم رميت به. قال: « فادن منى » فبصق عليه،وكأن هذه البصقة تعادل آلاف عمليات التجميل للوجه فى أرقى مدن العالم اليوم فى أوربا وأمريكا .

فما ضرب علىَّ قط ولا قاح.

فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابن خمس عشرة سنة .

دعوة واحدة، وبصقة واحدة للفارس البطل المرمى بالسهم من رسول الله ﷺ كفتاه للمحافظة على جماله ،ورونقه ووسامته حتى وهو ابن السبعين، فكأنما هو ابن خمس عشرة سنة. قال: « وأعطانى فرس مسعدة وسلاحه» (1).

ولنشهد بطولته ومعركته مع مسعدة فى رواية أخرى عن ابنه عبد الله .قال:

(إن أبا قتادة اشترى فرسه مـن دواب دخلت المدينة ،فلقيه مسعدة الفزارى . فقال : يا أبا قتادة،ما هذا الفرس ؟ فقال أبو قتادة :فرس أردت أن أربطها مع رسول الله ﷺ . فقال : ما أهون قتلكم وأشد جرأتكم . قال أبو قتادة : أما إنى أسأل الله ـ عز وجل ـ أن ألقينك وأنا عليها . قال : آمين .

فبينا أبو قتادة ذات يوم يعلف فرسه تمرا فى طرف بردته إذ رفعت رأسها ، وصرت أذنيها .فقال : أحلف بالله لقد حست بريح خيل . فقالت له أمه : والله يا بنى ما كنا نرام فى الجاهلية فكيف حين جاء الله بمحمد ﷺ ؟ ثم رفعت الفرس أيضاً رأسها

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٤٥٠ وقال المحقق : « الخبر فى الواقدى ٢ / ٥٤٤ ، وانظر : المعجم الصغير ٢/ ١٥٢ للطبرانى، والمستدرك ٣ / ٤٨٠ والاستيعاب ١٢/ ٨٩ والإصابة ١١/ ٣٠٣ » .

وصرّت أذنيها . فقال : أحلف بالله لقد حست بريح خيل ، فوضع عليها سرجها ، فأسرجها وأخذ سلاحه ثم نهض ، حتى أتى مكاناً يُقال له : الزوراء ، فلقيه رجل من الصحابة .فقال له : يا أبا قتادة تُشَوِّط[1] دابتك وقد أخذت اللقاح ! وقد ذهب النبى فى طلبها وأصحابه . فقال : أين ، فأشار له نحو الثنية . فإذا بالنبى ﷺ فى نفر من أصحابه جلوساً عند باب ، فقمع دابته ثم خلاها فمرّ بالنبى ﷺ. فقال له : « امض يا أبا قتادة صحبك الله » . قال أبو قتادة :فخرجت فإذا إنسان يحاكينى فلم أنشب أن هجمنا على العسكر . فقال لى : يا أبا قتادة ما تقول ، أما القوم فلا طاقة لنا بهم . فقال أبو قتادة : تقول : إنى واقف حتى يأتى النبى ﷺ ؟! أريد أن تشد فى ناحية وأشد فى ناحية فوثب أبو قتادة فشق القوم ورُمى بسهم فوقع فى جبهته قال أبو قتادة : فنزعت قدحه وأنا أظن أنى قد نزعت الحديدة ومضيت على وجهى فلم أنشب أن طلع علىّ فارس على فرس فاره[2]،وأداة كليلة[3] على وجهه مغفر له ، فأثبتنى[4] ولم أثبته. فقال : لقد لقانيك الله يا أبا قتادة ، وكشف عن وجهه فإذا مسعدة الفزارى . فقال: أيما أحب إليك ، مجالدة أم مطاعنة أم مصارعة ؟قال : فقلت : ذاك إلى الله ـ عز وجل ـ وإليك . قال : فقال : صراع . فأحال رجله عن دابته ، وأحلت رجلى عن دبتى . ثم علقت دابتى وسلاحى إلى شىء وعلق دابته وسلاحه إلى شىء ، ثم تواثبنا فلم أنشب أن رزقنى الله عز وجل الظفر عليه، فإذا أنا على صدره ، فوالله إنى لمن أهم الناس من رجل متأبط قد عالجت منه ما عالجت أن أقوم فآخذ سيفى أن يقوم فيأخذ سيفه وأنا بين عسكرين لا آمن أن يهجم علىّ أحدهما ، إذا شىء يمس رأسى فإذا نحن قد تعالجنا حتى بلغنا سلاح مسعدة ،فضربت بيدى إلى سيفه ، فلما رأى أن السيف قد وقع بيدى قال :يا أبا قتادة ، استحينى[5] قال : قلت : لا والله أو ترد أمك الهاوية . قال : يا أبا قتادة ، فمن للصبية ؟ قلت : النار . قال: ثم قتلته ثم أدرجته فى بردى ، ثم أخذت ثيابه فلبستها ، وأخذت سلاحه ثم استويت على فرسه ، وكانت فرسى نفرت حين تعالجنا ، فرجعت راجعة إلى العسكر فعرقبوها[6] ، ثم مضيت على وجهى ، فلم أنشب أنا حتى أشرفت على ابن أخيه وهو فى سبعة عشر فارساً .قال : فألحت لهم فوقفوا ، فلما أن دنوت منهم حملت عليهم حملة فطعنت ابن أخيه طعنة دققت صلبه،

---

(١) تشوط : تجرى فرسك .
(٢) فاره : الخفيف النشيط .
(٣) كليلة : محيطة من جميع جوانبه .
(٤) أثبتنى : عرفنى .
(٥) استحينى : أبقنى .
(٦) عرقبوها : عقلوها من رجلها .

وأكشف من معه، وحبست[1] اللقاح برمحى ، وأقبل النبى ﷺ ومن معه من أصحابه فلما نظر إليهم العسكر فرّوا) [2] .

٢ ـ كعب بن عجرة :

وهذه صورة مقابلة لفتانا وفارسنا أبى قتادة رضي الله عنه سبق أن تحدثنا عنها من قبل،وهى اللبنة الثانية التى تعرّفنا عليها ممن شهد الحديبية صورة كعب بن عجرة رضي الله عنه كما وردت فى الإصابة :

هو (كعب بن عجرة بن. . . سواد بن مرى بن أراشة البلوى حليف الأنصار . . . وزعم الواقدى أنه أنصارى من أنفسهم ورده كاتبه محمد بن سعد بأن قال: طلبت نسبه من الأنصار فلم أجده . . . شهد عمرة الحديبية ونزلت فيه قصة الفدية وقد أخرج ذلك فى الصحيحين من طرق منها رواية ابن نجيح. . . أن النبى ﷺ مرَّ به وهو محرم يوقد تحت قِدْر، والقمل يتهافت على وجهه. فقال له : « احلق رأسك وأطعم فَرْقًا بين ستة مساكين » الحديث، وفى بعض طرقه : ما كنت أظن أن الوجع بلغ ما ترى، وفيها قال كعب : فكانت لى خاصة وهى لكم عامة. . .) [3] .

فتاريخه رضي الله عنه هو هذه القصة فى عمرة الحديبية ، لا نعرف شيئًا عنه من قبل، وكما ترد قصة سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ فى كتاب الله ـ عز وجل. وتعقبها قصة أيوب ـ عليه السلام ـ فى قمة النعمة والشكر، وقمة البلاء والصبر ترد القصتان هنا كذلك، وكلا النموذجين يحتويهما الإسلام فى الطاعة والاحتساب لله.

﴿ . . . هَـذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ . وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [4] .

نجد هنا أبا قتادة الذى يضع ثمن عدم حلق رأسه روحه وفاء بعهده. فقلت للمقداد: إما أن أموت وإما أن أقتل قاتل محرز.

ونجد كعب بن عجرة رضي الله عنه منسك شاة أو بقرة فى بعض الروايات ثمن حلق رأسه الذى قتله القمل من الأذى والاحتساب لله فى الإحرام.

---

(١) حبست : أشرت .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ١٩١ ، ١٩٢ .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م ٣ / ج ٥ / ٣٠٤ .
(٤) ص / ٣٩ ـ ٤٤ .

كل هذا يضمه الجيش الواحد، والقيادة الواحدة التى تستوعب النماذج البشرية كلها فى حزب واحد ، هو حزب الله ورسوله.

ثم تنقل لنا الإصابة حادثتين مهمتين:

الأولى: وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن. . . كعب بن عجرة قال: أتيت النبى ﷺ يومًا فرأيته متغيرًا، فذهبت فإذا يهودى يسقى إبلاً له فسقيت له على كل دلو بتمرة فجمعت تمرًا فأتيت النبى ﷺ الحديث.

حيث يمثل هذا الحديث مدى الجهد والفاقة الذى عانى منه المسلمون، وكعب أحد هذه النماذج حتى ليسقى على كل دلو بتمرة، ويمثل التوجيه والتربية النبوية فى الحث على العمل ، والكسب مهما كان الكسب ضعيفًا فهو خير من أن يتكفف الناس أعطوه أو منعوه .

والثانية: (وأخرج ابن سعد بسند جيد عن ثابت بن عبيد أن يد كعب قطعت فى بعض المغازى) لتبرز الجانب الجهادى عنده ، واحتسابه حياته فى سبيل الله ، لنتعرف بعدها على أنه كان شابًا فى الرابعة والعشرين يوم انضم إلى الإسلام، وكان فى الثلاثين من عمره يوم شهد عمرة الحديبية ، حين نعلم أنه توفى سنة واحد وخمسين وعمره خمس وسبعون سنة رضي الله عنه .

٣ـ خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى:

وهو ابن سيد غفار كما يحدثنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه فى قصة إسلامه فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارًا ، فأسلم نصفهم ، وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفارى، وكان سيدهم. وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقى، وجاءت أسلم . فقالوا : يا رسول الله،إخوتنا. نسلِمُ على الذى أسلموا عليه، فأسلموا فقال رسول الله ﷺ: « أسلم سالمها الله ، وغِفار غفر الله لها »(١).

وعن الالتباس بين خُفاف وابنه يحدثنا فى الإصابة ابن حجر فيقول:

(ولكن ذكر أحمد فى هذا الحديث الاختلاف على رواية سليمان بن المغيرة :هل هو خُفاف بن إيماء أو أبوه إيماء بن رحضة ؟ وعلى هذا فيمكن أن يكون إسلام خفاف تقدَّم على إسلام أبيه والله أعلم، وذكر الزبير بن بكار من حديث حكيم بن حزام أن إيماء بن رحضة حضر بدرًا مع المشركين فيكون إسلامه بعد ذلك، وذكر ابن سعد أنه

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٢٢ برقم (٢٤٧٣) .

أسلم قريبًا من الحديبية وهذا يعارض رواية مسلم) [١].

ويكفينا من رواية البخارى شهادة عمر رضي الله عنه فى خُفاف بن إيماء :

(والله إنى لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا ففتحاه، ثم أصبحنا نستفىء سهماننا فيه) .

فهذا هو جانب من جهاده المغمور ما كان لنا أن نعرفه لولا حاجة ابنته وشهادة عمر رضي الله عنه فيه . وإذا عرفنا جانب الجهاد لدى هذا العظيم وأبيه ، ونرى وقوف ابنة خفاف بباب أمير المؤمنين تطلب المعونة فيطالعنا جانب الجود فى هذا البيت من خلال رواية الواقدى :

(وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث عن جَده عن أبى رهم الغفارى قال:

لما نزلوا بالأبواء (فى المسير إلى الحديبية) أهدى إيماء بن رحضة جُزُرًا ومائة شاة، وبعث بها مع ابنه خُفاف بن إيماء، وبعيرين يحملان لبنًا، فانتهى بهما إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبى أرسلنى بهذه الجُزُر واللبن إليك. فقال رسول الله ﷺ: «متى حللتم ها هنا»؟ قال: قريبًا كان ماءً عندنا قد أجدب فسقنا ماشيتنا إلى ماء هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: « فكيف البلاد ها هنا؟ » قال: يتغذى بعيرها، وأما الشاة فلا تذكر، فقبل رسول الله ﷺ هديته، وأمر بالغنم ففرق فى أصحابه وشربوا اللبن عُسًا عُسًا[٢] حتى ذهب اللبن، وقال: «بارك الله فيكم») [٣] .

وإن كان ابن حجر قد وصف خُفاف بقوله: (كان إمام بنى غفار وخطيبهم)[٤] مرجحًا أنه هو الذى أسلم وقاد غفار منذ بدر إلى الإسلام. والروايات جميعًا تشير إلى أنه حضر بيعة الرضوان. وكان فيمن رضى الله عنهم من المؤمنين المبايعين.

٤ـ أبو رهم الغفارى:

وهو الذى روى لنا هدية سيدهم إيماء بن رحضة .قال:(لما نزلوا بالأبواء أهدى إيماء بن رحضة جزرًا ومائة شاة وبعث بها مع ابنه خفاف بن إيماء وبعيرين يحملان لبنًا. . .) [٥].

أما الحديث عنه فكما ذكره الحافظ ابن حجر :(اسمه كلثوم بن حصين بن. . . حماس بن غِفار الغفارى مشهور باسمه وكنيته ، كان ممن بايع تحت الشجرة، واستخلفه

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ١/ ٩٣ .
(٢) العُس: القدح الكبير.
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٧ .
(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٢/ ١٣٨ .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٧ .

النبى ﷺ على المدينة فى غزوة الفتح . . . وقال ابن سعد : بعثه النبى ﷺ يستنفر قومه إلى تبوك . . . وذكر أبو عروبة أنه رمى بسهم فى نحره يـوم أحد فبصق به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فبرأ) [1] .

قال محمد بن عمر : حدثنا عن جانب من التربية لأبى رهم رضي الله عنه بينا رسول الله ﷺ يسير من الطائف إلى الجعرانة وأبو رهم الغفارى إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة له وفى رجليه نعلان له غليظتان إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ قال أبو رهم: فوقع حرف نعلى على ساقه فأوجعه .فقال رسول الله ﷺ: « أوجعتنى أخِّر رجلك » وقرع رجلى بالسوط، فأخذنى ما تقدَّم من أمرى وما تأخر، وخشيت أن ينزل بى قرآن لعظيم ما صنعت، فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظهر وما هو يومى فرقًا (خوفًا) أن يأتى للنبى ﷺ رسول يطلبنى، فلما روَّحت الركاب سألت. فقالوا: طلبك النبى ﷺ فقلت: إحداهن والله، فجئته وأنا أترقب. فقال: « إنك أوجعتنى فقرعتك بالسوط وأوجعتك فخذ هذه الغنم عوضًا عن ضربتى » قال أبو رُهم: فرضاه عنى كان أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها [2].

بهذه الروح السامية كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتناول جفاة الأعراب هؤلاء وسراق الحجيج ، ليرفعهم من الوهدة السحيقة التى كانوا فيها، فتصبح السعادة الكبرى لديهم رضاء رسول الله ﷺ.

(ولم يزل أبو رهم مع النبى ﷺ بالمدينة يغزو معه إذا غزا ، وكان له منزل ببنى غِفار) [3].

٥ـ خالد بن عباد الغفارى:

قال أبو عمر:(هو الذى دلاه رسول الله ﷺ بعمامته فى البئر يوم الحديبية لما عطشوا وقيل غيره) [4] .وفى المغازى للواقدى عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن جده عبيد بن أبى عبيد قال: سمعت خالد بن عبَّاد الغفارى يقول: أنا نزلت بالسهم يومئذ فى البئر [5] .

ودخل فى زمرة الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وفى زمرة خيرة أهل الأرض ولو لم نعرف عنه إلا نزوله بالسهم فى البئر يوم الحديبية .

ومن غفار وسيدها خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى وأخويه أبى رهم وخالد

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر ٤/ ٧/ ٦٨ ت٤١٤ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٢٤٥ .
(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٢/٩٣ .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٩ .

وهى التى غفر الله لها إلى أسلم التى سالمها الله إلى سيدها بريدة بن الحصيب الأسلمى وعشرة معه من بنى أسلم، هم أوفى من ذكرتهم كتب السيرة من القبائل الأخرى . ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت أسلم ثمن المهاجرين ، فى صلح الحديبية، والمهاجرون يومئذ ثمانمائة تقريبًا من كل القبائل العربية.

٦ـ بريدة بن الحصيب الأسلمى :

والذى كان له فضل دخول الإسلام إلى قبيلة أسلم. ونعيد للذاكرة ذلك الفضل الخالد:

فقد أخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب قال: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يَرُدُّ النبى ﷺ حملنى الطمع فركبت فى سبعين من بنى سهم فلقيته. فقلت: «من أنت؟» قال : بريدة فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال: « برد أمرنا وصلح » ثم قال: « ممَّن أنت؟ » قلت: من أسلم. قال: «سلمنا » ثم قال: « ممَّن؟ » قلت: من بنى سهم. قال: « خرج سهمك يا أبا بكر » فقال بريدة للنبى ﷺ: من أنت؟ قال: « أنا محمد بن عبد الله رسول الله » فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعًا. قال بريدة: الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين، فلما أصبح قال بريدة: يا رسول الله ،لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل عمامته ثم شدَّها فى رمح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة(١) .

وقال ابن السكن: أسلم حين مر به النبى ﷺ مهاجرًا بالغميم(٢) .

وأقام فى موضعه حتى مضت بدر وأحد ثم قدم بعد ذلك. . . وسكن البصرة لما فتحت ،وفى الصحيحين عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة. . . وأخبار بُريدة كثيرة ومناقبه مشهورة وكان غزا خراسان فى زمن عثمان ثم تحول إلى مرو إلى أن مات فى خلافة يزيد بن معاوية. قال ابن سعد: مات سنة ثلاث وستين(٣) .

ونجد حديثه فى الحديبية عند البحث عن ثنية ذات الحنظل والتى كان أدلاؤها الأسلميين.

فلما أمسى قال رسول الله ﷺ: «تيامنوا فى هذا العصل(٤)، فإن عيون قريش بمرٍّ

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٤٠٥ ، وهى فى الدلائل عند البيهقى .

(٢) الغميم : تقع جنوب عسفان بستة عشر كيلاً على الجادة من مكة . أى على ٦٤ كيلاً من مكة على طريق المدينة .

(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر ١/ ١/ ١٥١ ت ٦٢٩ .   (٤) العصل: الرمل المعوج الملتوى.

الظهران أو بضجنان ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل [1] » فقال بريدة بن الحصيب الأسلمي: أنا يا رسول الله عالم بها. قال رسول الله: « اسلك أمامنا » فأخذ به بريدة في العصل قبل جبال سراوع قبل المغرب، فسار قليلاً تنكبُه الحجارة، وتعلّقه الشجر، وحار حتى كأنه لم يعرفها قط. قال: فوالله إن كنت لأسلكها في الجمعة مراراً، فلما رآه رسول الله ﷺ لا يتوجه قال: « اركب »[2] .

وشاءت إرادة الله أن يشارك أسلميان اثنان غير بريدة حتى تم التعرف على ثنية ذات الحنظل وهما .

٧ـ حمزة بن عمرو الأسلمي :

(فقال ﷺ : « من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل؟ » فنزل حمزة بن عمرو الأسلمي. فقال: أنا يا رسول الله أدلك فسار قليلاً ثم سقط في خمر الشجر[3] فلا يدري أين يتوجه. فقال رسول الله ﷺ: « اركب ») [4] .وما تذكره لنا كتب السيرة والتراجم عنه أنه كان صوامًا قوامًا لله (فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن حمزة بن عمرو الأسلمي سأل رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر، وكان يسرد الصوم. فقال رسول الله ﷺ: « إن شئت فصم، وإن شئت فافطر » وقد رواه جماعة من الأئمة عن هشام عن أبيه عن عائشة، وتوفى سنة إحدى وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة . وقيل : ابن ثمانين) [5] .

وعلى القول الأصح ، فإن عمره يوم كان دليل رسول الله ﷺ إلى ثنية ذات الحنظل سبعة عشر عامًا فقط.

٨ ـ عمرو بن عبد نُهم الأسلمي :

(ثم قال : « ألا من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل؟» فنزل عمرو بن عبد نهم الأسلمي فقال:أنا يا رسول الله أدلك. فقال:« انطلق أمامنا »، فانطلق عمرو أمامهم حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الثنية. فقال: « هذه ثنية ذات الحنظل؟ » فقال عمرو: نعم يا رسول الله، فلما وقف على رأسها تحدَّر به. قال عمرو : والله إن كان ليهمني نفسي وجَدى إنما كانت مثل الشراك[6] فاتسعت لي حتى برزت ، وكانت محجة

---

(١) موضع في ديار بني أسد.
(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٤ .
(٣) خمر الشجر: كل ما يترك من شجر أو غيره.
(٤) المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٤ .
(٥) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ٢/ ٥٦ ت ١٢٥٢ .
(٦) الشراك: سير النعل.

لاجبة (١)، ولقد كان النفر يسيرون تلك الليلة، جميعًا معطفين من سعتها يتحدثون، وأضاءت تلك الليلة حتى كأنا فى قمر. فقال رسول الله ﷺ: « فوالذى نفسى بيده ما مثل هذه الثنية إلا مثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾(٢)) (٣) .

ولا بد من وقفة عند الحديث عن هذه الثنية التى كان أدلاؤها من بنى أسلم. كما جمع الصالحى بين رواياتها بقوله: وروى مسلم عن جابر مختصرًا، وأبو نعيم عن أبى سعيد، وابن إسحاق عن الزهرى، ومحمد بن عمر عن شيوخه.

قال أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كنا بعسفان سرنا من آخر الليل حتى أقبلنا على عقبة ذات الحنظل. قال جابر: فقال رسول الله ﷺ: « من يصعد ثنية المِرار، فإنه يُحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل »، فكان أول من صعد خيل من الخزرج، ثم تبادر الناس بعد. وقال أبو سعيد: فقال رسول الله ﷺ: « مثل هذه الثنية الليلة كمثل الباب الذى قال الله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وقال ابن إسحاق : إن المسلمين لما أن خرجوا من الأرض الصعبة، وأفضوا إلى أرض سهلة فقال رسول الله ﷺ: « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » فقالوا ذلك . فقال: « والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها » . قال أبو سعيد: ثم قال رسول الله ﷺ: « لا يجوز هذه الثنية الليلة أحد إلا غفر له » . فلما هبطنا نزلنا فقلت : يا رسول الله ، نخشى أن ترى قريش نيراننا . فقال : « لن يروكم» ، فلما أصبحنا صلى بنا الصبح ثم قال : «والذى نفسى بيده لقد غفر للركب أجمعين إلا رويكباً واحدًا على جمل أحمر التفت عليه رجال القوم ليس منهم » . وقال جابر: قال رسول الله ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر»(٤). قال أبو سعيد: فطلب فى العسكر فإذا هو عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل والرجل من بنى ضمرة من سيف البحر يظن أنه من أصحاب رسول الله ﷺ. فقيل لسعيد: إن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا، فقال له سعيد: ويحك اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. وقال جابر: فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم (٥) .

---

(١) اللاجب: الطريق الواسع. (٢) البقرة / ٥٨ .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٤ .

(٤) مسلم ٤/ ٢١٤٥ برقم (٢٨٨٠) وفى شرح الحديث : (إلا صاحب الجمل الأحمر) قال القاضى: قيل هذا الرجل : هو الجد بن قيس المنافق.

(٥) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ٦٤ - ٦٦ .

ولعلنا مع أدلائنا الأسلميين الثلاثة نذكر الرجلين من بنى إسرائيل الذين حثا قومهما على دخول الباب.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(١).

لقد كانت التجربة الجهادية الأولى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أمته التى فجَّر الله لها البحر، وقَطَعَتْه يبسًا، وكان غرقًا على عدوها، وأكَّد لهم رسولهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

ولم يدخلوا عليهم الباب، ونكث الجيش كله، وسقطت الأمة فى امتحانها الجهادى الأول والأخير مع نبيها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحرمت النصر أربعين عامًا كاملة ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

وأما التجربة لهذه الأمة الفتية، فبعد أن استطاع ثالث الأسلميين عمرو بن عبد نهم أن يدلَّ الجيش على ثنية ذات الحنظل .قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « من يصعد ثنية المِرار فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل» أو « يغفر له » ، فإذا الأكثرية الساحقة من القوم تستجيب لنداء قائدها، وتهتدى بهدى أدلائها وتمضى صُعُدًا فى الجبل غير عابئة بصعابه وأحجاره وأشجاره، ويفسح الله تعالى لهم الثنية، ويدير لهم الدرب، بعد أن طرق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسماعهم ، فى سلفهم من بنى إسرائيل الذين حط عنهم فى التجربة الثانية الجهادية. فكانوا أسرع للتلبية ، وأنفذ للكلمة، وأنضج فى السابقة الإيمانية، ولم يتخاذل منهم أحد، وبعد أن نجحوا فى التجربة نجاحًا باهرًا قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « مثل هذه الثنية الليلة كمثل الباب الذى قال الله تعالى لبنى إسرائيل : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾(٤) » .

فكيف كان التنفيذ فى التجربة الجهادية الثانية مع ابن أخى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ؟ كان أسوأ تنفيذاً وأرداه. (كما روى ابن أبى حبيبة عن داود بن الحصيب عن

---

(١) المائدة / ٢٣ ـ ٢٥ .
(٢) المائدة / ٢١ .
(٣) المائدة / ٢٦.
(٤) البقرة / ٥٨ .

الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « الكلمة التى عرضت على بنى إسرائيل: لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجداً » قال : باب بيت المقدس، فدخلوا من قِبل أستاههم .وقالوا : حبة فى شعيرة) (١) .

وحدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال :قال رسول الله ﷺ: « الكلمة التى عرضت على بنى إسرائيل أن يقولوا: نستغفر الله ونتوب إليه » فكلا هذين الحديثين قد روى (٢).

قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ: « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر الله له » . قال أبو سعيد الخدرى: وكان أخى لأمى قتادة بن النعمان فى آخر الناس. قال: فوقفت على الثنية فجعلت أقول للناس : إن رسول الله ﷺ قال: « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر له ». فجعل الناس يسرعون حتى جاز أخى فى آخر الناس ، وفرقت أن يصبح قبل أن نجوز (٣).

وكأن النص مرتبط بجواز الثنية فى الليل كما رأينا فى تخوف أبى سعيد أن يجوز أخوه قتادة بعد انتهاء الليل (وفرقت أن يصبح قبل أن يجوز) فلا ندرى إن كان بعض المتباطئين الذين جازوها بعد الصبح قد فاتهم هذا الفضل، وفى تحديد آخر أن رسول الله ﷺ صلى الصبح وقال:« لقد غفر للركب أجمعين إلا رويكبًا على جمل أحمر » .

والذى يعنينا هنا سرعة المبادرة والتنفيذ عند هذه الأمة الفتية، حتى لا يكاد يوجد متخلف يذكر، وقابل الصورة التى استنكف عنها بنو إسرائيل قبل أربعين عامًا، ولم يدخلوا عليهم الباب، ولم يتجاوز الثنية، ومقابل التنفيذ البطىء الردىء بعد أربعين عامًا حيث دخلوا على استاههم بدل دخولهم ساجدين. وقالوا: حنطة فى شعيرة بدل قولهم: حطة وأعلن عليه الصلاة والسلام على الملأ نجاح هذا الجيل بتجربته الفائقة :

« فوالذى نفسى بيده ما مثل هذه الثنية إلا مثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ » . وقال: « والذى نفسى بيده لقد غفر للركب أجمعين إلا رويكبًا واحد على جمل أحمر».

وشتان بين أمة لا يستجيب لأمرها إلا أنبياؤها ﴿ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ﴾(٤) وبين أمة لا يند عن أمرها إلا واحد ينشد ضالة له، انضم إليها خطأ وهو من أعراب البادية.

(١ ـ ٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٥ .
(٤) المائدة / ٢٥ .

٩ـ ناجية بن جندب الأسلمى :

وهو الثابت ابتداءً أنه صاحب هدى رسول الله ﷺ.

(ثم قدَّم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب بالهدى مع فتيان من أسلم ومعهم هدى المسلمين) (١) .

وهو الذى كلِّف بنحر عشرين بدنة داخل مكة، وفى قلب أرض العدو ، ونفذ الأمر كاملاً.

روى ابن سعد عن أبى سفيان عن جابر قال: نحر رسول الله ﷺ سبعين بدنة عام الحديبية، البدنة عن سبعة، وكنا يومئذ ألفًا وأربعمائة ومن لم يضح أكثر ممن ضحى، وكان رسول الله ﷺ مضطربًا فى الحل وإنما يصلى الحرم، وبعث رسول الله ﷺ من هديه بعشرين بَدَنة لتنحر عنه عند المروة مع رجل من أسلم(٢) .

ويذكر ابن حجر فى الإصابة أنه أمر ناجية بن جندب إذ يقول:(ولناجية بن جندب حديث آخر أخرجه ابن منده من طريق مجزأة بن زاهر عن أبيه عن ناجية بن جندب قال : أتيت النبى ﷺ حين صُدَّ الهدى .فقلت : يا رسول الله ابعث معى بالهدى حتى أنحره فى الحرم. قال: « وكيف تصنع؟ » قال : قلت: آخذه فى أودية ما يقدرون على. قال: فدفعه إلىَّ فنحرته فى الحرمو) (٣) .

ويسوق لنا الحافظ ابن حجر حديثًا آخر عن دوره فى الحديبية فيقول:

(وأخرج الحسن بن أبى سفيان فى مسنده عن . . . ناجية بن جندب قال: كنا بالغميم فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خبر قريش أنها بعثت خالد بن الوليد جريدة خيل ليتلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكره رسول الله أن يلقاه وكان بهم رحيمًا. فقال: « من رجل يعدلنا عن الطريق؟ » فقلت: أنا بأبى أنت وأمى يا رسول الله .قال: فأخذت بهم فى طريق قد كان بها فدافد وعقاب فاستوت لى الأرض حتى أنزلته على الحديبية وهى تنزح. قال: فألقى فيها سهمًا أو سهمين من كنانته ثم بصق فيها، ثم دعا بها فعادت عيونها حتى إنى أقول:لو شئنا لاغترفنا بأقداحنا)(٤) .

وينقل ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن رجال من أسلم أن الذى نزل بالقليب بسهم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب الأسلمى صاحب بدن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ٥ / ٩٣ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/٢٢٣ .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ١٢٢ .

وقد روى أن جارية من الأنصار قالت لناجية وهو بالقليب :

يا أيها الماتح دلوى دونكا إنى رأيت الناس يحمدونكا

يثنون خيراً ويمجدونكا

فقال ناجية وهو فى القليب :

قد علمت جارية يمانيه أنى أنا الماتح واسمى ناجيه

وطعنة ذات رشاش واهيه طعنتها تحت صدور العاديه(١)

وإن كان الأشهر أنه ناجية بن الأعجم الأسلمى .

بقى أن نعرف شيئًا عن وفاته إن حصرت معلوماتنا عن حياته بما مر، فقد ذكر ابن أبى حاتم عن أبيه أن ناجية صاحب بدن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مات بالمدينة فى خلافة معاوية (٢) .

١٠ـ ناجية بن الأعجم الأسلمى :

قال محمد بن عمر :حدثنى الهيثم بن واقد عن عطاء بن مروان عن أبيه قال: حدثنى أربعة عشر رجلاً ممن أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ناجية بن الأعجم. يقول: دعانى رسول الله ﷺ حين شكى إليه قلة الماء فأخرج سهمًا من كنانته، ودفعه إلى، ودعانى بدلو من ماء البئر، فجئته به فتوضأ. فقال: مضمض فاه، ثم مجَّ فى الدلو، والناس فى حر شديد، وإنما هى بئر واحدة وقد سبق المشركون إلى بلدح، فغلبوا على مياهه. فقال: « انزل بالماء فصبة فى البئر، وأثِّر ماءها بالسهم » ففعلت. فوالذى بعثه بالحق ما كنت أخرج حتى كاد يغمرنى، وفارت كما تفور القِدر حتى طمَّت، واستوت بشفيرها يغترفون ماء جانبها حتى نهلوا عن آخرهم (٣).

هذا وإن تعددت الروايات لكن الأرجح فيها أنه ناجية بن الأعجم .

واختلف فى النازل بالسهم ، فعند ابن إسحاق عن رجالٍ من أسلم أنه ناجية بن جندب . وقال ابن إسحاق: وزعم بعض أهل العلم أنه البراء بن عازب، وروى محمد ابن عمر عن خالد بن عبادة الغفارى قال: أنا الذى نزلت بالسهم، ويمكن الجمع بأنهم تعاونوا على ذلك (٤).

وفى شرح المواهب قال الحافظ فى المقدمة : روى ابن سعد عن طريق أبى مروان، حدثنى أربعة عشر رجلاً من الصحابة الأنصار أن الذى نزل البئر ناجية بن الأعجم.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٧ .
(٢) الإصابة لابن حجر ٣ / ١٢٢ .
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٨ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ١١٧ .

وقيل :هو ناجية بن جندب. وقيل:البراء بن عازب. . .ووقع فى الاستيعاب خالد بن عبادة .وقال في الفتح: يمكن الجمع بأنهم تعاونوا على ذلك بالحفر وغيره.

وإنه لشرف عظيم لهذا الشاب أو غيره من إخوانه أن يكون قد أخذ سهم رسول الله ﷺ يحفر فيه فى البئر التى كانت كما فى رواية مسلم على ثمد[1] من ثماد الحديبية ظنون[2] قليل الماء يتبرض[3] الناس ماءه تبرضًا ، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه ، فإذا بها (فانتزع سهمًا من كنانته فأمر به ففُرز فى الماء فجاش بالرواء[4]حتى صدروا عنها بعطن[5]. قال المسور: وإنهم ليغترفون بآنيتهم جلوسًا عند شفير البئر) .

فهؤلاء الذين ابتسم لهم التاريخ وفرحت بهم الأرض والسماء، إنما ذُكروا وعرفوا بالتاريخ، ولو أنهم ساهموا بكلمة أو موقف، وها نحن نبحث عن أسمائهم رجاء أن نعرف فقط أنهم كانوا هناك من أهل الحديبية. الذين رضى عنهم ساكن الأرض والسماء، بعد أن رضى الله عنهم.

ونبحث عن أخبار ناجية بن الأعجم ، ويكفيه فخرًا على الدهر أنه حضر البيعة وحفر بالسهم، لنجد أنه غدا بذلك سيدًا من سادات أسلم. فما يمر سنتان بعد الحديبية حتى الفتح، إلا وكان صاحب لواء أسلم مع السيد الأول بريدة بن الحصيب الأسلمى. فقد ذكر الحافظ فى الفتح: (وقال العطوى : عقد رسول الله ﷺ لأسلم لواء من يوم الفتح أعطى أحدهما ناجية بن الأعجم والآخر بريدة بن الحصيب الأسلمى) [6].

حتى تاريخ وفاته وتحديد عمره فلا نملكها، إنما كل الذى نعرفه كما ذكر الحافظ ابن حجر (وقال ابن شاهين فى الصحابة :مات بالمدينة فى آخر خلافة معاوية)[7].

١١ـ سلمة بن الأكوع :

وحديثنا طويل معه لكن يكفى أن نعلم أنه بايع فى الحديبية ثلاث مرات .

(ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة فى أصل الشجرة. قال: فبايعته فى أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط الناس .قال: «بايع يا سلمة» .قال :قلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس. قال: « وأيضًا » .قال: ورآنى رسول الله ﷺ عَزِلاً [8] قال: فأعطانى رسول الله ﷺ حَجَفَة أو درقة[9] ، ثم بايع حتى إذا كان فى

(١) الثمد : الماء القليل.
(٢) الظنون : البئر التى لا يدرى بها ماء أم لا.
(٣) يتبرض : يخرج وهو قليل.
(٤) الرواء: الماء العذب.
(٥) العطن : مبرك الإبل حول الماء.
(٦ ، ٧) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣ / ٦/ ٢٢٢ .
(٨) عزلاً: وقد فسره بالكتاب بالذى لا سلاح معه ، ويقال أيضًا : أعزل وهو الأشهر استعمالاً.
(٩) حَجَفَة أو درقة: هما شبيهتان بالترس.

آخر الناس قال: « ألا تبايعنى يا سلمة؟ » قال :قلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس وأوسط الناس. قال: « وأيضًا » قال: فبايعته الثالثة. ثم قال لى: « يا سلمة أين حَجَفَتُك أو درقتك التى أعطيتك؟» قال :قلت: يا رسول الله لقينى عمى عامرٌ عَزلاً فأعطيته إياها. قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال:« إنك كالذى قال الأول[1]:اللهم ابغنى[2]حبيبًا هو أحب إلىَّ من نفسى».ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض،واصطلحنا.(قال:وكنت تبيعًا [3] لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه، وأحسه[4] وأخدمه،وآكل من طعامه وتركت مالى وأهلى مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ).

قال : فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فكسحت شوكها [5] ، فاضطجعت فى أصلها . قال: فأتانى أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادى :ياللمهاجرين، قُتل ابن زنيم . قال:فاخترطت سيفى [6]، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضغثًا [7] فى يدى ،ثم قلت: والذى كرَّم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه [8]، ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمى عامر برجل من العبلات[9] يقال له : مِكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[10] فى سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه [11] » فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[12].

قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة ، فنزلنا منزلاً بيننا وبين بنى لحيان جبل وهم المشركون [13] فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة كأنه طليعة للنبى ﷺ

---

(1) إنك كالذى قال الأول : أى أنك كالقول الذى قاله الأول .
(2) ابغنى: اعطنى.
(3) كنت تبيعًا لطلحة: أى خادمًا أتبعه.
(4) وأحسه: أى أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه.
(5) فكسحت شوكها: أى كنست ما تحتها من شوك.
(6) اخترطت سيفى: سللته.
(7) ضغثًا: أى حزمة.
(8) الذى فى عيناه: رأسه.
(9) العبلات من قريش: هم أمية الصغرى.
(10) فرس مجفف: أى عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه السلاح.
(11) بدء الفجور وثناه: ثناه العودة إليه ثانية.
(12) الفتح / ٢٤ .
(13) وهُمُ المشركوَن: على الابتداء وضُبطت بـَ (وهَمَّ المشركون). والتقدير: وهَمَّ المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه وخافوا غائلتهم.

وأصحابه. قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا. ثم قدمنا المدينة... (١) .

وسلمة رضي الله عنه جديد فى المدرسة الإيمانية، لكن لديه طاقات فائقة سرعان ما أبرزته على الساحة ، فكان لابد أن يرافق بروز هذه الطاقات ما يناسبها من التربية المكافئة لمستواها .

ورأينا الدرس الأول الذى تلقاه حين طلب منه رسول الله ﷺ ما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه من الحرب بعد أن قال: والله لقد أعجبتنى ،وما كشفت لها ثوبًا ،ثم تنازل عنها ففدى بها رسول الله ﷺ ناسًا من المسلمين أسروا بمكة، ورأينا الدرس الثانى ، الذى تلقاه حين طلب رسول الله ﷺ منه ما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه، فأهداها لخاله حزن بن أبى وهب بعد أن كان يُعدُّها ليفتدى بها امرأة من قومه فآثر رسول الله ﷺ على نفسه، وترجم درسه الإيمانى عمليًا لا نظريًا « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٢) .

فكان أهلاً بعد هاتين التجربتين القاسيتين أن يبايعه رسول الله ﷺ ثلاثًا على الموت، ويعطيه الدرقة التى تعينه فى مواجهة العدو، ويكشف رسول الله ﷺ معدنه النفيس يوم يجده يؤثر عمه على نفسه فيعطيه الدرقة التى أعطاه إياها رسول الله ﷺ ليدافع عن نفسه، بل ويعطيه وسامًا فى الإيثار معلنًا يقول فيه: « إنك كالذى قال الأول: اللهم ابغنى حبيبًا أحب إلىَّ من نفسى » .

وأن يحب سلمة رضي الله عنه نبيه الأعظم أكثر من نفسه فهذا هو من متطلبات الإيمان، لكن أن يحب عمه وأخاه من الرضاعة أكثر مما يحب نفسه فهو مستوىً من الشهامة والنبل والمروءة يضمه إلى الرعيل الأول الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾(٣) .

وهو بعد هذه البيعة العنيا، التى تربى عليها تربية المنتصر ، كان أول من التزم بكف اليد بعد الصلح مع المشركين، وبلغت قمة التزامه أن يبتعد عن المشركين، الذين يطعنون برسول الله ﷺ ؛ لأن الصلح أوقف الحرب.

ولكنه التزام القوى ،الذى إذا ملك أسجح ، فما أن سمع المنادى بمقتل ابن زنيم، ونقضهم للصلح حتى كان الأربعة أسرى بين يديه يقودهم لرسول الله ﷺ وقد أخذ سلاحهم، وقادهم إلى القتل.

---

(١) مسلم ٣ / ١٤٣٣ ـ ١٤٣٥ برقم (١٨٠٧) . (٢) مسلم ١/ ٦٧برقم (٧٠) .
(٣) الحشر / ٩ .

ومع هذه القوة الفائقة من سرعة المبادرة والقضاء على الخصم، يطلب منه ثالثة أن يطلق سراحهم ، بأمر رسول الله ﷺ : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه » .

١٢ـ عامر بن الأكوع :

وفى الوقت الذى كان سلمة يقود الأربعة كان عمه عامر يقود السبعين من المشركين، الذين حاولوا الانقضاض على معسكر المسلمين، أسرى بين يدى رسول الله ﷺ ويطلق سراحهم كذلك بأمر القائد الأعظم ﷺ بإطلاق سراحهم حين أنزل الله تعالى قوله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (١) فهو تقرير ربانى لهم بالظفر على عدوهم.

هذه هى النماذج التى يحتضنها الإسلام لجيل النصر المعد، يبايع على الموت حين تطلب منه البيعة، ثم يصالح حين تطلب منه المصالحة، ثم ينقض كالأسد حين يقع النكث من العدو، ثم يعفو حين يطلب منه أميره العفو ، فهو ابن العقيدة وليس ابن نفسه، وهذا الجيل هو المؤتمن على تحرير البشرية ، بحيث لا يبطر ، ولا يطغى، ويبقى التزامه بعقيدته ودينه هو المحرك له فى كل نأمة ، وكل نفس وكل حركة ، وكل موقف.

١٣ـ مرداس الأسلمى :

ولا نعرف عنه إلا أنه كان من أصحاب الشجرة كما قال قيس بن أبى حازم ، والذى روى عنه فى البخارى هذا الحديث): عن قيسٍ أنه سمع مرداسًا الأسلمى يقول: وكان من أصحاب الشجرة: «يقبض الصالحون الأول فالأول، وتبقى حفالة كحفالة التمر والشعير لا يعبأ الله بهم شيئًا ») (٢) .

فقد حاز شرف الرضا الربانى، وحاز شرف البيعة، وكان من خيرة أهل الأرض. وعلمنا كيف يقبض الصالحون الأول فالأول كما فقه ذلك من رسول الله ﷺ.

١٤ـ عبد الله بن أبى أوفى بن خالد بن... أسلم الأسلمى :

له ولأبيه صحبة، وشهد عبد الله الحديبية وروى أحاديث شهيرة ، ثم نزل الكوفة سنة ستٍ أو سبع وثمانين. . . وكان آخر من مات بها من الصحابة . وروى أحمد عن يزيد عن إسماعيل : رأيت على ساعد عبد الله بن أبى أو فى ضربة فقال: ضُربتها يوم حنين فقلت: أشهدت حنينًا. قال: نعم. . . وفى الصحيح : عن شعبة عن عروة بن

---

(١) الفتح / ٢٤ .

(٢) فتح البارى ٧/ ٤٤٤ برقم (٤١٥٦) .

مرة سمعت ابن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة وفى الصحيح قال: غزوت مع النبى ﷺ ست غزوات فأكل الجراد. قال سفيان وعطاء: رأيت عبد الله بن أبى أوفى بعد ما ذهب بصره (١) .

١٥ـ زاهر بن الأسود بن حجاج بن قيس الأسلمى :

والد مجزأة . . . وكان من أصحاب الشجرة، وسكن الكوفة، وروى عن النبى ﷺ فى النهى عن أكل لحوم الحمر الأنسية روى عنه ابنه مجزأة وذكر مسلم وغيره أنه تفرّد بالرواية عنه، وأخرج حديثه البخارى فى الصحيح ، وفيه أنه شهد الحديبية وخيبر. وقال محمد بن إسحاق : كان من أصحاب عمرو بن الحمق ،يعنى لما كان بمصر فيؤخذ منه أنه عاش إلى خلافة عثمان (٢) .

١٦ـ أهبان بن أوس الأسلمى :

ويقال: وهبان. . . قديم الإسلام، صلى القبلتين، ونزل الكوفة ومات بها فى ولاية المغيرة .قال البخارى :له صحبة يعد فى أهل الكوفة وروى فى صحيحه حديثًا موقوفًا من رواية مجزأة بن زاهر عنه وفيه أنه كان له صحبة وكان من أصحاب الشجرة ، وروى فى تاريخه من طريق أنيس بن عمرو عن أهبان بن أوس أنه كان فى غنم له فشد الذئب على شاة منها فصاح عليه فأقعى على ذنبه فخاطبنى .فقال: من لها يوم يُشغل عنها. قال البخارى: إسناده ليس بالقوى. . . قال ابن حبان: مات أهبان بن أوس فى ولاية المغيرة ابن شعبة بالكوفة حيث كان واليًا عليها لمعاوية(٣) ، فهؤلاء الذين برزوا فى الحديبية ،أسلم ثلاثة منهم أعلام وقادة هم : سلمة بن الأكوع ، وعامر بن الأكوع ، وبريدة بن الحصيب سيدهم ، والبقية منهم كل ما يعرف عنهم أنهم حضروا بيعة الشجرة، وهؤلاء الأحد عشر هم من مائة من أسلم لم تحدثنا كتب التاريخ عنهم إلا النزر اليسير ، لكن أهم ما فى حديثهم أنهم جميعًا من الجيل الجديد الذى تربى بعد المحنة ، وعلى آثار أحد أنهم انضموا إلى الإسلام بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، إلا القليل منهم كبريدة وأهبان ومع ذلك لم يكونوا هذا من أهل بدر.

ونحن حين نقف عند اللبنات الجديدة ، نعرف لذوى الفضل فضلهم ، فلا شك أن رعيل بدر كله قد حاز شرف الحديبية كذلك ، فهو الذى يثبت قيادته للأمة وفضله عليها. وما عدا من استشهد من جيل بدر أو كان فى مهمة ، فهم جميعاً من أصحاب

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٦/ ٣٩ ت ٤٥٤٦ . (٢) المصدر نفسه ٢ / ٣ / ٩ ت ٢٧٧١ .

(٣) المصدر السابق ١/ ١/ ٨٠ ت ٣٠٥ .

بيعة الشجرة وحضروا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

بقى عندنا وقد استعرضنا اللبنات الجديدة من أسلم وغِفار أن نذكر بعض اللبنات المتفرقة التى عثرنا على أسمائها من الأنصار ومزينة وجهينة وغيرهم، الذى شكلوا القاعدة العريضة لحزب الله كما وصفهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله فيما رواه أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه .(فعن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال: « أن أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ومن كان من بنى كعب موالى من دون الناس والله ورسوله مولاهم») [1] .

وفى بعض روايات مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغِفار وأشجع موالىً [2] ليس لهم مولى دون الله ورسوله »[3] .

فقد تشكل من هذه القبائل حزب الله تعالى الذى تخلى عن قبليته وانضم للإسلام، وفى هذه المرحلة كانت أكبر جماهير هذا الحزب من الأنصار ثم المهاجرين من قريش ثم أسلم ثم غفار، وبدأت بأفراد كثيرين من نزاع القبائل التى غادرت مرابعها وسكنت المدينة. نذكر منهم :

١٧ ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما :

من المهاجرين ومن الطاقات الجديدة التى انضمت إلى الجيش الإسلامى ونشأت فى مهد الإسلام : عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ فقد استصغر يوم بدر فرُدَّ. وكان أول مواقعه الخندق فى السنة الخامسة ، وها هو يحضر الحديبية وسنه ستة عشر عامًا فى السنة السادسة للهجرة، وسرعان ما برز حتى ليتحدث الناس أن عبد الله ابن عمر بايع قبل أبيه الفاروق أو حتى أسلم قبله رضي الله عنه ويتقدم الابن البار فيزيل الإشكال بقوله فيما رواه نافع عنه .قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار يأتى به ليقاتل عليه ورسولُ الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر لا يدرى بذلك. . . فبايعه عبد الله،ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر وعمر يستلئم للقتال[4] .

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٨٨٦ برقم (١٦٧٧) وقال المحقق فيه:« إسناده صحيح ورواه مسلم (٤ / ١٩٥٤) وغيره ».

(٢) موالىً: أى ناصروه والمختصون به.

(٣) مسلم ٤/ ١٩٥٤ برقم (٢٥٢٠) .

(٤) يستلئم للقتال : يلبس لأمة القتال وهى ثيابه .

فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، قال : فانطلق حتى بايع رسول الله ﷺ فهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر(١) .

وفى رواية عن نافع عن ابن عمر- رضى الله عنهما - أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، تفرّقوا فى ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون برسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله ، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع(٢) .

وما نشهده إذن من الحماس المتدفق عند هذا الفتى ،الذى تقدَّم فبايع على الموت . وهو فى هذا السن ، ثم مضى إلى حاجة أبيه فلا يدرى هل يُمده أجله ليخبر أباه أو يمضى فى حاجتهم أم لا. وهذا هو الذى أضاء معالم شخصيته فيما بعد ، حين غدا عالم الأمة وملكها غير المتوج ، يفيء الناس إليه إذا حزبهم أمر. ولن نقف عنده طويلاً؛ لأنه سيمر معنا كثيراً فيما بعد فنقف مع كل حادثة فى موقعها المناسب .

١٨ـ المسيِّب بن حزن بن أبى وهب ... مخزومة القرشى المخزومى :

والد سعيد له ولأبيه صحبة وله حديث فى الصحيحين من طريق طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون .قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بيعة الرضوان فلقيت سعيد ابن المسيِّب فأخبرنى. فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة فلما خرجنا من العام المقبل أتيناها فلم نقدر عليها ، وللمسيب حديث آخر فى الصحيحين وغيرهما فى قصة وفاة أبى طالب. . . وقد شهد المسيِّب فتوح الشام ولم يتحرر لى متى مات (٣).

١٩ ـ البراء بن عازب :

الذى يحدث عن نفسه فيقول: استصغرنى رسول الله ﷺ يوم بدر أنا وابن عمر فردّنا ولم نشهدها . . . وزاد: وشهدت أحدًا . أخرجه السراج ،وروى عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة وفى رواية :خمس عشرة ،إسناده صحيح ،وعنه قال: سافرت مع رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفراً أخرجه أبو ذر الهروى، وروى أحمد عن

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٥٥ برقم (٤١٨٦) .
(٢) المصدر نفسه (٤١٨٧) .
(٣) الإصابة فى تميز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٦/ ١٠٠ .

طريق الثورى عن أبى إسحاق عن البراء قال: ما كل ما نحدثكموه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سمعناه منه حدثناه أصحابه وكان يشغلنا رعية الإبل، وهو الذى افتتح الرى سنة أربع وعشرين فى قول أبى عمرو الشيبانى، وخالفه غيره وشهد غزوة تُستر مع أبى موسى، وشهد البراء مع على الجمل وصفين وقتال الخوارج ونزل الكوفة وابتنى بها داراً ،ومات فى إمارة مصعب بن الزبير ،وأرّخه ابن حبان سنة اثنتين وسبعين، وقد روى عن النبى ﷺ جملة من الأحاديث ،وعن أبيه، وأبى بكر، وعمر، وغيرهما من أكابر الصحابة ،وروى عنه من الصحابة أبو جحيفة ،وعبد الله بن يزيد الخطمى وجماعة آخرهم أبو إسحاق السبيعى(١).

فهو رضي الله عنه ابن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة يوم بايع فى الحديبية، ولم يكن غُفلاً فى التاريخ بل دخل سجل القادة ، والعلماء ،والمجاهدين، وحياته سفر من أسفار العلم والجهاد فى الإسلام.

٢٠ـ عبد الله بن زيد بن عاصم بن ... مازن الأنصارى البخارى :

اختلف فى شهوده بدراً، وقال ابن عبد البر :شهد أحدًا وغيرها ولم يشهد بدرًا ، روى عن النبى ﷺ حديث الوضوء وعدة أحاديث. . . وكان مسيلمة قتل حبيب بن زيد أخاه، فلما غزا الناس اليمامة شارك عبد الله بن زيد وحشى بن حرب فى قتل مسيلمة، وأخرج البخارى عنه قال: لما كان زمن الحرة أتاه. آت فقال: إن ابن حنظلة يبايع الناس على الموت قال: لا أبايع على هذا أحدًا بعد رسول ﷺ، يقال: قُتِل يوم الحرة سنة ثلاث وستين .

ويكفى أن نعلم أنه ابن السيدة العظيمة أم عمارة النجارية نسيبة بنت كعب البطلة الفذة الخالدة فى التاريخ الإسلامى ، وها هى تصف ذلك المشهد الخالد: قلتُ: يدك ما أصابها؟ قالت: أصيبت يوم اليمامة لما جعلت الأعراب ينهزمون بالناس نادت الأنصار: أخلصونا، فأُخلصت الأنصار، فكنت معهم حتى انتهينا إلى حديقة الموت، ودخلتها وأنا أريد عدو الله مسيلمة، فيعترض لى رجل منهم فضرب يدى فقطعها، فوالله ما كانت لى ناهية ولا عرّجتُ عليها حتى وقفت على الخبيث مقتولاً، وابنى عبد الله بن زيد المازنى يمسح سيفه بثيابه. فقلت: قتلته؟ قال: نعم. فسجدت شكرًا لله .

٢١ـ أبو سعيد الخدرى :

مشهور بكنيته استصغِر بأحد، واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدها، وروى عن

(١) المصدر السابق ١/ ١/ ١٤٧ ت ٦١٥ .

النبى ﷺ الكثير، وروى عن أبى بكر ،وعمر ، وعثمان، وعلى ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم. وروى عنه من الصحابة ومن كبار التابعين. . . ومن بعدهم. . . قال حنظلة ابن أبى سفيان عن أشياخه: كان من أفقه أحداث الصحابة. وقال الخطيب: كان من أفاضل الصحابة (١).

ويحدثنا سهل بن سعد عن جانب من شخصيته فيقول : بايعت النبى ﷺ أنا ، وأبو ذر ،وعبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسلمة ،وأبو سعيد الخدرى وسادس على ألا تأخذنا فى الله لومة لائم، فاستقال السادس فأقاله.

ويترجم هذه البيعة عمليًا فيما رواه أبو نصرة عنه رفعه قال: لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه. قال أبو سعيد: فحملنى ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه (٢).

ومع هذا فقد كان خوف الله يملأ قلبه . فعن العلاء بن المسيب عن أبيه عن أبى سعيد: قلنا له: هنيئًا لك برؤية رسول الله ﷺ وصحبته. قال: إنك لا تدرى ما أحدثنا بعده (٣).

وها هو يهرب من الفتنة يوم الحرة إلى غار. فدخل عليه شامى، فقال: اخرج. فقال: لا أخرج وإن تدخل علىَّ أقتلك ،فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ بإثمك. قال: أنت أبو سعيد الخدرى؟ قال: نعم. قال: فاستغفر لى وها هو يلقى ما لقى أخاه جابر بن عبد الله من البؤس فى بداية فتوته، كما روى أحمد عنه قال: قُتل أبى يوم أحد شهيدًا وتركنا بغير مال فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فحين رآنى قال: «من استغنى أغناه الله ،ومن يستعفّ يعفه الله »فرجعت ،وأصل هذا الحديث فى الصحيحين (٤).

بقى علينا أن نعلم أنه حضر بيعة الحديبية على الموت وهو ابن ستة عشر عامًا أوسبعة عشر؛ لأنه رد لصغره يوم أحد.

٢٢ـ جابر بن عبد الله:

وسبق أن تحدثنا عنه سابقًا، ونتحدث عنه لاحقًا. حيث كانت أول مشاهده حمراء الأسد بعد أحد، وادخر الله تعالى له أن يكون ممن بايع يوم العقبة وهو ابن أحد عشر عامًا مع السبعين الأوائل.

وها هو يجدد البيعة وهو ابن ثمان عشرة عامًا، فى الحديبية على الموت أو لا يفر

(١ـ٣) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٣/ ٨٥ .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢ / ٣/ ٨٥ .

عند الزحف.

٢٣ـ مجمع بن جارية:

ومن شباب الخزرج إلى شباب الأوس، وهو وإن نبت فى منبت السوء عند أبيه جارية الذى شارك فى بناء مسجد الضرار، لكنه تفتح على الإسلام بقلب سليم عامر بالإيمان ، إذ قال عنه ابن إسحاق فى المغازى:(كان مجمع بن جارية بن العطاف حدثًا قد جمع القرآن فلما كان فى زمن عمر بن الخطاب كُلِّم فى مجمع أن يؤم قومه. فقال: أوليس بإمام المنافقين فى مسجد الضرار؟ فقال: والله الذى لا إله هو ما علمت بشىء من أمرهم. فزعموا أن عمر أذن له أن يصلى بهم ،ويقال :إن عمر بعثه إلى أهل الكوفة يعلمهم القرآن[1]،وهو الذى نقل لنا خبر نزول سورة الفتح ،فقال: لما كنا بضجنان راجعين من الحديبية رأيت الناس يركضون ،فإذا هم يقولون: أنزل على رسول الله ﷺ قرآن فركضت مع الناس حتى توافينا عند رسول الله ﷺ)[2] .

٢٤ـ ثابت بن الضحاك :

ولئن رأينا مجمع بن جارية الأوسى فهذا الأوسى الأشهلى ثابت بن الضحاك ، شهد بيعة الرضوان كما ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى قلابة أنه حدَّثه بذلك. . . وقال ابن شاهين عن ابن أبى داود وابن السكن من طريق أبى بكر بن أبى الأسود: كان ثابت بن الضحاك الأشهلى رديف رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يوم الخندق، ودليله إلى حمراء الأسد، وكان ممَّن بايع تحت الشجرة [3] .

ونبحث عن عمر هذا الفتى يوم بايع فإذا به ابن ستة عشر ربيعًا فقط (وقال أبو عمر تبعًا للواقدى : ولد سنة ثلاث من الهجرة ومات سنة خمس وأربعين. قلت : وهو غلط فلعله ولد سنة ثلاث من البعثة فإن من يشهد الحديبية سنة ست ويبايع فيها كيف يكون مولده بعد الهجرة بثلاث فيكون سنة فى الحديبية ثلاث سنين؟! والأشبه أن الذى ولد سنة ثلاث هو الذى قبله حيث ذكر الواقدى (عن الذى قبله) أنه رأى النبى ﷺ ولم يحفظ عنه شيئًا ... وقال البغوى :.. مات فى أيام ابن الزبير ،وكذا أرخه الطبرى وابن سعد وأبو أحمد الحاكم وزاد بعضهم سنة أربع وستين) [4].

٢٥ـ عائذ بن عمرو المزنى :

ومن شباب الأنصار إلى شباب مزينة ومنهم عائذ بن عمرو المزنى (كان ممّن بايع

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٥/ ٤٦ .	(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦١٧ .

(٣، ٤) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/ ١/ ٢٠١ ت ٨٩٠ .

تحت الشجرة ثبت ذلك فى البخارى، وسكن البصرة ومات فى إمارة ابن زياد) (١) .

وبمقدار ما كان بعيداً عن جو الفتنة (كما روى البغوى من طريق أسماء بن عبيد، كان لا يخرج من داره ولا غيره . فسئل فقال : لأن أصبَّ طستى فى حجرتى أحبَّ إلىَّ من أن أصُبه فى طريق المسلمين)(٢) .

بمقدار ما كان نائيًا عن الناس وأذاهم بمقدار ما كان يؤدى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لدى الحكام والأمراء، ولا يرى تعارض بين هذه العزلة، وأداء هذا الواجب.

(فقد روى الحسن البصرى ؛ أن عائذ بن عمرو ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ دخل على عبيد بن زياد فقال: أى بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن شر الرِّعاء الحُطَمَة (٣) » فإياك أن تكون منهم) .

وعبيد الله بن زياد الفاتك الجبار الذى ينشر الرعب والذعر فى القلوب ،يرى هذا الشيخ الوقور يدخل عليه، ويحذره من ظلم الرعية ، والعنف ،والشدة عليها فيشمخ بأنفه ويستعلى عليه قائلاً: (اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ) فأجابه الجواب الذى قطع لسانه ، وذب فيه عن أصحاب محمد قائلاً: (وهل كانت لهم نخالة(٤) إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم) (٥) .

وصدق عائذ وكذب عبيد، فإن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كلهم هم صفوة الناس، وسادات الأمة وأفضل ممَّن بعدهم.

وفيمن بعدهم كانت النخالة، وعائذ هذا أحد خيرة أهل الأرض الذين بايعوا بيعة الرضوان ـ ورضى الله عنهم ـ بمحكم التنزيل .

٢٦ـ معقل بن يسار المزنى:

(أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان. قال البغوى : هو الذى حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر فنسب إليه ونزل البصرة، وبنى بها داراً ومات فى خلافة معاوية، وأسند من طريق يونس بن عبيد .قال: ما كان ها هنا ـ يعنى بالبصرة ـ أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أهنأ من معقل بن يسار) (٦).

(١ ، ٢) المصدر السابق ٢/ ٤/ ٢١ ت ٤٤٤٠ .
(٣) الحُطَمَة: العنيف برعاية الإبل ، وضرب مثلاً لوالى السوء.
(٤) نخالة: يعنى لست من فضلاء الصحابة بل من سَقطِهم.
(٥) مسلم ٣ / ١٤٦١ برقم (١٨٣٠) .
(٦) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٦ / ١٢٦ ت ١٨٣ .

وعلى طراز أخيه عائذ بن عمرو ، فلا بد له من أن يقول الحق لا يخشى فى الله لومة لائم أمام عبيد الله بن زياد نفسه، فعن الحسن البصرى قال : عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار المزنى فى مرضه الذى مات فيه. فقال: إنى محدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أنَّ لى حياة ما حدثتك ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة » (١).

فهو يشعر وهو على فراش الموت أن عليه أن يعلن كلمة الحق ولو كان فيها قطع رأسه.

٢٧ـ النعمان بن مقرِّن المزنى :

وقد ورد الحديث عنه فى الحديبية، أنه كان أثناء البيعة عند رأس رسول الله ﷺ. كما روى الطبرانى عن عطاء بن أبى رباح قال: قلت لابن عمر: أشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قلت: فما كان عليه؟ قال: قميص من قطن وجبة محشوة، ورداء وسيف، ورأيت النعمان بن مقرِّن المزنى قائما على رأسه قد رفع أغصان الشجرة عن رأسه يبايعونه(٢) .

(وللنعمان ذكر كثير فى فتوح العراق وهو الذى قدم بشيراً على عمر القادس وهو الذى فتح أصبهان واستشهد بنهاوند، وقصته فى ذلك فى البخارى مختصرة) .

فنحن إذن أمام شاب مرّ به الزمن ليصبح قائداً من أعظم قادة الفتوح فيما بعد يحدثنا عن اللحظات الأولى للقائه مع قومة مزينة برسول الله ﷺ :(فعن سالم بن أبى الجعد عن النعمان بن مقرِّن المزنى قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى أربعمائة من مزينة، فأمرنا رسول الله ﷺ بأمره. فقال بعض القوم: يا رسول الله ،ما لنا طعام نتزوده. فقال النبى ﷺ لعمر : « زوِّدهم » . فقال: ما عندى إلا فاضلة من تمر ما أراها تغنى عنهم شيئاً. فقال : « انطلق فزودهم » فانطلق بنا إلى عِلِيَّة له، فإذا فيها تمر مثل البِكر الأورق. فقال: خذوا فأخذ القوم حاجتهم وكنت فى آخر القوم .قال : فالتفت. وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربعمائة رجل) (٣) .

فهنا هو آخر الركب فى قومه؛ ليكون طليعتهم فيما بعد، ويكون لواء مزينَة بيده

---

(١) مسلم ٣/ ١٤٦٠ برقم (١٨٣٠) .
(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ٨٢ .
(٣) مسند أحمد ٥/ ٤٤٥ .

يوم الفتح، وكان موته سنة إحدى وعشرين، ويكفى فخراً لهذا القائد العظيم أن تناقلت الجن أخباره كما روى الذهبى.

زائدة، حدثنا عاصم بن كليب الجرمى حدثنى أبى أنه أبطأ على عمر خبر نهاوند وابن مقرِّن، وأنه كان يستنصر، وأن الناس كانوا يرون من استنصاره ليس همهم إلا نهاوند وابن مقرِّن، فجاء إليهم أعرابى مهاجر، فلما بلغ البقيع قال: ما أتاكم عن نهاوند؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لا شيء. فأرسل إليه عمر فأتاه. فقال: أقبلت بأهلى مهاجراً حتى وردنا مكان كذا وكذا، فلما صدرنا إذا نحن براكب على جمل أحمر، ما رأيت مثله. فقلت: يا عبد الله، من أين أقبلت؟ قال: من العراق. قلت: ما خبر الناس؟ قال: اقتتل الناس بنهاوند، ففتحها الله، وقُتل ابن مقرِّن، والله ما أدرى أى الناس هو؟ ولا ما نهاوند؟ فقال: أتدرى أى يوم ذاك من الجمعة؟ قال: لا. قال عمر: لكنى أدرى عُدَّ منازلك. قال: نزلنا مكان كذا ثم ارتحلنا، فنزلنا منزل كذا، حتى عَدَّ. فقال عمر: ذاك يوم كذا وكذا من الجمعة، لعلك تكون لقيت بريداً من بُرُد الجنِّ فإنَّ لهم بُرُدًا، فلبث ما لبث، ثم جاء البشير بأنهم التقوا ذلك اليوم (١).

٢٨ـ زيد بن خالد الجهنى :

ومن شباب مزينة إلى شباب جهينة: زيد بن خالد الجهنى (روى عن عثمان، وأبى طلحة، وعائشة، وشهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، وحديثه فى الصحيحين وغيرهما. قال ابن البرقى وغيره: مات سنة ثمان وسبعين فى المدينة وله خمس وثمانون سنة. وقيل: مات سنة ثمانٍ وستين. وقيل: مات قبل ذلك فى خلافة معاوية) (٢).

فعلى الرواية الأولى أنه كان ابن أربعة عشر عامًا يوم البيعة، وعلى الرواية الثانية ابن عشرين عامًا وهو الأرجح ليكون مؤهلاً لحمل راية جهينة يوم الفتح أى بعد سنتين من الحديبية.

وهو الذى روى لنا رضي الله عنه حديث المطر. قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل علينا فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فقال: « قال الله: أصبح من

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى ٢/ ٣٥٦ وقال المحقق فيه: «رجال السند ثقات، وزائدة هو ابن قدامة الثقفى».

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٣/ ٢٧ ت ٢٨٨٩.

عبادى مؤمن بى ،وكافر بى. فأما من قال : مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما مــن قال :مُطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بى » (١) .

٢٩ـ بسر بن سفيان بن... حبشية بن سلول الخزاعى : ومن شباب جهينة إلى شباب خزاعة، هذه القبائل التى أفرزت بؤر للنور يستضىء من المدينة إذا بها تتحول إلى شموس مضيئة تنقل القبيلة كلها إلى الإسلام ،وهو السيد الثانى فى قومه بعد بديل بن ورقاء (قال ابن الكلبى: كتب إليه النبى ﷺ وكان شريفًا. وقال أبو عمر :أسلم سنة ست وجرى ذكره فى حديث الحديبية وغيره).

أما ذكره فى حديث الحديبية، فقد ابتدأ منذ أن وفد على رسول الله ﷺ قبيل الحديبية (وقدم عليه بسر بن سفيان الكعبى فى ليالٍ بقيت من شوال سنة ست، فقدم مسلمًا على رسول الله ﷺ زائرًا له وهو على الرجوعِ إلى أهله فقال له رسول الله ﷺ: « يا بُسر، لا تبرح حيث تخرج معنا فإنا إن شاء الله معتمرون »، فأقام بُسر، وأمره رسول الله ﷺ يبتاع له بدنًا (٢). فكان بُسر يبتاع البُدن ويبعث بها إلى ذى الجَدْر (٣)حتى حضر خروجه) .

وحيث كان حديث الإسلام ، فبعثه رسول الله ﷺ عينًا له يتحسس أخبار قريش، ودخل بُسر بن سفيان مكة فسمع من كلامهم ورأى منهم ما رأى، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فلقيه بغدير ذات الأشطاط من وراء عُسفان(٤). فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «يا بُسر، ما وراءك؟ » قال: يا رسول الله تركت قومك كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد سمعوا بمسيرك، ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عُنوة، وقد استنفروا لك الأحابيش (٥) ومن أطاعهم،معهم العوذ المطافيل(٦) قد لبسوا لك جلود النمور(٧) ليصدوك عن المسجد الحرام، وقد خرجوا إلى بلدح(٨) وضربوا بها الأبنية، وتركتْ عمادهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى إليهم فى دورهم، وقدَّموا الخيل عليها خالد بن الوليد مائتى

(١) فتح البارى ٧/ ٤٣٩ برقم ٤١٤٧.
(٢) البدن: الإبل المعدة للهدى.
(٣) ذو الجدر: سرح على ستة أميالٍ من المدينة كانت فيها لقاح رسول الله ﷺ.
(٤) عسفان: قرية بينها وبين مكة ثلاثة مراحل حوالى ثمانين كيلاً من مكة.
(٥) الأحابيش: الأعراب حول مكة من بنى البون بن خزيمة وبنى الحارث عبد مناة من كنانة وبنى المصطلق من خزاعة.
(٦) العوذ المطافيل: كنى بذلك عن خروج النساء مع الأطفال ليكون أدعى لعدم الفرار.
(٧) لبسوا جلود النمور: كناية عن شدة الغضب والحقد وإظهار العداوة.
(٨) بلدح: وادٍ فى طريق التنعيم إلى مكة.

فرس، وهذه خيلهم بالغميم، وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد .

وأمام هذا العرض المسهب الدقيق الوافى من استخباراته بسر عرض رسول الله ﷺ تغيير خطة الغزوة كلها . فقال: « هذا خالد بن الوليد على خيل المشركين بالغميم (١) » ثم قام رسول الله ﷺ فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال: « أما بعد، فكيف ترون يا معشر المسلمين فى هؤلاء الذين استنفروا إلىَّ من أطاعهم ليصدونا عن المسجد الحرام؟ أترون أن نمضى لوجهنا إلى البيت فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ أم ترون أن نخلِّف هؤلاء الذين استنفزوا لنا إلى أهليهم فنصيبهم؟ فإن اتبعونا اتَّبعنا منهم عنقا يقطعها الله ، وإن قعدوا قعدوا محزونين موتورين ».

فقام أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: الله ورسوله أعلم، نرى يا رسول الله، أن نمضى لوجهنا فمن صدَّنا عن البيت قاتلناه .وتكلم أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله، نرى أن نصمد لما خرجنا له. فمن صدَّنا قاتلناه.فقال رسول الله ﷺ: « إنا لم نخرج لقتال أحد، إنما خرجنا عُماراً »(٢).

وفى رواية الزهرى عند ابن إسحاق:(وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى. قال ابن هشام: ويقال : بسر .فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدَّموها إلى كراع الغميم. قال: فقال رسول الله ﷺ: « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافدين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أوتنفرد هذه السالفة» (٣)) (٤).

ويعود ذكر بسر بن سفيان الكعبى ثالثة عندما اقترب رسول الله ﷺ من ديار خزاعة.

ولما نزل رسول الله ﷺ الحديبية أهدى له عمرو بن سالم ، وبُسر بن سفيان

---

(١) كراع الغميم: واد بين رابغ والجحفة.

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٠ ، ٥٨١ .

(٣) السالفة: صفحة العنق كناية عن القتل.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٢٨ وقال المحقق فيه: «صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده متصل ورجاله ثقات » .

الخزاعيان غنمًا وجزوراً [1] وزعامة بسر لخزاعة تشهد له فيها قيادات القبائل الأخرى.

فهذا عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش يهدد خزاعة بشخص سيدها بُسر فيقول:

(ألا أبلغا بُسر بن سفيان أنه   يبلغها عنى الخبير المفرَّدا)[2]

وذلك بلسان بنى مخزوم الذى يطلبون بدم الوليد بن الوليد بن المغيرة من خزاعة.

فأخذ بُسر بيد ابنه فقال: يا معشر قريش ،هذا ابنى رهين لكم بالدية، فأخذه خالد ابن الوليد فأطعمه وكساه حُلَّةً وطيَّبه وقال : انطلق إلى أبيك فحمل بُسر بن سفيان إليهم دية الوليد[3] .

ورسول الله ﷺ يُقُّر له ولبديل بن ورقاء بزعامة قومه وذلك حين دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ كما روى .قال: كنت مع أبى إسحاق (السبيعى) فيما بين مكة والمدينة. فسايره رجل من خزاعة فأخرج إلينا رسالة رسول الله ﷺ إلى خزاعة وكتبها يومئذ كان فيها: بسم الله الرحمن الرحيم ،من محمد رسول الله إلى بديل بن ورقاء وبُسر وسروات بنى عمرو (فذكر الحديث، ورواه الطبرانى مطوَّلاً)[4].

ومع أن خزاعة مسلمها ومشركها كانت عينة صدق لرسول الله ﷺ، لكن انضمام سيدها بسر بن سفيان للإسلام، يعنى غزو الإسلام لها، وجعلها أرضًا خصبة لانتشاره فيها، وهكذا كان.

٣٠ ـ خراش بن أمية بن... سلول الخزاعى :

حليف بنى مخزوم ،شهد المريسيع والحديبية ،وحلق رأس النبى ﷺ يومئذ أو فى العمرة التى تليها، وروى عنه حديث واحد هو. . . (أنا حلقت رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عند المروة فى عمرة القضية). وقال أبو عمر : خراش بن أمية بن الفضل الكعبى فذكر ترجمته وفيها شهد الحديبية وخيبر وما بعدهما ، وبعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى مكة ، وحمله على جمل يقال له: ثعلب، فآذته قريش وعقرت جمله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فعاد . . . وذكر ابن الكلبى أنه كان حجامًا ، وأنه رمى بنفسه على عامر بن أبى ضرار الخزاعى يوم المريسيع مخافة أن يقتله الأنصار [5].

أما تفصيل بعثه لمكة عند الواقدى فقال : وكان أول من بعث الثعلب رسول الله ﷺ إلى قريش خِراش بن أمية الكعبى على جملٍ لرسول الله ﷺ يقال له :لثعلب ليبلغ

(١ ــ ٤) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/ ١/ ١٥٤ .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/٢/١٠٦ .

أشرافهم عن رسول الله ﷺ ما جاء به. ويقول: إنما جئنا معتمرين معنا الهدى معكوفًا، فنطوف بالبيت، ونُحِل ونصرف. فعقروا جمل النبى ﷺ، والذى تولى عقره عِكرِمة بن أبى جهل، وأراد قتله، فمنعه من هناك من قومه حتى خلَّوا سبيل خِراش، فرجع إلى النبى ﷺ ولم يكد، فأخبر النبى ﷺ بما لقى فقال: يا رسول الله، ابعث رجلاً أمنع منى...(١).

واختيار رسول الله ﷺ يدل على مدى ثقته به ليكون ممثلاً شخصيًا له فى نقل رسالته لقريش ولعل كونه حليفًا لبنى مخزوم، وبنو مخزوم أعز قريش آنذاك كانت من العوامل فى اختياره، غير أن سيد بنى مخزوم عكرمة بن أبى جهل تجاهل الحلف وكان أشد الناس عليه وعقر جمله، وأراد قتله لولا أن خزاعة قامت بحمايته وإعادته سالمًا لرسول الله ﷺ.

ويعود ذكر خراش مرة ثانية فى فتح مكة حين ثأر من قاتل أحمر بأسًا. قالوا: خرج غزِىٌ من هذيل فى الجاهلية وفيهم جنيدب بن الأدلع يريدون حى أحمر بأسًا، وكان أحمر بأسًا رجلاً من أسلم شجاعًا لا يرام، وكان لا ينام فى حيِّه، إنما ينام خارجًا عن حاضره، وكان إذا نام غطَّ غطيطًا منكرًا لا يخفى مكانه، وكان الحاضر إذا أتاهم فزع صرخوا بأحمر بأسًا فيثوب مثل الأسد، فلما جاءهم ذلك الغزى (٢) من هذيل. قال لهم جنيدب بن الأدلع: إن كان أحمر بأسًا فى الحاضر فليس إليهم سبيل، وإن كان له غطيط لا يخفى، فدعونى أتسمع فتسمَّع الحس فسمعه، فأمَّه حتى وجده نائمًا فقتله، ووضع السيف فى صدره ثم اتكأ عليه فقتله، ثم حملوا على الحى، فصاح الحى: يا أحمر بأسًا، فلا شىء، لا أحمر بأسًا قد قُتِل فنالوا من الحاضر حاجتهم ثم انصرفوا، فتشاغل الناس بالإسلام، فلما كان بعد الفتح بيوم دخل جنيدب بن الأدلع معه يرتاد وينظر ـ والناس آمنون ـ فرآه جندب بن الأعجم الأسلمى. فقال: جنيدب بن الأدلع قاتل أحمر بأسًا؟! فقال: نعم. فخرج جنيدب يستجيش عليه. وكان أول من لقى خِراش بن أمية الكعبى فأخبره فاشتمل خِراش على السيف ثم أقبل إليه، والناس حوله وهو يحدثهم عن قتل أحمر بأسًا.

فبينا هم مجتمعون عليه إذ أقبل خِراش بن أمية مشتملاً على السيف. فقال: هكذا عن الرجل! فوالله ما ظن الناس إلا أنه يفرِّج عنه الناس لينصرفوا عنه، فانفرجوا

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠٠.

(٢) الغزى: جمع الغازى وهم جماعة القوم الذين يغزون.

عنه، فلما انفرج عنه الناس، حمل عليه خِراش بن أمية بالسيف فطعنه به فى بطنه، وابن الأدلع مستند إلى جدار من جُدُرِ مكة، فجعلت حشوته تسايل من بطنه، وإن عينيه لتبرقان فى رأسه وهو يقول: قد فعلتموها يا معشر خزاعة، فوقع الرجل فمات فسمع رسول الله ﷺ بقتله، فقام خطيبًا وهذه الخطبة الغد من يوم الفتح بعد الظهر. فقال: « يأيها الناس،إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين فهى حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد فيها شجراً، لم يَحلَّ لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد بعدى، ولم تَحلَّ لى إلا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ شاهدكم غائبكم. فإن قال قائل: قد قاتل فيها رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أحلَّها لرسوله ولم يحلها لكم ،يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد والله كثر القتل إن نفع، وقد قتلتم هذا القتيل، والله لأدينه، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بالخيار، إن شاؤوا فدم قتيلهم، وإن شاؤوا فعقله » (١).

وقال: حدثنى عمرو بن عمير بن عبد الملك بن عبيد عن جويرية بنت الحصين، عن عمران بن الحصين قال: قتله خراش بعد ما نهى النبى ﷺ عن القتل. فقال: « لو كنت قاتلاً مؤمنًا بكافر لقتلت خِراشًا بالهذلى ». ثم أمر رسول الله ﷺ خزاعة يخرجون ديته، فكانت خزاعة أخرجت ديته.

قال عمران بن الحصين: فكأنى أنظر إلى غنم عُفرٍ جاءت بها بنو مدلج فى العقل، وكانوا يعاقلونها فى الجاهلية ثم شدَّه الإسلام، وكان أول قتيل وداه رسول الله ﷺ فى الإسلام (٢).

والظروف التى تم فيها القتل من خِراش رضي الله عنه هى إباحة القتال لخزاعة ساعة من نهار تثأر بها من بكر التى اعتدت عليها وقتلت منها رُكعًا وسجدًا، وكون المقتول جنيدب قد غدر بأحمر بأسًا وقتله غيلة. لكن هذه الظروف لم تعف خِراشًا من الدية، وكان نهى النبى ﷺ بعدها خزاعة عن القتل. وتنفيذ القصاص بعد هذه الفرصة الأخيرة بالقاتل.

٣١ـ أبو شريح الخزاعى الكعبى :

ولقد أثَّرت هذه الحادثة فى خزاعة،ودفعت أبا شريح رضي الله عنه الخزاعى الذى شهد فتح مكة،وشهد صلح الحديبية أن يحذر من سفك الدم الحرام فى مكة.

قال ابن إسحاق :(وحدثنى سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح الخزاعى

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٨٠ - ٨٢ ، والمغازى للواقدى ٢/ ٨٤٣ - ٨٤٦ .

قال: لما قدم عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله بن الزبير جئته. فقلت: يا هذا، إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هزيل فقتلوه وهو مشرك فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا .فقال: « يأيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد فيها شجرًا، لم تحلل لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد يكون بعدى، ولم تحلل لى إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد رجعت حرمتها كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها .فقولوا: إن الله قد أحلَّها لرسوله ولم يحللها لكم، يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فدم قاتله وإن شاؤوا فعقله» ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة .

فقال عمرو لأبى شريح: انصرف أيها الشيخ ، فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا خالع طاعه، ولا مانع جزيه. فقال أبو شريح: إنى كنت شاهدًا وكنت غائبًا ، ولقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبًا وقد أبلغتك فأنت وشأنك) (١).

أما ترجمة أبى شريح: رضي الله عنه فهو خويلد بن عمرو بن ... ربيعة، أسلم قبل الفتح وكان معه لواء خزاعة يوم الفتح. قال ابن سعد:مات بالمدينة سنة ثمانٍ وستين، ذكره فى طبقة الخندقيين. وله قصة مع عمرو بن سعيد الأشدق (٢) لما كان أمير المدينة ليزيد بن معاوية... (٣).

٣٢ـ المغيرة بن شعبة :

وثقفى واحد هو المغيرة بن شعبة الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، واشتهر بأنه أدهى دهاة العرب، المغيرة هذا هو الذى استعمل كل طاقاته وعبقريته فى الشر قبل الإسلام، ثم وضعها كلها فى خدمة الإسلام، وكان يمكن أن ينهى أحد قتال العرب وداهاتهم بدون هذا الدين، ويمثل نموذج الشر فى هذا الوجود فإذا به بعد ذلك القائد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٨٣ وقال المحقق فيه : « رواه البخارى فى كتاب جزاء الصيد ٤/ ٤١ ورواه أحمد فى مسنده انظر : الفتح الربانى ٢١/ ١٦٢ ورواه مسلم فى كتاب الحج باب تحريم مكة ٢/ ٩٨٧، ورواه الترمذى فى كتاب الحج باب حرمة مكة ٣/ ١٦٤ والنسائى ، والطبرانى ، والبيهقى».
(٢) اختلفت الروايات عن حديثه مع عمرو بن الزبير أو عمرو بن سعيد الأشدق والأرجح أنها مع الثانى.
(٣) الإصابة فى تميز الصحابة للحافظ ابن حجر ٤/ ٧/ ٩٨ .

الفاتح الحاكم السياسى الداهية الذى حكم الكوفة التى عجز عن حكمها كبار الساسة والقادة ودهاقنة الحكم، ولم يتمكن من قيادتها غيره رضي الله عنه ولنشهد خطواته الأولى بشرها وخيرها والتى قادته إلى الإسلام من أوحال الجاهلية.

ها هو يحدثنا عن نفسه. فيقول :

(كنا قومًا من العرب متمسكين بديننا، ونحن سدنة اللات، فأرانى لو رأيت قومنا قد أسلموا ما تبعتهم ، فأجمع نفر من بنى مالك الوفود على المقوقس، وأهدوا له هدايا. فأجمعت الخروج معهم فاستشرت عمى عروة بن مسعود فنهانى .وقال: ليس معك من بنى أبيك أحد، فأبيت إلا الخروج، فخرجت معهم، وليس معهم من الأحلاف غيرى حتى دخلنا الإسكندرية فإذا المقوقس فى مجلسٍ مطلٍ على البحر، فركبت زورقًا حتى حاذيت مجلسه، فنظر إلى فأنكرنى. وأمر من يسألنى من أنا وما أريد، فسألنى المأمور فأخبرته بأمرنا وقدومنا عليه، فأمر بنا أن ننزل فى الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة، ثم دعا بنا فدخلنا عليه، فنظر إلى رأس بنى مالك، فأدناه إليه وأجلسه معه، ثم سأله: أكل القوم من بنى مالك؟ فقال: نعم إلا رجل واحد من الأحلاف، فعرَّفه إياى، فكنت أهون القوم عليه، ووضعوا هداياهم بين يديه، فسُرَّ بها، وأمر بقبضها وأمر لهم بجوائز، وفضَّل بعضهم على بعض، وقصَّر بى فأعطانى شيئًا قليلاً لا ذِكر له، وخرجنا فأقبلت بنو مالك يشترون هدايا لأهلهم وهم مسروورون، ولم يعرض على رجل منهم مواساة، وخرجوا وحملوا معهم الخمر فكانوا يشربون وأشرب معهم، وتأبى نفسى تدعنى ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا وما حباهم الملك، ويخبرون قومى بتقصيره بى وازدرائه إياى، فأجمعت على قتلهم فلما كنا ببساق تمارضت وعصبت رأسى فقالوا لى: مالك؟ قلتُ: أصدَّع، فوضعوا شرابهم ودعَونِى. فقلت: رأسى يُصَدَّع ولكنى أجلس فأسقيكم، فلم ينكروا شيئًا، فجلست أسقيهم، وأُشربُ القدح بعد القدح، فلمَّا دبت الكأس فيهم اشتهوا الشراب، فجعلت أصرِّف لهم وأنزع الكأس فيشربون ولا يدرون ، فأهْمَدَتْهم الكأس حتى ناموا ما يعقلون ، فوثبت إليهم فقتلتهم جميعًا، وأخذت جميع ما كان معهم فقدمت على النبى ﷺ ، فأجده جالسًا فى المسجد مع أصحابه ، وعلىَّ ثياب سفرى . فسلمت بسلام الإسلام ، فنظر إلىَّ أبو بكر بن أبى قحافة ، وكان بى عارفًا . فقال : ابن أخى عروة ؟ قال : قلتُ: نعم. قال : . . . فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟ قلت:كان بينى وبينهم بعض ما يكون بين العرب ونحن على دين الشرك فقتلتهم وأخذتُ أسلابهم وجئت بها إلى رسول الله ﷺ

ليُخمِّسها أو يرى فيها رأيه ، فإنما هى غنيمة من مشركين ، وأنا مسلم مصدق بمحمد ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « أما إسلامك فقبلتُه ، ولا آخذ من أموالهم شيئا،ولا أخمسه ؛ لأن هذا غدر، والغدر لا خير فيه » . قال: فأخذنى ما قرُب وما بعُد وقلت:يا رسول الله ، إنما قتلتهم وأنا على دين قومى ثم أسلمت حيث دخلت عليك الساعة . قال : « فإن الإسلام يجب ما قبله »(١) .

ها هو الفاتك الداهية قبل الإسلام الذى قتل ثلاثة عشر رجلاً من قومه لأنهم أجيزوا خيراً منه، وأعمل عبقريته فى الفتك بهم من أجل متاع قليل من الدنيا بخسه به المقوقس.

وحتى نعرف كيف ارتفع الإسلام بالمغيرة رضي الله عنه من وهدة الدنيا، وحمأة الطمع إلى أعلى عليين فى الإسلام، ها نحن نشهده عند رستم قائد الفرس ممثلاً للأمة المسلمة كلها هناك، وذلك فى اليوم الثالث من الوفود.

فعن أبى عثمان النهدى قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة، فعبرها إلى أهل فارس حبسوه، واستأذنوا رستم فى إجازته، ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم فى زينتهم عليهم التيجان، والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطهُم على غلوة لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب سواءٌ لا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتمونى، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة وهذه العقول.

وهكذا كانت الجولة الأولى من المباحثات بمثابة زلزال سياسى هز أركان الدولة.

(فقالت السفلة: صدق والله العربى. وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام، ما زال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أوّلينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة) .

فمازحه رستم ليمحُوَ ما صُنع وقال له: يا عربى ، إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغى من ذلك، فالأمر على ما تحب

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٨٥، ٢٨٦ .

من الوفاء وقبول الحق.

وبدأت الحرب النفسية الرهيبة بين القائدين. قال رستم:

ما هذه المغازل التى معك (مستهينًا بقِصَرِ النَبْل عند العرب) فأجاب :ما ضرَّ الجمرة ألا تكون طويلة. وقال: ما بال سيفك رثًا؟ قال: رثّ الكسوة حديد المضربة.

ثم قال له رستم: تكلم أم أتكلَّم؟ فقال المغيرة: أنت الذى بعثت إلينا فتكلم، فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم، فحمد قومه وعظَّم أمرهم وطوَّله. وقال: لم نزل متمكنين فى البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا فى الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا ننصر على الناس ولا يُنصرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين للذنوب ، فإذا انتقم الله فرضى ردَّ إلينا عزنا وجَمَعْنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم ، ثم إنه لم يكن فى الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم ، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئًا، ولا نعدُّكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وثوبين، وتنصرفون عنا ،فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم.

وها هو المغيرة بن شعبة الفاتك الغادر قبل الإسلام الذى يقتل ثلاثة عشر رجلاً بعد أن يسكرهم ؛لأنهم أجيزوا من المقوقس خيراً منه، ها هو بين يدى أعظم قواد الأرض يقول له :

فتكلم المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه .وقال: إن الله خالق كل شىء ورازقه، فمن صنع شيئًا فإنما هو يصنعه والذى له، وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد، وعظم السلطان فى الدنيا فنحن نعرفه، ولسنا ننكره ، فالله صنعه بكم، ووضعه فيكم وهو له دونكم،وهكذا انتزع الألوهية والسلطان ابتداءً من رستم وكسرى وحررها لله ـ عز وجل ـ ثم عاد ليتحدث عن نفسه وذاته وقومه قبل قدوم الرحمة المهداة. فقال: وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره . . . ولما تبلغ كنهه يموت الميت منا إلى النار، ويبقى الباقى فينا إلى بؤس.

وجاء الحديث بعدها عن الرحمة المهداة. فقال: فبينا نحن فى أسوأ ذلك بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن رحمة رحم بها من أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن رد كرامته، فبدأنا قبيلة قبيلة. فلم يكن أحدًا أشد عليه، ولا أشد إنكاراً لما جاء

به، ولا أجهد على قتله وردً الذى جاء به من قومه، ثم الذين يلونهم، حتى طابقناه على ذلك كلنا، فنصبنا له جميعًا وهو وحده فرد ليس معه إلا الله تعالى، فأعطى الظفر علينا، فدخل بعضنا طوعًا وبعضنا كرهًا، ثم عرفنا جميعًا الحق والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة حتى اجتمعت العرب على هذا وكانوا من اختلاف الرأى فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم، وما هو دور هذا القدر الآتى إلى فارس إذن؟

ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد فى سبيله، وننفِّذ أمره، ونتنجز موعوده وندعوكم إلى الإسلام وحكمه. فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلَّفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحلٌ لنا إلا أن نعاطيكم القتال، أو تفتدوا بالجزية فإن فعلتم، وإلا فإن الله أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون. قال: وما صاغرون ؟قال : يقوم أحدكم على رأس أحدنا بالجزية يحمده أن يقبلها منه، والإسلام أحب إلينا منهما، فاستشاط غضبًا، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلكم، هذا فى ظاهر الأمر أما أثر هذه الخطبة البليغة فى أعظم قواد الدنيا فكان، (وخلص رستم تألفاً بأهل فارس. وقال: أين هؤلاء منكم. . . هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين. والله لئن كان بلغ من إربهم وصوتهم لسرهم ألا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شىء فلجوا وتجلدوا. وقال: والله إنى لأعلم أنكم تصغون لما أقول لكم، وإن هذا منكم رثاء فازدادوا لجاجة)[1] وحق عليهم قدر الله فى الإبادة .

لقد كانت هذه النماذج الثلاثون ونيف نويات مسلمة لقبائلها، عاشت فى المدينة، ورشفت من رحيق النبوة ما شاء الله لها أن تترع، وتربت بعيدًا عن الانتماء إلا لله ورسوله وانخلعت من ولائها لقبائلها، ثم جاء دورها بعد ذلك فى هذه القبائل بعد صلح الحديبية ، وبعد أن أمن الناس؛ لتكون مشعل الحق فى أقوامها فتقودهم إلى الإسلام، وإن كانت خزاعة هى أول قبيلة تعلن ولاءها وحلفها مع محمد ﷺ عند عقد الصلح مباشرة. فقد يكون لإسلام سيدها بسر بن سفيان الدور الأكبر فى ذلك.

(١) تاريخ الطبرى ٣/١٠٨ ـ ١١٢ ط الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

تربية جيل الدعوة

لم يكن الهدف فقط الانتصار فى معركة ، ولكن الهدف الأبعد هو انتصار هذا الجيل على نفسه فى أن يكون جيلاً داعياً إلى الله ورسوله فيفتح مغاليق الأمة . التى كان يمكن أن تصيخ إلى الإسلام بعد أن استسلمت قريش فى معركة المواجهة . وسنشهد هذه المعانى عملياً على الساحة فى الحديبية .

(... حدثنا سفيان قال : سمعت الزهرى حين حدَّث هذا الحديث حفظت بعضه، وثبتنى معمر عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم - يزيد أحدهما على صاحبه - قالا :

خرج النبى ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدى وأشعره ، وأحرم منها بعمرة ، وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار النبى حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش :وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام ومانعوك. فقال : « أشيروا علىّ أيها الناس : أترون أن أميل إلى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت،فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين ،وإلا تركناهم محروبين ؟ ». قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجَّه له فمن صدّنا عنه قاتلناه . قال :« امضوا على اسم الله »[1] .

إلى هاهنا ساق البخارى فى المغازى من هذا الوجه . وزاد أحمد عن عبد الرزاق ، وساقه ابن حبّان من طريقه قال : قال معمر : قال الزهرى : وكان أبو هريرة يقول : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ .

وفى رواية أحمد أيضاً : « أتريدون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيؤوا تكن عنقاً قطعها الله » ، ونحوه لابن إسحاق فى روايته فى المغازى عن الزهرى .

والمراد أنه استشار أصحابه هل يخالف الذين نصروا قريشاً إلى مواضعهم فيسبى أهلهم ، فإن جاؤوا إلى نصرهم ، اشتغلوا بهم وانفرد هو وأصحابه بقريش وذلك المراد بقوله : « تكن عنقاً قد قطعها الله » . فأشار عليه أبو بكر بترك القتال والاستمرار على

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٥٣ برقم ٤١٧٨ ، ٤١٧٩ .

ما خرج له من العمرة حتى يكون بدء القتال منهم . فرجع إلى رأيه)(١) .

لقد كان هذا هو الدرس الأول العام فى التربية ، إذ أن القيادات الكبرى فى المدينة اقترحت حمل السلاح والتجهز للمواجهة .

(وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه ،لا يشكون فى الفتح للرؤيا التى رأى رسول الله ﷺ .فخرجوا بغير سلاح إلا السيوف فى القُرُب ،وساق قوم من أصحابه الهدى . . .حتى وقف بذى الحليفة،وساق سعد بن عبادة بُدْناً.فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أتخشى يا رسول الله علينا من أبى سفيان بن حرب وأصحابه ، ولم نأخذ للحرب عدتها . فقال رسول الله ﷺ : « ما أدرى ، ولست أحب أحمل السلاح معتمراً » . وقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ،لو حملنا السلاح معنا ، فإن رأينا من القوم ريباً كنا معدين له . فقال رسول الله ﷺ : « لست أحمل السلاح ، إنما خرجت معتمراً » . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم)(٢) .

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى يعيش بقلبه وأعصابه المعركة مع قريش. وهو الرجل الثانى فى الأمة ، أشار بأدب التساؤل الجم إلى احتمال المواجهة مع أبى سفيان بن حرب . بينما كان سعد بن عبادة سيد الأنصار الذى كان يعيش المعركة مع قريش مثل عمر يشير صراحة إلى ضرورة حمل السلاح خوفاً من المفاجآت المحتملة. واستمع رسول الله ﷺ إلى رأى أركان حربه، وكان جوابه صريحاً وحاسماً : « لست أحمل السلاح ، إنما خرجت معتمراً » .

وإذا المفاجأة الرعيبة الرهيبة ـ كما نقل بسر بن سفيان الكعبى ، قلم مخابرات النبى ﷺ ـ (إن قريشاً جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك ، صادوك عن البيت ، ومانعوك) .

فالمعركة على أشدها ، وليست متوقفة على قريش وحدها ، إنما كل حلفائها المجاورين قد صمموا على منع النبى ﷺ عن دخول البيت وتأدية مناسك العمرة .

كان لمثل هذا الحدث فى غير هذه الأمة المسلمة أن ينتهى بانقلاب عسكرى يطيح بالقائد الأول،الذى فرّط وغامر ولم يرض أن يعد العدة المطلوبة.لكن هذا الجيل السعيد الذى تربى على القناعة الكاملة بأن رأى القائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوسع أفقاً وأبعد آماداً وأعمق غوراً من رأيه ،ما كان لمثل هذا الخاطر أن يرد على رأيه .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥ / ٣٣٤ . والعنق : الجماعة من الناس أو الكبراء والأشراف منهم . وغدير الأشطاط : على ثلاثة أميال من عسفان مما يلى مكة .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

وتعرض المحنة الأولى لهذا الجيل بأعنف ما يكون ،حيث يعرض الرسول ﷺ، الانقضاض على حلفاء قريش وغزو ذراريهم ونسائهم؛ لتحطيم هذا التحالف ، والمغامرة فى المعركة والمواجهة ، دون أن يرتفع قول واحد من أركان حرب المصطفى أنهم ذكروه بضرورة إعداد العدة ، وحمل السلاح ، وأنه لم يقبل ذلك . وها هى المواجهة أمامهم قائمة ، إنما اكتفى الرجل الأول فى الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالقول : (يا رسول الله ، إنما خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدّنا عنه قاتلناه) .

وحيث لم يرد رأى آخر من خلال هذه الاستشارة الحربية . ونزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند رأى الصدّيق قائلاً : « امضوا على اسم الله » .

لقد كانت عملية الاستشارة قائمة مستمرة ، سواء طلبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قادته الكبار أو جنوده الصغار. أم لم يطلبها فيتقدم بها المشيرون ابتداءً من عند أنفسهم. ويشعر كل فرد فى هذه الأمة أن كلمته مسموعة،ولا حائل أبداً يحول بين إبداء الرأى ،وحريته وعرضه ، فكل فرد يشعر من جهة باستقلال شخصه وكيانه ،وأنه أمة بذاته. ومن جهة ثانية يشعر كل فرد أنه الأمة كلها انضباطاً وسمعاً وطاعة،فقد انصهروا فى بوتقة واحدة ،ولاؤها لله ولرسوله،والله ورسوله أعطوا كل فرد حقه فى التعبير عن رأيه أولا. ووجوب الالتزام بالرأى التى تمت عليه العزيمة بعد ذلك. ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[1].

وهذا ما حدا بأبى هريرة أن يقول تعقيباً على هذه الرواية : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ .

وبعد كل ما اعتمل فى النفوس، فقد توجهت النفوس كلها للتعبئة باحتمال المواجهة، ومضوا على اسم الله تحت شعار : (فمن صدّنا عنه قاتلناه).

وتلك قريش والأحابيش أمامهم قد صمموا على صد محمد وصحبه عن البيت الحرام .

ثم كانت الدورة العنيفة الثانية :

(خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : « إن خالد بن الوليد بالغميم[2] فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .

(٢) الغميم : قال ابن حبيب : هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة ، وهو غير كراع الغميم الذى ورد ذكره: موضع بين مكة والمدينة .

شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش [1]. فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبى ﷺ حتى إذا كانوا بالثنية التى يُهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس : حَلْ حَلْ[2] . فألحت فقالوا : خلأت القصواء [3] . فقال النبى ﷺ : «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : « والذى نفسى بيده، لا يسألوننى خُطَّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ، ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[4] قليل الماء يتبرضه [5] الناس تبرضاً. فلم يلبثه[6] الناس حتى نزحوه ، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش. فانتزع سهماً من كِنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا[7] عنه)[8] .

لقد أعدت قريش عدتها للحرب ، وكانت رأياً واحداً فى المواجهة :

(واجتمعوا له ، وشاوروا فيه ذوى رأيهم . فقالوا : يريد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً ، فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ، ومنا عين تطرف . فارتؤوا رأيكم ! فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذوى رأيهم ـ صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل [9] ـ فقال صفوان: ما كنا لنقطع أمرًا حتى نشاوركم، نرى أن نقدِّم مائتى فارس إلى كُراع الغميم، ونستعمل عليها رجلاً جلدًا. فقالت قريش: نعم ما رأيت، فقدَّموا على خيلهم عكرمة بن أبى جهل، وقيل: خالد بن الوليد واستنفرت قريش من أطاعها من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم، وقدَّموا خالد بن الوليد فى الخيل. . . وخرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية، وخرجوا بالنساء والصبيان فعسكروا هناك) [10].

وكانت الخطة الحربية من المصطفى ﷺ الالتفاف على جيش العدو، وتجنب المواجهة ابتداء حتى يبغت القوم، فدعا إلى هذا الالتفاف بقوله: « إن خالد بن الوليد بالغميم، فخذوا ذات اليمين »، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق

---

(١) قترة الجيش : الغبار الأسود .
(٢) حَلْ حَلْ : كلمة تقال للناقة إذا تركت المسير .
(٣) خلأت القصواء : الخلاء والمد للإبل كالحران للخيل . وقال ابن قتيبة : لا يكون الخلاء إلا للنوق خاصة .
(٤) ثمد : حفيرة فيها ماء قليل .
(٥) يتبرضه الناس : يأخذونه قليلاً قليلاً .
(٦) لم يلبثه الناس : لم يتركوه أن يقيم .
(٧) صدروا : رجعوا .
(٨) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٢٩ برقم (٢٧٣١) .
(٩) كان أبو سفيان غائبًا عن مكة فى تجارة له وإلا لكانت له القيادة العامة.
(١٠) المغازى للواقدى ٢/ ٥٧٩ .

يركض نذيراً لقريش.

ورغم كل عبقريته الحربية ويقظته الدؤوبة، فقد تجاوزته القيادة النبوية فى خطة الالتفاف هذه، وبمبادرة جزئية سريعة دفعته إلى أن يلهث راكضًا لقريش بخيله منذراً سوء العاقبة بنزول محمد عليهم.

ولم يكن هذا الالتفاف بالأمر السهل، بل كان فيه من المشقة والعسر والشدة، ما جعل رسول الله ﷺ يقول: « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر له ».

وحارت بها الأدلاء المهرة من بنى أسلم، بريدة بن الحصيب، وحمزة بن عمرو، ولم يجزها من وعورتها والتفاف شجرها وضيقها غير الدليل الثالث عمرو بن عبد نهم. والجيش ماضٍ فى عزيمته مستجيب لقيادته، يتطلع إلى لحظة الحرب ويتحمل كل هذه الأهوال، ينتظر لحظة الحرب الحاسمة وتجاوز أعنف اختبار له، فجازها الجيش كله، ضمن الوقت المحدد إلا ما لا يؤبه له. وكان طمعه فى مغفرة الله له، هو الحافز الأكبر فى التغلب على هذه العقبة الكؤود، والنزول على مياه الحديبية. وأثبت الجيش كفاءة قتالية عالية.

هذا الجيش بهذه النفسية العالية، وهذا التأهب الأقصى يفاجأ باتجاه جديد يكاد يحطم كل حماسه، ويقضى على كل اندفاعه.

لقد بركت الناقة، وكان من الطبيعى أن يحثها المسلمون على السير فى قلب هذا الاندفاع الكبير نحو الهدف، لكن الناقة لم تتحرك، فقالوا: خلأت الناقة، أى: حرنت عن المسير، والحل أن تترك ويتم الانتقال إلى ناقة أخرى حتى لا يعيق هذا البروك المسير، وتُتابع الوتيرة العالية.

وهنا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلمته التى أحبطت كل هذا الاندفاع : « والله ما خلأت القصواء وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ».

وما من عربى إلا ويدرك أبعاد هذه الكلمة، التى غيرت الاتجاه مائة وثمانين درجة، من الرؤيا، ثم التفكير فى الانقضاض على ذرارى حلفاء قريش، ثم التصميم على مواجهة كل من يقف فى طريقه إلى جواب يوحى أن حابس الفيل الذى منعه من دخول مكة بأمر الله ، هو الذى سيحبس هذه الناقة عن دخولها.

ماذا اعتمل فى هذه النفوس من غليان، وماذا جرى فيها من أسى؟! ثم تبين الأمر حين أتبعت الكلمة بما يوضح هذا الاتجاه ويؤكده: « والذى نفسى بيده ، لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ».

فمن الممكن إذن التفاوض، ومن الممكن التراجع عن دخول مكة ، ومن الممكن

المهادنة والمصالحة.

لقد أعلن هذا الاتجاه هكذا دون مقدمات، ودون استشارة ودون تهيئة، وتُركت هذه النفوس لتخوض هذا الامتحان العنيف الرهيب، فى تغير المنحنى كله من دخول مكة، رغم كل من يقف فى الطريق إلى العودة مرغمين عنها كما عاد أصحاب الفيل، ومن خلال مفاوضات ومراوضات، ولكنهم فقهوا مع هذا كله أنها إرادة ربانية فى صرفهم عن مكة كما صُرِف أصحاب الفيل، وبتعظيم لحرمات الله لا انتهاك لها كما هو لدى أصحاب الفيل .

إنه انتقال كامل، جعل القوم فى حالة من الضياع لا يعرفون المنحى الحقيقى إلى أين. وها هم ينزلون على الماء القليل الظنون كما أمرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويشكون العطش، ولكنهم بهذا الثبات وهذا الانضباط وهذا الالتزام دون أن يندَّ منهم اعتراض واحد، كانوا أهلاً لهذه المعجزة،التى تحققت بسهم النبى ـ صلوات الله عليه ـ فإذا الماء الظنون يجيش بالرواء، ويصدر الناس عنه بعطن، ويغترفون من شفير البئر ما يشاؤون. إنهم مع رسول رب العالمين، وهل عاد لهم ذات بين يديه إلا كما يصوغهم الله رب العالمين. ويصنعهم على عينه؟!

ونجحوا فى الاختبار العنيف الثانى فى تجاوز الثنية، وفى الاختبار الأعنف الثالث، فى الصبر على حابس الفيل. والمراوضة على العودة عن مكة. فهى المشيئة الربانية، وليرضوا إذن بما شاء الله وكان الاختبار الرابع.

(فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفرٍ من قومه من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح[1] رسول الله ﷺ من أهل تهامة ـ [2] فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى،نزلوا أعداد [3]مياه الحديبية،ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: « إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكنَّا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم[4] الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم[5] مدة ويُخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا [6] وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى[7] ولينفذن الله أمره » .

(١) عيبة نصح: العيبة ما يوضع فيه الثياب لحفظها.
(٢) تهامة: مكة وما حولها.
(٣) الأعداد: الماء الذى لا انقطاع له.
(٤) نهكِتهم: أضعفت قواهم.
(٥) ماددتهم: جعلت بينى وبينك مدة بترك الحرب.
(٦) جمّوا: قووا واستراحوا.
(٧) تنفرد سالفتى: كناية عن الموت.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال : فانطلق حتى أتى قريشًا . قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول . قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبى ﷺ. فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى ؟ قالوا : لا. قال : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا (١) علىَّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطة رشد اقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه. فجعل يكلم النبى ﷺ فقال النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أى محمد! أرأيت إن استأصلت أمر قومك! هل سمعت بأحد من العرب اجتاح (٢) أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لا أرى وجوهًا، وإنى لأرى أشوابًا (٣)من الناس خليقًا (٤) أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر: امصص بظر(٥) اللات. أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا ؟ قالوا : أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يدٌ لك (٦) عندى لم أجزِك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ. فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أى غُدَر(٧) ألست أسعى فى غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قومًا فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم ، فقال النبى ﷺ: «أمّا الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه فى شيء» .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه. قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ،وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم !والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا. والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت

---

(١) بلحوا: امتنعوا عن الإجابة. (٢) تجتاحهم: تهلكهم.
(٣) أشوابًا: أخلاطًا. وفى رواية: أوباشًا وهم الأخلاط من السفلة.
(٤) خليقًا: حقيقًا. (٥) البظر: قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرأة.
(٦) اليد: النعمة والإحسان. (٧) غُدَر: مبالغة فى وصفه بالغدر.

فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ،وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر تعظيمًا له، وإنه عرض عليكم خُطة رشد فاقبلوها) (١).

لقد جاء بديل بن ورقاء الخزاعى ووصف إصرار قريش على منعها لرسول الله ﷺ لدخول مكة.

وانطلاقًا من التوجيه الجديد « حبسها حابس الفيل عن مكة » ،جاء العرض النبوى مباشرة على إيقاف الحرب بين الفريقين،وانتقل دخول مكة إلى الأهمية فى الدرجة الثانية،وأصبحت الهدنة هدفًا مرحليًا مؤقتًا ؛ لتحقيق الهـدف الأبعد وهو حرية العقيدة « ويخلوا بينى وبين الناس » بينما كان اتجاه الجيش كله ماضيًا نحو دخول مكة وقتال قريش، التى تصد المؤمنين عن دخوله. وكما قلنا: فلم يتم هذا الأمر نتيجة استشارات. وفقه المسلمون أن الوحى قد جاء بهذا الاتجاه للنبى ﷺ،وعليهم أن يصوغوا عواطفهم، ومشاعرهم ،وعقولهم وفق هذا الاتجاه. وهنا تبدو أهمية هذا الامتحان فى لحظاته الحاسمة .

ونعود إلى قريش ، التى بلغها هذا الاتجاه، والتى لا تزال عقلية الحرب هى التى تسيطر عليها، وعقلية الإرهاب والمنع للفكرة والدعوة. وإن كانت قد انتقلت الآن إلى طور الدفاع بعد طور الهجوم ،ففى العام الماضى وقبل أقل من سنة جيَّشت الجزيرة العربية لاستئصال شأفة الإسلام فى المدينة، وها هى الآن تفكر فى الدفاع عن مكة،وصد الهجوم النبوى عنها، حيث تحقق هذا الشعار فى أقل من سنة: « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وإن كـان هذا القدوم هو قدوم عبادة وطاعة، وليس قـدوم قتالٍ ومعـركة؛ حيث رفض ـ عليه الصلاة والسلام ـ حمل السلاح وهو متلبس بثياب الإِحرام: « لا أحمل السلاح معتمرًا » اللهم إلا سلاح المسافر السيوف فى القُرُب .وتلقى بديل بن ورقاء الصدمة حين عرض على قريش فكرة الهدنة، وهو متهم بولائه لرسول الله ﷺ وحبه له، وهو لا ينكر ذلك ولكنه لا ينفى ولاءه الأول لمكة. وكان الرد عنيفاً أولا من سفهاء مكة حيث رفضوا السماع له ،ثم كان الرد عنيفاً ثانية من أشرافها حيث قالوا : (أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عنوة عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل) .

وفى تحليل الموقف النبوى من بديل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصة وخزاعة عامة ، يقول الحافظ ابن

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ك الشروط ٥/ ٣٣٠ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

حجر : (وكان الأصل فى موالاة خزاعة للنبى ﷺ أن بنى هاشم فى الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة، فاستمروا على ذلك فى الإسلام، وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم، وشهدت التجارب بإيثارهم أهل الإسلام عن غيرهم ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهاراً على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله. بل من قبيل استخدامهم، وتقليل شوكة جمعهم وإنكاء بعضهم ببعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق)[١] .

وإجماع مكة على الحرب وإصرارها عليها يفهم من قول بديل: إنى تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى أعداد مياه الحديبية (وإنما اقتصر الأمر على ذلك ـ بنى عامر، وبنى كعب ـ لكون قريش الذين كانوا بمكة أجمع ترجع أنسابهم إليهما وبقى من قريش بنو سامة بن لؤى وبنو عوف بن لؤى، ولم يكن بمكة منهم أحد)[٢].

وأمام تأزم الموقف وسيطرة تيار الحرب والمواجهة جاء دور عروة بن مسعود الثقفى، الذى كان يملك عبقرية وحكمة ودهاء ثقيف. حيث أخذ زمام المبادرة من هؤلاء المتهورين، وما كان يمكن أن يأخذه لولا تلك المقدمات المتعددة: أى قوم! ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علىَّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى.

ولولا هذه المقدمات لسفَّه رأيه كما سُفِّه رأى بديل. مع أن بديلاً بذكائه لم يشر بالأخذ بالرأى (الهدنة) إنما عرضه بصفته ناقلاً ورسولاً. ومع هذا فلم تستطع أعصاب قيادات مكة أن تسمع هذا العرض بله أن تأخذ به. غير أن عبقرية عروة التى أخذ بها اعترافهم الكامل بولائه الكامل لهم، ونصرته لهم على محمد؛ لينتقل بعدها إلى قبول هذا العرض، فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها.

وقبل أن تصحوا قريش من صدمة هذا العرض أردف بقوله: (ودعونى آته، فقالوا: ائته) .

وهو ليس متهمًا كاتهام بديل بن ورقاء الخزاعى. بل خالص الولاء والحب والود لقريش، فوافقوا على إرساله موفدًا مُطلعا وليس له صلاحيات البت فى أى أمر إلا الاطلاع والتعرف على ما لدى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفى قوله : ألستم

(١، ٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٣٨ .

بالوالد؟ يعنى أن أمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وقد ولدته قرشية صميمة.

وعروة ليس نكرة على الساحة العربية، فهو أحد العظيمين اللذين عناهما القرآن عندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وقد استطاع بحكمته وعبقريته أن يجنِّب قومه ثقيفًا حربًا شعواء تفنيهم عن آخرهم من جراء قتل ابن أخيه المغيرة للمالكيين الثلاثة عشر.

وأقبل الشريد فقدم مكة فأخبر أبا سفيان بن حرب :ما صنع المغيرة ببنى مالك؟ فبعث أبو سفيان ابنه معاوية إلى عروة بن مسعود يخبره الخبر.

يقول معاوية: فسلكت ذا غِفار فطرقت عروة بن مسعود، فخرجنا إلى مسعود (سيد بنى مالك) فناداه عروة. فقال: من هذا؟ فقال: عروة. فأقبل مسعود إلينا وهو يقول: أطرقت عراهية أم طرقت بداهية؟ بل طرقت بداهية! أقتل ركبُهم ركبنا أم قتل ركبنا ركبهم؟ لو قتل ركبنا ركبهم ما طرقنى عروة بن مسعود! فقال عروة: أصبت قتل ركبى ركبك يا مسعود، انظر ما أنت فاعل! فقال مسعود: إنى عالم بحدة بنى مالك وسرعتهم إلى الحرب، فهبنى صمتًا. قال: فانصرفنا عنه ، فلما أصبح غدا مسعود فقال: بنى مالك! إنه قد كان من أمر المغيرة بن شعبة أن قتل إخوانكم بنى مالك فأطيعونى وخذوا الدية، اقبلوها من بنى عمكم ومن قومكم. قالوا: لا يكون ذلك أبدًا. والله لا تقرك الأحلاف حين تقبلها (والأحلاف قوم عروة والمغيرة) قال: أطيعونى واقبلوا ما قلت لكم. فوالله لكأنى بكناية بن عبد ياليل قد أقبل تضرب درعه روحتى رجليه (٢) ، لا يعانق رجلاً إلا صرعه، والله لكأنى بجندب بن عمرو وقد أقبل كالسيِّد (٣) عاضًا على سهم مفوَّق بآخر، لا يسير إلى أحد بسهمه إلا وضعه حيث يريد!

فلما غلبوه أعدَّ للقتال واصطفوا، أقبل كنانة بن عبد ياليل يضرب درعه بروحتى رجليه يقول: من مُصارع؟ ثم أقبل جندب بن عمرو عاضاً سهمًا مفوقًا بآخر. قال مسعود: يا بنى مالك ،أطيعونى! قالوا: الأمر إليك!

قال: فبرز مسعود بن عمرو فقال: يا عروة بن مسعود ،اخرج إلىَّ، فخرج إليه. فلما التقيا بين الصفين قال: عليك ثلاثة عشر دية. فإن المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً فاحمل بدياتهم. قال عروة: حملتُ بها، هى علىَّ. قال: فاصطلح الناس. فقال الأعشى أخو بكر بن وائل:

---

(١) الزخرف/ ٣١ .

(٢) روحتى رجليه الأروح : هو الذى تتدانى عقباه ويتباعد صدرا قدميه.

(٣) السيِّد: الذئب.

تحمـل عـروة الأحـلاف لمـا رأى أمـراً تضيـق بـه الصـدور
ثـلاث مئـين عاديـة وألفـا كـذلك يفعـل الرجل الصبور (١)

وها هو الآن يريد أن يمضى بمجد آخر، يحاول فيه أن يجنِّب قريشًا ومحمداً ﷺ حربًا جديدة تفنى الفريقين ،خاصة ورسول الله ﷺ على أبواب مكة. فأتاه ـ أى رسول الله ﷺ ـ فجعل يكلم النبى ﷺ. فقال النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك : أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك. هل سمعت بأحد اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإنى والله لا أرى وجوهًا، وإنى لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك .

وأحس الجيش الإسلامى كله بالإهانة من عروة ،وهو يصفهم بأنهم يفرون عن رسول الله ﷺ. وهم أخلاط من قبائل شتى. فكان لابد من موقف حاسم يكافئ هذا التجرؤ على مقام النبوة.

وكان الجواب من الصدِّيق رضي الله عنه الذى وصفه عمر رضي الله عنه بقوله : (وكنت قد زوَّرت فى نفسى مقالة أعجبتنى ، أريد أن أقدِّمها بين يدى أبى بكر، فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر ، فكرهت أن أُغضبه . فتكلم وهو كان أعلم منى وأوقر ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته أو مثلها وأفضل (٢).

كان ذلك الرد الذى صفع عروة على وجهه، وشفى صدور قوم مؤمنين.

قال له: امصص بظر اللات! أنحن نفر عنه وندعه؟! والبظر : قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرأة. واللات اسم أحد الأصنام التى كانت قريش وثقيف يعبدونها ـ وكانت فى الطائف عند ثقيف ـ وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم. فأراد أبو بكر المبالغة فى سب عروة ، بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار. وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك. وقال ابن المنير: فى قول أبى بكر تخسيس للعدو وتكذيبهم وتعريض بإلزامهم من قولهم : إن اللات بنت الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ بأنها لو كانت بنتًا لكان لها ما يكون للإناث (٣) .

واهتز كيان عروة كله لهذا الجواب المفحم. فقال: من ذا ؟ قالوا: أبو بكر. ولا شك أن أبا بكر كان ملثمًا إذ لو لم يكن كذلك لعرفه. حيث قال له: أما والذى نفسى بيده

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٥٩٧ ، ٥٩٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤١١ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٤٠ .

لولا يد كانت لك عندى لم أجزِك بها لأجبتك. فهو مدين بالفضل والمعروف للصدِّيق الذى ساعده فى تحمل بعض الديات. كما يقول الزهرى: (إن اليد المذكورة أن عروة كان تحمل بدية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن ،وفى رواية الواقدى : عشر قلائص) (١).

وكان الاحتكاك الثانى بين عروة بن مسعود وابن أخيه المغيرة بن شعبة .

لقد تلقى المغيرة درسه البليغ الأول فى الإسلام حين رفض رسول الله ﷺ أن يستلم منه المال الذى حازه بالغدر فى إخوانه وقتلهم. وفقه فى أول درس تربوى تلقاه فى مدرسة النبوة أن الإسلام لا يحل الغدر ولا يقرُه. ثم كان عليه فى الدرس التربوى الثانى أن يلتحم مع الصف المسلم؛ بحيث يغدو رسول الله ﷺ أحب إليه من ولده ووالده ونفسه التى بين جنبيه ومن الناس أجمعين. وهذا أعسر امتحان يمر فيه الآن. فهذا عمه عروة وأحب الناس إليه والذى تحمَّل من أجله دية ثلاثة عشر قتيلاً ذبحهم بيده، فلا بد أن يدوس على قلبه وحبه المشرك الآن. والذى جاء ممثلاً لأعدى العدو من المشركين. لابد أن يرتفع فى هذه اللحظات إلى المستوى الأعلى من الإيمان، فيجعل حب رسول الله ﷺ وفداءه أغلى عليه من كل شىء فى حياته.

فما أن رأى عمه عروة قادمًا حتى لبس لأمته، وجعل على رأسه المِغفَر ليستخفى عن عروة عمه ، وقام فوق رأس رسول الله ﷺ يفديه بنفسه ويذود عنه بحياته أمام أحب الناس فى الدنيا على قلبه عمه عروة بن مسعود. وهو ليس مكلفًا بذلك ، ولم يكن هو صاحب هذه المهمة ، ولكنه أراد أن يعيش إسلامه مباشرة ، ويطبقه واقعًا حيًا لا كلاماً مجرداً فتقدَّم للمواجهة، وليعرف عروة بالذات من هم أصحاب محمد الذين جاؤوا معه. ولينقل عروة إلى قريش أقسى درس يتلقاه من ابن أخيه الذى استعد لمواجهته حماية لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه.

وجعل يكلِّم النبى ﷺ. فكلما تكلَّم بكلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفَر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غُدَر ! ألست أسعى فى غَدْرتك؟ (زاد ابن إسحاق فى روايته : قبل ألا تصل إليك ، وزاد عروة بن الزبير: فإنه لا ينبغى لمشرك أن يمَسَّهُ ، وفى رواية ابن إسحاق يقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك ؟!) وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة، وفى الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير. لكن كان النبى ﷺ يفضى لعروة

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٤٠ .

عن ذلك استمالة له وتأليفا، والمغيرة يمنعه إجلالاً للنبى ﷺ وتعظيمًا له.

قوله : فقال: من هذا ؟ قال : المغيرة . وفى رواية أبى الأسود عن عروة : فلما أكثر المغيرة مما يقرع يده غضب ، وقال: ليت شعرى من هذا الذى آذانى من بين أصحابك؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشرَّ منزله. وفى رواية ابن إسحاق : فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة » وكذا أخرجه ابن أبى شيبة من حديث المغيرة بن شعبة نفسه بإسناد صحيح. وأخرجه ابن حِبَّان قوله: ألست أسعى فى غدرتك، أى ألست أسعى فى دفع شر غدرتك؟ وفى مغازى عروة: والله ما غسلت يدى من غدرتك، لقد أورثتنا العداوة فى ثقيف. وفى رواية ابن إسحاق: وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس (١) .

ونجح المسلمون فى امتحانهم الرابع أعظم امتحان وأبلغه ، فإن ما سمعه عروة من الرد العنيف عليه من أبى بكر الصديق ، حين وصم المسلمين بالفرار عن رسول الله ﷺ كان أقل بكثير مما رآه فى معسكر المسلمين ، حتى غزاه فى أعماقه، وأيقن فى ضميره أنه يستحيل الانتصار على محمد ﷺ وهؤلاء جنده، وهؤلاء حزبه. فقد كان بدهائه وحنكته السياسية المخضرمة يراقب بحذر كل حركة وكل تصرف فى الجيش الإسلامى. بل كل نأمة أو همهمة ليكتشف من ورائها هذه الأخلاط من القبائل ، ومدى التحامها مع قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولندع له وصف هذا الالتحام، وهذا الحب، وهذا الولاء ، وهذا التفانى. يقول لقريش بعد عودته من معسكر المسلمين (فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم ؟ والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى والله إن رأيت مليكًا قط يعظمُه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً .

ـ والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده.

ـ وإذا أمَرَهم ابتدروا أمره.

ـ وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.

ـ وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده.

ـ وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له) (٢).

هذه المظاهر التى أذهلت عروة ، وسلبته عقله إعجابًا بمحمد ﷺ، وعظمة تربيته، ويكفيه شاهداً على ذلك ما لاقاه من ابن أخيه المغيرة.

وفى رواية الواقدى : واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قومًا

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٤١ . (٢) المصدر نفسه ٥/ ٣٣٠ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

ما يبالون ما يُصنع بهم إذا منعوا صاحبهم. والله لقد رأيت نسيَّات (قليلاً من النسوة) معه إن كنَّ ليسلمنه على حال ؟ فَرُوا رأيكم. وإياكم وإضجاع الرأى[1] ،وقد عرض عليكم خُطة فمادوه. يا قوم اقبلوا ما عرض فإنى لكم ناصح، مع إنى أخاف ألا تنصروا عليه ! رجل أتى هذا البيت معظمًا له، معه الهدى ينحره وينصرف!

فقالت قريش: لا تكلَّمُ بهذا يا أبا يعفور، لو غيرك تكلَّم بهذا لَلُمْناه ، ولكن نرده عن البيت فى عامنا هذا ويرجع إلى قابل [2].

لقد غزى عُروة فى أعماقه، ونجح فى تهيئة الأجواء للهدنة فى صف قريش.

ففى رواية مرسل على بن زيد عند ابن أبى شيبة، فقال عروة : أى قوم، إنى قد رأيت الملوك، ما رأيت مثل محمد، وما هو بملك. ولكن رأيت الهدى معكوفًا. وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة. فانصرف هو ومن اتبعه إلى الطائف.

قوله: فدلك بها وجهه وجلده، زاد ابن إسحاق : ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه .وقوله :وما يُحِدُّون النظر إليه ـ أى يديمون ـ وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل،والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة ،ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا فى ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشى من فرارهم ، وكأنهم قالوا بلسان الحال : من يُحِب إمامه هذه المحبة ، ويعظِّمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفِرُّ عنه ويسلمه لعدوه ؟ بل هم أشد اغتباطا به وبدينه وبنصره من القبائل التى يراعى بعضها بعضًا بمجرد الرحم .فيستفاد منه جواز التوصل إلى المقصود بكل طريق سائغ .

وفى قصة عروة بن مسعود من الفوائد ما يدل على جودة عقله ويقظته، وما كان عليه الصحابة من المبالغة فى تعظيم النبى ﷺ، وتوقيره ومراعاة أموره، وردع من جفا عليه بقول أو فعل ، والتبرك بآثاره [3].

وكان الاختبار الخامس، أو المحنة العنيفة الخامسة .

روى البيهقى عن عروة بن الزبير قال:

وفزعت قريش لنزوله عليهم فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! إنى لا آمنهم، وليس بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت،فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وإنه مبلغ لك ما أردت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فأرسله إلى قريش،

---

(١) إضجاع الرأى: الوهن فى الرأى. (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٩٨ ، ٥٩٩ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

وقال: « أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّاراً وادعهم إلى الإسلام »، وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله ـ عز وجل ـ وشيك أن يُظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان تثبيتًا بثبتهم. فانطلق عثمان رضي الله عنه فمرَّ على قريش ببلدح، فقالت قريش :أين؟ فقال: بعثنى رسول الله ﷺ لأدعوكم إلى الله ـ جل ثناؤه ـ وإلى الإسلام، ويخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا. فدعاهم عثمان كما أمره رسول الله ﷺ. فقالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحَّب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره وردفه أبان حتى جاء مكة. . . ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو[1] ، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز ابن حفص؛ ليصلحوا عليهم. فكلموا رسول الله ﷺ ، ودعوه إلى الصلح والموادعة ، فلما لان بعضهم لبعض وهم على ذلك ، لم يستقم لهم ما يدعون إليه من الصلح والموادعة. وقد أمن بعضهم بعضًا وتزاوروا ، فبينما هم كذلك وطوائف من المسلمين فى المشركين لا يخاف بعضهم بعضًا ينتظرون الصلح والهدنة، إذ رمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر. فكانت معاركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما. وارتهن كل واحد من الفريقين من فيهم، فارتهن المسلمون سهيل بن عمرو ومن أتاهم من المشركين وارتهن المشركون عثمان بن عفان، ومن كان أتاهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا أبدًا، فرغَّبهم الله تعالى، فأرسلوا من كانوا ارتهنوا من المسلمين ودعوا بالموادعة والصلح.

وفى رواية يونس عن ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ بُلِّغ أن عثمان قد قُتل فقال رسول الله ﷺ: «لئن كانوا قتلوه لأناجزنهم». فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فبايعوه على القتال على ألا يفروا ، فبايعوه على ذلك.

قال ابن إسحاق : (حدثنا بعض آل عثمان أن رسول الله ﷺ ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه لى وهذه لعثمان إن كان حيًا». ثم بلغهما أن ذلك الخبر باطل فرجع عثمان .

قال: ولم يتخلف عن بيعة رسول الله ﷺ أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة ، قال جابر بن عبد الله: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقة

---

(١) كل الروايات الأخرى تجمع أن سهيلاً إنما قدم مرة واحدة بعد الأزمة ، ولم يكن بين الرهائن .

رسول الله ﷺ قد صبا إليها يستتر بها من الناس) (١) .

لقد كانت الأمور كلها تجرى على غير ما يحبون، فهم حريصون على المواجهة والحرب وليسوا حريصين على المراوضة والمفاوضة والصلح ، ولكنهم يدوسون على قلوبهم وعواطفهم، ويلتزمون أمر قائدهم الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجاء الوفد من قريش ليراوض ويصالح. فمضوا بهمهم وألمهم، واختلط الفريقان : المشركون والمسلمون ببعضهم أثناء فترة المراوضة والحوار. ولا يعطينا صورة دقيقة عن نفسية هذه الأمة خيرًا مما يعطيناها بطلنا سلمة بن الأكوع ؛ إذ يقول: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فكسحت شوكها، فاضطجعت فى أصلها. قال: فأتانى أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلَّقوا سيوفهم واضطجعوا، فبينما هم على ذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادى: ياللمهاجرين؛ قُتل ابن زنيم. قال: فاخترطت سيفى ، ثم شددتُ على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثًا فى يدى ثم قلت: والذى كرَّم وجه محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه (٢) .

فها هو سلمة ـ رضوان الله عليه ـ يمتلئ قلبه غمًا، وهو يرى الأربعة الذين يقعون بمحمد ﷺ، فيضطر لأن يغير موقعه كله فى ظل الشجرة التى تعب فى اقتلاع شوكها إلى مكان آخر ، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا معهم فى حالة الهدنة والمصالحة إلا أن يبتعد عنهم كى لا يؤذى سمعه بسفاهتهم، أما وقد نقضوا العهد، ونكثوا به، وقتلوا ابن زنيم فقد عاد الأسد إلى عرينه ، وانقض على فريسته، وأخذ المشركين الأربعة أسرى أذلاء وأقسم قائلاً: والذى كرَّم وجه محمد (هذا الذى كانوا يسبونه قبل قليل) لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه .

واستُفِز المسلمون ووقعت المعاركة، وأخذ كل فريق أسرى رهائن، وعادت أجواء المعركة من جديد تخيم على الساحة، وعادت آمال المسلمين تنتعش بحرب المشركين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، والهدى معكوفًا أن يبلغ محله. . . وبلغت هذه المشاعر ذروتها عند وصول خبر مقتل عثمان ودعا رسول الله ﷺ للبيعة فى قلب مضارب بنى النجار، وتصف أم عمارة ـ رضى الله عنها ـ هذه اللحظات السعيدة فتقول: (فمرَّ بنا رسول الله ﷺ يومًا فى منزلنا، فظننت أنه يريد حاجة فإذا هو قد بلغه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٣٨ ، ومسلم ٣/ ١٤٨٣برقم (١٨٥٦) .
(٢) مسلم ٣/ ١٤٣٤ برقم (١٨٠٧) .

أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل، فجلس فى رحالنا ثم قال: «إن الله أمرنى بالبيعة »، قالت : فأقبل الناس يبايعونه فى رحالنا حتى تدارك الناس فما بقى لنا متاع إلا وطئ. فبايع رسول الله ﷺ الناس يومئذ . قالت: فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل إنما خرجنا عماراً . فأنا أنظر إلى غزية بن عمرو (زوجها) وقد توشح بالسيف، فقمت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته فى يدى، ومعى سكين قد شددته فى وسطى، فقلت: إن دنا منى أحد رجوت أن أقتله. فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس وعمر رضي الله عنه آخذ بيده فبايعهم على ألا يفروا وقال قائل: بايعهم على الموت ويقال أول الناس بايع : سنان بن أبى سنان الأسدى فقال: يارسول الله أبايعك على ما فى نفسك. فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان بن أبى سنان) (١).

وتخلَّف عن البيعة رجل واحد هو: الجد بن قيس الذى كان مرشحًا لزعامة بنى سلمة، والذى نجم نفاقه وصار من كبار أصحاب ابن أُبى.

لقد عاد المسلمون مرة ثانية إلى أجواء الحرب بعد أن كيَّفوا أنفسهم على المراوضة والصلح.

والله تعالى هو الذى يربى هذا الجيل، ويدعه يتصرف فى قلب المحنة، فقد كان من الممكن أن يُخبر جبريل ـ عليه السلام ـ أن خبر مقتل عثمان باطل، ولا تكون البيعة؛ بينما تشير الروايات الصحيحة إلى أن البيعة كانت بأمر من الله تعالى .

(ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمر بالبيعة) .

لابد أن يُمتحن في استعداده للموت ،وفى استعداده للمصالحة، وفى استعداده للمواجهة خلال لحظات متقاربة . ونجح هذا الجيل أروع نجاح وأثبت أعظم كفاءة يوم استجاب كله للمبايعة، وكانت نسبة الرسوب فيه واحد إلى أربعمائة وألف، رغم أنه لا يملك السلاح المناسب، إلا السيوف فى القُرب، وقائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى حال بينه وبين حمل السلاح. وها هو هذا القائد يدعوه الآن إلى أن يقاتل حتى آخر لحظة من حياته، وآخر قطرة من دمه. فكان الالتزام التام، والاستجابة الهائلة الكاملة.

وكان الاختبار السادس الأعنف والأصعب .

(. . . فأخبرنى أيوب عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ: « قد سهل لكم أمركم» قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال:

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠٣ .

هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هى، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبى ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى» اكتب محمد بن عبد الله. قال الزهرى: وذلك قوله: «لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها») (١).

وفى رواية البراء رضي الله عنه قال:

(... فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا. ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله» ثم قال لعلى: «امح رسول الله» قال على: لا والله لا أمحوك أبدًا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب: هذا ما قاضى محمد بن عبد الله...) (٢).

وفى رواية أخرى عنه قال: (فأخذ يكتب الشروط على بن أبى طالبّ فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولتابعناك. ولكن اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال: «أنا والله محمد بن عبد الله وأنا والله رسول الله» قال: وكان لا يكتب. قال: فقال لعلى: «امح رسول الله» فقال على: والله لا أمحاه أبدًا. قال: «فأرينه». قال: فأراه إياه. فمحاه النبى ﷺ بيده(٣).

ونظر المسلمون إلى هذا التحدى السافر لهم من سهيل بن عمرو ولو كان الأمر بيدهم لقطعوا المفاوضات وقالوا لسهيل بن عمرو: ليس لك عندنا إلا السيف. وهم واثقون بنصر الله تعالى، وهم بايعوا على الموت وبايعوا على ألا يفروا ولو استشهدوا جميعًا. ورأوا أن هذا التحدى فيه مساس مباشر بعقيدتهم، فشعارهم حين يبدؤون بكل عمل هو: بسم الله الرحمن الرحيم، فكيف يكتب الكتاب بتحية الجاهلية: باسمك اللهم بعد أن هداهم الله تعالى للإسلام، وأكرمهم بمحمد ﷺ؟! فكان موقفهم العفوى الواضح حين ابتدأ التحدى من سهيل ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى، ك الشروط ٥/ ٣٣٢ برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) المصدر نفسه ٧/ ٤٩٩ برقم (٤٢٥١)، ب عمرة القضاء.

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى، ك الجزية ٦/ ٢٨٢ برقم (٣١٨٤).

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

وليس من عادة المسلمين أبدًا أن يقدّموا بين يدى الله ورسوله. ولكنه إشعار لهذا الخصم أنهم أعزاء بدينهم، وأنهم على استعداد للمواجهة، وأنهم إنما يقبلون هذا الصلح كارهين له.

وكما حدثتنا أم عمارة ـ رضى الله عنها ـ عن البيعة والتنافس فيها والتزاحم عليها. ها هى تحدثنا عن المفاوضة:

فعن الحارث بن عبد الله بن كعب قال: سمعت أم عمارة تقول: إنى لأنظر إلى رسول الله ﷺ يومئذ متربعًا وإن عبَّاد بن بشر، وسلمة بن أسلم بن حريش مقنَّعان بالحديد، قائمان على رأس النبى ﷺ إذ رفع سهيل بن عمرو صوته. قالا: اخفض من صوتك عند رسول الله! وسهيل بارك على ركبتيه رافع صوته ، كأنى أنظر إلى علم فى شفته وإلى أنيابه، وإن المسلمين لحول رسول الله ﷺ جلوس (١).

وفى هذا الجو من التوتر النفسى جاء هذا التحدى السافر. الذى يصف الواقدى جزئياته كما رواها عن شيوخه:

(. . . فأمر النبى ﷺ عليًا يكتب. فقال رسول الله ﷺ: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ». فقال سهيل :لا أعرف الرحمن. اكتب كما نكتب؛ باسمك اللهم. فضاق المسلمون من ذلك وقالوا: هو الرحمن وقالوا: لا نكتب إلا الرحمن قال سهيل: إذن لا أقاضيه على شىء. فقال رسول الله ﷺ: « اكتب باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه رسول الله » فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ؟ فضج المسلمون منها ضجة هى أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات، وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: لا نكتب إلا محمد رسول الله) (٢).

ولم تقف القضية عند الاعتراض القولى على زعم سهيل ، إنما تجاوز الأمر أكثر كما فى الروايات الصحيحة أن يرفض على رضي الله عنه محو اسم رسول الله ، أول مرة قائلاً: والله لا أمحاه أبدًا. ويقوم الرسول ﷺ بمحوه بيده الشريفة.

ويحدثنا الواقدى عن شيوخه أن القضية تجاوزت عليًا رضي الله عنه إلى قيادات الأنصار من الأوس والخزرج ، فعن واقد بن عمرو قال: حدثنى من نظر إلى أسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا: لا نكتب إلا محمد رسول الله، وإلا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٦١٠ ، ٦١١ .

فالسيف بيننا! علام نعطى هذه الدنية فى ديننا؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومئ بيده إليهم : اسكتوا وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون، ويقبل على مكرز بن حفص ويقول : ما رأيت قومًا أحوط لدينهم من هؤلاء القوم! فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» . فنزلت هذه الآية فى سهيل حين أبى أن يقر بالرحمن: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾(1) .

لقد كانت القيادات الكبرى كلها تشتعل غضبًا لهذا التطاول من سهيل بن عمرو، وهى على استعداد أن تشعل الحرب وتفنى عن آخرها فداءً لرسالة محمد ﷺ، وما قدموا حياتهم وحياة أمتهم وقبائلهم؛ إلا من أجل الوحدانية والرسالة، لكن إشارة واحدة من القائد الحبيب والرسول المفدى، وإيماءة واحدة أوقفت هذه النار المتقدة والأتون اللاهب. سمعًا وطاعة لله ورسوله، حتى ليذهل حويطب ومكرز لهذه الطاعة. وهم يعلمون السعار الذى يشتعل بداخل هذه القلوب غضبًا لمحمد ورسالته، ولكنهم مع هذه الإيماءة يستجيبون جميعًا تنفيذاً لأمر الله ورسوله.

لقد أدرك المشركون بالتأكيد أن جيش النبوة غير راضٍ عن الصلح، وأنه من القوة والمنعة والاستعداد للمواجهة فى أى لحظة ـ وهو الأحب إليه ـ ما يجعل قريشاً تحرص على الوفاء بهذا العهد، وإلا فهى الخاسرة الوحيدة. وأدركت قريش كذلك ، أن الموافقة على الصلح من القائد المصطفى ﷺ ليس عن ضعف أو عن عجز، إنما هو عن حلم وحكمة، وعفو عند المقدرة ، حرصًا على تعظيم شعائر الله، وصلة الرحم كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما نقله عنه الزهرى: فذلك لقوله :« لا يسألوننى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ».

وإن إبداء مشاعر السخط بالصلح أمام العدو يرضاه الله تعالى ورسوله لإشعار قريش بقوة المسلمين، ومن أجل هذا وبعد إبداء هذه المشاعر، كانت الإيماءة كفيلة لهذا الجيل السعيد أن يستجيب لله ولرسوله ، ويظفر وينجح فى امتحانه، وذلك منبعث من قناعتهم التامة فى عقولهم ـ على الأقل ـ أن النبى ﷺ يوحى إليه . فهم لا يلامون على مشاعرهم ولا يحاسبون عليها؛ لأنهم بشر خصوصًا بعد ذلك التصعيد فى البيعة ، ثم هذا التفريغ فى الصلح ثم التنازل فيه عن اسم الرحمن واسم رسول الله من النبى المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو شىء لم يعهدوه فى حياتهم من قبل ، إنما شهده

---

(1) الإسراء / ١١٠ .

الجيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين فى مكة، من الصبر على الأذى، وتحمل البلاء مع الأوامر الصارمة بكف اليد، لكن حتى هذه ، لم يقدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على مثيل لها فى العهد المكى ، رغم كثير من العروض المغرية فى المصالحة فى منتصف الطريق، وبقيت المفاصلة قائمة بين الفريقين ، حتى انتهت بالهجرة إلى المدينة وإقامة الدولة الجديدة .

وكان الامتحان الأعسر السابع .

(. . . فقال له النبى ﷺ : « على أن تُخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب)(١) .

وكاد المسلمون أن يفقدوا أعصابهم، وتنفجر قلوبهم من الألم. فهم قادمون لا يشكون أبدًا بدخول مكة لرؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل مكة ، وطاف بالبيت وعرَّف مع المعرفين .

(. . . قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : « إنى رسول الله ، ولست أعصيه ،وهو ناصرى » . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام ؟ ! » قلت : لا . قال : « فإنك آتيه ومطوِّف به » .

قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ! وليس يعصى ربه ، وهو ناصره . فاستمسك بغرزه . فوالله إنه على الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال الزهرى : قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً) (٢).

لقد كان عمر ينطق بلسان كل مسلم ، شده المسلمون وهم يرون رسول الله ﷺ يوافق على عودته عن البيت هذا العام ،وهو الذى وعدهم برؤياه بدخول مكة ، ورؤياه وحى ، وخرج الرجل الثانى فى الأمة عن طوره وفقد أعصابه حقاً لأول مرة فى تاريخ حياته كلها ، ولم يكتف بالألم ، إنما جاء إلى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يسأله فى استنكار ما وقع مثله أبداً : ألست نبى الله حقاً ؟ ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٣١ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .
(٢) المصدر نفسه ٥/ ٣٣٢ .

فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟!

أسئلة لو سمعها عمر من غيره وفى غير هذه الظروف لاستل سيفه يطلب الإذن من قائده الحبيب بقتله .

ولم يكتف بذلك ، فهو لم يصح بعد من هول الصدمة ، حتى ليمضى إلى الصديق ، ويسأل الأسئلة نفسها ويسمع الإجابة المطابقة الموافقة نفسها مع تبكيت وتقريع من الصديق له .

وفى رواية البزار بسند صحيح عن عمر مختصر . قال : اتهموا الرأى على الدين، فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله ﷺ برأى ، وما ألوت عن الحق ـ وفيه ـ فرضى رسول الله ﷺ وأبيت . حتى قال لى : « يا عمر تُرانى رضيت وتأبى » .

ويكاد يكون الصديق رضي الله عنه هو الذى انفرد عن الأمة كلها باستيعاب هذا الأمر وأبعاده .

ويحدثنا الحافظ ابن حجرٍ ـ رحمه الله ـ حول هذا الأمر شارحاً للحديث فيقول:

قوله : (أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ؟) فى رواية ابن إسحاق : كان الصحابة لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ . فلما رأوا الصلح ، دخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . وعند الواقدى : أن النبى ﷺ كان رأى فى منامه قبل أن يعتمر أنه دخل هو وأصحابه البيت،فلما رأوا تأخير ذلك شقَّ عليهم .

ويستفاد من هذا الفصل :جواز البحث فى العلم حتى يظهر المعنى . . . قوله: (فأتيت أبا بكر) لم يذكر عمر أنه راجع أحداً فى ذلك بعد رسول الله ﷺ غير أبى بكر الصديق ، وذلك لجلالة قدره وسعة علمه عنده . وفى جواب أبى بكر لعمر بنظير ما أجابه النبى ﷺ سواء، دلالة على أنه كان من أكمل الصحابة ، وأعرفهم بأحوال رسول الله ﷺ ، وأعلمهم بأمور الدين وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى . وقد وقع التصريح فى هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور،وكانوا على رأى عمر فى ذلك، وظهر من هذا الفصل: أن الصديق لم يكن فى ذلك موافقاً لهم ، بل كان قلبه على قلب رسول الله ﷺ سواء ، وسيأتى فى الهجرة أن ابن الدغنة وصف أبا بكر الصديق بنظير ما وصفت به خديجة رسول الله ﷺ من كونه يصل الرحم ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الحق ، وغير ذلك فلما كانت صفاتهما متشابهة من الابتداء ، استمر ذلك فى الانتهاء)(١).

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٤٦ .

وعند الواقدى :

(قال عمر ورجال معه من أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله ، ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتعرِّف مع المعرفين ، وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ؟! فقال رسول الله ﷺ : « قلت لكم : فى سفركم هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال رسول الله ﷺ : « أما إنكم ستدخلونه ، وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسى ورؤوسكم فى بطن مكة وأعرِّف مع المعرفين ») .

وعلى الغالب أن هذا الأمر لم يتم فى هذه اللحظات ، وأثناء توقيع الهدنة ، إنما كان بعد ذلك .

لكن كل ما رأيناه من مظاهر الغضب لم يتجاوز حديث النفس . ويحدثنا عمر رضي الله عنه عن ذات نفسه فيقول فيما رواه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : (جلست عند عمر ابن الخطاب يوماً فذكر القضية فقال : لقد دخلنى يومئذ من الشك ، وراجعت النبى ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط . ولقد عتقت فيما دخلنى يومئذ رقاباً ، وصمت دهراً ، وإنى لأذكر ما صنعت خالياً فيكون أكبر همى ، ثم جعل الله عاقبة القضية خيراً ، فينبغى للعباد أن يتهموا الرأى . والله لقد دخلنى يومئذ من الشك حتى قلت فى نفسى : لو كنا مائة رجل على مثل رأيى ما دخلنا فيه أبداً ! فلما وقعت القضية أسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية ، وما كان فى الإسلام فتح أعظم من الحديبية ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح؛ لأنهم خرجوا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه ، وأنه دخل البيت ، فأخذ مفتاح الكعبة ، وعرَّف مع المعرفين ، فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون) (١) .

ونجاهم الله تعالى من الهلاك ليدخلوا فى الامتحان الثامن بعده .

(... فقال سهيل: وعلى ألا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ..؟) (٢) ، وعند ابن إسحاق : (ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه) (٣) .

وفى رواية : (فقال سهيل : على ألا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه وإن كان على

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٦٠٧ .

(٢) من حديث البخارى برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٤٤١ .

دينك إلا سددته إلينا) . فقال المسلمون : سبحان الله ! أيكتب هذا ؟كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله . ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » (١) .

إن مجرد الصلح عند المسلمين ولو كان بشروط قوية مجحفة فى قريش كل الإجحاف ،هو مكروه عند جيل البيعة الذى استعد للموت والمواجهة فى سبيل الله ، فكيف بهذه الشروط الصاعقة لهم ،والمجحفة بحقهم ، والتى تمسهم فى أعز ما لديهم فى دينهم وفى كرامتهم ، والله تعالى يدعهم إلى إيمانهم دون أن يعلمهم بشىء يختبرهم فى مواقفهم جميعاً بامتحان تلو امتحان ،وفى مواقف متعارضة متضاربة ؛ ليكونوا أهلاً بعد هذا كله لما أعده لهم من تكريم وثناء وفضل . فقد كان مستغرباً أشد الاستغراب عندهم أن يقبل رسول الله ﷺ إعادة من يأتيه مسلماً إلى المشركين ، سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟!

وبالمقابل لا يرد الفار من المسلمين إليهم إذا فر إلى المشركين .

وحتى تأخذ المحنة أقصاها، وتأخذ أبعادها جاء الامتحان التاسع الرهيب .

حيث (فبينما هم كذلك ؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده. وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذن لا أصالحك على شىء أبدًا. قال النبى ﷺ: « فأجزه لى» ، قال: ما أنا بمجيزه لك ، قال: « بلى فافعل » . قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا فى سبيل الله . قال : فقال عمر بن الخطاب : فأتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقًا. . . .) (٢) .

وفى رواية أبى الأسود عن عروة وكان سهيل أوثقه وسجنه حين أسلم، فخرج من السجن، وتنكب الطريق وركب الجبال حتى هبط على المسلمين ففرح به المسلمون وتلقوه، قوله : (يرسف) أى : يمشى مشيًا بطيئًا بسبب القيد، قوله : (فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى) زاد ابن إسحاق فى روايته : فقام سهيل بن عمرو إلى أبى جندل فضرب وجهه وأخذ بلبته . . . . قوله:(قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أرد إلى المشركين؟ زاد ابن إسحاق . فقال رسول الله ﷺ: « يا أبا

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥ / ٨٩ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٣١ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

جندل اصبر واحتسب فإنا لا نقدر ،وأن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا » ، وفى رواية أبى المليح : فأوصاه رسول الله ﷺ. قال: فوثب عمر مع أبى جندل يمشى إلى جنبه، ويقول: اصبر، فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم كدم كلب. قال: ويدنى قائمة السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذه منى فيضرب به أباه. فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية) (١) .

وزاد الواقدى فقال عمر: يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه فى الله. والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله فرجل برجل! قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال: مالك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره. قال أبو جندل: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله منى (٢) .

لم يعد الأمر مجرد تصور ذهنى. والتصور الذهنى لم يتحمله المسلمون، إنما هو صورة واقعية لشاب مسلم قطع الجبال. والتجأ إلى رسول الله ﷺ معلنًا إسلامه، والجيش الإسلامى كله يشهد هذا المنظر المؤلم القاتل. وسهيل بن عمرو أخذته حمية الجاهلية، وخانته حكمته، واعتبر إسلام ابنه إهانة موجهة لشخصه، وطعنًا فى ذاته. فأوقف المباحثات كلها على رواية أبى جندل إليه. ولم يكتف بذلك فقام يضرب بكل ما يحمل من حقد ابنه . وابنه أبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى، وأبوه يضرب وجهه بغصن شوك ويأخذ بلبته(٣).

فزاد المسلمين ذلك شرًا إلى ما بهم، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل.

ولا يزال الأسد الجريح عمر بن الخطاب يئن فى وثاقه من تطاول سهيل ومكرز بن حفص، وحويطب بن عبد العزى، فأراد أن يشعلها نارًا تحرق هؤلاء المتطاولين، وراح يدنى قائم السيف من أبى جندل يحضه على قتل ابنه، وبذلك يسقط الصلح وتقع المعركة. لم يكن عمر رضي الله عنه فى حياته كلها أضعف منه ذلك اليوم، ولم يذكر فى حياته ذنبًا أعظم من هذا الذنب فى الإسلام. وحين نذكر خطأ الكبار ، لا نجد فى صفحة عمر رضي الله عنه غير هذه الخطيئة التى كانت دون مستواه والتزامه بكثير. حتى ولا موقفه يوم وفاة رسول الله ﷺ حين كانت المصيبة أكبر منه، فهو هناك لم يخرج على كلام رسوله محمد ﷺ، أو يشك فى حسن تصرفه. أما هنا فقد وقعت المحنة، وكانت أكبر منه وكما روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن عمر، وذكر القضية فى خلافته فقال: ارتبت ارتيابًا لم أرتبه منذ أسلمت إلا يومئذ، ولو وجدت ذلك اليوم شيعة تخرج عنهم

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٤٥ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠٩ .

(٣) اللبة : مجامع الصدر والعنق .

رغبة فى القضية لخرجت، ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيرًا ورشدًا وكان رسول الله ﷺ أعلم.

لقد جاءت قضية أبى جندل فأججت النار من جديد،ولكن هذه النار تأكل القلب ، لكنها لا تمتد أبدأ إلى السلوك . فعندما سأل أبو جندل رضي الله عنه عمر بن الخطاب: مالك لا تقتله أنت؟ قال: نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره. فأجابه الملتزم العظيم أبو جندل الذى لا يزال يرسف فى قيوده: ما أنت بأحق من طاعة رسول الله منى .

فقد صدر الأمر بكف اليد لكليهما. وصدر الأمر لأبى جندل الآن يدعوه إلى الصبر والاحتساب حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا. وكلما اشتد الضيق والكرب، وأمكن الالتزام والانضباط من خلاله. كلما اعتبر النجاح أرفع وأروع لهذه الأمة الفتية. ولئن كان قوم طالوت قد امتحنوا بالنهر، فهذه عشرة أنهر وعشرة ممن يمتحن الله بها هؤلاء الخلَّص من جنده ؛ لأنهم هم خيرة أهل الأرض بعد أنبيائه ورسله.

وهذا هو الامتحان العاشر والأخير ، قبل إعلان النتيجة التى تلقاها هذا الجيل السعيد وهو عائد من الحديبية إلى المدينة. . . (فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا »قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس. فقالت: أم سلمة: يا نبى الله ، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا)(١).

ولأول مرة فى تاريخ هذه الأمة منذ تسعة عشر عامًا. يصدر أمر من رسول الله ﷺ ولا ينفذ على الفور ولا يقم أحد بتنفيذه. فالانتقال من التصور النظرى عن قبول المعاهدة والعودة إلى المدينة دون عمرة ، إلى الممارسة العملية أمر من المشقة والهول ما لا يستطيعه أحد، فإذا حلقوا ونحروا فهذا يعنى : أنهم حقاً لن يدخلوا مكة ولن يعتمروا . ولا تزال تعتمل فى قلوبهم احتمالات تفجر الموقف ، من معركة جانبية ، أو اختلاف فى جزئية، فتسقط الاتفاق، ويدخل المسلمون المسجد الحرام ويؤدوا المناسك. أما وقد صدر الأمر بالنحر والحلق، فهذا يعنى : سقوط كل الأمانى والعودة بدون عمرة، ونجاح قريش التى تحاد الله ورسوله فى صد محمد عن هذا البيت. ويكاد يكون القوم جميعًا قد فقدوا وعيهم، وكل امرئ منهم ينتظر أخاه أن يقوم ؛ ليكون آخر من

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٣٣٢ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

ينفذ على كُره منه الحلق والذبح دون نسك. وثلاث مرات يتم النداء، ويتم التلكؤ.حتى دخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على زوجه العظيم ـ أم سلمة ـ وشكا لها ما لقى من الناس. وكانت أم سلمة من الحكمة والعبقرية، وهى جزء من هذه الأمة تحس بأحاسيسها وتشعر بمشاعرها،وتعانى كما يعانون بحيث أدركت أبعاد الموقف كله، وعلمت أن الأمة قد لا تستجيب للنداء النظرى.فهم يرون قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يزال محرمًا. فإذن قد تتم العمرة بعدها، فلم العجلة،وخرج الرسول ﷺ ولم يكلم أحدا فنحر ثم حلق،وتسارع المسلمون بعدها للحلق والذبح.حتى كادوا يقتلون بعضهم من الغم.ونفذوا الأمر النبوى كما صدر لهم.ونجحوا فى امتحاناتهم العشرة.

وما ظهر أثناء هذه الامتحانات من تلكؤ حينًا أو كلام يند أحيانًا أخرى، لكن التنفيذ يتم فى النهاية ضد رغباتهم وضد ذاتهم وضد أهوائهم، وضد قناعاتهم، كل هذا لم يأت عبثًا أبدًا... إنما هو امتحان ربانى فقط. ليس لرسول الله ﷺ دور إلا تنفيذ ما يوحى له ربه فى هذا المجال. إنها دورة رئاسة أركان عليا. خاضها جيل الحديبية؛ لتعطيهم أعلى الأوسمة فى تاريخ البشرية، وترفعهم إلى مصاف أولياء الله الذين تتحدث عنهم البشرية قاطبة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وعند الأمم السابقة المختارة مثلهم أنهم الأولى وأنهم الأرفع، وأنهم الأعلى.

ها نحن شهدنا ولادتهم منذ تسع عشرة عامًا خطوة خطوة، وفردًا فردًا. حتى استووا واقعا حيًا يسير على الأرض. بعد أن كانوا مثلاً حيًا فى الكتب وضميراً فى عالم الغيب المكنون.

وأعلنت نتيجة الامتحانات الكاملة على طريق العودة إلى المدينة... حيث تم تغيير كامل فى تكوينهم، وسحبت منهم الحمية ليتحولوا إلى جيل الدعوة الخالصة. فإن عليهم قيادة الأجيال الجديدة التى تفد بعد الحديبية،وعليهم مسؤولية صياغتها، ومسؤولية تربيتها. وستتدفق أمواج المسلمين كالأنهار عليهم من كل صوب، وعليهم أن يستوعبوا هذا التدفق، فكان استبدال السكينة بالحمية هو عنصر البناء الجديد، وعنصر الصياغة الجديدة التى تلقوها على الطريق،بعد إعلان الفتح المبين لمحمد رسول الله ﷺ، وإعلان الرضاء التام عن رسوله الذى لم ينله مخلوق على مستواه. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة فأنزل الله عز وجل :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا .لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ

صراطًا مستقيمًا . وينصرك الله نصرًا عزيزًا ﴾ (١) أو كما شاء الله ، فقال نبى الله ﷺ: « لقد أنزلت علىَّ آية هى أحب إلى من الدنيا جميعًا » (٢).

وفى رواية أخرى عن أنس بن مالك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ قال: نزلت على النبى ﷺ مرجعه من الحديبية، وقد حيل بينهم وبين نُسكهم، فنحر الهدى بالحديبية ،وأصحابه مخالطو الكآبة والحزن فقال: « لقد أنزلت علىَّ آية أحب إلى من الدنيا جميعًا فقرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا .لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى قوله ﴿ عَزِيزًا ﴾ فقال أصحابه : هنيئًا لك يا رسول الله (٣).

(وأخرج عبد الرزاق، وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم، والترمذى وابن جرير، وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة عن أنس رضي الله عنه قال: أنزلت على النبى ﷺ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية فقال: « لقد أنزلت على آية هى أحب إلىَّ مما على الأرض » ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئًا مريئًا يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يُفعل بك. فماذا يُفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ حتى بلغ : ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾) (٤) .

فقد أكرم الله تعالى هذا الجيل بالسكينة والرضوان والجنة وهو الفوز العظيم.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٥) .

ثم كرَّر ذلك عليهم فى السورة مرة ثانية. حيث خصَّ هؤلاء المؤمنين بأنهم هم الذين بايعوا تحت الشجرة فقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٦) .

فأضاف إليهم - عز وجل - إضافة إلى الفتح المبين فى الحديبية، الفتح القريب مع العدو. ثم يعود ثالثة فيمن عليهم فى السورة نفسها بالسكينة التى حلت محل الحمية، والتى انتزعت من النفوس: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ

---

(١) الفتح / ١ ــ ٣ .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى م ١١ /ج ٢٦/ ٤٣ .
(٣) المصدر السابق م ١١ /ج٢٦/ ٤٤ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٩٧ .
(٥) الفتح/ ٤ ، ٥ .
(٦) الفتح / ١٨ .

شيءٍ عَليمًا ﴾(1) . وكان هذا كله ثمرة هذه الامتحانات جميعًا. وإعلان نتائج الفوز العظيم فيها.

ويسوق لنا الحافظ البيهقى ـ رحمه الله ـ فى الدلائل شرحًا مستفيضًا لهذا الفتح الذى قصرت أفهام المؤمنين عنه ابتداء ،وخالطهم الحزن والكآبة بعد الغضب والثورة وأثناء كتابة هدنة الحديبية،واستشرف رسول الله ﷺ آفاق هذا الفتح فحدثهم عنه بعد أن التزموا بأمر الله ورسوله خلاف قناعتهم وخلاف أهوائهم وخلاف عواطفهم ومشاعرهم.

فعن عروة بن الزبير قال : وأقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا. فقال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ : ما هذا بفتح لقد صُددنا عن البيت وصُدَّ هدينا، وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية، ورد رسول الله ﷺ رجلين من المسلمين خرجا. فبلغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابه إن هذا ليس بفتح (2) ، فقال رسول الله ﷺ : « بئس الكلام. هذا أعظم الفتح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم فى الأمان. وقد رأوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله ـ عز وجل ـ عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾(3) ؟ » . قال المسلمون : صدق الله ورسوله . هو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكَّرت فيه ، ولأنت أعلم بالله ـ عز وجل ـ وبالأمور منا. وأنزل الله ـ عز وجل ـ سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . . ﴾ إلى قوله : ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ فبشر الله عز وجل نبيه ﷺ بمغفرته ، وتمام نعمته،وفى طاعة من أطاع، ونفاق من نافق .

ثم ذكر المشركين وصدهم المسلمين عن البيت الحرام والهدى معكوفًا أن يبلُغ محلَّه وأخبر أن ﴿ لَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لو كان قتال، ثم قال: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(4).

ثم ذكر الحمية التى جعلها الله فى قلوبهم حين أبوا أن يُقرُّوا لله تبارك وتعالى باسمه، وللرسول باسمه، وذكر الذى أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين

(1) الفتح / 26 .

(2) كان هذا قبل نزول سورة الفتح إنما هو تداول بين الصحابة عموماً .

(3) الأحزاب / 10 . (4) الفتح / 25 .

من السكينة حتى لا يحموا كما حمى المشركون لوقع القتال فيكون فيه معرَّة، ثم ذكر أنه قد صدق رسوله الرؤيا بالحق : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ إلى : ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) .

هذا لفظ حديث أبي الأسود عن عروة، وحديث موسى بن عقبة بمعناه : قال: (والفتح القريب) الذى أعطاه الله لرسوله ﷺ من الظفر على عدوه فى القضية التي قاضاهم عليها يوم الحديبية، على أن يرجع من العام المقبل فى الشهر الحرام الذى صُدَّ فيه آمنًا هو فى أصحابه. ويقول ناس: الفتح القريب : خيبر وما ذكر فيها. وقد سمى الله خيبر فى آية أخرى فتحًا قريبًا ،قال: ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢)، فكان الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش سنتين يأمن بعضهم بعضًا. هذا لفظ حديث موسى بن عقبة، وحديث عروة بمعناه (٣) .

لقد كانت مهمة هذه الامتحانات العشرة أن تحوِّل جيل الثأر من الكافرين بعد أن أظفر الله هذا الجيل عليهم إلى جيل الدعوة فى صفوفهم وصفوف العرب قاطبة. وهذا الجيل يجب أن تكون أولى مواصفاته الاستجابة لداعى الجهاد والقتال فى التو عندما يطلب منه ذلك.

وقد نفَّذ هذه المهمة بنجاح، وسارع كله إلى البيعة كما تقول أم عمارة : (فما بقى لنا متاع إلا وطئ) وأن يكون جاهزًا لإلقاء السلاح على التو عندما يطلب منه ذلك. وقد نفَّذ هذه المهمة بنجاح، حتى يستجيبون بالإيماءة لذلك (فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومئ بيده إليهم: اسكتوا. وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون) وأن تكون الدعوة إلى الله هى محور حياته. حتى مع قريش فإيمانهم أكبر بكثير من الثأر منهم وقتالهم وجهادهم ﴿ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (٤)، وأن يكون ظهور الدين وانتشاره فى الآفاق هو الهدف الرئيسى بعد رضوان الله، وليس فقط قتل المشركين وإبادتهم. ليس ظهور أشخاص هذا الدين ، إنما ظهور هذا الدين.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٥) وهذا لا يتم إلا فى جو الحرية المطلقة للدعوة، حيث يكون الحديث للهدى لا للسيف، والاحتكام للحق لا للقوة، ومعاهدة الحديبية هى التى كوَّنت هذا الجو. وما كان لها أن تكونه بدون هذه القوة .

---

(١) الفتح / ٢٧ .
(٢) الفتح / ١٨ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ١٦٢ .
(٤) الفتح / ٢٥ .
(٥) الفتح / ٢٨ .

وهى كما رواها ابن إسحاق عن الزهرى ، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنَّ من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممَّن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة [١] ، وأنه لا إسلال [٢] ولا إغلال [٣] ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه».

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامك هذا. فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلت بأصحابك. فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب السيوف فى القُرُب، لا تدخلها بغيرها [٤] .

(١) وإن بيننا عيبة مكفوفة: هى استعارة وإنما يريد أن تكف عنا ونكف عنك.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية.

(٣) الإغلال: الخيانة.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٤٠ ، ٤٤١ .

محمد رسول الله والذين معه

ونصل بعد إلى ختام السورة. ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ . ولكنا قبل هذا الختام. نقف مع القائد الأعظم محمد ﷺ. ومع قول الله تعالى له فى السورة نفسها، بعد أن جاءه أحب مما طلعت عليه الشمس ،نقف مع قول الله تعالى له: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١) نرى تفسيرها كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ من خلال التوراة التى بشرت. قبل أكثر من ألف عام بهذا النبى ، وبشرت بأمنه.

(فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ قال فى التوراة: يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرزًا للأميين، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به المِلَّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا) (٢) .

فهو الذى اختاره الله تعالى وصنعه على عينه، ليكون نور البشرية حين تعوج وتضيع فى متاهات الظلم .أعطاه الله تعالى من الخلق العظيم ما لم يعطه أحدًا من خلقه. وذكر بعض جوانب من خلقه فى سفر البشرية الأولى فى التوراة التى أنزلت على موسى كليم الله :ليس بفظ ولا غليظ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾(٣) لكنه الرؤوف الرحيم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

وهو الرحمة المهداة للبشرية كافة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

ولا سخاب فى الأسواق ، فهو الداعية إلى الله فى هذا الوجود ، وهو إمام الدعاة إلى الله تعالى ،ولا يدفع السيئة بالسيئة. ولكن يعفو ويصفح حتى عن ألد أعدائه ،

---

(١) الأحزاب / ٤٥ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٥٨٥ برقم (٤٨٣٨) .

(٣) آل عمران / ١٥٩ . (٤) التوبة / ١٢٨ .

(٥) الأنبياء / ١٠٧ .

يأمل لهم الهدى والنور . أو لذرياتهم : « عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله»، «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها شعائر الله إلا أعطيتهم إياها » ، « لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء.

وها هى قريش بعد حرب قرابة عشرين عامًا تلقى سلاحها، وتفتح طريقها أمام محمد ﷺ، حيث توقع على إيقاف الحرب لعشر سنين. وتفتح الطريق أمام النور لتنفتح الأعين العمى، والآذان الصم، والقلوب الغلف.

ها نحن على قارعة الطريق الذى سنشهد من خلاله انتشار هذا النور فى الآفاق، ومعه حزب الله الذى جهد على تكوينه عشرين عامًا خلت. يحدثنا الله تعالى عنه فى كل كتبه ورسالاته: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

والآن نجىء إلى ختام السورة . . . ختامها بهذه الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها فردًا فردًا. إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة حالاتها الظاهرة والمضمرة.

فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أن أنفسهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ولقطة تصور هيأتهم فى عبادتهم : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ .

ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها وما يجيش بها: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ، ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ، ولقطة تصور صفتهم فى التوراة: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ ، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ ، ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ ، ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ ، ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ ، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

وتبدأ الآيات بإثبات صفة محمد ﷺ ـ صفته التى أنكرها سهيل بن عمرو ، ومن وراءه من المشركين : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ـ ثم ترتسم الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى ، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصلية فى هذه الحياة وتبرزها ،وتصوغ منها الخطوط العريضة فى الصور الوضيئة. وإرادة التكريم واضحة فى اختيار هذه اللقطات ،وتثبت الملامح والسمات التى يصورها التكريم الإلهى لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم فى :

اللقطة الأولى : أنهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم،وذوو قرابتهم وصحابتهم،ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهم فقط إخوة دين ، فهى الشدة لله والرحمة لله ، وهى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة ، فليس لهم فى أنفسهم شىء ، ولا لأنفسهم فيهم شىء ، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها ، ويشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها ، قد تجردوا من الأنانية، ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التى تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة،وهو يختار من هيئاتهم؛هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة، وهى :

اللقطة الثانية : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ والتعبير يوحى كأنما هذه هى هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حين يراهم ؛ ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهى: الحالة الأصلية فى حقيقة نفوسهم ،فعبِّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك فى زمانهم حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً .

واللقطة الثالثة : مثلها ، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم ، وأعماق سرائرهم : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ فهذه هى صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، كل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه،ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة : تثبت أثر العبادة الظاهرة ، والتطلُّع المضمر فى ملامحهم ، ونضحها على سماتهم ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ سيماهم فى وجوههم من الإشراق والوضاءة والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحى الوضىء اللطيف .

وليست هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو: أثر العبادة ، واختار لفظ السجود ؛ لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله فى أكمل صورها،فهو أثر هذا الخشوع، أثره فى ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذى يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التى تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر،ومن ثم فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة :﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾، وصفتهم التى عرفهم الله بها فى كتاب موسى ،وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ ﴾ وصفهم فى بشارته بمحمد ومن معه أنهم:﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فهو زرع تام قوى يخرج فرخه من قوته وخصوبته ، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده: ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ وأن العود آزر فرخه فشدَّه ﴿ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ الزرع ، وضخمت ساقه وامتلأت ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ لا معوجا ومنحنياً ، ولكن مستقيماً قويا سوياً .

هذه صورته فى ذاته ، فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة والزرع العارفين منه بالنامى والذابل ، المثمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجـاب : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ وفى قراءة : « يعجب الزارع » وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامى القوى الخصيب البهيج ، وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس: فهو وقع الغيظ والكمد : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ ، وتعمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة زرعة الله أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار لقدره ،وأداة لإغاظة أعداء الله .

وهذا المثل ليس مستحدثاً فهو ثابت فى صفحة القدر ، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى الأرض ، ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيؤون .

وهكذا يثبت الله فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ـ صحابة رسول الله ﷺ ـ فتثبت فى صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود ، وتبقى نموذجاً للأجيال تحاول أن تحققها ليتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله ،وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهو وعد يجىء فى هذه الصيغة العامة بعدما

تقدم من صفتهم التى تجعلهم أول الداخلين فى هذه الصيغة العامة ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وذلك التكريم وحده حسبهم ، وذلك الرضى وحده أجر عظيم ، ولكنه الفيض الإلهى بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهى عطاء غير مجذوذ .

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهى من الرضى والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا فى اعتبار الله وفى ميزان الله ، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم ، وينظر بعضهم فى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التى يحسها وهو فى كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات فى هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه . . . ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه إلا من بعيد ؟! اللهم إلا أن يكرمه الله إكرامهم فيقرِّب له البعيد . . . اللهم إنك تعلم أنى أتطلع لهذا الزاد الفريد(١) .

ونعيش بجوار سيد لحظات ولقطات فى هذا المهرجان الفريد .

١ ـ ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢) .

فقد أخذ الله تعالى ميثاق النبيين جميعاً على الإيمان بمحمد ﷺ ، وإن كان هو خاتمهم فى الترتيب الزمنى ؛ ليكون مصدقاً لما معهم ، وتكون الكمالات فى الرسالات كلها فى رسالته، والكمالات البشرية كلها فى شخصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع ولا فخر»(٣).

﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (٤) .

أخرج البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٢٦/ ٣٣٣٣ .

(٢) آل عمران / ٨١ .

(٣) مسلم ٤/ ١٧٨٢ برقم (٢٢٧٨) .

(٤) الفتح / ٢٩ .

فى القرآن: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ،ولا يجزى السيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صُمًا ، وقلوبًا غُلفا(١) .

٢ـ وإذا بهذه الأعين العمى ، والآذان الصم ، والقلوب الغلف تتفتح ، وتستقيم الملة العوجاء ، ويتحقق بمن معه الأوصاف الأخرى التى وردت فى التوراة والإنجيل والقرآن.

(أخرج الدارمى فى مسنده وابن عساكر عن كعب قال: فى السطر الأول: محمد رسول الله عبدى المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى السيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، مولده مكة، وهجرته بطيبة، وملكه فى الشام. وفى السطر الثانى: محمد رسول الله أمته الحمادون، يحمدون الله فى السراء والضراء، يحمدون الله فى كل منزل، ويكبرونه على كل شرف، رعاة الشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة، ويأتزرون على أوساطهم، ويوضئون أطرافهم، وأصواتهم بالليل فى جو السماء كدوى النحل)(٢) .

وأخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة، وأبو نُعيم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « صفتى : أحمد المتوكل، مولده مكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ ولا غليظ، يجزى بالحسنة الحسنة، ولا يكافئ بالسيئة، أمته الحمادون، يأتزرون على أنصافهم، ويوضئون أطرافهم، أناجيلهم فى صدورهم، يصفون للصلاة كما يصفون للقتال، قربانهم الذى يتقربون إلى به دماؤهم، رهبان الليل ليوث النهار »(٣).

فعبادتهم وجهادهم وتقواهم وسلامة صدورهم هى أوصافهم التى ضربها الله تعالى مثلاً فى التوراة والإنجيل ؛ والحديث عنهم جاء بعد الحديبية ، وقد تحققت بهم هذه الأوصاف التى مر عليها عشرات القرون، فبرزت الآن على حقيقتها ، وذكرت فى سورة الفتح.

٣ ـ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾(٤) :

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى قوله: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ قال: جعل الله الرحمة فى قلوبهم بعضهم لبعض: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ قال: علامتهم الصلاة ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ .

---

(١) فتح البارى ٤/ ٣٤٣ برقم (٢١٢٥) . (٢،٣) الخصائص الكبرى للسيوطى ١/ ١٠ ، ١١ .
(٤) الفتح / ٢٩ .

قال: هذا المثل فى التوراة : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ ﴾ قال: هذا مثل آخر، ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قال: هذا نعت أصحاب محمد فى الإنجيل قيل له: إنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر (١).

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ قال: صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قال: سنبله حين يبلغ نباته عن حباته: ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع، فهم رجال يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه لمحمد يقول: يبعث الله النبى وحده، ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيراً وسيغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار، يعجب الزراع من كثرته ومن حسن نباته(٢).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قال : حب بر يبدو متفرقًا فأنبتت كل حبة ثم أنبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول : كان أصحاب محمد ﷺ قليلاً ثم كثروا واستغلظوا (٣) .

٤ـ هذا الجيل الذى أنزل الله تعالى وصفه على مدار البشرية، وفى أقدس الكتب، التوراة والإنجيل والقرآن. هذا الجيل الذى تتنزل عليه الآيات، وقد انبثق إلى الوجود بعد التبشير به من عشرات القرون، وهو حى يتحرك الآن، قد تمثل وتشرّب تربية زارعه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعد مرور عشرين عامًا تقريبًا على بعثته ليكون خلاصة البشرية وعصارة الخيرية فيها، ننظر إليه بعد خمسة عشر قرنًا من الزمان، فيبقى هو الأنموذج الحى للبشرية، وتنظر إليه الأمم قبل عشرات القرون، وتتطلع إلى انبثاقه إلى الوجود مع سيد ولد آدم الذى أُخذت بيعة الأنبياء له، وقد رأينا كيف نمت ولادة هذا الجيل فردًا فردًا، يرعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما يرعى الزارع البصير غرسه ويتعهده بالسقاية والعناية ،ويخوض بهذه الأعداد القليلة لجج المواجهة للأعاصير: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(٤) .

فينمو عودهم بهذه المواجهة، لقد كان أغلبهم فتيانًا تتراوح أعمارهم بين الخامسة

(١ ـ ٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للحافظ السيوطى ٧/ ٢٦/ ٥٤٤ .
(٤) الأنعام / ١١٢.

عشرة والخامسة والعشرين وها هم يُعدون على عين الله خطوة خطوة، فيحال بينهم وبين القتال قرابة ثلاثة عشر عامًا ، حتى يشتد ساعدهم، ويستقم صلبهم، ويغلظ ساقهم. وعندما أذن لهم بالقتال كان الوحى يتنزل عليهم، فيعرضهم لأشقّ الدورات التربوية من خلال الواقع الحى، يصف أخطاءهم، ويتحدث إلى قلوبهم وعن قلوبهم، ويُثنى على الحواريين منهم، ويقوِّم المعوَج فيهم، وبعد كل غزوة فاصلة آيات تترى تتابع البناء: ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ ويطمئن ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هذا البناء، فيواجه به عتاة قريش حربًا وصلحًا وسلمًا. فكانوا نعم النصير لنبيِّهم، وكانوا خير العون لقائدهم ـ عليه الصلاة السلام ـ ويتميز عدوُّهم غيظًا منهم، فقد أصبحوا ملء السمع والبصر، وصاروا أصحاب الكلمة العليا فى الأرض العربية، واعترف بهم الطغاة والعتاة، فما أحد يجرؤ أن يقترب من عرينهم وتسابقت خزاعة لتدخل فى حلفهم، وأصبح عرينهم حمى لا يضام.

٥ ـ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ :

فلا يحسب بعض الأفراد الذين انطووا على خبث فى طويتهم، وملأ الغِلُّ صدورهم، وجعلوا النفاق ديدنهم، لا يحسب هؤلاء أنهم يضيعون فى صفوفهم، ويختفون فى ثناياهم ! أبدًا ، فالوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أما الذين كانوا يسلقون النبى والمؤمنين بألسنتهم الحداد ، هؤلاء سوف يقصم ظهرهم هذا التحديد ، فليسوا داخلين فى هذه الخيرية. كما أنَّ بعض النباتات المتسلقة الغريبة سوف تجتث حين يحين الحصاد ، وحين يحضر موسم القطاف .

٦ـ ونقف مع الآية فى ختام الأنفال :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(١) .

والآية فى ختام فتح الحديبية: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

نشهد جيل بدر وقد نجح فى محنته خلال أربع سنوات، وأضاف تحت رعاية النبى ﷺ أربعة أضعافه أو أكثر على أعلى المستويات من التربية والقوامة ،فشكَّل مجتمع

---

(٢) الأنفال / ٧٤ . (٢) الفتح / ٢٩ .

الحديبية؛ليتأهب هذا المجتمع الجديد إلى استضافة الآلاف الجديدة، ويتابع معهم عملية التربية الهائلة، ويستعدَّ ليدخل بهم مكة. والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مجتمع بذاته لا مولى لهم إلا الله ورسوله ؛ فقد خلصوا من الانتماء لقبائلهم وعشائرهم، وانصهروا لحمة واحدة، وكوَّنوا أرفع جيل على مدار تاريخ البشرية الطويل (١).

٧ ـ بقى أهل الحديبية هم القاعدة الصلبة للمستقبل ، فقد حضروا جميعًا خيبر فيما بعد، وحضروا جميعًا عمرة القضاء ،وكان هؤلاء الأربعمائة والألف ونيف هم الرصيد المذخور والركيزة الأساسية للجيش الإسلامى. وكان عليهم أن يستوعبوا الجيل الرافد ماديًا ومعنويًا . يستوعبوه ماديًا فينتهى له نفقته ، كما ذكر حاضرو المدينة من الأعراب: يا رسول الله ، والله ما لنا من زاد ، وما لنا أحد يطعمنا، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله وأن يتصدقوا. فقالوا: يا رسول الله ، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئًا؟ فقال: « ما كان ولو بشق تمرة »وعليهم أن يستوعبوه معنويًا، فيقوموا بتربيته التربية المطلوبة، ليتمثلوا الإسلام بهذه السرعة، ويرتفعوا إلى المستوى الإسلامى المطلوب.

٨ ـ وأصبح أهل مكة منذ الحديبية فى وضع نفسى لا يحسدون عليه، فقد انهزموا معنويًا، ودبَّ بهم اليأس أن يكونوا قادرين على مواجهة الرسول ﷺ، ورسخ فى ذهن قياداتهم أن محمدًا لا يُغلب ، فعمرو بن العاص بفراسته ودهائه أدرك هذا الأمر منذ غزوة الخندق قائلاً: (كم أوضع والله ليظهرن محمد على قريش) فخلفتُ مالى بالرهط. وأفلت فلم أحضر الحديبية ولا صلحها (٢) . وخالد بن الوليد يغزى بأعماقه منذ الحديبية: « لما أراد الله بى من الخير ما أراد قذف فى قلبى حب الإسلام، وحضرنى رشدى وقلت: قد شهدت المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان. فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر آمنا منا ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا فاطلع على ما فى نفوسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك موقعًا منى وقلت: الرجل ممنوع (٣).

وأبو سفيان بن حرب القائد العام، كان فى تجارته أثناء الحديبية، ومضى فى تجارته بعدها ، وساقته الأقدار إلى قيصر الروم ، وسمع مقالته بمحمد ﷺ فقال : لقد أَمِر أَمْرُ

---

(١) عن المنهج التربوى للسيرة النبوية ، التربية الجهادية ص ٤٦٦ ــ ٤٧٠ للمؤلف .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٢ . (٣) المغازى للواقدى ٢ / ٧٤٦ .

ابن أبى كبشة ، إنه يخافه ملوك بنى الأصفر ، فما زلت موقنًا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

والذين بقوا مقتنعين بالمواجهة وجربوا حظهم فيها يوم فتح مكة أمثال سهيل وصفوان وعكرمة، انهاروا وفروا بعد ساعات من هذه المواجه .

خير رجالاتنا سلمة

ها هو سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأسلوبه البديع يتابع بنا الخطا من الحديبية إلى المدينة.

(ثم خرجنا راجعين إلى المدينة ، فنزلنا منزلاً بيننا وبين بنى لحيان جبل. وهم[(١)] المشركون. فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة. كأنه طليعة للنبى ﷺ وأصحابه. قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا، ثم قدمنا المدينة. فبعث رسول الله ﷺ بظهره [(٢)] مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجتُ معه بفرس طلحة أنَدّيه [(٣)] مع الظهر. فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع ، وقتل راعيه. قال: فقلت: يا رباح ، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ابن عبيد الله ، وأخبر رسول الله أن المشركين قد أغاروا على سَرْحِه. قال: ثم قمت على أَكَمَة فاستقبلت المدينة . فناديت ثلاثًا : يا صباحاه ، ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل وارتجز وأقول:

أنا ابن الأكوع　　　والبوم يوم الرضع

فألحق رجلاً منهم فأصك سهمًا فى رحله حتى خلص نصل السهم إلى كتفه قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُضَّع،قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم [(٤)] فإذا رجع إلىَّ فارس أتيت شجرة فجلست فى أصلها ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا فى تضايقه. علوت الجبل،فجعلت أردِّيهم بالحجارة [(٥)] قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهرى وخلَّوا بينى وبينه، ثم أتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا يستخفُّون [(٦)] ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقاً من ثنية فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزارى فجلسوا يتضحون (يعنى يتغدون) وجلست على رأس قرن [(٧)] قال الفزارى :

---

(١) وهم المشركون: هذه اللفظة ضبطوها بوجهين : أحدهما : وهُمُ المشركون على الابتداء والخبر . والثانى: وهَمَّ المشركون أى هموا النبى ﷺ.

(٢) بظهره: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال. (٣) أندّيه: أورده فيستقى ثم يرسل فى المرعى.

(٤) أرميهم وأعقر بهم: أرميهم بالنبل وأعقر خيلهم. (٥) أرديهم بالحجارة: أرميهم من أعلى الجبل فيها .

(٦) يستخفون: يطلبون بإلقائها الخفة ليكونوا أقدر على الفرار.

(٧) على رأس قرن: هو كل جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير.

ما هذا الذى أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح [1] والله ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شىء فى أيدينا. قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة. قال : فصعد إلىَّ منهم أربعة فى الجبل. قال: فلمَّا أمكنونى من الكلام قال: قلت: هل تعرفونى؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سلمة بن الأكوع ، والذى أكرم وجه محمد ﷺ لا أطلب منكم رجلاً إلا أدركته ولا يطلبنى رجل منكم فيدركنى، قال أحدهم: أنا أظن. قال: فرجعوا فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم الأخرم الأسدى، على إثره أبو قتادة الأنصارى، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندى. قال: فأخذت بعنان الأخرم. قال: فولوا مدبرين. قلت: يا أخرم ،احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه. قال: يا سلمة ،إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بينى وبين الشهادة، فخليته فالتقى هو وعبد الرحمن. قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه. وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله، فوالذى كرَّم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلى حتى ما أرى من أصحاب محمد ﷺ، ولا من أخبارهم شيئًا. حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يُقال له : ذا قرد ليشربوا منه وهم عطاش ، فنظروا إلى أعدو وراءهم فجلبتهم عنه[2] (يعنى أجلبتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرة. قال: ويخرجون فيشتدون فى ثنية فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصكه بسهم فى نغض كتفه[3]. قال : قلت:خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُضَّع قال: يا ثكلته أمه! أكوعه بكرة [4] ؟ قال: قلت: نعم يا عدو نفسه أكوَعك بكرة. قال: وأرادوا فرسين على ثنية. قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، ولحقنى عامر بسطيحة [5] فيها مذقة [6] من لبن، وسطيحة فيها ماء. فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذى مالأتهم عنه ، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكل شىء استنفذته من المشركين، وكل رمح، وكل بردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذى استنقذت من القوم، وإذا هو يشوى لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها. قال: قلت: يا رسول الله ، خلنى فأنتخب من القوم مائة رجل ، فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فى ضوء النار، فقال: « يا سلمة، أتراك كنت فاعلاً ؟! » قلت: نعم والذى أكرمك بالحق فقال: « فإنهم الآن

---

(١) البرح : الشدة.
(٢) فجليتهم عنه: طردتهم.
(٣) نغض الكتف: العظم الرقيق على طرف الكتف.
(٤) قال: يا ثكلته أمه: أكوعة بكرة: اى أنت الأكوع الذى كنت بكرة هذا النهار.
(٥) بسطيحة: إناء من جلود سطح بعضها على بعض.
(٦) مذقة: قليل من لبن ممزوج بالماء.

ليقرون (١) فى أرض غطفان » قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر فلان لهم جزوراً. فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً فقالوا: أتاكم القوم. فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: « خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالاتنا سلمة » قال: ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل. فجمعهما لى جميعًا، ثم أردفنى رسول الله ﷺ خلفه على العضباء (٢) راجعين إلى المدينة. قال: فبينما نحن نسير. وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًا (٣). فجعل يقول: ألا مسابق. قال: فلما سمعت كلامه قلت: تكرم كريمًا ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا. إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى ذرنى فلأسابق الرجل. قال: «إن شئت». قال: قلت: اذهب إليك، وثنيت رجلى فطفرت (٤) فعدوت. قال: فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقى نفسى(٥)، ثم عدوت فى إثره فربطت عليه شرفًا (٦) أو شرفين ثم إنى رفعت حتى ألحقه (٧). قال: فأصكه بين كتفيه. قال: قلتُ: قد سبقت والله قال: أنا أظن (٨). قال: فسبقته إلى المدينة. قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليالٍ حتى خرجنا إلى خيبر(٩).

وفى رواية ثانية مختصرة لمسلم:

(عن يزيد بن أبى عبيد قال: سمعت سلمة بن الأكوع يقول: خرجت قبل أن يؤذَّن بالأولى. وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذى قَرَد. قال: فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أخذت لقاح رسول الله ﷺ فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان، قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه، قال: فأسمعت ما بين لابتى المدينة، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم بذى قَرَد وقد أخذوا يستقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلى، وكنت راميًا وأقول:

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

فأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة. قال: وجاء النبى ﷺ والناس فقلت: يا نبى الله، إنى قد حميتُ القوم الماء وهم عطاش. فابعث إليهم الساعة، فقال: « يا بن الأكوع، ملكت فاسجح » قال: ثم رجعنا ويردفنى رسول الله

---

(١) يقرون: أى يُضافون.
(٢) العضباء: لقب ناقة رسول الله ﷺ والعضباء مشقوقة الأُذُن.
(٣) عدواً على الرجلين.
(٤) طفُرت: أى وثبت وقفزت.
(٥) أى حبست نفسى عن الجرى الشديد.
(٦) الشرف: ما ارتفع من الأرض.
(٧) أى أسرعت.
(٨) أى أظن ذلك « حذف مفعوله للعلم به ».
(٩) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير ٣ / ١٤٣٥ ــ ١٤٤٠ برقم (١٨٠٧).

ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة)(١).

١ـ سلمة بن الأكوع رضي الله عنه لم يعد نكرة . بعد أن برزت بطولته فى أحداث هذا العام ، لكنه حديث الصلة بالإسلام فاختبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختبارين عنيفين أداهما بنجاح حين وهب المرأة التى سباها لرسول الله ﷺ مرتين. رغم أنها من أجمل فتيات العرب، ولفراسة رسول الله ﷺ فيه ، اختاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ نموذجًا للبطولة حين بايعه ثلاث مرات فى الحديبية فى أول الناس وأوسط الناس وآخر الناس. وحيث لم تكن الحديبية مجالاً لعرض البطولات، لكن بروزه بهذه الأهمية، يدل على مدى اهتمام رسول الله ﷺ به.

وفى لحظة واحدة حين سمع المنادى عن مقتل ابن زنيم. استأسر أربعة من المشركين من قريش، وقادهم إلى رسول الله ﷺ. فأطلق سراحهم ـ عليه الصلاة والسلام.

٢ـ وها هو يحدثنا عن أربع وعشرين ساعة من عمره. تعدل تاريخ عشرات الأبطال فى عمرهم كله. ففى الطريق إلى المدينة. كان المرور من أراضى بنى لحيان الذين بينهم وبين المسلمين ثارات قديمة. منذ غزوة الرجيع، فاحتمالات انقضاضهم على المسلمين غير بعيدة ، خاصة إذا كمنوا فى الجبال، والمسلمون لا يملكون إلا سلاح المسافر السيوف فى القُرُب، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة .

إنها طريقة مبتكرة جديدة فى استثارة الطاقات. فقد أهم النبى ﷺ الأمر. ولابد من طليعة فدائية مغامرة، ترقى هذا الجبل الأشم، وتتأكد من سلامة الطريق للمسلمين. فاكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستغفر لمن رقى الجبل وحانت الفرصة للبطل سلمة أن يكون الفدائى الأول فى ذلك. فقال: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا .

فلم يكتف فى مرة واحدة، بل استجاب للنداء النبوى مرتين أو ثلاثًا ، وبذلك فاز باستغفار رسول الله ﷺ ثلاثًا كذلك. وحفظ الجيش من الغدر به أو الانقضاض عليه. وذلك دون طلب مباشر من قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما اكتفى بالاستغفار لمن رقى الجبل، وأدرك سلمة رضي الله عنه فى حسه العسكرى العالى، مقصد نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسارع إلى تنفيذ هذه المهمة الضخمة الجبارة ، انطلاقًا من الإشارة النبوية لقائده ـ عليه الصلاة والسلام .

٣ـ وسلمة من أجل كسب رزقه بعرق جبينه رضى أن يعمل أجيرًا عند السيد

---

(١) مسلم ٣ / ١٤٣٢ برقم (١٨٠٦) .

العظيم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة. وكانت مهمته خدمة فرس طلحة وتهيئته للقتال. فهو ابن البادية وصديقها الحميم. حتى إنه ليستأذن رسول الله ﷺ بالبدو فيأذن له وذلك بعد هجرته ، ولا صبر له على حياة المدينة إلا فى عملية التلقى والتربية من نور النبوة . ولذلك ما كان يجد فرصته ليمضى إلى الجهاد إلا ويمضى يقول عن نفسه: (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات حين أمره رسول الله ﷺ علينا) (١).

وفى حديث يزيد بن أبى عبيد عنه وهو يعدد هذه الغزوات السبع:

(فذكر الحديبية وخيبر وحنينًا ويوم القرد، قال :ونسيت بقيتهن) (٢) .

وليس بين يدينا من ملامح هذا البطل العظيم إلا تلك الجزئية التى حدثنا عنها عبد الرحمن بن زيد العراقى إذ يقول: أتينا سلمة بن الأكوع بالربذة فأخرج إلينا يده ضخمة كأنها خف البعير ، قال: بايعت رسول الله ﷺ بيدى هذه، فأخذنا يده فقبلناها (٣).

٤ ـ وفى السحر يتناهى إلى سمعه ـ رضى الله عنه ـ الخبر المفزع عن إغارة عبدالرحمن ابن عيينة بن حصن على سرح رسول الله ﷺ لقد كان أعدى العدو للمسلمين ثلاثة :

العدو الأول : قريش ،ها هو عائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هدنته معهم والفتح المبين بهذه الهدنة .

العدو الثاني : اليهود ، وقد تجمعوا كلهم فى خيبر بعد أن غادرت فلولهم المدينة وأجليت عنها منذ العام الماضى بعد الخندق .

العدو الثالث : وهو الحليف للفريقين قبائل غطفان والضاربة أطنابها فى أكثر من جهة من جهات المدينة ، والتى اختارت حرب الصحراء مع رسول الله ﷺ ، على حرب المواجهة الطاحنة . حرب الكر والفر ، وذلك بعد هزيمتها وعودتها خائبة فى الخندق . وحرب الصحراء لا تحتاج إلى قوة مكافئة بمقدار ما تحتاج إلى مغامرة واستغلال فرص ، وتبييت غدر ، ويقظة النبى ﷺ كانت هى التى تجهض معظم هذا الهجوم وتجعلهم فى فزع دائم لا ينقطع.

غير أن شخص عيينة بن حصن الذى عاش حرب داحس والغبراء وتشربت فى أحشائه، يود أن يمضى بهذه السيرة على النفس الطويل. واستغل غياب رسول الله ﷺ

(١، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٣٠٥ . (٣) المصدر نفسه ٣٠٦/٤ .

عن المدينة بجيشه الجرار، وانقض على سرح رسول الله ﷺ فاستاقه وقتل راعيه ولاذ بالفرار قبل أن تدركه كتائب المسلمين.

فماذا يفعل بطلنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وقد صك سمعه هذا الخبر المفزع، وهذا التبييت الغادر من ابن عيينة بن حصن. لقد قام مقام جيش كامل بشخصه وحده.

أولاً: بعث فرس طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وما أحوجه إلى هذا الفرس إلى المدينة . فأن يلحق بالعدو على ظهر فرسه أسرع بكثير من اللحاق بقدميه ، وتصح هذه النظرية إلا عند هذا البطل العظيم الذى يسبق الخيل بعدوه . فاطمأن إلى أن الأمانة ستصل إلى صاحبها، وأخلى ذمته من عبئها.

ثانيًا: وقف على أكمة تشرف على المدينة وصرخ صرخته المدوية التى أيقظت النوام. صرخ: واصباحاه.

ثالثًا : إيذانًا بغدر العدو وغزوه. وترك الخبر لرباح غلام رسول الله ﷺ يقوم بمهمة إبلاغ التفصيلات للمسلمين داخل المدينة. لكنه أنذر المسلمين بالعدو المغير ومنذر الجيش وحده الذى ينذر قومه، هو الرائد لا يكذب أهله، يكفيه شرفًا أن يفعل ذلك. كيف وقد سبقه بساعات فقط، ارتقاء الجبل الصعب الأشم مرتين أو ثلاثًا ليكون الطليعة الفدائية للجيش المسلم، ولو أدى هاتين المهمتين. لكفاه ذلك سجل فخار مدى الدهر ووسام بطولة.

٥ ـ ولكن هيهات، فالبطل العظيم الذى يحويه معدنها النفيس، لا يستطيع إلا أن يكون البطل العملاق فى كل خطرة من خطرات نفسه، وكل قرار من قراراته. لقد صمم رضي الله عنه أن يلاحق العدو وحده، فيكون الجيش الأول، جيش الاقتحام الذى تعده الدول دائمًا من خيرة عناصرها العسكرية تدريبًا وشدة وخبرة. اختار أن يكون هو الجيش الأول فيفعل ما فعله عبد الرحمن بن عيينة فى جيشه . وماذا يملك ؟ يملك السيف، ويملك النبل. حتى الجحفة التى أهداه إياها رسول الله ﷺ، أعطاها لعمه وحبيبه عامر ابن الأكوع. وأثنى عليه رسول الله ﷺ حين قال له: « إنك مثل الذى قال الأول : رب ابغنى حبيبًا أحب إلىَّ من نفسى ». فكان أخوه من الرضاعة ، وعمه عامر بن الأكوع هو ذلك الرجل فسلمة هو سلمة بن إياس بن الأكوع . ومضى يعدو وراء الجيش. والأصل أن تكون الصورة معكوسة ،أن يلاحق الجيش الرجل المغير إلا عند بطلنا سلمة فقد قلب كثيراً من مفاهيم حرب الصحراء رأسًا على عقب.

مضى ـ رضوان الله عليه ـ لماذا؟

ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز وأقول :

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

وهل هى مجرد عملية استعراضية من سلمة؟ أبدًا ، إنها مواجهة حقيقية : فألحق رجلاً منهم فأصك سهمًا فى رحله حتى خلص نصل السهم إلى كتفه.

وابتدأت عملية المواجهة بين عبد الرحمن بن عيينة بن حصن بجيشه ، وبين سلمة ابن الأكوع بشخصه، قال : فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم .

وتثور النخوة فى رؤوس الفرسان، وتعود لهم أشعار الحرب والعراك والموت. فيمضى الفارس البطل من غطفان لينقض على هذا الراجل ، الأعزل من فرسه ليريه الموت الزؤام فماذا يكون؟

فإذا رجع إلىَّ فارس أتيت شجرة فجلست فى أصلها ثم رميته فعقرت به.

إن قناصة المسلمين، من كل صوب تنقض على الفارس الغطفانى فترديه مع فرسه، فيسقط جريحًا أو صريعًا.

وسارع جيش العدو حتى احتمى بالجبل بعد أن كان فى العراء ، وسارع جيش المسلمين سلمة بن الأكوع، فرقى الجبل حتى صار فوق جيش العدو (. . . علوت الجبل فجعلت أرديِّهم بالحجارة) فأصبح هم جيش العدو أن يهرب من الجبل الذى لاذ به فاراً من الجيش المهاجم. فالحجارة تنقض عليه من فوق الجيل كالقنابل ، ووقعها مميت أشد من وقع السهم. فأغذو السير فرارًا من الجبل، ليجدوا النبل من جديد من مدد المسلمين سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يلاحقهم فيرميهم ويعقر بهم.

فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهرى وخلَّوا بينى وبينه.

لقد كانت نتيجة المواجهة بين جيش العدو وبين جيش المسلمين سلمة: أن استرد الجيش الإسلامى كل سرح رسول الله ﷺ. واستنقذه من يد العدو.

ولم يكتف الجيش الإسلامى ـ سلمة ـ بأن يسترد سرح رسول الله ﷺ من يد العدو. بل تابع مطاردته له. وجيش العدو لائذ بالفرار، وأحس أنه قد يلحق من الفوارس المائة سلمة بن الأكوع.

(. . . فألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا يستخفون) .

وقسمت الفوارس المائة سلمة رضي الله عنه نفسها إلى قسمين : قسم يحافظ على الأسلاب .

(فلا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا من الحجارة. يعرفها رسول الله ﷺ).

وقسم آخر يتابع المطاردة وبث الرعب فى ظهر العدو وهو سلمة بن الأكوع.

٦ـ وكانت المفاجأة الجديدة التى كان يمكن أن تنقض على جيش المسلمين ـ سلمة وفوارسه المائة ـ وتهلك الجيش كله ؛ كانت هذه المفاجأة أن جاء مدد جديد لجيش العدو.

حتى أتوا متضايقاً من الجبل فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزارى، وهو عم عبد الرحمن بن عيينة. فجلسوا يتضحون (ينفدون) وجلست على رأس قرن. قال الفزارى: ما هذا الذى أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح والله ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شىء فى أيدينا.

وأمام القيادة الجديدة لفلان بن بدر، فقد وضعت خطة جريئة، اختارت فيها أربع فرسان من أشهر فرسانها لمقابلة هذا البرح الذى لم يفارقهم منذ غلس يرميهم فينتزع كل شىء فى أيديهم.

وكانت تلك المواجهة الحاسمة بين البطل العملاق، والأبطال الفرسان الأربعة.

(فلما أمكنونى من الكلام قال: قلت: هل تعرفونى؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذى كرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبنى رجل منكم فيدركنى. قال أحدهم: أنا أظن). وانتهت تلك المبارزة والمواجهة وعاد الفرسان الأبطال الأربعة منكسى الرؤوس دون أن يحققوا هدفًا أو ينهوا تلك الملاحقة من هذا البطل العملاق.

٧ ـ وجاء أثر نداء سلمة ـ رضوان الله عليه ـ فوصلت فوارس النبى ﷺ مددًا لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه وأول هؤلاء الفوارس الأخرم الأسدى ثم أبو قتادة الأنصارى ثم المقداد بن عمرو الكندى . إن خيرة الخبرات العربية فى أعلى نماذجها قد اختارت الإسلام وها هى الآن تواجه العرب المشركين من أبناء عمومتها وأهلها. وسلمة بن الأكوع هذا النموذج الفذ الذى لحق جيش العدو منذ الغلس حتى قرابة العصر يحذر الأخرم الأسدى الفارسى من اللحاق بجيش المشركين حتى لا يغدروا به. ويأخذ بعنان فرسه قائلاً: يا أخرم: احذرهم. لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه. لكن بطولة أخرم من نوع آخر هى بطولة الزفاف إلى الجنة والرغبة بالشهادة. فقال لصاحبه سلمة: يا سلمة ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحل بينى وبين الشهادة .

وعلم الله تعالى صدق رغبته فى الشهادة، فما هى إلا لحظات، ونال ما حلُم به. فخليته،

فالتقى هو وعبد الرحمن . فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه وجاء من يثأر للأخرم الأسدى من فرسان النبوة جاء خير الفرسان أبو قتادة (ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله) .

٨ ـ وماذا تريد يا بن الأكوع بعد أن هزمت الجيش وولوا مدبرين، واستنقدت منهم لقاح رسول الله ﷺ وكسبت منهم أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا ، هلا تعود إلى غنائمك هذه فتحوزها فهى من جهدك وحدك وقد واجهت جيش العدو؟! إنه يمضى وحده للمرة الثالثة خلفهم حتى ما أرى ورائى من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم. وقد آن أوان راحتهم ، فهو لا يزال يلاحقهم طيلة النهار وهزيع من الليل على رجليه. اقتربت الشمس من الغروب وقد ذبحهم العطش والتعب حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذا قَرَد ليشربوا منه وهم عطاش. إنه جيش جديد بطاقات جديدة. وكأنما ابتدأ الآن بالعدو ، بعد أن أعيى الجيش السابق سلمة من العدو . (فنظروا إلىَّ أعدو وراءهم، فجلبتهم عنه يعنى أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرة.

قال: ويخرجون فيشتدون ، أما الجيش الثانى ، سلمة بن الأكوع ، الجيش المساند لكتيبة الاقتحام سلمة بن الأكوع رضي الله عنه فأزاحهم عن الماء ، ولحقهم فى عمق الجبل : فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصكه بسهم فى نغض كتفه. قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع [1]. قال: يا ثكلته أمه، أكوعه بكرة ؟ قال : قلت: نعم يا عدو نفسه ، أكوعك بكرة. فهو الذى هلكهم وأكوعهم منذ الغلس حتى الغسق وهو يعدو وراءهم لا غيره. وهو مصمم على أن يضم إلى البرد والرماح جديداً. ويحصرهم فى الجبل حتى يتركوا فرسين لهما فيأخذهما ويسوقهما ويعود من حربة التى امتدت من الغلس إلى الغسق ،حيث يلحق به أحب الناس إليه ابن عمه وأخوه من الرضاعة عامر ابن الأكوع، ليقدم له الحفل الشهى والمأدبة العظمى بعد حرب طاحنة طيلة النهار فماذا كانت المأدبة؟ ولحقنى عامر بسطيحة فيها مذقة لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربت.

وعاد إلى قائده وإلى الجيش الإسلامى الذى كان بانتظاره ، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذى مالأتهم عنه.

٩ـ وكان الاحتفال العظيم من القائد بجنديه العظيم :

(فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل

(١) واليوم يوم الرضع: اليوم يوم اللئام أو يوم هلاك اللئام. وقالوا فى المثل: الأم من راضِعٍ، وقيل: بل معنى مثل من ارتضع اللؤم من بطن أمه. وقال أهل اللغة: يُقال فى اللؤم: ترضع بالفتح يرضُع بالضم رضاعة لا غير. من فتح البارى ٧/ ٤٦٢ .

رمح وكل بردة) ومن مذقة اللبن إلى شواء اللحم. (وإذا بلال نحر ناقة من الإبل التى استنقذت من القوم ، وإذا هو يشوى لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها).

وعقب كل فتوح،وكل انتصارات تقام الأفراح والولائم. وتقدم الذبائح والمطاعم، فهل رضى سلمة رضي الله عنه بعد هذا الجهد كله أن يشارك فى هذه الأفراح والانتصارات التى حققها بشخصه وحده؟ هل انتهى الأمر بهذه إلى هذا الحد؟ يجيبنا رضي الله عنه: قال: قلت: يا رسول الله خلنى فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلتُه. فهو يرى نفسه أنه لم يفعل شيئًا بعد. إنما يريد كتيبة مئوية يصطفيها من أبطال المسلمين، فيبيد جيش العدو عن آخره، ويوم يطلب مائة من الأبطال، فهذا يعنى أن العدو بضع مئات على الأقل، وأنه يواجه مائة وحده هذه عن المئات من العدو. وذلك بدليل قول المصطفى ﷺ: « أتراك كنت فاعلاً؟ » قلت: نعم والذى أكرمك. فهو يعجب - عليه الصلاة والسلام - لهذه العزيمة الفذة من استعداده ليواجه العدو بمائة من إخوانه المسلمين فيبيد خضراء عدوهم.

قال عليه الصلاة والسلام له: « إنهم الآن ليقرون فى أرض غطفان ». ويأتى الشاهد العيان بذلك .

(فجاء رجل من غطفان فقال : نحر لهم فلان جزوراً ، فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً فقالوا: أتاكم القوم . فخرجوا هاربين) .فقد حاولوا أن ينزلوا على الماء فيرووا ظمأهم فلاحقهم سلمة وأجلاهم عن الماء الذين يقيم عليه المسلمون الآن . فما ذاقوا منه قطرة . وراحوا بعد أن تجاوزوا الثنية فى الجبل كى يأكلوا شيئاً يقيم أودهم بعد أن ذبح لهم قائدهم جزوراً . وإذا بالغبار يبعثه الرحمن فى وجوههم فيفروا تاركين طعامهم وناجين بأنفسهم قبل أن تدركهم قوة محمد ﷺ . فهذا جندى واحد من جنوده فعل فيهم طيلة النهار هذه الأفاعيل ، فكيف إذا جاء محمد ﷺ بجيشه ؟

إن أهم ما يعنينا كيف احتفى ﷺ بجنديه العظيم. واحتفى بالفارس أبى قتادة قاتل قائد العدو والذى ثأر لأخيه الفارس الشهيد الأخرم الأسدى.

أعلن الوسام الأعظم ﷺ على الملأ كله لهذين العظيمين، لسلمة بن الأكوع، وأبى قتادة - رضى الله عنهما - وقلدهما إياه فقال:

« كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالاتنا سلمة » .

وبعد هذا الوسام الخالد الباقى فى ضمير الزمن إلى اليوم نعيشه، نتحسسه ونكبره، أعطاه فى المجال المادى سهم الراجل وسهم الفارس، لكن إعلان الإكرام وصل إلى ذروته، يوم كان هو رديف رسول الله ﷺ على ناقته ليراه كل الجنود والقيادات ويعرفوا من هو بطلهم اليوم. وهكذا يكافئ سيد العظماء فى الوجود أعظم جنده. وخير

رجالته. فيشهده كل الجيش، ويتساءلون : لم ذلك ؟ فيقصون عليهم قصته.

١٠ ـ وحتى يرى الجيش كله هذا العداء الراجل الذى لا يباريه أحد، شاءت إرادة الله تعالى أن يأتى التكريم منه سبحانه فيشهد تنافسًا فى ذلك. حتى يقف أمام الجيش كله ذلك الأنصارى المتحدى: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ ولا تحمل سلمة نفسه وهو خلف رسول الله ﷺ على ناقته من القول: أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا ؟

ويصل التحدى فى الصف الإسلامى ذروته، فيقول الأنصارى رضي الله عنه: لا إلا أن يكون رسول الله ﷺ. والأنظار كلها تتجه دومًا صوب رسول الله ﷺ. وعقدت المنافسة بين الأنصارى ورديف رسول الله ﷺ الذى نال الوسام الآن. ويأتى هذا الأنصارى يريد أن ينتزعه منه. كما نسمع دائمًا عن البطل الفائز الذى ما يلبث أن يلقى فى المباريات من يتصدى له فى حلبة المصارعة أو الرياضة أو الكرة.

ويرضى سلمة رضي الله عنه بعد أن يستأذن قائده أن يرد على التحدى قائلا : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى ذرنى فلأسابق الرجل. قال ﷺ : « إن شئت ».

والمصطفى ـ صلوات الله عليه ـ يريد أن يرى الجيش كله هذا البطل العظيم، ويدفعه إلى قبول التحدى بعد أن قال عنه :« هو خير رجالة المسلمين اليوم » . ويريد أن يحافظ على لقبه ويدافع عن وسامه. ولا ننسى أن قبل التحدى بعد عدو نهار كامل خلف العدو. استمر من الغلس إلى الغسق. وبقى اللقب والوسام له إلى يومنا هذا حيث حطَّم منافسه فى العدو كما يقول: ثم إنى رفعت حتى ألحقه. قال: فأصكه بين كتفيه قلت: قد سُبِقتَ والله. قال: أنا أظن. فسبقته إلى المدينة.

وإذا بخادم فرس طلحة بن عبيد الله يغدو خير رجالة المسلمين بلسان رسول الله ﷺ، فلله درك يا سلمة ما أرفعه من وسام نلته من قائدك ؛ بجهد يوم يعجز عنه عشرات الأبطال والرجال. ولما يمر عليك عام واحد فى الإسلام بعد !!

السنة السابعة

خيبر وشهران من التربية

دخلت السنة السابعة، وأعلن قيام دولة الإسلام فى المدينة بالاعتراف الحقيقى فيها من قريش. وأصبحت الحجاز لها عاصمتان: مكة وتسيطر عليها قريش. والمدينة ويسيطر عليها المسلمون. وأعلن أهم بند من بنود المعاهدة :

من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه ، وفتحت الأبواب الموصدة أمام الدعوة.

غير أن هناك دولة ثالثة متاخمة لدولة المدينة وهى دولة اليهود فى خيبر ذات القلاع والحصون والعدد والعدة تهدد أمن الدولة المسلمة، وهى الحليف الأول لقريش، إضافة إلى تجمعات غطفان التى لا تزال تقود حرب العصابات ضد الدولة المسلمة، وتلقى جزاءها التأديبى مع كل مغامرة تُقدم عليها ،ومع رسول الله ﷺ خيرة أهل الأرض فضلاً وشجاعة وتربية ومعدنًا .

وعليهم أن يواجهوا هذه التحديات.

ولو كانت مهمة القائد الأعظم ﷺ مهمة عسكرية فقط، هى الفتح والسلب والنهب والإغارة على العدو وسبى نسائه وأهله وقتل رجاله وأبطاله ـ لانتهت هذه المهمة فى شهور بعد هذا النصر المؤزر فى الحديبية. وسنجد حصون خيبر تدك مع هذه الجولة القادمة. وتصبح الأرض العربية فى الحجاز تدين لهذا الملك الجديد. فيطغى، ويثأر ويستبد ويستعبد ويشمخ.

لكننا أمام نور النور فى هذه الأرض منبعه ومشرقه وجوهره. والمهمة كامنة فى فتح مغاليق هذه القلوب كما تحدثت به صفحات كتب الله، وتجاوبت به أرجاء هذا الوجود، ينقله الجيل للجيل، والنبى للنبى. وهو شعاع البشرية وأملها منذ أن كانت البشرية.

« ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا » .

لتكون هذه القلوب المفتوحة ،والتى اتصلت مباشرة بمنبع النور واغترفت منه ، هى التى تحمل لواء قيادة البشرية بعد ذلك وهدايتها ،وبعثها إلى الحياة والنشور من جديد بعد الموت والبلى الذى كانت فيه.وسنشهد فى خيبر كذلك الخيرون فى الأرض يقدمون

من كل فج، والذين كانوا فى مواقفهم بمثابة قواعد احتياطية لهذه الدولة العظيمة من دوس ، ومن الحبشة ، ومن اليمن. ونشهد تحطم العدوين الباقيين إلى غير رجعة، وهما اليهود فى خيبر وغطفان. وتكون السنة السابعة والثامنة ـ سنتى الدعوة والهدى، والعرس الإسلامى ـ فى انبثاق النور فى الحجاز لتصبح كلها جندًا لله وأعضاء فى حزبه.

١ـ من المدينة إلى خيبر :

(قال ابن عقبة وابن إسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية ـ زاد ابن إسحاق فى ذى الحجة ـ مكث بها عشرين ليلة أو قريبًا منها. ثم خرج غاديًا إلى خيبر زاد ابن إسحاق فى المحرم. وكان الله ـ عز وجل ـ وعده إياها وهو فى الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة فأعطاه الله تعالى فيها خيبر ﴿ **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ** ﴾[1] .

قال محمد بن عمر: أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج، فجدوا فى ذلك، واستنفروا من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاءه المخلَّفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال: « لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا » .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة قال. ابن هشام: نميلة بن عبد الله الليثى كذا قال ،والصحيح :سباع بن عرفطة الغفارى كما رواه الإمام أحمد والبخارى فى التاريخ الصغير وابن خزيمة وغيرهم. وأخرج معه أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها.

ولما تجهز رسول الله ﷺ والناس، شق على يهود المدينة الذين هم موادعو رسول الله ﷺ وعرفوا أنه إن دخل خيبر أهلك أهل خيبر، كما أهلك بنى قينقاع والنضير وقريظة، ولم يبق أحد من يهود المدينة له حق على أحد من المسلمين إلا لزمه.

وروى محمد بن عمر عن شيوخه وأحمد، والطبرانى عن ابن أبى حدرد بسند صحيح أنه كان لأبى الشحم اليهودى خمسة دراهم، ولفظ الطبرانى أربعة دراهم فى شعير أخذه لأهله فلزمه. فقال : أجِّلْنى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقَّك إن شاء الله، قد وعد الله تعالى نبيه أن يُغنِمَهُ خيبر. فقال أبو الشحم حسدًا وبغيًا: أتحسبون أن قتال خيابر مثل ما تلقون من الأعراب، فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل وترافعا إلى النبى ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: « أعطه حقه » قال عبد الله: والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها. قال: « أعطه حقه » قال: وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يراجع.

---

(١) الفتح / ٢٠ .

قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبى بثلاثة دارهم، وطلبت بقية حقه، فدفعت إليه، ولبست ثوبى الآخر، وأعطانى ابن أسلم بن حريش ثوبًا آخر.

ولفظ الطبرانى فخرج به ابن أبى حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو يأتزر بمئزر، فنزع العمامة عن رأسه فأتزر بها، ونزع البردة فقال: اشتر منى هذه. فباعها منه بالدراهم، فمرت عجوز فقالت: مالك يا صاحب رسول الله؟ فأخبرها فقالت: هادونك هذا البُرْد، فطرحته عليه.

قال: فخرجت فى ثوبين مع المسلمين، ونفلنى الله تعالى من خيبر وغَنِمتُ امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابة فبعتها منه. وجاء أبو عبس بن جبر فقال: يا رسول الله ﷺ، ما عندى نفقة ولا زاد ولا ثوب أخرج فيه، فأعطاه رسول الله ﷺ شقة سنبلانية (١)) (٢) .

قال سلمة: فوالله ما لبثنا ثلاث ليالٍ حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ. فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولاصلينا

ونحن من فضلك ما استغنينا ... فثبِّت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله ﷺ: « من هذا؟ » قال: أنا عامر، قال: « غفر لك ربك ». قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصُّه إلا استُشهد. قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جملٍ له: يا نبى الله لولا متعتنا بعامر (٣) .

وروى الحارث بن أبى أسامة والبيهقى عن ثوبان ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال فى غزوة خيبر. من كان مُضعفًا أو مُصقبًا فليرجع، وأمر بلالا فنادى فى ذلك، فرجع ناس، وفى القوم رجل على صعب، فمرً من الليل على سواد فنفر به فصرعه. فلما جاؤوا به رسول الله ﷺ قال: « ما شأن صاحبكم »؟ فأخبروه. فقال: « يا بلال أما كنت أذَّنت فى الناس من كان مضعفًا أو مصعبًا فليرجع؟ » قال: نعم. فأبى أن يصلى عليه. زاد البيهقى: وأمر بلالاً فنادى فى الناس:

« الجنة لا تحل لعاص » ثلاثًا (٤).

قال محمد بن عمر: (وبينا رسول الله ﷺ فى الطريق فى ليلة مقمرة إذ أبصر

---

(١) سنبلانية: جنس من الغليظ شبيه بالكرباس. (٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٨٢ .

(٣) مسلم فى الجهاد والسير ٣/ ١٤٤٠ برقم (١٨٠٧) . (٤) سبل الهدى والرشاد ٥ / ١٨٣ .

برجل يسير أمامه عليه شيء يبرق فى القمر كأنه فى الشمس وعليه بيضة. فقال رسول الله ﷺ: « من هذا ؟ » فقيل: أبو عبس بن جبر. فقال رسول الله ﷺ: «أدركوه!» قال: فأدركونى فحبسونى، وأخذنى ما تقدَّم وما تأخر. فجعلت أتذكر ما فعلت حتى لحقنى رسول الله ﷺ فقال: «مالك تقدُم الناس لا تسير معهم؟ »قلت: يا رسول الله، إن ناقتى نجيبة. قال: « فأين الشقيقة التى كسوتك؟ » فقلت: بعتها يا رسول الله ،بثمانية دارهم. فتزودت بدرهمين تمرًا، وتركت لأهلى نفقة درهمين، واشتريت بردة بأربعة دراهم. فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: « يا أبا عبس ، أنت والله وأصحابك من الفقراء! والذى نفسى بيده لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرن زادكم، وليكثرن ما تتركون لأهليكم، ولتكثرن دراهمكم وعبيدكم، وما ذاك بخير لكم! » قال أبو عبس: فكان والله ما قال رسول الله ﷺ.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى)(1) .

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصْرٍ. فبُنِىَ له فيها مسجد، ثم على الصهباء ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بوادٍ يقال له :الرجيع ،فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا (2) يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة(3) سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسًّا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلَّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر (4).

(وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لَمَنَعَتِهِم فى حصونهم وسلاحهم وعددهم: كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات! هيهات! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر:

ما أمنع والله خيبر منكم: لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم؛ حصون شامخات فى ذرى الجبال، والماء فيها واتن (5). إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم. فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ فيقول أصحاب النبى: قد وعده الله نبيَّه أن يُغَنِّمهُ إياها.

---

(1) المغازى للواقدى ٢/ ٦٣٥ ، ٦٣٦ .

(2) ليظاهروا: ليعاونوا.

(3) المنقلة: المرحلة.

(4) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٥٨ .

(5) واتن: دائم لا ينقطع.

وعن سويد بن النعمان (أنه خرج مع النبى ﷺ عام خيبر، حتى إذا كنا بالصهباء وهى من أدنى خيبر، صلى العصر، ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق. فأمر به فثرى. فأكل وأكلنا. ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلى ولم يتوضأ)(١).

(ثم صلى العشاء بالناس ، ثم دعا بالأدلاء فجاء حسيل بن خارجة الأشجعى وعبد الله نُعيم الأشجعى قال: فقال رسول الله ﷺ: « امض أمامنا حتى تأخذنا صدور الأودية، حتى نأتى خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان » فقال حسيل: أنا أسلك فانتهى به إلى موضع له طرق. فقال له: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، إن لها طرقًا يؤتى منها كلها، فقال رسول الله ﷺ « سمِّها لى... فسمَّى مرحب فقال رسول الله ﷺ: نعم، اسلكها ».

وبعث رسول الله ﷺ عباد بن بشر فى فوارس طليعة، فأخذ عينًا لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبعرة ضلَّت لى، أنا على أثرها. قال له عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدى بها حديث، فيم تسألنى عنه؟ قال: عن اليهود، قال: نعم. كان كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس ساروا فى حلفائهم غطفان فاستنفروهم. وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فجاؤوا معدين مؤيدين بالسلاح والكراع يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم وفيها عشرة آلاف مقاتل وهم أهل الحصون التى لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم. وماء واتن يشربون فى حصونهم. ما أرى لأحد بهم طاقة.

فرفع عباد بن بشر السوط . فضربه ضربات وقال: ما أنت إلا عين لهم ، أصدقنى وإلا ضربت عنقك فقال الأعرابى : أفتؤمننى على أن أصدقك؟ قال عباد : نعم. فقال الأعرابى : القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم ممن كان بيثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عمٍ لى وجدوه فى المدينة، قد قدم بسلعة يبيعها. فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم، وقلة خيلكم وسلاحكم ويقولون له: فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم فإنه لم يلق قومًا يحسنون القتال وقريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم، وجودة حصونكم! وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر! ويقول آخرون: يظهر محمد فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر! قال الأعرابى: وأنا أسمع كل

(١) فتح البارى ٧/ ٤٦٣ برقم (٤١٩٥) .

هذا. فقال لى كنانة: اذهب معترضًا للطريق. فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجِّل الرجعة إلينا بخبرهم.

فأتى به عباد إلى النبى ﷺ فأخبره الخبر، فقال عمر بن الخطاب: اضرب عنقه. قال عبَّاد: جعلت له الأمان، فقال رسول الله ﷺ: «أمسكه معك يا عبَّاد فأوثقه رباطًا». فلما دخل رسول الله ﷺ خيبر عرض عليه الإسلام .. فأسلم الأعرابى . (١)

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلا. وكان إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح ... فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والله. محمد والخميس. فقال النبى ﷺ «خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (٢) .

وروى البيهقى عن أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريبًا، وأشرفنا عليها قال رسول الله ﷺ للناس: «قفوا» فوقف الناس فقال: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله»(٣).

وزاد ابن إسحاق (... ورب الرياح وما ذرين قال. وكان يقولها عليه السلام لكل قرية دخلها) (٤).

وقال محمد بن عمر : فسار حتى انتهى إلى المنزلة، وعرَّس بها ساعة من الليل. وكان اليهود يقومون كل ليلة قبل الفجر فيتلبسون السلاح ، ويصفون الكتائب وهم عشرة آلاف مقاتل ، وكان كنانة بن أبى الحقيق قد خرج فى ركب إلى غطفان يدعوهم إلى نصرهم ولهم نصف تمر خيبر سنة. فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة . ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم معهم المساحين والكرازين والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا : محمد والخميس فولوا هاربين إلى حصونهم ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : «الله أكبر ، خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين...» .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٣٩ - ٦٤١ .
(٢) فتح البارى ٧/ ٤٦٧ .
(٣) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٣/ ٢٠٤ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٥٦ .

فلما أصبح جاءه الحباب بن المنذر بن الجَموح فقال:

يا رسول الله صلى الله عليك : إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان الرأى تكلمنا. فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الرأى» . فقال يا رسول الله. دنوت من الحصن ونزلت بين ظهرى النخل والنز، مع أن أهل النطاة لى بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدًى منهم؛ ولا أعدل منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم. مع أنى لا آمن من بياتهم يدخلون فى خَمَر النخل؛ تحول يا رسول الله إلى موضع برىء من النز ومن الوباء، نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم. ثم قال رسول الله ﷺ: «نقاتلهم هذا اليوم » ودعا رسول الله ﷺ محمد ابن مسلمة فقال: « انظر لنا منزلاً بعيدًا من حصونهم بريئًا من الوباء، نأمن فيه بياتهم » فطاف محمد حتى انتهى إلى الرجيع. ثم رجع إلى النبى ﷺ ليلاً فقال: وجدت لك منزلاً. فقال رسول الله ﷺ: « على بركة الله » وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودى، وحمل عليه اليهودى فقتله، فقال الناس: استشهد فلان. فقال رسول الله ﷺ: «أبعد ما نهيت عن القتال؟ » قالوا: نعم، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى فى الناس: « لا تحل الجنة لعاصٍ» .

وروى الطبرانى فى الصغير عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومئذ: « لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون ما تبتلَوْن به منهم. فإذا لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت، ثم الزموا الأرض جلوسًا. فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا » .

قال ابن اسحاق ومحمد بن عمر، وابن سعد : وفرق رسول الله ﷺ الرايات، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر، وإنما كانت الألوية.

وكانت راية رسول الله ﷺ سوداء من برد لعائشة ـ رضى الله عنها ـ تدعى العُقاب، ولواؤه أبيض دفعه إلى على بن طالب، ودفع راية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سعد بن عبادة وكان شعارهم يا منصور أمت(١).

١ـ مع مطلع العام الجديد، وبعد عهد الحديبية. وبعد كسر شوكة غطفان فى غزوة ذى قرد ،كان لابد من المواجهة السافرة بين دولة اليهود ودولة الإسلام المتاخمتان لبعضهما. وتشير الروايات إلى أن المغانم الكثيرة التى وعدها الله المؤمنين وهم عائدون

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٤٢

من الحديبية هى خيبر، ومن أجل ذلك ما أن استقر المقام بالمسلمين فى المدينة إلا وصدرت لهم الأوامر بالتوجه إلى خيبر. وفى رواية مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن المقام لم يتعد أيامًا بينما هو فى رواية ابن إسحاق بعد عشرين يومًا أو قريبًا منها.

يقول سلمة رضي الله عنه :

(فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليالٍ حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ) (١) .

يقول الإمام ابن جرير الطبرى:(وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد : وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر ، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها . وعلى هذا فكانت الثمرة من الفتح القريب هى فتح الحديبية نفسه،بما فتح الله به القلوب من شريعة الله، وما أذن به من نصر بعد ذلك . أو فتح خيبر الذى دك قلاع اليهود جميعها ، أو فتح مكة القريب الذى تم بعد الحديبية بسنتين وعلى أرجح الأقوال على أن هذا الفتح القريب هو خيبر)(٢).

٢ـ وحين يعيش المسلمون فى هذا الجو النفسى ـ جو النصر الموعود المحدد ـ لابد أن يتسابقوا إليه. خاصة وقد كُبح جماحهم فى الحديبية وحيل بينهم وبين العدو فيها. فهم ينتظرون بفارغ الصبر هذا الموعود القادم .

ويتوقون إلى المواجهة. وقد انتشر هذا الخبر فى الصف الإسلامى. وتسرب إلى المواقع المجاورة.

وجاء الأعراب الذين تثاقلوا عن الحديبية، وشهدوا معاهدة المسلمين مع مكة، جاؤوا لينضموا إلى المجاهدين فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا» .

وقال الله تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٣).

فقد علم الله تعالى خلوص نية هذا الجيل الرائد ـ جيل الحديبية. وأن بعض

---

(١) مسلم ٣/ ١٤٤٠ برقم (١٨٠٧) ولعل غزوة ذى قرد أخذت أيامًا. وبعدها كانت خيبر.
(٢) تفسير الطبرى ١١ / ٢٦ ، ٥٦ . (٣) سورة الفتح / ١٥.

الأجيال اللاحقة على عقبه ستقبل لتشارك في مغانمه بينما خذلته يوم مضي إلى مكة كما قال الله تعالى عنها : ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا** ﴾(١) .

أما وقد عادوا موفوري العزة. قد هابتهم قريش وهادنتهم. وأصبحوا لا يخشى من مسا'نهم، ولا خطر من الانضمام إليهم. فتحرك هؤلاء الأعراب لينضموا إلى الجيش المسلم للمغانم الموعودة في خيبر. لكنها كانت مكافأة للجيل الذى بايع على الموت. والجيل الذى انضبط بأوامر قائده سلمًا وحربًا. فسد الطريق أمام الطامعين والمنتفعين. وبقيت خيبر لجيل بيعة الرضوان. ومن هو على مصافهم من المؤمنين.

٣ـ التربية مستمرة :

ولنشهد بعض النماذج التى تمضى قدمًا فى المدرسة التربوية التى يديرها سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث التربية المستمرة . حتى للذين ـ رضى الله عنهم ـ فى محكم كتابه ، والذين نجوا من النار على لسان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « لا يدخل النار إن شاء الله أحد بايع تحت الشجرة » وقال فيهم: « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » وهم الذين جازوا الثنية.

أ ـ أمير المدينة: **سباع بن عرفطة الغفارى** رضي الله عنه استعمله رسول الله ﷺ عليها فى غزوته لخيبر، ولا تحدثنا كتب التراجم عنه شيئًا. إلا هذه الإمارة . نشهد فقهه رضي الله عنه فيما رواه أبو هريرة ـ رضوان الله عليه ـ عنه قال:

قدمت المدينة والنبى ﷺ بخيبر وقد استخلف على المدينة سباع بن عرفطة فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ فى الركعة الأولى ﴿ **كهيعص** ﴾(٢) وقرأ فى الركعة الثانية ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾(٣) قال أبو هريرة: فأقول فى صلاتى ويل لأبى فلان، له مكيالان إذا اكتال اكتال بالواف، وإذا كال كال بالناقص، فلما فرغنا من صلاتنا أتينا سباع بن عرفطة، فزودنا شيئًا حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وقد فتح خيبر فأشركونا فى سهمانهم (٤).

يقول الحافظ ابن حجر:(قال البخارى: ورواه وهيب عن أبيه عن نفر من قومه قال: قدم أبو هريرة وذكره قلت: وطريق وهيب هذه وصلها البيهقى فى الدلائل، وقال أبو حاتم: استعمله النبى ﷺ على المدينة فى غزوة دومة الجندل)(٥) .

---

(١) الفتح / ١٢ ، ١٣ .
(٢) مريم / ١ .
(٣) المطففين / ١ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ١٩٨ .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٣/ ٦٣ ت ٣٠٧٤ .

والإمارة أكبر اختبار تربوى للخُلُق والنفسية والسلوك، تضنُّ علينا كتب التراجم بكثير من تفصيلاتها.

ب ـ **ابن أبى حدرد الأسلمى**: وقد تحدثنا عنه من قبل فى لبنات الحديبية. والمعلومات ضنينة عنه . لكن تطالعنا هنا علاقته مع أبى الشحم اليهودى ، وتعرض صورة للجو النفسى الذى ساد المدينة قبيل خيبر .

(فلما تجهز الناس إلى خيبر شقَّ ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ وعرَفوا أنهم إذا دخلوا خيبر ، أهلك الله خيبر كما أهلك بنى قينقاع والنضير وقريظة)[1] .

وقرَّر اليهود المسالمون أن يطالبوا بحقوقهم وذممهم عند المسلمين (فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه)[2] ونشهد من ابن أبى حدرد رضي الله عنه صورة من هذه المطالبات من أبى الشحم اليهودى ، وأبوالشحم هذا من كبار الأثرياء اليهود . فقد شهدناه من قبل . وقد أغرق عبد الله بن عمرو بن حرام فى الديون حتى وفاه رسول الله ﷺ من نخل جابر . وها هو ابن أبى حدرد تشتد عليه الفاقة . ويبيت على الطوى مع أهله . فيأتى أبا الشحم اليهودى فيستدين منه أربعة دراهم فى شعير أخذه لأهله كما هى رواية الطبرانى الصحيحة ، ورواية الواقدى خمسة دراهم ، وهاهو أبو الشحم يأتى ابن أبى حدرد الأسلمى يطالبه بدراهمه الأربعة . قال عبد الله :

أجلنى ، فإنى أرجو أن أقدِم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله . إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها . . . (وكان عبد الله بن أبى حدرد ممن شهد الحديبية)، ولكن أبا الشحم كظم غيظه ابتداءً والحسد يأكل قلبه . وطالب ابن أبى حدرد بالوفاء مباشرة .

قال عبد الله : يا أبا الشحم ، إنا نخرج إلى ريف الحجاز فى الطعام والأموال.

وهنا انفجر غيظ أبى الشحم . وأبى إلا أن يخرج ضغينة قلبه ،فقال : تحسب أن قتال خيابر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل .

وصعد الدم فى رأس ابن أبى حدرد المسلم فقال لليهودى الأفاك :

أى عدو الله ! تخوفنا بعدونا وأنت فى ذمتنا وجوارنا ، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ .

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٣٤ .

اليهودى أعزل ضعيف ، والشبهات الأمنية تدور حول كل اليهود الموجودين فى المدينة ، ولا شىء أسهل من اتهامهم بالعمالة والتجسس والخيانة والتآمر مع يهود خيبر ضد المسلمين ؛ ولو لم يقم أى دليل على ذلك. فيكفى أنهم يهود .وفى دول الأرض اليوم مثل هذه القضية ، وقد كشف فيها أبو الشحم عن خبيئة نفسه ، وعن محاولة بث الرعب فى الصف الإسلامى ، وابن أبى حدرد من رجال الطبقة الأولى فى الأمة ، كان يمكن فى عالمنا اليوم أن يساق إلى أجهزة المخابرات فيلقى كل أنواع التنكيل والإيذاء والتصفية الجسدية ،خاصة وليس له من يحميه فى هذه الأرض باسم مصلحة الدولة العليا ، وباسم أمن الدولة .

إن المواطنين الأبرياء الخلَّص فى دول العالم الدكتاتورية اليوم كلها متهمون حتى تثبت براءتهم . والبرىء فقط أعضاء الحزب أو موظفو الأمن أو ضباط الجيش العقائديون . والشعب كله متهم ، والأمة كلها متهمة . وحتى فى الدول الديمقراطية العليا . وحين تثبت عملية الثقة بالعدو ، وبث الإشاعات فى حالة الحرب ، تعطى حق أجهزة الدولة الأمنية وقادتها الكبار حق الاحتجاز والاعتقال والتحقيق .

وها نحن نشهد هذه الصورة فى مجتمع المدينة الذى مضى عليه خمسة عشر قرناً من الزمان . وأبو الشحم اليهودى يقول للمسلم : تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل .

وتحولت القضية إلى قضية أمنية ، ولكن أكبر ما يملكه ـ من سلطة رجل الدولة وابن الطبقة الثانية فيها طبقة الحديبية ـ أن يرفع دعوى بحقه إلى رئيس الدولة المسلمة محمد ﷺ . هذه هى الصلاحيات التى يملكها جيل النصر ، والذى تربى فى مدرسة السماء .

فقلت : يارسول الله ، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودى ؟ وأخبرته بما قال أبوالشحم .

وهى فرصة سانحة لتوقع الدولة المسلمة بهذا العدو المتلفف بثوب المواطنة، وقد كشف عن خبيئة نفسه فى دفاعه عن اليهود فى خيبر ، والتصغير من شأن المسلمين أمامهم ، وبث الرعب فى الصف الإسلامى من العدو . نقول: لو اجتمعت إلى الاتهام بالخيانة العظمى فى محكمة الأرض اليوم .

فماذا كان موقف رئيس الدولة المسلمة إمام العادلين فى الأرض ﷺ ؟

فأسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً ، إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ حرَّك شفتيه بشىء لم أسمعه .

وعند طغاة الأرض ، تعنى هذه الحركة أن يخرج الزبانية بهذه التمتمة من الرئيس الأعلى إلى هذا المجرم فيساق إلى حتفه ويقط رأسه عن جسده .

لكن فى محكمة السماء التى تستمد الوحى من الله عز وجل ، يتاح لأبى الشحم أن يدافع عن نفسه ، فيقول : يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمنى وحبسنى بحقى ، وأخذ طعامى ! .

ولم يسأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابن الطبقة العليا المقربة لديه عن صحة كلام أبى الشحم اليهودى ، إنما أصدر أمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « اعطه حقه » ، دون أن يعير للقضية الأمنية أى التفات ، إنما أسقطها ابتداءً ، وحكم لليهودى بمطالبة جنديه ـ ابن الحديبية ـ أن يدفع الحق لهذا اليهودى .

هذا اليهودى الذى يملك الأموال الطائلة،والثروات المكدسة من الذهب والفضة ، إنها فرصة سانحة أن تؤمم أمواله ، وتُصرف لصالح الجيش المسلم الذى لا يملك قوت يومه ولا قوت ساعته . . . وفى أعلى مستويات العدل فى هذا الوجود ، أن تسقط حقوقه عن مدنييه الذين يمضون عمرهم فى الجهاد والذود عن بيضة الإسلام ، ولا يجدون قوت يومهم ، خاصة إذا كان الدين من القوت الضرورى .

كل هذا لم يحدث ، إنما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابن أبى حدرد : « اعط هذا حقه » .

قال عبد الله : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها .

قال : « اعطه حقه » .

هكذا ، الأربعة دراهم ، قوت الأهل من الشعير فى تلك الليلة البائسة . لهذا اليهودى المتخم الثرى الغنى .

لابد أن تدفع له ، ويقسم ابن أبى حدرد أنه لا يملكها ، ويأتى الحكم المبرم على ابن الحديبية أن يؤدى لهذا اليهودى حقه ، فقسم ثانية أنه لا يملك ذلك الحق ، وليس لديه أربعة دراهم يفى هذا اليهودى المشبوه حقه. وفى المرة الثالثة تصدر الأوامر ثالثة إليه : « اعطه حقه » .

(وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يراجع)

وهكذا تربى ابن أبى حدرد فى مدرسة النبوة . إن أمر رسول الله ﷺ لا يراجع بعد ثلاث . وعليه أن ينفذ الأمر النبوى الموجه إليه . بعد أن جاءه وقد قبض على المجرم متلبساً بجريمته ، يخوف المسلمين بالعدو اليهودى ، ويبث إشاعاته فى أثناء

الحرب الدائرة بين المسلمين واليهود .

وإذاً على ابن أبى حدرد الأسلمى رضي الله عنه أن يفى اليهودى الدراهم الأربعة التى تقوّت بها يومه ذاك .

ترى . . . هل يحقد ابن الطبقة العليا فى الأمة على هذا الأمر ، وهذا الحكم لليهودى عليه ،وبم يفكر الحديبى، أيذهب بهذا اليهودى خلسة ويقتله ويلحق العدو ؟ أم يهدده تهديده الرعيب بأن يعترف باستلامه حقه ويكف مطالبته عنه ؟

أبداً . كل هذا لم يحدث فى مدرسة النبوة ، وجامعاتها التربوية ، إنما يمضى ليفى دين اليهودى ، وإن كان استدان هذا المبلغ من قوت يومه ، فيأخذه الآن من لباسه .

أما رواية الواقدى فتقول :

(فخرجت فبعت أحد ثوبى بثلاثة دراهم ، وطلبت بقية حقه فقضيته ، ولبست ثوبى الآخر ،وكانت علىّ عمامة فاستدفأت بها ،وأعطانى سلمة بن أسلم ثوباً آخر) .

وأما رواية الطبرانى فتقول :

(فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق ، وعلى رأسه عصابة وهو يأتزر بمئزر، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه .فباعها منه بالدراهم).

لقد أصبح ـ على الروايتين ـ عارى الصدر والظهر ، لا يلبس إلا إزاراً هو عمامته على رواية الطبرانى ، وباع بردته بأربعة دراهم .

وهذه نتيجة دعواه على أبى الشحم اليهودى . أن يستلبه بردته مقابل دينه ، ويجلس فى العراء والقر، مؤتزراً بعمامته .

وهى تربية من طرف آخر على أداء الحقوق لأصحابها ولو كانوا كفاراً أو يهوداً أو أعداء . بل هو ألزم عندما يكونوا كذلك بحيث يبيع المسلم ثوبه ويترك قوته ، ولايدع مجالاً لمعاهد أو ذمى أن ينال من سمعة المسلمين بأنهم يماطلون فى حقوقهم . ومن أجل ذلك كان الأمر الحاسم بالوفاء دون قبول العذر بالعسرة وضيق ذات اليد : فقد كررها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثلاثاً حتى لا يراجع بعدها فى ذلك ، وهى تربية من جهة ثالثة لجيل النصر ألا يأشر ولا يبطر ولا يطغى وليس عودته بأعظم مجد فى الوجود ، إنه خيرة أهل الأرض . ليس يعفيه هذا المجد من تأدية أربع دراهم من الدين على أحد أبنائه ، والذى كلفه العُرىِ مقابل سداد هذا الدين .

(فمرت عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ؟

فأخبرها ، فقالت : هادونك هذا البرد ! فطرحته عليه .

فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ،ثوب هو عمامته والبردة التى أعطتها له العجوز .

هذا هو الصحابى العظيم الذى لا يملك قوت يومه ، ولا يملك ما يستر به عورته من المال ، هو أحد الذين وعدهم الله تعالى بغنيمة خيبر .

يقول عبدالله ، الذى صبر واحتسب فى سبيل الله ، ونفَّذ أمر رسول الله ﷺ:

(ونفلنى الله تعالى من خيبر ، وغنمت امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابة، فبعتها منه) [1] .

وصدق الله وعده لجنده الصابرين المحتسبين: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2].

جـ ـ ومن هذا الفقير الأسلمى بن أبى حدرد إلى الفقير الآخر أبى عبس بن جبر :

وأبو عبس بن جبر أنصارى أوسى، وأحد الفدائيين الخمسة الذين قتلوا كعب بن الأشرف .

ولنشهد ترجمته فهو من الرعيل الأول ، فهو بدرى أحدى حديبى :

(كان أبو عبس يكتب بالعربية قبل الإسلام ، وكانت الكتابة فى العرب قليلاً . وكان أبو عبس ، وأبوبردة بن نيار يكسران أصنام بنى حارثة حين أسلما ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين خنيس بن حذافة السهمى وهو زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ قبل رسول الله ﷺ، وشهد أبو عبس بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف وكان عمر وعثمان يبعثانه يصدِّق[3] الناس) [4] .

وقد خلد ذكره أخوه عباد بن بشر رضي الله عنه فى أبياته الرائعة التى يتحدث فيها عن قتل كعب بن الأشرف ، إذ يقول فيه من هذه الأبيات :

فعانقه ابن مسلمة المرادى ... به الكفان كالليث الهزبر
وشد بسيفه صلتاً عليه ... فقطَّره أبو عبس بن جبر

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ، وقال فيه : روى محمد بن عمر عن شيوخه ، وأحمد والطبرانى بسند صحيح .
(٢) الفتح / ٢٠ .
(٣) أى يجمع صدقاتهم .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٥٠ .

ومر برأسه نفر كرام هُمُ ناهوك من صدق وبر
وكان الله سادسنا فأبنا بأفضل نعمة وأعز نصر

وهذا أبو عبس الذى يحمل هذا الماضى الناصع كله ، وقد شهد المشاهد كلها ، هاهو عند الخروج إلى خيبر يأتى إلى رسول الله ﷺ قائلاً :

يارسول الله ما عندنا نفقة ولا زاد ولا ثوب أخرج فيه .

فأعطاه رسول الله ﷺ شُقيقة سنبلانية(١) .

وهذا ما استطاعت قيادة الجيش الإسلامى أن تمده به ، وهو من هو فضلاً وعراقة ومجداً ؛ لكن التربية الأعمق قد تمت على الطريق للبدرى الحديبى ، الذى جمع المجد من طرفيه .

(فبينا رسول الله ﷺ فى طريق خيبر فى ليلة مقمرة ، إذ أبصر برجل يسير أمامه، عليه شيء يبرق فى القمر كأنه فى الشمس وعليه بيضة . فقال رسول الله ﷺ: « من هذا ؟ » فقيل : أبو عبس بن جبر . فقال رسول الله ﷺ : « أدركوه ».

قال : فأدركونى فحبسونى .

وأخذنى ما تقدم وما تأخر . وظننت أن قد نزل بى أمر من السماء ، فجعلت أتذكر ما فعلت . . .) .

هذه هى النفسية ذات الشفافية العليا حين تعتقل وتحبس . فهو دائماً وأبداً يتهم نفسه . لا شك أن جريمة معينة قد ارتكبها دعت إلى اعتقاله ، وها هو يستعيد شريط ذكرياته ويستعرض ماضيه كله .

أى جريرة ارتكب ، ولعل هذا تم بأمر من السماء .

مضت كل هذه الهواجس فى نفسه ، وكأنما هو فى مرجل يغلى من القلق .(حتى لحقنى رسول الله ﷺ) .

وكانت المحاكمة النبوية التى صيغت بها التربية العليا للنوعيات العليا .

« مالك تقدم الناس ولا تسير معهم » .

فقلت : يارسول الله إن ناقتى نجيبة .

قال : « فأين الشُقَيقة التى كسوتك ؟ » .

---

(١) الشقيقة : تصغير شقة وهى جنس الثياب ، وسنبلانية : سابغة الطول .

فقلت : بعتها بثمانية دراهم. فتزودت بدرهمين تمراً، وتركت لأهلى نفقة درهمين، واشتريت بردة بأربعة دراهم .

فضحك رسول الله ﷺ .

هذه هى المحاكمة ، لم يسبق إخوانه ! ومحاسبته على أمواله المنقولة وغير المنقولة. ما فعل بها. هذه الثروة التى كدسها طيلة ست سنوات من حروبه من العدو ، وهى شقيقة سنبلانية أهداها له قائده - عليه الصلاة والسلام - قبل التوجه إلى خيبر .

وقدَّم كشف حسابه كاملاً . حيث دخل هذه الحرب . كما قال :

يارسول الله ، ما عندنا نفقة ولا زاد ولا ثوب أخرج فيه .

ولاحتمالات الثراء غير المشروع، قُدِّمت كافة الأوراق والثبوتيات بأمواله وممتلكاته، وكيف وزع ثروته التى أهدته إياها الدولة. فكان بالضبط حسب البنود المذكورة.

النفقات : ترك درهمين لأهله .

الزاد : تزوَّد تمراً بدرهمين .

الملبوسات : اشترى بردة بأربعة دراهم .

وبمراجعة حساب الواردات والنفقات .تم تسديد كامل المدفوعات، وظهرت براءته من الاختلاس أو التزوير . وضحك رسول الله ﷺ .

فهو يريد أن يسمع من جنديه العظيم هذا الوصف الدقيق للمعاناة . حتى يسكب فى أذنيه المعنى الجديد العميق من معانى التربية التى لم تنقطع حتى بعد أن أخذ وسام أنه واحد من خيرة أهل الأرض . بعد وسام المغفرة فى بدر .

كان هذا المعنى الذى ينسكب فى قلبه ، ويغوص فيها كما تغوص الجذور فى الأرض النقية الخصبة :

« أنت والله يا أبا عبس وأصحابك من الفقراء - والذى نفسى بيده - لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرن زادك وليكثرن ماتتركون لأهليكم ، ولتكثرن دراهمكم وعبيدكم . . . » .

وثقة أبى عبس رضي الله عنه بكلام نبيه ﷺ كثقته بنفسه وأنه حى يرزق . فهو يعلم أن نبيه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فاطمأن إلى مستقبله المشرق الرغيد الغنى الثرى حتى ليكونن له العبيد والدراهم ، لكن جلاء الصورة التربوية تجلى فى هذه الجملة الأخيرة :« . . . وماذاك بخير لكم » .

ويختصر الزمن ، فهاهى خيبر تقلب كثيراً من الموازين بمغانمها الضخمة، ولا بد لجيل النصر هذا من أن يهيأ ليفطم نفسه عن حب الدنيا والولوغ فيها حتى لا تفتك فيه. ولا بد أن يعلم أن انبساط الدنيا عليه ليست علامة الخيرية. وفقه أبو عبس درسه بعد أن انتهت محاكمته ، وعرف سبب اعتقاله ليتلقى هذه الدفقة التربوية العظيمة . فقال فيما بعد :

(فكان والله ماقال رسول الله ﷺ) .

ولايدع، فقد شارك فى المسؤولية فيما بعد ،وكان عاملاً لأبى بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله عنهم ـ مسؤولاً عن جباية الصدقات فى الأمة. وأثمرت تلك التربية هذا الحاكم العادل الأمين .

وينقل لنا أحد إخوانه عنه وهو فى الأيام الأخيرة من حياته،أن أمير المؤمنين عثمان زاره،وقد أغمى عليه فى مرض موته ثم أفاق (قال عثمان: كيف تجدك؟ قال: صالحًا. وجدنا شأننا كله صالحًا؛ إلاعقولاً [1] هلكت بيننا وبين العمال لم نكد نتخلص منها) [2].

فهو يسد الحساب عند ربه على مسؤوليته المالية فى حياته، ولم يكد.

كما سدد حسابه قبيل خيبر عن الشقيقة السنبلانية ولم يكد، مع أنه مغفور له. وها هو يفارق الحياة إلى الملأ الأعلى .

(. . . وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع، ونزل فى قبره أبو بردة بن دينار، وقتادة ابن النعمان،ومحمد بن مسلمة،وسلمة بن سلامة بن وقش وكلهم قد شهد بدرًا)[3] .

د ـ ودعا ﷺ الجيش إلى وليمة جماعية قبيل وصوله إلى خيبر كما ذكر سويد بن النعمان رضي الله عنه :

إن رسول الله ﷺ لما وصل إلى الصهباء. وهى أدنى خيبر صلى القصر، ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق. فأمر به فثُرِّى[4] فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلى ولم يتوضأ .

وهو تدريب على الحياة الجماعية بحيث يشترك الجميع فى الطعام على سوية واحدة، فيحمل القوى الضعيف ويطعم من له فضل زاد من لا زاد له. وإن كان الجميع

---

(١) العقول التى هلكت بينه وبين العمال: عبارة عن أموال فى الذمم أو رهائن، حوسب من أين اكتسبها وأين أنفقها .

(٢، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٤) السَويق : قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن ، وثرَّى السويق : بلَّهُ .

ضعفاء. فلا يملكون سوى السويق، قِرىً يقدمونه للطعام .

هـ ـ وضمن هذا الجو الجماعى والروح العامة. كان دور عامر بن الأكوع رضي الله عنه فى رجزه فى سكون الليل وهو يحدو للإبل، وكأنما ينطق بلسان الجيش كله :

تالله لـــولا الله مـا اهتدينـــا ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا
ونحـن مـن فضلك ما استغنينا فثبِّـت الأقـدام إن لاقينـــا
وأنـزلـن سـكيـنة عـلينـا

ويسأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن هذا الحادى الذى ربط المشاعر كلها به فى هدوء هذا الليل الرائق بحدائه ورجزه: « من هذا؟ » فيقول: رضي الله عنه أنا عامر.

ويأتى الجواب: «غفر لك ربك».

وعرف المسلمون جميعًا أن حاديهم سوف يرزق الشهادة فى خيبر، فقد بشره رسول الله ﷺ بهذه الدعوة التى يدرك هذا الجيش الذى غدا إنسانا واحداً يتحرك ويحس ويعى ويحزن ويفرح .

فيأتى نداء عمر رضي الله عنه : لولا متعتنا بعامر .

إيذاناً بالتجاوب العميق بين هذه الأسرة الحية .

و ـ ولابد أن يدرك كل فرد فى هذا الجيش مفهوم السمع والطاعة . حيث أصدر رسول الله ﷺ أمرًا واضحًا محددًا: من كان مضعِفًا أو مصعِبًا فليرجع ،أى من كانت دابته ضعيفة. أو حرون لم تذلل بعد فليرجع حتى لا يعيق المسير، وحملت الرحلة إلى خيبر مخالفة واحدة فرجع ناس وفى القوم رجل على صعب فمرً من الليل على سواد فنفر به فصرعه، وجىء به قتيلاً إلى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث ذكرت له قصته. فأحب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتأكد ابتداءً من تعميم الأمر على الجيش قبل أن يحكم على الرجل.

فقال: « يا بلال ،أما كنت أذنت فى الناس من كان مضعِفًا أو مصعِبًا فليرجع»؟ قال: نعم فأبى أن يصلى عليه.

وهذا درس قاسٍ جدًا فى التربية. فعامر رضي الله عنه يستغفر له. إيذانًا باستشهاده وهذا الصريع يأبى الصلاة عليه، لإصراره على مخالفة الأمر الواضح، دون أن يكون اعتباراً للدافع فى هذا المجال، وزاد البيهقى أن رسول الله ﷺ قال: « الجنة لا تحل لعاصٍ » ثلاثًا.

ز ـ وتتكرر الصورة حتى ولو كانت جهاداً فى سبيل الله. فالعواطف الجياشة مع مخالفة أمر رسول الله ﷺ لا تنقذ المسلم من الهلاك. فقد صفّ رسول الله ﷺ أصحابه ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم. فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودى، وحمل عليه اليهودى فقتله. فقال الناس : استشهد فلان، فقال رسول الله ﷺ: « أبعد ما نهيت عن القتال؟ » قالوا : نعم .فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادى فى الناس : لا تحل الجنة لعاصٍ حتى لو قُتل ثورة لله. وحرصًا على الجهاد فى سبيل الله. إذا كان مخالفًا للأوامر الصادرة من رسول الله ﷺ فى إيقاف القتال .

ولابد أن يتربى هذا الجيل على الانضباط فى الحالين . للانتقال من صيغة الحرب القبلية . إلى صيغة حرب العقيدة . ففى نظام الصراع القبلى بإمكان ماجن أن ينقض لينأ على عدوٍ من القبيلة المعادية فيقتله . فيشعل حربًا بين القبيلتين لنصر هذا المجرم الفاتك.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

ح ـ لكن هذا الانضباط وهذه الجندية الكاملة فى السمع والطاعة والتربية عليها، لا تلغى فاعلية الفرد ودوره فى البناء والتخطيط، فالمستشار العسكرى الكبير الحباب بن المنذر رضي الله عنه حين أصدر رسول الله ﷺ أمره فى النزول فى المنزلة، وعرّس فيها ساعة من الليل.رأى بطبيعة خبرته، وعراقته الاستراتيجية فى الحرب أن هذا المنزل لا يصلح للمواجهة فجاء باندفاع ذاتى منه يقول:

يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ إنك نزلت هذا المنزل فإن كان عن أمر أُمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان الرأى تكلمنا.

والحباب يعرف الحدود الفاصلة بين الرأى والوحى.ولا اجتهاد فى موقع الوحى. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:« بل هو الرأى»فقال:يا رسول الله دنوت من الحصن،ونزلت بين ظهرى النخل والنز.مع أن أهل النطاة لى بهم معرفة،ليس قوم أبعد مدىً منهم ولا أعدل منهم،وهم مرتفعون علينا،وهو أسرع لانحطاط نبلهم،مع أنى لا آمن من بياتهم يدخلون فى خَمَر النخل؛تحوَّل يا رسول الله ـ صلى الله عليك وسلم ـ إلى موضع برىء من النز ومن الوباء نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم .

إنها أمة واعية فتية تتكلم خبراتها ،حيث يجب الكلام، وتصمت حيث يلزم الصمت. ولم يكن حرجًا على القائد الأعظم ﷺ أن يستجيب لإشارة الحباب، فقد جرَّبه فى بدر وغيرها، وأثبت كفاءة عالية فى استراتيجية الحرب. ودعا محمد بن مسلمة فى الحال قائلاً له: « انظر لنا منزلاً بعيدًا عن حصونهم، بريئًا من الوباء نأمن فيه بياتهم»

حيث حدَّد الشروط الثلاثة للموقع الجديد الذى طلبه الحباب .

فطاف محمد حتى انتهى إلى الرجيع ، ثم رجع إلى النبى ﷺ ليلاً فقال: وجدت لك منزلاً. فقال رسول الله ﷺ: « على بركة الله » .

ولم يغب عن ذهنه ﷺ وهو يحرص على الاستفادة من الطاقات. أن يضم طاقات الأوس وخبرة محمد بن مسلمة رضي الله عنه إضافة إلى طاقات وخبرات الخزرج ممثلة برأى الحباب بن المنذر بن الجموح، حين وازن بين التخطيط والتنفيذ ، وحرَّك الفاعليات الموجودة عنده كلها. ومضى مع المساء للرجيع . الموقع الذى اختاره محمد بن مسلمة الأوسى رضي الله عنه حسب المواصفات التى وضعها الحباب بن المنذر الخزرجى .

٤ ـ فى التخطيط الحربى :

لا شك عند المسلمين وقائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحظة واحدة أنهم منصورون فى خيبر، فهى المغانم التى وعدهم الله إياها. لكن هذا لا يعنى أبدًا أنها ستكون سهلة المنال. يصل المسلمون إليها دون جهد .

وسنرى فيما بعد أن أشق حرب خاضها المسلمون منذ قامت دولة الإسلام هى حرب خيبر، وإذا كانت الغزوات السابقات أيامًا معدودات. ما تجاوزت أى غزوة منها شهرًا على أبعد تقدير. فقد كانت غزوة خيبر شهرين من المواجهة والحصار والمبارزة الحربية، والاشتباك مباشرة بالسيوف، أو الرمى المستمر بالسهام، وأعظم ما تبرز به عبقرية القائد حين يدرك عدوه إدراكًا حقيقيًا ، بعيدًا عن المبالغة والتهويل من شأنه أو التحقير والاستهانة بشأنه. وكثير مِن الدول انهارت تحت ضربات عدوها الذى لم تدرك حقيقة قوته، وكثير من الجيوش جرَّت أذيال الهزيمة حين خاضت حربًا غير متكافئة مع عدوها، كما أن عبقرية القائد تكمن فى المعرفة الحقيقية بجيشه وجنده؛ المعرفة البعيدة عن التهويل والمبالغة والبعيدة عن الاستهانة والاستصغار لهذه القوة الفتية.

ويؤسفنا أن نقول أن وضع الآيات القرآنية فى غير موضعها كثيرًا ما يجعل الخلل الكبير فى النظرة إلى العدو. فحين يسيطر على ذهن القائد أو القيادات المعنى الكبير للآية: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١) .

ويدع القائد الفز هذا الفهم مفتوحًا دون قيد ، وهو يدعو إلى المواجهة مع العدو. مهما كانت قلة عدده ومهما كانت كثرة العدو وشراسته. ولو رحت تناقشه بخطأ موقفه لشكك فى عقيدتك، واتهمك فى دينك وها نحن نتربى على مدرسة النبوة. فقد قال

(١) البقرة / ٢٤٩ .

الله تعالى للمؤمنين: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(١) .

وتحرَّك الرسول ﷺ وهو مطمئن لوعد الله الذى لا يخلف الميعاد .

لكن الصورة بين يدى رسول الله ﷺ وهو ماضٍ إلى العدو .واضحة بين يديه عن قوة هذا العدو، وكثرة عدده، وتحصينات قلاعه ، وإصراره على حرب الإسلام والمسلمين . حيث كان اليهود يقولون للمسلمين عن خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم. لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليها، حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها واتن. إن بخيبر لألف دارع . ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم . فأنتم تطيقون خيبر .كما وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ عن تحركات اليهود.

وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم فى حصونهم وسلاحهم وعددهم. كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات.

فمثل هذا العدو. ومن خلال استخبارات النبى ﷺ عنه. لابد أن تعد العدة الكاملة لمواجهته فاختار رسول الله ﷺ ابتداء قائد حرسه الخاص وخيرة فرسانه عباد بن بشر رضي الله عنه وهو من أعرق المسلمين كفاءة وفضلاً وخبرة وقدمًا فى الحرب. اختاره ليكون طليعة له مع مجموعة من الفرسان الأبطال. ولنشهد كيف استطاعت هذه الطليعة بقيادتها أن تغوص إلى أعماق القوة اليهودية خبرة ودراية ومعرفة .

فأخذ عيناً لليهود من أشجع. فقال : من أنت ؟ قال: باغ أبتغى أبعرة ضلَّت لى أنا على أثرها . قال له عباد : ألك علم بخيبر ؟ قال : عهدى بها حديث . فيم تسألنى عنه؟ قال : عن اليهود ؟

قال : نعم كان كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس ساروا فى حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاؤوا معدين بالسلاح والكراع يقوده عتبة ابن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التى لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم ،وماء واتن يشربون فى حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة .

واستطاع عباد رضي الله عنه بنفاذ بصيرته أن يدرك أن هذا الرجل هو من قلب يهود.وأن هذه المعلومات هى المعلومات التى يصدِّرها يهود خيبر للخارج.فلابد من النفاذ لأعماق هذا الرجل.وقدَّر بفراسته أنه جاسوس له.يقدم معلومات مغلوطة تخدمه.خاصة فيا يتعلق بانضمام غطفان إليه.والمسلمون قد قطعوا الطريق بين الحليفين .

(١) الفتح / ٢٠ .

فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات وقال: ما أنت إلا عين لهم . اصدقنى وإلا ضربت عنقك ! فقال الأعرابى : أتؤمننى على أن أصدقك ؟ قال عباد : نعم.

وحين وجد الأعرابى بريق الموت أمام عينيه . وهو ليس صاحب قضية أصلاً. إنما هو صاحب مطامع ومصالح . فقدَّم كل المعلومات التى لديه. حفاظاً على حياته وقلبت المعلومات الجديدة الصورة عن العدو . حيث كانت :

أ ـ (القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم فيمن كان بيثرب من اليهود) .

وشتان بين الصورة الأولى التى تتحدث عن المعنويات العالية والتعبئة النفسية للمواجهة ، وبين المعنويات الخائرة والقلوب المرعوبة فى الصورة الثانية . وهى الأجدر بالتصديق فقيادات خيبر هى القيادات نفسها التى واجهت المسلمين فى بنى قينقاع وبنى النضير ، وعرفت حرب المسلمين،والمسلمون قد خبروهم كذلك.

﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

فالصورة الثانية هى التى تنطبق عليها الصورة القرآنية .

ب ـ (وإن يهود يثرب بعثوا لهم ابن عم لى وجدوه فى المدينة قد قدم بسلعة يبيعها فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم. وقلة خيلكم وسلاحكم ويقولون له: فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم فإنه لم يلق قومًا يحسنون القتال) .

وهذا هو المتوقع كذلك فلا يمكن لليهود فى المدينة إلا أن يكونوا جواسيس لأربابهم وقياداتهم فى خيبر.

والأصل أن يكون ولاؤهم لهم وما سمعه المسلمون من روح التشفى عند يهود لتؤكد ترجيح إرسال إخباريات دقيقة عن وضع المسلمين وجيشهم وساعة انطلاقهم وتحركهم.

جـ ـ (وإن قريشًا والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم، وجودة حصونكم. وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر، ويقول آخرون: يظهر محمد. فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر. قال الأعرابى: وأنا أسمع كل هذا) .

وحتى هذه اللحظة فلم يعترف الأعرابى بالمهمة التى كُلِّف بها من قيادة اليهود، ولا تزال المعلومات غير كافية ووافية عن أجواء اليهود. وإن كانت نقلت بعض الصور المتوقعة عن البيئة العربية وقريش وموقفهم من هذه الحرب الفاصلة يقول الأعرابى:

د ـ وأنا أسمع كل هذا فقال لى كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون

---

(١) الحشر / ١٤ .

مكانك واحزرهم لنا وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به. ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم .

إنه لولا عظمة الوعى وصدق الفراسة لدى قائد الطليعة عباد رضي الله عنه لحقَّق الأعرابى كامل مهمته. حيث عرف العدو للمسلمين وألقى فى روعهم ما كلِّف به، من قوة اليهود وعددهم ومادتهم ليوهن الصف الإسلامى. وهذه هى حدود عبقرية كنانة فى الجواسيس الذى يبعث بهم. وأما الوعى فى الصف الإسلامى، فقد استطاع أن يكشف الهوية. ويكشف المهمة ولم يكتف بذلك عباد. فلو أطلق سراح هذا الأعرابى لعاد إلى خيبر طامعًا بأموالهم وقراهم. وأقدم عباد رضي الله عنه على الإجراءت الاحتياطية المطلوبة، ومضى بهذا العين إلى رسول الله ﷺ.

وفى الوقت الذى قدَّر الفاروق رضي الله عنه ضرورة قتل هذا الجاسوس لقطع دابر عودته إلى اليهود، كان موقف الرسول ﷺ: «أمسكه معك يا عباد فأوثقه رباطًا » .

وبقى رهينة للتأكد من صحة المعلومات التى أدلى بها حتى تم فتح خيبر، ثم عرض عليه الإسلام فأسلم. ولم يعد ثمة خطر منه بعد أن انتهت خيبر كدولة ذات سيادة على الأرض.

هذا من جانب التخطيط الحربى والإعداد للمواجهة قبل المواجهة.

ثم كان بعدها ما شهدناه من اختيار المكان المناسب للمواجهة. والاستفادة من الخبرات والكفاءات الحربية المسلمة. ثم وضع خطة المواجهة عليه الصلاة والسلام لجيشه فقال:

« لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون ما تبتلَوْن به منهم. فإذا لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت. . . . » .

وهذه ذروة التعبئة المعنوية فى التوكل على الله، والثقة به، والبراءة من الحول والطول والقوة والتجرد لله وحده. « . . . ثم الزموا الأرض جلوسًا، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا » .

هذه هى الخطة العامة الفردية، أما الخطة داخل الكتائب والسرايا .

وفرَّق رسول الله ﷺ الرايات، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر، وإنما كانت الألوية وتوزعت الرايات بيد أركان الحرب الاسلامية وقادتها الأفذاذ على بن أبى طالب، وسعد ابن عبادة، والحباب بن المنذر، وتحدَّد الشعار وكلمة السر الإسلامية: يا منصور أمت، وابتدأت الحرب .

حرب خيبر

ذكر ابتدائه ﷺ بأهل النطاة :

وأذن رسول الله ﷺ فى القتال وحثَّهم على الصبر، وأول حصن حاصره حصن ناعم، وقاتل رسول الله ﷺ أشد القتال، وقاتله أهل النطاة أشدَّ القتال وترَّس جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ، وعليه كما قال ـ محمد بن عمر ـ درعان وبيضة ومغفَر وهو على فرسٍ: يقال له الظَّرِب، وفى يده قناة وترس. فقال الحباب: يا رسول الله ، لو تحولت؟ فقال: « إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا » .وجعلت نبل يهود تخالط العسكر وتجاوزه، والمسلمون يلتقطون نبلهم ثم يردونها عليهم .فلما أمسى رسول الله ﷺ تحوَّل إلى الرجيع، وأمر الناس فتحولوا: فكان رسول الله ﷺ يغدو بالمسلمين على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم[١] .

ذكر أخذ الحمى المسلمين ورفعها عنهم :

وروى البيهقى عن طريق عاصم الأحول عن أبى عثمان النهدى أو أبى قلابة قال: (لما قدم رسول الله ﷺ خيبر،قدم والثمرة خضرة ،قال: فأسرع الناس فيها، فحُمُّوا [٢] فشكوا ذلك إليه، فأمر الناس أن يقرسوا [٣] الماء فى الشنان [٤] ثم يحدرون عليهم بين أذانى الفجر، ويذكرون اسم الله عليه ،قال :ففعلوا فكأنما نشطوا من عُقُل[٥]) [٦].

فتحه ﷺ حصن الصعب بن معاذ بن النطاة:

وعن معتِّب الأسلمى قال:(أصابنا معشر أسلم خصاصة حين قدمنا خيبر، وأقمنا على حصن النطاة لا نفتح شيئًا فيه طعام. فأجمَعت أسلم أن يرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا: إيت محمدًا رسول الله فقل: إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف، فقال بريدة بن الحصيب: والله إن رأيت كاليوم قط أمرًا بين العرب يصنعون فيه هذا فقال هند بن حارثة: والله إنا لنرجوا أن تكون البعثة إلى رسول الله ﷺ مفتاح خير. فجاءه أسماء بن حارثة فقال: يا رسول الله ، إن أسلم تقول: إنا

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٨٨ .
(٢) حمُّوا: أصابتهم الحمى.
(٣) يقرسوا: يُبرِّدُوا.
(٤) الشنان: الأسقية.
(٥) العُقُل: جمع عقال وهو الرباط ماديًا أو معنويًا.
(٦) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٤٢ .

قد جهدنا من الجوع والضعف فادع الله لنا. فدعا لهم رسول الله ﷺ فقال: والله ما بيدى ما أقربهم ، ثم صاح بالناس فقال: اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه، أكثره طعامًا وأكثره ودكًا. ودفعوا اللواء إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، وندب الناس، فما رجعنا حتى فتح الله علينا الحصن حصن الصعب بن معاذ فقالت أم مطاع الأسلمية: لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ما شكوا من شدة الحال. فندب رسول الله ﷺ الناس فنهضوا. فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ. وأن عليه لخمسمائة مقاتل. فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله. وكان عليه قتال شديد، برز رجل من اليهود يقال له يوشع يدعوا إلى البراز. فبرز إليه الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات فقتله الحباب، وبرز آخر يقال له: الزيَّال. فبرز له عمارة بن عتبة الغفارى فبدره الغفارى فيضربه ضربة على هامته وهو يقول: خذها وأنا الغلام الغفارى ، فقال الناس : بطل جهاده فبلغ رسول الله ﷺ فقال: « ما بأس به يؤجر ويحمد» (١) .

وروى محمد بن عمر عن جابر أنهم وجدوا فى حصن الصعب من الطعام مالم يكونوا يظنون أنه هناك من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك، ونادى منادى رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحملوا. يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم(٢) .

محاصرته حصن الزبير بن العوام الذى صار فى سهمه فيما بعد :

روى البيهقى عن محمد بن عمر قال: لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير ، حاصرهم رسول الله ﷺ وهو حصن فى رأس قُلَّة. فأقام محاصرهم ثلاثة أيام. فجاء يهودى يدعى غزال فقال: يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق. فإن أهل الشق قد هلكوا رعبًا منك؟ فأمَّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله. فقال اليهودى: إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا؛ لهم دبول (٣) تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك. فإن قطعت عنهم مشربهم أصحروا (٤) لك فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها. فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا وقاتلوا أشد قتال.

وقُتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من اليهود فى ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ، وكان هذا آخر حصون النطاة.

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٦٦٤ وهو فى السيرة لابن هشام ٣/ ٤٦٢ .

(٣) الدُبول: جداول الماء. (٤) أصحروا: خرجوا إلى الصحراء.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من النطاة تحوَّل إلى الشق (١).

انتقاله ﷺ إلى حصون الشق :

لما تحول رسول الله ﷺ إلى الشق، وبه حصون ذوات عدد. فكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبيّ. فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سموان فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديدًا. وخرج رجل من اليهود يقال له غزول. فدعا إلى البراز فبرز له الحباب بن المنذر. فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب، فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزول فبادر راجعًا منهزمًا إلى الحصن، فتبعه الحباب، فقطع عرقوبه، فوقع فذفَّف عليه. فخرج آخر فصاح: من يبارز؟ فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش. فقيل الجحشي وقام مكانه يدعو إلى البراز. فبرز له أبو دجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المغفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه، ثم ذفف عليه وأخذ سلبه وسيفه ودرعه فجاء به إلى رسول الله ﷺ فنفله رسول الله ﷺ ذلك ، وأحجموا عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة. فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعًا ،غنمًا وطعاماً وهرب من كان فيه من المقاتلة وتقحموا الجدر كأنهم الظباء ، حتى صاروا إلى حصن النزار فغلقوه، وامتنعوا به أشد الامتناع، وزحف رسول الله ﷺ إليهم في أصحابه فقاتلهم، فكانوا أشد أهل الشقّ رميًا للمسلمين بالنبل والحجارة ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ. وعلقت به، فأخذ النبل فجمعها، ثم أخذ لهم كفًا من حصباء فحصب به حصنهم، فرجف الحصن بهم ثم ساخ في الأرض حتى جاء المسلمون فأخذوا أهله أخذًا (٢).

انتقاله ﷺ إلى حصون الكتيبة وبعثه السرايا :

لما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة، والشق، انهزم من سَلِم منهم إلى حصون الكتيبة، وأعظم حصونها العمُّوص، وكان حصنًا منيعًا.

ذكر موسى بن عقبة: أن رسول الله ﷺ حاصره قريبًا من عشرين ليلة. وكانت أرضا وخمة وروى الشيخان عن سهل بن سعد ، والبخارى عن سلمة بن الأكوع ، والبيهقى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه . . . . ، ومسلم ،والبيهقى عن أبى هريرة ، والإمام أحمد ،والبيهقى عن على - رضى الله عنهم .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥ .

قال بريدة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ تأخذه الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس. فأرسل أبا بكر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديدًا، ثم رجع ولم يكن فتح، وقد جهد .

ثم أرسل عمر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ﷺ، فقاتل قتالاً شديدًا هو أشد من القتال الأول ، ثم رجع ولم يكن فتح[1] وفى حديث على عند البيهقى: أن الغلبة كانت لليهود فى اليومين .

فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: « لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله عليه ،ليس بفرار ،يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يأخذها عنوة » وفى لفظ « يفتح الله على يديه ».

قال بريدة: فبتنا طيبة نفوسنا أن يُفتح غدًا فصلى رسول الله ﷺ الغداة. ثم دعا باللواء وقام قائمًا فما منا من رجل له منزلة من رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل حتى تطاولت أنا لها، ورفعت رأسى لمنزلة كانت لى منه، وفى رواية له، فأصبح وجاء علىٌ على بعيرٍ له حتى أناخ قريبا وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة برد قطرى. فقال رسول الله ﷺ: مالك؟ قال: رمدت بعدك. قال: ادن منى . فتفل فى عينه فما وجعها حتى مضى لسبيله[2] .

قال سلمة: فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق فى عينيه فبرأ [3] .

(وعند الحاكم من حديث على نفسه قال: فوضع رأسى فى حجره ثم بزق فى إلية راحته فدلك بها عينى ،وعند الطبرانى من حديث على: فما رمدت ولا صدعت مذ دفع النبى ﷺ إلىّ الراية يوم خيبر .وله من وجه آخر: فما اشتكيتها حتى الساعة، قال: ودعا لى فقال: « اللهم اذهب عنه الحر والقر » فما اشتكيتهما حتى يومى هذا) [4].

وفى حديث سهل بن سعد:

فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين على بن أبى طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله ، أقاتلهم حتى

(١، ٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢١٠ ، ٢١١ .
(٣) مسلم ٣/ ١٤٤١ برقم (١٨٠٧) .
(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧٧ .

يكونوا مثلنا؟! فقال: « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النَّعم »[1] وفى حديث سلمة .

(فخرج والله بها يأنح يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره ،حتى ركَّز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن. فاطَّلع إليه يهودى من رأس الحصن .فقال :من أنت؟ قال : أنا على بن أبى طالب . قال : يقول اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى)[2] .

قال أبونعيم: فيه دلالة على أن فتح على لحصونهم مقدَّم فى كتبهم بتوجيه من الله وجهه إليهم ، ويكون فتح الله تعالى على يديه[3].

قتل على رضي الله عنه الحارث وأخاه مرحبا وعامرا وياسرا :

روى محمد بن عمر عن جابر رضي الله عنه قال :

(أول من خرج من حصون خيبر مبارزاً الحارث أخو مِرحَب فى عاديته، فقتله على رضي الله عنه ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن، وبرز عامر، وكان رجلاً جسيماً طويلاً. فقال رسول الله ﷺ حين برز وطلع عامر : « أترونه خمسة أذرع؟ » وهو يدعو إلى البراز، فخرج له على بن أبى طالب رضي الله عنه فضربه ضربات كل ذلك لايصنع شيئاً ، حتى ضرب ساقيه فبرك . ثم ذفَّف عليه، وأخذ سلاحه)[4] .

قال ابن إسحاق : ثم برز ياسر وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى ياسر ... شاكى السلاح بطل مغاور

إذا الليوث أقبلت تبادر ... وأحجمت عن صولة المساور

إن حسامى فيه موت حاضر

قال محمد بن عمر : وكان من أشدائهم ، وكانت معه حربة يحوس بها المسلمين حوساً ، فبرز له على رضي الله عنه .

فقال الزبير: أقسمت عليك إلا خليت بينى وبينه . ففعل . وأقبل ياسر بحربته يسوق الناس بها . فبرز له الزبير ، فقالت صفية: يارسول الله ! واحزنى! ابنى يُقتل

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧٦ ح (٤٢١٠) وقولهم : يدوكون ليلتهم : أى باتوا فى اختلاط واختلاف .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام٣/ ٤٦٦ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ١٩٥ .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٤، ٦٥٧ .

يارسول الله ! فقال : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » فخرج إليه الزبير وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى زبار قرم لقرم غير نكس فرار

ابن حماة المجد وابن الأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب الخَتَّار

ثم التقيا فقتله الزبير . فقال له رسول اللهﷺ :« فداك عم وخال » وقال النبى ﷺ: « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير وابن عمتى » (١) .

حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم والبيهقى أن مرحبا خرج وهو يخطر بسيفه ، وفى حديث ابن بريدة عن أبيه: (خرج مرحب وعليه مِغفر معصفر يمانى ، وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مَرْحَبُ شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الليوث أقبلت تلهب

قال سلمة : فبرز له عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مغامر

قال فاختلفا ضربتين ،فوقع سيف مرحب فى ترس عامر،فذهب عامر يُسفل له ، وكان سيفه فيه قصر ،فرجع سيفه على نفسه ،فقطع أكحله .وفى رواية: عين ركبته ـ وكانت فيها نفسه (٢) .

قال بريدة : فبرز مرحب وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مَرْحَبُ شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الليوث أقبلت تلهب وأحجمت عن صولة المُغلَّب

فبرز له على بن أبى طالب رضي الله عنه وعليه جبة أرجوان حمراء قد أخرج خملها وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ، ففلق رأسه وكان الفتح. وفى حديث بريدة .فاختلفا ضربتين ،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٧ ، وسبل الهدى والرشاد ٥/ ١٩٦ .

(٢) مسلم ٣/ ١٤٤١ح ١٨٠٧ .

فبدره على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بضربة فقدَّ الحجر والمِغفر ورأسه ،ووقع فى الأحراش ، وسمع أهل العسكر ضربته ،وقام الناس مع على حتى أخذ المدينة .وروى الإمام أحمد عن على قال: لما قتلت مرحباً جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ (١) .

(وجزم جماعة من أصحاب المغازى بأن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحباً ، ولكن ثبت فى صحيح مسلم ما تقدم عن سلمة بن الأكوع أن علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو الذى قتل مرحباً . . وعلى تقدير صحة ماذكره جابر،فما فى صحيح مسلم مقدَّم عليه من وجهين؛ أحدهما : أنه أصح إسناداً .والثانى:أن جابراً لم يشهد خيبر كما ذكره ابن إسحاق ومحمد بن عمر ـ وهما اللذان جزما بقتل مرحب من محمد بن مسلمة . وقد شهدها سلمة وبريدة ،وأبو رافع ـ رضى الله عنهم ـ وهم أعلم ممن لم يشهدها)(٢).

ذكر قلع على باب خيبر :

قال ابن إسحاق :(حدثنى عبدالله بن حسن عن بعض أهله عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن ،خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود ، فطرح ترسه من يده ، فتناول على باباً كان عند الحصن،فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل،حتى فتح الله تعالى عليه،ثم ألقاه من يده حين فرغ.فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه) (٣) .

وروى البيهقى من طريقين عن المطلب بن زياد عن ليث بن أبى سليم عن أبى جعفر محمد بن على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن آبائه قال : حدثنى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حمل الباب يوم خيبر حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها ، وأنه جرِّب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً. رجاله ثقات إلا ليث بن أبى سليم وهو ضعيف .

قال البيهقى : وروى من وجه آخر ضعيف عن جابر قال : اجتمع عليه سبعون رجلاً وكان أجهدهم أن أعادوا الباب . قلت : رواه الحاكم (٤) .

ذكر فتحه ﷺ الوطيح والسلالم ، وكانا آخر حصون خيبر فتحاً :

قال ابن إسحاق:(وتدنى رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتحها حصنًا ،حصنًا حتى انتهوا إلى ذينك الحصنين وجعلوا لا يطلعون من حصنهم حتى همٍّ

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢١١ . (٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ٢٠٠ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ، وأورده ابن كثير فى التاريخ وهو فى السيرة النبوية ٣/ ٤٦٧ .
(٤) المصدر نفسه ٤/ ٢١٢ وقال عنه ابن كثير : فيه جهالة وانقطاع ظاهر .

رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من تغليقهم، وأنه لا يبرز منهم أحد، فلما أيقنوا بالهلكة ـ وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يومًا ـ سألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأرسل كنانة بن أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ رجلاً من اليهود يقال له شماخ يقول: أنزِل فأكلمك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فنزل كنانة فصالح رسول الله على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحَلْقة، وعلى البز إلا ثوبًا على ظهر إنسان. فقال رسول الله ﷺ: « برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئًا »

فصالحوه على ذلك، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأموال فقبضها الأول فالأول، ووجد فى ذينك الحصنين مائة درع ،وأربعمائة سيف،وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجعابها) (١).

لو جمعنا حروب المشركين وغزواتها لما وجدناها تعادل غزوة خيبر. ولم يفاجأ المسلمون فى حروبهم كلها. بمثل هذه المناعة من القلاع والحصون إنما كانت حروب صحراء تعتمد على الكر والفر، وليس فيها من المواقع الحصينة كما هو الحال فى خيبر. ولعل حصار بنى قريظة الذى استمر خمسة عشر يومًا يمثل نموذجًا من نماذج هذه الحرب من حيث حصونهم فيها. لكن الفارق كبير جدًا بين تسعمائة مقاتل، وعشرة آلاف مقاتل فهذا يعنى أن حرب خيبر من القساوة والشدة ما يعادل عشرة أضعاف حصار قريظة. لقد اجتمع اليهود جميعهم هناك لتكون المعركة النهائية بين اليهود والمسلمين، وتنهى أمة بقيت منيعة تحارب وتصاول ، وتجاول أكثر من ألف عام، فتنتهى قوة اليهود بعد خيبر خمسة عشر قرنًا. وعادت تبرز اليوم فى جيلنا المعاصر، بروزًا يتحدى الوجود الإسلامى كله فى هذا القرن، فنحن إذن أمام معركة. جمعت فيها اليهود كل خبرتها الحربية المتراكمة خلال القرون ،وكل الطاقات البشرية، وكل الطاقات الفنية ؛لتواجه هذه الأمة الفتية أمة الألفى مقاتل على أبعد تقدير، والتى نالت وسام الخيرية فى الأرض، بعد أن انتُزعت من بنى إسرائيل.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

هذه الأمة التى ورثت الكتاب، وكُلِّفت باتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٩ ، ودلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، والمغازى للواقدى ٢ / ٦٧٠ ، ٦٧١ .

(٢) البقرة / ٤٧ .

عندهم فى التوراة، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم. فها هى تنكث. وتكفر وتستعلى عن الإيمان بهذا النبى الأمى ،وترفض أن تكون أمته المختارة بل ها هى الآن تضع كل ما لديها من مال وسلاح ورجال وحصون لمواجهة هذا النبى والأمة التى أُعلن قبل أيام أنها المفضلة على العالمين وأنها خير أهل الأرض. ها هى الآن تخوض هذه الحرب الضروس ضد الأمة الملعونة المغضوب عليها والتى كفرت بالله ورسوله، وهى تعلم أنه الحق.

لقد كان فى خيبر ثلاثة مواقع عسكرية. . وخيبر كلها أرض حرب. وفى كل موقع العديد من الحصون والقلاع. وهذه المواقع هى :

١ـ النطاة. ٢ـ الشق. ٣ـ الكتيبة .

وابتدأت المعارك الأولى فى النطاة وبالذات فى حصن ناعم.

وشهدنا خبرة الحباب رضي الله عنه فى طبيعة مواجهة الحصون اليهودية، حيث أشار إلى تغيير الموقع ، بحيث لا تنال النبل المسلمين، ويكونون قادرين على المواجهة والانسحاب وبعيدين عن الخطر النازل. ومن حصن ناعم فى النطاة ابتدأت المواجهة.

أـ لكنا قبل الحديث عنها يحسن أن نشير إلى غطفان التى انضمت إلى اليهود فى موقف موحد لمواجهة النبى ﷺ. وتختلف الروايات حول انضمام غطفان إلى اليهود أو أنها حاولت الانضمام إليها. لكن الواقدى يشير إلى انضمامهم لليهود فى روايتين، إذ تذكر إحدى هاتين الروايتين أن عدد غطفان الذى انضم إلى اليهود فى خيبر هو أربعة آلاف مقاتل. حيث يحدث رجل من بنى مرة يقال له أبو شُيم فيقول:

أنا فى الجيش الذين كانوا مع عيينة من غطفان أقبل مدَدَ اليهود، فنزلنا بخيبر ولم ندخل حصنًا. فأرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وهو رأس غطفان وقائدهم «أن ارجع بمن معك ولك نصف تمر خيبر هذه السنة . إن الله قد وعدنى خيبر » فقال عيينة: لست مسلم حلفائى وجيرانى .

ويتوضح هذا المعنى، وتتجلى نفسية عيينة الحاقدة بتتمة الخبر من الرواية الثانية .

وإنا لنعلم مالك ولمن معك. بما ها هنا طاقة. هؤلاء قوم أهل حصون منيعة، ورجال عددهم كثير، وسلاح، إن أقمت هلكت ومن معك، وإن أردت القتال عجلوا عليك بالرجال والسلاح، ولا والله ما هؤلاء كقريش إن أصابوا غرةً منك فذاك الذى أرادوا وإلا انصرفوا، وهؤلاء يماكرونك الحرب ويطاولونك حتى تملَّهم ، فمنطق الحرب الظاهرى يؤكد هذه المعانى والذى لا يؤمن بالله ورسوله من الصعب عليه جدًا أن يتوقع نصرا من ألفين من الغزاة على عشرة آلاف مقيمين فى حصونهم وهم بأحسن العتاد

والسلاح والمؤونة والطعام والشراب والألفين الغزاة ليس عندهم ما يأكلونه. وسلاحهم أقل وأدنى من سلاح عدوهم .

ب ـ وهنا تتدخل الإرادة الربانية كما تدخلت فى الأحزاب، حيث قامت جنود الله من الريح والأحزاب، ونعيم بن مسعود وحذيفة بن اليمان فى تمزيق شمل الأحزاب ودفعهم إلى الانسحاب . فالأمر أهون من هذا كله . حيث تجمع كل الروايات عليها عند ابن إسحاق والبيهقى والواقدى .

فعند ابن إسحاق: سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسًا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم .

وعند الواقدى:

فبينا نحن على ذلك مع عيينة إذ سمعنا صائحًا لا ندرى من السماء أو من الأرض: أهلكم أهلكم بحيفاء ـ صيح ثلاثة ـ فإنكم قد خولفتم فيهم . قال: فخرجت غطفان على الصعب والذلول وكان أمرًا صنعه الله لنبيه .

وعند البيهقى : كذبت (لعيينة) ولكن الصياح الذى سمعت أنفرك إلى أهلك .

ونتابع عند الواقدى نكوص غطفان وعودتها إلى ديارها .

قالوا: فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بحيفاء وجدوا أهلهم على حالهم فقالوا: هلا راعكم شىء؟ قالوا: لا والله. فقالوا: لقد ظننا أنكم قد غنمتم. فما نرى معكم غنيمة ولا خيرا ! فقال عيينة لأصحابه: هذا والله من مكائد محمد وأصحابه، خدعنا والله! فقال له الحارث بن عوف: بأى شىء؟ قال عيينة: إنا بحصن النطاة بعد هدأة إذ سمعنا صائحًا يصيح لا ندرى من السماء أو من الأرض. أهلكم أهلكم بحيفاء ـ صيح ثلاثة ـ فلا تربة ولا مال .

لقد كانت شخصية القائد الثانى لغطفان ذات معدن نفيس أصيل لا تسيطر عليها نفسية الجشع الأعرابى والمصلحة الدائمة، وهى شخصية الحارث بن عوف، ونعيد إلى الذاكرة دوره الكبير الشهم فى إنهاء حرب داحس والغبراء وكيف أنه كان أحد الرجلين اللذين أصلحا بين قومهما ،ومضيا بهذا الفخر أبد الدهر .وهو يدرك طبيعة المعركة مع محمد ﷺ وأنها معركة خاسرة ، أما عيينة بن حصن فهو حفيد حذيفة بن بدر الذى أشعل نار حرب داحس والغبراء يقول الحارث لعيينة: يا عيينة والله لقد غبرت إن انتفعت. والله إن الذى سمعت لمن السماء، والله ليظهرن محمد على من ناوأه، حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد .

فأقام عيينة أيامًا فى أهله، ثم دعا أصحابه للخروج إلى نصر اليهود. فهزيمة محمد ﷺ تغير كل الأوضاع، وتقلب كل المفاهيم، وتدع يثرب غنيمة لغطفان وكلما همَّ بالجلوس يأتيه شيطانه أن يمضى إلى خيبر، المظفرة المنتصرة وليكون شريكًا فى غنيمة محمد .

فجاءه الحارث بن عوف فقال: يا عيينة أطعنى وأقم فى منزلك ودع نصر اليهود. مع أنى لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد، ولا آمن عليك .

فأبى عيينة أن يقبل قوله ، وقال: لا أسلم حلفائى لشىء .

ولما ولَّى عيينة إلى أهله هجم رسول الله ﷺ على الحصون حصنًا حصنًا.

لقد استدعى اليهود حلفاءهم من غطفان. وتركوا دعوة الله، ونبذوا كتاب الله وراءهم ظهريًا، وحاربوا رسول الله الذى كانوا يبشرون به ويتوعدون به الأوس والخزرج. فلن يطلبوا النصرة من الله على رسوله ،وهم يعلمون أنه الحق إنما يستعينون بالكفار والمشركين على رسول الله ﷺ . وباؤوا بغضب من الله ولعنة . فماذا كانت نتيجة استدعائهم حلفائهم ؟

يجيب كنانة بن الحقيق زعيم اليهود على ذلك فيقول: كنا من هؤلاء الأعراب فى باطل، إنا سرنا فيهم فوعدونا بالنصر وغرونا ،ولعمرى لولا ما وعدونا من نصرهم ما نابذنا محمدًا بالحرب . ولم نحفظ كلام سلام بن أبى الحقيق إذ قال: لا تستنصروا بهؤلاء الأعراب أبدًا فإنا قد بلوناهم، وجَلبتهم لنصر بنى قريظة ثم غروهم. فلم نر عندهم وفاءً لنا ، وقد سار فيهم حيى بن أخطب، وجعلوا يطلبون الصلح من محمد. ثم زحف محمد إلى بنى قريظة ، وانكشفت غطفان راجعة إلى أهلها .

واستدعى رسول الله ﷺ وليه ونصيره الله. فلم يكلِّف أمر تشرد غطفان وتخليها عن اليهود أكثر من صوت واحد . راعهم ودفعهم أن يغادروا خيبر على الصعب والذلول، يلحقون بأهليهم خوفًا مما وقع منهم (وكان أمرًا صنعه الله لنبيه) وهذا هو النصر الأول قبل ابتداء المعركة فى حصن ناعم من النطاة .

جـ- وسنة الله مع أوليائه أنه يبتليهم، يقتلون ويُقتلون ثم تكون لهم العاقبة .

(وأذن رسول الله ﷺ فى القتال، وحثَّهم على الصبر، وأول حصن حاصره حصن ناعم . وقاتل ﷺ يومه ذاك أشد القتال، وقاتله أهل النطاة أشد القتال. وترَّس جماعة من أصحاب النبى ﷺ يومئذ ،وعليه درعان وبيضة ومغفر، وهو على فرس يقال له الظَّرِب وفى يده قناة وترس .

ها هو قائدهم الحبيب فى ساحة المعركة ، وفى موقع النبل ، وعلى مرمى سلاح العدو . وقد لبس لأمة الحرب كاملة .

وهو بين أيديهم يثبتهم على القتال، ويحثهم عليه، ويحثهم على الصبر فى الجلاد وهو يقاتل معهم. حتى ليترسون بأجسادهم البشرية ذودًا عنه. وحشدت يهود كل طاقتها العسكرية وأبطالها الكبار فى هذا الحصن. فهو حصن المقاتلة فلو انتصرت فيه، وحالت دون فتحه من المسلمين. لكان هذا إيذانًا بانهيار القوة العسكرية للمسلمين .

وقد كان دفع لواءه إلى رجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئًا. ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئًا ، ودفع رسول الله ﷺ لواء الأنصار إلى رجل منهم، فخرج ولم يعمل شيئًا، فحث رسول الله ﷺ المسلمين، وسالت كتائب اليهود، أمامهم الحارث أبو زينب يقدُم اليهود يهدُّ الأرض هدًا. فأقبل صاحب راية الأنصار فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه . وخرج أُسَيْر اليهودى يقدم أصحابه معه عاديته ، وكشف راية الانصار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فى موقفه)(١) .

لقد كانت حصون خيبر موزعة بين ملكين. فحصون النطاة وعلى رأسها حصن ناعم كان ملكها مرحب . بينما كانت حصون الشق والكتيبة قد دانت لكنانة بن أبى الحقيق سيد بنى النضير، الذى لجأ مع بنى النضير إلى خيبر فدانت له. وذلك بعد مقتل أخيه سلام بن أبى الحقيق أبى رافع على يد العصبة المؤمنة. ومرحب فاز برئاسة حصون النطاة من خلال عشيرته الأدنين. وإخوته الأبطال الأشداء؛ الحارث ،وياسر ،وعامر، وأُسَيْر .

وكان قد مرَّ معنا محاولة أسير فى شن هجوم على المدينة عندما كان هو ملك خيبر. وكيف تم قتل السرية التى معه من قبل كتيبة الإيمان التى كان على رأسها عبد الله ابن رواحة، وها هو يظهر أنه استعاد قوته، وبرز يجالد المسلمين(٢). وحين رأى اليهود أنهم قد أصبحوا فى موقع القوة أرادوا أن يبرزوا عضلاتهم. فتقدم القائد العام الحارث. يطلب المبارزة فانكشف المسلمون وثبت على ـ عـليه السلام ـ فاضطربا ضربات فقتله على .

وكانت هذه نقطة التحول الأولى فى المعركة، فرجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا بابهم،وتحركت نار الثأر برأس عامر أخى الحارث. فخرج يطلب المبارزة

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٣ .

(٢) الظاهر أن أسير بن رزام الذى قتله المسلمون فى سرية عبد الله بن رواحة هو غير أسير أخو مرحب الذى برز هنا وقاتل المسلمين .

وكان رجلاً جسيمًا طويلاً. فقال رسول الله ﷺ حين برز وطلع عامر: « أترونه خمسة أذرع » وهو يدعو إلى البراز. فخرج إليه على بن أبى طالب ، إن أسد بنى هاشم هو بطل الملمات، ورجل المهمات الصعبة. وهو يتقدم حين يعجز غيره. ولا يزال أثر مقتل عمرو بن ود العامرى يوم الخندق قبل عام هو حديث البادى والحاضر. فقد خلَّده شاعر المشركين قبل شاعر المسلمين.

يقول مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح يبكى عمرو بن عبد ود، ويذكر قتل على بن أبى طالب إياه :

عمرو بن عبد كان أول فارسٍ ... جزع المذاد وكان فارس يليل
ولقد علمتم حين ولوا عنكم ... أن ابن عبد فيهُم لم يعجل
ولقد تكنَّفت الأسنة فارسًا ... بجنوب سلع غير نكس أميل
تسلُ النزال علىٌ فارس غالبِ ... بجنوب سلع ليته لم ينزل
فاذهب على فما ظفرت بمثله ... فخراً ولا لاقيت مثل المُعضِلِ
نفسى الفداء لفارسٍ من غالب ... لاقى حِمام الموت لم يتحلحل

فقد ذبح على فارس غالب عمرًا فارس أليل. وشهد شاعرهم أنه ما ظفر بمثلها فخرًا أحد أبد الدهر غير على بن أبى طالب .

وحتى هبيرة بن أبى وهب المخزومى الذى فرَّ عن عمرو بن عبد ود، لم يجد حرجًا أن يعتذر عن فراره ويثنى على بطولة على رضي الله عنه أسد بنى هاشم :

فعنك على لا أرى مثل موقف ... وقفت على نجد المقدَّم كالفحل
فما ظفرت كفاك فخراً بمثله ... أمنت به ما عِشت ما زلة النعل

ويعود هبيرة ثانية وقد صعق لقتل عمرو يبكيه ويذكر قتل على له:

لقد علمت عليا لؤى بن غالبٍ ... كفارسها عمرو إذا ناب نائب
لفارسها عمرو إذا ما يسومهُ ... علىٌ وإن الليث لابد طالب
عشية يدعوه على وإنه ... لفارسها إذ خام عنه الكتائب
فيا لهف نفسى إن عمراً تركته ... بيثرب لا زالت هناك المصائب

لقد ابتدأ على ـ رضوان الله عليه ـ سجل أمجاده العسكرية فى أول لقاء بين المشركين والمسلمين. فبرز لبنى عمه بنى عبد مناف وأبطال بنى أمية فجندلهم مع قرينيه الفحلين حمزة وعبيدة. ثم مضى الأسد الهصور حمزة فى أحد، كما استشهد عبيدة فى بدر، وبقى فتى بنى هاشم وحيدًا فى الساحة؛ ومن أجل ذلك قالها له ـ عليه الصلاة

والسلام - يوم برز لعمرو فى الخندق:

« اللهم أخذت عبيدة منى يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا على أخى وابن عمى فلا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين » .

وها هو على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفتح اليوم صفحة جديدة فى خيبر مع اليهود، فقتل الحارث، وها هو يبرز لعامر الجسيم الطويل(فضربه ضربات. كل ذلك لا يصنع شيئًا حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذفَّف عليه وأخذ سلاحه).

كان مرحب ملك خيبر يرى مصرع أخويه أمامه فكاد يجن جنونه. لكنه كان قد ارتوى بعض ثأره. إذ ألقى قبل يوم على محمود بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رحىً من ظهر بيت فقتله. حيث كان جالسًا هناك. وها هو ياسر أخو الحارث وعامر الثالث يبرز، وكأن مرحب يرى مصرع اليهودية كلها أمامه. فقد رفض ابتداءً دخول سعد بن عبادة حصن ناعم ليكلم عيينة بن حصن فيه قائلاً لعيينة: لا تدخله فيرى خلل حصننا ويعرف نواحيه التى يؤتى منها. وها هو الآن يرى أبطال اليهود حماة هذه الحصون يسقطون واحدًا تلو الآخر .

ثم برز ياسر وهو يقول:

قـد علمـت خيبـر أنـى ياسـر   شاكـى السـلاح بطـل مغامـر
إذا الليـوث أقبلـت تبـادر   وأحجمـت عـن صولـة المساور
إن حسامـى فـيه مـوت حاضـر

قال محمد بن عمر. وكان من أشدائهم، وكان معه حربة يحوس الناس بها حوسًا.

وتقدم على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثالثة لمبارزة ياسر. غير أن بطل بنى أسد الزبير بن العوام، وقد رأى ابن خاله عليًا قد أجهد من قتل البطلين القرمين. فيتقدم قائلاً له: أقسمت إلا خليت بينى وبينه .

وكانت صفية بنت عبد المطلب لبؤة بنى هاشم والتى ذبحت اليهودى فى الخندق، ترى ابنها التى أعدته لمثل هذه الملمات يصول ويجول فى الساحة بين يدى بطل يهود ياسر. فقالت بحنان الأم وعظمة الأم: يا رسول الله ،يَقْتُلُ ابنى؟ أى ياسر يقتل الزبير. فقال رسول الله ﷺ: «بل ابنك يقتله إن شاء الله» .

فخرج إليه الزبير وهو يقول:

قــد علمــت خيبــر أنــى زبــار قــرم لقــرم غيــر نكــس فــرار
ابــن حمـاة المجــد ابـن الأخيــار ياســر لا يغــررك جمــع الكفــار
فجمعهــم مثــل الســراب الختــار

ثم التقيا فقتله الزبير .

وجاء إلى أمه وإلى حبيبه المصطفى ﷺ. الذى قال له: « فداك عم وخال، لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » .

وما أسعد القائد الأعظم ﷺ وهو يرى أبطال اليهود يجندلون على يد ابن عمه وابن عمته. فالثمن الذى يؤدونه ثمن غالٍ جداً. وكأنما هو ﷺ الذى يقتل هؤلاء المجرمين .

ولم يعد أمام مرحب بد أن ينزل هو نفسه للساحة. ولو لم ينزل لانهارت معنويات اليهود كلها وهو يأمل بنزوله للمبارزة أن يعيد الكفة ثانية لصالح قومه.

وكما فى رواية مسلم والبيهقى :

خرج مرحب وعليه مِغفر معصفر يمانى وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه خرج وهو يخطر بسيفه ويرتجز ويقول:

قد علمـت خيبر أنى مرحب شاكــى السلاح بطـل مُجرِب
إذا الليـوث أقبــلت تلهــب

فبرز له عامر بن الأكوع عم سلمة. وأخوه من الرضاعة، بطل بنى أسلم وذلك قبل أن يبرز على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـه. ويصف لنا سلمة هذا اللقاء فيقول:

فبرز له عامر وهو يقول:

قد علمـت خيبر أنى عامــر شاكــى السـلاح بطـل مغامــر

قال: فاختلفا ضربتين. فوقع سيف مرحب فى ترس عامر. فذهب عامر يسفُل له وكان سيفه فيه قِصر. فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله. وفى رواية عين ركبته. وكانت فيها نفسه .

ورغم أن مرحب لم يقتل عامراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . لكنه جمحت نفسه،وزهت به، وغرته، وعاد يتحدى قائلاً :

قد علمـت خيبـر أنـى مَرْحَـبُ شاكـى السـلاح بطـل مجـرب

إذا الليوث أقبلت تُلْهب وأحجمت عن صولة المُغلب

فبرز له على بن أبى طالب رضي الله عنه الذى أذاق أخويه الحارث وعامر حتفهما. برز له وهو الخبير بمصرع الأبطال على يديه. وعليه جبة أرجوان حمراء قد أخرج خَمْلَها وهو يقول:

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره

ضرغام أجام وليث قسورة أوفيهم بالصاع كيل السندره

وإن كان مقتل الحارث وعامر قد أخذ صولات وجولات. أما مع مرحب. فقد كانت الضربة المميتة الواحدة فضرب مرحبًا ففلق رأسه ، وكان الفتح .

وفى رواية بريدة: فاختلفا ضربتين. فبدره على رضي الله عنه بضربة فقدَّ الحجر والمغفر ورأسه ووقع فى الأحراش، وسمع أهل العسكر صوت ضربته. وقام الناس مع على حتى أخذ المدينة ،وحتى يبث الرعب فى قلب كل من تسول له نفسه أن يتصدى لبطل بنى هاشم ، وأسدها الهصور تقدم فأخذ رأس مرحب، ورماه بين رجلى رسول الله ﷺ. وذلك كما روى الإمام أحمد عن على رضي الله عنه: لما قتلت مرحبًا جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ .

وكما سقطت قريش ، وسقط أكابر مجرميها فى بدرها ،هؤلاء أكابر مجرمى اليهود يسقطون الواحد تلو الآخر .

وكما سقطت حملة اللواء فى أحد من بنى عبد الدار صرعى تحت اللواء، هاهم أبطال يهود يتهاوون صرعى واحدًا تلو الآخر، وينهار الحصن الأول من حصون اليهود، حصن ناعم، والذى كان مؤذنًا بانهيار بقية الحصون .

حصن الصعب بن معاذ :

فتح حصن ناعم ولم يكن فيه من الخيرات ما يغنى، والمسلمون لا يجدون ما يأكلونه. ومع ذلك يخوضون أعنف حرب فى حياتهم مع أعدى العدو. التزامًا بأمر حبيبهم وقائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأمام الجوع الشديد، فلم يتمالكوا أن يأكلوا ثمر التمر ولم ينضج بعد، فأدى ذلك إلى زحف خطر مرض الحمى عليهم. وكان يقعدهم نهائيًا عن المواجهة. وشكوا ذلك لرسول الله ﷺ. وماذا يفعل بهم وهم كل عدته فى الأرض، وهم الذين أمضى عشرين عامًا حتى كونَّهم هذا التكوين. وأنشأهم هذا الإنشاء ورباهم هذه التربية، أفيخسرهم فى غداة واحدة؟ إنهم أحباب الله وأحباب رسوله، وهم عُدَّة الإيمان فى الأرض ،وأمل المستقبل الإيمانى فى الوجود .فقال لهم ـ

عليه الصلاة والسلام :

« فرِّسوا الماء فى الشنان، فإذا كان بين الأذانين،فاحدروا الماء عليكم حدراً، واذكروا اسم الله تعالى » ففعلوا فكأنما نشطوا من العقل .

وعافى الله تعالى جنده الذين يحبهم ويحبونه. والذين رضى عنهم ورضوا عنه. عافاهم من الحُمى. لا ليذهب بهم فى رحلة استمتاع وملذات بعد ما أنهكتهم الحرب، وأنهكتهم الحمى، بل ليستعدوا لمتابعة الحرب من جديد، ويستعدوا للانطلاق نحو حصن الصعب بن معاذ .

وأسلم من بين المهاجرين كما ذكرنا من قبل هم ثمنهم، وهم أشد الناس فاقة وجوعًا. فكيف يقاتل الجائعون ؟وكيف يقاتل المحرومون ؟ هل يقومون بتسليم أنفسهم للعدو، أم يقومون بمظاهرة احتجاج تسقط الحكومة وتوقف الحرب، أم يعلنون الاستعصاء المسلح عن المتابعة والمواجهة .

نستمع لهم ولناطقهم الإعلامى يحدثنا عن هذه الأزمة الرهيبة فى ثنايا حرب خيبر .

عن معتِّب الأسلمى قال: أصابتنا معشر أسلم مجاعة حين قدمنا خيبر، وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا نفتح شيئًا فيه طعام ،فأجمعت أسلم أن أرسلوا أسماء ابن حارثة فقالوا: ائت رسول الله ﷺ فقل له: إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف .

لقد كان هذا الحَدَث فى غياب سيدهم بريدة بن الحصيب الأسلمى . ولأول مرة فى تاريخ هذه القبيلة. تشكو الجوع والضعف بصيغة رسمية، فغضب لذلك وقال: والله إن رأيت كاليوم قط من بين العرب يصنعون هذا .

وأسقط فى أيديهم لولا أن تشجَّع هند بن حارثة أخو أسماء قائلاً: والله إنى لأرجو أن يكون هذا البعث إلى رسول الله ﷺ مفتاح الخير .

وساد جو من الذهول والصمت أكثر منه جو مناقشة وحجة.فلم يستطع بريدة رضي الله عنه أن يهضم هذه الشكوى من قومه، ومن طرف آخر هو غير قادرٍ على أن يقدِّم لهم شيئاً يسد رمقهم، ويطعم جائعهم .

وجاء أسماء إلى رسول الله ﷺ فقال: (يارسول الله ،إن أسلم تقرأ عليك السلام. وتقول :إنا جهدنا من الجوع والضعف . فادع الله لنا).

لقد سقط حصن ناعم بالدماء الزكية وبالأرواح والمهج.وبالفداء والتضحيات التى

شارك فيها الجيش كله. فهل يستطيع هذا الجيش أن يخوض حرباً كالحرب الأولى . ترتد فيها ابتداءً راية المهاجرين ثم ترتد راية الأنصار حتى ليهتم رسول الله ﷺ من هول الحرب . ويأذن الله تعالى ببروز الرجال العظام فى قلب النائبات فيواجهوا إعصار اليهود بإعصار أشد هولاً منه .ولم نسمع أن رسول الله ﷺ دعا عند حصن ناعم ـ أما هنا ـ وأسلم هى من أحب أهله إليه وأقربهم من قلبه. ماذا يفعل لهم .

ويبرز هنا سلاح الدعاء الفتاك بالعدو : فدعا لهم رسول الله ﷺ ثم قال :

«والله مابيدى ما أقويهم به . قد علمت حالهم . وأنهم ليست لهم قوة » ثم قال: « اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيها أكثرها طعاماً ، وأكثرها ودكاً » وبدأ الهجوم الإسلامى العظيم بعد دعاء رسول الله ﷺ .

(ودفع اللواء إلى الحباب بن المنذر، وندب الناس).

والحباب هو الخبير الأول فى التخطيط الحربى . وهو هنا قائد المعركة الميدانى ، وهو كما وصف نفسه فيما بعد :

أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجَّب .

فهو ابن الحرب وأخوها الذى عصرته وعصرها.

ونعود إلى أحباب رسول الله ﷺ الجياع الضعاف الأسلميين. ونسأل أين كانوا فى قلب هذا الهجوم ، لعلهم أخذوا إلى إحدى المصحات للمعالجة، وأخذوا أجازة من هذا الهجوم . لما ثبت لدى قيادة الجيش أنهم أرهقوا وأنهكوا جوعاً وضعفاً .

ولئن أجابنا الناطق الإعلامى معتِّب الأسلمى على سؤالنا الأول عن أسلم . فتجيبنا هنا الناطقة الإعلامية أم مطاع الأسلمية عن هذه المرحلة . قالت أم مطاع الأسلمية ـ رضى الله عنها :

لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ماشكوا من شدة الحال . فندب رسول الله ﷺ الناس فنهضوا . فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتح الله .

هذا هو الطراز من الرجال الذين رباهم رسول الله ﷺ . فلئن شكوا ضعفهم وجوعهم . لا لكى يتخلفوا عن الجهاد وينكلوا عن رسول الله ﷺ . بل ليكونوا بعدما أبلغوا حالهم لقائدهم أول من انتهى إلى حصن العدو . يقاتلون ويقتلون .

وتأتينا لقطات سريعة عن هذا الهجوم الصاعق عن أكثر من مقاتل بطل ناله شرف المشاركة فى هذا الهجوم .

برز رجل من اليهود يقال له :يوشع يدعو إلى البراز. فبرز إليه الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات فقتله الحباب ، وبرز آخر يقال له الذيال ، فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى. فبدره الغفارى فيضربه ضربة على هامته وهو يقول : خذها وأنا الغلام الغفارى ! فقال الناس : بطل جهاده . فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « ما بأس به ، يؤجر ويحمد » .

وإذا كان حصن ناعم لبطولات المهاجرين وقيادتهم . فإن حصن الصعب بن معاذ لبطولات الأنصار وقيادتهم ، وعمارة بن عقبة الغفارى رضي الله عنه تتحدث عنه كتب التراجم كمافى الإصابة للحافظ ابن حجر :

(ذكره ابن إسحاق فيمن استشهد بخيبر ، كذا ذكره ابن عبدالبر . والذى فى المغازى لابن إسحاق أن المقتول بخيبر اليهودى الذى بارز عمارة بن عقبة ، وسماه الطبرى الذَّيال ، ونَسَبَ عمارة فقال : ابن عقبة بن عباد بن مليل ، وأنه لما ضرب اليهودى قال : خذها وأنا الغلام الغفارى) (١) .

وقد فتح المربى الأعظم ﷺ فى قلب الحروب مجالاً للتيه والفخر بالنسب ، والاستعلاء على العدو . وذلك حين يوضع هذا فى خدمة هذا الدين ، وانتصاره على أعدائه من اليهود والمشركين وغيرهم ، ويوظف فى سبيل الله وحده ، وعندما خاف المسلمون أن يكون قد فقد أجره. قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« ما بأسٌ به ، يؤجر ويحمد » .

وبقتل هذين البطلين انتهت المبارزة حول الحصن . فماذا كان من شهود المعركة هناك .

هذا محمد بن مسلمة يحدثنا عن المربى الأعظم ﷺ كيف كان الرامى الأعظم فى قلب المعركة :

قال : كنت فيمن ترّس عن النبى ﷺ فجعلت أصيح بأصحابه : ترامَوا بالحَجف ! ففعلوا فرمونا حتى ظننت أن لايقلعوا . فرأيت رسول الله ﷺ فما أخطأ رجلاً منهم ، وتبسم إلىَّ رسول الله ﷺ ، وانفرجوا ودخلوا الحصن(٢) .

وهذا جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ يحدثنا عن الجيش المسلم وهو يغالب الموت ، ويصارع العدو :

(لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ ، والمسلمون جياع والأطعمة فيه كلها ، وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح ،ومعه رايتنا وتبعه المسلمون،وقد أقمنا عليه يومين

---

(١) الإصابة فى تميز الصحابة ٢ / ٤ / ٢٧٨ ت ٥٧٢٠ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٦٢ .

نقاتلهم أشد القتال . فلما كان اليوم الثالث بكر رسول الله ﷺ عليهم فخرج رجل من اليهود كأنه الدقل[1] فى يده حربة له ، وخرج وعاديته معه فرموا بالنبل ساعة سراعاً ، وترّسنا عن رسول الله ﷺ ، وأمطروا علينا بالنبل ، فكان نبلهم مثل الجراد ، حتى ظننت ألا يقلعوا ، ثم حملوا علينا حملة رجل واحد ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه ومدعم[2] يمسك بفرسه . وثبت الحباب برايتنا والله مايزول ، يراميهم على فرسه ، وندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وحضّهم على الجهاد ورغّبهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يغنّمه إياها . قال: فأقبل الناس جميعاً حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زحف بهم الحباب فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً ، وترجع اليهود على أدبارها حتى لحمها الشر فانكشفوا سراعاً ودخلوا الحصن وغلّقوا عليهم ووافوا على جُدُره ، فجعلوا يرموننا بالجندل[3] رمياً كثيراً ونحّونا[4] عن حصونهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول ، ثم إن اليهود تلاومت بينها وقالت : مانستبقى لأنفسنا؟ قد قُتل أهل الجدر والجلد فى حصن ناعم ، فخرجوا مستميتين ، ورجعنا إليهم فاقتتلنا على باب الحصن أشد القتال ، وقتل يومئذ على الباب ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ ، أبوصياح وقد شهد بدراً ضربه رجل منهم بالسيف فأطن قِحف رأسه، وعدِى بن مرة بن سراقة طعنه أحدهم بالحربة بين ثديه فمات ،والثالث الحارث بن حاطب وقد شهد بدراً ، رماه رجل من فوق الحصن فدمغه . وقد قتلنا منهم على الحصن عدة كلما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يدخلوه الحصن،ثم حمل صاحب رايتنا وحملنا معه وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم فى جوفه، فلما دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غنم ، فقتلنا من أشرف لنا وأسرنا منهم ، وهربوا فى كل وجه يركبون الحرة يريدون حصن قلعة الزبير ، وجعلنا ندعهم يهربون ، وصعد المسلمون على جُدُره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً ففتتنا أعضاد اليهود بالتكبير ، لقد رأيت فتيان أسلم وغفار فوق الحصن يكبرون) .

إنه الجيل الشديد من الشباب الرديف المنضم لجيل الحديبية. من أسلم الذين شكوا قبل يومين مايعانونه من الضعف والجوع ، وهاهم يشاركون فى الحرب والفتح، وشباب غفار الذين كانوا سراق الحجيج ، هاهم اليوم يعيدون كتابة التاريخ فى إنهاء وراثة أمه نكثت عهدها ونقضت ميثاقها مع ربها . لتكون هذه الأمة الفتية هى الأمة البديلة،إنه صراع بين خيرة أهل الأرض وشرار أهل الأرض.

---

(١) الدقل : خشبة يمد عليها شراع السفينة .

(٢) هو العبد الأسود مولى رسول الله ﷺ .

(٣) الجندل: الحجارة.

(٤) نحونا : ابتعدنا .

لقد قال ـ الله تعالى ـ لبنى إسرائيل عندما كتب لهم وراثة الأرض من طغاتها وجبابرتها :

﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾(1) . وقال عن أعدائهم الذين كانوا يحادون الله ورسوله: **﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُون . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيل ﴾**(2) .

وقال لبنى إسرائيل بصفتهم الأمة الوارثة المفضلة على العالمين:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون ﴾(3) .

وقال الله تعالى لنبيه وعبده محمد ﷺ الذى أورثه هذه الأمة الملعونة الخارجة على أمر الله :

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَار ﴾(4) .

وقال لنبيه وعبده ﷺ الذى أورثه مع أمته هذه الأمة الخارجة على أمر الله:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾(5).

وقال لنبيه وعبده ﷺ الذى أورثه مع أمته هذه الأمة الملعونة الخارجة على أمر الله: **﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾**(6) .

ووعده خيبر فيما وعده فيه .

أما الصالحون من بنى إسرائيل . فقد انفصلوا عن هذه الأمة ، وانضموا إلى الأمة المحمدية ، وصاروا أعضاء فى حزب الله الجديد ، وصارت علاقتهم العضوية فيه .

---

(1) المائدة / ٢١ .

(2) الشعراء / ٥٧ ــ ٥٩ .

(3) الأعراف / ١٣٧ .

(4) الحشر / ٢ .

(5) الأحزاب / ٢٦، ٢٧ .

(6) الفتح : ٢٠ .

وانبتت الروابط بينهم وبين الذين ظلموا منهم ، والذين حق عليهم القول: منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم فاسقون .

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُون ﴾(١) .

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُون ﴾(٢).

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُون . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِين ﴾(٣) .

قلعة الزبير :

ولئن سقطت حصون ناعم والصعب بن معاذ بالجهد البشرى وبالدم، وبمصارعة الموت، فقد شاءت إرادة الله تعالى أن تسقط قلعة الزبير بيد يهودية بعد الحصار الشديد الذى تم عليهم .

(فحاصرهم وغلقوا عليهم حصنهم وهو حصين منيع وإنما هو رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه . . . . وأقام رسول الله ﷺ على محاصرة الذين فى قلعة الزبير ثلاثة أيام) .

ولعل الحصار لو استمر أشهرًا لما تمكن المسلمون من فتح هذه القلعة، فليس لديهم من السلاح البشرى ما يتمكنون من فتحها؛ لأن اليهود قد يئسوا من المواجهة . وأصبحت خطتهم الآن أن يصبروا على الحصار طويلاً ،وماؤهم وافر ،وطعامهم وافر، وطعامهم وافر، ولن يستطيع المسلمون أن يمضوا أشهرًا فى هذا الحصار.

وبعث الله تعالى لعون حزبه جنديًا من قلب عدوه.

(فجاء رجل من اليهود يقال له غزَّال فقال: يا أبا القاسم ،تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشقِّ قد هلكوا رعبًا منك؟ قال: فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله. فقال اليهودى: إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، لهم دبول تحت الأرض، يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، وإن قطعت مشربهم عليهم ضجوا) .

(١) المائدة : ٦٦ . (٢) آل عمران : ١١٠.
(٣) القصص: ٥١ ـ ٥٥ .

ولا شك أن اليهود فى الحالة التى وصلوا إليها من التخاذل والضياع لابد أن يظهر فيهم مثل هذه الجيوب التى تحرص على مصلحتها وتبيع أمتها وقيادتها؛ لأنها ترى القيادة تحرص كذلك على مصلحتها. ومن أجل زعامتها وشهرتها تضحى بأفرادها، وعندما تفقد الثقة بين الأمة وقيادتها. فسوف تنهار الأمة كلها. فحرص هذا اليهودى على ماله وعلى زوجه وعلى أهله دفعه لمثل هذه الخيانة لقومه. بعد أن مات دافع الإيمان عنده وعند أمته .

فسار رسول الله ﷺ إلى دبولهم فقطعها. فلما قطع عليهم مشاربهم لم يطيقوا المقام على العطش فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة. وافتتحه رسول الله ﷺ فكان آخر حصون النطاة .

حصون الشق :

وقد فتح أولها بالسيوف والدماء المسلمة، وفتح ثانيها بالدعوة الربانية ، أما أولها فكان حصن أبى .

فقد روى البيهقى عن محمد بن عمر عن شيوخه قال:

لما تحوَّل رسول الله ﷺ إلى الشَّق وبه حصون ذوات عدد، فكان أول حصن بدأ به حصن أبىٍّ فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها : سموان فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديدًا .

وإذا كان غزَّال الأول هو الذى دلَّ اليهود بخيانته لقومه على مكمن القوة عند أهل قلعة الزبير ، فغزال الثانى هنا فى الشِّق هو الذى قاد المسلمين بهزيمته أمامهم لفتح حصن أبى .

وخرج رجل من اليهود ويقال له غزال فدعا إلى البراز فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزال وكان أعزل فبادر راجعًا منهزمًا إلى الحصن، وتبعه الحباب فقطع عرقوبيه فوقع فذفف عليه .

فخرج آخر فصاح من يبارز فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش فقُتل الجحشى. وقام مكانه يدعو إلى البراز .

وهنا يأتى ، البطل المظفر العظيم أبى دجانة سمَّاك بن خرشه صاحب عصابة الموت، وصاحب سيف رسول الله ﷺ الذى اختاره من بين المسلمين وأعطاه إياه.

(فبزر له أبو دجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغفر يختال فى مشيته،

فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه ثم ذفّف عليه وأخذ درعه وسيفه فجاء به إلى رسول الله ﷺ. فنفله رسول الله ﷺ ذلك ، وأحجموا عن البراز فكبّر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثًا ،ومتاعًا ،وغنمًا، وطعامًا وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجدر، كأنهم الظباء حتى صاروا إلى حصن النزار بالشق. وجعل يأتى من بقى من فَلّ النطاة إلى حصن النزار فغلقوه، وامتنعوا فيه أشد الامتناع وزحف رسول الله ﷺ إليهم فى أصحابه. فكانوا أشد أهل الشق رميًا للمسلمين بالنبل والحجارة، ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ وعلقت به) (١).

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

إنها الكف من الحصباء من يد النبوة يرمى بها الله تعالى بكف نبيه محمد ﷺ. فتفعل فعل الطائرات اليوم وراجمات الصواريخ. (ثم أخذ لهم كفًا من حصباء فحصب به حصنهم، فرجف الحصن بهم، ثم ساخ فى الأرض حتى جاء المسلمون فأخذوا أهله أخذا)(٣) .

لقد وعد الله تعالى نبيه ﷺ خيبر. وقدر الله نافذ بالجيش المسلم، أو بجندى العدو يكشف الأسرار، ويفتح الحصون، أو بكف الحصباء يسيخ الحصن ويزلزله.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٤).

حصون الكتيبة ـ حصن القموص :

وعادت المواجهة فاشتعلت بعنف من جديد. فلئن كان الحَدُّ والجَدُّ وأبطال اليهود قد سقطوا من قبل فى حصن ناعم. فهم الآن. يذودون عن آخر شرفهم وعزهم ودولتهم. فى حصن القموص .

(لما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة والشّق. انهزم من سلم منهم إلى حصون الكتيبة وأعظم حصونها القموص، وكان حصنًا منيعًا .

ذكر موسى بن عقبة: أن رسول الله ﷺ حاصره قريبًا من عشرين ليلة. وكانت

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٢١- ٢٢٤ .
(٢) الأنفال : ١٧ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٠٥ .
(٤) سبأ : ٤٨ ، ٤٩ .

أرضًا وخمة)[1].

يحدثنا البيهقى ابتداء فيما رواه بريدة بن الحصيب الأسلمى عن المرض الذى كان يعانى منه القائد الأعظم ﷺ فيقول: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة. فيلبث اليوم واليومين لا يخرج ولما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس [2] .

ولنتصور وضع هذه الكتيبة المؤمنة. وليس بينها قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كم تفقد من المدد و الزخم الشعورى فرؤيته وحده ﷺ فى ساحة المعركة أكبر من ألف جيش وألف مدد يكون عونًا لهم. وأصبح المؤمن من هذه العصبة المؤمنة. لا يستطيع أن يعيش لحظة دون أن يرى قائده الحبيب بجواره ، ولو ألقى نظرة عليه من بعيد، وكان هذا الوهن من مرض رسول الله ﷺ ينعكس على الجيش كله .

وقاد الجيش وزيره الأول . فهو الأمل المرجى بعد القائد الأعظم ﷺ حيث أعطاه رسول الله رايته . فكان بمثابة شخصه العظيم ـ عليه الصلاة والسلام .

(وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديدًا ثم رجع)[3] وفى الرواية الثانية للواقدى: (فرجع ولم يفتح له)[4].

وانتهى اليوم الأول والمسلمون على مصافهم لم يتقدموا من الحصن أو تلوح لهم بوادر النصر ولو من بعيد واليهود مستميتون فى الدفاع عن مواقعهم وحصونهم .

ثم قاد الجيش الوزير الثانى، ورمز القوة والشجاعة عند المسلمين عمر بن الخطاب. مع استنهاض الهمم وحثها للمواجهة :

(. . فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديدًا أشد من القتال الأول ثم رجع)[5] وفى الرواية الثانية (فلما كان من الغد أخذها عمر فرجع ولم يفتح له وقتل محمود بن مسلمة. فرجع الناس)[6].

وماذا بعد عجز الشيخين عن الفتح. وهما أعلى المستويات الإيمانية عند المسلمين. ولم يكن من حل إلا أن يأخذ الراية رسول الله ﷺ بنفسه ويقود الهجوم. وأنى ذلك والشقيقة وصداع الرأس تملك عليه جهده كله. وكان من الممكن بدعوة واحدة. أن يطلب من ربه العافية ليقود الهجوم بنفسه. أو بدعوة واحدة أن يسيخ الحصن كما ساخ أحد الحصون قبله ويأخذ المسلمون اليهود أخذًا.

ولكنها الإرادة الربانية لتوجيه الأنظار إلى البطل العظيم المتواضع ليأخذ وضعه

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ١٩٣ .

(٢ ـ ٦) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٤ / ٢١٠، ٢١١ .

الحقيقى فى الصف المسلم . وتبرز كفاءته وطاقته المدخرة لساعة الأزمات . ولتتجلى المكرمة الربانية لهذا الفتى الذى صرع قبل أيام قلائل أعتى قادة اليهود (١)ومضى جنديًا فى الصف المسلم . ولنمض مع الإمام البخارى يحدثنا عن الإعلان النبوى العام على الأمة المسلمة وقد أثخنتها الجراح، وتقطعت قلوبها رجاءً وأملاً بالنصر بعد أن بدا شبه مستحيل. وذلك فيما رواه بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه :

عن أبى حازم قال: أخبرنى سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: « لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله » فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها فلما أصبح الناس غدو على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها .

إنها البشارة العظمى بالفتح، وأعظم بها من بشارة. فهى أسعد ليلة عندهم وأهنأ ليلة، والنص صريح « غدًا » وليس فى المنظور البعيد. وراحت القلوب تجيش وتضن بهذا الفرد القرم السعيد الذى يكرمه الله تعالى فيجعل الفتح على يديه.وهو يعين بشخصه وبذاته وبلسان رب العالمين أنه يحمل أعظم وأسعد مواصفتين . « يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » .

فالله تعالى من فوق سبع سموات، اختار من هذا الجيش رجلاً لا يزال مجهولاً عند المسلمين إلى الآن. ليكون فتح خيبر على يديه. وذل اليهود على يديه .

والروايات الأخرى كلها تزيد الإشراق والإنارة على مواصفات هذا الرجل السعيد، يقول الحافظ ابن حجر فى شرح الحديث الآنف الذكر:

(فقال النبى ﷺ: « لأدفعن لوائى غدًا إلى رجل. . .» الحديث، وعند ابن إسحاق نحوه من وجه آخر، وفى الباب عن أكثر من عشرة من الصحابة سردهم (الحاكم) فى الإكليل وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل .

قوله: « لأعطين الراية غدًا أوليأخذن الراية غدًا » وفى حديث سهل: «لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً» (بغير شك) وفى حديث بريدة « إنى دافع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله »، والراية بمعنى اللواء وهو العَلَمُ فى الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش وقد يحمله أمير الجيش وقد يدفعه لقائد العسكر. وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما لكن روى أحمد من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ

(١) أخذنا برأى أن المبارزات مع قادة اليهود كانت فى حصن ناعم والذى كان ملكه مرحب . وفصلنا هذه عن فتح القموص التى نحن بصددها فلم تشر الروايات إلى أن المبارزة كانت فى هذا الحصن لكنها أكدت أن أخذ الراية كان فيها . والله أعلم .

سوداء ولواءه أبيض، ومثله عند الطبراني عن بريدة وعند ابن عدى عن أبي هريرة، وزاد: « مكتوبًا فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله »، وهو ظاهر فى التغاير. وقد ذكر ابن إسحاق وكذا أبو الأسود عن عروة أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية. قوله « يحبه الله ورسوله » زاد فى حديث سهل ابن سعد «ويحب الله ورسوله» وفى رواية ابن إسحاق: « ليس بفرار » وفى حديث بريدة: «لا يرجع حتى يفتح الله له» قوله (فنحن نرجوها) فى حديث سهل (فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها) وقوله: يدوكون أى باتوا باختلاط واختلاف .

وعند مسلم من حديث أبى هريرة أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. وفى حديث بريدة فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل. حتى تطاولت أنالها) (١).

إنها القيم العظمى عند هذا الجيل السعيد فهذا الرجل لن ينال منصبًا ولن ينال كنزًا من المال. ولن ينال ضيعة أو ينال إقطاعًا ؛ إنما صفته يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

لقد وصف الله تعالى هذا الجيش المؤمن بقوله: ﴿ ... **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ... ﴾(٢) وهذا التعميم أسعد كل فرد فى هذا الجيل أنه عضو فى حزب الله. لكن أن تأتى له هذه الشهادة من رسول رب العالمين بذاته وشخصه وعينه من دون الناس فتلك من أعظم الأحلام عند المؤمنين .

وهذا الفاروق الأعظم رضي الله عنه يحدثنا عن سريرته النقية العالية الخالدة: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ،وكم هو عظيم هذا المرتقى. أنه ما أحب الإمارة فى حياته كلها إلا هذه الليلة فقد فُطمت نفسه عنها، وطلّق حبها قلبه. إلا فى تلك الليلة. يوم تأتى شهادة رب العالَمين : « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ثم يدخل مغاليق التاريخ كلها بأن يكرمه ربه أن يجعل الفتح على يديه وشهدنا كيف كانت تلك الليلة مع الجيل السعيد فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، إلا رجل واحد كان فى مؤخرة الجيش قد اشتد عليه مرضه وغلبه الرمد فلا يبصر أمامه شيئًا وإما أنه لم يسمع هذا الإعلان الوارد من رب العالمين. وإما أنه قد سمعه واستبعد أن يكون هو ذلك الرجل. لشدة ما يعانى من مرضه. ورجا ربه أن يعوض خيرًا عنها .

يقول سهل بن سعد كما فى رواية البخارى:

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧٧ ح (٤٢١٠) .

(٢) المائدة / ٥٤

(فقال : « أين على بن أبى طالب ؟ » فقيل هو يارسول الله : يشتكى عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » [1] .

لنعد إلى الحافظ بن حجر ينقل لنا من خلال الروايات الأخرى ، الوضع المرضى الذى كان يعانى منه حبيب رب العالمين على بن أبى طالب . الذى اختاره الله تعالى ورسوله من هؤلاء الألفين السعداء .

(فدعا علياً وهو يشتكى عينه فمسحها ثم دفع إليه اللواء . ولمسلم من طريق إياس ابن سلمة عن أبيه قال : فأرسلنى إلى على قال: فجئت به أقوده أرمد. . . وقد ظهر من حديث سلمة أنه هو الذى أحضره . ولعل علياً حضر إليه بخيبر ولم يقدر على مباشرة القتال لرمده) [2] وفى حديث سهل السابق : (ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع) [3] .

(وعند الحاكم من حديث على نفسه قال : فوضع رأسى فى حجره ثم بزق فى إلية راحته فدلك بها عينى) ، وعن بريدة فى الدلائل للبيهقى ، فما وجعها على حتى مضى لسبيله . أى مات . وعند الطبرانى من حديث على (فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبى ﷺ إلىّ الراية يوم خيبر. وله من وجه آخر فما اشتكيتها حتى الساعة) قال : ودعا لى : « اللهم اذهب عنه الحر والقر » فما اشتكيتها حتى يومى هذا)[4] .

لم تكن دعوة رسول رب العالمين لنفسه أن يذهب عنه صداع رأسه ، إنما كانت دعوته أن يعافى رمد ابن عمه وصهره وأخيه الحبيب على رضي الله عنه وكان ذلك الدواء الناجع الذى داوى به أمراضاً وأحوالاً أخرى .

فقد أذهب عنه الرمد إلى الأبد ، وأذهب عنه شكوى عينه إلى الأبد . وأذهب عنه التحسس من الحر والقر إلى الأبد، ويحسن أن نستأنس برواية البيهقى التى يحدثنا بها على رضي الله عنه عن نفسه بعد قرابة خمس وثلاثين عاماً من خيبر (فعن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال :كان على يلبس فى الحر والشتاء العباء المخشن التخين وما يبالى بالحر . فأتانى أصحابى فقالوا : إنا قد رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيته ، فقلت : ماهو ؟ قالوا : رأيناه يخرج إلينا فى الحر الشديد فى العباء المحشو التخين ، وما يبالى بالحر ، ويخرج علينا فى البرد الشديد فى الثوبين الخفيفين وما يبالى بالبرد . فهل سمعت فى ذلك شيئاً؟ فقلت : لا . فقالوا : سل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه. فأتيته فسألته. فقال : ماسمعت فى ذلك شيئاً . فدخل على على رضي الله عنه فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال : أوما شهدت معنا خيبر ؟ فقلت: بلى. قال : فمارأيت رسول الله ﷺ حين دعا

(١ ــ ٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧٧ ح (٤٢١٠) .

أبابكر فعقد له وبعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم ثم جاء بالناس وقد هزموا . فقال : بلى . ثم قال : ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم فقاتلهم ثم رجع وقد هزم . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « لأعطين الراية اليوم رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله يفتح الله عليه غير فرار » فدعانى فأعطانى الراية ثم قال : « اللهم اكفه الحر والبرد » . فما وجدت بعد ذلك حراً ولا برداً)[1] .

وصمت أمير المؤمنين رضي الله عنه عن أعظم مجد حققه الله تعالى له ، ولم يحدث أبا ليلى عن بطولاته تلك حتى فتح الله على يديه .

لكن غير أمير المؤمنين على بن أبى طالب يحدثنا عن هذه البطولات . فلا يقل عن عشرة من الصحابة ، فتنوا بروعتها وحفظهوها عن ظهر قلب وتناقلوها للأجيال ، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها .

ونعود إلى رواية البخارى عن سهل بن سعد . والتى انطلقنا منها أساساً للحادثة : (فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه الراية . فقال على: يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال : « انفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ،وأخبرهم عما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»)[2] .

لقد قال رسول الله ﷺ :حين بعث صدر براءة إلى المشركين فى حج العام التاسع للهجرة وفى إمرة الصديق للحج ـ رضوان الله عليه ـ قال : « لا يبلغ عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

وإذا كان على ـ رضوان الله عليه ـ هو حامل رسالة رسول الله ﷺ إلى المشركين العرب فيما بعد،فهو اليوم حامل رسالة رسول رب العالمين إلى الأمة اليهودية يقيم عليها الحجة ، ويشهد عليها بالتبليغ يوم القيامة ،ويدعوها إلى الله ـ عز وجل ـ ورسوله ، فهو رضي الله عنه إضافة إلى كونه البطل المعد للفتح ،فهو الداعية العظيم المعد للدعوة ، وأن تنتهى الدعوة بإسلام اليهود أحب إلى الله تعالى وإلى رسوله من أن تنتهى بإبادتهم وهزيمتهم . وأدرك على رضي الله عنه هذا المعنى ابتداءً قبل أن يكون الفاتح العظيم أن عليه مسؤولية أعمق وأبعد من مسؤولية الفتح ، ومن أجل هذا هو الذى سأل حبيبه

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤ / ٢١٣ . وقال المحقق فيه : وذكره الهيثمى فى الزوائد (٩ / ١٢٢) وقال :رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤٧٦/٧ ح (٤٢١٠) .

المصطفى ﷺ (علام يقاتل اليهود ؟) . فهو ليس المتلمظ للدماء بمقدار ماهو متحرق للهداية بالدعاء ، وعلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهج الدعوة إلى الله حيث ختمه بأعظم الأمجاد الحقيقية ، والتى قد تكون أعظم من فتح خيبر :

« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » (وهو من ألوان الإبل المحمودة وقيل: المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق فيها ، وقيل تقتنيها وتملكها ، وكانت مما تتفاخر العرب بها)(١) .

وفى السيرة لابن إسحاق : يتابع بنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الانتقال مع على إلى حصن خيبر بعد أن فقه مسؤوليته وعلام يقاتل اليهود ، وكيف يبلغهم رسالة ربهم فيقول :

(فخرج والله يأرنح يهرول وإنا لخلفه نتبع أثره ، حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطَّلع إليه يهودى من رأس الحصن . فقال : من أنت؟ قال : أنا على بن أبى طالب . قال يقول اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى،أوكما قال . فما رجع حتى فتح الله على يديه.)(٢) .

« أنت أخى فى الدنيا والآخرة » ، « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبى بعدى » .

فهو أخو رسول الله ﷺ يأخذ الكتاب بقوة ، ويأخذ الراية بقوة ، ويمضى يهرول وبه نفس شديد من العَدْوِ تنفيذا لأمر رسول الله ﷺ ،فيركز الراية فى مكان مرتفع ، وينزل لساحة الحرب بجبته الأرجوانية ، بعد أن يُبلّغ ما أمره رسول الله ﷺ بتبليغه .

وليس بين يدينا من شدة هذه الحرب وأهوالها إلا حديثين يرويان عنف المواجهة . قال ابن إسحاق حدثنى عبدالله بن الحسن عن بعض أهله عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته . فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فأطاح ترسه من يده ، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه)(٣) .

---

(١) المصدر نفسه ٧ / ٤٧٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤١٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٧ وقال الهيثمى عنه (٦ / ١٥٢) : فيه راوٍ لم يُسَم ، ورواه أحمد فى مسنده ، ورواه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٣٧ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

إنه ولى الله تعالى الذى اختاره ليفتح خيبر،وكما تكون المعجزات للأنبياء تكون الكرمات للأولياء ، وقد طار ترس على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من يده ، فترس بباب خيبر ، الذى عجز ثمانية عن قلبه فى الأحوال العادية لا عن حمله ، وعلى ـ رضوان الله عليه ـ قد يعجز عن ذلك بعد المعركة ، لكن الله تعالى أعطاه من القوة داخل المعركة ما يستطيع أن يواجه كل هجمات اليهود بهذا الترس الذى لم تسمع البشرية بمثله. ولايمكن أن يتوقف أو يتراجع أو يهن ،حتى يأذن الله بالفتح من عنده ولا عجب كذلك فى رواية البيهقى:عن أبى جعفر محمد بن على قال:حدثنا جابر بن عبد الله أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها ، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً)[1] .

وفى رواية من وجه آخر ضعيف عنه:(ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب)[2] . والكرامة لابد أن تكون خارقة للعادة .

يقول الحافظ ابن حجر فى التعقيب على روايتى السبعة ورواية الأربعين : (والجمع بينهما أن السبعة عالجوا قلبه والأربعين عالجوا حمله ، والفرق بين الأمرين ظاهر، ولو لم يكن إلا باختلاف الأبطال)[3].

فقد رأى صحة الروايتين ، لكنه أغفل رواية السبعين؛ لأنها ضعيفة فى سندها . ولا عجب أن يقول أبو نعيم ـ رحمه الله ـ:(وقد سمع رواية البيهقى حين قال اليهودى:علوتم والذى أنزل على موسى.لاعجب أن يقول:فيه دلالة على أن فتح علىّ لحصونهم تقدم فى كتبهم بتوجيه من الله وجهه إليهم ،ويكون فتح الله على يديه) [4].

حصن الوطيح والسلالم :

وبعد أن أدركت أمة اليهود أنها تغالب قدر الله . وقد سقط القموص أمنع حصونها ، وبدأت كتائب الإسلام تنثال نحو حصنى الوطيح والسلالم . حيث يقيم هناك الزعماء المتبقون لليهود وعلى رأسهم كنانة بن أبى الحقيق ، ألغوا من قاموسهم فكرة المواجهة وعادوا للتمنع فى حصونهم .

قال ابن إسحاق : (وتدنى رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاًمالاً ، ويفتحها حصناً حصناً حتى انتهوا إلى ذينك الحصنين ، وجعلوا لايطلعون من حصنهم حتى هم

(١ ، ٢) دلائل النبوة للبيهقى٤/ ٢١٢ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى٧/ ٤٧٨ .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى٥/ ١٩٥ .

رسول الله ﷺ أن ينصب عليه المنجنيق لما رأى من تغليقهم ،وأنهم لا يبرز منهم أحد . فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول الله ﷺ الصلح) .

إن كنانة بن أبى الحقيق هو ثالث الثلاثة من زعماء اليهود من بنى النضير والذين التجؤوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة .

أما أولهم فحيى بن أخطب الذى ملأ الأرض حرباً لرسول الله ﷺ . وحزَّب الأحزاب ، وجيّش الجيوش ، لاستئصال شأفته ، وقاد بنى قريظة إلى مصارعهم حين نكثوا عهدهم مع رسول الله ﷺ . قال كلمته التاريخية ، وهو يُعرض على الموت : لابأس ، ملحمة وقدر كتبهما الله على بنى إسرائيل .

ثم اتجه إلى رسول الله ﷺ قائلاً له والحقد يقطر من قلبه : والله ما لمت نفسى فى عداوتك .

وكما كان إبليس يعلم أن عليه السجود لآدم فاستكبر بين يدى ربه عن السجود، وعرف يقيناً أنه حطب جهنم ، نجد حيى بن أخطب يقف الموقف نفسه ، فهو يحاد الله ورسوله . والله لا يحارب .

قال كلمته المشهورة : ولكنه من يخذل الله يُخذل .

أما ثانى الزعماء فهو سلام بن أبى الحقيق الذى سقط صريعًا بيد العصبة المسلمة التى اغتالته على فراشه، فماذا كان يحمل فى نفسه قبل مقتله.

نستمع للحارث بن عوف سيد بنى غطفان يقول لعيينة بن حصن سيدهم الأول:

(أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول: إنا نحسد محمد على النبوة حيث خرجت من بنى هارون وهو نبى مرسل واليهود لا تطاوعنى على هذا. ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب، وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعًا؟ قال: نعم والتوراة التى أنزلت على موسى وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه)(١).

ولئن صُرِع ثانى الزعماء سلام بن أبى الحقيق قبل ذبح خيبر. فهو ثالث الزعماء كنانة بن أبى الحقيق ، وأخو سلام هو الذى يقود اليهود لهذا المصرع فى خيبر وقد رأى كيف سقط أبطال اليهود صرعى مجندلين فى ساحة المعركة. ففكَّر أن ينقذ اليهود من الذبح (فأرسل إلى رسول الله ﷺ رجلاً من اليهود يقال له شماخ يقول: أنزل أكلمك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فنزل كنانة فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من فى

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٧ .

حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وما كان لهم من مال وأرض. وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البر إلا ثوب إنسان . فقال رسول الله ﷺ: « برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئًا » فصالحوه على ذلك. فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأموال فقبضها الأول فالأول: ووجد فى ذينك الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف، وألف رمح. وخمسمائة قوس عربية بجعابها) [1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٩ .

التربية فى خيبر

أولاً: قبل الفتح

١ـ ركوبه ﷺ على الحمار :

(روى الترمذى ،وابن ماجة ، والبيهقى بسند ضعيف قال: كان رسول الله ﷺ يوم خيبر على حمار مخطوم برَسَن من ليف، وتحته إكاف من ليف .

قال ابن كثير: الذى ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ جرى فى زقاق خيبر حتى انحسر الإزار عن فخذه ، فالظاهر أنه كان يومئذ على فرس لا على حمار ، قال : ولعل هذا الحديث إن كان صحيحًا محمول على أنه ركبه فى بعض الأيام وهو محاصرها) (١).

وفى رواية البيهقى عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار وكان يوم قريظة والنضير على حمار ويوم خيبر على حمار مخطوم برس من ليف تحته إكاف من ليف)(٢).

٢ـ دعاؤه ﷺ على الطريق :

(قال أنس: وقال رسول الله ﷺ لأبى طلحة رضي الله عنه حين أراد الخروج إلى خيبر: «التمسوا لى غلامًا من غلمانكم يخدمنى » فخرج أبو طلحة مرْدِفِى وأنا غلام ،قد راهقت . فكان رسول الله ﷺ إذا نزل خدمته، فسمعته كثيراً ما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال » رواه سعيد بن منصور)(٣).

٣ـ عامر بن الأكوع وشهادته :

(... فلما تصاف القوم كان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق يهودى ليضربه ويرجع ذباب سيفه فأصاب ركبة عامر. فمات منه، فلما قفلوا قال(٤) سلمة وهو آخذ

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ١٨٦ وهو عند الترمذى ٣/ ١٠١٧ .

(٢) دلائل النبوة ٤/ ٢٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ٥/ ١٨١ وهو عند أحمد ٣/ ١٥٩ وهو حديث صحيح .

(٤) القائل هو مولاه يزيد بن أبى عبيد راوى الحديث .

بيدى: فلما رآنى رسول الله ﷺ ساكتًا قال: « مالك؟ » قلت له: فداك أبى وأمى زعموا أن عامرًا حبط عمله. قال: «من قاله» قلت: فلان، وفلان، وأسيد بن حضير الأنصارى قال:

« كذب من قاله إن له لأجران » وجمع بين أصبعيه « إنه لجاهد مجاهد قل عربى مشى بها مثله »)[1].

٤ـ النهى عن أكل لحوم الحمر الإنسية:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءه جاء فقال: أُكلت الحُمُر. فسكت ثم أتاه الثانية فقال: أُكلَتْ الحُمُر. ثم أتاه الثالثة فقال: أفنِّيت الحمرَ. فأمر مناديًا فنادى فى الناس: « إن الله ورسوله ينهيانكم عن أكل الحمر الأهلية »، فأكفئت القدور وإنها لتفور باللحم) [2].

وفى رواية ابن أبى أوفى قال: (أصابتنا مجاعة يوم خيبر، فإن القدور لتغلى، قال: وبعضها نضجت فجاء منادى النبى ﷺ: « لا تأكلوا من لحوم الحُمُر شيئًا وأهريقوها » قال ابن أبى أوفى: فتحدثنا أنه إنما نهض عنها لأنها لم تخمس. وقال بعضهم: نهى عنها البتة لأنها كانت تأكل العذرة)[3].

وفى رواية سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ثم قال: « إن الله فتحها عليكم » قال: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت عليهم، أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: « ما هذه النيران؟ على أى شىء توقدون؟ » فقالوا: على لحم، قال: « أى لحم» قالوا: لحم حُمُر الإنسية، فقال رسول الله ﷺ: « أهريقوها واكسروها » فقال رجل: أويهريقوها ويغسلوها؟ قال: « أوذاك؟ » [4].

٥ ـ جراب الشحم :

عن عبد الله بن مغفل المزنى رضي الله عنه قال: كنا محاصرى خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فالتفتُ فإذا النبى ﷺ فاستحييت[5].

(وقال ابن إسحاق: وحدثنى من لا أتهم عن عبد الله بن مغفل قال: أصبت من فىء خيبر جراب شحم، فاحتملته على عاتقى إلى رحلى وأصحابى. فلقينى صاحب

---

(١) مسلم ٣/ ١٤٢٩ (١٨٠٢) .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٦٧ (٤١٩٩) .
(٣) المصدر نفسه ٧ / ٤٨١ (٤٢٢٠) .
(٤) مسلم ٣/ ١٤٢٩ (١٨٠٢).
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨١ (٤٢١٤) .

المغانم الذى جُعل عليها، فأخذ بناحيته وقال: هلم هذا نقسمه بين المسلمين قال: قلت: والله لا أعطيكه. قال: فجعل يجابذنى الجراب، قال: فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا ثم قال لصاحب المغانم: « لا أبالك خلٍّ بينه وبينه » قال: فأرسله. فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى فأكلناه) (١).

٦ـ فى حصن الصعب بن معاذ:

فى رواية جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال:

(... وصعد المسلمون على جدره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً ففتتنا أعضاد اليهود بالتكبير، لقد رأيت فتيان أسلم وغِفار فوق الحصن يكبرون فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك. من الشعير، والزيت والسمن والعسل والتمر والودك، ونادى منادى رسول الله ﷺ كلوا، واعلفوا، ولا تحملوا يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم. فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مُقامهم طعامهم وعلف دوابهم، لا يُمنع أحدهم أن يأخذ حاجته ولا يخمس الطعام، ووجدوا فيه من البز والآنية، ووجدوا خوابى السكر، فأُمروا فكسروها، فكانوا يكسرونها ،حتى سال السكرُ فى الحصن،والخوابى كبار لا يطاق حملها) (٢).

وكان أبو ثعلبة الخُشَنى يقول:(وجدنا فيه آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب . فسألنا رسول الله ﷺ فقال : « اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا » وقال : « أسخنوا فيها الماء، ثم اطبخوا بعد وكلوا واشربوا » وأخرجنا منه غنماً كثيراً وبقراً وحُمُراً ، وأخرجنا منه آلة كثيرة للحرب ،ومنجنيقاً ، ودبابات وعُدة . فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهراً ، فعجّل الله خزيهم) .

فحدثنى عبدالحميد بن جعفر عن أبيه قال : لقد خرج من أُطُم الصعب بن معاذ من البزِّ عشرون عِكْماً محزومة من غليظ متاع اليمن ، وألف وخمسمائة قطيفة ، يُقال: قدم كل رجل بقطيفة على أهله،ووجدوا عشرة أحمال خشب، وخوابى سكْر كسرت ، وزقاق خمر فأُهريقت .

٧ـ عبد الله الخـمَّـار :

وعمد يومئذ رجل من المسلمين فشرب من الخمر،فرُفع إلى النبى ﷺ ، فكره حين رُفع إليه ،فخفقه بنعليه،ومن حضره ،فخفقوه بنعالهم،وكان يقال له:عبد الله الخمار ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٧٣ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٦٤ .

وكان رجلاً لا يصبر عن الشراب ، قد ضربه رسول الله ﷺ مراراً . فقال عمر بن الخطاب : اللهم العنه ! ما أكثر ما يُضرب . فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعل يا عمر ، فإنه يحب الله ورسوله » . قال : ثم راح عبدالله فجلس معهم كأنه أحدهم .

٨ ـ حديث أم عمـارة :

حدثنى ابن أبى سبرة عن عبد الرحمن بن عبدالله بن أبى صعصعة عن الحارث بن عبدالله بن كعب عن أم عُمارة قالت : لقد وجدنا فى حصن الصعب بن معاذ من الطعام ما كنت أظن أنه لايكون بخيبر . جعل المسلمون يأكلون مُقامهم شهراً وأكثر من ذلك الحصن ، فيعلفون دوابهم، مايُمنع أحدهم ، ولم يكن فيه خمس ،وأخرج من البزوز شىء كثير يُباع فى المقسم،ووجد فيه خرز من خرز اليهود، فقيل لها فمن الذى يشترى ذلك فى المقسم ؟ قالت : المسلمون واليهود الذين كانوا فى الكتيبة فآمنوا ، ومن حضر من الأعراب ، فكل هؤلاء يشترى ، فأما من يشترى من المسلمين فإنما يحاسب به مما يصيبه من المغنم)(١) .

٩ـ الإطعام من الغنم :

قال ابن إسحاق :(وحدثنى بريدة بن سفيان عن بعض رجال بنى سلمة عن أبى اليسر كعب بن عمرو قال: (والله إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية، إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم. ونحن محاصروهم فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يطعمنا من هذا الغنم؟» قال أبو اليسر: فقلت أنا يا رسول الله؛ قال: فافعل؛ قال: فخرجت أشتد مثل الظُلَيم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ موليًا قال: «اللهم أمتعنا به»؛ قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولاها الحصن فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدى. ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معى شىء حتى ألقيتها عند رسول الله ﷺ فذبحوهما فأكلوهما، فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ هلاكًا.فكان إذا حدَّث هذا الحديث بكى ثم قال: أمتِعوا بى لعمرى،حتى كنتُ من آخرهم هلكًا) (٢).

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٦٣ - ٦٦٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٧ .وقال الهيثمى فيه: رواه أحمد عن بعض رجال بنى سلمة عنه وبقية رجاله ثقات ٦/ ١٤٩.

ثانيًا : بعد الفتح
غنائم خيبر والموقف منها

١ـ توزيعها :

عن نافع عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهمًا ،فسره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم فإن لم يكن له فرس فسهم واحد(١).

٢ـ أهل البيت :

عن سعيد بن المسيِّب أن جبير بن مطعم أخبره قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبى ﷺ فقلنا: أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن بمنزلة واحدة منك فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد، قال جبير: ولم يقسم النبى ﷺ لبنى عبد شمس وبنى نوفل شيئًا (٢).

٣ـ نوع الغنمية :

عن سالم مولى ابن مطيع أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهبًا ولا فضة إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادى القرى (٣).

٤ـ غير المقاتلين :

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: قدمنا على النبى ﷺ بعد أن افتتح خيبر، فقسمه لنا، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا(٤).

٥ـ ذكر مقاسم خيبر وأموالها :

وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطاة والكتيبة. فكانت الشق ونطاة

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨٤ برقم (٤٢٢٨) .
(٢) المصدر نفسه برقم (٤٢٢٩). (٣) المصدر نفسه برقم (٤٢٣٤).
(٤) المصدر نفسه برقم (٤٢٣٣) .

من سهمان من المسلمين. وكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين، وطعم أزواج النبى ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح ، منهم محيصة بن مسعود أعطاه رسول الله ﷺ ثلاثين وسقًا من شعير وثلاثين وسقا (١) من تمر. وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ،ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله ،فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها. وكان وادياها وادى السرير ووادى خاص وهما اللذان قسمت عليهما خيبر.وكانت نطاة والشق ثمانية عشر سهمًا نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهمًا ،وقسمت الشق ونطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم.

وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ﷺ ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم ،الرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس. فكان لكل فرس سهمان، ولفارسه سهم، وكان لكل راجل سهم. فكان لكل سهم رأس جمع إليه مائة رجل. فكانت ثمانية عشر سهمًا جمع.

قال ابن هشام: وفى يوم خيبر عرَّب رسول الله ﷺ العربى من الخيل وهجَّن الهجين(٢) .

٦ـ أمر فدك فى خبر خيبر :

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف (٣) أو بعد ما قدم المدينة. فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب (٤).

٧ـ رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء . وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة . وكانت أم أنس

---

(١) الوسق: ستون صاعًا أو حمل بعير. (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٨٨ .

(٣) يعلق الناشر على كلمة الطائف فيقول: فى المخطوط بالطريق وفى المطبوع بالطائف ولا مناسبة له فلعله خطأ. إذ الطائف لم تفتح بعد. أقول: لا غرابة أن تحرَّف الطريق إلى الطائف. ويصبح المعنى: فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطريق إلى المدينة .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٩١ .

ابن مالك وهى تدعى أم سليم. . وكانت أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقًا لها فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد . قال ابن شهاب: فأخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم. قال: فرد رسول الله ﷺ إلى أمى عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: إن الرجل كان يجعل للنبى النخلات من أرضه حتى فتحت عليه قريظة والنضير، فجعل بعد ذلك يرد عليه ما كان أعطاه(٢).

٨ ـ **أهل خيبر يعملون فيها:** عن ابن ـ عمر رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ أعطى خيبر لليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما خرج منها (٣).

وقال موسى بن عقبة :حدثنا نافع أن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما فتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرًهم فيها على أن يعملوا على نصف ما خرج منها من الثمر فقال رسول الله ﷺ: « نقركم فيها على ذلك ما شئنا » فكانوا فيها حتى أخرجهم عمر (٤).

٩ـ عيينة وبنو فزارة :

حدثنا موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: كانت بنو فزارة ممن قدم على أهل خيبر ليعينوهم فراسلهم رسول الله ﷺ ألا يعينوهم، وسألهم أن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا فأبوا عليه، فلما فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بنى فزارة فقالوا: حظنا والذى وعدتنا فقال رسول الله ﷺ: « حظكم أو قال لكم ذو الرقيبة جبل من جبال خيبر » ، فقالوا: إذن نقاتلك . فقال: « موعدكم جنفا » فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين(٥).

وفى رواية للواقدى عن شيوخه قال:(كان أبو شييم المزنى قد أسلم فحسن إسلامه يحدث،يقول: لما نفرنا أهلنا بحيفا مع عيينة قدمنا عليهم وهم فارون هادئون لم يهجهم هائج رجع بنا عيينة فلما كان دون خيبر بمكان يقال له الحطام عرًسنا من الليل ففزعنا ، فقال عيينة: أبشروا إنى أرى الليلة فى النوم أنى أعطيت ذا الرقيبة ـ جبلاً بخيبر ـ قد والله أخذت برقبة محمد، قال فلما قدمنا خيبر، قدم عيينة فوجد فيها رسول الله ﷺ قد

---

(١) العذاق: جمع عذق وهى : النخلة. رواه مسلم ٣/ ١٣٩٢ (١٧٧١) .
(٢) مسلم ٣/ ١٣٩٢ (١٧٧١) .
(٣) البخارى ٣/ ١٣٨ كتاب الحرث والمزارعة باب المزارعة مع اليهود .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٣٤ . (٥) دلائل النبوة للبيهقى ٤ / ٢٤٨ .

فتح خيبر، وغنَّمه الله ما فيها فقال عيينة: اعطنى يا محمد ، ممَّا غنمت من حلفائى، فإنى انصرفت عنك وعن قتالك، وخذلتُ حلفائى ولم أُكثر عليك، ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل. فقال رسول الله ﷺ: « كذبت، ولكن الصياح الذى سمعت أنفرك إلى أهلك». قال: أجزنى يا محمد ، قال: « لك ذو الرقيبة ».قال عيينة: وما ذو الرقيبة؟ قال: « الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته » . فانصرف عيينة فجعل يتدسس إلى اليهود ويقول: ما رأيت كاليوم أمرًا والله ما كنت أرى أحدًا يصيب محمدًا غيركم. قلت: أهل الحصون والعدة والثروة أعطيتم ما بأيديكم وأنتم فى هذه الحصون المنيعة، وهذا الطعام الكثير ما يوجد له آكل. والماء الواتن، قالوا: قد أردنا الامتناع فى قلعة الزبير ولكن الدبول قطعت عنا، وكان الحر ،فلم يكن لنا بقاء على العطش قال: قد وليتم من حصون ناعم منهزمين حتى صرتم إلى قلعة الزبير، وجعل يسأل عمَّن قتل فيخبر. قال: قُتِل والله أهل الجد والجلد، لا نظام لليهود بالحجاز أبداً. ويسمع كلامه ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق وكانوا يقولون إنه ضعيف العقل مختلط فقال: يا عيينة ، أنت غررتهم وخذلتهم وتركتهم وقتال محمد، وقبل ذلك ما صنعت ببنى قريظة. قال عيينة: إن محمدًا كادنا فى أهلنا فنفرنا إليهم حيث سمعنا الصريخ، ونحن نظن أن محمدًا قد خالف إليهم. فلم نر شيئًا فكررنا إليكم لننصركم. قال ثعلبة:ومن بقى تنصره؟ قد قتل من قُتل وبقى من بقى فصار عبدًا لمحمد وسبانا ،وقبض الأموال . . . . فانصرف عيينة إلى أهله يفتل يديه، فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال: ألم أقل لك إنك توضع فى غير شيء؟ والله ليظهرن محمد على من بين المشرق والمغرب ، اليهود كانوا يخبروننا هذا ،أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول: إنا نحسد محمدًا على النبوة حيث خرجت من بنى هارون، وهو نبى مرسل، واليهود لا تطاوعنى على هذا ،ولنا منه ذبحان، واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعًا؟ قال: نعم والتوراة التى أنزلت على موسى وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه) (١) .

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٦ ، ٦٧٧ .

ثالثًا: الجنة والنار

١ـ الذى لا يدع شاذة ولا فاذة :

عن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقيل: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان ، فقال رسول الله ﷺ: « أما إنه من أهل النار » . فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه. وإذا أسرع أسرع معه. قال : فجرح الرجل جرحًا شديدًا. فاستعجل الموت. فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذى ذكرت آنفًا أنه من أهل النار. فأعظم الناس ذلك فقلت أنا لكم به فخرجت فى طلبه، ثم جرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصف سيفه فى الأرض، وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك:

« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة») (١).

وفى رواية عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:(شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممَّن معه يدَّعى الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة. فكاد بعض الناس يرتاب فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منهما أسهمًا فنحر بها نفسه. فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله ،صدَّق الله حديثك. انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: « قم يا فلان فأذِّن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن. إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » تابعه معمر عن الزهرى) (٢).

وفى رواية من روايات سهل (. . . . فقيل: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، ما أجزأ أحد ما أجزأ فلان فقال: « إنه من أهل النار » فقالوا: أيُّنا من أهل الجنة إن

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧١ برقم (٤٢٠٢ ، ٤٢٠٣) .
(٢) المصدر نفسه ٧/ ٤٧٥ (٤٢٠٧) .

كان هذا من أهل النار . . .) [1].

٢ـ إنه لجاهد مجاهد :

عن سلمة بن الأكوع قال: (. . . . فلما تصاف القوم كان سيف عامر فيه قصر، فتناول به ساق يهودى ليضربه، ويرجع ذباب سيفه فأصاب ركبة عامر. فمات منه قال: فلما قفلوا قال سلمة: وهو آخذ بيدى. قال: فلما رآنى ساكتًا قال: « مالك؟ » قلت له: فداك أبى وأمى زعموا أن عامرًا حَبِط عمله. قال: « من قاله؟ » قلت: فلان وفلان وأسيد بن حضير الأنصارى فقال: « كذب من قاله[2]، إنَّ له لأجران »[3] وجمع بين أصبعيه « إنه لجاهد مجاهد [4] قل عربى مشى بها مثله [5] ») [6].

٣ـ إن الشملة لتشتعل عليه ناراً :

عن سالم مولى ابن مطيع أنه سمع أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (افتتحنا خيبر ولن نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادى القرى، ومعه عبد له يقال له مدعم أهداه إليه أحد بنى الضباب، فبينا هو يُحطٍّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عاثر حتى أصاب ذلك العبد. فقال الناس: هنيئًا له الشهادة فقال رسول الله ﷺ: « بلى والذى نفسى بيده إن الشملة التى أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تُصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » فجاء رجل حين سمع ذلك من النبى ﷺ بشراك أو شراكين، فقال: هذا شيء كُنت أصبتُه. فقال رسول الله ﷺ: « شراك أو شراكان من نار »)[7].

٤ـ خرز لا تساوى درهمين :

وعن زيد بن خالد الجهنى أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: صلوا على صاحبكم. فتغيرت وجوه الناس لذلك (فزعم

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٧٥ (٤٢٠٧) .

(٢) كذب من قاله: أى أخطأ وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٦٧ .

(٣) إن له لأجران: وفى بعضها لأجرين وهما صحيحان .

(٤) إنه لجاهد مجاهد: فسروا الجاهد بالجاد فى علمه وعمله، أى أنه لجاد فى طاعة الله . . . . وقال القاضى: فيه وجه آخر إنه جمع اللفظين توكيداً.

(٥) قل عربى مشى بها مثله: معناه مشى فى الأرض أو فى الحرب.

(٦) مسلم ٣/ ١٤٢٩ح (١٨٠٢) .

(٧) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨٧ ، ٤٨٨ برقم (٤٢٣٤) .

زيد أن رسول الله ﷺ قال: « إن صاحبكم قد غل فى سبيل الله »[1] (ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز اليهود لا يساوى درهمين[2].

٥ـ لقد أكرم الله هذا العبد :

حدثنا. . . . ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة، وأخبرنا . . . . عن عمه موسى ابن عُقبة قالا:(وهذا لفظ حديث موسى، فذكر قصة خروج النبى ﷺ إلى خيبر قال:

ثم دخلوا ـ يعنى اليهود ـ حصنًا منيعًا لهم يقال له العموص[3] فحاصرهم رسول الله ﷺ قريبًا من عشرين ليلة. وكانت أرضًا وخمة شديدة الحر فجهد المسلمون جهدًا شديدًا فوجدوا أحمرة أنسية ليهود. فذكر قصتها ونهى النبى ﷺ عن أكلها. ثم ذكر خروج مرحب وما قال النبى ﷺ فى إعطاء الراية رجلاً يفتح الله على يديه) .

قال: وجاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فوقع فى نفسه ذكر النبى ﷺ. فأقبل فى غنمه حتى عهد لرسول الله ﷺ فلما جاءه قال: ماذا تقول؟ وماذا تدعو إليه؟ قال: « أدعوا إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله وألا تعبد إلا الله » قال العبد: فماذا لى إن شهدت وآمنت بالله؟ قال: « لك الجنة إن متَّ على ذلك ». فأسلم .

قال: يا نبى الله ، إن هذا الغنم عندى أمانة قال رسول الله ﷺ: « أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ».

ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها فعرف اليهودى أن غلامه قد أسلم. فقام رسول الله ﷺ فوعظ الناس، فذكر الحديث فى إعطاء الراية عليًا، ودنوهم من الحصن وقتل مَرحب. قال: وقُتِل من المسلمين العبدُ الأسود، ورجعت عادية اليهود، واحتمل المسلمون العبد الأسود إلى عسكرهم. فأُدخل فى الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطَّلع فى الفسطاط ثم أقبل على أصحابه فقال:

« لقد أكرم الله هذا العبد الأسود، وساقه إلى خير، قد كان الإسلام من نفسه حقًا. وقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين »[4].

(١) الزيادة بين القوسين من موطأ مالك (٢/ ٤٥٨) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٥٥ وأخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة وأحمد فى مسنده (٤/ ١١٤) و (٥/ ١٩٢) .

(٣) العموص محرفة وهى: القموص.

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٢٠ وقد أخرجه البيهقى كذلك عن جابر وعن أنس . وهو فى سيرة ابن هشام ٣/٤٧٩ ، ٤٨٠ .

٦ـ تنازعانه جبَّته:

حدثنا . . . حدثنا ثابت عن أنس أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى رجل أسود اللون قبيح الوجه، منتن الريح لا مال لى. فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال: نعم. فتقدَّم فقاتل حتى قُتل فأتى عليه النبى ﷺ وهو مقتول فقال: « لقد حسن الله وجهك، وطيَّب ريحك، وكثَّر مالك » .

وقال لهذا أو لغيره: « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تنازعانه جُبته عنه يدخلان فيما بين جلده وجُبته » .

وعن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء النبى ﷺ فآمن واتبعه. فقال: أهاجر معك فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ فقسم، وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم. فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قال: قَسْم قسمه لك فأخذه فجاء به النبى ﷺ. فقال: ما هذا يا محمد؟ قال: قَسْمٌ قسمته لك. قال: ما على هذا اتبعتك. ولكنى اتبعتك على أن أرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: « إن تصدُق الله يصدُقْك » ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبى ﷺ ،« هو هو؟ » قالوا: نعم. قال: « صدق الله فَصَدَقَه » فكفَّنه النبى ﷺ ثم قدَّمه فصلى عليه، فكان مما ظهر فى صلاته:

« اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك قُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد» .

قال عطاء: وزعموا أنه لم يُصلِّ على أهل أحد(١).

وعند ابن إسحاق: وأخبرنى عبد الله بن نجيح أنه ذكر له: (أن الشهيد إذا ما أصيب تدلَّت زوجتاه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه وتقولان: ترَّب الله وجه من تربك، وقتل من قتلك (٢).

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٨٠ .

رابعًا : المرأة فى خيبر

١ـ صاحبة القلادة :

(حدثنا . . . . قال حدثنى سليمان بن سحيم عن أمية بنت أبى الصلت عن امرأة من بنى غفار وقد سمّاها لى[١] قالت : أتيت رسول الله ، ﷺ فى نسوة من بنى غفار فقلنا له : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، وهو يسير إلى خيبر فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : « على بركة الله » قالت : فخرجنا معه وكنت جارية حديثة السن فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله . قالت : فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح فأناخ ، ونزلتُ عن حقيبة رحله وإذا بها دم منى . فكانت أول حيضة حضتها . قال : فتقبضت إلى الناقة ، واستحييت ، فما رأى رسول الله ﷺ ما بى ورأى الدم قال : « مالك؟ لعلك نَفِست » قالت قلت : نعم . قال : « فأصلحى من نفسك ، وخذى إناءً من ماء فاطرحى فيه ملحًا ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودى لمركبك » قالت : فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها ، وجعلها بيده فى عنقى . فوالله لا تفارقنى أبدًا ، قال : وكانت فى عنقها حتى ماتت وأوصت أن تدفن معها ، فكانت لا تطهر عن حيضة إلا جعلت فى طَهورها ملحًا وأوصت أن يُجعل فى غسلها حين ماتت)[٢] .

٢ـ عشرون امرأة :

قال : وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة : أم سلمة زوجته ، وصفية بنت عبد المطلب وأم أيمن ، وسلمى امرأة أبى رافع مولاة النبى ﷺ ، وامرأة عاصم بن عدى ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر . وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع وهى أم شباث ، وكعيبة بنت سعد الأسلمية ، وأم مُتاع الأسلمية ، وأم سُلَيم بنت ملحان ، وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية ، وهند بنت عمرو بن حِزام ، وأم علاء الأنصارية ، وأم

---

(١) ذكر الواقدى فى مغازيه أن اسمها أمية بنت قيس بن أبى الصلت الغفارية بينما هى فى مسند الإمام أحمد عن أمية بنت أبى الصلت عن امرأة من بنى غفار .

(٢) مسند أحمد (٦ / ٣٨٠) والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤٧٧ .

عامر الأشهلية، وأم عطية الأنصارية ،وأم سليط) (١).

٣ـ امرأة عبد الله بن أنيس :

فعن عبد الله بن أنيس قال: خرجت مع النبى ﷺ إلى خيبر، ومعى زوجتى حُبلى. فنُفست بالطريق فأخبْرتُ رسول الله ﷺ فقال: انقع لها تمرًا فإذا أنعمَ بلُّهُ فامرثه ثم تشربُه ،ففعلت فما رأت شيئًا تكرهه. فلما فتح خيبر أحذى النساء ولم يسهم لهن، فأحذى زوجتى وولدى الذى وُلِد) (٢).

٤ـ أم سنان الأنصارية :

(قالت: لما أراد رسول الله ﷺ الخروج جئته فقلت : يارسول الله أخرج معك فى وجهك هذا أخرز السقاء ، وأداوى المرضى والجريح إن كانت جراح ، وأنظر الرحل ، فقال : « اخرجى على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمننى وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فإن شئت فمع قومك ، وإن شئت فمعنا » . قلت : معك ! قال : « كونى مع أم سلمة زوجتى» . قالت : فكنت معها ، فكان رسول الله ﷺ يغدو من الرجيع كل يوم عليه الدرع ، فإذا أمسى رجع إلينا .فمكث على ذلك سبعة أيام حتى فتح الله النطاة . فلما فتحها تحوَّل إلى الشق ، وحوَّلنا إلى المنزلة . فلما فتح خيبر رضخ لنا من الفىء فأعطانى خرزاً وأوضاحاً من فضة أصيبت من المغنم ، وأعطانى قطيفة فدكية ، وبُرداً يمانياً وخمائل ، وقِدراً من صُفر ، وكان رجال من أصحابه قد جرحوا فكنت أداويهم بدواء كان عند أهلى فيبرؤون . فرجعت أم سلمة فقالت لى حين أردنا أن ندخل المدينة ـ وكنت على بعير من إبل رسول الله ﷺ منحه لى ـ فقالت : بعيرك الذى تحته، لك رقبته أعطاكيه رسول الله .قالت:فحمدت الله وقدِمت بالبعير فبعتُه بسبعة دنانير . قالت: فجعل الله فى وجهى ذلك خيراً)(٣) .

* * *

١ـ ويركب الحمار :

فى رواية البيهقى عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويجيب دعوة المملوك ،ويركب الحمار.وكان يوم قريظة والنضير على حمار ، ويوم خيبر حمار مخطوم برسن من ليف،وتحته إكاف من ليف .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨٥ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٨٦ .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٦٨٧ .

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبد، ويأكل كما يأكل العبد ، ويركب كما يركب العبد ، يلبس كما يلبس العبد ، وهو أعبد خلق الله تعالى، وأخضعهم لله ـ عز وجل، وأخوفهم لله .وركوب الحمار عند العرب ليس مظنة شهرة أبداً . بل هو مظنة ضعة . وهذا الشعر العربى كله ، لا نجد فيه من يفخر أبداً أنه ركب الحمار ؛ لأن نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء تأبى عليه ذلك. أما الخيل ، فالشعر العربى كله يكاد يكون فى وصف الخيل والخمر والسيف والقنا .

وقد وصف رسول الله ﷺ الخيل بأنها أجر ووزر ، وأنها مظنة الشرف والمباهاة والخيلاء :

« الخيل لثلاثة هى لرجل أجر، وعلى رجل ستر، وعلى رجل وزر . . . »(١).

فالوزر فيها كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « . . . . . ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام »(٢) .

وركوب الحمار إذن من تمام العبودية لله . وهو درس للجيل المسلم كله . كى يتواضع لله ـ عز وجل ، ويخضع ويزداد عبودية وذلاً لله ـ عز وجل . والأنبياء خيرة الله من خلقه ، وصفوته من بنى آدم كانوا يركبون الحمر .

فقد روى أبوداود الطيالسى ، وابن سعد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

(كانت الأنبياء يلبسون الصوف ، ويحلبون الشاة ويركبون الحمير ، وكان لرسول الله ﷺ حمار يقال له عفير)(٣) .

وحين نرى فى حديث البيهقى السابق أن مواقعه مع اليهود ، يوم قريظة ، ويوم النضير، ويوم خيبر، كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحرص على أن يرى راكباً للحمار. هو تحريك لقلوب اليهود الميتة ـ إن بقى لهم قلوب ـ كى يعرفوا صدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما فى كتبهم أنه يركب الحمار والبعير .

(وفى الإنجيل أيضاً اسمه حبنطاً : أى يفرق بين الحق والباطل ، وصفه بأنه صاحب المدرعة وهى الدرع ، وفيه أيضاً وصفه بأنه يركب الحمار والبعير)(٤).

فهذا من تمام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو درس فى العبودية الخالصة لله ـ عز وجل ـ يلقيه على خيرة أهل الأرض وليس هو الأصل فى الحرب والمواجهة. إنما الخيل للحرب ؛ ولهذا يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

(الذى ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ جرى فى زقاق خيبر حتى انحسر

(١ ، ٢) من حديث صحيح رواه أحمد ومالك وأصحاب السنن .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٧/ ٦٥٥ . (٤) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ١/ ٣٤٦.

الإزار عن فخذه ، فالظاهر أنه كان يومئذ على فرس لا على حمار ، قال: ولعل هذا الحديث إن كان صحيحاً محمول على أنه ركبه فى بعض الأيام وهو محاصرها)[1] .

٢ـ وفى الدعاء والتضرع :

والدرس العملى فى العبودية لله الذى رأيناه فى ركوب الحمار ، نراه ثانية فى الدعاء والتضرع والتذلل له فيما يناسب جو هذه الحرب كما يروى لنا أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ لأبى طلحة حين أراد الخروج إلى خيبر : « التمسوا لى غلامًا من غلمانكم يخدمنى » فخرج أبو طلحة مردفى وأنا غلام وقد راهقت فكان رسول الله ﷺ إذا نزل خدمته فسمعته كثيرًا ما يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال» [2].

فأخلاق الرجال العظام تأبى الإخلاء إلى الهم والحزن، وتأبى الركون إلى العجز والكسل وتأبى البخل والجبن وهى أسوأ أخلاق الرجال وتأبى ذل الدين وغلبة العدو واستعلاءه لكن رسول الله ﷺ يربط هذه الأخلاق بالله تعالى وأنها رزق يرزقه الله لمن يشاء من عباده وليست مجال فخر ، وعز وخيلاء صنعها الإنسان بنفسه. فيضرع إلى ربه أن يبعد عنه سيئ الأخلاق هذه .

« واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ،واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت »[3].

فهى عمليات البناء الكبرى فى هذه النفوس لترتبط رجاء وخوفًا بالله ـ عز وجل، حتى فى الأخلاق التى كان ديوان العرب يزهو بها دون أن يربطها برب العالمين، وحين نقلها لنا أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكثرة تكرارها من الحبيب المصطفى ﷺ، فهذا يعنى أن المسلمين جميعًا سمعوها ووعوها. وأضافت رصيدًا جديدًا إلى بنائهم عقيدة وتربية .

٣ـ التربية عن شهوة الطعام :

لقد خرج المسلمون إلى خيبر. وهم على أشد ما يكونون من الفاقة والجوع والبؤس، وقد رأينا صورة ذلك الصحابى الذى باع ثيابه لليهودى الذى أقرضه دراهم لقوته وقوت أهله. وسمعنا عند عائشة ـ رضى الله عنها ـ الصورتين المتقابلتين: الصورة الأولى أن طعام المسلمين الرئيسى هو التمر .

والله يابن أختى، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى آبيات رسول الله ﷺ نار، قال قلت : يا خالة فما كان يعيشكم؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى٥/١٨٦ . (٢) سبق تخريجه قريبا ص ٣٦٩ .
(٣) مسلم ١/ ٥٣٥ برقم (٧٧١) .

قالت: الأسودان التمر والماء ؛ إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه(١) .

والصورة الثانية لعائشة ـ رضى الله عنها ـ كذلك: (لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر) (٢) . وفى رواية: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر) (٣) .

فالمسلمون كانوا على جهد شديد ، وطعامهم الرئيسى التمر لم يكن متوفرًا لهم ، وهم يمضون إلى خيبر ،وقد وعدهم الله مغانم كثيرة يأخذونها. واشتد جوعهم حتى أنهم لا يجدون ما يأكلـونه. ورأينا أسلم وقد اشتكت إلى رسول الله ﷺ الفاقة والبؤس ، ثم فى لحظة من اللحظات هيئ لهم غنيمة دسمة جدًا من غنائم يهود وكانت هذه الغنيمة الحمر الأهلية .

ففى رواية عبد الله بن أبى أوفى ، والبراء بن عازب ـ رضى الله عنهم ـ (أنهم كانوا مع النبى ﷺ فأصابوا حُمُرًا فطبخوها . . .) (٤).

وعند الواقدى تفصيل هذه الإصابة حيث يقول فيما رواه عن أبى رهم الغفارى:

(وكان أبو رهم الغفارى يحدث قال: أصابنا جوع شديد، ونزلنا خيبر زمن البلح، وهى أرض وخيمة حارة شديدٌ حرها. فبينا نحن محاصرون حصن الصعب بن معاذ فخرج عشرون حماراً منه أو ثلاثون، فلم يقدر اليهود على إدخالها، وكان حصنهم له منعة، فأخذها المسلمون فانتحروها، وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها فى القدور والمسلمون جياع . . .)(٥) .

فى هذه الحال الصعبة، والقدور تفور باللحم، وقد نضج اللحم، وملأت رائحة الشواء الأنوف. والجوع قد أحكم نابه فى المسلمين ، فى هذه الحالة جاء أعسر امتحان لأعصاب هذا الجيل ـ الرائد القائد ـ جاء منادى رسول الله ﷺ: « لا تأكلوا من لحوم الحمر شيئًا وأهريقوها » وإن القدور لتغلى، وبعضها نضجت(٦).

وفى رواية : فلما غلت القدور ونادى منادى رسول الله ﷺ: (أن أكفئوا القدور ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئًا)(٧).

وفى رواية للإمام أحمد والشيخان: عن أبى ثعلبة الخشنى: غزوت مع رسول الله

---

(١) مسلم ٤/ ٢٢٨٣ ح (٢٩٧٤) .
(٢ ، ٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٩٥ (٤٢٤٢ ، ٤٢٤٣) .
(٤) المصدر نفسه ٧/ ٤٨١ برقم ٤٢٢١، ٤٢٢٢ .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٦٦١ .
(٦) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨١ (٤٢٢١) .
(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحى : ٥ / ٢٠٣ .

ﷺ خيبر والناس جياع ، فأصبنا بها حمراً إنسية فذبحناها فأُخبر النبى ﷺ . فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادى فى الناس: إن لحوم الحُمُر لا تحل لمن يشهد أنى رسول الله)(١).

وعن سلمة رضي الله عنه قال: أتينا خيبر فحاصرناها حتى أصابتنا مخمصة شديدة ـ يعنى الجوع الشديد ـ ثم إن الله تعالى فتحها علينا . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت عليهم، أوقدوا ناراً كثيرة فقال رسول الله ﷺ: « ما هذه النيران؟ » على أى شىء توقدون؟ قالوا: على لحم. قال: «على أى لحم؟ » قالوا: لحم حمر إنسية. فقال رسول الله ﷺ:أهرقوها واكسروا الدنان، فقال رجل: أونهريقها ونغسلها؟ قال:« أو ذاك » . رواه الشيخان والبيهقى (٢).

وتجاوز المسلمون ذاتهم وجوعهم وفاقتهم. وأهرقوا بالقدور وهى تفور بالطعام.

إنه جيل الحديبية الذى يتعرض الآن لأقسى تربية ،ويحال بينه وبين الطعام النضيج والشواء الساخن واللحم الشهى. فلا تسجل الروايات مخالفة واحدة من هؤلاء استجابة لأمر الله ورسوله،أو نهشة واحدة من هذا اللحم. وقد نهى رسول الله ﷺ. فقد كان يمكن أن تكون التربية. منذ أن غُنِمت الحمر. فالنهى أخف، وضبط الشهوة أيسر، واحتمال الطاعة أقوى. لكنه الأمر بَعد الذبح والسلخ والتقطيع والشواء بعد هذا كله، وفى أعلى لحظات الجوع، وأشد عرامة الشهوة يأتى الأمر النبوى .

هذا الجيل الذى يعد ليكون معلم البشرية وقائدها لابد أن يربى هذه التربية. فستفتح أمامه كنوز الأرض كلها، وما لم يتعلم العفة فى المطعم، والعفة فى المشرب، والعفة فى المغنم، فستكون هذه الكنوز لقمة سائغة لقواده، وسلاطينه، وسوف يزداد المحرومون حرمانًا. والمتخمون تخمًا وطغيانًا. فلابد إذن من تربية هذه المئات لتحسن قيادة الأجيال من جديد . وما قيل عن الطعام يقال عن الشراب كذلك. الشراب الذى تقوم حياة العرب به وهو الخمر .

(ووجدوا فيه من خوابى السكر فأمروا فكسروها. فكانوا يكسرونها حتى سال السكَرُ فى الحصن . والخوابى كبار لا يطاق حملها . . . وعمد يومئذ رجل من المسلمين فشرب من الخمر،فرفع إلى النبى ﷺ فكرِه حين رُفع إليه. فخفقه بنعليه، ومن حضر فخفقوه بنعالهم، وكان يقال له عبد الله الخمار . وكان رجلاً لا يصبر على الشراب قد ضربه رسول الله ﷺ مراراً، فقال عمر بن الخطاب:اللهم العنه ما أكثر ما يضرب. فقال رسول الله ﷺ: « لا تفعل يا عمر، فإنه يحب الله ورسوله » قال: ثم راح عبد الله

(١،٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/ ٢٠٣ .

فجلس معهم كأنه أحدهم).

هذا الخمر الذى يمثل جزءًا هامًا من ديوان العرب، ويمثل أهم شىء فى حياة العربى الجاهلى، وها هو الآن معروض أمامهم بالدنان المعتَّقة،وقد حفظته الأمة المعزولة الملعونة التى تركت الحفاظ على التوراة ،وتركتها ألعوبة بيد المتاجرين والمقامرين بالدين، وهى عزها وشرفها وسر اصطفائها. وحفظت الخمر فى الخوابى الكبار، والدنان المعتقة، وقد يكون محرمًا عليهم فى شريعتهم. ولا شك أنه من الخبائث التى إن لم تحرم، فلابد أن تكره فى شريعة الله .

هؤلاء بنو إسرائيل الذين انتهى كل أحبارهم ،وزعمائهم فى خيبر، يعشقون الخمر ويحافظون عليه، ويشترون العرب الأميين الجاهليين بهذا الخمر المعتق، حقَّ أن تنزل عليهم لعنة الله .

بينما نرى الأمة الفتية الجديدة القوامة على البشرية، نرى طلائعها وقياداتها تعمد إلى خوابى الخمر فتكسرها ،وإلى الخمر فتريقه حتى ليسيل الحصن به. وقد جُبل دمها به، حيث نشأت عليه، وتغذت فيه. لكن غذاء هذا الدين فى الأرواح والنفوس، جعلها تقىء أم الخبائث من كيانها، منذ أن صدر النداء الأول بعد أحد بتحريمها.

واجتنبه المسلمون وأصبح رجسًا لا يقرب كما أمرهم الله .

وسجل التاريخ مخالفة واحدة لعبد الله الخمار الذى لم يملك نفسه فشرب وأسرف، ورُفع أمره إلى القائد الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو من أهل الحديبية فلم يكُف عنه؛ لأنه من علية القوم وقيادتهم. بل كانت العقوبة مباشرة بأشد ما تكون العقوبة إهانة وضعة، بالخفق بالنعال، وسارع المسلمون يخفقونه بنعالهم، حيث غدا رجسًا كالخمر عندهم. حتى أن عمر رضي الله عنه لا يتمالك فيلعنه فى حماس هذا الخفق بالنعال .

ويقوم المربى الأعظم ﷺ بتدارك الأمر وتربية هذا الجيل على معنىً جديد عند ارتكاب هذه الكبائر. هذا المعنى أن الإهانة والإذلال والعقوبة للرجل حيث ارتكب المعصية، لكن لا يعنى هذا إنهاءه من المجتمع وتحطيمه. فهو فرد فى هذا المجتمع يحمل فى قلبه العامر حب الله ورسوله كما يحمله إخوانه من الجند ، والمعصية قد تمت العقوبة عليها لا ليخلع من المجتمع، بل ليصلح، وتكون العقوبة رادعًا له. فهو يحمل بين جنبيه حب الله ورسوله. وقد نال عقوبته، ولم يحل هذا الحب دون وقوع العقوبة أما وقد تمت؛ فهى طهور له من ذنبه. ولابد أن يعود فردًا مؤمنًا فى الصف الإسلامى، ولا تلغى العقوبة حقه فى الانتماء «لا تفعل يا عمر ، فإنه يحب الله ورسوله » ثم راح

عبد الله فجلس معهم كأنه أحدهم .

هذا (وقد روى البخارى عن طريق زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كان رجل يسمى عبد الله ويلقب « حماراً »[1] ،وكان يضحك رسول الله ﷺ الحديث ،وفيه أنه ﷺ قال: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله.

وذكر الواقدى أن القصبة وقعت له فى غزاة خيبر، وروى أبو يعلى من وجه آخر عن زيد بن أسلم. بهذا الإسناد أنه كان يهدى لرسول الله ﷺ العكة من السمن أو العسل ثم يجىء بصاحبها فيقول اعطه الثمن. . . وروى أبو بكر المروزى فى مسند أبى بكر له من طريق زيد بن أسلم أن عبد الله المعروف بحمار شرب فى عهد عمر فأمر به عمر الزبير وعثمان فجلداه) [2].

ولعله قد أكرمه الله تعالى أن يكون من أهل الحديبية، وهو فى طبيعته أقرب إلى السذاجة والعفوية المفرطة،وعاش فى هذا المجتمع محبوبًا ؛لأنه يحب الله ورسوله وفى رواية : « يحبه الله ورسوله » . وكان يطهر بالعقوبة مع كل مرة يعاقر فيها الشراب.

وكانت التجربة الثالثة لفتيان أسلم الذين بلغ بهم الجوع والفاقة أن يبعثوا لرسول الله ﷺ يطلبون منه الطعام ـ كما ذكرنا من قبل .

فقد روى ابن إسحاق عن بعضٍ من أسلم،ومحمد بن عمر عن معتِّب الأسلمى رضي الله عنه واللفظ له، قال: أصابتنا معشر أسلم مجاعة حين قدمنا خيبر، وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا نفتح شيئًا فيه طعام، فأجمعت أسلم أن أرسلوا أسماء ابن حارثة فقالوا: ائت رسول الله ﷺ فقل له: إن أسلم يقرئوك السلام ويقولون: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف . . . فادع الله لنا . فدعا لهم رسول الله ﷺ ثم قال: « والله ما بيدى ما أقويهم به، قد علمت حالهم، وأنهم ليست لهم قوة » ، ثم قال: «اللهم فافتح عليهم أعظم حصن فيها، أكثرها طعامًا، وأكثرها ودَكًا » .

حزب الله الموزع بين المهاجرين والأنصار، كانت أسلم فيه ثمن المهاجرين، وهذا الثمن يقولون: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف ،وليس الطلب تهديداً بالانسحاب من المعركة، أو الدعوة إلى ثورة شعبية كثورة البروتبلاريا التى أقامت الشيوعية بناء عقيدتها عليها ، بأن المعارك فى التاريخ والحروب والثورات هى حروب ومعارك من أجل الطعام ولقمة الخبز ، وهى حروب طبقية ، فماذا يقولون عن هذه المطالبة عند خيرة أهل

---

(١) ذكره الواقدى أنه الخمار، والصحيح ما ورد هنا، ولعل التصحيف من الطابع لا من الواقدى.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٢/ ٣٥ ت ١٨٠٩ .

الأرض، وقد مرَّ عليهم عشرة أيام بلا طعام .

لقد كان التهديد الخطير الذى قدموه ،والمطالب الثورية التى طرحوها :

(فادع الله لنا)؟

وتمت تلبية المطالب الثورية على الفور . وتنقل لنا إحدى عضوات الوفد الإسلامى الخالد نتائج هذه الثورة الشعبية،فتقول أم مطاع الأسلمية:(لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ما شكوا من شدة الحال. فندب رسول الله ﷺ الناس فنهضوا. . .).

والمفروض على ضوء هذه المطالب، وخوفًا من نتائج انتشار هذه الثورة أن يُعفى الأسلميون من الاشتراك فى الحرب والمواجهة لضعفهم وفاقتهم. فماذا تقول وزيرة الإعلام الأسلمية:

(فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ) .

فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتح الله تعالى ، وما بخيبر أكثر طعامًا وودكاً منه، وكان عليه قتال شديد ،وفى أقل من أربع وعشرين ساعة تمت تلبية المطالب من السماء من رب العالمين لهذا الحزب، وفتح الله أعظم الحصون طعامًا وودكًا .

٤ ـ التربية عن شهوة الغنيمة:

هذا الجيل الصابر على الجوع. وقد فتحت أمامه كنوز الأمة المعزولة وخيراتها، كيف يتصرف مع هذه الكنوز؟ ليكون معدًا فيما بعد لاستلام كنوز أمم الأرض .

أمَّا هذه الكنوز فهى (. . . . . فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك من الشعير والزيت والسمن والعسل والتمر ، والودك ، ونادى منادى رسول الله ﷺ : « كلوا، واعلفوا، ولا تحملوا » يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم. فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مُقامهم : طعامهم وعلف دوابهم، لا يُمنع أحدهم أن يأخذ حاجته، ولا يخمَّسُ الطعام، ووجدوا فيه من البز والآنية، ووجدوا خوابى السكر، فأُمروا فكسروها فكانوا يكسرونها حتى سال السكَرُ فى الحصن، والخوابى كبار لا يطاق حملها .

هذا أول عرض لهذه الكنوز على لسان جابر بن عبد الله الأنصارى ـ رضى الله عنهما ـ أما العرض الثانى فكان على لسان أبى ثعلبة الخشنى رضي الله عنه:

وجدنا فيه آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب. فسألنا رسول الله ﷺ فقال:« اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا » وقال: « أسخنوا فيها الماء ، ثم

اطبخوا بعد وكلوا واشربوا » ، وأخرجنا منها غنمًا كثيرًا وبقرًا وحُمُرًا وأخرجنا منه آلة كثيرة للحرب ومنجنيقًا ودبابات عدة. فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهرًا، فعجَّل الله خزيهم .

ونستمع إلى العرض الثالث عن هذه الكنوز من جعفر أبى عبد الحميد قال: لقد خَرجَ من أُطُمِ الصعب بن معاذ من البز عشرون عِكمًا[1] محزومة من غليظ متاع اليمن، وألف وخمسمائة قطيفة. يقال قدم كل رجل بقطيفة على أهله، ووجدوا عشرة أحمال خشب، وخوابى سكَر كُسِرت . وزِقاق خمر فأُهريقت).

والعرض الرابع لهذه الكنوز من أم عمارة الأنصارية المازنية ـ رضى الله عنها ـ:

(لقد وجدنا فى حصن الصعب بن معاذ من الطعام ما كنت أظنه ألا يكون بخيبر، جعل المسلمون يأكلون مُقامهم شهرًا وأكثر من ذلك الحصن، فيعلفون دوابهم، ما يُمنع أحدهم، ولم يكن فيه خُمس. وأُخرِج من البزوز[2] شىء كثير يباع فى المقسم. ووجد فيه خرز من خرز اليهود ، فقيل لها: من الذى يشترى ذلك فى المقسم. قالت: المسلمون واليهود الذين كانوا فى الكتيبة فآمنوا ومن حضر من الأعراب ،فكل هؤلاء يشترى: فأما من يشترى من المسلمين فإنما يحاسب مما يصيبه من المغنم) .

هذه الكنوز الذى فتحت على المسلمين من الطعام والشراب والكساء والمركب. كان يمكن أن تفتك بالجيش كله من أجل الصراع عليها ومحاولة احتيازها، ولقد رأينا القرآن الكريم. يتحدث عن هذا الجيل قبل أن ينضج وتتم تربيته فى بدر يوم ساءت أخلاقهم فى بدر حول الغنائم فيقول لهم رب العزة معاتبًا: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[3] فيهددهم بزوال إيمانهم لو استحكم الخلاف فى قلوبهم من أجل الأنفال والغنائم .

ورأينا القرآن الكريم يتحدث عن هذا الجيل فى أحد يوم انتزع منه النصر؛ لأنه أحب الدنيا وضعف عند الغنائم .

﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[4] .

---

(١) العكم: هنا بمعنى عشرون حزمة فالعكم ما يحزم به .

(٢) البزوز: جمع بز وهو القماش .

(٣) الأنفال / ١.

(٤) آل عمران / ١٥٢.

وها هم الآن. وقد بلغوا قمة النضج يعدهم الله مغانم كثيرة يأخذونها ، وما هى إلا أيام قلائل ،وفى أقل من شهر إلا وكانت هذه الغنائم الكثيرة تفتح على المسلمين بعد جهد وضنك وفاقة وبؤس :

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) .

أما بالنسبة للطعام. فقد ترك على ما هو عليه دون تخميس ، وصدر الأمر :« كلوا واعلفوا ولا تحملوا » .

وبقى الأمر شهرًا كاملاً وأكثر،والمسلمون يأكلون من شهى الطعام ولذيذه حاجتهم، دون أن يمنع عن أحد، ولو كان فى غير هذه الأمة الراشدة لانتهت فى يوم واحد فى محاولة لكنزه والاستئثار فيه ، لكن القرار النبوى والأمر النبوى نهى عن الحمل خارج ساحة المعركة للبيوت أو غيرها، سواءً كان طعام الإنسان أو طعام الدواب، وأما غير الطعام فكله لا يمس ؛ لأنه لابد أن يخمَّس .

وفى جرد شامل كامل لمعرفة آثار هذا الأمر النبوى العظيم مع هذا الجيل الرائد القائد يعرض بين يدينا ثلاث مخالفات تم تسجيلها فى هذا الجيش العظيم.

المخالفة الأولى: جراب الشحم: وهو داخل فى إطار الطعام الذى لا يخمس، يحدثنا عنه عبد الله بن مغفل المزنى رضي الله عنه قال:

(كنا محاصرى خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فإذا النبى ﷺ فاستحييت) .

لقد أخذه الحياء من رسول الله ﷺ وهو يريد أخذه وينازع عليه، ورسول الله ﷺ يتبسم له. وكان هذا قبل الفتح، حيث لا يوجد طعام إطلاقًا. ومع ذلك فلم يسلم له كما فى رواية ابن إسحاق التى تعرض لنا تتمة الخبر. ولعل جراب الشحم الأول الذى استحيا منه غير الجراب الثانى الذى أصابه من الفيء .

والغالب أنه ترك الأول استحياءً من رسول الله ﷺ. أما بعد الفتح فقد أخذه.

(فلقينى صاحب المغانم الذى جُعل عليها. فأخذ بناحيته وقال: هلم هذا نقسمه بين المسلمين. قال قلت: والله لا أعطيكه. قال: فجعل يجابذنى الجراب. فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك. قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا ثم قال لصاحب الغنائم:« لا أبا لك خلٍّ بينه وبينه » .

---

(١) الفتح / ٢٠ .

وذلك انسجامًا مع عدم تخميس الطعام ، بينما يرى صاحب الغنائم أن هذا الجراب الكبير من الشحم لابد أن يحمل بعضه ولن يستطيع المزنى أكله كله، ورسوله الله ﷺ، يضحك لهذين الجنديين العظيمين أحدهما ينازع على جراب شحم حمله، وتعب فيه ليأكله بعد صبر مضن على الجوع والفاقة، والآخر يحرص على ضمه للغنيمة ، وتوزيعه بين المسلمين، ويصدر حكمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو سعيد بهذا المستوى من الجندية. قائلاً لصاحب الغنائم : « لا أبالك خلِّ بينه وبينه » . وتم الأمر، لكن لا ليمضى المزنى يأكل أو يخبئ فى رحله ليكفيه طعام الشهر كله. إنما مضى بالروح الجماعية المسؤولة التى تحمل جراب الشحم ،وتنهك جسدها فيه ليكون طعامًا لإخوانه معه، وليس أنانية قاتلة خاصة به (فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى فأكلناه) .

وهذه فى الحقيقة لا تدخل ضمن إطار المخالفات. طالما أن الأمر العام بعدم تخميس الطعام .

المخالفة الثانية: وكانت لمولى رسول الله ﷺ ، مدعم الأسود .

أما مِدعمُ هذا فليس من أهل الحديبية. إنما انضم إلى الجيش المسلم بين الحديبية وخيبر، كما يذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة .

(قال ابن إسحاق فى المغازى: وقدم على رسول الله ﷺ فى هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجذامى ثم الضبيبى فأسلم، وحسن إسلامه، وأهدى إلى رسول الله ﷺ غلامًا. وروى ابن مندة عن . . . زياد بن سعد أراه ذكره عن أبيه أن رفاعة بن زيد قدم فى عشرة من قومه الحديث، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى قصة خيبر ،فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلامًا أسود يقال له مدعم. فذكر القصة فى الغلول)(١) .

هذا العبد الأسود مدعم، والوافد بعد الحديبية، وقد غدا من خاصة رسول الله ﷺ . يقص علينا ابن إسحاق قصته عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: فلما انصرفنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادى القرى نزلنا بها أصيلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلام له أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى ثم الضبيبى . قال: فوالله إنه ليضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرْب (٢) فأصابه فقتله. فقلنا: هنيئًا له الجنة فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر ١/ ٢/ ٢١٠ ت ٦٦١ .
(٢) سهم غرب: هو الذى لا يعلم من رماه .

« كلا والذى نفسى بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه فى النار، كان غلَّها من فىء المسلمين يوم خيبر »(١) .

وفى رواية البخارى: « إن الشملة التى أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا » (٢) .

وهى شملة واحدة نقلته من أن يكون من أهل الجنة. وهو من خاصة رسول الله ﷺ ليكون من أهل النار وقد أخاف هذا الأمر المسلمين جميعًا ، وذلك فى الأمور الزهيدة الحقيرة التى لا تساوى شيئًا .

(فسمعها رجل من أصحاب النبى ﷺ فأتاه فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لى قال: « يُقدُّ لك مثلهما من النار» .

فرماهما فى الغنائم هربًا من فحيح جهنم وسعيرها .

وذاك فروة بن عمرو البياضى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد حمَّله رسول الله ﷺ مسؤولية الغنائم كلها ماذا حاز لنفسه. وما هى مهمته الشاقة ؟ يحدثنا عنها الواقدى فيقول:

(واستعمل رسول الله ﷺ على الغنائم يوم خيبر فروة بن عمرو البياضى).

وفروة هذا من الرعيل الأول ومن السابقين الأولين شهد العقبة وبدرًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ (٣) .

وكان قد جمع ما غنم المسلمون فى حصون النطاة وحصون الشّق، وحصون الكتيبة، لم يترك على أحد من أهل الكتيبة إلا ثوبًا على ظهره من الرجال والنساء والصبيان، وجمعوا أثاثًا كثيرًا وبزًا وقطائف وسلاحًا كثيرًا، وغنمًا وبقرًا وطعامًا وأدْمًا كثيرًا. فأما الطعام والأدْم (٤)والعلف فلم يخمس، يأخذ منه الناس حاجتهم. وكان من احتاج إلى سلاح يقاتل به أخذه من صاحب المغنم، حتى فتح الله عليهم فرد ذلك فى المغنم، فلما اجتمع ذلك كله أمر به رسول الله ﷺ فجزّئ خمسة أجزاء وكتب فى سهم منها « الله » وسائر السهمان أغفال. فكان أول ما خرج سهم النبى ﷺ لم يُتخير من الأخماس. ثم أمر رسول الله ﷺ ببيع الأربعة الأخماس فيمن يريد. فجعل فروة يبيعها فيمن يريد فدعا فيها النبى ﷺ بالبركة. وقال: « اللهم ألق عليها النفاق »(٥) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٧٢ . (٢) فتح البارى ٧ / ٤٨٧ ، ٤٨٨ برقم (٤٢٣٤) .
(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر ٣ /٥/ ٢٠٦ ت ٦٩٧١ .
(٤) الأدْم: ما يؤتدم به وما يسمى عندنا بالإدام أى ما يؤكل مع الخبز من الطعام .
(٥) النفاق: التيسير والسرعة فى البيع والنماء فى الربح .

قال فروة بن عمرو: فلقد رأيت الناس يتداركون علىَّ ويتواثبون حتى نفق فى يومين ، ولقد كنت أرى أنا لا نتخلَّص منه حينًا لكثرته .... ونادى رسول الله ﷺ: « أدوا الخيط والمِخيط فإن الغلول عار وشنار ونار يوم القيامة » .

فباع يومئذ فروةُ المتاع فأخذ عصابة فعصب بها رأسه ليستظل بها من الشمس. ثم رجع إلى منزله وهى عليه، فذكر فخرج فطرحها، وأَخْبر بها رسول الله ﷺ فقال: «عصابةٍ من نارٍ عصبت بها رأسك » .

فهذا هو وزير المالية وقد استعمل عصابة ليقى نفسه حر الشمس، وهو يعمل فى بيع الغنائم بعد أن عمل على حفظها وجبايتها. وينسى العصابة على رأسه . فيسارع ويرميها فى المغانم ،ويخبر عنها المصطفى الحبيب ﷺ. فلا يكون الجواب، أنا سنعطيك أمثال أمثالها، إنما كان الجواب :« عصابة من نار عصبت بها رأسك » .

وأدرك هذا الجيل مفهوم الحلال والحرام فى الغنائم، وأدرك أن الغلول وهو أخذ شىء من الغنائم قبل أن تُفرز أو تقسم إنما العار والشنار فى الدنيا، والنار يوم القيامة. وحتى رسول الله ﷺ لا يحل له ذلك قبل أن تقسم .

(وسأل رجل رسول الله ﷺ يومئذ من الفىء شيئًا. فقال رسول الله ﷺ: « لا يحل لى من الفىء خيط ولا مخيط [1]، لا آخذ ولا أعطى » فسأله رجل عقالاً[2] فقال رسول الله ﷺ: حتى تقسَّم الغنائم ثم أعطيك عِقالاً وإن شئت مِرارًا [3] ») [4] .

المخالفة الثالثة : وحين لم يكن بعض أفراد هذا الجيل يفقهون هذا الحكم، فقد جاء كل رجل بأى شىء أخذه فوضعه فى الغنائم بعد النداء: أدوا الخيط والمخيط، وأما بعد فقه الحكم فالصورة تختلف، والمخالفة كبيرة مهما كان شأن الغلول ضئيلاً وتافهًا كما روى البيهقى فى دلائله عن زيد بن خالد الجهنى .

(أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « صلوا على صاحبكم » فتغيرت وجوه الناس لذلك، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز اليهود لا يساوى درهمين) .

ولم يشفع له أنه تحت راية المصطفى ﷺ أن قائد الجيش محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه جندى مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لم يشفع له ذلك كله دون النار، حتى ليقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمسلمين « صلوا على

(1) المخيط: الإبرة .
(2) العقال: ما تربط به الدابة .
(3) المِرار: الحبل .
(4) المَغازى للواقدى ٢/ ٦٨٠ ، ٦٨١ .

صاحبكم ». ولا يصلى هو عليه. كما لم يشفع لمدعم قبله هذه الخصوصية.

إن التربية على هذه القيم فى مثل هذه المناسبات هى التى تنشئ الأمم وتبنى الرجال. فالقوامون على البشرية. والأمناء عليها لابد أن يكونوا طرازًا رفيعًا من البشر. وقد رأينا امبراطوريات تقوم وأخرى تندثر. تقوم كلها على أكل القوى للضعيف، وعلى أن تكون الغنمية الكبرى لأسد الغابة، ووحشها المفترس. بينما نحن نتعامل هنا مع إمام الأنبياء وخاتم الرسل وسيد ولد آدم الذى علَّم هذا الجيل أن الغَلُول نار وشنار وعار يوم القيامة. وهو لا يملك أن يُعطى عقالاً أو حبلاً قبل أن تُصبه المقاسم. وهو الذى قال لوزير ماليته فروة بن عمرو البياضى، وقد اعتجر بقطعة قماش ونسيها على رأسه ،وهو يوزع المغانم ويبيعها قال له: «عصابة من نار عصبت بها رأسك» .

وحين نشهد الحساب على الخرز الذى لا يساوى درهمين ،وعلى الشملة التى أخذت من آلاف الأثواب والبز ،حين نشهد الحساب هذا كله، نعرف كيف حُفظت الغنائم كلها، ثم وُزعت على المسلمين بعد ذلك. وبيع بعضها الآخر .

٥ ـ الجنة :

ومقابل هذين النموذجين مدعم الذى غلَّ الشملة، والرجل الذى غلَّ الخرز يطالعنا نموذجان آخران:

أ ـ الأعرابى : أحدهما هذا الأعرابى الذى قصَّ علينا قصته شداد بن الهادر رضي الله عنه الذى قال: (أن رجلاً من الأعراب جاء النبى ﷺ فآمن واتبعه. فقال: أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه) .

فقد كانت مسؤولية فقهه وتربيته على أحد أصحاب النبى ﷺ. وقدَّر الله له أن يكون جنديًا فى خيبر وعلى الأرجح أنه انضم بعد الحديبية، ولم يكن يدرك من الدنيا إلا الجنة التى سمع بها من رسول الله ﷺ ،فقد اختار وهو فى الصف الإسلامى أن يتابع حياة الصحراء. فيرعى ظهر المسلمين كما كان يرعى فى الجاهلية. ولم تقدَّر له الشهادة ابتداءً. فلما كانت غزوة خيبر ،غنم رسول الله ﷺ فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له. إنه وهو الأعرابى الممعن فى بداوته لم يغب عن ذهن المربى الأعظم ﷺ. وليس هو من خاصة أصحابه فلم ينس ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقسم له شيئاً من المغانم ، وحين لم يجده. فاحتفظ بها أصحابه ليعطوه إياها حين يعود من رعى الإبل. وجاء ذلك الأعرابى الذى يناجى السماء ويحلم بالجنة التى حدثه عنها النبى ﷺ.

فسارع أصحابه يعطونه ما قسَمَ رسول الله ﷺ له. إنه عطاء نبوى خالص. لكن

هذا القلب الخالى من التعقيد الصافى صفاء أديم السماء. لم يستسغ هذه الغنيمة. ليس استصغارًا لشأنها ؛ بل لأن موعوده هو الجنة ، فما له وهذه اللوثة من الغنائم التى تفسد عليه أحلامه؟! فأخذه فجاء به النبىَّ ﷺ. فقال: ما هذا يا محمد؟ فلم يُصقل بعد من بداوته وجفائه حين ينادى الرسول الله ﷺ باسمه. فقال: « قسْمٌ قسمته لك » .

ورأى الأعرابى ابن البادية أنَّ هذا القَسْم لا يتناسب مع الموعود الأبدى . فقال : (ما على هذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى ها هنا وأشار إلى حلقه، بسهم فأدخل الجنة) فقال: « إن تصدق الله يصدُقك » .

وما هى إلا لحظات ونشبت المعركة. فلم يمض إلى رعى ظهره، ومضى كالسهم طمعًا فى السهم الذى يغرز فى حلقه. فيدخل الجنة كما حدَّثه الصادق المصدوق صلوات الله عليه. ورأى السهم قادما من بعيد إلى حلقه. فإذا الحلم حقيقة. والأمنية شهادة، والموعود الجنة .

ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار. فقال النبى ﷺ: « هو هو؟ » قال: نعم. قال: « صدق الله فصدقه » فكفنه النبى ﷺ ثم قدَّمه وصلى عليه. فكان مما ظهر من صلاته: « اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجرًا فى سبيلك قتل شهيدًا وأنا عليه شهيد » .

وكان هذا الوسام من أرفع أوسمة الأرض لأعرابى قد جهل التاريخ اسمه، وهو علم عند ربه، ونال أرفع أوسمة السماء ،الهجرة والشهادة. كما أعلن ذلك المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام .

كان هذا مقابل ذلك الرجل الذى لم تعف نفسه عن خرزات لا تساوى درهمين فقال ﷺ: «صلوا على صاحبكم » وهو جندى فى الصف. بينما رأينا هذا الأعرابى الوافد لأيام قلائل فقط يعيد حقه الذى قسمه له ﷺ ؛ لأنه يراه إخلالاً بشرط الجنة، وينتظر السهم الذى شارط ربه عليه فى حلقه ليدخل به الجنة ـ وكان له ما شرط ـ وشهد الجيل الرائد هذين النموذجين كيف كان الحساب الختامى لهما ، وأدرك طريق الجنة والنار من أبسط النماذج البشرية ، وهم يعرفون دربهم الطويل اللاحب الذى يختلف فيه الحساب عن هذين النموذجين بنموذج الصاحب القائد الذى لابد أن يكون فى نفسه أكبر من شهوة الحطام الفانى، فيدخل النار لخرزات يغلها. ونموذج الجندى الذى يختصر طريق الحياة كله بسهم فى حلقه ينقله إلى الجنة .

ب ـ وأعرابى آخر: يرى أن لا حق له فى صفحة هذا الوجود، ولا يعترف له بحق

الحياة فى هذا المجتمع الجاهلى الذى يقدس الأنساب ولا يعترف إلا على الزعامات، ولعله عبد من عبيد هؤلاء الأعراب يحدثنا عنه أنس رضي الله عنه فيقول: (أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنى رجل أسود اللون، قبيح الوجه منتن الريح لا مال لى ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟) ويتساءل هذا السؤال؛ لأنه لا يرى إلا لفح الحر فى هذه الصحراء ولسع البرد . . . والمعيشة بين وحوشها البشرية، والوحشية. فلا الجمال يرفعه ولا المال يسوِّده ولا اللون يغرى عنده فيجد قلبًا يحبه. إنه لا يملك شيئًا من هذا يستطيع أن يطمع به ليأخذ موقعه فى هذه الحياة. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « نعم » .

فهذه المقومات كلها لا وجود لها فى ميزان الله، فلا فضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى أو العمل الصالح. وهو الأعرابى يسمع عن الجنة والشهادة والموت، فيسأل إن كان يحق له أن يموت كما يموت هؤلاء السادة فيدخل الجنة. ويأتيه جواب رسول رب العالمين الموفد من خالق السموات والأرض بالإيجاب .

(فتقدم فقاتل حتى قُتل) .

فأتى عليه النبى ﷺ وهو مقتول فقال: « لقد أحسن الله وجهك، وطيَّب ريحك وكثَّر مالك » .

وقال لهذا أو لغيره: « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تنازعانه جبته عنه يدخلان فيما بين جلده وجبته ».

العبد الحبشى : والذى ينقل لنا قصته عروة بن الزبير ـ رضى الله عنهما ، فيقول:

(. . . وجاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى. فوقع فى نفسه ذكر النبى ﷺ فأقبل بغنمه حيث عهد لرسول الله ﷺ. فلما جاءه قال: ماذا تقول وماذا تدعوا إليه؟) .

قال: « أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى محمد رسول الله، وألا نعبد إلا الله » قال العبد: فما لى إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: « لك الجنة إن مِتَّ على ذلك » فأسلم .

ما الجديد الذى حدا بهذا العبد الحبشى أن يسلم؟ وهو يسمع من اليهود شهادة أن لا إله إلا الله. ويسمع بالنبوات والرسالات. لكنه من المحظور عليه أن يفقه أو يسأل. فالدين لبنى إسرائيل ، لشعب الله المختار. أما غيرهم فأميون أو أمميون ليسوا أهلاً لمثل

هذه الأمور، والله خاص بهم ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ فلم تكن لمثل هذه الأمور أن تحرك موات قلبه، أو تهز أوتار نفسه المقطعة. وقدره أن يكون عبدًا يعمل للقمة خبزه حتى يموت على ذلك . فلما سمع بكلمة النبى اعشوشب قلبه من جديد وانبعث موات نفسه. فهذا النبى الذى يكذبه اليهود هو رسول رب العالمين، وليس الأحبار هم المتكلمون باسمه وعنه عن ربه فلم لا يلقاه. وأمضى ليلة لا يجد النوم إلى عينيه سبيلاً. يريد أن يلقى هذا النبى مع انبلاج الفجر، حيث يسرح بغنمه، وبإمكانه أن يغادر وهو خارج الحصن إلى معسكر المسلمين أو يخرج من الحصن فى غفلة عن أهله فهم لا يشكون فيه. وليس هدفًا ثمينًا يحرص عليه .

وتحقق حلم الليل الذى أرَّقَه وها هو بين يدى رسول رب العالمين يسأله عن الدين، والشهادة والجنة. وانسكب كلام المصطفى ﷺ فى قلبه انسكاب الغيث فى الأرض الظمأى. بينما كان قلبه قاحلاً. من قبل مع كلام يهود لا يحس به إلا الشوك والعلقم. وهو هنا إنسان مؤهل ليكون مؤمنًا وشريكاً مع المؤمنين. وليس كونه راعى غنم،أو كونه عبدًا حبشيًا يحظر عليه الانضمام لهذا الدين الجديد. وهو موضع عناية الله ورعايته وحبه إن أسلم فيدخله جنة عرضها السموات والأرض .

وولد العبد الحبشى فى هذا الوجود من جديد. فقد أحياه رسول رب العالمين. وأعلن إسلامه وخرج من الظلمات إلى النور فى لحظة سعادة حالمة لا يدرى هل هو فى حقيقة أو حلم .

ثم ماذا يفعل؟ وهذا الغنم كله أمانة بين يديه. ولا يحب أن يدخل فى هذا الدين. وله من هذه الدنيا شروى نقير. فالفرصة مواتية ليكون أثرى القوم بهذا الغنم. وليعرض أمره على رسول رب العالمين:

قال: يا نبى الله ،إن هذه الغنم عندى أمانة .

وفى رواية: فكيف بالغنم يا رسول الله ، فإنها أمانة وهى للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

ولو كان الأمر أمر كسب ومغنم وصيد. لكان ترغيبًا كبيراً له فى هذا الدين أن يقول له رسول رب العالمين: خذها فهى غنيمة مشركين وأموال كفار وملك يهود، وهى حلال لك ، أو اقسمها بيننا وبينك .

ولكن هذا الإسلام الخالد ، الذى يريد أن يبنى قيمًا تسود الأرض، لا بشرًا تأكلٍ العرض من الدنيا قليل ، ورسول رب العالمين الرحمة المهداة للبشرية، لا يقبل أن يُمَسَّ

هذا المعدن النفيس الذى يدرك معنى الأمانة فيلوثه بانتزاع هذا المعنى وهذه الفضيلة منه. ولا يريد أن تلوث سمعة هذا الجيل المرشح لقيادة البشرية بأن يستلب أمانة رجلٍ راع على غنم لخلق من خلق الله أياً كان هذا الخلق ،ورسول الله ﷺ الذى عرَّض ابن عمه علياً للخطر: بعد الهجرة فأبقاه فى مكة ثلاثة أيام يرد الأمانات إلى أهلها، ورسول الله ﷺ الذى رفض كل أموال المغيرة بن شعبة وجوائز أقربائه الثلاثة عشر الذين قتلهم؛ لأن هذا غدر ولا يحل الغدر فى دين الله،ورسول الله ﷺ الذى يربى هذا الجيل على الأمانة ، فلا يصلى على من استرق خرزات لا تساوى درهمين، ويبشر عبده مدعم بالنار ؛لأنه استرق شملة من الغنائم . رسول الله ﷺ الأمين على وحى الله، والوسيط بين الله تعالى وعبيده والمصطفى المختار من خلقه - يريد أن يكوِّن جيل الأمناء فى التاريخ. نمى هذه القيم فى نفس هذا العبد وزكاها، وقال له: « أخرجها من عسكرنا، وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك » ففعل. فرجعت الغنم إلى سيدها. وفى الرواية الثانية:

« احصب وجوهها ترجع إلى أهلها » فأخذ قبضة من حصباء ،أو تراب فرمى به وجوهها. فخرجت تشتد حتى دخلت كل شاة إلى أهلها .

لم يكن هذا العبد الحبشى أسيراً حتى يطبق عليه قانون الأسير والغنائم التى معه، إنما جاء باختياره ورغبته، فأدى أمانته كاملة ليدخل فى هذا الدين بصفحة ناصعة البياض أنقى من الغمام .

وكيف له بالجنة؟

فقام رسول الله ﷺ فوعظ الناس .

ولا شك أن من وعظه الحض على الجهاد فى سبيل الله، وما أعدَّ الله للشهداء فى سبيله ، والحض على قتال اليهود الذين وعد الله تعالى بهم أن يكونوا غنيمة للمسلمين .

(ثم تقدم إلى الصف فأصابه سهم فقتله، ولم يصلِّ لله سجدة قط) قال رسول الله ﷺ: « أدخلوه الخِباء » فهو المسلم ابن الساعتين أو أقل فى إسلامه .

(فأدخل خِباء رسول الله ﷺ) .

وكيف ينساه - عليه الصلاة والسلام - وقد رأى عظمة معدنه،وحرصه على الأمانة. وأعلن - عليه الصلاة والسلام - لجيشه الذى يحمل صفوة الخلق عنده، والذين أمضوا حياتهم كلها فى سبيل الله، أعلن لهم أن هذا ابن الساعتين قد وصل إلى ما

يحلمون بالوصول إليه بعد قطع الطريق اللاحب الطويل. لقد قطع الطريق كله فى لحظات:

« لقد حَسُن إسلام صاحبكم، لقد دخلت عليه وأن عنده لزوجتيه من الحور العين ». وفى الرواية الثانية: « لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، قد كان الإسلام من نفسه حقًا. وقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ».

وشهد الجيل الخالد هذه النماذج الثلاثة تساق إلى الجنة الأعرابيين والعبد الحبشى لليهودى .

وأدرك أن عملية البناء وعمليات الحرب تبقى أولاً وأخيرًا تهدف إلى إنقاذ الإنسان من الضلالة لا قتله على الضلالة، وقد يخرج من قلب هذا العدو الذى سيحاربونه فى أقصى المعمور من يزهر الإيمان فى قلبه. وينضم جنديًا فى الصف الإسلامى. فلابد أن تفتح أبواب الدعوة على مصاريعها للإنقاذ من الضلالة قبل القتل على الضلالة. وأن التعامل هو مع القلوب التى قد يعلوها الصدأ. فلابد من انتزاع هذا الصدأ عنها. ما أمكن السبيل إلى ذلك.

٥ ـ التربية عن شهوة الشهرة :

ويقابل هذه النماذج السابقة نموذج البطل الفذ الذى استرعى انتباه المسلمين بسيفه الصارم البتار يكاد لا يليق له شيء وكما يقول نص الحديث: (لا يدع شاذة ولا فاذة[١] إلا أتبعها يضربها بسيفه) ،وحقّق الهدف الأكبر الذى يرجوه من وراء هذه البطولة .

(فقال الناس: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان) .

والأصل أن يأتى الثناء النبوى على هذا المجاهد الذى لا يلقى من العدو أحدًا إلا قتله. لكن المسلمين جميعًا فوجئوا بقوله ﷺ: « أما إنه من أهل النار » .

وهل تنال الجنة بأعلى مما تنال بالجهاد فى سبيل الله .

وتتحدث الروايات عن أثر هذا الكلام الذى زلزل الصف المسلم :

فقالوا: أيُّنا من أهل الجنة إن كان من أهل النار ، وفى حديث أكثم بن أبى الجون الخزاعى عند الطبرانى، قال: قلنا: يا رسول الله فلان يُجزئ فى القتال قال: « هو فى النار» . قلنا: يا رسول الله إذا كان فلان فى عبادته واجتهاده ولين جانبه فى النار، فأين نحن؟ قال: « ذلك أخباث النفاق» . قال: فكنا نتحفظ عليه فى القتال) [٢].

---

(١) لا يدع شاذة ولا فاذة: قال ابن الأعرابى: يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعًا لا يلقاه أحد إلا قتله .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

ومن أجل هذا اهتم المسلمون بمصيره ، حين قام رجل من المسلمين ليتابعه ويرى سبب كونه من أهل النار ومكث المسلمون ينتظرون حل هذا اللغز المحير عن هذا البطل العظيم .

فقال رجل من القوم : أنا صاحبه ـ وفى رواية ابن أبى حازم ـ: لأتبعنه ، وهذا الرجل هو أكثم بن أبى الجون ، كما سيظهر من سياق حديثه .

(فخرج معه ،كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه).

ومتابعة الصحابة لهذا الرجل يعنى حرص هذا الجيل على فقه هذه النصوص وأبعادها ، ورسول الله ﷺ لم يحدِّث عن سبب كونه من أهل النار ، فهو جيل الوعى والبصيرة لكل شىء. وهو يتلقى من رسول رب العالمين .

(فجُرِح الرجل جرحاً شديداً) .

وماذا بعد جرحه ، فقد يسقط شهيداً ، ولا يدرى أكثم رضي الله عنه سِرَّ كونه من أهل النار . فهذه الجراح الشديدة تنزف وتوحى باقتراب أجله ، ولا تزال الجهالة مخيمة على ذهنه والقلق يسيطر على قلبه ، لم يكون هذا من أهل النار ؟! وهو أكثرهم قتالاً ، وأجرؤهم قلباً فلا يهاب شيئاً من العدو ، إلا وينقض عليه . ثم انكشفت الغمة ، وكُشف الغطاء .

(فاستعجل الموت . فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه) .

وفى حديث أكثم عند الطبرانى (أخذ سيفه فوضعه بين ثدييه ثم اتكأ عليه حتى خرج من ظهره) .

وحيث لم يقدم على هذا الأمر رجل من المسلمين ، ولاشك أن النهى عن قتل النفس مشهور ومنتشر بين المسلمين .

(فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سُماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً »)(١) .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم وهو فى مسلم ١/ ١٠٤ برقم (١٧٥) .

وما أن رأى أكثم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا المنظر الرهيب ، حتى مضى لقائده الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلن على الملأ والمسلمون ينتظرون ماعنده . فقال : (أشهد أنك رسول الله ! قال : « وما ذاك ؟ » قال : الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فقلت أنا لكم به ، فخرجت فى طلبه ، ثم جُرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه) .

وأدرك الصحابة جميعاً ، ومن خلال قتل الرجل نفسه أنه من أهل النار .

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل الجنة » .

وزاد فى حديث أكثم:« تدركه الشقاوة والسعادة عند خروج نفسه فيختم له بها » .

لقد عاش المسلمون هذه الحادثة بأعصابهم،وكان يمكن أن يكون القول نصاً نظرياً فيمن يعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وانتهى الأمر ولا يتابع أكثم الرجل ، ولا يدرى أحد أنه قتل نفسه ، ولكن هذه المفاهيم لابد أن ترسخ فى أعماق هذه القلوب ، وتصبح جزءاً من كيانهم وتكوينهم من خلال التربية العملية الحية التى تريهم الإسلام رأى عين ، وليس أقولا ونصوصاً نظرية للحفظ .

فكان هذا النموذج الحى بين ظهرانيهم شجاعة ، وجرأة ،وقوة ،وشكيمة وإقداماً، وعبادة ؛ فهو من خيرهم فيما يبدو لهم . واكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقول : «إنه من أهل النار » . فأعظم الناس ذلك . هذا القول ، هز كيانهم كله . فكيف يكون من أهل النار وهو العابد المجاهد ؟ (قلنا : يارسول الله ، إذا كان فلان فى عبادته واجتهاده ولين جانبه فى النار . فأين نحن ؟ قال : « ذلك من أخباث النفاق » . فكنا نتحفظ عليه فى القتال) .

والمنافق صاحب الدربة المتقن للنفاق ، قادر على أن يغطى كل خبث نفاقه ونتنه ، فى السلوك الخارجى الجيد والعبادة الشديدة . ولكن الأدهى والأمر أن يبرز مقاتلاً عنيداً لا يخشى الموت . . ولا يخافه ، فكيف يشك فيه. إن القتال هو محك الرجال ، ومحك الإيمان ، وكثير من العباد حين يقع القتال يتذرعون ويخافون ؛ لأن التضحية بالنفس هى أعلى آفاق الإسلام وذروة سنامه .

« أول الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

فحين تلتقى العبادة والجهاد ، ينتفى الشك فى الرجل أمام هذه المهام العظام ، ومع ذلك فهو عند رسول الله ﷺ الموحى إليه « من أهل النار » .

وإذا كان الوحى هو الذى يتلقاه المصطفى ﷺ من ربه عن طريق الأمين جبريل - عليه الصلاة والسلام ، فكيف يمكن أن تُدرك هذه الأمور بعد مرور القرون تلو القرون، إلا من خلال المعاينة الشخصية . فمنهج التربية هنا هو الذى حدا بالمسلمين وبمثلهم أكثم أن يمضى فيتابع الرجل إلى آخر لحظات حياته ، يسرع معه إن أسرع ويبطئ معه إن أبطأ ، حتى شهده فى اللحظات الأخيرة يقتل نفسه ، وجاء إلى إخوانه يقص عليهم الإدانة من خلال المعاينة ، بعد أن كانت الإدانة من نور النبوة ، وأدرك هذا الجيل مسؤولية خطيرة تقع على عاتقه أن يدرك أبعاد الرجال ، بعد مضى الوحى ، وأن يبحث عن أهل الشك فيراقبهم مراقبة دقيقة لينفى هذا الشك أو يثبته . فليس لدى قيادات المسلمين بعد ذلك وحى ينطلقون منه ، ولا يملكون إلا الحكم الظاهر ، لكن تربية القيادات العليا ، لا يكفيها أن تتعامل مع ظاهر جنودها فقط ، فلابد أن تسبر غورهم ، وتضعهم على محك التجارب والمواجهة ، ومن كان منهم موضع تهمة أو شك ، فتتابعه حتى تزيح هذا الشك وتنفيه أو تثبته . فالجيش الإسلامى فيما بعد معرض لدخول كثير من الجواسيس فيه ، وهؤلاء يتظاهرون بأكبر مسحة من العبادة والجهاد لتغطية دورهم الرهيب . والقيادة الواعية اليقظة لا تدع الأمر جزافاً ، فيخترق الجيش كله ، وتحيق الهزيمة به بحجة التعامل مع الظاهر فقط . إنما هى بحاجة إلى مراقبة أدق الأقوال ، وأدنى التصرفات تكون دليلاً على الرجل كله .

ولعل هـذا الرجـل برز فجأة فى تقاه وعبادته وجهاده ، فاستولى على القلوب بذلك . ودليل هذا الأمر عدم ذكر اسمه والصحابة يعرفون بعضهم تمام المعرفة. إنما هو وافد جديد بعد الحديبية ، برز بهذه المواصفات ، لأن أهل الحديبية قد شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، وهذا لا يعنى إصدار حكم قاطع على كل وافد جديد بالشك والريبة . فهذا الأعرابى الذى انضم للصف المسلم ، والعبد الحبشى ،مثلا صورة صدق العقيدة ، وعمق الإيمان فى القلب فكانا من أهل الجنة ، بينما شهدنا مِدْعم الوافد الجديد المُهدى من رفاعة بن زيد الجذامى ، وهذا الذى لا يدع شاذة ولا فاذة إلا ضربها بسيفه ينتهيان من أهل النار ، فيمن غل الشملة وفيمن قتل نفسه .

والمعنى الآخر الذى يود إمام القادة والمربين أن يغرسه فى نفوس أصحابه ، وهو البعد عن شهوة الشهرة ، وفطم النفوس عنها حتى الموت ، فلا يعرف المرء بم يُختم ، فيبقى خوف الله تعالى من هذه الخاتمة هو الذى يسيطر على قلبه ، ويرجو ربه حسن

الخاتمة ،ويتعوذ بالله من لحظات إعجابه بالذات، قد يكون مصرعه فى النار من خلالها، لحظات إعجاب بالشجاعة أو البلاغة أو العبادة فينتهى عابداً لذاته أو داعية لها بعد أن كان عابداً لله ، وداعية إلى الله ـ جل شأنه، وعموم النص لا يستثنى أحداً من ذلك :

« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل النار».

وكذلك الصورة المقابلة « وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل الجنة » .

والمسلمون بحاجة إلى ترسيخ هذه المفاهيم عملياً فى أعماقهم ، بعد أن حيل بينهم وبين فتح مكة ، لاحتمالات دخول قيادات الأعداء فى رحمة الله كما علمهم ذلك النص نظرياً فى آيات سورة الفتح : ﴿ .. **لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** .. ﴾ .

ففى الآيات نفسها التى أعلمهم فيها بتعجيل الغنائم وحكمة ذلك ، أعلمهم حكمة تأخير فتح مكة عليهم :

﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[1] .

وهذه المرحلة القادمة ، مرحلة الفتح المبين بعد الحديبية هى التى تحمل فى ثناياها زلازل كبرى فى الأرض العربية،وتغييرات جذرية فى طبيعة العدو وطبيعة المعركة ، وتهيئ هذه النفوس لتلقى مثل هذا الانقلاب الضخم فى هذه الأرض، وذلك من خلال هذه النماذج الحية التى برزت بين أيديهم فى أهل الجنة ،وأهل النار الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بذلك .

إنه إعداد وتهيئة لتصغر فى أذهان المسلمين قضية الانتصار العسكرى فى المعركة « فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ،والفاجر هنا : بمعنى الكافر؛ لأنه لا يدخل الجنة مشرك .

ففى الرواية الثانية للحديث بعد أن قتل نفسه ذلك الرجل فقال :

« قم يافلان فأذِّن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وأن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر » .

---

(١) الفتح / ٢٤ ، ٢٥ .

وتكبر قضية انتصار الإيمان والعقيدة ، وتكون لها الأولوية الكبرى فى النفوس .

ولقد تكررت هذه القضية ثلاث مرات ، الأولى فى أحد ومع قزمان، حين قتل نفسه وحسبه الناس من أهل الجنة ، وأعلن أنه إنما قاتل عن أحساب قومه، وهاهى اليوم فى خيبر ، وقد انضم كثير من المسلمين إلى الصف المسلم ، وكانت ثالثة يوم حنين والمسلمون ينوفون عن اثنى عشر ألفاً . لتجعل هذا الأمر ليس بناءً تربوياً فقط بل بناءً عقيدياً حياً من خلال الصورة الحسية .

٦ ـ التربية عن شهوة الجنس :

لقد ابتعد المسلمون عن أهليهم ، وصارت السبايا بين أيديهم ، وصبروا عن الحرام والزنا . وكان أمامهم طريقان لتلبية دافع الجنس الذى يحرق أعصابهم بعد هذه الغربة القاتلة ، وهاهى السبايا بين أيديهم ، كما كانت لحوم الحُمُر تفور ناضجة فى قدورهم . فجاء النهى عنها ،وهنا يحدثنا رويفع بن ثابت الأنصارى رضي الله عنه عن الأوامر الصارمة الجديدة فى مجال الشهوة الجنسية وغيرها ، كما يرويها لنا حنش الصنعانى يقول :

(غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها : جربة. فقام فينا خطيباً فقال: يا أيها الناس، إنى لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر. قام فينا رسول الله ﷺ فقال: « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره ـ يعنى إتيان الحبالى من السبايا ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين حتى إذا أعجفها[١] ردَّها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فىء المسلمين حتى إذا أخلقه[٢] ردَّه فيه »)[٣] .

ولم تصدر هذه الأوامر من قبل ، إنما صدرت بعد وجود السبايا فى الجيش المسلم، وفى لحظات الظمأ العاطفى الكبير بعد البعد عن الأزواج ، أو العزاب الذين وصلوا إلى حقهم فى السيف حين خانهم المال .

وتشير النصوص الأخرى إلى تحريم آخر تم فى غزوة خيبر لا يقل صعوبة وشدة

---

(١) أعجفها : أهزلها وأضعفها .
(٢) أخلقه : صار خَلِقاً أي رثاً قديماً .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٠ ، ٤٦١ وقال المحقق فيه : صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده متصل ورجاله ثقات .

عن هذه الأوامر .

(فعن عبدالله والحسن ابنى محمد بن على ، عن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : نهى عن متعة النساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية)(١) .

ومتعة النساء هى الزواج المؤقت ، وقد كان مباحاً من قبل حيث يُطفئ ظمأ شهوة الجنس ، ولكنه مرتبط باتفاق على مبلغ زهيد لوقت معين ، وما أحوج المسلمين لتسكين ظمأهم بمثل هذه الصورة وهم بعيدون عن أزواجهم وأهليهم.

فارتبط نداء تحريم لحوم الحمر ، وهى تغلى على القدور ، وتحريم متعة النساء ، وقد أصبحن ميسورات لمن شاء ذلك .

ولم يسجل تاريخ غزوة خيبر أى مخالفة فى هذا المجال ، وذلك ليبقى هذا الجيل القوام على البشرية مالكاً لإربه مسيطراً على بطنه ، ضابطاً لشهوته . ويبقى انطلاقه الأول من أمر ربه . وقد ضبطت جميع شهواته بأدق الموازين الشرعية ، فيعف عن كل هذه الشهوات ، ويأخذ شهادة رب العالمين بأحقيته بقيادة البشرية حين أصبح ربانياً فى كل شيء ، وهذا رويفع الذى روى لنا الحديث السابق ، حدثنا عن ذلك وهو يقود المسلمين فى أقصى المغرب الإسلامى بينما نقل لنا الحديث الثانى خليفة المسلمين فى الأرض على ـ رضوان الله عليه ـ فكانوا الأمناء والقادة على ميراث النبوة العظيم .

٧ ـ وصاروا أهلاً للغنائم والنصر :

فقد صبروا فى الجهاد والجلاد كما رأينا من قبل ، وقاتلوا أطول قتال وأعنفه وأشده ، فى حصون حصينة وقلاع منيعة . حتى أنزل الله عليهم نصره ، وصبروا على الجوع عشرة أيام وأكثر ، لا يجدون ما يأكلونه ، وصبروا على شهوة الغنيمة فأدوا الخياط والمخيط والشراك والشراكين من النعال ، والخرزات الصغيرة والشملة التى يقون بها أنفسهم حر الهاجرة ، وصبروا عن شهوة الشراب ، فكسروا دنان الخمر ، وأهرقوا السكر حتى ساحت بها الأزقة ، وصبروا عن شهوة الشهرة .فقاتلوا لا يبغون إلا مرضاة الله . وفتحت كنوز خيبر كلها ، وكانوا هم الوارثون ، وانتقل الاصطفاء من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، وصارت الوراثة لهم بعد عزل بنى إسرائيل .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٨١ برقم (٤٢١٦) .

يَعْرِشُون ﴾(1) .

وهذه الوراثة تنتزع منهم اليوم ، لأنهم نقضوا الميثاق ونكلوا بالعهد ، وخانوا الأمانة . وأورث الله تعالى المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم .

أورثهم إياها ابتداءً يوم بنى النضير :

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾(2) .

وأورثهم إياها ثانية يوم بنى قريظة :

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾(3) .

وأورثهم إياها انتهاءً يوم خيبر حيث حشروا لأرض الحشر ، وتمنعوا فى خيبر:

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(4) .

وهذا هو التسليم الرسمى من الوارث القديم للوارث الجديد :

قال ابن إسحاق : وتدنى رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاً مالاً ، ويفتحها حصناً حصناً ، حتى انتهوا إلى ذينك الحصنين ، وجعلوا لا يطلعون من حصنهم حتى همَّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من تغليقهم ، وأنه لا يبرز منهم أحد ، فلما أيقنوا بالهلكة ـ وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً . سألوا رسول الله ﷺ الصلح ، فأرسل كنانة بن أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ رجلاً من اليهود يقال له شِماخ يقول: أنزل فأكلمك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . فنزل كنانة بن أبى الحقيق ، فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين

---

(1) الأعراف / 137 .
(2) الحشر / 2 .
(3) الأحزاب / 26 ، 27 .
(4) الفتح / 20 .

ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء [1] والبيضاء [2] والكراع[3] والحلقة [4] ، وعلى البز[5] إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً »[6] .

أ ـ الحلقة: ويقدم لنا الواقدى تفصيلات أوضح عن عمليات الاستلام والتسليم فيقول :

(وأرسل رسول الله ﷺ إلى الأموال فقبضها الأول فالأول ، وبعث إلى المتاع والحلقة فقبضها ، فوجد الدروع مائة درع ، ومن السيوف أربعمائة سيف، وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية بجعابها)[7] .

ب ـ الحلى: وانتهت بذلك قصة الحلقة والكراع ، وبقيت قصة الصفراء والبيضاء وهو كنز اليهود الذين أمضوا حياتهم يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها فى سبيل الله، وهم الذين احتجزوا من دون الناس هذه الصياغة، فهم تلاميذ قارون ومن مدرسته، وهم عبيد المال، وهم الذين عبدوا العجل الذهبى الذى صاغه لهم السامرى :

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[8] . فالذهب معبودهم وإلههم وليس من البساطة التنازل عنه .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾[9] .

وهم يتنازلون عن أرواحهم ولا يتنازلون عن ذهبهم وفضتهم التى صاغوها حُلِيا يستعبدون بها الناس .

قال محمد بن عمر : كان الحَلْى فى أول الأمر فى مَسْك خَمْل ، فلما كثر جعلوه فى مسك ثور ، ثم فى مسك جمَل ، وكان ذلك الحَلْى يكون عند الأكابر من آل أبى الحقيق ، وكانوا يعيرونه العرب .

وروى ابن سعد والبيهقى عن ابن عمر وابن سعد ـ بسند رجاله ثقات ـ عن محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى ـ وهو صدوق سيىء الحفظ ـ عن الحكم عن مقسم عن

---

(١) الصفراء: الذهب .
(٢) البيضاء : الفضة .
(٣) الكُراع : اسم لجماعة من الخيل خاصة .
(٤) الحلْقة : السلاح أجمع أو الدروع خاصة .
(٥) البَزّ : نوع من الثياب .
(٦) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحي ٥/ ٢٠٤ .
(٧) مغازي الواقدي ٢/ ٦٧١ .
(٨) الأعراف / ١٤٨ .
(٩) طه / ٨٨ .

ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر صالحهم على أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم وللنبى ﷺ الصفراء والبيضاء والحلْقة والسلاح ويخرجهم ، وشرطوا للنبى ﷺ ألا يكتموه شيئاً فإن فعلوا فلا ذمة لهم .

قال ابن عباس : فأتى بكنانة والربيع ـ وكان كنانة زوج صفية ـ والربيع أخوه أو ابن عمه ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « أين آنيتكم التى كنتم تعيرونها أهل مكة ؟ » .

وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ لعم حيى : « ما فعل مسك حيى الذى جاء به من النضير ؟ » فقال : وقال ابن عباس : قالا : هربنا ، فلم نزل تضعُنا أرضٌ وترفعنا أخرى ، فذهب فى نفقتنا كل شىء .

وقال ابن عمر: قال : أذهبته النفقات والحروب . فقال : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك » .

وقال ابن عباس : فقال لهما رسول الله ﷺ : « إنكما إن تكتمانى شيئاً فاطّلعت عليه استحللت به دماءكما وذراريكما » فقالا : نعم .

وقال عروة ،ومحمد بن عمر فيما رواه البيهقى عنهما : فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بموضع الكنز . فقال لكنانة : « إنك لمغتر بأمر السماء » .

قال ابن عباس : فدعا رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار فقال : « اذهب إلى قراح[1] كذا وكذا ثم ائت النخل ،فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك مرفوعة فائتنى بما فيها » ، فجاءه بالآنية والأموال ، فقومت بعشرة آلاف دينار ، فضرب أعناقهما وسبى أهليهما بالنكث الذى نكثا .

وقال ابن إسحاق : أتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع وكان عنده كنز بنى النضير،فسأله عنه ،فجحد أن يكون يعلم مكانه.فأتى رسول الله ﷺ برجل من يهود ـ ، قال ابن عُقبة:اسمه ثعلبة[2].وكان فى عقله شىء.فقال لرسول الله ﷺ: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت إن وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ ! » قال : نعم .

فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت ، وأخرج منها بعض كنزهم . ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه . فأمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « عذّبه حتى تستأصل ماعنده » ، فكان الزبير رضي الله عنه يقدح بزنده فى صدره حتى أشرف على نفسه ،

(١) القراح :القراح من الأرضين كل قطعة علي حيالها منابت النخل ، وقيل :الأرض المخلصة للزرع والحرث، وقيل : للزراعة التي ليس عليها ولا فيها نبات ولا شجر .

(٢) فى السيرة الحلبية :اسمه سعية بن عمرو عم حيي بن أخطب وعند الواقدي ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق .

ثم دفعــه رسول الله ﷺ إلى محمـد بن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة) [١] .

هذا هو آخر قيادات اليهود يجود بروحه ، ويضن بكنز اليهود أن يعطيه لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه هو الذى سلَّم الحصون ، وسلَّم الأموال ، وسلَّم الحلقة ، وسلم الأرض. لكن الجحود اليهودى أغراه عسى أن يهرب بكنز اليهود من الصفراء والبيضاء ويحتجزه دون محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد قتل قادة اليهود قبله فى ساحة المعركة ، مرحب ، وعامر ، وياسر ، وغزَّال ، وغيرهم . أما هو فاستبقى نفسه ليبيع أمته وأرضه ، وينجو بنفسه ، ونحن بحاجة إلى الوقوف عند دقائق شخصيته .

قبل الهزيمة : (قال أبو عبدالله قلت لإبراهيم بن جعفر : وجد فى الكتيبة خمسمائة قوس عربية ، وقال : أخبرنى أبى عمَّن رأى كنانة بن أبى الحقيق يرمى بثلاثة أسهم فى ثلثمائة ـ يعنى ذراع ـ فيدخلها فى هدف شبراً فى شبر.(فهو إذن من المقاتلين الكبار)فما هو إلا أن قيل : هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق فى أصحابه . . فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يوترها من الرِّعدة،وأومأ إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع فى حصنه ، فما رئى منهم أحد)[٢] .

لقد انتهت السيادة إليه بعد مقتل حيى بن أخطب مع بنى قريظة ، وبعد مقتل أخيه أبى رافع سلام بن أبى الحقيق ، وهو يحمل أحقاد بنى إسرائيل كلها ضد رسول الله ﷺ : حقد عمه حيى بن أخطب ، وحقد أخيه كنانة ، ولكنه يجد نفسه الآن عاجزاً إلا عن تسليم خيبر لرسول الله ﷺ .

وآل أبى الحقيق مشهورون لا فى المدينة فقط ، بل بمكة كذلك ، والعرب تستعير الحلى من عندهم فى أفراحها وأعراسها :

(فسأل رسول الله ﷺ كنانة بن أبى الحقيق عن كنز آل أبى الحقيق وحلى من حليهم كان يكون فى مسك الجمل ،وكان العرس يكون بمكة فيُقدم عليهم ، فيُستعار ذلك الحلى الشهر فيكون فيهم ، وكان ذلك الحلى يكون عند الأكابر فالأكابر من آل أبى الحقيق.فقال : يا أبا القاسم ،أنفقناه فى حروبنا ، فلم يبق منه شىء ، وكنا نرفعه لمثل هذا اليوم .فلم تُبق الحرب واستنصار الرجال من ذلك شيئاً . وحلفا[٣] على ذلك .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٩ .　　(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٠ .

(٣) أتت الرواية فى المثنى ، ومن خلال الروايات الأخرى: أن كنانة وأخاه الربيع بن أبى الحقيق هما اللذان كانا يسألان عن هذا الكنز . كما هو عند البيهقى .

فوكَّدا الأيمان واجتهدا ونادى كنانة رجلاً من اليهود ، لا يزال فى قلبه فسحة لم تمتلئ بعد حقداً ،فقال له : إن كان عندك مايطلب محمداً أو تعلم علمه ، فأعلمه ، فإنك تأمن على دمك ، وإلا فوالله ليظهرن عليه ، قد اطَّلع على غير ذلك بما لم نعلمه ، فزبره ابن أبى الحقيق ، فتنحى اليهودى فقعد)(١) .

وابن أبى الحقيق يعلم صدق نبوة محمد ،فطالما راجع مع أخيه سلام بن أبى الحقيق صحة هذا الأمر ،وعن أخيه سلام.

كان الحارث بن عوف الغطفانى المرى يروى :

(أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول : إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون ، وهو نبى مرسل ، واليهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذِبحان واحد بيثرب وآخر بخيبر . قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً ! قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى، وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه)(٢) .

فكنانة يدرك كما يدرك أخوه نبوة محمد ﷺ ، وهو الذى قذف الله الرعب فى قلبه ، فسلَّم الأرض والمال،لكن الكزازة اليهودية والجحود اليهودى غلبا عليه ، فلم تطاوعه نفسه أن يعطيه كنز بني النضير ، وهو يعلم أن الله تعالى سيطلع نبيه عليه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (٣) .

فكان مصرعه ومصرع أخيه بعد أن أعلم الله تعالى نبيه بها كما فى رواية ابن سعد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما .

أو كشفها ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ثعلبة الذى أشار إلى الخربة التى كان يطيف بها كِنانة كما فى رواية ابن إسحاق وابن عقبة .

ونظرة سريعة إلى كنز اليهود الذين احتجزوه من دون الناس فى مسك الجمل :

(عن هلال بن أسامة عمَّن نظر إلى ما فى مسك الجمل بين يدى رسول الله ﷺ حين أُتِيَ به : فإذا جُلُّه أسورة الذهب ، ودمالج الذهب ، وخلاخل الذهب ، وقِرطة الذهب ، ونظم من جوهر وزمرّد ، وخواتم ذهب ، وفتخ(٤) بجزع أظفار مجزّع بالذهب)(٥) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٦٧٧ .
(٣) النمل / ١٤ .
(٤) فتخ : جمع فتخة وهى : خاتم كبير يلبس فى الأيدى وربما وضع فى أصابع الرجل .
(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٣ .

واستلمها وارث الأنبياء والأمم وخاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاختار نظاماً من هذه الجواهر لبعض أهله ، ورأى رسول الله ﷺ نظاماً من جوهر فأعطاه بعض أهله . . إما عائشة وإما إحدى بناته ، فانصرفت فلم تمكث إلا ساعة من نهار حتى فرّقته فى أهل الحاجة والأرامل ، فاشترى أبو الشحم ذرّةً منها . فلما أمسى رسول الله ﷺ إلى فراشه لم ينم ،فغدا فى السحر حتى أتى عائشة ولم تكن ليلتها،أو بنته فقال : « ردى علىّ النظام فليس لى ، ولا لك فيه حق » . فخبّرته كيف صنعت به فحمد الله وانصرف . . .) (١) .

فهذا حق المسلمين جميعاً يوزع عليهم ،وقد وُزّع على الفقراء والأرامل وأهل الحاجة كما ربى المصطفى ﷺ أهله .

ومن الأموال والحلقة والكراع والسلاح،إلى الأرض التى أورثها الله تعالى عباده الصالحين :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

قال ابن إسحاق :وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة . فكانت الشق ونطاة فى سهمان المسلمين ،وكانت الكتيبة خُمس الله وسهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين ،وطُعم أزواج النبى ﷺ؛ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح ،منهم محيصة بن مسعود أعطاه رسول الله ﷺ ثلاثين وسقاً من شعير وثلاثين وسقاً من تمر ،وقسمت خيبر على أهل الحديبية ومن شهد خيبر ،ومن غاب عنها .ولم يغب إلا جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها ،وكان واديها ؛ وادى السُرير ،ووادى خاص ، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر .

وكانت نطاة والشق ثمانية عشر سهماً ، نطاة من ذلك خمسة أسهم ، والشق ثلاثة عشر سهماً ، وقسمت الشق والنطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم.

وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ﷺ ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم ، الرجال أربعة عشر مائة ، والخيل مائتا فرس ،فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم ، وكان لكل راجل سهم ، فكان لكل سهم رأس جمع إليه مائة رجل ، فكانت ثمانية عشر سهماً جُمع).

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٣ .

(٢) الأنبياء / ١٠٥ ـ ١٠٧ .

أما الشق ونطاة والقموص من الكتيبة . فقد فتحت بدماء المسلمين وسلاحهم وخيلهم ، فهى حقهم من الغنائم والأنفال :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وأما الكتيبة فإنما فتحت صلحاً . فكانت خالصة لله ولرسوله :

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

(ولهذا وزعت الشق ونطاة على المسلمين ألف سهم وثمانمائة سهم لخيلهم ورجالهم بينما بقيت الكتيبة خالصة لرسول الله ﷺ وزعها بتوزيع الله تعالى لها ، خمسة أخماس كذلك؛ لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فعلم أن حصون خيبر فتحت عنوة إلا الحصنين المذكورين ، وهما الوطيح وسلالم ، فإنهما لم يفتحا عنوة بل صلحاً فكانا فيئاً لرسول الله ﷺ ، وهو دليل على أنهم لم يقاتلوا حال حصارهم ، لأن الفىء ما جلوا عنه من غير مقاتلة)(٣) .

ولننظر إلى نماذج من هذا الفيض الربانى على المسلمين الذين أورثهم الله أرض اليهود وديارهم وأموالهم ، نستمع إلى ما أفاء رسول الله ﷺ على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل من فيئه فى الوطيح والسلالم .

ثم قسم رسول الله ﷺ الكتيبة ، وهى وادى خاص بين قرابته ونسائه ، وبين رجال المسلمين ، ونساء أعطاهم منها . فقسم رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته مائتى وسق، ولعلى بن أبى طالب مائتى وسق ، ولأسامة بن زيد مائتى وسق ، وخمسين وسق من نوى ، ولعائشة أم المؤمنين مائتى وسق ، ولأبى بكر بن أبى قحافة مائة وسق ، ولعقيل

---

(١) الأنفال / ٤١ . (٢) الحشر / ٧ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٧٤٤ . وقد اختلف فى فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحاً ، وفى حديث عبد العزيز بن صهيب عند البخارى فى الصلاة التصريح بأنه كان عنوة وبه جزم ابن عمر، وردّ على من قال : فتحت صلحاً ، وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم ، وهو ضرب من الصلح لكن لم يقع ذلك إلا بحصار . . وجنح غير واحد من العلماء إلى أن بعضها فتح عنوة وبعضها فتح صلحاً) انظر سبل الهدى والرشاد ٢٣٨/٥ ، ٢٣٩ للصالحى .

ابن أبى طالب مائة وسق وأربعين وسقاً ، ولبنى جعفر خمسين وسقاً ، وللصلت بن مخرمة وبنيه مائة وسق،ولأبى نبقة خمسين وسقاً ، ولركانة بن عبد يزيد خمسين وسقاً،ولقيس بن مخرمة ثلاثين وسقاً،ولأبى القاسم بن مخرمة أربعين وسقاً ، ولبنات عبيدة بن الحارث وابنة الحصين بن الحارث مائة وسق ، ولبنى عبيد بن عبد يزيد ستين وسقاً ، ولابن أوس بن مخرمة ثلاثين وسقاً ، ولمسطح بن أثاثة وابن إلياس خمسين وسقاً ، ولأم رميثة أربعين وسقاً ، ولنعيم بن هند ثلاثين وسقاً ، ولبحينة بنت الحارث ثلاثين وسقاً ، ولعجير بن عبد يزيد ثلاثين وسقاً ، ولجُمانة بنت أبى طالب ثلاثين وسقاً ، ولابن الأرقم خمسين وسقاً ،ولعبد الرحمن بن أبى بكر أربعين وسقاً ، ولحمنة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، ولأم الزبير أربعين وسقاً ، ولأبى بصرة عشرين وسقاً، ولنميلة الكلبى خمسين وسقاً ، ولأم حبيب بنت جحش ثلاثين وسقاً ، وللملكو ابن عبدة ثلاثين وسقاً ،ولنسائه سبعمائة وسق .

قال ابن هشام : قمح ،وشعير ،وتمر ،ونوىً ،وغير ذلك ، قسمه على قدر حاجتهم ، وكانت الحاجة فى بنى عبد المطلب أكثر فأعطاهم أكثر (١) .

فهؤلاء جميعاً هم الذين عاشوا الفاقة والمحنة مع النبى ﷺ ، ووقع عليهم حصار الشعب ثلاث سنوات مشركهم ومسلمهم ، وما تخلوا عن رسول الله ﷺ وأمضوا حياتهم كلها فى المدينة ومكة يحملون كل الآلام والمآسى والفاقة والبؤس.وحين هيأ الله تعالى لعبده محمداً ﷺ هذا الفىء ،وزعه عليهم ثمرة جهدهم وجهادهم وصبرهم .

أما ذوو القربى الذين حاربوه وكانوا ممن أجَّجَ المحنة ضده ، فلم يكن لهم شرف الاشتراك بهذه الغنائم .

(فعن سعيد بن المسيّب أن جبير بن مطعم أخبره قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبى ﷺ فقلنا : أعطيت بنى المطّلب من خمس خيبر وتركتنا ، ونحن بمنزلة واحدة منك . فقال : « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد». قال جبير : ولم يقسم النبى ﷺ لبنى عبد شمس وبنى نوفل شيئاً)(٢) .

فالجميع هم بنو عبد مناف . وولد عبد مناف أربعة هم : هاشم ، والمطلب، ونوفل ، وعبد شمس .

فالقرابة للجميع فى مستوىً واحد،لكن بنى هاشم وبنى المطلب بقوا شيئاً واحداً ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٩، ٣٠٠ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٨٤ برقم (٤٢٢٩) .

وفى حصار بنى هاشم فى الشعب ،كانوا كلهم مسلمهم ومشركهم مع رسول الله ﷺ ، أما بنو نوفل ، وعلى رأسهم سيد بنى نوفل المطعم بن عدى، وبنو عبد شمس وعلى رأسهم سادتهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، فقد انضموا لقريش فى هذا الحصار ، على ألا يبيعوا ولا يبتاعوا منهم ، ولا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم حتى يهلكوا جوعاً أو يسلموا محمداً ﷺ لهم ليقتلوه .

وفى رواية قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لجبير وعثمان ، حين أعطى بنى المطلب ولم يعط بنى نوفل وبنى عبد شمس : « إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام ،إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » ، ثم شبك رسول الله ﷺ يديه إحداهما فى الأخرى[1]. ولهذا اعتبرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل القربى ، وهؤلاء جميعاً لا تحل لهم الصدقة ، فرعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعنايته .

وحين نذكر أن الوسق ستون صاعاً وهو حمل بعير ، ونذكر ماروى عن الإمام مالك: أن الكتيبة ـ وحدها ـ أربعون ألف عذق[2] ،نذكر كم أغدق الله تعالى على المؤمنين من الخير ، وندرك أبعاد كلمة عائشة ـ رضى الله عنها ـ حين قالت:« ماشبعنا التمر حتى فتحت خيبر » .

وفى رواية أنها قالت حين فتحت خيبر : « الآن نشبع من التمر » . ونذكر قول حسان رضي الله عنه فى حديثه عن تمر خيبر :

فإنا ومن يهدى القصائد نحونا   كمستبضع تمراً إلى أهل خيبر[3]

وندرك هذا الفيض الربانى على هذا الجيل القائد الذى صبر على أعز ما عنده، وفطم نفسه عن الدنيا ، ولجم قلبه عن الشهوات ، كيف جعله الله تعالى أهلاً لهذه المغانم الكثيرة ، وكانت خاصة لجيل الحديبية ، والذين انضموا لهذا الجيل من الأعراب لم يكن لهم حق بهذه الغنيمة ، إنما قد أعطاهم رسول الله ﷺ من حصته ورضخ لهم كما رضخ للعبيد من الفىء .

٨ ـ مجاهدون أم إقطاعيون :

كثيراً ما تنتهى الثورات السياسية والإصلاحية والاجتماعية فى مثل هذه المرحلة ، فبعد أن تقاوم كل عوامل الانهيار والتآكل ، وتنجح فى مواجهة خصومها ، وتقدم التضحيات الكبيرة للوصول إلى هدفها .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٤٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٢٣٤ .
(٣) المصدر نفسه .

ولكنها تسقط عندما تنتصر ، وكان يمكن لغزوة خيبر أن تكون نهاية الإسلام لو أن المجاهدين فى سبيل الله تحولوا إلى مستثمرين لثرواتهم وعقاراتهم، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، وركنوا إلى الدنيا ونعيمها وزخرفها ، ولكن الإرادة الربانية التى تريد لهذه الأمة التى انبثقت من القرآن أن تبقى قوامة على البشرية كلها ، هى التى وجهتهم إلى متابعة طريق الجهاد ، فالنص الذى حدثهم فى الحديبية عن المغانم الكثيرة التى يأخذونها هو الذى رباهم أن الطريق طويل ، وأن هناك مهمة أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها علماً وهى فتح مكة :

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾(١) .

وليست المهمة مهمة مؤقتة تنتهى بفتح مكة ، فالكتاب الخالد يعلمهم أن هذا الفتح قدر لا يغالب :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾(٢) .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٣) .

إنما الأمر أبعد حتى من فتح مكة ، والطريق ماضٍ لتحرير الأرض كلها من طغيان الطواغيت ، ليكون الحكم لله وحده وتسود شريعته فى الأرض ، فتأتى الآية التالية مباشرة بعد الآية السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾(٤) .

ثم تأتى الآية الخاتمة فى السورة والتالية للسابقة ،أنهم هم ستار قدر الله وأداته ، وبهم يتم التحرير المطلوب وبمن يسير على نهجهم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . . . ﴾(٥).

وهم الذين غلُظ سوقهم وصلب عودهم ، وهم الذين يغيظون الكفار ، كل الكفار فى الأرض ، حين ينتزعون منها تعبيد العباد لذاتهم ،لتكون العبودية لله وحده .

---

(١) الفتح : ٢١ .
(٢) الفتح : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) الفتح : ٢٧ .
(٤) الفتح : ٢٨ .
(٥) الفتح : ٢٩ .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

والمربى الأعظم ﷺ ، والزارع لهذه البذور التى نضجت واستوى على سوقها محمد ﷺ،هو الذى يعلم هذا الجيل أن الهدف من الحرب فى خيبر ليس استئصال اليهود كعدو محارب ،أو مهمته حقد جنس على جنس أو دين على دين ، إنما الهدف هو أن يسقط الطواغيت الذين يحولون بين البشر وشريعة رب البشر ، وطالما أن أولئك الطواغيت قد قتلوا أو استسلموا ، فقد تحقق الهدف ، ويمكن أن يسود الإسلام فى هذه الأرض ، ومن سيادة الإسلام حرية الإنسان فى معتقده ، وليس اعتناق الإسلام بالقوة ، وقد تحقق هدف هذه الحرية للإنسان والتحرير للبشرية ، فيمكن إذن أن تُستأنف الحياة من جديد لليهود بين ظهرانى المسلمين ، وأن يكونوا شركاءهم فى الحياة ، والزراعة والصناعة والتجارة . ونظراً لخبرتهم الفنية الزراعية ، وحرصاً على ألا ينشغل المسلمون بالأرض وعَرَض الدنيا ، فكان هذا الميثاق الجديد من الحياة الجديدة ، بعد الميثاق الأول مع قائدهم كِنانة بن أبى الحقيق .

لقد نكث كِنانة بعهده ، وحكم على نفسه بالموت حين كتم ماعنده من كنز ، وكانت المصالحة الأولى التى تمت بينه وبين رسول الله ﷺ (على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البز إلا ثوب كان على ظهر إنسان . فقال رسول الله ﷺ : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً » ،فصالحوه على ذلك)(٢) .

وكتم كِنانة ، وقتل وأخوه بكتمانهما كنز بنى النضير . أما الصلح فبقى نافذاً على ما هو عليه ، وكان أول شروطه جلاءهم عن خيبر ، بعد أن استلم رسول الله ﷺ الأموال والكراع والحلقة والبز .

وجاء الميثاق الجديد يطلب من اليهود :

(وأراد أن يجليهم منها فقالوا : يا محمد ،دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ؟

ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها . وكانوا لايفرغون أن يقوموا عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل وشىء ،ما بدا

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٠ ، ٦٧١ .

لرسول الله ﷺ)[1] .

هذه رواية ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ وفى رواية أخرى:(فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف . قالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف ، على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم)[2] .

وحتى ندرك أبعاد هذا الاتفاق الجديد نجدنا مساقين لعرض حديثين قد يظهر أنهما متناقضان:

أول هذين الحديثين: حث الإسلام على عمارة الأرض وزراعتها، والأجر العميم فيها، وذلك فيما رواه أنس عن رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[3].

وهذا هو الأصل بالنسبة للمسلم أن يشارك فى حرث الأرض وعمارتها وبنائها .

أما الاستثناء الخاص بقيادة الأمة التى تعد لتغيير الأرض فتدرك مهمتها من ثانى هذين الحديثين الذى رواه أبو أمامة الباهلى رضي الله عنه حيث يقول: وقد رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث . سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل »[4].

حيث عنون له الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ بقوله : باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع ، أو مجاوزة الحد الذى أمر به .

ونستمع إلى الحافظ ابن حجر رضي الله عنه يحدثنا عن الجمع بين هذين الحديثين:

(وقد أشار البخارى إلى الجمع بين حديث أبى أمامة والحديث الماضى فى فضل الزرع والغرس وذلك بأحد أمرين : إما أن يُحمل ما ورد من الذم على عاقبة ذلك ومحله ما إذا اشتغل به فضيَّع بسببه ما أمر بحفظه، وإما أن يُحمل على ما إذا لم يضيِّع إلا أنه جاوز الحد فيه. والذى يظهر أن كلام أبى أمامة محمول على من يتعاطى ذلك بنفسه. أما من له ،عمال يعملون له وأدخل داره الآلة المذكورة لتحفظ لهم فليس مرادًا. ويمكن الحمل على عمومه ، فإن الذل شامل لكل من أدخل على نفسه ما

---

(١) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٤/ ٢٣٠ . (٢) المصدر نفسه ٤/ ٢٢٦ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥ / ٣ برقم (٢٣٢٠) .
(٤) المصدر نفسه ٥ / ٤برقم (٢٣٢١) .

يستلزم مطالبة آخر له ولا سيما إذا كان المُطالب من الولاة)[١] .

والتعليل الأخير هو الذى نحن بصدده عن المجاهدين كما أورده الحافظ ابن حجر عن الداودى ، إذا يتابع قوله:

(وعن الداودى : هذا لمن يقرب من العدو. فإنه إذا اشتغل بالحرث لا يشتغل بالفروسية ، فيتأسد عليه العدو، فحقهم أن يشتغلوا بالفروسية وعلى غيرهم إمدادهم بما يحتاجون إليه)[٢].

وقد صالح أهل فدك رسول الله ﷺ على ما صالح عليه أهل خيبر ، فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ ؛ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا رِكاب [٣]. إنما مشى فى المصالحة فيها محيصة بن مسعود (فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع رسول الله ﷺ بأهل خيبر فبعثوا يصالحون على النصف من فدك) [٤].

٩ـ ومن خيبر إلى فدك وإلى وادى القرى :

لقد كان زلزال خيبر قد هز الأرض العربية كلها حولها، وخاصة أنه تم بعد هدنة الحديبية ، وهناك تجمعات يهودية وبجوار التجمع الأكبر فى خيبر، هو تجمع فدك وتجمع وادى القرى وتيماء ، ولنشهد كيف انهارت هذه التجمعات:

أ ـ مصالحة أهل فدك[٥] :

(لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيصة بن مسعود الحارثى إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام، ويخوِّفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر، ويحل بساحتهم. قال محيصة: فجئتهم فأقمت عندهم يومين، فجعلوا يتربصون ويقولون: بالنطاة عامر، وياسر ،والحارث ،وسيد اليهود مرحب. ما نرى محمداً يقرب حِراهم.[٦] إن بها عشرة آلاف مقاتل. قال محيصة: فلما رأيت خبثهم أردت أن أرجع. فقالوا: نحن نرسل معك رجالاً منا يأخذون لنا الصلح. ويظنون أن يهود تمتنع. فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم. ففتَّ ذلك أعضادهم. فقدم رجل من

(١،٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥/ ٤ / ٢٣٢١ .

(٣،٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٩١ والدلائل للبيهقى ٤/ ٢٢٦ .

(٥) فدك: بينها وبين المدينة كما قال ابن سعد :ستة أميال. وهى قرية من شرقى خيبر على واد يذهب سيله شرقًا إلى وادى برمة .

(٦) حِراهم: جناب الرجل .

رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر من يهود فصالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ويجليهم، ويخلوا بينه وبين الأموال. فوقع الصلح بينهم بأن لهم نصف الأرض بتربتها ولرسول الله ﷺ نصفها ، فقبل رسول الله ﷺ بذلك)[1].

ويذكر ابن إسحاق حول فدك قوله:

(فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، قذف الله الرُعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بعد ما قدم من المدينة. فقبل ذلك منهم، فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجَف عليها بخيل ولا ركاب) [2] .

ب ـ أهل وادى القرى:

وهم يهود كيهود خيبر ، يختصر البلاذرى قصتهم فيقول:

(أتى رسول الله ﷺ منصرفه من خيبر وادى القرى، فدعا أهلها للإسلام، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا. ففتحها رسول الله ﷺ عنوة وغنَّمهُ الله أموال أهلها. وأصاب المسلمون منهم أثاثًا ومتاعًا فخمَّس رسول الله ﷺ ذلك، وتركت الأرض والنخل فى أيدى يهود، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر)[3] .

أما الإمام الواقدى. فيقدم لنا تفصيلات هامة عن هذه الغزوة فيقول:

(لما انصرف رسول الله ﷺ عن خيبر، وأتى الصهباء سلك على بِرمة[4]حتى انتهى إلى وادى القرى يريد من بها من يهود) [5].

وكان أبو هريرة يحدث فيقول:

(.. وعبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفَّهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر ،وراية إلى سهل بن حنيف ،وراية إلى عبَّاد بن بشر، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله . . .)[6] .

فالمنهج الإسلامى فى الجهاد ،الذى يقوم على الدعوة إلى الله والإسلام قبل الحرب

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٢١٤ ، ٢١٥ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٩٠ ، ٤٩١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٢٢٩ .

(٤) برِمة: من أعراض المدينة بين خيبر ووادى القرى به عيون ونخل لقريش .

(٥) المغازى للواقدى ٣ / ٧١٠ . (٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥ / ٢٣٠ .

هو خط أصيل، إذ ليس الدافع إلى الحرب هو السيطرة والغنمية والثروة، إنما الدافع إلى ذلك هو إبلاغ الإسلام إلى كل صقع، وإلى كل أرض. وحين يقبل الناس الدخول فى هذا الدين ، فلا سلطان لأحد على مالهم أو أرضهم أو وطنهم، وحين يدفعون الجزية ويقبلون بسيادة حكم الله على الأرض فلا سلطان لأحد على مالهم أو أرضهم أو عرضهم. وحين يقررون حرب الله ورسوله والصد عن دين الله ، لابد أن يقاتلوا لكيلا تكون فتنة عن دين الله لأى عبد من عبيد الله يختار هذا الدين ويتعرف عليه تمام التعرف، ويكون الدين كله لله، والخضوع له ولسلطانه ولجبروته .

وحين رفض يهود وادى القرى هذه الدعوة كانت الحرب .

(... فبرز رجل منهم وبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه الزبير فقتله ، ثم برز آخر فبرز له على فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله. حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحد عشر رجلاً، كلما قُتل رجل دعا من بقى إلى الإسلام. ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيراً ، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى، وترك النخل والأرض بأيدى اليهود وعاملهم)(١).

جـ ـ ثم يهود تيماء (٢) :

(فلما بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية. وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان زمن عمر رضي الله عنه أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى ، لأنهما دخلتا فى أرض الشام ويرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز)(٣) .

وآب المسلمون إلى المدينة تائبين عابدين غانمين ترعاهم عناية الله ورسوله، وأصبحت وفرة الأموال والأراضى والمتاع توقر المسلمين جميعًا. ولأول مرة يشعر المهاجرون أنهم ذووا ثروة كبيرة ومال وافر إذ استحقوا موعود الله وهم يضجون بالدعاء والثناء على الله عز وجل والشكر له على ما أنعم وفضل، وذكر الله تعالى يجلجل فى قلوبهم قبل ألسنتهم تهليلاً وتكبيراً (فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧١٠ ، ٧١١ .
(٢) تيماء: على ثمان مراحل من المدينة بينها وبين الشام.
(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٧١١ .

« اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم » .

ويالها من سعادة غامرة أن تكون معية الله معهم، ترعاهم وتصونهم وتسددهم. وفى لقطة مؤثرة لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنه وقد كان لسانه رطبًا بذكر الله (فسمعنى وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. فقال:« يا عبد الله بن قيس » ، قلت: لبيك يا رسول الله ، فداك أبى وأمى، قال: «ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة؟! » فلابد من التعرف على كنوز الجنة ، بعد أن حازوا كنوز الأرض، (قلت: بلى يا رسول الله ،فداك أبى وأمى. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»)(١) .

١٠- ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم :

سبع سنوات عجاف والأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، يشاركونهم فى ثمرة أرضهم، ويكفونهم المؤونة والعمل، وهم أسعد أهل الأرض بهذا البذل وهذا العطاء، وكما قالوا لرسول الله ﷺ: والله للذى تأخذ من أموالنا أحب من الذى تدع. أما الآن وقد استغنى المهاجرون بهذه الثروات وهذه الغنائم. فقد آن الأوان ليعيدوا هذه المنائح لإخوانهم الأنصار، حيث رفض الأنصار هذه الإعادة بعد غنائم بنى النضير وبعد غنائم بنى قريظة، وبعد كل الغنائم الثانوية فى السرايا والبعوث .

فقد روى الشيخان،والحافظ،ويعقوب بن سفيان عن أنس رضي الله عنه قال:

لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهل أرض وعقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ، ويكفونهم العمل والمؤونة . وكانت أم أنس أعطت رسول الله ﷺ أعذاقاً لها ، فأعطاهن رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد . فلما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر ، وانصرف إلى المدينة . ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا قد منحوهم من ثمارهم ، وردَّ رسول الله ﷺ إلى أمى أعذاقها .

ونلحظ مدى تشبث المرء بما يملك ،من خلال هذه الحادثة الطريفة، التى يرويها أنس عن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ حين أراد أن يسترد منها أعذاقا لها كانت لأم سليم ـ رضى الله عنها ـ وندرك بعدها عظمة البذل لدى الأنصار الذين شروا الدنيا بالآخرة ، ولم يقدموا أعذاقاً فقط ، وإنما قدموا أنصاف ثمار أموالهم لإخوانهم المهاجرين ، ولم يقدموها مقابل شىء ، ولو حتى الاشتراك بالجهد والعمل. إنما قدموها

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنن عن أبى موسى وهو عند البخارى فى الفتح ٧/ ٤٧٠ برقم (٤٢٠٥).

وهم *الذين يجهدون ويعملون* .

لقد رضى المسلمون أن يأخذوا أنصاف أثمار أموالهم ، ويعطوا نصفها لليهود. مقابل عمل اليهود وحرثهم وزرعهم وسقايتهم للأرض. أما هنا فالأنصار يكدون ويتعبون ويجهدون، ثم يقدمون نصف أثمارهم لإخوانهم من نفوس تفيض سعادة وسروراً بهذا الانفاق كما وصفهم الله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ ، فقد وقاهم الله شح نفسهم ﴿ **يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(١).

ونحن نبقى هاتين الصورتين بارزتين حتى تبرز أمام أعيننا عظمة الأنصار :

الصورة الأولى : صورة تشبث أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ بأعذاقها التى وهبها إياها رسول الله ﷺ، وهى فى الأصل لأم سليم، وهبتها للحبيب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام، وجاء أنس ابن أم سليم يأخذها (فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت تقول: كلا والله الذى لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن. فقال رسول الله ﷺ: « يا أم أيمن ، اتركى ولك كذا وكذا » وهى تقول: كلا: والله الذى لا إله إلا هو. فجعل يقول: « لك كذا وكذا » وهى تقول: كلا والله الذى لا إله هو، حتى أعطاها عشرة أمثالها أو قريبًا من عشرة أمثالها)(٢).

الصورة الثانية : صورة تصف الثمر المعطى لليهود على أن يعملوا فى الأرض وبكل ما تحتاجه الأرض من عمل ، وللمسلمين نصف ثمرهم ، لنجد المرتقى الأعلى والأفق الوضيء لهذا الجيل الخالد ، الذى يرضى ويُسرُّ ويصبر على إعطاء نصف الثمرة لإخوانهم المهاجرين دون أن يبذل المهاجرون أى جهدٍ وعمل فى ذلك .

نذكر هذا ، ونذكر موقف السعدين يوم الأحزاب، حين همَّ رسول الله ﷺ أن يعطى غطفان ثلث ثمار المدينة، فكان ذلك الجواب:

لقد كنا نحن وإياهم فى الجاهلية لا نعبد الله ولا نعرفه، ولا يطمعوا أن يأخذوا منا تمرة واحدة إلا قرىً أو بيعًا. أفبعد أن أكرمنا الله بك، وأعزنا بالإسلام، نعطيهم أموالنا؟! لا والله لا نعطيهم إلا بالسيف .

ورفض الأباة الشُّم أن يعطوا غطفان تمرة واحدة ، أمام ضغط القوة ولهيب الحرب. وها هم يعطون إخوانهم المهاجرين نصف ثمارهم كل عام لسبع سنوات متتالية.

---

(١) الحشر / ٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٢٣٣ .

وربُّ العزة. يثنى على قلوبهم: ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾(١) .

وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم أصروا فيما مضى على المشاركة فى الثمرة وإراحة المهاجرين من العمل والجهد حين قال فيهم، وقد أتيح لهم أن يستردوا منائحهم، قال: جزاكم الله عنا خيراً يا معشر الأنصار ،فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوى:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملَّت)(٢).

ولابد أن نشير من طرف آخر إلى أن المهاجرين ـ رضى الله عنهم ـ كانوا على تفاوت فى المشاركة وقبولها . (فآثروهم بمتاع من أشجارهم فمنهم من قبلها منيحة محضة ويكفونه العمل ، ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل فى الشجر والأرض وله نصف الثمار ، ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة ، لشرف نفوسهم وكراهتهم أن يكونوا كلا) .

ولابد أن نشير كذلك إلى أن الأنصار إذا قدَّموا نصف أموالهم ودورهم ، فهم يقتدون بالجيل الرائد جيل السابقين الأولين من المهاجرين الذين تركوا كل أموالهم ودورهم فى سبيل الله كما أثنى عليهم رب العزة جل جلاله :﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٣).

١١ـ عيينة بن حصن والغنائم :

لقد كانت غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن دينها الحصول على الغنائم . ولقد أتعبت المسلمين كثيرًا فى اتباع أسلوب الغزو العربى وحرب الصحراء الذى يقوم على الكر والفر. وشاركت فى حرب المسلمين مع الأحزاب يوم قريظة طمعًا فى الغنائم .

(فخرجت اليهود حتى أتت غطفان وأخذت قريش فى الجهاز، وسيرت فى العرب تدعوهم إلى نصرها ، ثم ساروا فى غطفان ، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا) .

ولم يكن من حرج عندها أن تغيِّر موقفها وحلفها، إذا عرض عليها غنائم أكثر.

(١) الحشر / ٩ .
(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٢ / ٨٦ .
(٣) الحشر / ٨ .

ومعرفة رسول الله ﷺ بهذه النفسية الجشعة هى التى حدت به أن يعرض على غطفان ثلث ثمار المدينة وتنسحب من المعركة، وتمت المباحثات فى ذلك، وطلبوا نصف ثمار المدينة ،ثم حسم السعدان الأمر ورفضوا العرض حين خيَّرهم رسول الله ﷺ فيه .
وعيينة دائمًا يضع نصب عينيه خيرات المدينة وثمارها، وخيرات خيبر وثمارها، ولعلَّ نعيم بن مسعود الأشجعى الغطفانى رضي الله عنه يعطينا صورة عن غطفان وأحلامها فى ثمار المدينة وخيبر . يقول: كانت بنوقريظة أهل شرف وأموال، وكنا قومًا عربًا لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاء وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام، أشرب من شرابهم ، وآكل من طعامهم، ثم يحملوننى تمرًا على ركابى ما كانت فأرجع إلى أهلى) .

إنه حلم الأعرابى أن يحل ضيفاً باليهود يطعمونه، ويقرونه ويسكرونه بالخمر، ويملؤون ركابه تمرًا ويعود إلى باديته ؛ ولهذا كانت صداقات عيينة ومواقفه، كلها تقوم على هذا الطمع، وخيبر مخزن التمر فى الحجاز وريفها الجميل الملىء بالحدائق الغناء. فلذلك كانت أكبر صداقاته وتحالفاته مع اليهود. وعندما سمع بتحرك المسلمين نحوها ، سارع لينضم إليهم حتى يضمن ذلك المدد من خيرات خيبر له .

ومـرة ثانية (أرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ـ وهو رأس غطفان وقائدهم ـ :« أن ارجع بمن معك ولك نصف تمر خيبر هذه السنة، إن الله قد وعدنى خيبر ». فقال عيينة: لست بمسلم حلفائى وجيرانى) .

وفى الرواية الثانية:كان الإغراء أكثر: « إن الله قد وعدنى خيبر ، فارجعوا وكفوا فإن ظهرنا عليها فلكم تمر خيبر سنة » . لكن هيهات أن يتسع عقل عيينة الذى يتحلب شوقًا للغنيمة أن يدرك أبعاد العرض، ونور النبوة المشعشع من خلاله، فهو المطموس على قلبه، والمعمى على بصيرته ، فلا يدرك إلا المحسوس الغليظ، وكان من الممكن أن تهزه غزوة الأحزاب وفشل الهجوم فيها كما هزت أعماق صاحبه الحارث بن عوف الذى قال له عقب الخندق :

(. . . مع أنى أرى أمر محمد أمراً ظاهراً ، والله لقد كانت أحبار يهود وخيبر يحدثون أنهم يجدون فى كتبهم أنه يُبعث نبى فى الحرم على صفته) .

لقد أجاب عيينة بحسه الجاسى الغليظ على العرض النبوى: إنا والله ما كنا لنسلم حلفاءنا لشىء وإنا لنعلم ما لك ولمن معك بما ها هنا طاقة ، هؤلاء قوم أهل حصون ومنعة، ورجالٍ عددهم كثير ،وسلاح. إن أقمت هلكت ومن معك ، وإن أردت القتال عجلوا عليكٍ بالرجال والسلاح. ولا والله ما هؤلاء كقريش، قوم ساروا إليك، إن

أصابوا غرة منك فذاك الذى أرادوا وإلا انصرفوا . وهؤلاء يماكرونك الحرب ، ويطاولونك حتى تملهم ، فقال سعد بن عبادة : (موفَد رسول الله ﷺ لعيينة) :

أشهد ليحضرنك فى حصنك هذا حتى تطلب الذى عرضنا عليك، فلا نعطيك إلا السيف . وقد رأيت يا عيينة من قد حللنا بساحته من يهود يثرب ، كيف مُزِّقوا كل ممزق. . . فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يوجهوا إلى حصنهم الذى فى غطفان . . . فرعبوا من ذلك يومهم وليلتهم .

وكما هزم الله تعالى الأحزاب وحده يوم الخندق ، فهذا عيينة بقية الأحزاب وغطفان معه يصرفهم الله تعالى بنداء واحد ،(فلما كان بعد هذه من تلك الليلة سمعوا صائحًا يصيح، لا يدرون من السماء أو من الأرض:

يا معشر غطفان، أهلكم أهلكم!! الغوث، الغوث، بحيفاء ـ صيح ثلاثة ـ لا تربة ولا مال ! فخرجت غطفان على الصعب والذلول، وكان أمرًا صنعه الله لنبيه . . .

قالوا: فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بحيفاء وجدوا أهلهم على حالهم. فقالوا: هل راعكم شيء؟ قالوا: لا والله لقد ظننًا أنكم غَنمتم، فما نرى معكم غنيمة ولا خيرا !

فقال عيينة لأصحابه: خَدَعنا والله! فقال له الحارث بن عوف: بأى شيء؟ قال عيينة : إنا فى حصن النطاة بعد هدأة [1] إذ سمعنا صائحًا يصيح لا ندرى من السماء أو من الأرض: أهلكم، أهلكُم بحيفاء ، صيح ثلاثة ، فلا تربة ولا مال) .

ووجد الحارث بن عوف، ذو المعدن النفيس الذى أفنى ماله لصلاح قومه ، والذى قال فيه زهير بن أبى سلمى وفى هرم بن سنان:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما ... تهزَّل ما بين العشيرين بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجُرهُم
يميناً لنعم السيدان وُجدتما ... على كل حال من سَحيل ومبرم[2]
تداركتا عبساً وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
عظيمين فى عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم[3]

قال الحارث بن عوف: الذى ذكرنا معدنا لسليل الغدر عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر الذى أوقد جده حذيفة نار الحرب بين عبس وذبيان .

---

(١) الهدأة: أول الليل إلى ثلثه .

(٢) من سحيل ومبرم : كناية عن أى أمر أبرمتموه أم لا تبرموه .

(٣) أيام العرب لمحمد جاد المولي وزملائه :٢٧٣ .

(قال الحارث: يا عيينة، والله لقد غبرت إن انتفعت، والله إن الذى سمعت لمن السماء، والله ليظهرن محمد على من ناوأه، حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد) .

وهزَّت كلمات الحارث كيان عيينة لفترة من الزمن، وبدأ يتسلل خيط من النور ضمن الظلمات الكالحة فى قلبه ، لكن سُرعان ما انطمس هذا النور، وعاد شيطانه الرجيم يقوده ذليلاً إلى حرب محمد ﷺ مرة ثانية .

(فأقام عيينة أيامًا فى أهله ، ثم دعا أصحابه للخروج إلى نصر اليهود، فجاءه الحارث بن عوف فقال: يا عيينة أطعنى وأقم فى منزلك، ودع نصر اليهود. مع أنى لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد ولا آمن عليك ، فأبى عيينة أن يقبل قوله، وقال: لا أُسلم حلفائى لشىء)[1].

ونتابع مع أبى شبيم المُزنى ـ الذى أسلم فحسن إسلامه فيما بعد ـ رحلة العودة إلى خيبر ، والأمجاد التى يحلم بها عيينة قبل أن يفوته الركب ، ولا ينال شرف المشاركة فى هزيمة محمد، فيكون الشريك فى المغانم كلها .

(. . . رجع بنا عيينة فلما كان دون خيبر بمكان يُقال له :الحطام، عرَّسنا من الليل ففزعنا، فقال عيينة: أبشروا، إنى أرى الليلة فى النوم أنى أعطيت ذا الرقيبة ـ جبلاً بخيبر ـ قد والله أخذت برقبة محمد) .

وهكذا بال شيطانه عليه ونفخ فى سحره ، حتى اقترب من خيبر، فكانت القارعة له: (فلما قدِمنا خيبر قدم عيينة، فوجد رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، وغنَّمه الله ما فيها) .

وهكذا بلؤم الأعراب، وخداعهم وخبثهم، يلبس جُبَّة جديدة لشيطان جديد، هدفه منها المشاركة فى الغنائم مع محمد ﷺ ، حين فاته المشاركة مع حلفائه اليهود فى هزيمة محمد وغنيمته .

قال بثوبه الجديد العارى: (يا محمد أعطنى مما غنمت من حلفائى ، فإنى انصرفت عنك وعن قتالك، وخَذَلْتُ حلفائى، ولم أكثر عليك، ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل) ،ولعلَّ الحيلة تنطلى على محمد أمام هذه الأمجاد الكبرى.

وجاء جواب الرسول الله ﷺ. كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ﴾ [2]. فكانت كلمات قلائل أبطلت السحر والساحر قال له

---

(١) مقتطفات من المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٠ - ٦٥٢ . (٢) الأنبياء / ١٨.

ﷺ: « كذبت، ولكن الصياح الذى سمعت أنفرك إلى أهلك» .

وحين راح عيينة يذوب كما ينماع الجليد ، أطلق صرخة استغاثة أخيرة: أجزنى يا محمد فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأسلوبه الساخر نفسه: « لك ذو الرقيبة ». قال عيينة: وما ذو الرقيبة؟ قال: « الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته » .

وأصبح عيينة كالذى يتخبطه الشيطان من المس .

فمحمد ﷺ، يعرف سر انسحابه، ويعرف ما قال فى طريقه، ويعرف ما رأى فى نومه، فهو النبى الموحى إليه. ويبرز صوت من أعماق ظلمات قلبه: أن كشف الأمر، وانكشف الغطاء، فلم الحرب ولم العداء؟ وجمع الشيطان كل جنده، وقاموا بخنق هذا الصوت فوق جبل الظلمات عنده، فدفن ثانية، وراح إلى حلفائه اليهود، يبكى ويجتر آلامه ويبث حرقة كبده، ويشوى مرارة قلبه قائلاً لهم:

ما رأيت كاليوم أمرا ، والله ما كنت أرى أحدًا يصيب محمدًا غيركم، قُلتُ: أهل الحصون والعدة والثروة أعطيتم بأيديكم، وأنتم في هذه الحصون المنيعة، وهذا الطعام الكثير، ما يوجد له آكل، والماء الواتن : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ (١) .

قالوا: قد أردنا الامتناع فى قلعة الزبير، ولكن الدُبول قُطعت عنا، وكان الحر، فلم يكن لنا بقاء على العطش ،قال: قد وليتم من حصون ناعم منهزمين، حتى صرتم إلى حصن قلعة الزبير .

وجعل يسأل عمَّن قُتل منهم فيُخبَرُ. قال: قُتل والله أهل الجِدِّ والجَلَدِ. لا نظام ليهود بالحجاز أبدًا . وكانت بمثابة الاعترافات الأخيرة بالضربة القاتلة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾(٢).

قال له ثعلبة بن سلام بـن أبى الحقيق:ـ وكانوا يقولون : إنه ضعيف العقل مختلط ـ وما اتهموه بذلك إلا لأنه الصوت الوحيد للحق فى صفهم .

قال له: يا عيينة ، أنت غررتهم وخذلتهم، وتركتهم وقتال محمد ، وقبل ذلك ما صنعت فى بنى قريظة . فقال عيينة: إن محمداً كادنا فى أهلنا، فنفرنا إليه حين سمعنا الصريخ ونحن نظن أن محمدًا قد خالف إليهم فلم نر شيئًا ، فكررنا إليكم لننصركم . قال ثعلبة: ومن بقى تنصره؟ قد قُتل من قُتل وبقى من بقى، فصار عبداً لمحمد،

---

(١) القلم / ٣٠ .

(٢) إبراهيم / ٢٢ .

وسبانا، وقبض الأموال .

ثم جاءت القارعة الأخرى على أم رأسه من رجل من قومه .

يقول رجل من غطفان: لا أنت نصرت حلفاءك فلم يُعدُّوا عليك حلفنا ولا أنت حيث وليت كنت أخذت من تمر خيبر من محمد سنة ، ثم جاءته الصفعة على وجهه بقول الغطفاني: والله إنى لأرى أمر محمدٍ أمرًا ظاهرًا ليظهرن على من ناوأه .

وكاد يأكل نفسه من الغيظ حين عاد إلى قومه، خالى الوفاض بخفى حنين، لا غنيمة ولا نصرًا ، فوجد الحارث بن عوف السيد الثانى لغطفان ينتظره ليجرعه غصص الموت الأخيرة فى حلقه، واحدة تلو الأخرى :

(فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال:

ألم أقل لك أنك توضع فى غير شىء؟ والله ليظهرن محمد على من بين المشرق والمغرب ،اليهود كانوا يخبروننا بهذا. أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول:

إنا نحسد محمدًا على النبوة حيث خرجت من بنى هارون وهو نبى مرسل واليهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذبحان واحد بيثرب، وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعًا؟؟! قال: نعم ،والتوراة التى أنزلت على موسى، (وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه!)[1].

وندع عيينة صريعًا لنمضى عنه. وهو يعانى سكرات موت الجاهلية فى نفسه، على أمل ضعيف فى أن يحيا بالإسلام من جديد بعد أن انهار آخر حلفائه اليهود وأعتاهم .

١٢ـ النسوة المسلمات والغنائم :

اكبر تجمع نسوى إسلامى فى حرب إسلامية أيام النبى ﷺ كان يوم خيبر (وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، أم سلمة زوجته، وصفية بنت عبد المطلب، وأم أيمن، وسلمى امرأة أبى رافع مولاة النبى ﷺ . . .) ، فأهله وخاصته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانوا أربعة زوجته وعمته، واثنتين من مواليه .

وامرأة عاصم بن عدى ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر ، وامرأة عبد الله بن أنيس، وهاتان يجمعهما حدث عجيب واحد ،هو أنهما نفستا على الطريق . فعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: خرجت مع النبى ﷺ إلى خيبر، ومعى زوجتى حُبلى فنُفست بالطريق، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: « انقع لها تمرًا. فإذا أنعم بُلَّهُ فأمرته ثم

---

(١) مقتطفات من المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٥ - ٦٧٧ .

تشربه » . ففعلت فما رأت شيئًا تكرهه .

نسوق هذا الدرس للذين يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل خروج المرأة. وأنها لضعفها وعجزها يجب أن تدفن فى البيت، ولا يجوز لها الخروج إلا لضرورة قاهرة. بل يبالغ بعضهم فيفخر أن المرأة لم تخرج من بيتها إلا لقبرها ، ويجعلون روح الإسلام هى هذا المعنى ولا يرون خروجها لشىء إلا قهراً عنهم. ونتساءل عن الضرورة القاهرة بخروج هذا الوفد النسائى الضخم مرافقاً للجيش النبوى ، ومن الممكن أن يكن سبايا بيد اليهود ولم يمنعهن ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل أذن لهن،كما تقول أم سنان الأنصارية ـ رضى الله عنها ـ لما أراد رسول الله ﷺ الخروج جئته فقلت: يا رسول الله، أخرج معك فى وجهك هذا أخرز السقاء ، وأداوى المرضى والجريح إن كانت جراح، وأنظر الرحل، فقال: « اخرجى على بركة الله » .

فقد تحدثت عن مهمتها التى ستخرج من أجلها، وهى ستداوى الرجال وتسقى الرجال، وتعالج الرجال، فكيف تقشعر جلود هؤلاء المتحمسين من المؤمنين إن ذكر دور المرأة المسلمة فى حرب العدو ومواجهته ؟

لكن وقوف القلم عند هذا المنظر العجيب كما تقف آلة التصوير فى عرضه ووصفه أن اثنتين من هؤلاء العشرين كانتا حاملتين فى شهرهما التاسع. وولدتا على الطريق أو فى قلب المعركة، ولم يبدأ الزوج يسب ويلعن الساعة التى سمح فيها لزوجته بالخروج فقد فضحته. وماذا يفعل؟ وقد ولدت ، وملأ دم النفاس الرحل الذى تركب عليه، بل مضى بقدم ثابتة إلى قائده الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخبره بولادتها. فماذا كان موقف إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا الخبر؟ هل قرَّع ابن أنيس وعاصم ابن عدى على هذه المغامرة الشنيعة فيخرجا زوجتيهما وهما حاملتان فى شهرهما الأخير ؟ لا .

لقد وصف ـ عليه الصلاة والسلام ـ الوصفة الملائمة لهذه النفساء وأعطاها من اهتمامه رغم همه بالعدو اللدود الذى يواجهه ما يناسب أهمية الحدث، والمشاركة فيه فى وصفة طبية يرافقها حتى طريقة تنفيذها وكيفية تناولها:

« انقع لها تمراً فإذا أنعم قَلِّبه فأمرثه ثم تشربه » .

ففعلت ، فما رأت شيئًا تكرهه .

وإذا كان المتقدمات فى السن اللاتى عركتهن الحياة ، وكوَّنت عندهن الخبرة فى التمريض والسقاية، فما بال الشابات اللاتى لم يزلن يلدن وينفسن فى مقتبل حياتهن،

يشاركن فى الجهاد والغزو ؟

نتابع أسماء المجموعات العشرين اللاتى شاركن فى شرف الجهاد فى خيبر ففيهن أعظم النماذج النسائية فى المجتمع الإسلامى:

(أم عمارة نسيبة بنت كعب،وأم منيع، وكعيبة بنت سعد الأسلمية،وأم متاع الأسلمية ، وأم سليم بنت ملحان ،وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية، وهند بنت عمرو ابن حرام ، وأم علاء الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية ،وأم عطية الأنصارية ،وأم سليط) .

وإضافة إلى هذه المجموعة العشرين يطالعنا مجموعة أخرى من نساء غفار :

(عن أمية بنت أبى الصلت عن امرأة من بنى غفار وقد سماها لى، قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من بنى غفار ،فقلن : يارسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو يسير إلى خيبر ـ فنداوى الجرحى ونعين المسلمين ماستطعنا . فقال : « على بركة الله »).

وحتى هنا كل ما نضيفه من معلومات جديدة هو انضمام عدة من نسوة غفار إلى الركب النبوى المتجه إلى خيبر،لكننا نوقف آلة التصوير ـ القلم ـ عند هذا المشهد المثير ، تصوره لنا هذه المرأة العظيمة التى كانت فى ذلك الوقت فى ميعة الصبا ومقتبل العمر ، ولم تغد ناهداً بعد .

قالت :فخرجنا معه ، وكنت جارية حديثة السن ، فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله .

فلقد أكرمت أن كانت رفيقة المصطفى على راحلته ، وهى فتاة حديثة السن ، ويكفيها فخرا على صويحباتها مدى الدهر أن أردفها رسول الله ﷺ خلفه .

فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح فأناخ راحلته ، ونزلت من حقيبة رحله ، وإذا بها دم منى ، فكانت أول حيضة حضتها .

وإذا بها تحس من الخجل والحياء ما تتمنى به لو أن الأرض تبتلعها ، ولم تركب خلف رسول الله ﷺ ، فقد تلطخت حقيبة رحله بالدم ، وكيف تنزل ، والدم يصب عليها صباً ، فيملأ حقيبة الرحل ؟ وأين تمضى ؟ لقد استصغرت شأنها أن خرجت هذا المخرج ، ووقعت فى هذا المأزق الصعب .

ويلحظ إمام المربين ، وإمام الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالارتباك والحياء الذى نزل بهذه الفتاة الحديثة السن وأدرك بنظرة واحدة الأمر كله . فلم يسألها حتى لا يزيدها

إحراجاً : ماذا جرى ؟ ما بك ؟ لم لا تنزلين ؟ إنما قال لها مباشرة : « مالك ؟ لعلك نفست ؟ » (١) .

قالت : والحياء يغمر وجهها فيزيده توردا وحيوية ، وتغمر وجهها بيديها : نعم.

وتوقعت أن تطرد من هذه الحظيرة ، وهى تقبل ذلك بعد أن آذت رسول الله ﷺ فى رحله . ويكفيها هذه المسافة القليلة التى رافقته فيها ، فكيف كانت المعالجة ؟

قال : « فأصلحى من نفسك ، وخذى إناءً من ماء فاطرحى فيه ملحاً ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم » .

وكان هذا الكلام بلسماً لنفسها ، فسوف تقوم بتنظيف الحقيبة ، كما أمرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتعفى آثار نفاسها وحيضتها على الوجه الذى علّمه إياها رسول الله ﷺ ، وتمضى بعيداً بعيداً بحيث لا ترى رسول الله ﷺ ولا يراها حياءً منه ، إذ تكاد تذوب خجلاً منه .

لكن إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم ينه كلامه ، بحيث يكون شغله الشاغل نظافة حقيبة رحله ، بل كان شغله الشاغل هو نظافة هذا القلب الطاهر المتفتح على الوجود ، ورفع معنويات هذه الفتاة التى طمحت إلى مرافقته فى حرب ضروس لا يعلم مداها إلا الله ، فلابد أن ينمى فيها هذه المعانى الخالدة السامية وأتم كلامه قائلاً : « ثم عودى لمركبك » .

يالها وقد نالت السماء سعادة ، وجاوزت الجوزاء فرحاً ، تعود إلى موقعها ، بعد إصلاح شأنها ، وبعد تنظيف حقيبة رحلها ، وكأن شيئاً لم يكن ، وتعود لمركبها ، وتشتد المعركة ، ولا ينسى رسول الله ﷺ هذه الفتاة حديثة السن ، الممتلئة تسامياً إلى المعالى . فيفتح الله عليه خيبر ، وتنثال الغنائم على المسلمين، وتنهمر كنوز الأرض عليهم ، فلا ينسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الفتاة الغفارية الحديثة السن ، وتسمع أن رسول الله ﷺ يطلبها ،فتأتى لاهثة حبية إليه، وتحدثنا عن أسعد لحظة فى حياتها فتقول :

(ورضخ لنا رسول الله ﷺ من الفىء ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها وجعلها بيده فى عنقى) .

وارتفعت هذه التجربة الشعورية فى حسها حتى لتملأ عليها كيانها كله ، ووجودها كله ، بهذه القلادة النبوية . (فوالله لا تفارقنى أبداً) .

---

(١) نفِست : هنا بمعنى حضت ، وقد يأتى النفاس بهذا المعنى .

وبرَّت بقسمها وكانت فى عنقها حتى ماتت ، ثم لم تكتف بذلك بل رافقتها فى قبرها وبقيت معها بعد موتها : (وأوصت أن تدفن معها) .

لقد أحبت فى رحلتها هذه كل شىء أتاها من حبيبها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى الملح الذى كان خاصاً لتنظيف حقيبة رحلها ، أحبته طالماً أوصاها الحبيب المصطفى به . فكانت لا تطهر من حيضة إلا جعلت فى طَهورها ملحاً .

وكما أحبت القلادة فى حياتها وبعد موتها،أحبت الملح وصية حبيبها المصطفى به ، فى حياتها وموتها ، (وأوصت أن يُجعل فى غسلـها حين ماتت) .

لك الله يا فتاة غفار ، أى وسام عظيم قلدك إياه نبى الأمة ونبى المرحمة ونبى الملحمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

و صلى الله عليك يا إمام المربين ، كيف تبنى النفوس وتحتضن القلوب .

وعودة إلى الغنائم ، وإلى أم سنان الأنصارية ـ رضى الله عنها ـ التى اختارت رفقة المصطفى على رفقة أهلها وذويها فى المعركة بعد أن استأذنت فى المشاركة فى الغزوة .

فقال لها : « اخرجى على بركة الله ، فإن لك صواحب قد كلمننى ، وأذنت لهن من قومك ومن غيرهن ، فإن شئت فمع قومك ، وإن شئت فمعنا ». قلت : معك . ولم لا تقول ذلك ، وقد فتح لها كوة لهذه الخطوة أن تكون صاحبة المصطفى ولو لأيام قلائل تتعلم منه وتشهد حركته وسكنته وجهاده . فقال لها ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «فكونى مع أم سلمة زوجتى » وبهذه الصحبة راحت تحدثنا ـ رضى الله عنها ـ عما شهدت من جهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى كان كأى جندى من أصحابه يشارك فى الحرب ، ويقاتل اليهود ، وذلك جبراً لخاطر أمته ، والجيل الذى يتربى على يديه .

(فكان رسول الله ﷺ يعدو من الرجيع كل يوم عليه الدرع ، فإذا أمسى رجع إلينا .

لقد كان يداوم على حربه ، ويتابع وجوده فيها ، ويحافظ على حقه فى المشاركة من الصباح إلى المساء ، وليس يوماً واحداً فقط لتتحدث الأنباء عن تواضعه ، وتتناقل الركبان حسن خلقه .

(فمكث على ذلك سبعة أيام حتى فتح الله النطاة ، فلما فتحها تحوَّل إلى الشقِّ ، وحوَّلنا إلى المنزل . .) وبهذا الفراق افتقدنا يوميات المصطفى الحبيب ﷺ.

لكننا نشهد العرس الإسلامى بعد الفتح ، حيث نالها نصيبها مما أهداها ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الغنائم . كما نال النساء جميعاً اللاتى شاركن فى الجهاد، وبقى هذا العطاء النبوى عندهن يتبركن به طيلة حياتهن ، ولنأخذ هذا النموذج من أم سنان ـ رضى الله عنها ـ : (فأعطانى :

١ ـ خرزاً وأوضاحاً من فضة أصيبت من المغنم .

٢ ـ وأعطانى قطيفة فدكية .

٣ ـ وبُرداً يمانياً .

٤ ـ وخمائل .

٥ ـ وقدراً من صُفر (نحاس) .

ولم تنس أن تحدثنا عن مهمتها التى مضت فيها فقالت : وكان رجال من أصحابه قد جُرحوا ، فكنت أداويهم بدواء كان عند أهلى فيبرؤون . ثم توّجت هذه العطايا ، بالإكرام النبوى العظيم :

(فرجعت أم سلمة فقالت لى حين أردنا دخول المدينة ـ وكنت على بعير من إبل النبى ﷺ منحه لى ـ فقالت: بعيرك الذى تحتك لك رقبته ، أعطاكيه رسول الله .

فحمدت الله ،وقدِمت بالبعير،فبعته بسبعة دنانير.قالت:فجعل الله فى وجهى ذلك خيراً).

١٣ـ الأعـراب والغنائم :

ولم ينس رسول الله ﷺ كذلك العبيد الذين شاركوا فى المعركة، فأهداهم ما يجبر به خاطرهم من الغنائم ، ليكون الجيش كله أسرة واحدة ، إنما لم يعط الأعراب الذين انضموا للمعركة طمعا فى الغنائم ليكون جهادهم خالصاً لوجه الله تعالى،وليكون موعود الله تعالى للجيل الصابر الصادق الذى مضى معه إلى الحديبية . . لأن هؤلاء الأعراب نكلوا ونكثوا عن المشاركة فى غزوة الحديبية . . لأنهم حسبوا أن ﴿ **أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**﴾ (١) ، فرفضوا ركوب المخاطر ،ولكن عندما وجدوا العودة المظفرة بعد هدنة الحديبية ، وسمعوا بالمغانم التى وعدها الله المؤمنين فى خيبر سارعوا فانضموا للمسلمين طمعاً فى هذه المغانم ، فقال لهم الله تعالى :

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا. قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢) .

---

(١) الفتح / ١٢.　　(٢) الفتح / ١٥ ، ١٦ .

خامسا : خيار أهل الأرض يتجمعون فى خيبر

أ ـ الحبشيون البحريون :

وهو التعبير الذى أطلقه عليهم فاروق الأمة عمر رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق : وكان من أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حين بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى. فحملهم فى سفينتين ، فقدم بهم عليهم وهو بخيبر بعد الحديبية .

من بنى هاشم بن عبد مناف : جعفر بن أبى طالب معه امرأته أسماء بنت عُميس ، وابنه عبدالله بن جعفر ، وكانت ولدته بأرض الحبشة .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف : خالد بن سعيد بن العاص معه امرأته أمينة بنت خلف ، وابناه سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد .

وأخوه عمرو بن سعيد ، ومعيقب بن أبى فاطمة ، وأبو موسى الأشعرى حليف آل عتبة بن ربيعة .

ومن بنى أسد بن عبد العزى : الأسود بن نوفل بن خويلد ، رجل .

ومن بنى عبدالدار بن قصى : جهم بن قيس معه ابناه عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم ، رجل .

ومن بنى زهرة بن كلاب : عامر بن أبى وقاص ، وعتبة بن مسعود حليف لهم من هذيل ، رجلان .

ومن بنى تيم بن مرة بن كعب : الحارث بن كعب بن صخر ، رجل كانت معه امرأته ريطة بنت الحارث فهلكت بأرض الحبشة .

ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب : عثمان بن ربيعة بن أهبان، رجل .

ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب : محمية بن الجزء ، حليف لهم من بنى زبيد .

ومن بنى عدى بن كعب بن لؤى : معمر بن عبد الله بن نضلة ، رجل .

ومن بنى عامر بن لؤى بن غالب : أبو حاطب بن عمرو ، ومالك بن ربيعة معه

امرأته عمرة بنت السعدى ، رجلان .

ومن بنى الحارث بن فهر بن مالك : الحارث بن عبد قيس ، رجل .

وقد كان حمل معهم فى السفينتين نساءٌ من نساء من هلك هنالك من المسلمين .

فهؤلاء الذين حمل النجاشى مع عمرو بن أمية الضمرى ، فجميع من قدم فى السفينتين إلى رسول الله ﷺ ستة عشر رجلاً)(١) .

وجميع من هاجر إلى أرض الحبشة من النساء من قدم منهن ، ومن هلك هنالك ، ست عشرة امرأة سوى بناتهن اللاتى ولدن هنالك ،من قدم منهن ،ومن هلك هنالك ، ومن خرج به منهن حين خرجن .

من قريش من بنى هاشم : رقية بنت رسول الله ﷺ .

ومن بنى أمية بن عبد شمس : أم حبيبة بنت أبى سفيان معها ابنتها حبيبة، خرجت بها من مكة ورجعت بها معها .

ومن بنى مخزوم : أم سلمة بنت أبى أمية قدمت معها بزينب ابنتها من أبى سلمة ، ولدتها هنالك .

ومن بنى تيم بن مرة : ريطة بنت الحارث ، هلكت بالطريق وبنتان لها كانت ولدتهما هنالك ، عائشة بنت الحارث وزينب بنت الحارث ، هلكن جميعاً وأخوهن موسى بن الحارث من ماء شربوه على الطريق . وقدمت بنت لها ولدتها هنالك فلم يبق من ولدها غيرها ، فاطمة .

ومن بنى سهم بن عمرو : رملة بنت أبى عوف بن ضبرة .

ومن بنى عدى بن كعب : ليلى بنت أبى حثمة بن غانم .

ومن بنى عامر بن لؤى : سودة بنت زمعة ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو ، وابنه المجلِّل ، وعمرة بنت السعدى ، وأم كلثوم بنت سهيل .

ومن غرائب العرب : أسماء بنت عميس الخثعمية ، وفاطمة بنت صفوان الكنانية، وفكيهة بنت يسار ، وبركة بنت يسار ، وحسنة أم شرحبيل بن حسنة)(٢) .

ب ـ الأشعريون :

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٨ ـ ١١ بتصرف . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٧ ـ ١٨ بتصرف .

بلغَنَا مخرجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ؛ أنا وأخوان لى أنا أصغرهم : أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم - إما قال : فى بضع، وإما قال فى ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى . فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب فأقمنا معه ، حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خيبر ، وكان أناس من الناس يقولون لنا - يعنى لأهل السفينة - : سبقناكم بالهجرة . ودخلت أسماء بنت عُميس - وهى ممّن قدم معنا - على حفصة - زوج النبى ﷺ زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها - فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر : آلحبشية هذه؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم . قال : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ، فغضبت وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم . وكنا فى دار - أو فى أرض - البُعَدَاء والبغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نؤذى ونخاف . وسأذكر ذلك للنبى ﷺ وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

فلما جاء النبى ﷺ قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال : كذا وكذا . قال : « فما قلت له ؟ » قالت : قلت له كذا وكذا . قال : « ليس بأحقَّ بى منكم . له ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً [1] يسألونى عن هذا الحديث. ما من الدنيا شىء هم به أفرح، ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ. قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى[2] .

وعن أبى موسى قال : قدمنا على النبى ﷺ بعد أن افتتح خيبر ، فقسم لنا ، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا[3] .

جـ - الدوسيون :

قال ابن إسحاق : (وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرونه

---

(١) أرسالاً : أى أفواجاً .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨٤ ، ٤٨٥ برقم (٤٢٣٠) .
(٣) المصدر نفسه ٧/ ٤٨٧ برقم (٤٢٢٣) .

الناس ، ومن قدم عليهم من العرب ، وكان الطفيل بن عمر الدوسى يحدّث :

أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ، ولا تسمعن منه شيئاً .

قال : فوالله مازالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه . حتى حشوت فى أذنى كُرسُفاً فرقاً من أن يبلغنى منه شىء من قوله . وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة . قال: فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله . قال : فسمعت كلاماً حسناً . فقلت فى نفسى : واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته . قال :

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه . فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى: كذا وكذا للذى قالوا، فوالله مابرحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنىّ بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض علىّ أمرك .

قال : فعرض علىّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ماسمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه . قال : فأسلمت ،وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يانبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام . فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهـم إليه . فقال : « اللهم اجعل له آية » . قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر ، وقع نور بين عينى مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير وجهى . إنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراقى دينهم . قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى . قال : فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية . قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

فلما نزلت أتانى أبى ، وكان شيخاً كبيراً . فقلت : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى . قال : ولم يابنى ؟ قلت :أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ . قال : أى بنى فدينى دينك ، قال : قلت : فاذهب فاغتسل ، وطهر ثيابك ثم تعال حتى

أعلمك ما عُلِّمت . قال : فذهب فاغتسل وطهّر ثيابه ، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم ،قال ثم أتتنى صاحبتى، فقلت : إليك عنى ،فلست منى ولست منك . قالت : لم ؟ بأبى أنت وأمى . قال قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ . قالت : فدينى دينك ، قال : قلت : فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه . قال : وكان ذو الشرى صنم لدوس . وكان الحمى حمى حموه له ، وبه وشل[1] من ماء يهبط من جبل . قال : فقلت: بأبى أنت وأمى أتخشى على الصبية من ذى الشرى شيئاً ؟ قال : لا ، أنا ضامن لذلك . فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطؤوا علىّ ،ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت : يانبى الله ،إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم فقال : «اللهم اهد دوساً ، فادعهم وارفق بهم» . قال : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضت بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين بيتاً أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر،فأسهم لنا مع المسلمين)[2] .

وعن عنبسة بن سعيد أن أبا هريرة رضي الله عنه أتى النبى ﷺ فسأله، قال له بعض بنى سعيد بن العاص : لا تعطه . فقال أبو هريرة :هذا قاتل ابن قوقل.فقال: «واعجباً لوبْر تدلى من قَدوم الضأن »[3] .

(ويذكر عن الزبيدى عن الزهرى قال : أخبرنى عنبسة بن سعد أنه سمع أباهريرة يُخبر سعيد بن العاص قال : بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة قبيل نجد . قال أبو هريرة : فقدم أبان وأصحابه على النبى ﷺ بخيبر بعدما افتتحها ، وإن حُزُمَ خيلهم لليف . قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ، لا تقسم لهم . قال أبان : وأنت بهذا ياوبْر ،تحدَّر من رأس ضأن . فقال النبى ﷺ : « يا أبان ، اجلس » فلم يقسم لهم)[4] .

وعن عمر بن يحيى بن سعيد قال : أخبرنى جدى (أنا أبان بن سعيد بن العاص أقبل إلى النبى ﷺ ، فسلّم عليه . فقال أبو هريرة : يا رسول الله ، هذا قاتل أبو قوقل . وقال أبان لأبى هريرة : واعجباً لك وبْر تدأدأ من قدوم ضأن ينعى علىّ امرءاً أكرمه الله بيدى ، ومنعه أن يهيننى بيده)[5] .

---

(١) الوشل : الماء القليل . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥ ـ ٢٨ .
(٣ - ٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٩١ الأحاديث : ٤٢٣٧ ، ٤٢٣٨ ، ٤٢٣٩ .

١ ـ دعوة القيادات إلى المدينة :

انتهت الحديبية التى كانت إيذاناً بانتهاء عهد الخوف ، وانطلاقاً إلى التمكين التام فى الأرض والتى سماها الله تعالى : الفتح المبين . وحيث كان للإسلام عواصم احتياطية فى أكثر من موقع فى جزيرة العرب . وكانت أهم هذه العواصم والمراكز ثلاثة: الحبشة واليمن ودوس . وفى كل عاصمة من هذه العواصم تجمع إسلامى ضخم معترف عليه ، يمكن أن يلجأ المسلمون إليه لو اجتاحتهم ـ لا سمح الله ـ جائحة فى المدينة ـ العاصمة الرئيسية للدولة المسلمة . فكان أول ماحرص عليه الرسول ﷺ ، بعد زوال هذا الخطر ، هو دعوة هذه القيادات الإسلامية الموزعة فى هذه العواصم ، لتنضم إلى المسلمين فى المدينة ، ويتعرف الجيل الإسلامى الجديد عليها .

وإذا كان أهل الحديبية هم خيرة أهل الأرض ، فإخوانهم المرابطون فى تلك الأصقاع النائية مثلهم فى الفضل والسابقة والجهاد . فكان هذا القدر أن اجتمع الخيرون فى الأرض كلها مع أصحاب بيعة الرضوان ، وذلك فى المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود فى خيبر .

ولنقف مع كل رعيل منهم ، وننتقل إلى عالمهم الذى أقاموا فيه سنوات طوالاً ، ونتابع المسير معهم إلى عاصمة الإسلام الكبرى ؛ المدينة :

٢ ـ أول ملوك الأرض إسلاماً :

لقد وصل رسول الله ﷺ المدينة بعد الحديبية فى أواخر ذى الحجة ، فكان أول كتاب أمر به إلى النجاشى ملك الحبشة ، وذلك قبل أن ينطلق إلى خيبر .

(لما رجع من الحديبية اتخذ خاتماً ونقش عليه ثلاثة أسطر . وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد وذلك فى المحرم سنة سبع . فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن . فأخذه النجاشى ووضعه على عينة، ونزل عن سريره فجلس على الأرض . ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته .

وفى الكتاب الآخر أن يزوِّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، وأمره أن يبعث إليه بمن قبله من أصحابه ويحملهم ففعل. ودعا بحُقٍ من عاج، فجعل فيه كتابى رسول الله ﷺ وقال:

(لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرهما) وصلى عليه النبى ﷺ يوم مات ويروى أنه كان لا يزال النور على قبره) (١).

---

(١) سيرة النبى ﷺ للحافظ الدمياطى ـ مخطوط ـ (٦٩) .

أما الرسول المبعوث إلى النجاشى فتستمع إلى وصفه من الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

(عمرو بن أمية بن خويلد بن ضمرة الضمرى صحابى مشهور . . قال ابن سعد : أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وكان شجاعاً، وكان أول مشاهده بئر معونة. فأسره عامر بن الطفيل، وجز ناصيته وأطلقه، وبعثه النبى ﷺ إلى النجاشى فى زواج أم حبيبة، وإلى مكة فحمل خشباً من خشبته [١]. وله ذكر فى عدة مواطن وكان من رجال العرب جودًا ونجدة، وعاش إلى خلافة معاوية فمات بالمدينة، وقال أبو نعيم: مات قبل الستين)[٢].

٣ـ عمرو بن العاص القائد الفذ ينضم إلى الإسلام :

وفى خضم الحديث عن جعفر وأصحابه. الحديث عن خصمه اللدود عمرو بن العاص. الذى جاء فى بداية الدعوة إلى النجاشى موفدًا من قريش لاعتقال جعفر وأصحابه وتسليمهم إلى أهل مكة ورأينا من قبل فشله الذريع فى مهمته تلك، وها هو عمرو يعود الآن لاجئًا سياسيًا بعد هزيمة الخندق. ولندع الحديث له يحدثنا عن تطوراته النفسية والسياسية بعد غزوة الخندق، وكيف ومتى وصل إلى النجاشى طالبًا اللجوء السياسى قال: كنت للإسلام مجانباً معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحدًا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فقلت فى نفسى: كم أوضع [٣]، والله ليظهرن محمد على قريش، فخلَّفت [٤] مالى بالرهط، وأفلت ـ يعنى من الناس ـ فلم أحضر الحديبية ولا صلحها، وانصرف رسول الله ﷺ بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة، فجعلت أقول: يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف وما من شىء خير من الخروج وأنا بعد ناء عن الإسلام ، أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم. فقدمت مكة فجمعت رجالاً من قومى كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى ، ويقدِّمونى فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا مع يمن نفس، وبركة أمر. قال : قلت: تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو علوًا منكرًا، وإنى قد رأيت رأيًا . قالوا: وما هو؟ قال: نلحق بالنجاشى فنكون عنده . فإن كان يظهر محمد كنا عند النجاشى. فنكون تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد

---

(١) وهى خشبة خبيب بن عدى رضي الله عنه التى صُلب عليها .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٤/ ٢٨٥ ت ٥٧٦٠
(٣) أوضع البعير راكبة: إذا حمله على سرعة السير
(٤) فى البداية والنهاية لابن كثير: فلحقت بمالى بالرهط وأقللت من الناس.

محمد. وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا. قالوا: هذا الرأى! قال: فاجمعوا ما تهدونه له، وكان أحب ما يُهدى إليه من أرضنا الأَدَم. قال: فجمعنا أدَمًا كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشى .

ها هى عبقرية عمرو بن العاص تتجلى فى فهمه لتطورات الحرب العسكرية مع رسول الله ﷺ. فقد أدرك منذ الخندق، أن أمر محمد غالب ولا شك. فلن تستطيع مكة أن تحشد أضخم من هذا الحشد ـ عشرة آلاف مقاتل ـ وبعد حصار دام سبعة عشر يومًا عادت تجر أذيال الخيبة، وقد فقدت أعز أبطالها عمرو بن ود العامرى، ونوفل بن خويلد ؛ ولذلك اختار الانسحاب من المعركة الخاسرة بهدوء. ومضى إلى أرضه فى الرهط ومزرعته يعمل فيها كما مضى قائد الجيش العام أبو سفيان إلى تجارته فى الشام .

ولم يكتف بهذه الخطوة. فقد رأى بعمق نظرته بعد الحديبية ، أن ليس مكة هى التى سوف تسقط وحدها بيديه بل ستسقط الطائف أيضًا مكان مزرعته التى اعتزل بها الناس. والعاقل الحكيم هو الذى يتدارك الأمور قبل وقوعها، وبعد دراسة مستفيضة للساحة المحلية والعالمية، لم يجد حلاً خيرًا من الذهاب لصديقه النجاشى فى الحبشة، كما رأى المسلمون من قبل خمسة عشرة عامًا الحبشة هى الملجأ الوحيد الآمن. وبعد هذه الحرب الطويلة النفس من الأعوام الخمسة عشر، انقلبت الآية، وأصبحت قيادات مكة تبحث عن المكان الآمن لها فى الحبشة. وبذكاء لماح دعا قومه الذين يدينون بالزعامة له، وعرض عليهم رأيه ، وقرر أن يمضى مع وجهائهم إلى الحبشة. فهى مكان آمن على كل الحالات ، فلو انتصر محمد ﷺ ـ وهو الأرجح ـ لبقى بعيدًا عن متناول يده. لنأى الحبشة وبعدها، ولو انتصرت مكة فأهل مكة يعرفون فضله وبلاءه معهم من قبل فسيشركونه فى الغنيمة والنصر. واتجه الأمر إلى النجاشى بعمرو وصحبه .

(. . . ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشى ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه يزوِّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه ، فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك سُرَّت قريش وكنت قد أجزأت عنها حين قَتَلْتُ رسول محمد . قال:

فدخلت على النجاشى فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقى ! أهديت لى من بلادك شيئاً ؟ قلت: نعم أيها الملك، أهديت لك أدَمًا كثيرًا، ثم قرَّبْتَه إليه. فأعجبه، وفرَّق منه أشياء بين بطارقته ، وأمر بسائره فأُدخل فى موضع وأمر أن يُكتب ويحتفظ به. فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك! إنى قد رأيت رجلاً خرج

من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطينه فأقتله! فرفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره. وابتدر منخارى. فجعلت أتلقَّى الدم بثيابى ،وأصابنى من الذلِّ مالو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقًا منه. ثم قلت له:

أيها الملك ، لو ظننتُ أنك تكره ما فعلتُ ما سألتُك .

قال: واستحيى وقال: يا عمرو ، تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله؛ من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله؟

قال عمرو: وغيَّر الله قلبى عما كنتُ عليه، وقلت فى نفسى: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟

قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو ،فأطعنى واتبعه. والله إنه لعلى الحق وليظهرن على كل دين خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت: أفتبايعنى على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام، ودعا لى بطست فغسل عنى الدم ، وكسانى ثياباً ، وكانت ثيابى قد امتلأت من الدم فألقيتها ،ثم خرجت إلى أصحابى،فلما رأوا كسوة الملك سروا بذلك وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ فقلت لهم :كرهت أن أكلمه فى أوَّل مرة، وقلتُ أعود إليه. قالوا: الرأى ما رأيت! وفارقتهم كأنى أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن فأجد سفينته قد شحنت برُقَع[1]. فركبت معهم فدفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة)[2].

إنه فشل جديد يسطِّره فى تاريخه السياسى الجاهلى، فبعد أن أعدَّ كل العدَّة لهزيمة خصمه محمد ﷺ، ورأى الفرصة مواتية لقتل رسوله. ونال من الترحيب الملكى ما يفوق الوصف بعد أن قدَّم الهدايا الملائمة للنجاشى. وألقى كلمته بين يدى الملك وهو لا يشك لحظة واحدة بتسليم رسول محمد إليه. كان مالا يمكن أن يخطر له ببال .

(فرفع يده فضرب بها أنفى ضربةً ظننت أنه كسره، وابتدر منخارى ، فجعلت أتلقى الدم بثيابى، وأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقًا منه) .

إن كل الهزائم العسكرية التى هزم بها من قبل من محمد ﷺ ، لم تؤثر فيه مثل تأثير هذا الضرب من ملك صديق عزيز عليه، فكل ما فعلته الهزائم العسكرية أن أقنعته أن أمر محمد يعلو علوًا شديدًا منكرًا، وكان يرتفع فى أعماقه صوت فحيح ضعيف يدعوه إلى الإيمان فمحمد صادق فى دعواه، ومحمد لايكذب ، لكن أين يأخذ هذا الصوت مداه فى بحر سيطرة الشهرة والسمعة والمركز المرموق فى قريش؟! والذى قام

---

(١) الرقع: جمع رقعة كهمزة شجرة عظيمة . (٢) المغازى للوقدى ٢/ ٧٤١ ـ ٧٤٤ .

على عقيدة الجاهلية وعبادة اللات والعزى من دون الله .

لكن الوضع الجديد زلزل كل أعماقه، وهزّ وجدانه ، وتلّه تلاً عنيفًا ، حتى يرى بطن الأرض خيراً له من ظهرها أمام هذا الذل الذى أصابه .

وهنا وحيث سقطت كل الأقنعة، وتفجر الدم من أنفه يغرق ثيابه، وانهدمت القلعة الأخيرة التى يأوى إليها فى حماية النجاشى .

(قال : أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك .

قال: واستحيى وقال: يا عمرو تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى. والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله) .

لقد انهار بناء الجاهلية كله بضربة نجاشية قاضية ، وتحطّمت كل القلاع الحصينة الجاثية فوق قلبه ، فجاء الكلام الملكى بعد هذا يمس شغاف قلبه مباشرة وبدون سدود ولا قيود .

واتصل التيار الكهربائى من الإيمان والهدى بقلبه الذى مسته لمسة الحياة، فانتفض انتفاضة العصفور بلّله القطر، ورأى مباشرة بهذا النور الجديد .

« وغيَّر الله قلبى عما كنت عليه، وقلت فى نفسى: عَرَف هذا الحقَّ العربُ والعجمُ وتُخالفُ أنت؟ ! ! » .

(قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: أشهد به عند الله يا عمرو،فأطعنى واتبعه، والله إنه لعلى الحق ، وليظهرنَّ على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده) .

أما ظهوره على مكة والعرب ، فقد رآه عمرو بعين بصيرته ، لكن ظهوره على كل من ناوأه فى الأرض فهذا معنى جديد سكبه النجاشى فى قلب عمرو بن العاص .

وعندما يشتعل التيار الكهربى ، لن تستطيع أى قوة إطفاءه، فقد اتصل قلب عمرو بمخزن الطاقة مباشرة . ولم يتمالك أن قال:

أفتبايعنى على الإسلام؟ قال: نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام .

ولم ينتظر حتى يخرج إلى أصحابه فيستشيرهم. إنه (هو ذو رأيهم ومدرهم مع يمن نفس وبركة أمر) .

فهم الذين يفيؤون إليه وليس هو الذى يفيء إليهم .

وهكذا انضم قائد فذ جنديًا جديدًا فى دعوة الله عز وجل ، ليصبح واحدًا من

خيار أهل الأرض الذين بدؤوا يتجمعون ويتوافدون إلى المدينة .

صحيح أن وصوله الفعلى قد تأخر سنة كاملة عن إسلامه إلى المدينة، حتى صفر من السنة الثامنة لكن إسلامه ومبايعته للنجاشى على الإسلام، قد تم فى المجلس الملكى مباشرة. قبل صفر من السنة السابعة ونعود إليه فى رحلته الطويلة فيما بعد، مع أخويه العظيمين : خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة .

٤ـ الوفد الأول :

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النجاشى فى شأن جعفر ابن أبى طالب وأصحابه وكتب معهم: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة. إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى .

وكتب النجاشى إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشى سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته، الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام .

أما بعد، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ،فيما ذكرت من أمر عيسى. فورب السماء والأرض إن عيسى ـ عليه السلام ـ ما زاد على ما ذكرت ثفروقًا[(١)]. وأنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثته إلينا،وقدم ابن عمك وأصحابه. وأشهد أنك رسول الله، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك بابنى وإن شئت آتيتك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحاق : فذُكر لى أنه بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينتين حتى إذا توسطوا البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا [(٢)] .

وفى الوقوف مليًا أمام هاتين الرسالتين. نجد أن النجاشى يعلن الآن رسميًا

---

(١) الثفروق: قمع التمرة أى ما يوجد فى أسفلها .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى للحافظ ابن الجوزى ٢/ ٧٣٥.

إسلامه. ولا يكتفى بهذا الإعلان بل يبعث وفدًا من ستين من وجهاء الحبشة على رأسهم ابنه. وذلك فى سفينتين. والظاهر أن إحدى هاتين السفينتين قد غرق، ووصلت السفينة الأخرى سالمة. وذلك للجمع بين الروايات المتعارضة التى يشير بعضها إلى وصول الوفد يشير بعضها إلى غرق ابن النجاشى .

(ثم أرسل ابنه) فى ستين نفسًا فى سفينة (فى أثر من أرسله من عنده مع جعفر ابن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ وكانوا سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام كانوا عنده بالحبشة وسماهم قتادة ، فقال: أبرهة ، وإدريس ، وأشرف ، وأيمن ، وبحيرا ، وتمام ،وتميم ونافع وظن العز ابن الأثير أن بحيرا هو الراهب المشهور، والظاهر أنه غيره لأنه ﷺ إنما رآه فى أرض الشام، وهذا إنما هو بالحبشة وأين الجنوب من الشمال)(١).

إن هذا النصر على الساحة الدولية هو أضخم انتصار تحقق حتى الآن ، وذلك بدخول ملك دولة من هذه الدول الكبرى فى الإسلام، وهذا الإعلان الرسمى لهذا الدخول لم يتم بكل بساطة ، فقد سبقه ثورة شعبية أطاحت بالنجاشى عندما أعلن إسلامه مما اضطره بعد ذلك لكى يحافظ على الوجود الإسلامى فى الحبشة ليكتم إسلامه .

قال ابن إسحاق: وحدثنى جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشى: إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنًا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم. فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم. وإن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله. وأن محمدًا عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفُّوا له. فقال: " يا معشر الحبشة: ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى؛ قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ؛ قال : فما بالكم ؟ قالوا :فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد،قال:فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله فقال النجاشى ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى ابن مريم. لم يزد على هذا شيئًا. وإنما يعنى ما كتب. فرضوا وانصرفوا عنه. فبلغ ذلك النبى ﷺ فلما مات النجاشى صلى عليه واستغفر له) (٢).

لقد مر على هذا الحادث قرابة عشر سنين، وكان النجاشى هو المسلم الوحيد من الأحباش فى أرض الحبشة ها هو الزمن يمر والإسلام ينتشر فى السر فى حاشية الملك

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣/ ٣٤٥ . (٢) المصدر نفسه ٣ / ٣٤٥.

وأهله وشعبه ، فإذا به بعد عشر سنين يعلن الإسلام رسميًا فى الحبشة، ويتحرك وفد رسمى كذلك باسم الملك على رأسه ابن النجاشى، معلنًا الإسلام والبيعة لله تعالى ولرسوله .

يقول الزرقانى فى شرح المواهب: (وروى أحمد بسند حسن عن ابن مسعود قصة بعث قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشى ليرد أهل الهجرة إليهم، وفيها قول النجاشى: أنا أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى بشَّر به عيسى فى الإنجيل: والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته فأكون أنا الذى أحمل نعليه وأوضِّئه. وأن ابن مسعود تعجَّل فشهد بدرًا. وقد أسلفت لفظ الحديث ثمة فهو صريح فى إسلامه قبل بعث الكتاب سنة ست ،ويحتمل أنه أسلم وكتمه عن قومه حتى بعث إليه الكتاب فأعلن بالإيمان والعلم)(١) .

ونتابع الحديث مع الأمامين القسطلانى والزرقانى. نتتبع أخبار الوفد الحبشى المسلم:

(فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن سورة يس إلى آخرها) . . (فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه الصلاة والسلام وفيهم) كما رواه ابن أبى حاتم وغيره .

أنزل الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾(٢) إلى آخر الآية لأنهم كانوا من أصحاب الصوامع والتى بعدها ثناء عليهم أيضًا . . . . وليس قول قتادة : نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة الحق مما جاء به عيسى فلما بُعث محمد ﷺ آمنوا به وصدَّقوه مقابلاً لهذا بل بمعناه غايته أنه أبهم أهل الكتاب فيحمل على بيان ابن الزبير عند النسائى وابن عباس عند الطبرانى وسعيد بن جبير عند ابن أبى حاتم أنها نزلت فى أصحاب النجاشى، وقيل كما حكاه الخازن نزلت فى أربعين من نجران واثنين وثلاثنين من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، ومحصله أنها نزلت فى أصحاب النجاشى وشاركهم غيرهم والاختلاف فى عدة الحبشيين غير ضار (٣) فالأقل داخل فى الأكثر (٤)

وماذا عن هذا الوفد فى المدينة غير إسلامهم؟!

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣ / ٣٤٥ . (٢) المائدة / ٨٢ .

(٣) بل هو أقرب إلى الصحة إذا أخذنا برواية غرق إحدى السفينتين التى فيها ابن النجاشى . فيخفض العدد من السبعين إلى الاثنين والثلاثين .

(٤) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣/ ٣٤٥ .

عن أبى قتادة قال: قدم وفد النجاشى على رسول الله ﷺ، فكان يخدمه بنفسه. فقال له أصحابه : نحن نكفيك . فقال : « إنهم كانوا يكرمون أصحابى فأحب أن أكافئهم » (١).

وترد بعض الروايات عن أن الخطاب النبوى هو لغير النجاشى الأول ، فيناقش الإمام الزرقانى هذه القضية متابعًا تعليقه على قول الإمام القسطلانى :

وهذا النجاشى (هو أصحمة الذى هاجر إليه المسلمون فى رجب سنة خمس من النبوة) الهجرة الأولى ثم هاجرو إليه بعد قليل الهجرة الثانية كما مر تفصيله (وكتب له النبى ﷺ كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام) وكتابًا آخر بأن يزوِّجه أم حبيبة، ويحمل إليه من عنده من أصحابه وبعثهما مع (عمرو بن أمية) الضمرى سنة ست من الهجرة فآمن به وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب وتوفى فى رجب سنة تسع من الهجرة عند الأكثر، وقيل: سنة ثمان قبل فتح مكة كما ذكر البيهقى فى الدلائل (ونعاه) أى أخبر بموته (النبى ﷺ يوم توفى وصلى عليه بالمدينة) وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاته عليه صلاة الغائب من طرق عن جابر: لما مات النجاشى قال ﷺ: « قد مات اليوم عبد صالح يقال له : أصحمة فقوموا فصلوا » فصفَّنا خلفه. وعند ابن شاهين والدارقطنى عن أنس قال ﷺ: « قوموا فصلُّوا على أخيكم النجاشى » فقال بعضهم: يأمرنا أن نصلى على علج من الحبشة فأنزل الله : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** . . . ﴾(٢) إلى آخر السورة .

وللدارقطنى وغيره عن أبى هريرة فوثب ﷺ ووثبنا معه حتى جاء المصلى فقام فصففنا وراءه فكبَّر أربع تكبيرات. وروى ابن إسحاق عن عائشة: لما مات النجاشى كنا نتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

وأخرجه أبو داود وترجم عليه النور يرى على قبر الشهداء ، وأما النجاشى الذى ولى بعده وكتب له النبى ﷺ كتابًا (يدعوه إلى الإسلام) روى البيهقى عن ابن إسحاق قال: هذا كتاب من النبى محمد ﷺ إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدًا عبده ورسوله فأسلم تسلم ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (٣) فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك » قال الحافظ ابن كثير: الظاهر أن هذا الكتاب إنما هو إلى النجاشى الذى وُلى بعد المسلم

(١) الوفا بأحوال المصطفى للحافظ ابن الجوزى ٢/ ٧٣٦ .
(٢) آل عمران / ١٩٩ . (٣) آل عمران / ٦٤ .

صاحب جعفر وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله قبل الفتح. قال الزهرى: كانت كتبه ﷺ واحدة يعنى نسخة واحدة وكلها فيها هذه الآية(١).

٥ـ الوفـد الثـانى :

(وذكر ابن سعد أنه ﷺ بعث إليه مع عمرو بن أمية بكتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام. والثانى أن يزوجه أم حبيبة، وأن يبعث إليه من عنده من أصحابه ويحملهم فأسلم وفعل ما أمر به) فقد توجه جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه إلى المدينة ومعه بقية الصحب الذين ذاب قلبهم شوقًا وحنينًا إلى أن يشهدوا عز الإسلام وانتصاراته فى المدينة المنورة، وقد طال عليهم البعد والغربة ونأى الدار ما ينوف عن اثنى عشر عامًا وهم يقيمون بالحبشة بأمر رسول الله ﷺ كما ذكر أبو موسى رضي الله عنه إذ قال: فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فكان أسعد خبر تلقوه هو انضمامهم إلى الحظيرة النبوية فى المدينة .

أما الزواج من أم حبيبة وهو الشق الأول من الكتاب الثانى فسنعود إليه فيما بعد، وتحدثنا أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ عن وصول الوفد إلى المدينة فتقول: خرجنا (إلى المدينة فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فخرج من خرج إليه فأقمت بالمدينة حتى قدم)(٢).

ولم يتمالك جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه والمسلمون معه أنفسهم أن ينتظروا فى المدينة والمدينة خلاء من حبيبها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فشدوا الرحال إلى خيبر يتنسموا نسيم الانتصارات العظمى هناك(٣) .

وكانت الفرحة الغامرة بلقاء الأحبة ـ محمد وصحبه ـ بعد غياب طويل لم يتمالك سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيه من إظهار مشاعره ، فعانق ابن عمه ورسوله إلى الحبشة جعفرًا رضي الله عنه وقبل ما بين عينيه ،كما روى البيهقى عن جابر قال : (لما قدم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ. فلما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ حجل قال: يعنى مشى على رجل واحدة إعظامًا منه لرسول الله ﷺ فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه)(٤) .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ٣/ ٣٤٦ وفى صحيح مسلم (أن نبى الله ﷺ كتب إلى قيصر وإلى كسرى وإلى النجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله وليس النجاشى الذى صلى عليه) .

(٢) شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقانى ٣/ ٣٤٥ . (٣) بهجة المحافل وبغية الأماثل للعامرى ١/ ٣٤٤ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٤٦ وقال فيه: فى إسناده إلى الثورى من لا يُعرف .

وترجم هذه المشاعر ﷺ فى كلمة خالدة خلود فتح خيبر ، كما رواها لنا البيهقى عن جابر رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر قدم جعفر من الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ فقبَّل جبهته ثم قال: « والله ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » (١).

وفى رواية ابن إسحاق: « ما أدرى بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(٢).

وحتى ندرك عظمة هذا الوفد وموقعه فى الأمة ، نشهد ذلك النقاش العاصف بين أسماء بنت عُميس ـ رضى الله عنها ـ زوج جعفر بن أبى طالب، وبين الرجل الثانى فى الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فها هو الفاروق عمر يرى أسماء الحبشية البحرية عند ابنته أم المؤمنين حفصة ولا يجد حرجًا أن يقول لها وهى تمثل هؤلاء الوافدون الجدد: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم .

ومن حق عمر بن الخطاب أن يقول ذلك لها فهو لم يرها، ولم ير أعضاء هذا الوفد فى الصف الإسلامى ، ولم يشهدوا عمليات الهجرة الضخمة التى تمت من مكة إلى المدينة، ولم يشهدوا معارك الإسلام الكبرى على أثر الهجرة بدرًا وأحدًا والخندق. إنما وفدوا الآن ومن جديد بعد انتهاء كل الحروب مع المشركين واليهود. وصلوا مع فتح خيبر، فبينهم وبين هذا الجيل المجاهد جيل بدر وبيعة الرضوان وجيل أحد والخندق آماد وآماد، وآفاق وآفاق لقد تخلفوا هناك فى الحبشة، ولا يعرف من جهادهم ما يستحق الذكر .

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى قلب الجاهلية يوم غادر هذا الرعيل مكة المكرمة. ولقد كانت نظرة هذا الرعيل إليه يمثلُّها تلك المقالة التى قالها عامر ابن ربيعة لزوجه أم عبد الله بنت أبى حثمة كما تقصها هى علينا :

(والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا إذ أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف عليٍّ وهو على شركه قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا . قالت: قال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجًا قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت فيه رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا. قالت: فجاء عامر

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٤٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٧ وقال المحقق فيه : وقال الهيثمى فى المجمع عنه ٩/ ٢٧٢ : رواه الطبرانى مرسلاً ورجاله رجال الصحيح .

بحاجته تلك فقلت له: يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفًا، ورقَّته وحزنه علينا. قال: أطمعت فى إسلامه؟ قالت : قلت: نعم. قال: فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب؛ قالت: يأسًا منه لما كان يرى من غِلظته وقسوته عن الإسلام) (١).

هكذا كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى قلوب وعقول هذا الرعيل الذى أمضى السنين العجاف الست الأولى وهو يعانى الأذى والاضطهاد والحرب من عمر وأمثاله .

وأسماء بنت هذا الرعيل الأول، تسمع عمر الآن يتباهى عليها بالهجرة والجهاد.

قالت ـ رضى الله عنها ـ دون تلعثم أو تردد للرجل الذى غدا الرجل الثانى فى الإسلام وكان الرجل الثانى فى الجاهلية بعد أبى جهل:

كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا فى دار أو فى أرض البُعَداء البُغضاء بالحبشة، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ ، فقد فاتهم أعز ما فى وجودهم وحياتهم وهو صحبة رسول الله ﷺ هذه السنوات الاثنى عشر. وذلك فى الله ورسوله وتنفيذا لأمر رسول الله ﷺ أفيكون جزاء هذه الغربة القاسية، والمحنة القاتلة أن يتخلفوا عن ركب المهاجرين المجاهدين؟؟!

ويهتز كيان أسماء كله وهى زوجة أمير المسلمين فى الحبشة تقول:

وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ. ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك للنبى ﷺ،والله لا أكذب ولا أزيد ولا أزيغ عليه.

إن كل ما نالته هى وأصحابها من الصحبة النبوية السنين الأولى الست فقط، وفاتهم ضعف هذه المدة بعد ذلك ونيف وسترفع هذا الأمر لقائدها الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتقسم ثانية: والله لا أكذب ولا أزيد ولا أزيغ عليه وانتظرت أسماء عند حفصة، فبيتها بيت النبى ﷺ .

فلما جاء النبى ﷺ قالت: يا نبى الله إن عمر قال لى كذا وكذا؟!

قال: « فما قلت له؟ » قالت: قلتُ له : كذا وكذا .

وانتظرت الحُكم الفصل، والقول العدل من رسول رب العالمين فيها وفى أمثالها غرباء الحبشة، وفيه وفى أمثاله غرباء المدينة، وكان الحكم:

« ليس بأحق بى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٧٠ ط . دار الريان للتراث .

أى أرض تقل أسماء وأى سماء تظلها وقد سمعت هذا الحكم. فكأنما ملكت الدنيا بأسرها، فليس التساوى فقط وليس التسابق على الأولوية برسول الله ﷺ فقط، بل كان أجر الضعف للهجرتين مقابل الهجرة الواحدة، وكانت الأعوام الاثنا عشر ، أعوام أجر مدّخر عند الله ومذخور فى الميزان. وكأنما هى وأصحاب السفينة غدوا إنساناً واحداً فقط. ينبض بقلب واحد، وشعور واحد .

فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً يسألوننى عن هذا الحديث: ما من الدنيا شىء هم أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ (١).

فهم إذن من صلب جيل الحديبية ، وجزء لا يتجزأ منه ، ولا أدل على ذلك من قول أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : قدمنا على النبى ﷺ بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا ، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا . وهكذا انضم هذا الوفد الثانى من خيرة أهل الأرض إلى خيار أهل الأرض من أهل بيعة الرضوان .

بقى علينا أن نعلم أن أعضاء هذا الوفد كما أوردهم ابن إسحاق قد بلغ ستة عشر رجلاً موزعين على بطون قريش كلها بمعدل ممثل واحد لكل بطن أو اثنين لبنى زهرة، وبنى عامر بن لؤى ،وبنى أمية ، والبطنان الوحيدان اللذان لم يوجد له من يمثلهما فى الحبشة هم: بنو نوفل البطن الرابع من بنى عبد مناف ،وبنو المطلب البطن الثانى من بنى عبدمناف ، والبطن الأخير الذى لم يكن منه أحد كذلك هم بنو مخزوم . وإذا اعتبرنا بنى عبدمناف بطنًا واحدًا ، فيكون بنو مخزوم وحدهم هم الذين لم يكن من يمثلهم فى أرض الحبشة حيث أمر بالمقام هناك ، وعاد مع جعفر ـ رضوان الله عليه .

الوفد الثالث :

وتنطبق عليه كل مواصفات الوفد الثانى من حيث الفضل ، فلم يفرق رسول الله ﷺ بينه وبين وفد السابقين الأولين من المهاجرين من قريش . وشاركوا فى الغنيمة ، وشاركوا فى فضل الهجرتين ، هم الوفد اليمنى الذى كان على رأسه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه .

ولنا بعض الإضاءات حوله والهدف من إفراده تحت هذا العنوان :

أما الإضاءة الأولى :

فهو أنه زرع أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ونبته. فقد كان أبو موسى رضي الله عنه من

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨٥ برقم (٤٢٣٠) .

السابقين الأولين المهاجرين ، ومن حلفاء بنى أمية ، وبالذات سعيد بن العاص بن أبى أحيحة ، عزيز قريش وكبيرها ،وعاش السنوات الأولى الصعبة، ثم مضى بعد ذلك إلى اليمن عندما مضى رفاقه إلى الحبشة لينحت فى الصخر عند الأشعريين من قومه ، وبالجهد الدؤوب المستمر ، والجهاد الشاق المضنى استطاع أن يكوِّن جالية إسلامية فى اليمن تضاهى الجالية الإسلامية فى الحبشة أو تكاد تضاهيها ، فإذا كان أكبر الأرقام قد وصل فى الحبشة إلى اثنين وثمانين ، ثم انخفض بعدها إلى الثلثين بعد إسلام عمر ، فالوفد اليمنى بلغ اثنين وخمسين أو ثلاثة وخمسين ، كما فى رواية أبى بردة بن أبى موسى ـ رضى الله عنهما .

يقول الحافظ ابن حجر فى ترجمة أبى موسى الأشعرى ـ رضوان الله عليه :

(عبد الله بن قيس بن سليم بن . . . بن الجماهر بن الأشعر ، أبو موسى الأشعرى مشهور باسمه وكنيته ، وأمه طيبة بنت وهب بن عك . . أسلمت وماتت بالمدينة، وكان هو سكن الرملة ، وحالف سعيد بن العاص ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة ، وقيل : بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة وهذا قول الأكثر، فإن موسى بن عُقبة وابن إسحاق والواقدى لم يذكروه فى مهاجرة الحبشة ، وقدم المدينة بعد فتح خيبر ، صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبى طالب فقدموا جميعاً)[(1)] .

والإضاءة الثانية :

هو ماورد فى النص الصريح عند البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال:

(بلغنا مخرج النبى ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهم أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رُهم، إما قال: فى بضعٍ، وإما قال: فى ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا ، فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خيبر .

فهم بالأصل وفد قادم من اليمن، ومتجه إلى المدينة، وساقتهم الأقدار إلى الحبشة. وكما فى رواية مسلم فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا). وهو الذى يحدثنا عن شراكة أهل اليمن مع وفد جعفر رضي الله عنه .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ١١٩ ت ٤٨٨٩ .

(وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم. قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة)(١).

والإضاءة الثالثة :

هى وصف هذا الوفد قبل قدومه .

فقد روى الواقدى قال : حدثنى أبى ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن محمد ابن جبير بن مطعم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول يومئذ : « أتاكم أهل اليمن كأنهم قَطع السحاب ، هم خير مَن على الأرض » قال رجل من الأنصـار : ولا نحن يا رسول الله؟فسكت رسول الله ﷺ ثلاثًا،ثم الرابعة قال قولاً ضعيفًا:« إلا أنتم » (٢).

فهم الوفد المنضم لخيرة أهل الأرض، حيث يتجمع الآن كل لبنة لتتم هذا البناء العظيم الفارع الطول، ويتحقق به وصف الله تعالى له:

﴿ . . . . . كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ (٣) .

وهؤلاء هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ فى حديث آخر يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

« أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبًا، وأرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشرق » (٤) .

ويعود الوصف بعد ذلك النعيم ليخص هؤلاء الأشعريين من اليمن الذين مثلوا رقة الأفئدة ولين القلوب.

ورسول الله ﷺ يعرفهم بوصفهم ، كما يرويه مسلم عن أبى موسى رضي الله عنه :« إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ،وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم إذا لقى الخيل ـ أو قال العدو ـ قال لهم: إن أصحابى يأمرونكم أن تنظروهم » .

فهم أهل القرآن رهبان الليل، وهم فرسان النهار خلصوا من الدنيا وحظوظها كما ذكر عنهم الحبيب المصطفى ﷺ فى سمة أخرى :

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٤٦ ك فضائل الصحابة برقم (٢٥٠٢) .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٨٦ . (٣) الفتح / ٢٩ .

(٤) مسلم ١/ ٧٢ برقم (٩٠) .

« إن الأشعريين إذا أرملوا بالغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية، فهم منى وأنا منهم » .

هؤلاء الذين بلغت بهم السماحة والإيثار هذا الحد ليكون وضعًا لازمًا عليهم. وأحبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى جعلهم منه وجعل نفسه منهم لهذا التواسى بينهم والتآسى بالخير. فيغدون إنسانًا واحدًا ،لرقة قلوبهم وصفاء أفئدتهم وعميق إيمانهم وكيف لا يكونون كذلك، ورائدهم الأول أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه وهو الذى زرع هذه النبتات الأولى .

(وكان حسن الصوت بالقرآن وفى الصحيح المرفوع: « لقد أوتى مزمارًا من مزامير آل داود » . وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صبخ ولا بربط ولا ناى أحسن من صوت أبى موسى بالقرآن ، وكان عمر إذا رآه قال:

ذكِّرنا ربنا يا أبا موسى، وفى رواية: شوِّقنا إلى ربنا فيقرأ عنده)(١) .

وهو الإمام فيما بعد، وهو الفقيه، وهو القائد العسكرى. وهو المعلم التربوى، وهو الحاكم السياسى ، وهو المحنك الإدارى ، وهو قائد هذا الوفد الذى دعا له رسول الله ﷺ فيما بعد فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا»(٢).

٧ ـ الوفد الرابع:

وكما كان الأشعريون ابتداءً من نبتات أبى موسى الأشعرى، والحبشيون من نبتات النجاشى ، فقد كان الدوسيون من نبتات الطفيل بن عمرو الدوسى، حيث كان كل واحد من هؤلاء القادة، يربى جيلاً ويكون نواة أمة وقاعدة انطلاق فى قبيلته وجماعته، فالطفَيل بن عمرو الدوسى رضي الله عنه سيد دوس ، والذى فزعت قريش من وصوله إلى مكة فى البدايات الأولى للدعوة، وحشدت كل وسائل إعلامها المضللة حتى لا يسمع من محمد ﷺ :

يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرِّق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك، وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلِّمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئًا) .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٤/ ت ٤٨٨٩ .
(٢) مسلم ٤/ ١٩٤٤ برقم (٢٤٩٨).

وهى الأساليب التى يلجأ إليها الطغاة حين يفزعهم الحق ودعاته ، وقد نجحت دعايتهم أيما نجاح فهم أشراف القوم وبلغاء العرب، وسدنة البيت فلا عجب أن ينساق معهم حتى (أجمعت ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلِّمَهُ ، حتى حشوت فى أذنى كُرسُفًا فرقًا من أن يبلغنى شىء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه) .

وعلى غير إرادة منه، ورغم كل احتياطاته. فما له غنىً عن الكعبة يريد أن يطوف بها، ويتنسك على ملة إبراهيم ويطَّوف بالبيت العتيق .

(فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلِّى عند الكعبة، قال: فقمت منه قريبًا) .

لقد حانت منه التفاتة ومن باب الفضول أن يرى هذا الساحر الذى أعضل بمكة، وليس من باب القناعة أو الرغبة غير أن أثر حديثه سرعان ما جذبه (فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله قال: فسمعت كلامًا حسنًا فقلت فى نفسى: واثكل أمى، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول: فإن كان الذى يأتى به حسن قبلته، وإن كان قبيحًا تركته .

لقد أبى عليه كبرياؤه وثقته بنفسه أن يفكر بعقل غيره، وذلك عندما لامس كتاب الله حسَّه المرهف ، إنه بالرغم من كونه جاهلى العقيدة، غير أن نفاسة معدنه كانت أقوى من أن تطمس فى مخازى الجاهلية،ولعله كان يعانى قلقًا من هذه العقائد المزيفة ، ويحس فى أعماقه بحاجة ماسة إلى شعاع يضىء دربه.

والرجال لا يعدو الأمر عندهم قرارًا يتخذ، وبما أنه صمم أن يتعرَّف على الحق، فليمض فى هذا الطريق كائنًا ما كان :

إذا هم ألقى بين عينيه أمره ونكَّبَ عن ذكر العواقب جانباً

(فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته . . .) فهو يريد أن يتعرف على الحق بعيدًا عن دعاوى الفارغين وتأثيرات المخاصمين، وحتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت:

يا محمد، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا للذى قالوا : فوالله ما برحوا يخوِّفوننى أمرك حتى سددت أذنىَّ بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك، فسمعته قولاً حسنًا فأعرض علىَّ أمرك .

إنه حين ينطلق فى حرصه للسماع من معنى عقيدى عال (أبى الله إلا أن يسمعنى قولك) يعنى أن خزعبلات الجاهلية وتعدد الآلهة لا تأخذ من نفسه وقلبه شيئًا فهو

يدرك أن مقلب القلوب، ومصرف القلوب ومقدّر الأقدار هو الله عزّ وجل، وليست هذه الآلهة المدعاة ؛ ولهذا استجاب لهذا الهاتف، بل انطلق منه فإرادة الله تعالى تريد له الهداية، والسماع، والتثبت. وماله ولغضب الآلهة وخرافات قومه معها، ودعاوى قريش وتزيينها. فهو اللبيب الشاعر القادر على إدراك حسن القول من قبيحة وصادق القوم من دعيهم، ولن يدع لأحد سلطانًا له على اختياره، قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن. فأسلمت وشهدت شهادة الحق وإسلام الرجال غير إسلام الأدعياء. فعمر حين يسلم يريد أن يغيِّر مجتمعه بإسلامه لا أن يتدسس بالسر إلى محمد بهذا الإسلام. وسعد بن معاذ حينما يسلم يريد أن يقود قومه إلى الإسلام لا أن يتاجر بهذا الدين أو يقامر فيه، فهو مسؤول عن قومه فى كل أحوالهم. وأشراف القوم غير عامتهم، والطفيل بن عمرو الدوسى سيد قومه، لا يرضى أن يكون إسلامه نكرة من النكرات ، بل يريد أن يجعل من دوس عاصمة الإسلام إن خذلت مكة محمداً ﷺ. فمضى بعزيمته الصلبة .

وقلت: يا نبى الله، إنى امرؤ مطاع فى قومى، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونًا عليهم فيما أدعوهـم إليـه ، فقال : « اللهم اجعل له آية » .

وكما دعا الأنبياء ربهم أن يكون لهم آية ، فولى الله الطفيل يطلب من رسول رب العالمين أن يدعو الله له ليكون له آية، ومضى وقد انكشف الظُلم عن قلبه، وهُتكت حجب الشرك المهترئة عن فؤاده ، وراح يتعامل مع ربه مباشرة دون واسطة .فعندما جاءت الآية بين عينيه تضىء ، كأنها المصباح فى الظلام فلم يتمكن أن يعود ثانية إلى رسوله الحبيب ويطلب منه أن يجعلها فى غير وجهه ، لقد حمل من الإيمان واليقين ما يجعل صلته بربه مباشره دون واسطة .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١) فقال: اللهم فى غير وجهى إنى أخشى أن يظنوا أنها مثل ، وقعت فى وجهى لفراقى دينهم. قال: فتحول فوقع فى رأس سوطى. قال: فجعل ذلك الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلَّق. وأنا أهبط إليهم من الثنية. قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم. وكما فعل سعد بن معاذ رضي الله عنه فى قومه: كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وحده ، فلم يبق فى بنى عبد الأشهل امرأة ولا رجل ولا طفل إلا أسلم .

---

(١) البقرة / ١٨٦ .

واختبأ الله نصرة دعوته لهؤلاء القوم، ولم تكن لدوس، فقد فعل الطفيل ما فعله سعد غير أن دوس استعصت على الله ورسوله. وأخذتها العزة بالإثم وكان الولوغ فى الزنا قد أغرقها فما تفيق من غيبوبتها حتى تعود إليه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . . ﴾(١) .

وكانت الجولة صعبة ومضنية، لكنها لم تثن نفسه ، ولم تهن عزيمته ، ولم تلن قناته. إنما مضى فى جولة ثانية لحبيبه المصطفى يبثُّه همه، ويشكو له صلافة وصلابة قومه .

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطؤوا علىَّ ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا فادع الله عليهم .

وتلقى الطفيل أعظم درس فى حياته من المربى الأكبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين لم يستجب للطفيل فيدعو على قومه إنما قال: « اللهم اهد دوسًا » ، وكانت إرادة الله تعالى فى تلك المرحلة أن تكون الصياغة فردية لبِنة لبِنة كما هى الحال فى مكة، وجاءه الأمر: « ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » .

كلمات ثلاثة حدَّدت طريق الدعوة الطويل اللاحب. فالذين ينمون فى دوس كالذين ينمون فى مكة سواءً بسواء ، إلا شرف الصحبة، والنهل من معين النبوة ، لكنه الإسلام نفسه والدعوة نفسها .

ويمضى الزمن ويتكون من الأفراد والآحاد مجموعة ثم مجموعة، كما يتم بناء القصر غرفة غرفة، وموقعًا موقعًا. وهذا يحتاج إلى زمن طويل. وصبر جميل، فإذا الاثنى عشر عامًا أو تزيد تنشئ جيلاً مسلمًا فى دوس وجالية مسلمة هناك، وحين ألقت مكة قيادها واعترفت بالإسلام ودولته ، مضى الطفيل بن عمرو الدوسى بحزبه الذى أسسه ورعاه وسقاه بدمه وعينه وروحه ، مضى بهذا الحزب إلى المدينة ثم خيبر لينضم إلى خيار أهل الأرض ، وإن كان أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه زعيم الحزب الأشعرى اليمنى يرى أنه وحده من دون أهل خيبر وحزبه هم الذين شاركوا فى غنائم خيبر غير أن أبا هريرة الدوسى الناطق باسم دوس ، والذى سيغدو فيما بعد الناطق الأول باسم رسول الله ﷺ يؤكد أنه قد تم الاعتراف بحزب دوس المسلم على قدم المساواة مع حزب الأوس وحزب الخزرج والمهاجرين الأولين وأعطوا السابقة نفسها .

(حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر

(١) النساء / ٤٣ .

فأسهم لنا مع المسلمين . هذا تصريح الطفيل رئيس الوفد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذاك تصريح أبى هريرة الناطق باسم الوفد: فتحنا خيبر ولم نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط) .

قال الحافظ ابن حجر:

وحديث قدوم أبى هريرة المدينة والنبى ﷺ بخيبر قد استخلف سباع بن عرفطة فذكر الحديث وفيه (فزودّنا شيئًا حتى أتينا خيبر، وقد افتتحها النبى ﷺ. فكلّم المسلمين فأشركونا فى سهامهم) ويجمع بين هذا وبين الحصر الذى فى حديث أبى موسى الذى قبله أن أبا موسى أراد أنه لم يسهم لأحد لم يشهد الوقفة من غير استرضاء أحد من الغانمين إلا لأصحاب السفينة، وأما أبو هريرة وأصحابه فلم يعطيهم إلا عن طيب خواطر المسلمين) (١).

إننا ونحن نتحدث عن هذا الجيل القائد ، نلاحظ أن رسول الله ﷺ وبعد الحديبية بالذات حرص على أن يضم كل فرد فيه، وعلى جمعه من كل صقع فى الأرض ليأخذ موقعه فى الدعوة وموقعه فى الجهاد، خاصة بعد أن انتهى الخطر على الوجود الإسلامى ودولته : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وقد جاء الفتح المبين فى الحديبية، لتفتح الآفاق، وتفتح مغاليق القلوب. ورسول الله ﷺ بحاجة إلى قلب ولسان كل داعية ليبث النور فى هذا الوجود، وبحاجة إلى ساعد ودم كل مسلم ؛ ليتابع الجهاد فى تحرير الأرض من الطواغيت ، وأصبح الدور الجديد الآن لهذا الجيل أن يمارس دوره، وأن ينتقل من مسؤوليته الشخصية التربوية إلى مسؤولية قيادة المجتمع كله. وحتى هذه المرحلة. فلا يزال المسجد يؤدى دوره الضخم فى البناء والتربية اليومية من خلال اللقاء الحى المفتوح مع قائد الدعوة ورسول الأمة محمد ﷺ وبإمكان هذه العناصر الجديدة الوافدة إلى المدينة والعناصر القديمة ، أن تتابع التلقى مباشرة من المصطفى الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن الانطلاقة الكبرى ستنقل المسلمين إلى وضع جديد ، يصعب فيه التلقى الدائم الدؤوب المباشر من سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنها قد تكون ساعات أو أيامًا لبعض المهاجرين، لكنها لن تكون على مستوى الصلة السابقة بالتأكيد، وإذا كان إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أعد هذا الجيل الرائد القائد خلال عشرين عامًا من عمر الدعوة . فسيتمكن هذا الجيل من حمل رسالة الرسول ﷺ إلى أصقاع الجزيرة. وقد تمثلت فيه

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٨٩ .

صورة الجيل القدوة فى كل شىء .

الجيل القدوة فى دعوته، وصبره على لأواء هذه الدعوة، وتحمله لمشقاتها، وفهم أساليب التربية المنوعة التى تلقاها من إمام المربين وسيد المرسلين فى الأرض .

والجيل القدوة فى جهاده ، فلا يبخل بنفس ولا بروح ، ويصبر فى البأس على مشاق الحروب وأهوالها، مجاهدًا فى سبيل الله ، وقد أخلص النية لله ، وربط النفوس والأرواح به سبحانه .

والجيل القدوة حتى فى صوابه وفى خطئه حين يخطئ ، فيتعلم المسلمون الجدد منهم كيف يقفون من الخطأ، وكيف يعترفون فيه وكيف يحسنون التوبة، وكيف يخلصون الولاء والبراء لله وحده من خلوصهم من حظوظ نفوسهم وذواتهم .

والجيل القدوة فى أكله وشربه ونومه ولهوه وجده وعلمه وعمله وعبادته وسلوكه، وهو الذى نهل مباشرة من النبع حتى تأهل ليقود من وراءه على ضوء النموذج النبوى الذى تربى الصحابى عليه .

ومن أجل هذا وجدنا الحرص النبوى على المؤمنين صغيرهم وغائبهم وذكرهم وأنثاهم، وضعيفهم ومملوكهم، فكل فرد منهم أمة بذاته يؤتم به، ويقتدى به، وشملهم جميعًا قوله عز وجل بهذا النعيم الذى لم يستثن منهم أحدًا إلا الساقطين على الدرب: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود** . . . . ﴾[1] .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

سادسًا: قيادات قريش تترنح

القائد العام الأول فى بلاط قيصر:

عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه قال:

انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ. قال : فبينا أنا بالشام إذ جىء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم. قال: وكان دحية الكلبى جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى. فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل. فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؛ قالوا: نعم. قال: فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا على هرقل. فأجلسنا بين يديه. فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ثم دعا بترجمانه فقال له:

قل لهم: إنى سائل عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فإن كذبنى فكذِّبوه. قال: فقال أبو سفيان: وايم الله لولا مخافة أن يؤثر علىَّ الكذب لكذبت ثم قال لترجمانه: سله : كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب قال: فهل كان فى آبائه ملك؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: ومن يتبعه ؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم .قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قال : قلت : بل يزيدون . قال : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قال : قلت : لا ، قال : فهل قاتلتموه قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها قال : فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه .

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال: قلت: لا. قال لترجمانه: قل له: إنى سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب. وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها . وسألتك :هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا .فقلت : لو كان فى آبائه ملك قلت : رجل يطلب ملك آبائه .وسألتك : عن أتباعه أضعفائهم أم أشرافهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم،وهم أتباع الرسل،وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. فزعمت أن لا،فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب على

الله . وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له ؟ فزعمت أن لا . وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب ،وسألتك :هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون ،وكذلك الإيمان حتى يتم .وسألتك هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً . ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك : هل يغدر . فزعمت أنه لا يغدر ،وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله . قلت: رجل ائتم بقول من قبله. قال: ثم قال : بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقًا. فإنه نبى. وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنُّه منكم. ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. وليبلغن ملكه ما تحت قدمى .

قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (١) ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (٢) .

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات ـ عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابى: حين خرجنا: لقد أَمِر أمرُ ابن أبى كبشة إنه ليخافه ملك بنى الأصفر .

قال : فما زلت موقنًا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام (٣).

الزعيم الثانى فى بنى أمية :

وكان هذا الزعيم هو أبان بن سعيد بن العاص. حدث سعيد بن العاص بن سعيد قال: لمَّا قتل أبى العاص يوم بدر كنت فى حجر عمى أبان بن سعيد وكان يكثر السبَّ لرسول الله ﷺ، فخرج تاجرًا إلى الشام فمكث سنة ثم قدم. فأول شىء سأل عنه أن

---

(١) الأريسيين: اختلفوا فى المراد بهم على أقوال أصحها وأشهرها : أنهم الاكارون أو الفلاحون. والثانى أنهم اليهود والنصارى .

(٢) آل عمران / ٦٤ .

(٣) مسلم والبخارى واللفظ لمسلم ٣ / ١٣٩٣ ، ١٣٩٦ ح ١٧٣٣ .

قال: ما فعل محمد؟ قال له عمى عبد الله بن سعيد: هو والله أعزُّ ما كان وأعلاه. فسكت ولم يسبَّهُ كما كان يسبه. ثم صنع طعامًا، وأرسل إلى سراة بنى أمية أى أشرافهم فقال لهم: إنى كنت بقرية فرأيت بها راهباً. يقال له بكاء لم ينزل إلى الأرض منذ أربعين سنة: أى من صومعته؛ فنزل يومًا، فاجتمعوا ينظرون إليه، فجئت فقلت: إن لى حاجة. فقال: ممَّن الرجل؟ فقلت: إنى من قريش وإن رجلاً هناك يزعم أن الله أرسله. قال: ما اسمه؟ فقلت: محمد؛ قال: مذ كم خرج؟ فقلت: عشرين سنة، قال: ألا أصفه لك؟ قلت: بلى فوصفه، فما أخطأ فى صفته شيئًا: ثم قال لى: هو والله نبى هذه الأمة والله ليظهرن ثم دخل صومعته وقال لى : اقرأ عليه السلام؛ وكان ذلك فى زمن الحديبية ، أى والحديبية سيأتى أنها كانت سنة ست. والعشرون تقريب (١).

قريش والحجاج بن علاط السُلَمى :

روى البيهقى فى الدلائل عن موسى بن عُقبة قال: وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلى خيبر تراهُنٌ عظيم وتبايع، منهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه ومنهم من يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر ، وكان الحجاج بن عِلاط السُلَمىُ ثم البهزى أسلم ، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، وكانت تحته أم شيبةَ أخت بنى عبد الدار بن قصى، وكان الحجاج مكثرًا من المال؛ كانت له معادية أرض بنى سُلَيم. فلما ظهر النبى ﷺ على خيبر، قال الحجاج بنُ عِلاط: يا رسول الله ، إن لى ذهبًا عند امرأتى. وإن تعلم هى وأهلها بإسلامى فلا مال لى، فأذن لى يا رسول الله ، فأسرع السير ولأسبق الخبر .

وذكر الحديث ومعناه فيما أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان قال : حدثنا محمد ابن نور عن معمر قال : سمعت ثابتًا البنانى عن أنس قال:

لما فتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن عِلاط السلمى: يا رسول الله ﷺ ، إن لى بمكة مالاً وإن لى بها أهلاً، وأنا أريد إتيانهم، فأنا فى حلٍ إن أنا نلت منك، وقلتُ شيئًا، فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فقال لامرأته حين قَدم: أخفى على واجمعى ما كان عندك لى، فإنى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه. فإنهم قد استبيحوا وأصبت أموالهم. ففشا ذلك بمكة، فاشتد على المسلمين وأبلغ منهم. وأظهر المشركون فرحًا وسرورًا، وبلغ الخبر العباس فعُقِر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرنى عثمان الجزرى عن مقسم قال: فأخذ العباس ابنًا يقال له قُثم،

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٣٠٢ .

واستلقى، ووضعه على صدره وهو يقوله:

حَيٌّ قثم، حيّ قُثم، شبيه ذى الأنف الأشم ، بنى ذى النعم، برغم من رغم.

قال معمر فى حديث أنس: فأرسل العباس غلامًا له إلى الحجاج أن: ويلك ما جئت به وما تقول، فالذى وعد الله خير مما جئت به. قال الحجاج: يا غلام أقرئ أبا الفضل السلام، وقل له: فليُخلّ لى فى بعض بيوته فآتيه فإن الخبر على ما يسرُه. فلما بلغ العبد باب الدار، قال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحًا حتى قبل ما بين عينيه، فأخبره بقول الحجاج فأعتقه، ثم جاء الحجاج فأخبره بافتتاح رسول الله ﷺ خيبر، وغُنم أموالهم، وأن سهام الله قد جرت فيها، وأن رسول الله ﷺ اصطفى صفية بنت حيى لنفسه، وخيَّرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو يلحقها بأهلها، فاختارت أن يُعتقها وتكون زوجته، ولكن جئت لمال كان ها هنا أن أجمعه، فأذهبُ ، به وإنى استأذنت رسول الله ﷺ أن أقول فأذن لى أن أقول ما شئت. فأخْفِ علىَّ يا أبا الفضل ثلاثاً ، ثم اذكر ما شئت .

قال: فجمعت له امرأته متاعه. ثم انشمر، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ قالت: ذهب، وقالت: لا يُحزِنُك الله يا أبا الفضل ، لقد شقَّ علينا الذى بلغك. فقال: أجل لا يُحزننى له، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله على رسوله، وجرت سهام الله فى خيبر .

واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّة لنفسه. فإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به ، قالت: أظنك والله صادقًا. قال: فإنى والله صادق، والأمر على ما أقول لك .

ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال لهم: لم يصبنى إلا خير بحمد الله. قد أخبرنى الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله، وجرت فيها سهام الله واصطفى صفية لنفسه. وقد سألنى أن أُخفى عليه ثلاثًا. وإنما جاء ليأخذ ماله وما كان له من شىء ها هنا ثم يذهب، فردَّ الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان قد دخل بيته مكذبًا حتى أتو العباس فأخبرهم الخبر، فسُرَّ المسلمون، وردَّ الله ما كان من كآبة أو غيظ على المشركين(١).

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٦٥ - ٢٦٨ . وقال المحقق فيه: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣/ ١٣٨ ، ١٣٩ عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٨٠ ، ٤٨١ وقال المحقق للسيرة : عن رواية أحمد. قال ابن كثير عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين. انظر: البداية ٤/ ٢٣ وإن كان فى كلام ابن كثير بعض التساهل لأن رواية معمر عن ثابت فيها نظر .

١ ـ لقد كان خبر مسير رسول الله ﷺ إلى خيبر حديث الموسم ، وبعد أن يئست قريش أن تتمكن من حرب محمد ﷺ ومواجهته. وأصبح صفها الداخلى مفككًا، راحت تأمل بنصر ساحق من العرب يتحقق على محمد ولو بغير يديها. وقد شهدنا فى الحديث الآنف الذكر ما رواه موسى بن عقبه: (وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلى خيبر تراهن عظيم وتبايع. منهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه ومنهم من يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر) .

وينقل لنا الواقدى صورة أمينة عن هذا الرهان. تعكس جو التفكك والرعب الذى ساد بين قيادات مكة (حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم، أنه سئل عن الرهان الذى كان بين قريش حين سار إلى رسول الله ﷺ إلى خيبر فقال: كان حويطب بن عبد العزى يقول:

انصرفت من صلح الحديبية، وأنا مستيقن أن محمدًا سيظهر على الخلق، وتأبى حمية الشيطان إلا لزوم دينى فقدم علينا عباس بن مرداس السلمى فخبّرنا أن محمداً سار إلى خيابر، وأن خيابر قد جمعت الجموع. فمحمد لا يفلت، إلى أن قال عباس : من شاء بايعته لا يُفلتُ محمد، فقلت: أنا أُخاطِرك. فقال صفوان بن أمية: أنا معك يا عباس، وقال نوفل بن معاوية: أنا معك يا عباس. وضوى إلىَّ نفر من قريش فتخاطرنا مائة بعير خماسًا إلى مائة بعير. أقول أنا وحيِّزى: يظهر محمد، ويقول عباس وحيِّزُه: تظهر غطفان فاضطرب الصوت . فقال أبو سفيان بن حرب : خشيتُ واللات حيِّز عباس ابن مرداس. فغضب صفوان وقال: أدركتك المنافية! فأسكت أبو سفيان. وجاءه الخبر بظهور رسول الله ﷺ فأخذ حويطب وحيِّزه الرهن).

ونعود خمسة عشر عامًا إلى الوراء. لنشهد الرهان بين أبى بن خلف عمِّ صفوان. وبين أبى بكر الصديق رضي الله عنه عن الروم والفرس، هل ينتصر الرومِ أم لا بعد هزيمتهم النكراء من الفرس. كانوا جميعًا على هامش الحياة والأحداث .فالمسلمون ينتصرون للروم بصفتهم أهل كتاب ويمثلهم الصدِّيق رضي الله عنه والمشركون ينتصرون للفرس الوثنيين مثلهم. ويمثلهم أبى بن خلف. ولم يكن للمسلمين وللمشركين فى مكة آنذاك ذكر فى تاريخ البشرية، إنما يفرحون ويغتمون لنصر قادة الدنيا وهزيمتهم آنذاك. والقرآن الكريم يتنزل ليبشر المؤمنين بنصر الروم بعد بضع سنين لأنهم أهل كتاب .

﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١).

(قال عكرمة: ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب. ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب. وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ . . . ﴾ إلى قوله ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار. فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا، ولا يقرِّنَّ الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ فقام إليه أبى بن خلف فقال: كذبت يا أبا فصيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره، فقال: « ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايدهُ فى الخطر، ومادّه فى الأجل» فخرج أبو بكر فلقى أبيًا فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعالى أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل. فاجعلها مائة خلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون) (٢).

(وقد رواه الترمذى عن نيَّار بن مكرم الأسلمى وقال: هذا حديث صحيح)(٣) وفيه قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

أما اليوم، فقد انسحبت قريش من المعركة، وبقيت على هامش الأحداث، وراحت تراهن على نصر محمد ﷺ على اليهود، وأبو سفيان يرجح نصر محمد، فيغضب صفوان لترجيحه قائلاً له: أدركتك المنافية أى أنه يقول ذلك ثأراً لبنى عبد مناف، وهو ومحمد من بنى عبد مناف. فأسكت أبو سفيان .

ومن أجل ذلك كانوا على أحرٍّ من الجمر ينتظرون خبرًا شافيًا عن نتائج المعركة. ووصل الحجاج بن علاط السلمى إلى مكة وهو ليس نكرة عندهم، بل هو متزوج منهم من بنى عبد الدار، ومقيم بين أظهرهم أحيانًا. وله علاقات مالية معهم .

ونجد فى رواية ابن إسحاق وصفًا للقائه معهم:

فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يتنسمون

---

(١) الروم / ١- ٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٤٣ وهو عند الترمذى ٥/ ٣٤٤ برقم (٣١٩٣) .

الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قربة الحجاز، ريفًا ومنعة ورجالاً. فهم يتحسسون الأخبار، ويسألون الركبان. فلما رأونى قالوا: الحجاج بن علاط، قال: ولم يكونوا علموا بإسلامى. عنده والله الخبر .

أخبرنا يا أبا محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع (١) قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود، وريف الحجاز. قال: قلت: قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسرُّكم قال: فالتبطوا بجنبى ناقتى(٢) يقولون: إيه يا حجاج. قال: قلت: هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط وأُسِر محمد أسرًا، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم ممَّن كان أصاب من رجالهم، فقاموا وصاحوا بمكة:

وقالوا: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم ، قال : قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى ، فإنى أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فل (٣) محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك. فقاموا، فجمعوا لى مالى كأحث جمع (٤) سمعت به. قال: وجئت صاحبتى فقلت: مالى وقد كان لى عندها مال موضوع لعلى ألحق بخيبر، فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار (٥).

فمكة كلها فى دوامة تنتظر آثار المعركة. والمراهنون يغلون كغليان القدر، فالرهان كبير، ولهذا خرجوا من مكة يتنسمون الأخبار، ويسألون الركبان عن هذه المعركة المصيرية. وكان جواب الحجاج بن علاط كصاعق كهربى صب على قلوب المسلمين من الأسى، وكان العباس بن عبد المطلب هو الوجه الهاشمى. الذى يمثل رسول الله ﷺ فى مكة ،ويمثل الحزب الهاشمى الذى كان ينصره وبدأ بعض المسلمين يظهرون بعد الحديبية بعقائدهم. فكانت الصدمة عنيفة عليهم والمصاب جلل، غير أن العباس رضي الله عنه على هول الصدمة بقى الشك يراوده فى صحة هذه المعلومات. صحيح أن حبه العميق لمحمد ﷺ، عقره وأقعده. ومضى إلى ابنه الصغير يشمه ويقبله. فيشم به ريح حبيبه محمد ﷺ. فهو شبهه. ويغمر نفسه فى هذا الحب تعويضاً وتصعيداً عن فقدان ركنة الركين فى حياته وفى دعوته. وهو ينشد :

حبى قثم، حبى قثم شبيه ذى الأنف الأشم نبى ذى النعم برغم من رغم

---

(١) القاطع: يكنون به عن النبى ﷺ .
(٢) التبطوا بجنبى ناقتى : مشوا إلى جنبها كمشى العرجان .
(٣) الفَلُّ : القوم المنهزمون . (٤) كأحث جمع : كأسرعه .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٤٨١ ، ٤٨٢ .

لكن فكره الوقاد، وعقله الحصيف، دعاه ثانية إلى التثبت من صحة الأخبار فله من عقيدته وثقته بربه ما يكذب هذا النبأ. أن ينتهى الإسلام على أيدى اليهود. فبعث رسوله إلى الحجاج يقول له كما فى رواية أحمد:

ويلك ما جئت به وما تقول: فالذى وعد الله خير مما جئت به .

وأدرك الحجاج رضي الله عنه أن المسلمين قد يصابون بفاجعة كبرى، من وراء إصراره على هذه الأخبار وأن يعطى العباسى الحقيقة فهو أهل لها لما يعرف من عميق فكره وعظيم عقله .

وحين نتابع صراع العاطفة والعقل عند العباس يذهلنا الأمر، فهو يعقر ويعجز عن القيام أمام النبأ الفاجع وهو منذ أن سمع كلمة الغلام: أبشر يا أبا الفضل إذ به إنسان آخر. فوثب العباس فرحًا حتى قبَّل ما بين عينيه. وحين أخبره بقول الحجاج (فإن الخبر على ما يسره) يعتقه لهذه الكلمة، فقد غدا وجوده من خلال وجود حبيبه وابن أخيه رسول رب العالمين .

وتأتى حصافة عقله، يوم يقص عليه الخبر الحجاج. فلا يستخفه النبأ، ويصبر صبر الرجال، على الأخبار الأولى، وهو يرى ابتهاج قريش وأفراحها وأعراسها بهزيمة محمد، وكيف ستكون الفرحة الكبرى يوم يسلَّم أسيرًا لها من اليهود. ويعود بذاكرته عشرين عامًا خلت إلى أخيه أبى طالب، وإلى بنى هاشم الذين حملوا السلاح، وصبروا على الجوع، وحوربوا لحد الهلاك من قومهم، فما ثناهم ذلك على نصره. وهو اليوم وبعد الرحلة الطويلة من العذاب والدماء والدموع يسلَّم أسيرًا لقريش. لم يستطع أحد من هؤلاء الذين لا يوقنون أن يخرج العباس عن وقاره. ويهز ضبطه وكتمانه. حتى تنتهى مهمة الحجاج فى جمع ماله، خاصة وقد استأذن النبى ﷺ فى أن يقول ما يشاء لإحراز ماله وذممه وديونه .

وتنتهى الثلاث. ويمضى العباس بادئ ذى بدء لزوج الحجاج، فيضعها فى الصورة، ويدعوها للحاق بزوجها حتى لا تؤذى عندما تواجه قريش بالحقيقة. أما هو فسيواجه العاصفة كائنة ما تكون .

ويحدثنا ابن إسحاق عن هذه المواجهة فيقول: (حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلَّة له ، وتخلَّق (تطيَّب بالخلوق). وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها).

وقريش تنظر إليه، وترى أنه قد فقد عقله لهول المصيبة، فكيف يفعل هذا من فقد

أعز أهله عليه، وجاملوه بصفته وجيهًا من وجهاء مكة وقالوا له:

(يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة . قال: كلا، والله الذى حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، وتُرك عروسًا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه) .

وثار فى نفوس بعضهم أن العباس قد اختل عقله. فلا يدرى ما يقول، لكنهم سايروه وقالوا له: بمجاملة لا تخلو من الاستخفاف والشفقة .

(قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا، فأخذ ماله، فانطلق ليلحق بمحمد، وأصحابه، فيكون معه).

وزاغت أبصار القوم، وهم ينظرون إلى العباس ويرون وجهًا جادًا وكلامًا بليغًا يخفى وراءه حقيقة مفزعة رهيبة، وانقلبت الآية كاملة، إنهم يتفرسون فى العباس رضي الله عنه فتدخل نظراته الحادة إلى أعماقهم كأنها سهام قاتلة، سهام الحقيقة الرعيبة فيقولون:

(يالعباد الله! لقد انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن) .

قال: ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك . حيث بدأ الركبان يفدون بالحقيقة المرة .

لقد لُعب بقريش. ولعلهم اعتبروها خُطة ذكية من خصمهم محمد ﷺ هذا بالنسبة لدهمائهم، أما قياداتهم فقد كانوا أبعد غورًا، وأسد نظرًا من هذه الجماهير الهائجة. وأبو سفيان قائدهم العام يدرك أن محمدًا ﷺ. ماضٍ صعدًا فى الأرض. وبعد أن انهارت خيبر، فراح يدعو قومه إلى التعامل مع الواقع، إلى محاولة إحياء تجارتهم. فلا يجتمع عليهم موتان فى وقت واحد. كمدهم لانتصار محمد، وكساد تجارتهم التى كادت تقضى عليهم. وهم آمنون من محمد ﷺ، فبالإمكان أن يمضوا غير خائفين من غدر أو نكث أو خطر يقع عليهم من محمد بن عبد الله. فهم قد خبروا حفاظه على العهد، وخبروا أخلاقه وهو يدرج صبيًا فيهم حتى برز فى صدغيه الشيب، إنه الأمين عندهم، فليتجهوا إلى تجارتهم، وليدعوا مصيرهم بيد الأقدار .

٢ـ أبو سفيان :

ومن الصورة التى ذكرناها آنفًا انطلق أبو سفيان فى طريقه يشق مجاهل جديدة، يعيد فيها مركز قريش التجارى بعد أن فقدت مركزها العسكرى .

وعند ابن إسحاق فى المغازى عرض لهذه الأرضية التى نتحدث عنها والتى انطلق منها القائد العام أبو سفيان فى طريقه الجديد. يقول فيما رواه ابن إسحاق عن الزهرى:

(كنا قومًا تجارًا، وكانت الحرب قد حصبتنا، فلما كانت الهدنة خرجت تاجرًا إلى الشام مع رهط من قريش فوالله ما علمتُ بمكة امرأة ولا رجلاً إلا وقد حمَّلني بضاعة فذكره،وفيه: فقال هرقل لصاحب شرطته: قلِّب الشام ظهراً لبطن حتى تأتى برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه،فوالله إنى وأصحابى بغزة؛ إذ هجم علينا فساقنا جميعًا)(١) .

هذا جو أبى سفيان الذى انطلق منه، ولابد لنا أن نعيش فى جو قيصر الذى انطلق منه فنحن ابتداءً مع فرح المؤمنين بنصر الله إذ مكَّن الروم من الفرس، فهزموهم .

ويحدثنا الحافظ ابن كثير عن هذه الهزيمة العظمى(٢) فيقول:

(حتى كان آخرهم هرقل، وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورًا، وأقصاهم رأيًا، فتملك عليهم فى رياسة عظيمة، وأبهة كثيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، وتلك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم، وحماقة الفرس، وكانوا مجوسًا يعبدون النار، فتقدم عن عكرمة أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده، فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة، حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظِّمُه (أى هرقل) تعظيمًا زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها . لأن نصفها من ناحية البر ، ونصفها الأخرمن ناحية البحر . فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الأمر دبَّر قيصر مكيدة ، ورآى من نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مالٍ يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدِر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوارٍ وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب. وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال لهم: إنى خارج فى أمر قد أبرمتُه فى جند قد عينته من جيشى، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتى، وإن شئتم وليت

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣٤ .

(٢) يشير ابن كثير إلى روايتين عن نصر الروم إحداهما : أن النصر تم يوم بدر وهو (قول طائفة كثيرة من العلماء) . . (وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية. قاله عكرمة والزهرى وقتادة وغير واحد . انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٨ .

عليكم غيرى؛ فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًا، ولو غبت عشرة أعوام فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا، وكسرى مخيِّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره، وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ، ومن بها من المقاتلة أولاً بأول ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهى كرسى من مملكة كسرى. فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وركَّبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذه، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى، واشتد حنقه على البلد، فجدَّ فى حصارها بكل ممكن، فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها فلما علم قيصر بذلك، احتال بحيلة عظيمة لم يُسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنوده وحواصله التى معه عند فم المخاضة، وركب فى بعض الجيش. وأمر بأحمالٍ من التبن والبعر والروث؛ فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر. فلما مرَّت بكسرى وجنده، ظنَّ أنهم خاضوا من هنالك، فركبوا فى طلبهم، فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر، فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير؛ ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. فكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارى. وبقى كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ما يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر. وبلادهم قد خربَّتها الروم، وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، فكان هذا من غَلَب الروم على الفرس. وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم. وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غُلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهى طرف بلاد الشام مما يلى الحجاز ، ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع .

قال عكرمة والزهرى وقتادة وغير واحد، ووجَّه بعضهم هذا القول: بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيلياء وهو بيت المقدس شكراً لله تعالى ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذى بعثه مع دحية بن خليفة الكلبى، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز؟ فأُحضر له أبو سفيان صخر ابن حرب الأموى فى جماعة من كبار قريش، وكانوا بغزة فجىء بهم إليه، فجلسوا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: أنا، فقال: لأصحابه وأجلسهم خلفه: إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذِّبوه.

فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأثروا عليَّ الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته. فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا ونحن فى مدة لاندرى ماهو صانع فيها، يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين. فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم) (١).

فنحن إذن الآن أمام ملك الدنيا، وقد غزا كسرى، وأخذ أمواله وسبى ذراريه ونساءه، وخرَّب بلاده وها هو يمضى شكرًا لله حاجًا على قدميه من حمص إلى بيت المقدس. وفى هذه الذروة من العز وقد توِّج على الدنيا بأسرها وقهر أقوى خصومه وأعتاهم، جاءه خطاب رسول الله ﷺ:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (٢) .

ونحن مع أبى سفيان الذى أفنى حياته فى حرب الله ورسوله. وهذا الحوار مع ملك الدنيا هرقل حول رسول الله ﷺ، وفى بلاط أعدائه وخصومه .

ثم كان أول ما سألنى عنه: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلتُ: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا .

كانت هذه الحزمة الأولى من الأسئلة تنصب حول شخص رسول الله ﷺ وقد رأينا وصف هِرقل من قبل (وأنه من أحزم الملوك، وأدهاهم، وأبعدهم غورًا، وأقصاهم رأيًا) فتأتى هذه الأسئلة فى منظومة واحدة تبحث عن كل الاحتمالات الممكنة لدوافع ادعاء النبوة. وقد فسَّر هرقل فيما بعد دوافع هذه الأسئلة .

فالذى لا نسب له، وهو مغمور فى قومه، يحاول أن يلفت الأنظار إليه بدعوى ترفعه فوق قومه، ولا يرفعه فوقهم شهرة وتمكنا إلا أن يكون مرسلاً من عند الله، لكن إذا كان أوسط القوم نسبًا، وأعلاهم بيتًا، وأشرفهم قبيلة، فلا حاجة له للبحث عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٥ / ٣٤٦ ـ ٣٤٩ .
(٢) آل عمران / ٦٤ .

مجد كاذب يدعى فيه النبوة ليعرف ويشتهر ويُطاع، وثقافة هرقل الضخمة، وفهمه لدين الله، أضاف سببًا آخر لنفى الكذب عن محمد ﷺ وهو: أن سنة الله تعالى فى أنبيائه أن يبعث النبى فى نسب عالٍ من قومه .

وحين ينال أبو سفيان من نسب محمد ﷺ إنما ينال من نفسه. ففى رواية (قال: ما قرابتك منه؟ قلت: هو ابن عمى. قال أبو سفيان: ولم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيرى (وعبد مناف الأب الرابع للنبى ﷺ ولأبى سفيان)[1].

ويأتى السؤال الثانى: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

وهرقل يعرف البيئة العربية المغلقة التى تشهد الدنيا من خلال صحرائها . فلو قال هذا القول أحد قبله . ونال حظوة وصيتاً بهذا القول . لكان يمكن لمحمد أنه يطمح لمجد مثل مجد هذا الرجل الذى سبقه .

(وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتى بقول قيل قبله).

ويأتى السؤال الثالث من هذا الداهية العبقرى : (هل كان فى آبائه من ملك ؟) . إذ لو كان الأمر كذلك،فهو طالب ملك، وناشد زعامة، يريد أن يسترد الملك المسلوب ، والزعامة المفقودة تحت هذا الإدعاء ، ليكسب تعاطف الناس وتأييدهم ،(.. فذكرت : أن لا . فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه) .

ويأتى السؤال الرابع ، وقد أخَّره الملك خصيصاً . لكنه ضمن هذه المنظومة :

(قلت : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا) .

ونحن بحاجة إلى الوقوف قليلاً عند هذا السؤال :

إن أبا سفيان حتى ذلك الوقت هو طالب زعامة ، ومحافظ على شرف قومه ودينهم وعقائدهم . ليس فى ذهنه جنة أو نار أو آخرة يخشى منها غضب الله ، وكان بالإمكان أن يجيب على الأسئلة السابقة ماعدا النسب ، مايوافق هواه . وما يقولونه لمحمد طيلة عشرين عاماً . أنه كاذب فى دعوى نبوته قالوا: ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2] فلم يقولوا عنه قط كذب مرة ، أو عدَّت عليه كذبات أو اشتهر عنه الكذب فهو كاذب . إنما قالوا بصيغة المبالغة كما ذكر القرآن خلال حربه منهم ﴿ ... كَذَّابٌ ﴾ ونجد أبا سفيان هنا يحرص على الصدق ليس خوفاً من الآخرة وعذاب النار، وسخط الله ،وليس خوفاً

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣٤ .   (٢) ص / ٤ .

من تهديد الملك له أن يكذِّبه أحد من قومه. إذ الأمر انتفى كما فى رواية ابن إسحاق : (فوالله لو كذبت ماردوا علىّ) .

إنما الذى دفعه إلى ألا يكذب هو حفاظه على زعامته وصيته وشهرته .

(ولكنى كنت امرأ سيداً أتكرَّم عن الكذب ، وعلمت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عنى ثم يتحدَّثوا به ، فلم أكذب؟) .

وهذا الموقف هو الفرصة الذهبية لإطلاق بعض الكِذبات فى بلاط قيصر ، حتى لا يسحره كما سحر غيره ، وحتى يستعدِ به عليه ، ويحالفه ضد محمد بن عبد الله.

وأمّة بهذه الصفة وهذا الموقف من الكذب ، ومن خلال إمام كفارها أبى سفيان لا يمكن أن نتصور أعظم أبرارها يمكن أن يكذب ، ويتقوَّل على الله ما لم يقل له .

ولذلك فقد كان هذا السؤال هو الذى أنهى من ذهن قيصر نهائياً عملية اختلاق النبوة وادعائها .

(وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله) .

المنظومة الثانية: وجاءت المنظومة الثانية من الأسئلة، وجميعها تنصب على أتباعه:

والسؤال الأول فيها :(قال: فأشراف [1] الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم .فقلت : بل ضعفاؤهم) .

والذى يجعل الأشراف مضربين عن اتباع دعوات الأنبياء. هو خوفهم على شرفهم ومكانتهم التى هى لهم بين الناس، وخوفهم على امتيازاتهم ومصالحهم أن تمس. أما الضعفاء المقهورون والمضطهدون ، فليس لهم مصالح يخشون على فواتها ، ويرون فى الإسلام إنقاذ لهم من الاضطهاد والظلم والحيف الذى يقع عليهم. فالملأ الذين استكبروا هم الذين يشنون الحرب العُوان على الذين استضعفوا، وهى سنة ثابتة عند أتباع الأنبياء. اعتبرها هرقل مرجحاً كبيراً لصدق دعوة النبى ﷺ .

(وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه . . وهم أتباع الرسل) .

---

(١) يقول الحافظ ابن حجر : (والمراد بالأشراف هنا أهل النخوة والتكبر منهم . لا كل شريف . حتى لا يرد مثل أبى بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل هذا السؤال) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣٥ .

(وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل) .

ووقع فى رواية ابن إسحاق :

(تبعه منا الضعفاء والمساكين. وأما ذووا الأنساب والشرف فما تبعه منهم أحد)[1] .

والسؤال الثانى حول أتباعه : (قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت: بل يزيدون).

وما أروع ذلك التعليل الذى قدَّمه هرقل . ففقه منه صدق هذه الدعوة .

فالله ناصر دينه ومؤيد رسله . ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [2].

والعاقبة للمتقين . فمن الطبيعى إذن أن يزداد أتباع الأنبياء ، ويملأون الفجاج والسهول ولكن ليس ميزان الزيادة كافياً للحكم على صدق الرسالة . فكم من المدعين الدجالين ، يسير وراءهم الناعقون والدهماء ، يتبعهم الغوغاء الذين يميلون مع الريح حيث تميل ، بل هناك ميزان دقيق آخر يوضّح طبيعة هذه الزيادة ، فإذا كانت المصلحة فى جانب آخر ، سُرعان مايتراجعون إلى ذلك الجانب،ويقلبون ظهر المجنّ لمن والوه . ولهذا جاء السؤال الثالث فى المنظومة الثانية :

(قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قلتُ : لا) .

ويكفينا أبلغ تعليل لدوافع هذا السؤال ، ما قدمه هرقل عن طبيعة هذا الدين.

(وسألتك : هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) .

ولوضوح الصورة وجلاء الخُطة فى ذهن هرقل . يتابع أسئلته رغم كل الإجابات السابقة فى منظومة ثالثة تدور حول علاقة هذا النبى مع خصومه ، بعد الحديث عن أثره فى أتباعه . وفى رأى هرقل . لو أن سؤالاً واحداً جاء جوابه مخالفاً لما فى ذهنه ، لامكن اعتبار الشك فى الرسول والرسالة قائماً ، وهو يريد أن الوصول إلى اليقين النهائى بصدد هذا الأمر .

وجاء السؤال الأول فى المنظومة الثالثة :

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣٥ .   (٢) الصف / ٨ ، ٩ .

(قلت : فهل يغدر ؟ قلتُ : لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .
قال ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة) .

والرسول المربى لا يمكن أن يكون من سيماه الغدر ، أما القائد الفاتح أو البطل العسكرى أو الزعيم السياسى ، فقد تريه المصلحة أنه بالغدر قادر على تحقيق هدفه ، فما الذى يمنعه من ذلك ، ورأى أبو سفيان أن المنفذ الوحيد الذى يمكن فيه النيل من خصمه اللدود ، هو الغمز بقناعته عن احتمال غدره فى هذه الهدنة القائمة .

وأبو سفيان يعلم قبل غيره ، كيف رد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل الذى جاء مسلماً مستغيثاً يقول : أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ ! وجاء الجواب النبوى: « اصبر أبا جندل واحتسب ، فإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً » .

وبذلك اقترب هرقل من إتمام بناء الصورة الكاملة . فقال : (وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر) .

وكان السؤال الثانى فى هذه المنظومة : (فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم) .

ويعقبه السؤال الثالث فيها (قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال . ينال منا وننال منه) .

وقد تصور أبو سفيان أنه بهذا الجواب قد طعن بخصمه محمد ﷺ لأن تصوره عن النبوة هو من خلال خوارق العادات ، وأن الرسل لا تصفق فى الأسواق ولا تعانى من الابتلاءات ، وبالتالى لا يمكن أن تهزم .

غير أن عبقرية هرقل كانت أبعد غوراً من تصورات أبى سفيان عن النبوات ، فهو بعيد عن هذه القضايا ، واختصاصه فى التجارة والحرب .

قال هرقل : (وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل ، وأن حربكم وحربه تكون دولاً ويدال عليكم مرة ، وتدالون عليه بالأخرى ،وكذلك الرسل تبتلى ، وتكون لها العاقبة)(١) .

وبعد هذه الأسئلة المتنوعة ، جاء الحديث فى نهاية المطاف عن طبيعة المبادئ التى يدعو إليها هذا النبى فى سؤال محدد (ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ، لا تشركوا به شيئاً ، واتركوا مايقول أباؤكم ، ويأمرنا بالصدق والعفاف والصلاة والصلة) .

---

(١) هذا النص موجود فى الرواية الأخرى فى البخارى كتاب الجهاد ، انظر: فتح البارى شرح صحيح البخارى ٦/ ١١٠ ح ٢٩٤١ .

وهذه طبيعة دعوات الأنبياء (وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ،وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف) .

لقد أدرك أبو سفيان منذ اللحظات الأولى أنه أمام داهية من دهاة الدنيا .

قال أبو سفيان فى رواية ابن إسحاق :

(فوالله مارأيت من رجل قط كان أدهى من ذلك الأقلف ، يعنى هرقل)[1].

لكن الذى أغمّ أبا سفيان وأهمّه ، ليست قضية تصديق هرقل برسالة محمد ﷺ بمقدار ما أهمه نفوذ محمد ﷺ فى قلبه . ولعله كان من أكبر أسباب هذا النفوذ ، فلو كذب فى إجاباته ، لما ربح محمد هذه الجولة ، ولأمكن أن يكون قيصر حليفاً لأبى سفيان بدل أن يكون حليفاً لمحمد بن عبد الله .

كاد أبو سفيان أن يغيب عن وعيه ، وهو يسمع التقرير النهائى لهرقل عن محمد ﷺ :

(فإن كان ما تقول حقاً . فسيملك موضع قدمىّ هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) .

وحين تُلى كتاب محمد ﷺ فى بلاط قيصر ، ضجت الروم (وفرغ من قراءة الكتاب ، وكثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأُخرجنا) .

والذى يهمنا بعد هذا الإخراج أن نتابع أبا سفيان فى أعماقه . وهو القائد العام فى مكة ، وهو الذى يشهد ملك الدنيا يهتز من رسالة محمد ودعوته ، ويتمنى لو يكون عنده ليغسل عن قدمه ، ولا تزال كلمته يرن صداها فى أذنه ، فتزلزل كيانه كله . (فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمى هاتين) .

ولخَّص موقفه بكلمة واحدة .

(لقد أَمِر[2] أمر ابن أبى كبشة ، إنه يخافه ملوك بنى الأصفر) .

وأعطانا الإضاءة الكاملة عن أعماقه ، وعن هزيمته النهائية ، واعترافه بها .

(فما زلت موقِناً أنه سيظهر) ، فثقته فى غلبة محمد له ولغيره قد غدت يقيناً لا يعتريه الشك .

أما الإسلام فقد دخله على الرغم منه . (حتى أدخل الله عليه الإسلام) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣٥ .
(٢) أمِر : عَظُمَ .

وفى الرواية الأخرى :

(فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر ، حتى أدخل الله قلبى الإسلام وأنا كاره)(١) .

أما هرقل ، فقد حاول أن يدخل قومه الإسلام ، فثاروا عليه ، فآثر ملكه وسلطته على الحق . ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾(٢) .

حيث يروى لنا البخارى خلاصة الموقف النهائى (فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغُلّقت، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ، فتابعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غُلّقت . فلما رأى هرقل نفرتهم ، وآيس من الإيمان، قال ردوهم علىّ . وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل)(٣) .

ويحدثنا الحافظ ابن حجر عن تاريخ الرسالة والمقابلة فيقول بعد حديثه عن دحية بن خليفة الكلبى : (صحابى جليل كان أحسن الناس وجهاً ، وأسلم قديماً وبعثه النبى ﷺ فى آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية بكتابه إلى هرقل ، وكان وصوله إلى هرقل فى المحرم سنة سبع . قال الواقدى : ووقع فى تاريخ خليفة أن إرسال الكتاب إلى هرقل كان سنة خمس . والأول أثبت ، بل هذا غلط . لتصريح أبو سفيان بأن ذلك كان فى مدة الهدنة . والهدنة كانت فى آخر سنة ست اتفاقاً . ومات دحية فى خلافة معاوية)(٤) .

٣ ـ أبان بن سعيد :

تحدثنا عن القائد العام أبى سفيان . والانهيار الذى حلّ به بعد لقائه مع ملك بنى الأصفر . أما أبان بن سعيد . فقد كانت عملية التغيير عنده أسرع من أبى سفيان ، رغم أنه لم يكن فى العداوة لمحمد أقل من أبى سفيان . وهذا عرض سريع له ، فهو ابن أبى أحيحة سعيد بن العاص ، أعز قريش . والذى وضع كل جاهه فى حرب الإسلام وأهله ، وكان أول من خرج عليه من أولاده ، وقذف الله تعالى نور الإيمان فى قلبه : ابنه خالد بن سعيد . (فبلغ أباه فعاقبه ، ومنع عنه القوت ، ومنع إخوته

---

(١) فتح البارى ٦/ ١١١ برقم (٢٩٤١) .
(٢) النمل / ١٤ .
(٣) فتح البارى ١/ ٣٢ برقم (٧) .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٨ .

من كلامه ، فتغيب حتى خرج بعد ذلك إلى أرض الحبشة)[1] ، وبلغت المفاصلة بين الأب والابن حداً عالياً فى الإيمان .

(فقد روى ابن سعد عن خالد بن سعيد أن سعيد بن العاص (أباه) مرض فقال :

لئن رفعنى الله من مرضى هذا ، لا يعبد إله ابن أبى كبشة ببطن مكة .

فقال ابنه خالد بن سعيد : اللهم لا ترفعه)[2] .

وكان سعيد بن العاص يضع آماله فى ابنه عمرو بن سعيد أن يثأر من أخيه خالد الذى مضى إلى الحبشة ، وأنه يحمل لواء الحرب لمحمد ﷺ ، وله يقول أبوه سعيد :

ألا ليت شعرى عنك يا عمرو سائلاً ... إذا شبَّ ،واشتدت يداه وسُلِّحا (٣)
أتترك أمر القوم فيه بلابل(٤)؟! ... وتكشف غيظاً كان فى الصدر موجما(٥)

ولكن خاب فأل سعيد بابنه عمرو . فانضم إلى أخيه خالد فى الإسلام ، والهجرة إلى الحبشة . وبقى أبان بن سعيد هو الحفيظ على عهد أبيه فى حرب الإسلام وأهله وراح يعيِّر أخويه خالد وعمرو فى خروجهما على دين أبيهما ، ويرسل حمم الغيظ عليهما فى المهجر .

ألا ليت ميتاً (٦)فى الظريبة شاهد ... لما يفترى فى الدين عمرو وخالد
أطاعا بنا أمر النساء فأصبحا ... يعينان من أعدائنا من نكايد

فهو يرى أنهما خانا الأمانة ، وانضما إلى العدو اللدود لآل أبى أحيحة ، غير أن النبتين المؤمنتين اللتين ترعاهما يد النبوة ، بعثا برد على رسالة أخيهما أبان. يدعوانه فيها إلى الإسلام . قال خالد :

أخى ما أخى لا شاتم أنا عرضه ... ولا هو من سوء المقالة مقصر
يقول إذا اشتدت عليه أموره ... ألا ليت ميتاً فى الظريبة ينشر
فدع عنك ميتاً قد مضى لسبيله ... وأقبل على الأدنى الذى هو أفقر(٧)

وبقى أبان بن سعيد وبقية أخوته حرباً على الإسلام وأهله،وخاضوا الحروب ضده.

(١ ، ٢) الإصابة فى تميز الصحابة ٢/١ ت ٢١٦٣ .
(٣) سُلِّحا: حمل السلاح .
(٤) فيه بلابل : فيه تخاليط واضطراب .   (٥) موجماً : مستوراً .
(٦) الميت : هو أبوهم سعيد بن العاص ، وقد توفى فى الظريبة على طريق الطائف .
(٧) أقبل على الأدنى : أقبل على الإسلام ، السيرة النبوية لابن هشام ٨/٤ ، ٩ .

وممن قتل مشركاً فى بدر العاص بن سعيد بن العاص ، قتله علىّ بن أبى طالب . فازداد حقد أبان على الإسلام والمسلمين،ويحدثنا سعيد الحفيد عن عمه أبان فيقول:

لما قتل أبى العاص بن سعيد بن العاص يوم بدر كنت فى حجر عمى أبان بن سعيد. وكان يكثر السب لرسول الله ﷺ ، فخرج تاجراً إلى الشام ، فمكث سنة ثم قدم ، فأول شيء سأل عنه أن قال ما فعل محمد ؟ .قال:له عمى عبد الله بن سعيد : هو والله أعز ماكان وأعلاه ، فسكت ولم يسبّه .

إنه تطور جديد على غير العهد بأبان . ولكنه أقدم بجرأة نادرة على خطوة إيجابية بعد الخطوة السلبية فى توقفه عن الحرب الكلامية .

يقول سعيد : (ثم صنع طعاماً وأرسل إلى سراة بنى أمية ـ أى أشرافهم ـ فقال لهم : إنى كنت بقرية ، فرأيت بها راهباً يقال له بكاء لم ينزل إلى الأرض ـ من صومعته ـ منذ أربعين سنة ، فنزل يوماً ؛ فاجتمعوا ينظرون إليه ؛ فجئت فقلت : إن لى حاجة ، فقال : ممّن الرجل ؟ قلت: إنى من قريش وإن رجلاً هناك يزعم أن الله أرسله، قال : ما اسمه ؟ فقلت: محمد ؛ قال: منذ كم خرج ؟ فقلت : عشرين سنة، قال : ألا أصفه لك ؟ قلت : بلى. فوصفه فما أخطأ فى وصفه شيئاً . ثم قال لى: والله ليظهرن . ثم دخل صومعته وقال لى: اقرأ عليه السلام) .

وكيف يجرؤ أبان بن سعيد بعد هذا على سب محمد ، ولعل تفاعل الأمر فى أعماقه كان كبيراً ، ولعله أسلم سراً.لكن الذى نعرفه عنه هو التغير المفاجئ فى موقفه. وعندما أتى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولاً من محمد ﷺ باختيار عمر له . كان أبان هو الذى تولى حمايته .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يارسول الله ، إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحداً يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً له .

قال ابن إسحاق :(فخرج عثمان إلى مكة . فلقيه أبان بن سعيد حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق

عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش)[1] .

(وفى مغازى الواقدى : فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به وأجاره وقال : لا تقصر عن حاجتك ! ثم نزل عن فرسٍ كان عليه،فحمل عثمان على السرج ، وردفه وراءه ، فدخل عثمان مكة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً ، أبا سفيان بن حرب ، صفوان بن أمية ، وغيرهم من لقى ببلدح منهم ومن لقى بمكة)[2] .

ولا شك أن عثمان فى هذا الجو الرائع الذى هيأه له أبان ، راح يدعو أبان إلى الإسلام ، وقد وجد عنده صدراً مفتوحاً وأذناً صاغية ؛ ولذلك ما أن انتهت الحديبية ، حتى وجدنا أبان فى سرعة مفاجأة ينضم جندياً إلى الصف الإسلامى، وقبل انضمامه رتب الأمر ترتيباً جيداً مع أخويه عمرو وخالد اللذين كانا فى الحبشة وجاءا إلى المدينة بعد الحديبية .

(فبقى بمكة حتى أجاز عثمان زمن الحديبية ، فبلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، وقال له أبان :

أسبل وأقبل ولا تخف أحداً بنـو سعيـد أعـزَّة الحـرم

ثم قدم عمرو وخالد من الحبشة فراسلا أباناً فتبعهما حتى قدموا جميعاً إلى النبى ﷺ ، فأسلم أبان أيام خيبر ، وشهدها مع النبى ﷺ ، فأرسله النبى ﷺ فى سرية ، ذكر جميع ذلك الواقدى ووافقه عليه أهل العلم بالأخبار ، وهو المشهور، وخالفهم ابن إسحاق : فعد أبان فيمن هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية والله أعلم) [3] .

وها هو أبان المسلم الجديد ما أن يضع قدمه فتطأ أرض الإسلام حتى يكون على رأس سرية ممعنة فى ظهر العدو كما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال :

(بعث رسول الله ﷺ أبان بن سعيد على سرية من المدينة قِبل نجد. قال أبو هريرة: فقدم أبان وأصحابه على النبى ﷺ بخيبر بعدما افتتحها وإن حزم خيلهم لليف . قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ، لا تقسم لهم . قال أبان :وأنت بهذا يا وبر تحدر من رأس ضأن . فقال النبى ﷺ :« يا أبان ،اجلس » .

وفى رواية عن عمرو بن يحيى بن سعيد قال : أخبرنى جدى (أن أبان بن سعيد أقبل إلى النبى ﷺ فسلم عليه . فقال أبو هريرة : يا رسول الله ، هذا قاتل ابن قوقل.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٣٧ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠١ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ١ / ١ / ١٠ .

وقال أبان لأبى هريرة : واعجباً لك وبراً تدأدأ من فروة ضأن . ينعى علىّ امرءاً أكرمه الله بيدى ، ومنعه أن يهيننى بيده) .

ولعل قدوم أبى هريرة ، وأبان بن سعيد فى وقت متقارب غير أن ماضى أبان بن سعيد فى حربه للإسلام والمسلمين كان من الشدة والبأس ، بحيث مكن أبا هريرة من النيل من أبان والمطالبة بحجز عطاء خيبر عنه ، وذكّره بأنه قاتل أحد المسلمين ابن قوقل. وأبان لم يسكت على نيل أبى هريرة الدوسى منه . فرد عليه بعنف :

(وبر[1] تدلى[2] علينا من قَدوم[3] الضأن[4] .

وهو بذلك يصغِّر من شأن أبى هريرة رضي الله عنه .

قال الخطابى : أراد أبان تحقير أبى هريرة ، وأنه ليس فى قدر من يشير بعطاء، ولا منع ، وأنه قليل القدرة على القتال)[5] .

لكنه لابد أن يدافع عن نفسه أمام قتل ابن قوقل . فقال بذكاء جيد :

(ينعى علىّ امرءاً أكرمه الله بيدى ، ومنعه أن يهيننى بيده) .

فقد ساق الله الشهادة لابن قوقل وأكرمه بها بيد أبان بن سعيد ، وحال بين قتل ابن قوقل لأبان فيدخل النار ، ورزقه الله الإسلام فلم يقتل كافراً .

ولا تزال نفسية أبان واعتزازها بنسبها وعراقة هذا النسب تسيطر عليه ، وقد غسل ماضيه الجاهلى بالمضى مباشرة على رأس سرية قبل نجد . ويدلُ اختيار رسول الله ﷺ لأبان لهذه المهمة بهذه السرعة على مدى ثقة رسول الله ﷺ به ، وبإمكاناته العسكرية ، وخبرته القتالية ، ومدى حرص المربى الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على غسل ذلك التاريخ الأسود فى حرب الإسلام ، بتاريخ جهادى جديد . تُسخَّر فيه الطاقات كلها فى سبيل الله بعد أن كانت حرباً على الله ورسوله .

وفى مستوىً عالٍ من التربية كذلك لم يقسم رسول الله ﷺ لأبان بن سعيد وسريته من غنائم خيبر حتى لا ترتبط العملية الجهادية بالمغنم والربح المادى ، وبقى يمثّل طبقة أدنى من طبقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . والذين أمضوا شطراً كبيراً من حياتهم فى الدعوة ، وفى الغربة وفى الهجرة .

لقد نال أخواه خالد بن سعيد ، وعمرو بن سعيد من غنائم خيبر ؛ لأنهما من

---

(١) الوبر : دابة صغيرة كالسِنَّور وحشية .   (٢) تدلى :تردى وانحدر .

(٣) القدوم : الطرف .

(٤) الضأن هو رأس الجبل ، وقيل هو جبل لدوس قوم أبى هريرة .

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٩٢ .

الرعيل الأول من المجاهدين والمهاجرين إلى الحبشة ، ونال أبو هريرة الدوسى رضي الله عنه عضو وفد دوس من غنائم خيبر بصفته من الرعيل الأول من الذين أسلموا وجههم لله فى دوس . لكن أبان بن سعيد وسريته ، لم ينالوا من تلك الغنائم ، ويكفيه أن عينه المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائداً من قادته الكبار .

أربعة من القيادات الكبرى فى قريش ، أسلم اثنان منهم : أبان بن سعيد وقد وصل إلى 'المدينة ، وانضم لقافلة المجاهدين ، وعمرو بن العاص ، انضم ولم يصل إلى المدينة بعد ، أما أبو سفيان وخالد بن الوليد فقد هزما فى أعماقهما، وانسحبا من المعركة العسكرية . ليقينهما بالنصر النهائى لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفُتحت نوافذهما للهواء الطلق الذى يقودهما إلى الاسلام فيما بعد.

سابعاً :التربية بالزواج
(وصار زوجاً على ابنتى ملكيهم)

فى فترة واحدة ، وفى عملية بناء الأرواح بعد عملية الهزيمة العسكرية والسياسية ، وترميم القلوب وتذويب الأحقاد ، كان زواج المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ومن صفية بنت حيى ؛ حيث تأتى هاتان الخطوتان تتويجاً لعهد جديد يسود المنطقة .

(وبعث ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، فكان أول رسول ، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، وفى الآخر يأمره أن يزوجه ﷺ أم حبيبة . فأخذ الكتابين وقبّلهما ، ووضعهما على رأسه وعينيه ، ونزل عن سريره تواضعاً ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق)[١] .

وندع الحديث لأم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ تحدثنا عن أسعد حدث فى حياتها.

قالت : (رأيت فى النوم عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشوهه ، ففزعت[٢] ، فقلت تغيّرت والله حاله ، فإذا هو يقول حيث أصبح :

يا أم حبيبة ، إنى نظرت فى الدين،فلم أر ديناً خيراً من النصرانية ، وكنت قد دنت بها،ودخلت فى دين محمد ، ثم قد رجعت إلى النصرانية،فقلتُ : والله ما خير لك ، وأخبرته بالرؤيا التى رأيتها له ، فلم يحفل بها ، وأكب على الخمر حتى مات .

فأرى فى المنام كأن آتياً يقول : يا أم المؤمنين ، ففزعت ، فأوّلتها أن رسول الله ﷺ يتزوجنى . قالت : فما هو إلا أن انقضت عدتى ، فما شعرت إلا برسول النجاشى على بابى يستأذن ، فإذا جارية له يُقال لها : أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه ، فَدَخَلَتْ علىّ فقالت : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلىّ أن أزوّجكه . فقالت : بشرك الله بخير . قالت: يقول لك الملك : وكِلى من يزوّجك . فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص[٣] ، فوكّلته وأعطت أبرهة سوارين من فضة ، وخَدَمَتَين كانتا فى رجليها ، وخواتيم فضة كانت فى أصابع رجليها سروراً بما بشرتها .

---

(١) السيرة الحلبية ٣/ ٢٩٣ .
(٢) فزعت : أى استيقظت من النوم .
(٣) خالد هو أقرب الناس منها فى الحبشة ، فهو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وهى رملة بنت صخر بن حرب بن أمية فيلتقى معها فى الجد الثانى .

فلما كان العشى ، أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ، ومن هناك من المسلمين فحضروا ، فخطب النجاشى فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه هو الذى بشر به عيسى ابن مريم ﷺ أما بعد : فإن رسول الله كتب إلىّ أن أزوّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان . فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستنصره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد : فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ، وزوَّجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله رسول الله .

ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا .

قالت أم حبيبة : فلما وصل إلىّ المال ،أرسلت إلى أبرهة التى بشرتنى،فقلت لها : إنى كنت أعطيتك يومئذ ، ولا مال بيدى ، فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعينى بها . فأبتْ ، فأخرجت حُقاً . كانت فيه كل ما أعطيتها فردته علىّ وقالت :

عزم علىّ الملك الا أرزأك شيئاً ، وأنا التى أقوم على ثيابه ودهنه ، وقد اتّبعْت دين محمد رسول الله ﷺ ، وأسلمت لله ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العِطر .

قالت : فلما كان الغد جاءتنى بعود وورس وعنبر وزباد كثير ، فقدمت بذلك كله على النبى ﷺ فكان يراه علىّ عندى ولا ينكره . ثم قالت أبرهة : فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله منى السلام ، وتعلميه أنى قد اتّبعت دينه . قالت : ثم لطفت بى وكانت التى جهّزتنى . فكانت كلما دخلتْ علىّ تقول: لا تنسى حاجتى إليك . قالت : فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة ، وما فعلت بى أبرهة ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وأقرأته منها السلام . فقال : « وعليها السلام ورحمة الله وبركاته » .

(وعن عاصم بن عمر بن قتادة قال : وحدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قالا : كان الذى زوّجها وخطب إليه النجاشى، خالد بن

سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وذلك فى سنة سبع من الهجرة ، وكان لها يوم قدم بها المدينة بضع وثلاثون سنة)[1] .

(وأخبرنا محمد بن عمر،حدثنى عبد الله بن جعفر ، عن عبد الواحد بن أبى عون قال : لما بلغ أبو سفيان بن حرب نكاح النبى ﷺ ابنته قال : ذلك الفحل لا يقرع أنفه)[2].

(أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى أبو سهيل ، عن محمد بن السائب ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [3] قال : حين تزوج النبى ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان)[4].

وتحدثنا ـ رضى الله عنها ـ عن ركبها العائد إلى المدينة فتقول : (خرجنا إلى المدينة ، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فخرج من خرج إليه ، فأقمت بالمدينة حتى قدم)[5] .

وقدم رسول الله ﷺ المدينة وهو زوج على صفية بنت حيى بنت ملكهم . ولنستمع إلى هذا الزواج الثانى :

(عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قدمنا خيبر ، فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب ، وقد قتل زوجها ، وكانت عروساً فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فخرج بها حتى بلغنا سد الصهباء ، حلَّت ، فبنى بها رسول الله ﷺ ، ثم صنع حيساً فى نِطع صغير . ثم قال لى «آذن من حولك» . فكانت تلك وليمته على صفية ، ثم خرجنا إلى المدينة ، فرأيت النبى ﷺ يحوِّى لها وراءه بعباءة ، ثم يجلس عند بعيره ، فيضع ركبته ، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب)[6] .

(وعن حميد الطويل ، سمع أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ أقام على صفية بنت حيى بطريق خيبر ثلاثة أيام حتى أعرس بها ، وكانت فيمن ضرب عليها الحجاب)[7] .

(وعن محمد بن جعفر بن أبى كثير قال : أخبرنى حميد أنه سمع أنساً رضي الله عنه يقول: أقام النبى ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يُبنى عليه بصفية . فدعوت المسلمين إلى وليمته ، وماكان فيها من خبز ولا لحم ، وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٩٧ـ ٩٩ . (٣) الممتحنة / ٧ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٩٩ . (٥) بهجة المحافل وبغية الأماثل للعامرى ١/ ٣٤٤ .
(٦ ، ٧) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨١ برقم (٤٢١١ ، ٤٢١٣) .

فبُسطت فألقى عليها التمر والأقِط والسمن . فقال المسلمون : إحدى أمهات المؤمنين ، أو ما ملكت يمينه ؟ قالوا : إن حجبها فهى إحدى أمهات المؤمنين ، وإن لم يحجبها فهى مما ملكت يمينه . فلما ارتحل وطّأ لها خلفه ، ومدَّ لها الحجاب)(١) .

وهذا حديث صفية عن أسعد حدث فى حياتها - رضى الله عنها - يرويه لنا الواقدى ، عن ابن أبى سبرة ،عن أبى حرملة ، عن أخته أم عبد الله ، عن ابنة أبى القين المزنى قالت : كنت آلف صفية من بين أزواج النبى ﷺ ، وكانت تحدثنى عن قومها ، وما كانت تسمع منهم. قالت :

خرجنا من المدينة حيث أجلانا رسول الله ﷺ ، فأقمنا بخيبر ، فتزوجنى كِنانة بن أبى الحقيق ، فأعرس بى قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام ،وذبح جزرا ، ودعا باليهود وحولّنى فى حصنه بسلالم .فرأيت فى النوم كأن قمراً أقبل من يثرب يسير حتى وقع فى حجرى . فذكرت ذلك لكنانة زوجى ، فلطم عينى فاخضرت . فنظر إليها رسول الله ﷺ حين دخَلْتُ عليه فسألنى فأخبرته . قالت: وجعلت اليهود ذراريها فى الكتيبة ، وجرّدوا حصن النطاة للمقاتلة ، فلما نزل رسول الله ﷺ خيبر،وافتتح حصون النطاة ، ودخل علىَّ كنانة فقال : قد فرغ محمد من النطاة . وليس هاهنا أحد يقاتل ، قد قتلت اليهود حيث قُتِل أهل النطاة ، وكذبتنا العرب ،فحولّنى إلى حصن النزار بالشق قال : - هو أحصن مما عندنا - فخرج حتى أدخلنى وابنة عمى ونُسيّات معنا ، فسار إلينا رسول الله ﷺ قبل الكتيبة ،فسبيت فى النزار قبل أن ينتهى النبى ﷺ إلى الكتيبة . فأرسل بى إلى رحله ، ثم جاءنا حين أمسى فدعانى ، فجئت وأنا متقنعة حيية ، فجلست بين يديه. فقال : « إن أقمت على دينك لم أُكرِهك . وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك».قالت : أختار الله ورسوله والإسلام ، فأعتقنى رسول الله ﷺ ، وتزوجنى وجعل عتقى مهرى . فلما أن أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابه: اليوم نعلم أزوجه أم سُرِيَّة . فإن كانت امرأته فسيحجبها، وإلا فهى سرية . فلما خرجنا أمر بستر فسترت به ، فعرف أنى زوجه. ثم قدّم إلى البعير وقدّم فخذه لأضع رجلى عليها ، فأعظمت ذلك ووضعت فخذى على فخذه ثم ركبت ، وكنت ألقى من أزواجه يفخرن علىّ يقلن: يا بنت اليهودى .وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطُف بى ويكرمنى،فدخل علىّ يوماً وأنا أبكى . فقال : ما لك ؟ فقلت : أزواجك يفخرن علىّ ويقلن : يا بنت اليهودى . قالت : فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال :« إذ قالوا لك أو فاخروك

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٨١ برقم (٤٢١١ ، ٤٢١٣) .

فقولى : أبى هارون وعمى موسى »[1] .

هذا ماتحدثت به ـ رضى الله عنها ـ أما ما استحيت أن تحدثنا به ، فقد حدثنا عنه الواقدى فى روايات متعددة عن أبى هريرة وأنس بن مالك وأم سنان الأسلمية ـ رضى الله عنهم ـ قالوا :

(لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ،وغنّمه الله بأموالهم ، سبى صفية بنت حيى وبنت عم لها من القموص .فأمر بلالاً يذهب بهما إلى رحله .فكان لرسول الله ﷺ صفىٌّ من كل غنيمة . فكانت صفية مما اصطفى يوم خيبر ، وعرض عليها النبى ﷺ أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله. فقالت: أختار الله ورسوله ،وأسلمت فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها مهرها ،ورأى بوجهها أثر خضرة قريباً من عينها. فقال:« ما هذا » ؟ قالت: يا رسول الله ، رأيت فى المنام قمراً أقبل من يثرب حتى وقع فى حجرى فذكرت ذلك لزوجى كِنانة . فقال : تحبين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة ؟ فضرب وجهى ، واعتدّت حيضة ، ولم يخرج رسول الله من خيبر حتى طهرت من حيضتها . فخرج رسول الله ﷺ من خيبر ولم يعرِس بها ، فلما قُرِّب البعير لرسول الله ليخرج ، وضع رسول الله رجله لصفية لتضع قدمها على فخذه ، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه ، وسترها رسول الله ﷺ وحملها وراءه ، وجعل رداءه على ظهرها ووجهها ثم شده من تحت رجلها وتحمل بها وجعلها بمنزلة نسائه ، فلما صار إلى منزل يقال له: تبار، على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرِّس بها ، فأبت ، فوجد النبى ﷺ فى نفسه من ذلك . فلما كان بالصهباء وهى على بريد من خيبر قال رسول الله ﷺ لأم سُلَيم : «عليكنَّ صاحبتكن فامشطنها» . وأراد رسول الله ﷺ أن يعرِّس بها هناك . قالت أم سُلْيم : وليس معنا فسطاط ولا سرادقات . فأخذتُ كسائين أو عباءتين ، فسترت بينهما إلى شجرة ، فمشّطتها ، وعطّرتها . قالت أم سنان الأسلمية : وكنت فيمن حضر عرس رسول الله ﷺ بصفية . مشطناها وعطّرناها ، وكانت جارية تأخذ الزينة من أوضأ ما يكون من النساء ، وما وُجدت رائحة طيبة كانت أطيب من ليلتئذ ، وما شعرنا حتى قبل رسول الله ﷺ يدخل على أهله ، وقد نمصناها ونحن تحت دومة ، وأقبل رسول الله ﷺ يمشى إليها ، فقامت إليه،وبذلك أمرناها ،فخرجنا من عندهما ، وأعرس بها رسول الله هناك ، وبات عندها ، وغدونا عليها وهى تريد أن تغتسل فذهبنا بها حتى توارين من العسكر ، فقضت حاجتها واغتسلت.فسألتها عما رأت من رسول الله ﷺ ، فذكرت أنه سُرَّ بها ، ولم ينم تلك الليلة ،ولم يزل يتحدث معها وقال لها :

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٤ ، ٦٧٥ .

« ما حملك على الذى صنعتِ حين أردت أن أنزل المنزل الأول فأدخل بك؟ » فقالت : خشيت عليك قرب يهود ،فزادها ذلك عند رسول الله ، وأصبح رسول الله فأولم عليها هنالك،وما كانت وليمته إلا الحيس ،وما كان قصاعهم إلا الأنطاع ، فتغذى القوم يومئذ ،ثم راح رسول الله فنزل بالقصيبة ،وهى على ستة عشر ميلاً)[1] .

(أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبى ﷺ قال لها : « لم يزل أبوك من أشد يهود عداوة لى حتى قتله الله » . فقالت : يارسول الله ،إن الله يقول فى كتابه :﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2] . فقال لها رسول الله :

« اختارى فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى ، وإن اخترت اليهودية ، فعسى أعتقك فتلحقى بقومك » ، فقالت : يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك ، وما لى فى اليهودية أرب ، وما لى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام . فالله ورسوله أحبٌ إلىّ من العتق ، وأن أرجع إلى قومى . قال : فأمسكها رسول الله لنفسه . وكانت أمها إحدى نساء بنى قينقاع أحد بنى عمرو ، فلم يسمع النبى ﷺ ذاكراً أباها بحرف مما تكره ، وكانت تحت سلام بن مشكم ، ففارقها ، فتزوجها كِنانة بن أبى الحقيق)[3] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ، أعتق صفية وتزوجها . فقال له ثابت البنانى : ما أصدقها ؟ قال : « نفسها » أعتقها وتزوجها[4] .

هدنة الحديبية :

لم تكن هدنة الحديبية مجرد توقيع على بنود فى ميثاق ، إنما كانت نقلة جديدة إلى بيئة جديدة يجب أن تتوفر لها كل عوامل النجاح ، ومهمتها أن تجعل الأبواب والنوافذ فى مكة مشرعة ، مفتوحة لاستقبال الإسلام ، بعد زوال سيف الإرهاب الفكرى والعسكرى الذى يمارسة قادة مكة وطواغيتها . فقد رأينا آثار هذا الانفتاح فى الانهيارات الكبرى فى القيادات التى هزمت فى داخلها ، وصار بإمكانها أن تصيخ إلى الإسلام ، وإذا كان أبو سفيان يمثل رمز المقاومة والحرب للإسلام ، فقد نكس الراية وألقى السلاح ومضى وراء تجارته البائرة ، وراح يحاول إحياء الاقتصاد المنهار فى مكة ، فمضى فى تجارته الأولى بعد الهدنة ، غير خائف من غزو خارجى يجتاح مكة ، ولم

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٢٠ ـ ١٢٢ . (٢) الإسراء / ١٥ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٢٠ ـ ١٢٢ . (٤) المصدر نفسه ٨/ ١٢٣ .

تبق امرأة ولا رجل إلا ساهم معه فى تجارته فهو مشهود له بعبقريته التجارية ، ولو خسر الحرب العسكرية .

وأبو سفيان ليس مجرد شخص تاجر فحسب أو مقاتل فحسب ، بل هو رمز الحركة الاقتصادية والعسكرية والقبلية التى تواجه الإسلام ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يدرك وضعه ، فكان لابد من تفتيت كل الحواجز بينه وبين الإسلام ،فكان الإقدام على الزواج من أم حبيبة ابنته،ولو اقتضى الأمر إرسال رسول بذلك إلى الحبشة ليخطبها له.

وكان القدر الإلهى قد هيأ هذا الأمر لرسول الله ﷺ ، فقد مات ابن عمته عبيد الله ابن جحش زوجها المرتد عن الإسلام ، ودخلت فى عدة المتوفاة ، خلال هذه الفترة ، فبعث رسول الله ﷺ بطله العظيم رجل الصحراء ، وفارسها الأول ، عمرو بن أمية الضمرى بهذه المهمات الثلاث :

يدعو النجاشى إلى إعلان الإسلام ، ويأمره بإعادة جعفر وأصحابه إلى المدينة، ويزوجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان قبل أن يتقدّم إليها أحد قبله ، فما يناسب ابنة أبى سفيان زعيم مكة الأول إلا رسول الله ﷺ .

وأم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ ذلك النموذج الحى الخالد فى الإسلام ، حيث لم تهتز لحظة واحدة أمام انهيار زوجها وردَّته ، بل قد رأته بأقبح صورة ، ونهته ووعظته ، فما اتعظ وما انتهى ، وبقيت ثابتة على إسلامها كالطود صابرة محتسبة ، تحتمل جنونه وصرعته فى انكبابه على الخمر ، وردته عن الإسلام وبقيت حفيظة على العهد ، ثابتة على إيمانها إلى أن مات زوجها ، وهى مسلمة أمرها إلى ربها سبحانه الذى تعيش بقلبها معه ليل نهار ، ومن هذا البلاء الرهيب والمحنة القاتلة والويل الشديد إلى تلك الرؤيا الحالمة المجنحة أن تسمع من يناديها بأم المؤمنين فتستيقظ من رقادها وتتمنى لو تعود إلى النوم ، فهل ستغدو زوجاً لرسول الله ﷺ ؟؟ وربها الذى أحبها لصبرها على دينها وتحملها آلام الغربة والوحشة والبعد ، ووقوفها بجانب الإسلام ضد زوجها وأبيها وأمها وأهلها وعشيرتها ، يحقق لها حلمها الجميل ، فتدخل عليها جارية النجاشى ، وتبلغها بأن رسول الله ﷺ بعث من المدينة برسول خاص يخطبها عن طريق ملك الحبشة النجاشى ، ويطلب رأيها فى ذلك . هل تملك جناحين تطير بهما إلى الجنة ، وإلى المدينة فتقول : أن نعم بلا تردد وأن تصبح بعد هذا البعد والغربة القاتلة بجوار سيد ولد آدم رسول رب العالمين ، بل زوجة له ؟!

ولم تتمالك نفسها من الفرحة ، فخلعت كل دنياها التى بقيت عندها من فضة

وذهب ، وكل ما تلبسه من زينة بيديها ورجليها ، وألقتها بشارة إلى أبرهة التى نقلت لها هذا النبأ السعيد ، فإن وافقت فلتحدد من هو وكيلها فى هذا الزواج ، فاختارت أقرب الناس رحماً لها فى الحبشة وهو خالد بن سعيد ابن عمها رضي الله عنه وراحت تستعجل الزمن لحظة بعد لحظة ، متى يتم ذلك، ومتى تمضى إلى المدينة ، ومتى تغدو فى كنف المصطفى الحبيب ﷺ ، ومتى ومتى ؟ لقد أصبح جسمها فى الحبشة لكن روحها وحياتها ونفسها انتقلت إلى المدينة :

إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

والنجاشى: ذلك الصحابى الفذ ، والقائد العبقرى ، والجندى المؤمن ، وقد نال ثمرة صبره ، فأعلن إسلامه وإسلام علية القوم معه ، دون أن يتمكن خصومه وأعداؤه من الثورة عليه وتهديده فى عرشه ، بل يمضى أكثر من ذلك فينفذ أمر قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويبعث إلى أم حبيبة ، يأخذ رأيها بزواج رسول الله ﷺ منها ، ويكون هو وكيل سيد الخلق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا الزواج ، وعلى الملأ من قومه يستدعى جعفراً رضي الله عنه سيد المسلمين العرب فى الحبشة ويجتمع المؤمنون الأولون والمهاجرون الخالدون إلى حفلة زفاف حبيبهم ورسولهم محمد ﷺ على أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم مكة الأول والأوحد .

وكانت حفلة خالدة لا مثيل لها فى التاريخ يتقدم فيها النجاشى ملك الحبشة وكيل رسول الله ﷺ فيعلن موافقة أم حبيبة على هذا الزواج ، وأن وكيلها خالد بن سعيد .

وإذا كانت مهور زوجات النبى ﷺ لا تنوف عن أربعمائة درهم ، فلا يرضى ملك الحبشة أن يمهر هذه المسلمة العظيمة إلا عشرة أضعاف مهور ضرائرها ، فنثر أربعمائة دينار بين يدى خالد بن سعيد ، ثم حمد الله بما هو أهله ، وصلى على النبى ﷺ ، وأعلن هذه الخطوبة على هذا المهر ،وشهود هذه الخطوبة خيرة أهل الأرض فى الحبشة، وبموافقة خالد بن سعيد رضي الله عنه وكيل أم حبيبة ، تم الإيجاب والقبول ، وتم عقد الزواج ، فأين الاحتفال؟!

ويدرك النجاشى العظيم مسؤوليته فى دفع المهر ، ومسؤوليته فى وليمة العرس، وحين همّ المسلمون بالخروج أصرّ عليهم بالانتظار قليلاً ريثما توضع الأنطاع وتفرش المائدة فى أجمل عرس إسلامى فى الحبشة عروساه محمد ﷺ وبنت أبى سفيان بن حرب .

(اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا) .

ولعل هذه الأواصر التى قامت الآن هى بين مكة والمدينة ، وهى فتح أبواب التعايش والتفاهم مع المكيين .

وأبرهة : هذه الجارية المختصة بعطر النجاشي والقائمة على ثيابه ودهنه، هى التى حملت البشرى الأولى لها، فأعطتها خواتم الفضة وها هى أم حبيبة الآن ترفل بين أربعمائة دينار ما وصلت إلى يديها فى حياتها . وقررت أن تسلم صاحبة البشرى خمسين مثقالاً من الذهب . وهى تنتظر عودتها إليها بفارغ الصبر، تقص عليها قصة حفلة زواجها السعيد، وجاءت أبرهة، وقصت على أم حبيبة قصة زواجها الحلوة، واستحيت منها أن تستعيدها ثانية وثالثة، ولكن المسؤولية الرسمية لأبرهة لا تؤهلها لتجلس طويلاً عند الزوجة السعيدة، وراحت أم حبيبة تهيئ الخمسين مثقالاً لتعطيها لأبرهة، ولكنها تفاجأ بالغريب الجديد، وما أحلى غريبها وجديدها أعادت لها بأمر النجاشى كل ما أخذته من أقراط وخواتيم وأساور فالملك النجاشى أمرها ألا ترزأ زوجة رسول الله شيئًا، ولم تكتف أبرهة ـ رضى الله عنها ـ برد هدايا أم حبيبة، بل جاءتها بأغلى هدية تلقتها فى حياتها، فمهرها أغلى المهور وهداياها أثمن الهدايا ؛ لأن ممثل رسول الله ﷺ هنا هو النجاشى المسلم رضي الله عنه ملك الحبشة الذى دانت له الأحباش وسارت الركبان بالحديث عن عدله، أما هداياه فكانت :

(وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من عِطر. قالت: فلما جاء الغد جاءتنى بعود ودرس وعنبر وزباد كثير، فقدمت بذلك كله على النبى ﷺ. فكان يراه عندى ولا ينكره) .

لقد كان رسول الله ﷺ يحب الطيب حتى ليراه أطيب طيبات الدنيا: « حُبّب إلىَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

ولا شىء أمتع للزوجة من طيبها وعطرها لزوجها، وكانت تفخر بهذا العطر على بقية نسائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونبقى عند قلب أبرهة، هذه الجارية التى عمر قلبها بالإيمان وسمعت برسول رب العالمين الرحمة المهداة ، وهذه أم حبيبة التى أكرمها الله تعالى بأن تكون مخطوبة رسوله، وأن تفوز بصحبته الدائمة مدى العمر، لتبعث إذن أبرهة برسالة مع هذه الصفية إلى رسول رب العالمين .

(فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه). وتمضى هذه الفتاة بعد أن تغادر أم حبيبة، وأكبر أحلامها أن يصل سلامها إلى

رسول الله الذى يأتيه الوحى من السماء، فما تفتأ كلما رأت أم حبيبة تذكرها بإبلاغ هذا السلام. وتحس أم حبيبة بعظمة هذه المنة الربانية عليها، فقد تكون مثل أبرهة لا تملك إلا أن تبلغ سلامها لرسول الله ﷺ. وقد كان نصيبها ذلك المرتد المخمور ولا تدرى متى يتغير هذا النصيب مع آلام الغربة والوحشة، ولتراه فى كل يوم فتسعد به، وتقر عينها به، ويسعد بها وتقر عينه بها. فأى كرامة سيقت إليها تعدل هذه الكرامة؟!

وتذكر أباها وأمها فتغص أغلى ما عندها فى الدنيا ولا يزالان على الكفر، وتخف الغصة قليلاً فالهدنة قد وقعت بين قريش ورسول الله ﷺ. وتحلم أن تُكسر تلك الحواجز ، ويفتح الله قلب أبويها وقومها للإسلام .

بقيت غارقة فى أحلامها وهى تغادر مع الوفد إلى المدينة، فتعد الساعة تلو الساعة التى ستلقى بها حبيبها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتدخل عضواً فى بيته مثل عائشة وحفصة وزينب. وتذكر الأربعمائة دينار، والعطور التى ملأت بها ركابها كيف ستقدم بها على سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتذكر أن رسول الله ﷺ قد بعث رسولاً خاصا من المدينة إلى الحبشة، ويخطبها، فلا تحملها الأرض ولا يتسع رأسها للسفينة وأهلها، إنها طائرة بدون جناح إلى عالمها المسحور، وها هى تصل المدينة فتنتظر بفارغ الصبر قدوم محمد ﷺ من خيبر، وسوف تحظى به وحدها ثلاث ليال متتالية لأنها الزوجة الجديدة، وسوف تنقلب من زوجة المرتد المخمور إلى زوجة محمد بن عبد الله الرسول المصطفى خير الثقلين وإمام الأنبياء ونور النور، وتحلم أن يكون زواجها بركة على قومها وأبويها فتنفتح مغاليق قلوبهم إلى الإسلام .

أبو سفيان: ووقفة جديدة مع أمير مكة أبى سفيان بن حرب، الذى عاد من رحلته وأهم ما فيها إضافة لأرباح تجارته وفوده على قيصر وتعرفه عليه ويذكر ما دار فى تلك الوفادة فيغص ، ويصل قلبه إلى حنجرته. فما فائدة تلك الوفادة إذا كان قيصر ومن معه يخافون محمداً. ويتمنى قيصر أن يكون خادمًا عنده يغسل ما عند قدميه. وأن محمدًا سيملك ما عند قيصر، وهو فى هذا الاضطراب العنيف يصله الخبر أن ابنته أم حبيبة قد صارت زوجة لخصمه محمد بن عبد الله، فهل يقسم الايمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً فى المدينة ويستخلص ابنته الأسيرة؟ لقد انتهى ذلك الحقد، وأصبح موقنًا بانتصار محمد. وإذا كان هرقل آمن بنبوته فلم لا يؤمن هو؟ !

ويطرد هذه الخواطر ، لكنه يطرد كل أحقاده، وكل ثاراته ، ويسيطر على كيانه ومشاعره الإعجاب العظيم بفتى مكة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويرتفع بذاته كثيراً حين يذكر أنه صهر محمد فيقول وقد بلغه الخبر ؟

(هو الفحل لا يقرع أنفه) ولا يدرى فقد يكون مع الزمن أكبر أمجاده فى هذه القرابة القريبة والمودة العظيمة .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

ويعجب من قلبه حتى ليكاد ينكره ويبحث فيه، فلا ير إلا الإعجاب العظيم بهذا الفتى الذى أصبح ملوك بنى الأصفر تهابه. بينما يساق هو سيراً إلى بلاط قيصر ويخرج بعد حديثه عنه ، فطريقه مفتوح إلى المدينة وله بيت بها هو بيت ابنته أم حبيبة .فأى تربية نبوية.أعطت أثراً أعظم من هذه التربية بالزواج ؟!

مع بنت ملك اليهود : بنت حيى :

إنها صفية بنت حيى بن أخطب فرعون يهود والعدو الألد لرسول الله ﷺ. وقد نبتت صفية ـ رضى الله عنها ـ فى هذه البيئة. وها هى تحدثنا عن اللحظات الأولى التى تم فيها لقاء أبيها مع محمد بن عبد الله ﷺ .

(لم يكن أحد من ولد أبى وعمى أبى ياسر أحبُّ إليهما منى، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذانى دونه .

فلما قدم رسول الله ﷺ قُباء ـ قرية بنى عمرو بن عوف ـ غدا إليه أبى حيى بن أخطب، وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين. فوالله ما جاءنا إلا مع مغيب الشمس ، كالين ،كسلانين ، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كماكنت أصنع. فوالله ما نظر إلىَّ واحد منهما. فسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم. قال: أتعرفه بنعته وصفته؟ قال نعم والله. قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت) (٢).

أما رواية ابن عقبة عن الزهرى فتوضح فرقًا بين موقف الأخوين. قال الزهرى:

(إن أبا ياسر بن أخطب، حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه فسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال : ياقوم أطيعونى فإن الله تعالى جاءكم بالذى تنتظرونه فاتبعوه ولاتخالفوه . فانطلق أخوه حيى بن أخطب ـ وهو يومئذ سيد يهود ـ وهما من بنى النضير فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، ثم رجع إلى قومه وكان فيهم

---

(١) الممتحنة / ٧ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٣/ ٥٤٩ . هذه الرواية رواها عن ابن إسحاق والبيهقى وأبو نُعيم .

مطاعًا. فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً فقال له أخوه أبو ياسر: يابن أم أطعنى فى هذا الأمر . واعصنى فيما شئت بعد. فقال: والله لا أطيعك فاستحوذ عليه الشيطان وتبعه قومه على رأيه(١).

ها هو خط العداء الذى رسمه وفرضه حيى بن أخطب ،وصدق فيما عاهد عليه نفسه ،فلم يدع لحظة تمر من حياته دون هذا العداء. وهو مثل أبى جهل فى قومه. وعندما ختم حياته وعرض على الموت، لخَّص تلك الحقبة من حياته فى حرب محمد ﷺ بعد قول رسول الله له: « ألم يمكن الله منك يا عدو الله؟» قال: بلى والله، مالمت نفسى فى عداوتك، وقد التمست العز فى مكانه، وأبى الله إلا أن يمكنَّك منى، ولقد قلقلت كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يُخذلِ. ثم أقبل على الناس فقال:

يا أيها الناس ، لا بأس بأمر الله قدر وكِتاب، ملحمة كُتِبَتَ على بنى إسرائيل!

ثم أمر به فضرب عنقه.

صفية: أما هذه النبتة الطاهرة التى أعدَّها الله تعالى لنبيه، فمنذ هذه اللحظات التى سمعت فيها حديث أبيها وعمها أحست بنفور شديد من هذا الموقف، يقولون إنه هو هو النبى المنتظر، ثم يصرّون على حربه وعداوته. فأحست أن قلبها قد انفتحت فيه كوة عميقة دخل منها الإسلام فأزهر هذا القلب، إنها النبتة التى يصوح بها الريح فى هذا اللظى المشتعل بالحقد، والنار المتأججة بالحرب، لكنها ترى قلبها كلما مر الزمن يزداد حنينًا للإسلام، وحبًا لرسول الله ﷺ ويزداد نفوراً وكراهية لمواقف أبيها وقومها .

يدلنا على ذلك اللقاء الأول بينها وبين سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا اللقاء الذى كشف عن نفاسة معدنها، وطيب عنصرها وهى فى هذا المنبت السوء .

(فأرسل بى إلى رحله ثم جاءنا حين أمسى فدعانى. فجئت وأنا متقنعة حيية، فجلست بين يديه، فقال:« إن أقمت على دينك لم أكرهك. وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك» قالت: أختار الله ورسوله والإسلام .

وفى الرواية الثانية :

لما دخلت صفية على النبى ﷺ قال لها: « لم يزل أبوك من أشد يهود عداوة لى حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾(٢) فقال لها رسول الله ﷺ: اختارى فإن اخترتِ الإسلام أمسكتك لنفسى،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الإسراء / ١٥ ، فاطر / ١٨ .

وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك، فتلحقى بقومك » .

إنها قد حانت ساعة الخلاص لها من بين يدى عدو أبيها الألد، وتبقى على دينها، وتنال حريتها، وتلحق بقومها. لكن صفية هذا العنصر الذى أضاء النور فى قلبه منذ اللحظات الأولى التى سمعت حوار أبيها وعمها برسول الله ﷺ، قالت:

(يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام، وصدَّقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك) .

هذه هى الحقيقة المطمورة المغمورة فى أحشائها. وقد آن الأوان لكشف هذا السر الذى أثقل كيانها، فهى تهوى الإسلام منذ أن كانت ابنة الثانية عشرة لكنها لا تجرؤ على إعلان موقفها فى الأجواء الحاقدة على الإسلام، والمتوترة من ذكره. وهى فى براءتها وبعدها عن التعقيد، كانت صادقة مع نفسها. وشهدت أن الرسول حق من كلام أبيها وعمها. فلم تجحد الحق؟

ومعنى آخر يعطينا إضاءة على طهرها، ونفاسة معدنها ، ونظافة شخصيتها هو تلك الرؤيا الحالمة التى رأتها . ففى الوقت الذى كانت أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ ترى فى رؤياها الحالمة من يناديها بأم المؤمنين ، كانت صفية بنت حيى تحن بأعماقها إلى يثرب، وتحن إلى الإسلام. وإلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة. فقال: « يا صفية،ما هذه الخضرة؟» فقالت: كان رأسى فى حجر ابن أبى الحقيق، وأنا نائمة فرأيت كأن القمر وقع فى حجرى. فأخبرته فى ذلك فلطمنى وقال: تمنِّين ملك يثرب(1).

وفى رواية عند البيهقى كذلك: (وأبصر رسول الله ﷺ خضرة فى وجهها فقال : « ما هذا بوجهك؟» . قالت: يا رسول الله رأيت رؤيا قبل قدومك علينا، ولا والله ما أذكر من شأنك من شىء قصصتها على زوجى، فلطم وجهى. وقال: تمنين هذا الملك الذى بالمدينة. قال رسول الله ﷺ: « وماذا رأيت » ؟ قالت: رأيت القمر زال من مكانه فوقع فى حجرى. فأُعجب رسول الله ﷺ برؤياها (2).

وإن كانت رواية الواقدى عن الرؤيا تلقى إيضاحات أشد إذ تقول صفية:

(فرأيت فى النوم كأن قمرًا أقبل من يثرب يسير حتى وقع فى حجرى. فذكرت ذلك لزوجى كنانة فلطم عينى فاخضرت) (3).

---

(1) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٣٠ . (2) المصدر نفسه ٤/ ٢٣٢ .
(3) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٤ .

شهدنا صفية، وأباها حيى، فمن كان زوجها الأول وزوجها الثانى؟

زوجها الأول: سلام بن مشكم أحد قادة اليهود ، **وزوجها الثانى** :هو كنانة بن أبى الحقيق سيد خيبر الأول. ولنغص فى أعماق هذين الزعيمين، ونشهد ما يحملان فى نفسيهما من حقد على الإسلام وأهله. فهما من مدرسة أبيها حيى. وذلك من خلال هذا الحوار بعد قريظة .

(لما قُتلت بنو قريظة قدم حسيل بن نويرة الأشجعى خيبر، قد سار يومين، ويهود بنى النضير. سلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، ويهود خيبر جلوس فى ناديهم يتحسبون خبر قريظة. قد بلغهم أن رسول الله ﷺ حصرهم وهم يتوقعون ما هو كائن، فقالوا: ما وراءك؟ قال: الشر! قتلت مقاتلة قريظة صبرًا بالسيف! قال كنانة: ما فعل حيى؟ قال حسيل: حيى قد طاح ضربت عنقه صبرًا. وجعل يخبرهم عن سراتهم كعب بن أسد، وغزال بن سموأل،ونباش بن قيس،أنه حضرهم قُتلوا بين يدى محمد.

قال سلام بن مِشكم: هذا كله عمل حيى بن أخطب: شأمنا أولاً، وخالفنا فى الرأى، فأخرجنا منَ أموالنا وشرفنا، وقتَل إخواننا، وأشد من القتل سباء الذرية، لا قامت يهودية بالحجاز أبدًا ليس لليهود عزم ولا رأى، قالوا: وبلغ النساء فصيَّحن، وشققن الجيوب، وجززن الشعور، وأقمن المآتم .

وضوى إليهن نساء العرب، وفزعت اليهود إلى سلام بن مِشكم فقالوا:فما الرأى يا أبا عمرو؟ قال:وما تصنعون برأى لا تأخذون منه حرفاً؟ قال كنانة:ليس هذا بحين عتاب قد صار الأمر إلى ما ترى ،قال:محمد قد فرغ من يهود يثرب،وهو سائر إليكم فنازل بساحتكم، وصانع بكم ما صنع ببنى قريظة ، قالوا: فما الرأى؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر فلهم عدد، وتستجلب يهود تيماء وفدك ووادى القرى ولا نستعين بأحد من العرب. فقد رأيتم فى غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب .ثم نسير إليه فى عقر داره فنقاتل على وِتْرٍ [(١)] حديث وقديم.فقالت اليهود: هذا الرأى ، فقال كنانة: إنى قد خبرت العرب فرأيتهم أشداء عليه وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك ، ومحمد لا يسير إلينا أبدًا لما يعرف، قال سلام بن مشكم: هذا رجل لا يقاتل حتى يؤخذ برقبته) [(٢)].

لقد كان الزعيمان يعدان الأهبة ويجيّشون الكتائب لغزو المدينة، لكن سلام كان أجرأ ويدعو لغزو المدينة من يهود المنطقة فقط دون أن يشرك بهم العرب، بينما يرى كنانة أن يستنجد بالعرب رغم انسحابهم فى الخندق، ويدعو للدفاع عن حصون خيبر ، دون الخروج للمواجهة .

---

(١) الوِتر: الثأر .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٥٣٠ .

صورتان وعظمة التربية:

ولعل نيل سلام من حيى وتحميله كافة المسؤولية ، جعل نفس صفية تغضب على سلام وتنفر منه. وانتهى الأمر بفراقهما حين لم يرع حق أبوة حيى لزوجته صفية. وتحقق تخوفات سلام بن مشكم حين قال عن كنانة: هذا رجل لا يقاتل حتى يؤخذ برقبته . وأخذ برقبة كنانة ، فكان المفاوض على الصلح والموقع عليه عن اليهود . ومع ذلك لم ينجُ من القتل لأن الغدر من شيمته .

تحدثنا صفية عن زواجها الثانى بكنانة أنه كان قبيل وصول رسول الله ﷺ إلى خيبر بأيام (تقول: فأقمنا بخيبر، فتزوجنى كنانة بن أبى الحقيق، فأعرس بى قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام وذبح جزراً ودعا باليهود وحولنى فى حصنه بسُلالم)(١).

وهذا مصرع زوجها كِنانة بعد مصرع أبيها كما يرويها عروة بن الزبير قال:

(ثم إن المسلمين حاصروا اليهود أشد الحصار، فلما رأوا ذلك سألوا رسول الله ﷺ الأمنة على دمائهم، ويبرزون له من خيبر وأرضها،وما كان لهم من مال، فقاضاهم على الصفراء والبيضاء وهو الدينار والدرهم وعلى الحلْقة وهى الأداة ـ الحربية ـ وعلى البز إلا ثوبًا على ظهر إنسان. « وبرئت ذمة الله منكم إن كتمتم شيئًا. وأن تعملوا فى أموالكم على نصف الثمر كل عام ما أقررناكم فإن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم » فنزلوا على ذلك).

وقفة تاريخية:

فى خيبر كانت نهاية اليهود فى الأرض العربية، وكان هذا الاتفاق. واليوم بعد خمسة عشر قرناً من الزمان، يأتى العرب البائسون الذين تخلوا عن الإسلام ، ليكون عرفات، قائد الثورة الفلسطينية ورئيس منظمة التحرير، والممثل الوحيد للشعب الفلسطينى بمنظمته تلك ، يأتى ليضع صك الاعتراف لليهود بالأرض العربية باتفاق غزة وأريحا أولاً، فى أكبر خيانة تاريخية يعترف بها العرب بتسليم الأرض لليهود ، وذلك بعد اعتراف اليهود قبل خمسة عشر قرنًا من الزمان بتسليم الأرض للمسلمين وتسليم السلاح، وتسليم الأموال .

وهذه بعض النصوص السرية وهى مترجمة من الروسية وتمثل النص الرسمى للملاحق السرية المرفقة لإعلان المبادئ الخاصة بترتيبات الإدارة الذاتية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة :

(١) المغازى للواقدى٢/ ٦٧١ .

ملحق رقم (١) : التعاون السياسى :

أولاً: تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بدولة إسرائيل، وبحق الشعب اليهودى فى فلسطين، وتعترف الحكومة الإسرائيلية بمنظمة التحرير الفلسطينية كحكومة ذاتية انتقالية بعد القيام بانتخابات شكلية .

خامساً: لا يحق للحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية ممارسة أية أعمال تتعلق بالسياسة الخارجية .

سادساً : لايحق إنشاء حكومة سياسية فلسطينية مستقلة ؛ بل إدارية . ولايحق إصدار نقد فلسطينى أو جوازات سفر فلسطينية .

سابعاً : يتمتع الفلسطينيون سكان غزة وأريحا بجوازات سفر إسرائيلية مع الإشارة فى جواز السفر أن الجنسية فلسطينية .

عاشراً: يحق للحكومة الإسرائيلية وقف العمل بأية اتفاقات سرية فلسطينية فى أى وقت تراه ضرورياً. خاصة إذا رأت أن المصلحة السياسية والأمنية بدولة إسرائيل تتعارض مع هذه الاتفاقات .

وهكذا وضعت السيادة السياسية والخارجية لدولة إسرائيل وحكومتها وهى التى تمثل الشعب كله الفلسطينى واليهودى ، ومن حقها إلغاء حتى هذا الحكم الإدارى الذاتى الداخلى .

ملحق رقم (٢) : التعاون الأمنى:

أولاً: لا يحق لمنظمة التحرير الفلسطينية أو الحكومة الذاتية الانتقالية إنشاء جيش عسكرى فلسطينى ، ويتولى حماية الحدود الجيش الإسرائيلى .

ثانياً : يتولى الجيش الإسرائيلى حماية مناطق الحكم الذاتى الفلسطينى فى دولة إسرائيل .

ثالثًا: لا يحق للفلسطينيين ضمن الحكم الذاتى حمل أو اقتناء أسلحة نارية بكافة أنواعها أو أية مواد متفجرة، أو خطرة بما فى ذلك المواد الكيماوية السامة المشعة دون أخذ الموافقة المسبقة لدوائر الأمن الإسرائيلية .

رابعاً : يتولى مهمة حفظ الأمن الداخلى فى مناطق الحكم الذاتى الفليسطينية الشرطة الفلسطينية ، وتتلقى مخططاتها وأسلحتها من وزارة الداخلية الإسرائيلية بواسطة الحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية، وتعمل الشرطة الفلسطينية ضمن اللوائح

والأنظمة الداخلية الإسرائيلية .

ثامناً: تتعهد منظمة التحرير الفلسطينية أو الحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية بتسليم قوائم بأسماء الجماعات الفلسطينية الدينية وغيرها المعارضة لاتفاقية السلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية بعد ثلاثة أشهر من بدء تنفيذ اتفاقية السلام ومراقبة نشاطها .

فالدفاع والجيش والقوة كلها بيد الجيش الإسرائيلى، وعلى الحكومة الفلسطينية أن تسلم أسماء الجماعات الدينية لإسرائيل. وهى الجماعات المعارضة لاتفاق السلام .

ملحق رقم (٣) : التعاون الاقتصادى والتجارى والمالى:

سادساً: لا تمانع الحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية بشراء أو بيع الأراضى ضمن مناطق الحكم الذاتى لأى إسرائيلى يرغب بالشراء أو البيع .

تاسعاً: ميزانية الحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية تعتبر جزءاً من ميزانية حكومة إسرائيل .

عاشراً: لا يحق للحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية توقيع عقود أو اتفاقيات لمشاريع اقتصادية أو مالية أو تجارية مشتركة دون دراستها مسبقاً من قبل الحكومة الإسرائيلية .

أحد عشر: النقد الرسمى فى إسرائيل ومناطق الحكم الذاتى الفلسطينى هو الشيكل الإسرائيلى .

ثانى عشر: الاستيراد أو التصدير لأية مواد أو بضائع مدنية لاستعمال مناطق الحكم الذاتى الفلسطينية يتم من خلال وزارة التجارة الإسرائيلية ، ولا يحق للحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية ممارسة ذلك منفردة .

إذن الاقتصاد والسياسة الخارجية والدفاع والجيش كله بيد إسرائيل .

ملحق رقم (٤) : التعاون الإعلامى:

ثانياً: يتفق الفلسطينيون والإسرائيليون على توجيه إعلامهم المشترك لمحاربة الأصوليين والإرهابيين فى إسرائيل والدول العربية الأخرى، وكذلك محاربة المعادين لعملية السلام الإسرائيلية/ الفلسطينية/ العربية .

ثالثاً: يتفق الطرفان على وقف حملات العداء لليهود وحقهم التاريخى بفلسطين، وكذلك حملات العداء للصهيونية العالمية .

لقد تهود العرب واعترفوا بأن الأرض والحكم والجيش للحكومة الإسرائيلية.

ملحق رقم (٥) : أمور خاصة:

لا يحق للحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية التدخل بالشؤون الداخلية أو السياسية الخارجية لدولة إسرائيل .

لا يحق للحكومة الذاتية الانتقالية الفلسطينية إنشاء وزارات وهيئات رسمية أو حرس تشريفى وغير ذلك من مقومات الدولة المستقلة بما فى ذلك دعوة الرؤساء والملوك، مع رفع العلم الإسرائيلى مع الفلسطينى على مكاتب المؤسسات الرسمية الفلسطينية .

هذه هى أهم بنود وعناصر الاتفاق الذى وقّعه ياسر عرفات مع الحكومة الإسرائيلية.

وتلك أهم بنود وعناصر الاتفاق الذى وقّعه كنانة بن الحقيق مع الحكومة الإسلامية الجديدة .

عودة من الوقفة التاريخية إلى كنانة وعهده :

(وكتم بنو أبى الحقيق آنية من فضة، ومالاً كثيراً كان فى مسك جمل عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق فقال رسول الله ﷺ: « أين الآنية والمال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟» قالوا: ذهب وحلفوا على ذلك. وأعلم الله جل ثناؤه نبيه بالمال الذى عندهما، فدفعهما رسول الله ﷺ إلى الزبير يعذبهما، فاعترف ابن عمّ كنانة، فدلّ على المال ، ثم إن رسول الله ﷺ أمر الزبير فدفع كنانة بن أبى الحقيق إلى محمد بن مسلمة فقتله، ويزعمون أن كنانة هو قتل محمود بن مسلمة) (١).

(وذكر موسى بن عقبة فى المغازى هذه القصة بمعنى ما روينا إلا أنه ذكر فى قصة الكنز أن النبى ﷺ سأل كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق عن ذلك، وسأل مع كنانة حيى ابن الربيع فقالا: أنفقناه فى الحروب. ولم يبق منه شىء، وحلفا له على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: « برئت منكما ذمة الله وذمة رسوله إن كان عندكما » فقالا: نعم فأشهد عليهم. ثم أمر الزبير أن يعذّب كنانة فعذبه حتى خافه فلم يعترف له بشىء. ولا ندرى أعذّب حيى أولا ثم إن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك الكنز غلاماً لهما يقال له : ثعلبة كان كالضعيف، فقال: ليس لى علم به غير أنى قد كنت أرى كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة، فإن كان فى شىء فهو فيها. فأرسل رسول الله ﷺ إلى تلك الخربة ،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٣٢ .

فوجدوا فيها ذلك الكنز فأُتى به، وذكر قصة صفية) (١).

بلال والمرور على القتلى :

تتابع لنا صفية قصتها وهى فى السبى: فسُبيت فى النزار (حصن) قبل أن ينتهى النبى ﷺ إلى الكتيبة فأرسل بى إلى رحله. ولأدبها الجم لا تحدثنا عن فجيعة بلال رضي الله عنه بها وبابنة عمها، إنما يحدثنا عن ذلك أحد الصحابة فيقول:

(وكان رسول الله ﷺ سباها قبل أن ينتهى إلى الكتيبة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل بها مع بلال إلى رحله. فمر بها وبابنة عمها على القتلى فصاحت ابنة عمها صياحًا شديدًا، فكره رسول الله ما صنع بلال فقال: « أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟! ».

فقال بلال: يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها) (٢).

إن تفكير الجندى إنما ينصب على الثأر ، وهؤلاء السبايا لابد أن يشعرن بالذل والإهانة والأسى لمصارع قومهم، أما سيد الخلق الرحمة المهداة للبشرية. وبعد أن تم الانتصار العسكرى. لابد أن يمضى باتجاه آخر باتجاه مسح الأحقاد وإذابتها لا تأجيجها. ومن أجل ذلك رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذه العملية هى تأجيج للحقد وتفجير للألم. فقال هذه الكلمة الشديدة لصفيه بلال رضي الله عنه : « أذهبت منك الرحمة يا بلال، تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟!»

ولم يكن عمر صفية ـ رضى الله عنها ـ يتجاوز يومذاك الثمانى عشر ربيعًا. فهى فى مقتبل صباها ، لكنها فى حلم الجبال، وعقل الرجال .

أبو أيوب رضي الله عنه والحماية :

وكما فكر بلال ـ رضوان الله عليه ـ بالثأر من أعداء الله، وعرض القتلى على سباياهم فكَّر أبو أيوب رضي الله عنه بشىء آخر .

(وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله ﷺ قائمًا قريبًا من قبته آخذاً بقائم السيف حتى أصبح فلما خرج رسول الله ﷺ بكرة كبَّر أبو أيوب حين أبصر رسول الله ﷺ قد خرج فسأله رسول الله ﷺ « ما بالك يا أبا أيوب؟ » قال: لم أرقد ليلتى هذه يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: « لم يا أبا أيوب؟ » قال: لما دخلت بهذه المرأة ذكرتُ أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها وعامة عشيرتها فخفت لعمر الله أن تغتالك. فضحك

---

(١) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٤/ ٣٣٢ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٧٣ .

رسول الله ﷺ وقال له معروفًا)[1].

وفي رواية ابن إسحاق: (فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني »)[2].

فأبو أيوب الجندي الفدائي المسلم الذي شرَّفه الله بجوار نبيه وضيافته يحس أن اليهود هم أعدى العدو . كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [3] ، وحياة رسول الله ﷺ وسلامته، دعت أبا أيوب أن يمضي ليله حارساً ساهراً لحفظ قائده الحبيب . إذا سمع ما يريب .

وعودة إلى صفية : التي التقت بالحبيب المصطفى وخيرها بين العتق والبقاء على اليهودية والإعادة إلى الأهل ، وبين العتق والإسلام والزواج من رسول الله ﷺ . فاختارت الله ورسوله والإسلام كما ذكرنا من قبل . إنما الجديد هو اعتذاره ﷺ عن قتل أبيها وزوجها ، وأن أباها هو الذي أجج نار الحرب لله ورسوله ، وأشعل لظاها .

« لم يزل أبوك من أشد يهودِ عداوة لي حتى قتله الله ». فقالت : يارسول الله ، إن الله يقول في كتابه : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [4] .

وهذا من فقهها العجيب وذكائها النادر إذ فصلت بين أبيها وعداوته للإسلام ، وبينها وبين حبها للإسلام منذ أن كانت بالمدينة .

وفي رواية أخرى ، لعلها تختلف في روحها عن هذه الرواية لكنها تؤكد معنى حرص رسول الله ﷺ على تطييب خاطرها ، ونزع فتيل الحقد من قلبها إذ تقول :

(وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إليّ ، قتل زوجي وأبي ، فما زال يعتذر إليّ ويقول: « إن أباك ألب عليّ العرب،وفعل وفعل» حتى ذهب ذلك من نفسي)[5] .

وفي رواية : (فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه ، وكانت أمها إحدى نساء بني قينقاع أحد بني عمرو . فلم يسمع النبي ﷺ ذاكراً أباها بحرف مما تكره)[6].

ومع أنه أعدى العدو ، وحفاظاً على مشاعرها ،لم يعد يذكر أباها بحرف مما تكره ، إكراماً لها ولمشاعرها المسلمة ، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما بعد بحق عكرمة بن أبي جهل وأبيه . وأمام هذه التربية وهذا الإكرام ، تتابع بروز عنصر صفية النفيس بعد أن حجبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ واعتبر عتقها مهرها ، لم ينس الرواة أن يحدثونا عن أدبها يوم جاءت لتركب البعير .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٣٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٤٧٣ .
(٣) المائدة / ٨٢ .
(٤) الإسراء / ١٥ ، فاطر / ١٨ .
(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٤ / ٢٣١ .
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٢٠ ـ ١٢٢ .

لقطات من الرحلة :

اللقطة الأولى :

(فلما قرب البعير لرسول الله ﷺ ليخرج ، وضع رسول الله ﷺ رجله لصفية لتضع قدمها على فخذه ، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه ، وسترها رسول الله ﷺ ، وحملها وراءه).

وتحدثنا ـ رضى الله عنها ـ عن السبب النفسى وراء ذلك فتقول : (ثم قدم إلىّ البعير ، وقدّم فخذه لأضع رجلى عليها ،فأعظمت ذلك ،ووضعت فخذى على فخذه ، ثم ركبت) .

فإعظام رسول الله ﷺ هو الذى يملأ كيانها وقلبها هو الذى منعها أن تضع قدمها على فخذ رسول الله فوضعت ركبتها على ركبته .

اللقطة الثانية : فلما صار إلى منزل يقال له : تبار على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت ، فوجد النبى ﷺ فى نفسه من ذلك .

وعظمة النبوة تأبى أن تفاتحها بما وجد عليها من نفسه ورحمها وتركها على سجيتها ، دون أن يلومها أو يعاتبها أو يبدى شيئاً مما فى نفسه عليها ، ولكن بعد أن تباسط معها فى ليلة زفافها وبعد أن زالت الحواجز بين الزوجين الحبيبين . قال لها : « ماحملك على الذى صنعت حين أردت أن أنزل المنزل الأول فأدخل بك ؟ » قالت : خشيت عليك قرب يهود : فزادها ذلك عند رسول الله ﷺ .

فقد أصبح رسول الله ﷺ ،آثر عليها من قومها وزوجها وعشيرتها ، وأصبحت مثل أبى أيوب الأنصارى الذى أمضى ليله ساهراً لحمايته خوفاً عليه منها . أصبحت هى فى مشاعر أبى أيوب وحـــرصه على نبيه . فتأبى جماع رسول الله ﷺ لها قرب منازل اليهود . فينقضوا عليه ليغتالوه أو يقتلوه .

اللقطة الثالثة: وذلك حـين أمر رسـول الله ﷺ فضليات النساء معه،ليهيئن صفية له . فلابد أن تفرح بهذا الزواج الحبيب،فقد نالت القمر بكفها ،وأصبحت زوجاً لسيد المرسلين الذى بشّر الله تعالى به منذ بدأ الخلق كما علّمها أبوها بصفته ونعته كما يجدونه فى كتبهم ، وهى لا تزال فى ميعة الصبا.

فقال رسول الله ﷺ لأم سُلَيْم : « عليكن صاحبتكن فأمشطنها » . وأراد رسول الله ﷺ أن يعرس بها هناك . ومن فضل الله علينا أن تتابع أم سليم قصة زفاف صفية لنا . وأين ؟ فى هذه الصحراء فتقول : وليس معنا فسطاط ولا سرادقات . فما هى

غرفة نوم العروس فى ليلة العمر عندها ؟ فأخذت كسائين أو عباءتين ، فسترت بينهما إلى شجرة . فمشّطتها وعطّرتها .

لكن من الذى يحدثنا عن جمالهـا الآسر بعـد زينة أم سُليم لها ؟ تحدثنا أم سنان الأسلمية بعد زينة أم سليم لها فتقول: وكنت فيمن حضر عرس رسول الله ﷺ بصفية . مشطناها وعطرناها ، وكانت جارية تأخذ الزينة من أوضأ ما يكون من النساء ، وما وجدت رائحة طيب أطيب من ليلتئذ ، وما شعرنا حتى قبل رسول الله ﷺ يدخل على أهله. وقد نمصناها ونحن تحت دومة، وأقبل رسول الله ﷺ فقامت إليه وبذلك أمرناها ، فخرجنا من عندهما .

إنها حبيبة رسول الله ﷺ وزوجته وأم المؤمنين ، وهى ضيفة المجتمع الإسلامى .

وهى وافدة اليهود ، وقد انضمت إلى هذا المجتمع مسلمة قانتة لله ،فما أسعد هذا المجتمع بهذا الوافد الجديد ، ولابد أن يبالغ فى إكرامه واحترامه ، وسيدات مجتمع النبوة هن اللاتى قمن بهذا الإكرام ، وبهذه الحفاوة ، وهيأنها وعطرنها ومشطنها . فبدت كأوضأ ما تكون النساء بهذه الزينة وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وقد وقع القمر الآتى من يثرب فى حجرها ، فلما لا تكون البدر الذى يستقبله ويستضيفه ؟ وهى إشارة من طرف آخر من المربى الأعظم ﷺ من الاعتراف بفطرة الأنوثة ، والتعامل معها ولو فى السفر ، بل والتوجيه إليها ولو على الراحلة .

وهى من جهة ثالثة تلفت النظر إلى أن الجيش قد توقف ثلاثة أيام فى الصهباء على بعد بريد من خيبر حيث أعرس رسول الله ﷺ بصفية فى هذه الصحراء ، وبعد ذلك النصر المؤزر على اليهود .

وحين نتساءل عن سبب هذا التوقف ، تزول الحيرة ويزول التعجب حين نذكر أن أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ فى انتظاره فى المدينة ، وقلبها يطرق بعنف بانتظار حبيبها وزوجها محمد ﷺ ، فكيف يمكن التوفيق بين ابنتى الملكين ، وبين الزوجتين الجديدتين ، وكم هى لحظات صعبة وقاسية وعنيفة على أية واحدة منهما يوم يدخل على الأخرى فهل يوزع الأيام بينهما ويحرمهما لذة عمرهما الخالدة فى ألا يتفرغ لواحدة منهن ؛ أم يعطى كل واحدة أيامها الثلاثة وكم ستكون المحنة قاسية على التى تخلّف عن الأخرى . فكانت عظمة التربية التى ترحم ضعف المرأة ، وتحرص على إسعادها ، وتقر أعينهن كلهن كما ذكر الله تعالى عن نبيه فيما أحل الله له :

﴿ .. ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾(١) .

فأقدم ﷺ ـ بأبى هو وأمى ـ بأن أعرس بصفية فى الطريق لمدة ثلاثة أيام . ثم قدم المدينة فأعرس بأم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ ثلاثة أيام وتنتهى اللقطة هذه ، فيصبح ذلك اليوم الذى كان أسعد أيام صفية فى حياتها ، حيث جاءت الكوكبة النسائية المجاهدة تسأل صفية عن ليلتها (. . . عما رأت من رسول الله ﷺ . فذكرت أنه سُرَّ بها ـ ولم ينم تلك الليلة ، ولم يزل يتحدث معها) .

اللقطة الرابعة : وليست صفية بمهينة على قومها فهى بنت ملك وزوجة ملك ، ولابد من أن يحتفل المسلمون جميعاً رجالاً ونساء بعرس رسول الله ﷺ، وإذا كانت غرفة النوم كسائين أو عباءتين ربطتا إلى شجرة . فقد كانت الحفلة الكبرى لحبيب رب العالمين وسيد ولد آدم أن شارك فيها كل قيادات الأرض وخيرة أهل الأرض ، وجاء كل مسلم بما معه من طعام فوضعه فى النطع(٢) .

وكان الحيس(٣) والأقط(٤) هما الإدامان الرئيسيان فى المأدبة النبوية الكبرى على صفية .

وشارك المسلمون فى هذه الفرحة بالوافدة المسلمة الجديدة إلى المجتمع الإسلامى ، وإلى بيت النبوة ، وكانت هذه أول تجربة عملية قام بها النبى ﷺ ليهيئ نفوس المسلمين للتعايش مع اليهود بعد الاتفاق الذى تم حول الأرض . وإن كانت صفية رضوان الله عليها قد دخلت الإسلام ، وأسلمت نفسها وقلبها لله رب العالمين . لكن ليس من السهل تقبل هذه المسلمة ذات الأصل اليهودى وبنت أعدى أعداء الله وزوج كبير مجرمى اليهود . أقول : ليس من السهل نسيان هذا الواقع ، خاصة عند جو النساء اللاتى تغلبهن العاطفة،يغلبهن جو حب أزواج النبى ﷺ الأخريات ،ومن أجل هذا وجدت ـ رضى الله عنها ـ صعوبة بالغة فى بداية الأمر؛ ليتم تقبلها مسلمة خالصة فى هذا المجتمع .

(فلما نزل رسول الله ﷺ المدينة ، أنزل صفية فى منزل حارثة بن النعمان وانتقل حارثة عنها ، وكانت عائشة وحفصة يداً واحدة ، فأرسلت عائشة بريرة إلى أم سلمة تسلّم عليها ، وكانت أم سلمة زوج النبى ﷺ مع النبى فى غزوة خيبر ، وتسألها عن صفية ، أظريفة هى ؟ فقالت أم سلمة : من أرسلك ، عائشة ؟ فسكتت ، فعرفت

---

(١) الأحزاب / ٥١ .
(٢) النطع : بساط من جلد .
(٣) شيء يعمل من مخيض الغنم .
(٤) شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يَمْصُل ، والقطعة منه أَقِطةٌ .

أم سلمة أنها أرسلتها ، فقالت أم سلمة : لعمرى إنها لظريفة، وإن رسول الله ﷺ لها لمحب . فجاءت بريرة فأخبرت عائشة خبرها . فخرجت عائشة متنكرة حتى دخلت على صفية وعندها نسوة من الأنصار ، فنظرت إليها وهى منتقبة ، فعرفها رسول الله ﷺ ، فلما خرجت رجع رسول الله ﷺ إليها . فقال : « يا عائشة ، كيف رأيت صفية ؟ » . قالت : مارأيت طائلاً ، رأيت يهودية بين يهوديات ـ تعنى عماتها وخالاتها ـ ولكنى قد أخبرت أنك تحبها ، فهذا خير لك من لو كانت ظريفة . قال : « يا عائشة لا تقولى هذا فإنى عرضت عليها الإسلام . فأسرعت وأسلمت وحسن إسلامها » . قال : فرجعت عائشة فأخبرت حفصة بظرفها ، فدخلت عليها حفصة ، فنظرت إليها، ثم رجعت إلى عائشة فقالت : إنها لظريفة ، وما هى كما قلت)[1] .

وسمع أزواج رسول الله ﷺ بإسلام صفية . والمفروض أن الأمر انتهى . وأخذت تمارس حقها كاملاً فى هذا المجتمع ، وكان القدوة العظمى ﷺ لأمته يعلم المسلمين طريقة التعامل مع أمثال هؤلاء النماذج التى تُبنى المبادئ والقيم من خلال التعامل معهن. (فلم يعد يذكر أباها بحرف مما تكره) .

لكن المرتقى إلى هذا المستوى طفرة أو بكلمة واحدة لا يتم . وها هى صفية ـ رضى الله عنها ـ تحدثنا عن هذين المستويين : مستوى القدوة العظمى ، والمحاولات الدائمة المستمرة للارتفاع إلى هذا المستوى ؛ لأن الضعف البشرى لابد أن يُحسب حسابه فى عمليات التغيير والبناء المطلوبة .

(وكنت ألقى من أزواجه يفخرن علىّ يقلن : يا بنت اليهودى ، وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطف بى ،ويكرمنى،فدخل علىّ يوماً وأنا أبكى فقال:« مالك ؟ » فقلت : أزواجك يفخرن علىّ ويقلن : يا بنت اليهودى . قالت : فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال :

« إذا قالوا لك أو فاخروك فقولى : أبى هارون ،وعمى موسى »).

لقد امتثل نساء النبى ﷺ وعلى رأسهن عائشة أمر رسول الله ﷺ فى الامتناع عن النيل من شخص صفية أو التشكيك فى إسلامها . لكن لم يكن من السهل أبداً أن يتناسين فى معركتهن مع صفية وفى مجال التفاخر معها ـ خاصة أمام ظرفها وجمالها الآسر ـ أن ينلن من أصلها اليهودى ، فيناديها يا ابنة اليهودى ، ومع ذلك لم يرض رسول الله ﷺ لهن هذا المستوى ، وإنما علّم صفية ما تقول إذا فاخرنها بذلك أن تقول لهم : « أبى هارون ، وعمى موسى » .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٠٨ ، ٧٠٩ .

وهن إذن لن يتجرأن بعد هذا الرد أن ينلن من اليهود كأصل، وفيهم ومنهم أنبياء الله تعالى ورسله ، والمؤمنون من اليهود أمة واحدة على رأسها موسى وهارون ، وفى آخر قافلتهم صفية بنت حيى النضرية .

وكان هذا الطريق التربوى الجديد هو الوسيلة المجدية لقطع دابر تلك النعرة الجاهلية، وتعظمها بالآباء ، وإنما الأبوة والعراقة هى لهذا الدين الذى يضم فى صفه إسحاق ويعقوب والأسباط . ويضم موسى ﷺ وأيوب ويونس وهارون والسحرة المؤمنون ، وعبد الله بن سلام،وثعلبة بن زيد بن سعية ، وريحانة بنت عمرو القرظية ، وصفية بنت حيى .

ولهذا لم يقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ من زينب ـ رضى الله عنها ـ هبوطاً عن هذا المستوى ولو كان فى غمرة حدتها الانفعالية :

(فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان فى سفر ـ فاعتلّ بعير لصفية ـ وفى إبل زينب بنت جحش فضل . فقال لها: « إن بعيراً لصفية اعتلّ ، فلو أعطيتها بعيراً » فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ؟! فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة . قالت زينب : حتى يئست منه)[1] .

وبهذه العقوبة الرادعة ، تم تجاوز هذه السقطات ، وإن كان هذا كله لم يمح نهائياً آثار ذلك النسب وذلك الماضى مع اليهود .

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨/٣٤٧ .

ثامناً :التربية على العدل
والسلام القائم عليه

لابد أن نعرض أولاً النفسية اليهودية بعد هزيمة خيبر . والتى اتجهت إلى القضاء على رسول الله ﷺ بالسم بعد أن هزموا بالسيف .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم فقال رسول الله : « اجمعوا من كان هاهنا من اليهود » ، فجمعوا له . فقال لهم رسول الله ﷺ : « إنى سائلكم عن شيء أنتم صادقى عنه ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أبوكم ؟ » قالوا : أبونا فلان . قال : «كذبتم، بل أبوكم فلان » . قالوا : صدقت وبررت . قال لهم : « هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا:نعم يا أبا القاسم ،وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى آبائنا . فقال لهم رسول الله ﷺ : « فمن أهل النار؟ » قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «اخسؤوا فيها أبداً » ، ثم قال «هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا : نعم . قال : « أجعلتم فى هذه الشاة سماً ؟ » قالوا : نعم . قال : « فما حملكم على ذلك ؟ » قالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك)[1] .

وهذا النص صريح فى أن محاولة الاغتيال إنما تمت بقرار مدبر من قيادات اليهود ، بحجة أنه إن كان كاذباً فيستريحون منه ، وإن كان صادقاً لم يضره.

أما الذى قام بالإهداء ،وعرَّض نفسه للخطر ،فهى زينب بنت الحارث كما فى رواية موسى بن عقبة عن الزهرى قال : (لما فتح رسول الله ﷺ خيبر،وقتل من قتل منهم ، أهدت زينب بنت الحارث ، وهى ابنة أخى مرحب لصفية شاة مصلّية، وسمّتها ، وأكثرت فى الكتف والذراع ؛ لأنه بلغها أنه أحب أعضاء الشاة إلى رسول الله ﷺ . فدخل رسول الله ﷺ على صفية . ومعه بشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمة ، فقدّمت إليهم الشاة المصلّية . فتناول رسول الله ﷺ الكتف وانتهش منها . وتناول بشر ابن البراء عظماً فانتهش منه . فلما استرط رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر بن البراء ما فى فيه . فقال رسول الله ﷺ : «ارفعوا أيديكم ، فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أن قد

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح عن قتيبة وغيره . انظر : فتح البارى ٦/ ٢٧٢ ، ١٠/ ٢٤٤ .

بغيت فيها »، فقال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدتُ ذلك فى أكلتى التى أكلت . فما منعنى أن ألفظها إلا أننى أعظمت أن أنغصك طعامك . فلما أسفت ما فى فيك، لم أكن لأرغب بنفسى عن نفسك ، ورجوت ألا تكون استرطتها وفيها بغى . فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان ، وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلى ما حوّل)(١) .

وزينب بنت الحارث تحمل من الأحقاد فى قلبها الجبال على رسول الله ﷺ. ففى رواية ابن إسحاق : (فقال : « ماحملك على ذلك ؟ » قالت : بلغت من قومى مالم يخف عليك . فقلتُ إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبر . قال : فتجاوز عنها رسول الله ﷺ)(٢) .

وعند الواقدى فى مغازيه :

(قالوا : لما فتح رسول الله ﷺ خيبر واطمأن ، جعلت زينب بنت الحارث تسأل : أى الشاة أحب إلى محمد ﷺ ؟ فيقولون : الذراع والكتف . فعمدت إلى عنز لها فذبحتها ، ثم عمدت إلى سم لابطى قد شاورت اليهود فى سموم فأجمعوا لها على هذا السم بعينه . فسمّت الشاة وأكثرت فى الذراعين والكتف. فلما غابت الشمس صلى رسول الله ﷺ المغرب ، وانصرف إلى منزله، ويجد زينب جالسة عند رحله فيسأل عنها. فقالت : أبا القاسم ، هدية أهديتها لك ، وكان رسول الله ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . فأمر رسول الله ﷺ بالهدية فقُبضت منها ووضعت بين يديه ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهم حضور ، أو من حضر منهم : « ادنوا فتعشوا »! فدنوا فمدوا أيديهم ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع ، وتناول بشر بن البراء عظماً وانتهش رسول الله ﷺ منها نهشاً وانتهش بشر . فلما ازدرد(٣) رسول الله ﷺ أكلته ازدرد بشر. فقال رسول الله ﷺ : «كفوا أيديكم ، فإن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة » فقال بشر بن البراء: قد والله يارسول الله وجدتُ ذلك من أكلتى التى أكلتها. فما منعنى أن ألفظها إلا كراهية أن أُنغص عليك طعامك .فلما تسوّغت ما فى يدك ، لم أرغب بنفسى عن نفسك ، ورجوت ألا تكون ازدرتها وفيها بغى . فلم يرم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان،وماطله وجعه سنة لا يتحوّل إلا ما حُوِّل،ثم مات منه. يقال:لم يقم من مكانه حتى مات،عاش رسول الله ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين، ودعا رسول الله ﷺ بزينب فقال:« سممت الذراع »؟ فقالت:من أخبرك ؟ قال:« الذراع ».

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٦٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٧١ .
(٣) ازدرد : ابتلع .

قالت : نعم . قال : « وما حملك على ذلك؟» قالت : قتلت أبى وعمى وزوجى ، ونلت من قومى مانلت . فقلت : إن كان نبياً فستخبره الشاة ماصنعتُ ، وإن كان ملكاً استرحنا منه) .

وقالوا : وكانت أم بشر بن البراء تقول : دخلت على رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه وهو محموم ، فمسسته فقلت: ماوجدت مثل ما وُعك عليك على أحد . فقال رسول الله ﷺ : « كما يُضاعف لنا الأجر يُضاعف لنا البَلاء » زعم الناس أن برسول الله ذات الجنب ـ ماكان الله ليسلطها علىّ، إنما هى همزة من الشيطان ، ولكن من الأكلة التى أكلتُ أنا وابنك يوم خيبر ، مازال يصيبنى منها عداد ، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى » فمات رسول الله ﷺ شهيداً . ويقال : إن الذى مات من الشاة مبشر بن البراء . وبشر أثبت عندنا ، وهو المجتمع عليه .

قال عبد الله : (سألت إبراهيم بن جعفر عن قول زينب بنت الحارث: قتلت أبى . قال : قُتل أبوها يوم خيبر ،وعمها يسار ،وكان أجبن الناس وهو الذى أُنزل من الشق . وكان الحارث أشجع اليهود وأخوه زبير قتل يومئذ ، فكان زوجها سيدهم، وأشجعهم سلاَّم بن مشكم كان مريضاً ، وكان فى حصون النطاة . فقيل له : إنه لا قتال فيكم ، فكن فى الكتيبة . قال : لا أفعل أبداً . فقُتل وهو مريض ، وهو أبو الحكم الذى يقول فيه الربيع بن أبى الحقيق :

ولما تداعوا بأسيافهم فكان الطّعان دعونا سلاما
وكنَّا إذا مادعونا به سقينا سراة العدو السماما

وهو كان صاحب حربهم ولكن الله شغله بالمرض)[1] .

وإذا كانت صفية بنت حيى ـ رضى الله عنها ـ انتهت زوجاً لرسول الله ﷺ والتى لم تكن أقل كارثة من زينب ، فقد قتل أبوها وزوجها وأهلها ، لكن الله تعالى برأ قلبها من الحقد ، ومسح رسول الله ﷺ جراحها بآلامه ، وأبت دخول رسول الله ﷺ عليها قرب خيبر خوفاً عليه من حقد اليهود . فإن زينب بنت الحارث ، كانت فى الصورة المقابلة تماماً. فقد اجتمعت أحقاد الدنيا كلها عندها ، إذ قتل أبوها وعمها وزوجها ، ولن تجد حلاً لشفاء صدرها من الغل والحقد إلا بقتل محمد ـ عليه الصلاة والسلام.

لقد كان مرحب أبوها ملك يهود وبطل حصن ناعم ، وكان رئيس أركانه الحارث ، وكانا أول من افتتح البراز تحدياً للمسلمين .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٨٠ .

(وسالت كتائب اليهود أمامهم، الحارث أبو زينب يُقدم اليهود يهُدُّ الأرض هدأً ، فأقبل صاحب راية الأنصار ، فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه ، وخرج أسير اليهود يقدم أصحابه معه عاديته) .

وها هو أخو زينب بنت الحارث يتحدث عن مقتل أبيه :

(حدثنى ابن أبى سبرة عن عمرو بن أبى عمرو قال : نزلت بأريحا زمن سليمان ابن عبد الملك ، فإذا حى من اليهود وإذا رجل يهدج من الكبر . فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا : من الحجاز . فقال اليهودى : واشوقاه إلى الحجاز أنا ابن الحارث اليهودى فارس خيابر ، قتله يوم خيبر رجل من أصحاب محمد يقال له أبو دجانة يوم نزل محمد خيبر ، وكنا ممن أجلى عمر بن الخطاب إلى الشام . فقلت : ألا تسلم ؟ قال : أما إنه خير لى لو فعلت ولكن أعيّر ، تُعيِّرنى يهود. تقول: أبوك سيد اليهود لم يترك اليهودية. قتل عليها أبوك وتخالفه ؟!)[١] .

(هذا أخو زينب بنت الحارث ، وقد رأى الحق أبلج لم تطاوعه نفسه أن يسلم بعد خيبر بقرابة عشرين عاماً حتى لا تعيره يهود بذلك ، وذاك أبوها يقود كتائب اليهود حتى يسقط صريعاً على يد أبى دجانة أو يد على رضي الله عنه ، وذاك عمها مرحب اليهودى فارس يهود المعلم :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب   إذا الليوث أقبلت تحرب[٢]

إن حماى للحمى لا يقرب)[٣]

يقع صريعاً بيد على رضي الله عنه ويقال : بيد محمد بن مسلمة ، وذاك زوجها سلام بن مشكم الذى تحدثنا عنه أنه قتل وهو مريض ، ورفض أن ينسحب .

إن طواغيت اليهود ، وأئمة أهل النار هم أهل زينب بنت الحارث ، فلا عجب أن يُجمع اليهود على القضاء على رسول الله ﷺ ـ كما فى البخارى ـ ويختارون الفدائية الأولى عندهم زينت لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة، التى عجز فرسانهم وصناديدهم عن تنفيذها فى الحرب .

ومثل هذه الحادثة التى تمت بتواطؤ اليهود وإجماع سراتهم ، واعترافهم بذلك ، لو كانت مع ملك من ملوك الدنيا لأفناهم عن آخرهم وهم منزوعو السلاح ، لا سلطة

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٥٤ ، ٦٥٥ .   (٢) تحرب : تغضب .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٦٣ .

لهم ولا قوة ، وكم من الطغاة ذبحوا الآلاف وعشرات الآلاف من شعوبهم للمحافظة على سلطتهم وإبادة معارضيهم .

وهذه صورة كالحة من إفرازات الجاهلية لطاغية سورية النصيرى يوم تعرض لمحاولة اغتيال من المعارضة الإسلامية فى بلده . حيث تم مقتل حوالى ١٢٠٠ معتقل وسجين ثأراً للعملية المذكورة . وهذه تفاصيل المجزرة البطولية :

كان فى سجن تدمر العسكرى ٣٤ مهجعاً فى كل منها ٢٠ : ٧٠ معتقل بحسب ضخامة المهجع أو صغره وقد تم تنظيم العملية على دفعتين : الدفعة الأولى تشمل الغرف المطلة على الباحات (١ ، ٢ ، ٣) والدفعة الثانية تشمل الغرف المطلة على الباحات (٤ ، ٥ ، ٦) .

أعطيت إشارة البدء لعناصر سرايا الدفاع ، فانطلقت الآلات النارية تصب وابل الحمم على المعتقلين العزّل ، وألقيت عدة قنابل لاسيما فى الباحة رقم (٢) ، واستخدمت بعض قاذفات اللهب مع إطلاق النار الكثيف فى كل من الباحات الثلاث على حين تعالت أصوات المعتقلين بهتافات الله أكبر . مع صرخات الأمل والشكوى إلى الله تعالى .

وخلال دقائق قليلة انتهى الأمر،لكن فى الباحة رقم (١) هرب بعض المعتقلين ، وتمكنوا من دخول المهجع الكبير المزدوج (٤ ، ٥) فتواروا فيه ، فلحق بهم عناصر سرايا الدفاع إلى داخل المهجع ، ومثلوا بهم وقتلوهم عن آخرهم حين انتهوا من القضاء على مجموعة الدفعة الأولى من المعتقلين ، تجمع القتلة وانطلقوا بتشكيل معين إلى الباحات الثلاث الأخيرة ، ولكيلا تتكرر عملية هرب بعض الضحايا إلى المهاجع ؛ قرر الضباط دخول المهاجع على المعتقلين وقتلهم فيها ، فاندفعت ستة مجموعات من القتلة إلى الباحة رقم (٤) وفيها ثلاثة مهاجع ملأى ، فتوجهت كل مجموعتين إلى مهجع ، وفُتح الباب ، وقدم رئيس كل مهجع الصف ، فدخلوا عليهم . وأمروهم بالابتعاد عن الباب ، ثم ألقوا على كل مهجع قنبلتين دفاعيتين ثم دخلوا عليهم وأخذوا يطلقون الرصاص رشاً على الضحايا الذين ارتمى معظمهم على الأرض بين قتيل وجريح. وهكذا تابعوا إطلاق النار حتى أفنوا المعتقلين جميعاً.

ثم عادت المجموعات إلى الباحة رقم (٣) ، ومنها انطلقت المجموعات إلى الباحتين رقم (٥ ، ٦) حيث توزعت على المهاجع الخمسة الملأى أيضاً بالمعتقلين ، وفتحت الأبواب ، وقدمت الصفوف ، وجاءت عناصر سرايا الدفاع المسلحون إلى المهاجع ، وكالعادة أمروا المعتقلين بالابتعاد عن الأبواب إلى مؤخرة المهاجع ، وشرعوا

يطلقون النار من بنادقهم الأوتوماتيكية رشاً على المعتقلين ، وتعالت من جديد هتافات الله أكبر ، وصرخات الألم الرهيب ، وأصوات التشهد فيما كان القتلة يقضون على كل نسمة حياة ، وتهاوت الضحايا تتخبط فى دمائها ، فأخذوا يطلقون النار على الأكوام البشرية وعلى من بقى واقفاً حتى اطمأنوا أن أحداً لم يبق حياً .

وفى أقل من ساعة واحدة أصبح جميع المعتقلين فى سجن تدمر العسكرى وغالبهم من الإخوان المسلمين وخريجى الجامعات والعسكريين أصبحوا شهداء ، وارتفعت روحهم إلى عليين .

وقد تسربت أخبار الجريمة منذ الأيام الأولى ، كما أن اثنين من عناصر سرايا الدفاع الذين أسهموا فى المذبحة قد أدليا باعترافاتهما مفصلة أمام التلفزيون الأردنى بعد أن ألقى القبض عليهما فى محاولة اغتيال السيد مضر بدران رئيس وزراء الأردن عام ١٩٨٠ وهما الرقيب عيسى إبراهيم فياض ، والعريف أكرم بيشانى ، واعترفا بمقتل ستمائة فقط (١) .

ومع سيد الخلق ، نرى أنه ﷺ قد عفا عن هذه المرأة وهو الأرجح من بين الروايات كما يذكر ابن حجر :

(قال ابن إسحاق : (... وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته . فذكر القصة وأنه صفح عنها وأن بشر بن البراء مات منها . وروى البيهقى عن أبى هريرة .... فما عرض لها. ومن طريق نضرة عن جابر نحوه فقال فلم يعاقبها. وروى عبد الرزاق فى مصنفه عن معمر عن الزهرى عن أبى بن كعب مثله وزاد فاحتجم من الكاهل قال: قال الزهرى : فأسلمت فتركها. قال معمر: والناس يقولون : قتلها. وأخرج ابن سعد عن شيخه الواقدى بأسانيد متعددة له هذه القصة مطولة وفى آخره قال: فدفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها. قال الواقدى: وهو الثبت ... قال البيهقى: يحتمل أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ، ثم قتلها ببشر بن البراء قصاصًا . قلت: ويحتمل أن يكون تركها لكونها أسلمت. وإنما أخَّر قتلها حتى مات بشر؛ لأنه بموته تحقق وجوب القصاص بشرطه)(٢).

هذا عن زينب، أما عن الملأ من يهود الذين قرروا اغتيال النبى ﷺ بالسم كما فى رواية البخارى ، فلم يذكر أنه نال واحدًا منهم بسوء،لقد أصبحوا عزلاً من السلاح لا

---

(١) « تدمر المجزرة المستمرة » مقتطفات من ص ٢٨ حتى ص ٣٥ . هذا عن المجزرة الجماعية ، أما المجازر الفردية فقد بلغ عدد الذين أعدموا فى سجن تدمر العسكرى ما ينوف عن خمسة عشر ألف معتقل .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٩٧ .

يملكون قوة ولا قدرة على المواجهة وقبل صحة زعمهم أنهم استهدفوه للتأكد من نبوته. فعفا عنهم (١).

ومقتل زينب قصاصًا ببشر بن البراء رضي الله عنه هو الذى يجمع بين الروايات المختلفة، وإنما تم هذا الأمر بعد عام تقريبًا، حيث توفى رضي الله عنه من أثر السم .

وبشر بن البراء ليس نكرة بين المسلمين ، بل هو سيد بنى سلمة ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ: من سيدكم يا بنى سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على بخلٍ فيه. فقال رسول الله ﷺ: « وأى داء أدوأ من البخل؟! بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء » .

كذا ذكره ابن إسحاق ووافقه صالح بن كيسان ،وإبراهيم بن سعد عن الزهرى عن . . . . كعب بن مالك وهو الأصح .

الجريمة الثانية:

كانت تلك الجريمة الأولى ،التى أغضى عنها النبى ﷺ عن اليهود فى محاولة لمسح جراحهم،والتعامل مع واقعهم الجديد،حيث يعملون أجراء فى أراضى المسلمين ، على نصف الثمر بين اليهود وبين المسلمين .

ثم كانت الجريمة الثانية ،خلال العام الأول من الاتفاق، يحدثنا عنها محيصة فيقول:

---

(١) يذكر محقق دلائل النبوة وثيقة ظهرت حديثًا تدل على تواطؤ اليهود على قتل الرسول ﷺ فيقول فى المجلة العربية ،السنة الثالثة ،العدد الثالث :كشف رئيس تحرير المجلة العربية الغراء الأستاذ الدكتور منير العجلانى عن مخطوطة أرمينية قديمة تثبت أن تسميم النبى ﷺ كان بقرار من رؤساء اليهود. فيقول: ظفر رئيس تحرير هذه المجلة خلال مطالعاته فى دار الكتب الوطنية فى باريس بوثيقة أرمينية مخطوطة قديمة جدًا تتحدث عن ظهور النبى محمد ﷺ فى جزيرة العرب، وما وقع من أحداث فى عهده. وأكثر ما فيها جاء يشبه الأساطير ، ولا يعتدُّ به، ولكنا وجدنا فى مطلع هذه الوثيقة التى قام بترجمتها إلى الفرنسية مسيو (ماكلر) إشارة إلى حادث تسميم النبى ﷺ وهى من تدبير رؤساء اليهودية فى المدينه وبقرار منهم وليس ذلك بمستغرب منهم، فقد تآمروا على قتل الرسول وقتاله غير مرة .

ترجمة مطلع الوثيقة:

يقال : إن الأمة اليهودية تحسد أمة النصارى ولما جاء محمد وعظم أمره اجتمع رؤساء اليهودية وقالوا فى أنفسهم : لنضمه إلينا بأن نزوده بأحكام ديننا فننشرها بين الناس وبذلك نتغلب على النصارى وأناجيلهم. ولكن المسلمين الذين انتصروا على أعدائهم لم يكترثوا باليهود ولم يقيموا لهم وزنًا ، بل اضطروا أحيانًا إلى قتالهم، فعاد رؤساء اليهود إلى الاجتماع والتفكير فى أسلوب يتخلصون به من محمد ، فاختاروا من نسائهم فتاة جميلة وقالوا لها: يجب عليك أن تدعى محمدًا إلى وليمة وتقتليه ففعلت المرأة ما أمرها الرؤساء به ، ثم ينقل المحقق صورة الوثيقة ص٢٥٨ ج ٤ نقلاً عن المجلة .

(وكنا بالمدينة والمجاعة تصيبنا ،فنخرج إلى خيبر،فنقيم بها ما أقمنا ،ثم نرجع، وربما خرجنا إلى فدك وتيماء. وكان اليهود قومًا لهم ثمار لا يصيبها قطع، أما تيماء فعين جارية تخرج من أصل جبل لم يصبها قطعه منذ كانت، وأما خيبر فماء واتن، فهى مغفَّرة [1] فى الماء. وذلك قبل الإسلام فلمَّا قدِم رسول الله ﷺ المدينة وفتح خيبر قلت لأصحابى: هل لكم فى خيبر فإنا قد جهدنا، وأصابتنا مجاعة؟ فقال أصحابى: إن البلاد قد تغيرت ليس كما كانت، نحن قوم مسلمون وإنما نقدم على قوم أهل عداوة وغش للإسلام وأهله، وكنا قبل ذلك لا نعبد شيئاً. قالوا: قد جهدنا فخرجنا حتى قدمنا خيبر. فقدمنا على قوم بأيديهم الأرض والنخل ليس كما كانت؛ قد دفعها رسول الله ﷺ إليهم على النصف. فأما سراة اليهود وأهل السعة منهم قد قُتلوا ـ بنو أبى الحقيق وسلام بن مشكم،وإنما بقى قوم لا أموال لهم وإنما هم عمال أيديهم.وكنا نكون فى الشق يومًا،وفى النطاة يومًا،وفى الكتيبة يومًا،فرأينا الكتيبة خيرًا لنا، فأقمنا بها أيامًا).

هذه هى صورة خيبر اليوم ، فاليهود عمال أجراء فيها ، بينما كانوا بالأمس سادة الأرض والزرع . وماذا فعلوا بهذين الوافدين .

ثم إن صاحبى ذهب إلى الشَّق فبات عنى، وقد كنت أحذره يهود ، فغدوت فى أثره أسأل عنه حتى انتهيت إلى الشق ، فقال لى أهل أبيات منهم: مرَّ بنا حين غابت الشمس بريد النطاة. قال : فعمدت إلى النطاة إلى أن قال لى غلام منهم: تعال أدلُّك على صاحبك ، فانتهى بى إلى منهرٍ فأقامنى عليه . فإذا الذباب يطلع من المنهر. قال: فتدليت فى المنهر فإذا صاحبى قتيل، فقلت لأهل الشق: أنتم قتلتموه ، قالوا: لا والله، ما لنا به علم. قال : فاستعنت بنفرٍ من يهود حتى أخرجته وكفنته ودفنته، ثم خرجت حتى أتيت قومى سريعاً فأخبرتهم الخبر . ونجد رسول الله ﷺ يريد عمرة القضية. فخرج معى من قومى ثلاثون رجلاً أكبرنا أخى حويصة. فخرج معنا عبد الرحمن بن سهل أخو المقتول،والمقتول عبد الله بن سهل ، وكان عبد الرحمن بن سهل أحدث منى ، فهو مستعبر على أخيه رقيق عليه ، فبرك بين يدى رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، وقد بلغ النبى ﷺ الخبر، فقال عبد الرحمن يا رسول الله ،إن أخى قد قُتل .

وها نحن إذن أمام جريمة نكراء ثانية تصل إلى النبى ﷺ خلال عدة أشهر. فكيف كانت المحاكمة وكيف صدرت الأحكام؟

فقال رسول الله ﷺ: «كبِّر كبِّر» [2]. فسكت،فتكلمت. فقال: «كبِّر كبِّر». فسكتُّ، وتكلَّم أخى حويصة فتكلم بكلمات وذكر أن اليهود تهمتنا وظِنَّتُنا؟؟ ثم سكت،

(١) مغفرة: مغطاة ومملوءة .

(٢) أى دع الكلام إلى من هو أكبر منك .

فتكلمت وأخبرتُ رسول الله ﷺ الخبر .

وكان الحكم النبوى :

« إما أن يدوا صاحبكم، وإما أن يأذنوا بحرب من الله ورسوله» . وكتب النبى ﷺ إليهم في ذلك فكتبوا إليه: ما قتلناه. فقال رسول الله ﷺ لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن ولِمَنْ معهم:

« تحلفون خمسين يمينًا وتستحقون دم صاحبكم؟! » .

قالوا: يا رسول الله ، لم نحضر ولم نشهد. قال : « فتحلف لكم اليهود» قالوا: يا رسول الله ،ليسوا بمسلمين .

إنها إعادة للمحاكمة بعد نفى اليهود التهمة، وجاء الحكم الجديد بالقسامة وحلف الأيمان الخمسين من طرف يستحق على ضوئها القصاص من اليهود فى القتلى كما هى شريعة التوراة ،أو حلف الأيمان الخمسين من الطرف الآخر، ونفى التهمة عن اليهود. ولم يقبل المسلمون أيمان اليهود كما لم يقسموا هم كذلك ، واكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتحميل اليهود ديته وقد قتل فيهم . (فجعل رسول الله ﷺ ديته على اليهود لأنه قُتل بحضرتهم) .

ولم تقع مجازر جديدة ، ولا قتلى بالآلاف ، ثأرًا للقتيل المسلم ، إنما وُزعت الدية على العاقلة، واليهود مسؤولون جميعًا مسؤولية كاملة متضامنة عما وقع فى صفوفهم من جريمة .

وفى رواية : أنه وداه رسول الله ﷺ من عنده مائة ناقة . وفى رواية ثالثة: أنه أعانه عليهم رسول الله ﷺ ببضعة وثلاثين بعيرًا. فهى أول ما كانت القسامة) .

وحكم آخر ضد المسلمين:

وكان الناس يطلعون إلى أموالهم بخيبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان . وجعل المسلمون يقعون فى حرثهم وبقلهم بعد المساقاة، وبعد أن صار ليهود نصفه. فشكت اليهود ذلك إلى رسول الله ﷺ .

فعندما ينزل المسلمون فى أرضهم ويأكلون من ثمرها فهذا لا حق لهم به ، إلا بعد خروج الثمرة وقسمتها بين اليهود والمسلمين .

إنه ظلم ولو طفيف جدًا على اليهود لا يقبله رسول الله ﷺ ، فأصدر تعميمه التالى على الأمة:

فنادى : إن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس. فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وقال: « إن اليهود شكوا إلىَّ أنكم وقعتم فى حظائرهم، وقد أمَّناهم على دمائهم وأموالهم والذى فى أيديهم من أراضيهم وعاملناهم، وإنه لا تحل أموال المسلمين إلا بحقها » .

وهكذا كان التوجيه النبوى ، بحفظ حق اليهود حتى فى الثمرة الواحدة، وغدت المعاملة بعد هذا التوجيه أنه وإن كان المسلم صاحب الأرض ومالك الشجر، لكن هذا الثمر وهذا البقول ليس ملكه .

(فكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئًا إلا بثمن،فربما قال اليهودى للمسلم: أنا أعطيكه فيأبى المسلم إلا بثمن) .

بهذه الدقة المتناهية فى العدالة، وبهذا الحرص الدقيق على سلامة الحق وبدون أية سلطة إلا سلطة هذا الدين حُفظ حق اليهود، ومُنع عنهم الظلم. وتربى جيل القيادات المعد لأستاذية البشرية،والمهيأ لقيادتها .كيف يجب أن يتعامل مع أهل الأرض كلها فيما بعد حين يفتح أرضهم، وحين يملك السلطان عليهم، وحين يعاهد المعاهدين ويحافظ على عهودهم، ويحكم الأمم المغلوبة، ويرفع عنها سوط الطغيان ويعاملها بروح الإيمان. وأن التعامل مع هذه الأمم التى دانت للإسلام لا يخضع لسلطان العاطفة، ولا ينطلق من الهوى، إنما ينطلق من الحق المتفرد فى هذا الوجود كما حدده ـ الله تعالى ـ ورسمه فى كتابه وسنة رسوله .

بهذا العدل قامت السموات والأرض :

ونعيد ثانية ما سبق أن ذكرناه حين اختار رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة ليكون خارصًا للتمر بين المسلمين وبين اليهود. إنه مبعوث رسول الله ﷺ، ويمثل السلطة الحاكمة. ولو أجحف بحق اليهود فأعطاهم الربع أو الثمن، فإلى من يلتجئون لو وقع عليهم الظلم، وبمن يستغيثون ومن يستعدون إذا كان أصحاب السلطة يملكون رقابهم وحياتهم ؟!

وننظر إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هذا النموذج القائد الذى تربى فى مدرسة النبوة ، ماذا يفعل حين يوسد إليه الحكم ، ويسلَّم السلطة ، ويترك له تقدير التمر وخرصه. ومدى أثر مدرسة النبوة فيه.وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمد ، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها.فساقاهم رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع. . وكان يُزرع تحت النخل. فقال رسول الله ﷺ: « أقركم

على ما أقرَّكم الله » . فكانوا على عهد رسول الله ﷺ حتى توفى، وأبو بكر، وصدر من خلافه عمر. وكان يبعث عبد الله بن رواحة خارصًا يخرص عليهم النخل، فكان يخرصها فإذا خرص قال: إن شئتم فلكم وتضمنون نصف ما خرصت، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ما خرصت، وإنه خرص عليهم أربعين ألف وَسْق، فجمعوا له حليًا من حلى نسائهم فقالوا : هذا لك وتجاوز في القسْم. فقال: يا معشر اليهود،والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى وما ذاك يحملنى أن أحيف عليكم[1].

وعند البيهقى فى الدلائل :

وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمّنهم الشطر ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ خرصه وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله تطعمونى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى، ولأنتم أبغض إلى من عدتكم من القردة والخنازير. ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قا مت السموات والأرض .

إنهم أرادوا أن يجرحوا عدالته ابتداءً حين خرص التمر أربعين ألف وسق، وطلب منهم أن يعطوه الشطر. أن تكون حصة المسلمين عشرين ألف وسق، فاتهموه بأن التمر أقل، وسوف يظلمون بهذا التقدير. فقال لهم كلمته الخالدة: (إن شئتم فلكم وتضمنون نصف ما خرصت، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ما خرصت، وبذلك سدَّت عليهم منافذ النيل من نزاهته وتجرده وتحيزه ولو إلى أحب خلق الله إليه. فرسول الله ﷺ رباه على أن يعدل حتى بينه وبين اليهود. وتبلغ ثانية القمة عندهم أن يفكروا برشوة ابن رواحة؛ ليميل معهم. فيخاطبهم بأنهم أبغض خلق الله إليه ، وإنهم أبغض إليه من القردة والخنازير، ومع ذلك لا يدفعه هذا البغض أن يظلمهم تمرة واحدة، واطمأن اليهود إلى أنهم مع أتباع الأنبياء. ومع جنود رب الأرض والسماء الذى لا يظلم الناس مثقال ذرة، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. وأثبت ابن رواحة أنه ابن الجيل المتفرد فى التاريخ والذى لا يعرف الظلم مع أعدى العدو، ولا يعرف الأثرة مع أحب الحبيب .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٩١ .

تاسعًا : ثورة المستضعفين والتربية بالثورة

وهى التى أنقذت البقية الباقية من المسلمين فى مكة من ظلم طواغيت مكة واضطهادهم، وفتنتهم عن دينهم .

نتابع الحديث عنها كما وردت فى البخارى ،عن عروة بن الزبير ،عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه،وذلك تتمة قصة الحديبية:

(. . . ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ ،حتى بلغ : ﴿ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾[1]. فطلَّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك،فتزوج إحداها معاوية بن أبى سفيان،والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا: العهد الذى جعلت لنا . فدفعه إلى الرجلين . فخرج به حتى بلغ ذا الحليفة. فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين، والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا. فاستلَّه الآخر فقال :أجل والله إنه لجيد لقد جرَّبت به ثم جرَّبت. قال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَدَ ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو. فقال رسول ﷺ حين رآه: « لقد رأى هذا ذعرًا » فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قُتِل والله صاحبى وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك؛ قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم .

قال النبى ﷺ: « ويل أمه مِسْعَرُ حرب لو كان له أحد » .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيردُّه إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير. حتى اجتمعت منهم عصابة ،فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ،فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبى ﷺ إليهم. فأنزل الله تعالى:

---

(1) الممتحنة / ١٠ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾، حتى بلغ: ﴿ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١). وكانت حميتهم أنهم لا يقروا أنه نبى الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وقال عقيل، عن الزهرى قال عروة: فأخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن. وبلَغَنا أنه لَمَّا أنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾(٢) أن عمر طلق امرأتين: قريبة بنت أبى أمية، وابنة جرول الخزاعى. فتزوج قُرِيبة معاوية بن أبى سفيان، وتزوج الأخرى أبو جهم. فلما أبى الكفار أن يقرُّوا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ (٣). والعقب: ما يؤدى المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يُعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتى هاجرن، وما نعلم أحدًا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها، وبلغنا أن أبا بصير بن أسيد الثقفى قدم على النبى ﷺ مؤمنًا مهاجرًا فى المدة. فكتب الأخنس بن شريق إلى النبى ﷺ يسأله أبا بصير فذكر الحديث) (٤).

لقد كان أكثر ما أغم المسلمين من شروط بيعة الحديبية:

(وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: (لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخلَّيت بيننا وبينه)، وأبى سهيل أن يقاضى رسول الله ﷺ إلا على ذلك، فكره المؤمنون ذلك وأمعضوا فتكلموا فيه. فلما أبى سهيل أن يقاضى رسول الله ﷺ إلا على ذلك كاتبه رسول الله ﷺ. فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو)(٥).

وكانت المحنة الكبرى على أعصابهم يوم ابتدأ عملياً تنفيذ هذا البند من الميثاق بقدوم أبى جندل بن سهيل أثناء المفاوضات. وتصف لنا رواية البخارى فى كتاب الشروط، وقع هذا الأمر عليهم. فيقول عروة فيما يرويه عن المسور ومروان: (فبينما هم على ذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده وقد خرجَ من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أوَّل ما أقاضيك عليه أن تردَّه إلى. فقال النبى ﷺ: « إنا لم نقض الكتاب بعد ». قال: فوالله إذن لا أصالحك على شىء أبداً. قال النبى ﷺ: « فأجزه لى ». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: « بلى فافعل ». قال: ما أنا بفاعل. قال مِكرز: قد أجزناه لك. قال أبو جندل:

---

(١) الفتح / ٢٤ ــ ٢٦ .
(٢) الممتحنة / ١٠ .
(٣) الممتحنة / ١١ .
(٤) البخارى كتاب الشروط ٣/ ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٥) المصدر نفسه. فتح البارى كتاب المغازى ٧/ ٤٥٣ .

أى معشر المسلمين أردُ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذِّب عذابًا شديداً فى الله. فقال عمر بن الخطاب: فأتيت النبى ﷺ فقلت: ألست نبى الله حقًا ؟ قال: « بلى ». قلت: ألسنا على الحق؟ وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى». قلت : فلم نعط الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : « إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى »؟ قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : «بلى أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟!» قال: قلت: لا. قال: « فإنك آتيه ومطوِّف به » (١). فقد بلغت المحنة ذروتها مع هذا الشرط ، ومع التطبيق العملى لهذا الشرط فى رد أبى جندل ابن سهيل ، وكانت غُصة فى قلب رسول الله ﷺ ، وقلب المسلمين . ما يعانيه المسلمون من بلاء فى قلب مكة ، وهؤلاء المسلمون المحبوسون لاشك أن وطأة الشرط ستكون عليهم شديدة ؛ لأنهم عقدوا الآمال بعد قدوم عثمان عليهم بأن الفرج قريب والنصر قادم .

قال عثمان رضي الله عنه : ثم إنى كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين فأقول إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول: « أظلُّكم حتى لا يستخفى بمكة الإيمان » . فقد كنت أرى الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظن أنه يموت فرحًا بما خبَّرتُه . فيسأل عن رسول الله ﷺ فيُخفى المسألة ، ويشتد ذلك على أنفسهم ويقولون: اقرأ على رسول الله منا السلام. إن الذى أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله بطن مكة!) (٢).

ومن أجل هذا أخَّر الله تعالى دخول رسول الله ﷺ مكة عامًا كاملاً. حتى لا يمس أحد من المسلمين بسوء، أو يقدم المشركون على قتلهم عمدًا أو أثناء الفتح، أو يقتلهم المسلمون جهلاً بهم فى قلب المعركة. فقد كانت عين الله ترعاهم وتحوطهم، ومن أجلهم يؤخر الفتح، ويقر رسول الله ﷺ بالشرط الجائر بعودته هذا العام عن فتح مكة إلى العام القابل .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣).

---

(١) البخارى ، كتاب الشروط ٣/ ١٨١ ، ١٨٢ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠١ .

(٣) الفتح / ٢٤.

أبو بصير:

ويقدم فتى ثقيف فاراً بدينه إلى المسلمين فى المدينة. وتضج مكة حين تبحث عنه فلا تجده فلا تشك لحظة واحدة أنه فرَّ بدينه إلى محمد فى المدينة. ولو تساهلت فى هذا الأمر لتتابع الفرار وفضحت رجالات مكة بأبنائهم. وكان وزير خارجية قريش سهيل بن عمرو الذى وقَّع على ميثاق الحديبية أكثر الناس خوفًا من فرار ابنه إلى محمد فيفضحه، وهو المكلف بمتابعة تنفيذ العهد، فمضى إلى بنى زهرة أقرب الناس إلى بنى هاشم، وطلب من زعيمهم الأخنس بن شريق أن يكتب إلى محمد بإعادة أبى بصير إلى مكة وتنفيذ العهد الذى التزم به خاصة وأن عتبة بن أسيد حليفهم وهم مسؤولون عنه.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير، وهو عتبة بن أسيد بن جارية حليف بنى زهرة مسلمًا قد انفلت من قومه، فسار على قدميه سعياً، فكتب الأخنس بن شريق. وأزهر بن عبد عوف الزهرى إلى رسول الله ﷺ كتابًا، وبعثا رجلاً من بنى عامر بن لؤى، استأجراه ببكر ابن لبون، وهو خنيس بن جابر، وخرج مع العامرى مولى له يقال له: كوثر، وحملا خنيس بن جابر على بعير وكتبا يذكران الصلح بينهم، وأن يردَّ إليهم أبا بصير. فلما قدما على رسول الله ﷺ قدما بعد أبى بصير بثلاثة أيام. فقال خنيس: يا محمد، هذا كتاب، فدعا رسول الله ﷺ أبى بن كعب، فقرأ عليهم الكتاب فإذا فيه: «قد عرفت ما شارطناك عليه، وأشهدْنا بيننا وبينك مِن رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا». فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما. فقال أبو بصير: يا رسول الله تردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا». قال أبو بصير: يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين؟ قال رسول الله ﷺ: «انطلق يا أبا بصير، فإن الله سيجعل لك مخرجًا». فدفعه رسول الله ﷺ إلى العامرى وصاحبه، فخرج معهما)[1].

ولا يحل فى ديننا الغدر:

لقد ساهم سهيل بن عمرو فى إرسال واحد من قومه رسولاً إلى المدينة مع مولاه ليعود بأبى بصير حليف بنى زهرة، ويلقن كل مسلم فى مكة تسوِّل له نفسه الفرار درسا لا ينساه بعودة أبى بصير، ومن جهة أخرى فهى امتحان لمحمد عن مدى التزامه

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٦٢٤، ٦٢٥.

بهذا العهد. وهو الذى ينعى على الكفار غدرهم وفجورهم ونكثهم لعهودهم.

وتكررت المأساة على قلوب المسلمين من جديد، فأبو بصير ثقفى من غير مكة. وكان من الممكن التنصل من الميثاق بهذه الحجة، لكنه حليف بنى زهرة وبنو زهرة بعثوا بطلبه بكتاب واضح محدد .

(قد عرفت ما شارطناك عليه ، وأشهدنا بيننا وبينك مِن رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا) .

وهنا تظهر عظمة التربية النبوية لهذا الجيل الفريد الذى سيقدم على عهود ومواثيق مع أهل الأرض كلهم .

فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما . فقال أبو بصير : يا رسول الله، تردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فقال رسول الله ﷺ: « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر » .

إن القائد العسكرى أو الزعيم السياسى يفكر دائمًا بمصيره السياسى والعسكرى إذا فقد ثقة جنوده وقواعده. وإن الحرص على استمرار منصبه هو دافعه الأساسى فى تحركه ، ولن يعدم مخرجًا يتنصل به من المسؤولية فيرضى جماهيره، ويقوِّى ثقتهم به ، ويبرز تصرفه مع عدوه .

أما رسول رب العالمين ، الذى جعله الله تعالى للناس كافة، وقدوة وأسوة للمسلمين فى الأرض وهو يقوم بتربية الجيل القائد للبشرية ، لا يمكن أن يفكر بنصر سريع ، أو تأييد آنيٍ جارف على حساب المبادئ والمثل التى جاء ليربى البشرية الضالة التائهة عليها . إن الربح الآنى ، والفرح الغامر برفض عودة أبى بصير، يربى هذا الجيل كله على النكث والغدر فيما بعد فى كل تعامل مع العدو ، ويزبل شرف الكلمة من الوجود ؛ ولهذا وضع رسول الله ﷺ يده على جرحه الغائر الذى ينزف دما ، وعلى جرح المسلمين الدامى كذلك ، وعلى جرح أبى بصير القاتل ، وقرر التربية على المبدأ، وحماية هذا الدين من أن ينال منه بسوء تطبيقه. ولم يكن لديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحظة تردد، أو خاطر توقف إنما كان إعلان المبدأ الخالد للجيل الخالد، إلى الأجيال المتتابعة إلى قيام الساعة:

« إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر».

فالغدر وشريعة الله نقيضان لا يجتمعان مهما كانت الخسائر جسيمة والأرباح الآنية عظيمة .

فالربح الأعظم من هذا كله أن يتعلم خيرة أهل الأرض من مدرسة النبوة التطبيق العملى للمبدأ، ليس العرف النظرى بأن ينفذوا التزاماتهم وعهودهم، ولو على حساب حياتهم ووجودهم .

وهذا ما كان ،ويتكرر رجاء أبو بصير الجريح البطل: يا رسول الله، تردنى إلى المشركين؟ قال رسول الله ﷺ: « انطلق يا أبا بصير، فإن الله سيجعل لك مخرجًا » .

وانطلق أبو بصير من عز الإسلام ودولته، إلى ذل الشرك وفتنته ، يحمل بين جنبيه الأمل والثقة بالله «إن الله جاعل له فرجًا ومخرجًا».

ويل أمه لو كان مِسْعَرُ حرب :

هذا الجانب التربوى من الوفاء، ورفض النكث والغدر هو وجه واحد من القضية، لكن الوجه الثانى هو إبقاء جذوة الإيمان متقدة مشتعلة وقد تُحطِّم هذه النفوس حين ترى القائد الأعظم ﷺ يضطر لمصالح المؤمنين أنفسهم فى مكة أن يعلن تخليه عن حمايتهم وإيوائهم ويلزم نفسه، فكان الاعتصام بالإيمان ابتداء هو الذى يقى هذه النفوس من اليأس والقنوط ، فإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا . ثم يأتى بعد ذلك حفز هذه الهمم لتفعل شيئًا ما ذاتيًا فى مواجهة هذه الطواغيت، فقد قصَّروا أولاً حين لم يفروا بدينهم إلى المدينة قبل هدنة الحديبية. وقبل الاضطرار إلى عدم قبولهم أعضاء فى دولة الإسلام الأولى، وقد فجَّر القرآن طاقاتهم فى التصميم على مغادرة مكة حين أنزل فيهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً . إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً** ﴾ (١) .

وهذا التوجيه الربانى قاد الكثير منهم إلى الفرار بدينه من الفتنة من مكة إلى المدينة، وجعل هذا الأمر مسؤولية شخصية ذاتية على المسلم أن يتحملها ويخطط لإنجاحها ،ولا يـركن إلى الذين ظلموا فتمسه النار ولا يجد من دون الله وليًا ولا نصيراً . ولم يعذر الله تعالى إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، أما الرجال، أما الشباب، فلا عذر لهم فى ذلك .

ومن خلال هذا الفقه نبَّه المسلمون أخاهم أبا بصير إلى عمل شىء ما مع الرسولين يحـول دون تسليم نفسه إلـى قريش . (وجعل المسلمون يسرون إلى أبى بصير ، يا

(١) النساء / ٩٧ ـ ٩٩ .

أبا بصير: أبشر فإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا. والرجل يكون خيرًا من ألف رجل، فافعل وافعل، يأمرونه بالذين معه) .

وبذلك وجهوا هذه الطاقات الثاقبة فاستيقظت حية تخطط وتفكر لتنتقل من دور الجندية الخالصة إلى دور الريادة القيادية ، والذى خطَّط ليفر من قلب براثن العدو فى مكة، لا يعجزه أن يخطط للفرار من هذين الرسولين ، واشتغل ذهنه الوقاد . حيث مضى بهذا الذهن يخطط لضرب عدويه . وما هى إلا مسافة قصيرة وقصيرة جدًا عند ذى الحليفة ، ميقات أهل المدينة الذى لا يبعد بضعة عشر كيلو عن المدينة. نفَّذ مخططه العظيم .

(فخرجوا حتى إذا كانوا بذى الحليفة انتهوا إليها عند صلاة الظهر ، فدخل أبو بصير مسجد ذى الحليفة فصلى ركعتين صلاة المسافر ومعه زاد له يحمله من تمر . فمال إلى أصل جدار فوضع زاده فجعل يتغذى وقال لصاحبيه : ادنوا فكلا : فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك . فقال : ولكن لو دعوتمونى إلى طعامكم لأجبتكم وأكلت معكم. فاستحييا فدنَوَا ووضعا أيديهما فى التمر معه ، وقدَّما سفرة لهما فيها كسر. فأكلوا جميعًا وآنسهم) .

وبذلك أزال الجفوة بينه وبينهم، فارتاح العامرى، إذ قد ضمن البكر الذى استُأجر عليه، وعلَّق سيفه على الجدار. وراح أبو بصير يدنو أكثر فأكثر إلى نفسيهما ويباسطهما الحديث. فقال أبو بصير للعامرى: يا أخا بنى عامر ما اسمك؟ قال: خنيس، قال: ابن من؟ قال: ابن جابر، فقال: يا أبا جابر، أصارم سيفك هذا؟ قال: نعم. قال: ناولنيه أنظر إليه إن شئت .

وانطلت الخديعة على العدو اللدود الذى جاء من مكة ليقود أبا بصير إلى جحيم المشركين فى مكة. فناوله العامرى وكان أقرب إلى السيف من أبى بصير، فأخذ أبو بصير بقائم السيف. والعامرى ممسك بالجفن فعلاه به حتى برد . لقد قتله بسيفه، وأدرك كوثر مولى العامرى خطورة الموقف. فولى هاربًا إلى المدينة، يقطع هذه الكيلات جميعًا خوفًا أن يدركه أبو بصير حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ ،ويراه القائد الحبيب قادمًا يلهث ،وقد وصل قلبه إلى حنجرته من الخوف. فيدرك وضعه ـ عليه الصلاة والسلام.

ويقول: « هذا رجل قد رأى ذعرًا » .ويقول الرجل:

قتل صاحبكم صاحبى، وأفلتُّ منه ولم أكد) .

إنه لم يعد يريد أخذ أبى بصير، إنما يريد النجاة بروحه ولا نجاء .

وها هو أبو بصير يعود إلى قائده الحبيب قائلاً:

وَفَتْ ذمتّك، وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى بيد العدو، وقد امتنعت بدينى أن أفتن، وتبغَّيت بى أن أكذِّب بالحق. فقال رسول الله ﷺ وهو يرى هذا الجندى الباسل، والفتى العظيم يقتل حارسه بسيفه، ويلجأ الآخر فزعًا منه إلى المدينة. فيعرف أنه ليس ذو طاقات عادية إن بإمكانه أن يكون قائد ثورة لو كان معه أتباع ورجال. فلم يفكر بنفسه وحده ، ولا يجعل مهمته أن يفجر الأرض بطواغيت مكة، ويشعل حربا عليهم تذيقهم الأمرين .

وحسب التربية النبوية العظيمة الخالدة، التى تنشئ الطاقات أو تشعل الطاقات المطفأة، أو تفجر الطاقات المشتعلة، وتستفيد منها إلى أقصى حدود الاستفادة، حسب هذا المنهج التربوى الخالد أطلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلمته الخالدة :« ويل أمه مسعر حرب لوكان معه رجال » .

وأدرك أبو بصير من هذه الكلمة أنه حُمِّل مسؤولية جسيمة أكبر من مسؤوليته الشخصية، وأن عليه أن يقود ثورة المسلمين فى مكة، فله من الشجاعة العربية والدهاء الثقفى ما يمكنه من ذلك .

وقاد حرب العصابات ضد الطواغيت :

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكوثر:« ترجع به إلى أصحابك ». فقال: يا محمد ، قد أهمتنى نفسى، ما لى به قوة ولا يدان. فقال رسول الله ﷺ لأبى بصير: « اذهب حيث شئت » .

فخرج أبو بصير، واختار المكان المناسب لحرب العصابات حيث يتجمع الرجال هناك على الساحل، على طريق قوافل مكة. والزهد والصبر على الجوع والعطش، والجلد على الأهوال من أول سمات قائد الثورة .

(فخرجت ما معى من الزاد إلا كف من تمر فأكلتها ثلاثة أيام، وكنت آتى الساحل فأصيب حيتانًا قد ألقاها البحر فآكلها) . ولابد له أن يعتمد على إنتاج الطبيعة فى طعامه وشرابه ما أمكنه ذلك .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يغلى كالمرجل. فبعث بالسر إلى المسلمين فى مكة يخبرهم بكلمة الرسول ﷺ، ويخبرهم بمكان أبى بصير وموطن دولته الجديدة. فلما جاءهم كتاب عمر جعلوا يتسللون رجلاً رجلاً حتى انتهوا إلى أبى بصير فاجتمعوا عنده قريبًا من سبعين رجلاً .

لقد تحرروا من طغيان مكة، وأقاموا دولتهم بذى المروة بالساحل، لا سلطان لأحد عليهم، وقريش التى هجرت الحرب ومضت إلى قوافلها التجارية تملأ الأرض جيئة وذهابًا. ها هى تفاجأ برعب قاتل .

فإذا المستضعفون الذين كانت تذيقهم ألوان العذاب فى مكة ينقضون على تجارتها فيأخذونها، ويبعثون حراس القافلة أصحابها صرعى مجندلين إلى مكة .

(فكانوا قد ضيّقوا على قريش ، لا يظفرون بأحد إلا قتلوه ، ولا تمر عير إلا اقتطعوها حتى أحرقوا قريشًا).

واجتمع سراة مكة وأشرافها وأبطالها يعالجون الوضع الجديد المقلق المرعب لهم، لقد غدت تجارتهم غنيمة للمسلمين المستضعفين، ورجالهم يبادون بأيديهم . فما الحل: أن يشدِّدوا الحراسة، ويبعثوا الأبطال لحماية القافلة ، فلم يكتفوا بالرجل والرجلين إنما بعثوا فى هذه القافلة الضخمة ثلاثين رجلاً. وجاءت الأخبار بعد رفع مستوى الحماية بالكارثة الكبرى ، حتى أحرقوا قريشًا . فمر ركب يريدون الشام معهم ثلاثون بعيراً، وكان هذا آخر ما اقتطعوا ، لقد أصاب كل رجل منهم ما قيمته ثلاثون ديناراً .

وأرادت الدولة الفتية دولة الثوار أن تصل بدولة الإسلام فى المدينة بأن تبعث الخمس لرسول الله ﷺ ، فقال لهم قائد ثورتهم أبو بصير: لا يقبله رسول الله. لقد جئته بسلب العامرى. فأبى أن يقبله وقال: « إنى إذا فعلت هذا لم أف لهم بعهدهم » . وكانوا قد أمَّروا عليهم أبا بصير. فكان يصلى بهم ويفرِّضهم[1] ويجمعهم[2] وهم سامعون له مطيعون له .

وتراجعت قريش عن شرطها أمام الثورة المسلمة:

فلما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبى بصير للعامرى اشتد ذلك عليه. وقال: والله ما صالَحنا محمد على هذا. وطلب سهيل وزير خارجية مكة اجتماعاً طارئًا لحكومتها، وحدَّثهم عن المخاطر الكبرى، ومقتل العامرى، وما حدَّث به كوثر قريش عن جيش محمد وقوته .

لكن قريش أدركت أن محمداً ﷺ أشرف وأذكى من أن يبتّ غدرًا أو يسجِّله عليه.

فقالت لسهيل حين حدثها عن مقتل العامرى:

قد برئ محمد منه ، قد أمكن صاحبكم فقتله بالطريق، فما على محمد فى هذا؟

(١) يفرِّضهم: يفصِّل الحلال والحرام والحدود . (٢) يجمعهم: يصلى بهم الجمعة .

فقال سهيل: قد والله عرفت أن محمدًا قد أوفى، وما أوتينا إلا من قبل الرسولين .

وبذلك تحرّر الجانب الدبلوماسى من أى خرق للاتفاق بين دولة قريش ودولة المدينة، وبقى الخوف من هذه العصابة التى أشاعت القلق والرعب والخوف على طريق تجارة مكة .

(وانضم أبو جندل بن سهيل لهذه الثورة، فلما قدم عليهم كان هو الذى يؤمهم).

وبدأت عناصر أخرى من خارج مكة تنضم إلى هذه الدولة الجديدة:

(واجتمع إلى أبى جندل حين سمعوا بقدومه ناس من بنى غِفار، وأسلم، وجهينة، وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون) [1].

ولا غرابة فى استلام أبى جندل القيادة، فالسمعة السياسية والعسكرية ذات وزن كبير فى هذا المجال ، فإذا كان سهيل بن عمرو هو وجه مكة ونائبها وقائدها السياسى اليوم، فابنه أبو جندل بن سهيل هو القائد العام للثورة الإسلامية على الساحل، والتى تهدد أمن مكة واستقرارها وهو الذى يعلن فى بلاغ عام تسير به الركبان :

أبلغ قريشاً عن أبى جندلٍ ... أنا بذى المروة [2] فى الساحل
فى معشر تخفق راياتهم ... بالبيض فيها، والقنا [3] الذابل [4]
يأبون أن تبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعلِ الله لهم مخرجاً ... والحقُّ لا يغلب بالباطل
فيسلمُ المرء بإسلامه ... ويقتل المرء ولم يأتل [5]

قريش تستسلم والمسلمون ينضمون لخيرة أهل الأرض :

قال: فأقاموا مع أبى جندل وأبى بصير لا يمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها. فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألون ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير، وأبى جندل بن سهيل ومن معه ، فقدموا عليه وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه فإن هؤلاء والركب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره [6] .

---

(١) دلائل النبوة للحافظ البيهقى ٤/ ١٧٣ .

(٢) ذى المروة: موضع فى أرض جهينة مما يلى سيف البحر بين مكة والمدينة .

(٣) القنا: جمع قناة وهى الرمح .

(٤) الذابل: إشارة إلى أن رماحهم رقاق .

(٥) لم يأتل: لم يحلف .

(٦) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٠٢ .

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبى جندل وأبى بصير يأمرهم أن يقدموا عليه، ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يعترضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيرانها ، فقدم كتاب رسول الله ﷺ - زعموا - على أبى جندل وأبى بصير، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ فى يده يقرؤه. فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ معه ناس من أصحابه، ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات قريش (١).

وفى رواية الواقدى:

وأقبل أصحابه إلى المدينة وهم سبعون رجلاً فيهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، فلما دخل الحرّة عثر، فانقطعت إصبعه فربطها وهو يقول:

هل أنت إلا إصبع دميت ... وفى سبيل الله ما لقيت (٢)

واستجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ التى كان يقنت بها :

« اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج عياش بن أبى ربيعة ، اللهم اجعلها سنين مثل سنى يوسف ». ثم لم يزل يدعو حتى نجاهم الله تعالى. ثم ترك الدعاء لهم(٣).

وفى الرواية الثانية:

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، فذكر الدعاء للمستضعفين ثم قال: « اللهم اشدد وطأتك على مضر، وخذهم بسنين كسنى يوسف ». فأكلوا العلهز. قال: فقلت للقاسم ابن محمد قال: الوبر والدم .

وكانت هذه الاستجابة الربانية من خلال الجهد البشرى والجهاد الدائم الدؤوب ، فقد أكلت قريش العلهز. عندما قطع ثمامة بن أثال المسيرة والبر عن أهل مكة بعد إسلامه، وهو سيد بنى حنيفة، وأكلت قريش العلهز من جهة ثانية يوم قطعت دولة الثوار فى مكة طريق قوافل الشام عليها .

(وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ فقال: قد قطعت وأخفت من كان يحمل إلينا حتى هلك قومك، فأمّن الناس حتى يحملوا). فأمّن الناس حتى حملوا، وكتب إلى ثمامة بن أثال أن يعيد إلى أهل مكة البر والميرة، وأنهى دولة الثوار وأمن الطريق لقريش. بعد هزائمها العسكرية والسياسية والاقتصادية، ولكن بعد أن ضم المستضعفين

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٤/ ١٧٥ . (٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٢٥ .

(٣) البخارى ٦٥ ،ك التفسير ٣/٥/١٨٣ ، ١٨٤ .

المؤمنين فى مكة إلى حزب الله فى المدينة، وأصبحت هذه الكوكبة البشرية هى درة البشر فى الأرض ، حيث انضم إلى أهل بيعة الرضوان إخوانهم المؤمنون المنثورون فى الأرض، فجاء السبعون من دوس، والسبعون من اليمن ، والثلاثون ونيف من الحبشة.

وهؤلاء السبعون من قريش، والسبعون من مسلمى الحبشة ، ليمثل هؤلاء جميعًا ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ (١) كما وصفهم الله تعالى فى كتابه العزيز؛ ليؤدى كل امرئ منهم دوره فى قيادة البشرية .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

التربية بالهجرة
(المرأة المهاجرة وانضمام النساء للجيل القيادى)

١ ـ وعن عروة بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة ـ رضى الله عنهما ـ يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: (لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبى ﷺ ألا يأتيك منا أحد ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه. وأبى سهيل إلا ذلك .فكاتبه النبى ﷺ على ذلك ، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل ابن عمرو ،ولم يأته أحد من الرجال إلا ردَّه فى تلك المدة وإن كان مسلمًا . وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ ، وهى عاتق ، فجاء أهلها يسألون النبى ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم ؛لما أنزل الله فيهن: ﴿ **إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾(١)) (٢).

(قال عروة : فأخبرتنى عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾. . . . إلى﴿ **غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: « قد بايعتك »؛ كلامًا يكلمها به. والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله (٣).

٢ـ (قوله :فكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ) أى من مكة إلى المدينة مهاجرة مسلمة فقوله : « وهى عاتق » أى: بلغت واستحقت التزويج ولم تدخل فى السن .وقيل : هى الشابة ، وقيل : فوق المعصر وقيل : استحقت التخدير، وقيل :بين البالغ والعانس. وتقدم بسط ذلك فى كتاب العيدين. قوله : (فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم) .فى حديث عبد الله بن أبى أحمد بن جحش: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط فخرج أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة بن أبى معيط حتى قدما المدينة، فكلما رسول الله ﷺ أن يردَّها إليهم، فنقض العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة. فنزلت الآية.أخرجه ابن مردويه

---

(١) الممتحنة / ١٠ .

(٢،٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ك الشروط ٥ ٣١٢ رقم (٢٧١١ ، ٢٧١٣) .

في تفسيره . وفى هذا يظهر المراد بقوله فى حديث الباب (حتى أنزل الله فى المؤمنات ما أنزل أى: من استثنائهن من مقتضى الصلح على ردِّ من جاء منهم مسلما . . .) (١).

٣ـ (وأوضح من ذلك ما أخرجه الطبرى من طريق العوفى ،عن ابن عباس قال: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) . وأما ما أخرجه الطبرى أيضًا والبزار من طريق أبى نصر، عن ابن عباس : وكان يمتحنهن والله ما خرجت إلا حبًا لله ولرسوله ، ومن طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد نحو هذا ،ولفظه: فاسألوهن عما جاء بهن. فإن كان من غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيرة ولم يُؤمِّن فارجعوهن إلى أزواجهن، ومن طريق قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن نشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، فإذا قلن ذلك قبل منهن، فكل ذلك لا ينافى رواية العوفى لاشتمالها على زيادة لم يذكرها (٢).

٤ـ وأخرج ابن عبد الرزاق ، عن معمر، عن قتادة أنه ﷺ كان يمتحن من هاجر من النساء : بالله ما خرجت إلا رغبة فى الإسلام ، وحبًا لله ورسوله ؟ وأخرج عبد بن حميد من طريق ابن أبى نجيح،عن مجاهد نحوه ، وزاد : ولا خرج بك عشق رجل منا،ولا فرار من زوجك. وعند ابن مردويه وابن أبى حاتم والطبرانى من حديث ابن عباس نحوه وسنده ضعيف ، ويمكن الجمع بين التحليف والمبايعة والله أعلم . وذكر الطبرى وابن أبى حاتم ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:أن المرأة من المشركين كانت إذا غضبت على زوجها قالت: والله لأهاجرنَّ إلى محمد، فنزلت : ﴿.... **فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ (٣).



لقد احتفل القرآن بها وبأمثالها ،فأنزل بهن آية الممتحنة ، وسميت السورة كلها باسمها : سورة الممتحنة لما كان لها من أهمية فى الوجود الإسلامى .

هى أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى معيط ، ففى أى بيئة نبتت ـ رضى الله عنها.

لقد كان عقبة بن أبى معيط أعدى العدو لرسول الله ﷺ وهو أبوها. وهذه نماذج من عدائه لله ورسوله :

أ ـ قدم عقبة يومًا من سفر، فصنع طعامًا ودعا الناس من أشراف قريش، ودعا النبى ﷺ فلما قرِّب إليهم الطعام أبى رسول الله أن يأكل. فقال: ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله. فقال عُقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله،

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٤٥٤ . (٢) المصدر نفسه ٩/ ٤٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ٨/ ٦٣٧ .

فأكل ﷺ من طعامه وانصرف الناس، وكان عُقبة ، صديقًا لأبى بن خلف، فأخبر الناس أبيًا بمقالة عقبة فأتى إليه وقال: يا عقبة ،صبوت؟ قال: والله ما صبوت، ولكن دخل منزلى رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم، فشهدت له فطعم، والشهادة ليست فى نفسى. فقال له أبى: وجهى ووجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأه، وتبزق فى وجهه، وتلطم عينيه. فقال له عقبة: لك ذلك، ثم إن عقبة لقى النبى ﷺ ففعل به ذلك .

قال الضحاك : لما بزق عُقبة لم تصل البصقة إلى وجه رسول الله ﷺ، بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق مكانها، وكان أثر الحرق فى وجهه إلى الموت. وحينئذ يكون المراد بقوله فيما تقدم. (فعاد بصاقه برصًا فى وجهه) أى صار كالبرص، وأنزل الله فى حقه : ﴿ ويوم يعضُ الظَّالمُ علَىٰ يديْه ﴾ (١).

وهكذا اختار ابن معيط صفة الشيطان بعد أن كاد أن يسلم إرضاء لخليله أبى بن خلف .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً .لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾(٢).

ب ـ ونسى عقبة بن أبى معيط شرف محمد بن عبد الله، خصوصًا عندما رأى عمه أبا لهب يشاركه العداء، فصار يتسابق معه على إيذاء رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهو ليس ذو شخصية مستقلة إنه تابع ذليل تأثر بصاحبه أبى بن خلف، وها هو يتأثر بأبى لهب. حتى ليقول ـ عليه الصلاة والسلام:« كنت بين شر جارين: أبى لهب، وعقبة بن أبى معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى » (٣).

جـ ـ واشتد لؤم عُقبة فى استعلائه بغيره، واندفاعه إلى إيذاء محمد ﷺ ليكسب رضا زعامات مكة، تتحدث عنه المجالس وعن بطولته. وها هو يرضى أن يكون بطل قريش لا فى إلقاء الفرث على باب محمد ﷺ، بل بإلقائه على ظهره وهو ساجد . فعن عبد الله بن مسعود قال:

كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى، وقد نُحر جزور وبقى فرثه (أى روثه فى كرشه) فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى هذا القَذر يلقيه على محمد؟ وفى رواية: أيكم قال قائل: ألا تنظرون إلى هذا المرائى. أيكم يقوم إلى جزور بنى فلان

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
(٢) الفرقان / ٢٧ ـ ٢٩ .
(٣) السيرة الحلبية ١/٥٠٨ .

فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، وفى رواية : (أيكم يأخذ سلى جزور بنى فلان ـ لجزور ذبحت من يومين أو ثلاثة ـ فيضعه بين كتفيه إذا سجد؟) فقام شخص من المشركين ، وفى لفظ : أشقى القوم وهو عقبة بن أبى معيط ،وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى ﷺ وهو ساجد فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض أى من شدة الضحك، قال ابن مسعود. فهبنا أى :خفنا أن نلقيه عنه ﷺ، وفى لفظ : وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ. حتى جاءت فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أى بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها بذلك واستمر ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، ولما ألقته عنه أقبلت عليهم تشتمهم. فقام النبى ﷺ. فسمعته يقول: « اللهم اشدد وطأتك على مضر سنين كسنى يوسف، اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف » . . . . . وإن ابن مسعود قال: والله لقد رأيتهم ، وفى رواية): رأيت الذى سمى رسول الله ﷺ، صرعى يوم بدر ،ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر(١).

وتؤكد رواية مسلم الثانية أن عُقبة هو بطل هذه المحاولة كلها ، فعن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ ساجد ، وحوله ناس من قريش إذ جاء عُقبة بن أبى معيط بسلا جزور ، فقذفه على ظهر رسول الله ﷺ. فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة ، فأخذته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك ، فقال: « اللهم عليك بالملأ من قريش ، أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف » (أو أبى بن خلف، شعبة الشاك) قال: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر، فأُلقوا فى بئر ،غير أن أمية أو أبيًا تقطعت أوصاله فلم يُلق فى البئر(٢).

السموات والأرض ، وملائكة الرحمن يرنون فى هذا الوجود إلى سيد ولد آدم . قد اجتمع عليه أئمة أهل النار من الملأ من قريش ، وسلا البعير بروثه ودمه على ظهره ﷺ وهو ساجد ، وضج ملائكة الرحمن ثأرًا لسيد الخلق ، وشرَّف الله تعالى سيدة نساء الجنة وسيدة نساء العالمين أن تزيل هذا القَذَرَ عن ظهر أبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفرعون قريش أبو جهل ، وهامانه عقبة والملأ معهما يتمايلون من الضحك. والمؤمنون خيرة أهل الأرض ينظرون ويصبرون حسب الأوامر الموجهة لهم من نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام.

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤٦٩، ٤٧٠ وهو عند مسلم ٣/ ١٤١٨ برقم (١٧٩٤) .
(٢) مسلم ٣/ ١٤١٩ برقم (١٧٩٤) وهى رواية البخارى. الفتح برقم (٣٨٥٤) ٧/ ١٦٥ .

إنه الأذى بالقذر لنور هذا الوجود من خلق الله ، تكاد تنشق منه الأرض، وتخر الجبال هدا، أن دعوا للرحمن ولدا، وأن ألقوا الجزور بفرثه ودمه على أحب خلق الله إلى الله محمد عليه الصلاة والسلام. وكان الانتقام الربانى منهم بيد الملائكة وعباد الرحمن يوم بدر إذ صرعوا فيها .

وبيـوم بـدر إذا تـرد وجوههـم جبريـل تحـت لـوائنـا ومحمد

د ـ ثم كانت محاولة القتل الثلاثية، وكان أبطالها: أبو جهل بن هشام، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر، وفى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف. فمرَّ رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره. فعُرف ذلك فى وجه النبى ﷺ ، فدنوت منه حتى وسطته، أى جعلته وسطًا فكان ﷺ بينى وبين أبى بكر، وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعاً. فلما حاذاهم قال أبو جهل:

والله لا نصالحك ما بلَّ بحر صوفه ،وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا. فقال رسول الله ﷺ: « أنا ذلك » . ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك. حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه ـ أى قاموا له ﷺ ـ ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ﷺ . فدفعت فى صدره فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف. ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبى معيط ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف ثم قال: « أما والله لا تنتهون حتى يحلَّ الله بكم عقابه » أى ينزل عليكم عاجلاً . قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذته الرعدة فجعل رسول الله ﷺ يقول: « بئس القوم أنتم لنبيكم » . ثم انصرف إلى بيته، وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته، ثم أقبل علينا بوجهه. فقال: « أبشروا فإن الله ـ عز وجل ـ مظهر دينه، ومتمم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلاً » .ثم انصرفنا إلى بيوتنا ، فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر (١).

هـ ـ ثم كان بطل محاولة منفردة لعله يفوز بإمامة أهل النار .

ففى البخارى عن عروة بن الزبير ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال:

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤٧١ ، ٤٧٢ وهو فى فتح البارى عند ابن حجر (وقد روى الزبير بن بكار والدارقطنى فى الأفراد من طريق عبد الله بن عروة عن عروة، حدثنى عمرو بن عثمان عن ابنه عثمان ،قال: أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أنى رأيته يومًا . . . وذرفت عينا عثمان. فذكر قصة . . .) ٧/ ١٦٨ .

(قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ،ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله ﷺ قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾) الآية [1].

و ـ وكان مجرم الحرب وإمام أهل النار قد وقع أسيرًا مع شريكه النضر بن الحارث.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث، قتله على بن أبى طالب كما أخبرنى بعض أهل العلم من أهل قلة.

قال ابن إسحاق : ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظَبيَّة، قُتل عقبة بن أبى معيط. . . والذى أسر عقبة عبد الله بن سلمة أحد بنى العجلان. فقال عقبة حين أمَرَ رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار، فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى . . قال ابن هشام، ويقال : قتله على بن أبى طالب فيما ذكر لى ابن شهاب الزهرى وغيره من أهل العلم [2].

هذه البيئة التى نشأت بها أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وأمها تمثل البيئة نفسها ، فأمها أروى بنت كريز بن ربيعة، ولم تدخل فى الإسلام إلا بعد الفتح، وأخوها الوليد ابن عقبة لم يدخل فى الإسلام إلا بعد الفتح . فالبيئة كلها معمل حقد، ومرجل بغض لرسول الله ﷺ. فكيف أمكن لأم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ أن تُنتَزع من هذه البيئة الحاقدة الكافرة، ليتسلل الإسلام إلى قلبها قبل رجال قومها ونسائهم .

إن هناك احتمالين ضعيفين أن يكون لهما أثر فى صلة هذا القلب بشعاع الإيمان .

الاحتمال الأول: ما بهرها من خلقه ﷺ وهو جار لهم وما ترى من صبره، ومن حلمه، ومن عفته، فتجاوزت بهذا الانبهار حدود هذه البيئة الحاقدة .

الاحتمال الثانى: أن يكون لأخيها من أمها عثمان بن عفان رضي الله عنه دور فى زراعة بذرة الإيمان فى قلبها ورعاية هذه النبتة، ويرجح هذان الاحتمالان إذا عرفنا أنها قد دخلت الإسلام فى مكة سرًا .

كما ذكر فى ترجمتها ـ رضى الله عنها ـ فى الطبقات الكبرى لابن سعد :

(أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . . . وأمها أروى بنت كريز بن ربيعة . . .

---

(١) فتح البارى ، ك مناقب الأنصار ٧/ ١٦٥ ، ١٦٦ برقم (٣٨٥٦) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤٧ .

أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ، وهى أول من هاجر من النساء بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة)(١) . وعند الحافظ ابن حجر فى الإصابة: (وكانت أم كلثوم ممن أسلم قديمًا وبايعت، وخرجت إلى المدينة مهاجرة تمشى) (٢).

وحين نذكر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يدخل إلى المسلمين فى مكة، فى الحديبية يبشرهم باقتراب النصر، ويدعوهم إلى الثبات على الحق. (ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين فأقول: إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول: « أُظلّكم حتى لا يستخفى بمكة الإيمان». فقد كنت أرى الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظنّ أنه يموت فرحًا بما خبرتُه، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفى المسألة، ويشتد ذلك على أنفسهم ويقولون: اقرأ على رسول الله منا السلام، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر أن يُدخله بطن مكة . .) (٣).

ولا شك أن عثمان رضي الله عنه قد زار أخته أم كلثوم. عللًا صلة لرحمها بوجود أخويها العدوين اللدودين : الوليد بن عقبة، وعمارة بن عقبة، ولا شك أنه حين خلا بها وحدثها عن رسول الله ﷺ بكت فرحًا، واشتعل قلبها شوقًا لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ، ورفضت الزواج من بيئتها المشركة الحاقدة :فقلبها كله مشغول وطافح بحب الله ورسوله، لا يكاد يصدق أفى يقظة أم فى حلم. أن أخاها عثمان بجوارها، وأنه هو مولد طاقة الإيمان فى قلبها ، وها هو يبشرها بأن النصر قد أزف ، وتكاد تطير شوقًا إلى المدينة وساكنها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم بلغها من عودة رسول الله ﷺ هذا العام مكة، فتقطع قلبها حرقة وكمدًا، وهل تنتظر عامًا كاملاً حتى تلقى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهى تعد عمرها بالساعات ولمعت فى ذهنها فكرة ثم استبعدتها أن تمضى فارة من مكة بدينها إلى المدينة، ثم استبعدتها خاصة وقد بلغها خروج أبى بصير وإعادته لأهل مكة حسب نص عهد الحديبية. وجلست على الجمر بين أخويها الحاقدين، ومكة المتفجرة حقدًا على رسول الله ﷺ، وتلتقى مع أخوات مؤمنات لها، فلا تهدأ ولا تقر، ولا تستطيع أن تذوق للنوم مذاقًا .

فقد اسودت الدنيا فى عينيها، وها هى ترى الفجر يطل عليها من ربى المدينة، ولكن أنى لها ذلك،وهى الفتاة العاتق البكر العذراء، تمضى فى هذه البيد وفى الظلام الحالك؟ فتقعد همتها عن الحركة، ثم تثب ثانية، لم لا تمضى أليس الله معها؟ أليست

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٢٣٠ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٨ ت ١٤٦٧/ ٢٧٤ . (٣) المغازى للوقدى ٢ / ٦٠١ .

ماضية مهاجرة فى سبيل الله؟ فلتضع خطة الفرار من أهلها وبيتها إلى الله ورسوله .

وتعود لتسائل نفسها: هل فعل هذا أحد غيرها، وتشحذ ذهنها فتذكر أختها فى الله أم سلمة التى قطعت البيد وحدها وحفظها الله ورعاها حتى نزلت المدينة، لكن أم سلمة مضت إلى زوجها، فهناك ما يبرر خروجها .

أما أم كلثوم فإلى أين تمضى، ولا أب لها ولا زوج إلا أخاها من أمها عثمان بن عفان، وبقيت هذه الهواجس تنتابها، حتى عزمت عزمتها الأخيرة، وصممت على أن تهجر الكفر وأهله، وحيدة عزلاء مهاجرة إلى الله ورسوله. ولننتقل إليها تحدثنا عن هذه الهجرة العظيمة الخالدة .

قالوا: لا نعلم قرشية خرجت بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله إلا أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط .كانت تحدث نفسها فتقول:

كنت أخرج إلى بادية لنا بها أهلى فأقيم الثلاث والأربع، وهى من ناحية التنعيم أو قالت : بالحصحاص، ثم أرجع إلى أهلى فلا ينكرون ذهابى حتى أجمعت السير، فخرجت يومًا من مكة كأنى أريد البادية التى كنت فيها، فلما رجع من تبعنى خرجت حتى انتهيت إلى الطريق، فإذا رجل من خزاعة فقال : أين تريدين ؟ فقلت :حاجتى ، فما مسألتك ومن أنت ؟ فقال : رجل من خزاعة: فلما ذكر خزاعة. اطمأننت إليه؛ لدخول خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ وعقده ،فقلت:

إنى امرأة من قريش أريد اللحوق برسول الله ﷺ، ولا علم لى بالطريق .

فقال: أهل الليل والنهار(١) أنا صاحبك حتى أوردك المدينة .

ثم جاءنى ببعيرٍ فركبته، فكان يقود بى البعير، لا والله ما يكلمنى كلمة، حتى إذا أناخ البعير تنحى عنى، فإذا نزلت جاء إلى البعير فقيَّده فى الشجرة، وتنحى عنى فى الشجرة، حتى إذا كان الرواح جذع البعير(٢) فقرَّبه وولى عنى، فإذا ركبته أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتى ننزل. فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة، فجزاه الله خيرًا من صاحب! فكانت تقول: نعم الحى خزاعة!

قالت: فدخلت على أم سلمة زوج النبى ﷺ وأنا منتقبة فما عرفتنى حتى انتسبت، وكشفت النقاب فالتزمتنى وقالت: هاجرت إلى الله ورسوله؟

---

(١) ربما أراد بذلك: نحن أهل الليل والنهار العارفون بمسالك الطريق ليلاً ونهارًا .

(٢) جذع البعير: حبسه على غير علف .

فقلت: نعم ،وأنا أخاف أن يردَّنى رسول الله ﷺ إلى المشركين كما ردَّ غيرى من الرجال: أبا جندل بن سهيل، وأبا بصير. وحال الرجال يا أم سلمة ليس كحال النساء، والقوم مصبِّحى قد طالت غيبتى عنهم اليوم ثمانية أيام منذ فارقتهم، فهم يبحثون قدر ما كنت أغيب ثم يطلبوننى فإذا لم يجدونى رحلوا إلىَّ فساروا ثلاثًا .

فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، فأخبرته خبر أم كلثوم ، فرحَّب بها رسول الله ﷺ، وقالت أم كلثوم:

يا رسول الله ، إنى فررت بدينى إليك فامنعنى ولا تردنى إليهم يفتنونى ويعذِّبونى، فلا صبر لى على العذاب، إنما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف، وقد رأيتك رددت رجلين إلى المشركين حتى امتنع أحدهما وأنا امرأة .

فقال رسول الله ﷺ: « إنَّ الله نقض العهد فى النساء، وأنزل الله فيهن الممتحنة ، وحكم فى ذلك بحكم رضوه كلهم » .

فكان رسول الله ﷺ يردُّ من جاء من الرجال، ولا يردُّ من جاءه من النساء .

وقدم أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة بن أبى معيط، فقالا: يا محمد، فِ لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه .

فقال: « قد نقض الله » . فانصرفا (١) .

لقد اختارت ـ رضى الله عنها ـ النزول على أختها أم سلمة، المهاجرة الأولى إلى المدينة فهى أقدر على تقدير ظروفها ، ومن جهة ثانية فهى زوج رسول الله ﷺ وهو الذى يعود الأمر إليه فى إرجاعها إلى مكة تنفيذًا للعهد، أو إبقائها فى المدينة. وكان الحكم من الله تعالى فى هذا الأمر ألا تعود النساء إلى أوليائهن من الكفار يعذبونهن، ويفتنونهن عن دينهن .

وكانت هذه الهجرة العظيمة إيذانًا بعهد جديد من هجرة النساء اللاتى سيقتدين بأم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ فرارًا بدينهن من الفتنة .

قال ابن سعد: (هى أول من هاجر من النساء بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة، خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٢٩ - ٦٣١ .

المدينة فى الهدنة ،هدنة الحديبية. فخرج فى أثرها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة فقدما المدينة من الغد يوم قدمت فقالا:

يا محمد ، فِ لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه .

وقالت أم كلثوم: يا رسول الله ، أنا امرأة وحال النساء إلى الضعفاء ما قد علمت. فتردنى إلى الكفار يفتنونى فى دينى ولا صبر لى؟ .

فنقض الله العهد فى النساء. وأنزل فيهن الممتحنة، وحكم فى ذلك بحكم رضوه كلهم. وفى أم كلثوم نزل:

﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِن ﴾. فامتحنها رسول الله، وامتحن النساء بعدها يقول: « والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام، وما خرجتن لزوج ولا مال ؟» .

فإن قلن ذلك تركن وحبسن فلم يُرددن إلى أهليهن(١) .

لقد خاضت المحنة ـ رضى الله عنها ـ بقلب خالص ونفس نقية، وأقسمت بالله أنه ما أخرجها إلا حب الله ورسوله والإسلام ،وما خرجت لزوج ولا مال .

والزهرى ـ رحمه الله ـ يحدث فيقول: كان المشركون قد شرطوا على رسول الله ﷺ يوم الحديبية إنه من جاء من قبلنا وإن كان على دينك رددته إلينا، ومن جاءنا من قبلك، رددناه إليك ، فكان يرد إليهم من جاء من قبلهم يدخل فى دينه. فلما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة ،جاء أخواها يريدان أن يُخرجاها ويرداها إليهم، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ قال : هو الصداق ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾(٢) قال: هى المرأة تسلم فيرد المسلمون صداقها إلى الكفار وما طلَّق المسلمون من نساء الكفار عندهم فعليهم أن يردوا صداقهن إلى المشركين. فإن أمسكوا صداقًا من صداق المسلمين مما فارقوا من نساء الكفار، أمسك المسلمون صداق

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٢٣٠ . (٢) الممتحنة / ١٠ .

المسلمات اللاتى جئن من قبلهم[1].

لقد كانت هجرة أم كلثوم حادثة فأصبحت ظاهرة، تحتاج إلى تشريع. فأنزل الله - تعالى - على نبيه المصطفى تشريع هذه الحالات كلها، لتكون حافزًا للنساء المسلمات فى مكة أن يتحركن مقتديات بأم كلثوم نحو المدينة.

فعلاقة الإسلام هى علاقة الحياة والموت. والولاء والبراء لدين الله هو الحكم النهائى.

ولابد من التميز بين الكفار والمسلمين. وذلك من خلال التشريعات الآتية :

١ـ ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ :

لا يريد الإسلام أن يجعل من ظاهرة الهجرة، وسيلة إلى تنفيذها هوىً أو تحقيق غرض. بل يريد أن يسمو بها إلى أن تبقى تضحية فى عالم القيم، وقيمة مثلى فى عالم التضحية ،ولذلك حرَّر القضية من ذلك، وعرض الامتحان على المهاجرات إلى المدينة.

٢ـ وعظمة هذا الامتحان إنما ينطلق من صدق المهاجرة ، لامن التعذيب والمحاكمة العنيفة، فالصدق لا يزال قيمة فى المجتمع المشرك والمجتمع المسلم، والكذب إنما هو علامة من علامات النفاق، وليس علامة من علامات الكفر :

« أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان به خصلة منهن كان به خصل من النفاق حتى يدعها . . . »[2] .

لم يكن المجتمع الجاهلى يقر الكذب ، وكان يُسقط الكاذب فى مجتمعه . وهذا الأمر الذى يتم الامتحان عليه . إنما هو أمر قلبى . . . والشذوذ فى المجتمع الجاهلى العربى آنذاك وقوع الكذب من بعض أفراده ، والشذوذ دليل صحة القاعدة .هذا الأمر القلبى لا يطلع عليه أحد إلا الله ، فلو أن المهاجرة خرجت حباً لزوج فى المدينة أو بغضاً لزوج فى مكة أو لتحقيق هوى ، ثم زعمت أنها خرجت حباً لله ولرسوله ، فلا أحد يعلم ذلك إلا الله جل شأنه .

٣ـ لكننا نضيف كذلك أن التى خرجت مؤمنة بالله ـ تعالى ـ وحده هى التى لا تفكر أصلاً بالكذب حتى ولو كانت فى المدينة ؛ لأن من مقتضيات الإيمان أنها تعلم أن الله علام الغيوب ، وأن الله يعلم السر وأخفى . وأنه إن كذبت فيسطلع الله ـ تعالى ـ نبيه على دخيلة نفسها ، فلن تضحى بالهجرة إلا مؤمنة خالصة الإيمان . ومع ذلك فقد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٢٣١ .

(٢) متفق عليه .

نزل الحكم الربانى للنساء المشركات اللاتى يفكرن بغير أزواجهن . ويحلمن بأحباب لهن فى المدينة . تناقش وازع الصدق والكذب عندهن ، حيث لم يتمكن داعى الإيمان فى قلوبهن ، إنما يحركهن الفطرة التى لم تطمس بعد فى هذا المجتمع العربى ، إنها سوف تمتحن عما فى قلبها ، ولا ترضى أن يؤثر عنها كذب أو تضطر إليه ولو لم يعرفه أحد ، حتى لا تتناقض بين ظاهرها وباطنها .

٤ ـ ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ :

وإذا أجابت المرأة المهاجرة بالإيمان بالإيجاب والقسم على أن خروجها لله ولرسوله،وليس لدنيا أو هوى فقد انتهى أمرها ، وأصبحت عضواً فى المجتمع المسلم الجديد ، ولا يجوز أن تعود إلى الكفار يفتنونها فى دينها ويؤذونها فى عقيدتها، بعد أن قامت دولة الإسلام التى تحميها من الفتنة .

ولقد عذر الله ـ تعالى ـ المرأة ابتداءً إن وجدت فى المجتمع الكافر ، ودعاها إلى الصبر حتى يجعل الله لها سبيلاً مع المستضعفين من الرجال والولدان . ولم يعذر الرجال الشباب فى ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً . إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾(١) .

٥ ـ لكن هذا من جهة ثانية حث النساء المسلمات فى مكة واستنهض هممهن على أن يفكرن ويعزمن على مغادرة دار الكفر والتخطيط للخلاص من ربقة الفتنة برضا أوليائهن أو سراً فراراً بدينهن من الفتنة .

وبذلك ارتفع الأمر عند المسلمات الأسيرات فى مكة من رخصة البقاء إلى تحبيب الهجرة لهن . ولن ينالهن بند الرجال فى إعادتهن .والتى تخلص من المجتمع الكافر ودار الحرب فستعيش حياتها الحقيقية فى ظل دولة الإسلام فى المدينة ومع الحبيب المصطفى ﷺ فقد ارتفعت النفوس بهذه الآية ارتفاعاً عالياً ؛ لتحطم كل الأواصر إلا آصرة العقيدة ، وتضرب بكل مفاهيم الولاء والولاية إلا الولاء لله ولرسوله .

إنها التربية التى تنتقل برفق من التعامل مع الواقع إلى السعى فى الخلاص منه

---

(١) النساء / ٩٧ ـ ٩٩ .

ابتداء بالرجال وانتقالاً إلى النساء ، فلابد أن يتحرر المجتمع الإسلامى كله،وبكل أفراده من ربقة المجتمع الجاهلى وسيطرته،حين تصبح الظاهرة قابلة للتحقيق . فلم تنزل هذه الآيات بعد قيام دولة الإسلام فى المدينة ، إنما نزلت الآيات التى ترفض مبررات البقاء فى مجتمع الكفر للرجال،وأعطت العذر للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . ومع ذلك جاءت الصيغة القرآنية ليست بالجزم الكامل بالرخصة إنما جاءت معلقة بعفو الله : ﴿ **فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾، ولم يأت نص الآية فأولئك عفا الله عنهم ، وذلك ليجعل طريق البحث عن السبيل قائماً فى كل نفس حتى لو كان من المستضعفين ، ولا يركن إلى الكفر ويستمرئ الحياة فيه ، فقد تضعف جذوة الإيمان عنده ويعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه .

٦ ـ ﴿ **لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾ :

هذه التربية القائمة من فاطر السموات والأرض فاطر الإنسان ، هى التى سمت بهذه النفوس وارتفعت بها حتى أبدعت وأثمرت أعظم ما عندها من طاقات .

فالرخصة ابتداءً كانت معلقة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لعلهم يبحثون عن سبيل أو حيلة ولايركنوا إلى المجتمع الكافر والقيادة الكافرة .

ثم جاء التشجيع والتحبيذ للهجرة لهؤلاء المستضعفين عامة وللنساء خاصة ، حيث ضمن لهن بعد ست سنوات من قيام الدولة أن يتحركن للانضمام إلى المجتمع الإسلامى وإلى دولة النبوة ، ثم جاءت عملية فرض الهجرة ، ولو كان الأمر نظرياً بقوله عز وجل: ﴿ **لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾ .

وبهذا النص القرآنى الخالد ، شعرت كل امرأة مسلمة أسيرة فى مكة أن عليها أن تهاجر إلى المدينة ، ولو كانت امرأة خاصة إذا كانت بعصمة رجل كافر ، فلا هو يحل لها ، ولا هى تحل له ، وكان هذا الحكم الربانى بعد ست سنوات وبعد أن أصبحت الدولة الإسلامية قادرة على حماية رعاياها من النساء . وقادرة على أن تخوض حرباً من أجل الرد مباشرة للوليد وعمارة : « إن الله نقض العهد فى النساء » .

وأدت هذه الآية إلى تحرك جديد وهجرة حية من النساء إلى المدينة ، وتحطيم لكل حواجز الخوف والضعف .فإذا كانت المرأة مسملة ، فلتكن مهاجرة كذلك ، وهو ارتقاء عالٍ فى سلم المسؤوليات للمرأة المسلمة .

أما الإسلام ، فهو فرض عين عليها ، وأما الهجرة والجهاد فقد كان اختيارياً بالنسبة

لها ، وها هى الهجرة تنضم إلى الإسلام لتكون فرض عين حين تكون تحت عصمة رجل كافر لا يحل لها ولا تحل له .

٧ ـ واقتدى بأم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ نماذج أخرى . ذكر ابن حجر فى الفتح منهن :

أ ـ أميمة بنت بشر (وكانت تحت حسان . . . ويقال : ابن دحداحة قبل أن يسلم فتزوجها سهل بن حنيف فولدت له ابنه عبد الله بن سهل . . .)[١] .

ب ـ سبيعة بنت الحارث الأسلمية (وكانت تحت مسافر المخزومى . وقال الفاكهى : إن سبيعة بنت الحارث أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية أثر العقد وطى الكتاب ولم تخف ، فنزلت آية الامتحان فامتحنها النبى ﷺ ،ورد على زوجها مهر مثلها وتزوجها عمر ، قال ابن فتحون : فابن عمر إنما يروى عن سبيعة يعنى امرأة أبيه ، قال : ويؤيد ذلك أن هبة الله فى الناسخ والمنسوخ ذكر أن النبى ﷺ لما انصرف من الحديبية لحقت به سبيعة بنت الحارث امرأة من قريش فبان أنها غير الأسلمية[٢] .

جـ ـ سعيدة (غير منسوبة) زوج أبى صيفى الراهب . . . كانت من الأنصار، وكان أبو صيفى خرج من المدينة مغاضباً لأهلها لما دخلوا فى الإسلام . فأقام بمكة حيناً، فخرجت امرأته سعيدة مهاجرة إلى المدينة فى أيام الهدنة ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يردها إليهم لما كانوا شرطوه . . . فأنزل الله تعالى آية الامتحان . ذكر ذلك مقاتل بن حيان فى تفسيره ، أخرجها أبو موسى[٣] .

د ـ عبدة بنت عبد العزى بن نضلة ،كانت تحت عمرو بن عبد ود . قلت لكن عمرو قُتل بالخندق ، وكأنها فرت بعد قتله وكان من سنة الجاهلية أن من مات زوجها كان أهله أحق بها[٤] .

ولاندرى غيرهن ممن لم تذكرهن كتب السير والتراجم .

٨ ـ وحتى يرفع الإسلام من شأن هؤلاء المهاجرات ، ولو قطعن البيد وحدهن ، حث الرجال المسلمين على الزواج منهن فقال جل من قائل : ﴿ **وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾. ونعود إلى الحديث عن العلاقات المالية المترتبة على الهجرة لكننا ننظر كيف حفل المجتمع الإسلامى بالمهاجرات الخالدات وعلى

---

(١) فتح البارى ٥/٣٤٨.
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٤/٨/١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ٤/٨/١٠٧ ، ١٠٨ .
(٤) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٥/٣٤٨ .

رأسهن أم كلثوم بنت عقبة التى بقيت عذراء لم ترض زوجاً غير مسلم . . . فأصبحت فى سدة المجتمع الإسلامى وفى جبينه .

(فتزوجها زيد ثم الزبير ثم عبد الرحمن بن عوف ثم عمرو بن العاص فماتت عنده) .

أما زيد فهو حب رسول الله ﷺ ومتبناه ، والمولى الأول فى الإسلام ، والأمير الذى لم يكن فى سرية إلا كان أمير عليها . وهو الذى جعله رسول الله ﷺ الأمير الأول فى مؤتة وشهد له فى الجنة . فقد عاشت معه عاماً واحداً أو أقل من عام حيث رزقه الله الشهادة(١) .

ثم تزوجها حوارى رسول الله ﷺ الزبير بن العوام . وتذكر كتب التراجم شدة الزبير فى أهله ـ رضوان الله عليه . فقد روى يزيد بن هارون ، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه قال : كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط تحت الزبير بن العوام ، وكانت فيه شدة على النساء ، وكانت له كارهة ، فكانت تسأله الطلاق فيأبى عليها حتى ضربها الطلق وهو لايعلم ، فألحت عليه وهو يتوضأ للصلاة فطلقها تطليقة ثم خرجت فوضعت فأدركه إنسان من أهله أنها قد وضعت ، فقال : خدعتنى خدعها الله ! فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له . فقال : « سبق فيها كتاب الله فاخطبها » قال : لا ترجع إلى أبداً (٢).

لم تستقم الحياة بينها وبين الزبير العظيم ـ رضوان الله عليه ـ والطبائع تختلف وشرع الله العليم بفطرة الإنسان هو الذى شرع الطلاق ، وشرع التعدد ، وشرع المصالحة والتحكيم والخلع ، وقد أقدمت على طلب الطلاق وهى تئن أنين الولادة وقد ضربها الطلق .وتم الطلاق ،وانتهت العدة بالوضع ،ورزق الزبير ـ رضوان الله عليه ـ بمولوده الجديد الذى كان أنثى وهى زينب . ولم يتقدم لخطبتها ثانية حين أرادت أن تنهى حياتها مع الزبير دون عدة .لكن هذا الخلاف،وهذا الطلاق لم ينقص من قيمة أم كلثوم فى هذا المجتمع الإسلامى المثالى ، ولم ينقص من شأنها وهى مطلقة الزبير ـ رضوان الله عليه . بل بقيت محط أنظار القوم من المسلمين ، فتقدم لها مبشر آخر فى الجنة ، وصون الزبير فى الفضل ، تقدم لها عبد الرحمن بن عوف خاطباً لها .

وأخرج ابن منده من طريق مجمع بن حارثة أن عمر قال لأم كلثوم بنت عُقبة امرأة عبد الرحمن بن عوف : أقال لك رسول الله ﷺ : « أنكحى سيد المسلمين

(١) الإصابة ٤/٨/ ٢٧٤ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٢٣٠ ، ٢٣١ .

عبد الرحمن بن عوف فقالت : نعم »(١) .

فقد استشارت رسول الله ﷺ فى الخاطب الجديد بعد الزبير ، وأشار عليها رسول الله ﷺ بالزواج منه فهو سيد المسلمين .

ومر بها الزمن ، فأمضت جل عمرها عنده رضي الله عنه حتى توفى فى خلافة عثمان ، وقد ولدت له إبراهيم وحميداً . وبعد أن وخطها الشيب ، وأفنت عمرها تحت عصمة سيد المسلمين، تقدم لها عمرو بن العاص رضي الله عنه . فتزوجته، ومكثت عنده شهراً وماتت .

وطويت بذلك صفحة من صفحات الخالدات فى التاريخ . والتى افتتحت باب الهجرة للمؤمنات ، وسنت فى المجتمع الجاهلى سنة الثورة عليه ، والخروج إلى المجتمع المسلم متحدية بيئة الكفر كله فى حبها لله ورسوله وترجمة هذا الحب واقعاً حياً ، محفوفاً بالأهوال والمخاطر لتعلم الأجيال كلها ، وتعلم الرجال والنساء كيف يكون حب الله والرسول واقعاً حياً ، لاتفنياً نظرياً ، وتمنياً حيناً لا ينشئ واقعاً جديداً أو بناءً جديداً أو تغييراً فى واقع الأمة .

٩ ـ جاء حكم الإسلام الخالد ليعطى حرية الولاء فى العقيدة للكوافر كما أعطاها للمسلمات ، وبعد أن حرم المسلمات على المشركين ، جاء تحريم الكوافر على المسلمين: فقال جل شأنه : ﴿ **وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ .

وكما أطلق الإسلام حرية المرأة المسلمة أن تعيش فى ظل عقيدتها ، فقد حظر على المسلمين التعايش مع الكافرات ولو كن يرغبن بذلك . وإن كن لا يرغبن فقد فسح لهن المجال ، لا ليفرض عليهن الإسلام ، بل ليهيئ لهن الانفتاق إلى مجتمعهن الكافر ، وهو تكريم للإنسان أى تكريم ، ولن يوجد إلا فى ظل عقيدة الإسلام وفرض على المؤمنين طلاق الكوافر اللاتى هن تحت عصمتهم .

١٠ ـ وأغرب ما تروى كتب السير ، بصدد شرح هذه الآية ، وترويها كتب التفسير كذلك أن عمر رضي الله عنه طلق زوجتين كافرتين فى الصحيح (ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿ **بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له على الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية)(٢) .

أما هاتين الزوجتين فهما كما يذكر الحافظ ابن كثير : (قال محمد بن إسحاق عن

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٨/ ٢٧٤ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ك الصلح ٥/ ٣٣٢ برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

الزهرى : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة ، فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية وهى أم عبد الله فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم رجل من قومها وهما على شركهما(١) .

ويضيف ابن كثير فى روايته : (وطلق طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص)(٢) .

وإضافة إلى هؤلاء النسوة الثلاثة يحدثنا الحافظ ابن حجر عن اثنتين أخريين هن :

أم الحكم بنت أبى سفيان وقد تقدم فى حديث ابن عباس أنها كانت تحت عياض ابن غنم ، وظاهر سياقه أنها كانت عند نزول قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ مشركة ،وأن عياض بن غنم فارقها لذلك ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى . فهذا أصح من رواية الحسن(٣) .

وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان(٤) .

وتعطينا هذه الصورة ثلاث فوائد :

أ ـ أن الهدى هدى الله ، وأنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، فإن تباح للمرأة أن تعيش مع فاروق الأمة ـ عمر بن الخطاب ـ ثانى رجال هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ وأبى بكر ، أو تعيش مع طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين فى الجنة، وهو من خيرة أهل الأرض،أن يتاح لها أن تعيش فى ظل حكم الإسلام ست سنين متواصلة تنعم بأفيائه . ثم لا يتسلل الإيمان إلى قلبها ، وتحافظ على شركها ، وترضى بالطلاق من زوجها ولا تدع عقيدتها وشركها فهو أمر أغرب من الخيال ، وهو من جهة ثانية يدعو الدعاة إلى التطامن كثيراً فى وصفهم دائماً انتشار الدعوة باستقامة الدعاة وصبرهم ، فمن بعد هذه النماذج فى الوجود يصلح للدعوة ، وهم خيرة أهل الأرض إلى يوم الدين ، ومع ذلك فلم يفلحوا فى إقناع أزواجهن فى دخول هذا الدين؛ لأن الأمر بيد الله ـ عز وجل ـ لا بيد البشر .

وليس البشر ، إلا أدوات وأساليب وأسباباً قد تصيب الهدف كما قال جل وعلا :

﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾(٥) .

ب ـ نشهد بهذا الموقف عظمة هذا الدين الذى لا يجبر أحداً على الدخول فيه ، فإنه لا إكراه فى الدين وذلك بعد أن يتبين الرشد من الغى ، ويعرف الإنسان الهدى من

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٣١ ، ٦٣٢ .
(٣) فتح البارى ٩/ ٤٢٢ .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٣٤٨ .
(٥) القصص / ٥٦ .

الضلال ، فهو حر باعتناق هذا الإسلام أو عدم اعتناقه ، وإلا لكانت هذه النسوة أولى من تحمل على الإسلام ، وعندهن أسراره فهن يعشن فى بيت الوزير الثانى للإسلام ، وفى بيت كبار قادته ، وهن سيمضين إلى المجتمع المشرك ، وقد يتزوجن بقادة دولة الشرك ، ولم يكن هذا سبباً كافياً لإجبارهن على الإسلام ، أو حجز حريتهن عن اللحاق بمجتمعهن المشرك ودولتهن الكافرة ودار الحرب للمسلمين . حيث الهدنة قائمة بين الفريقين ، ولكن الإسلام يصر على أن يكون تنفيذ عدم الإكراه بعد تبين الرشد من الغى ، وأما قبل ذلك فلابد من إزاحة الطغاة الذين يصرون على حكم الناس بشرائعهم البشرية من دون الناس ، ليتاح للناس فهم هذا الدين والتعرف عليه ، وهم أحرار بعد ذلك فى اعتناقه أو عدم اعتناقه . ولكن عليهم كذلك أن يعترفوا بسيادة شرعه ، وبقاؤهم على حربه ،وعدم الاعتراف بسيادة شرعه يجعل الحرب قائمة حتى لا يبقى فى الأرض إلا مسلم أو مسالم .

جـ ـ والعجيب فى الأمر كذلك ، أن نجد أم سلمة بنت أبى أمية زوج لرسول الله ﷺ من أوائل المسلمات المهاجرات وأختها قريبة بنت أبى أمية ، يطلقها الفاروق ـ رضوان الله عليه ؛ لأنها لا تزال مصرة على شركها .

وأن نجد أم حبيبة بنت أبى سفيان ، زوج لرسول الله ﷺ من أوائل المسلمات المهاجرات .

وأن نجد أم الحكم بنت أبى سفيان ، زوج شماس بن عثمان تصر على الشرك ، وتغادر المدينة إلى مكة بدينها الكافر ، وأن نجد أروى بنت ربيعة بن الحارث ، ابنة عم النبى ﷺ تصر على شركها وتغادر المدينة بعد أن عاشت عمرها مع طلحة بن عبيد الله ، طلحة الخير وطلحة الجود ، وتفيأت ظل الحكم الإسلامى ست سنوات ، والحاكم سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام .

هذا وتذكر كتب التراجم أن أم الحكم بنت أبى سفيان ، وقريبة بنت أبى أمية عادتا فأسلمتا وبايعتا بعد الفتح ،كما تذكر كتب التراجم أن أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بين الصحابيات المبايعات .

١١ ـ وحتى تبقى هذه الظاهرة بعيدة عن التلوث ، نقية من الشوائب جاء حكم الله تعالى فى إعادة الحقوق إلى أصحابها رجالاً ونساءً ، واحتفظ بحق الصداق للزوج الذى فارقته امرأته ، وروعيت الحقوق بين المجتمعين المسلم والمشرك طالما أن الهدنة قائمة بين

(١) الفتح / ٢٩.

الفريقين حتى لا يكون حظ للنفس ، أو مقام للهوى فى هذه الظاهرة . كما قال عز وجل : ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ ،وأى أزواج المهاجرات من المشركين ، ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ قال :هو الصداق ـ ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) قال : هى المرأة تسلم فيرد المسلمون صداقها إلى الكفار . . . ما طلق المسلمون من نساء الكفار عندهم فعليهم أن يردوا صداقهن إلى المشركين . فإن أمسكوا صداقاً من صداق المسلمين مما فارقوا من نساء الكفار أمسك المسلمون صداق المسلمات اللاتى جئن من قبلهم ، وتبقى كرامة المرأة فى صداقها مسلمة أو مشركة أكبر من أن تمس .

---

(١) الممتحنة / ١٠ ، ١١ .

كلمة أخيرة

وها نحن نودع سفر التربية القيادية من المنهج التربوى للسيرة النبوية فى أجزائه الأربعة ، حيث شهدناه فرداً واحداً على جبل النور فى غار حراء . ثم ها هو الجيل القيادى يتكون فى غضون عشرين عاما تقريباً حيث يرتفع عدده إلى قرابة الألفين ، وقد انتظمت حبات عقده كاملة من الرجال والنساء ، وتداعت من كل مكان فى الأرض ؛ ليبدأ رحلة انطلاقها فى الأرض من جديد بعد أن باركها قائدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأعلن ميلادها رب السموات والأرض ، حيث كانت فى رحم البشرية تتحدث عنها الكتب السماوية ، ويرنو إلى ميلادها أولو العزم من الرسل ، وشهدنا فى هذه الأجزاء الأربعة معاناة المخاض والولادة والطفولة والرشد .

وشهدنا عظمة الصياغة والبناء من خلال الخطوط العريضة التالية والتى برزت مجسدة فى هذا الجزء :

١ ـ الصبر على الجوع .

٢ ـ الصبر على البأساء .

٣ ـ التربية بالخوف .

٤ ـ التربية بالثأر .

٥ ـ التربية بالتعب .

٦ ـ التربية بالإرهاب .

٧ ـ تربية جيل النصر على :

أ ـ فطم النفس عن الملذات .

ب ـ إيثار الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ على ما سواهما .

جـ ـ الصبر على مشاق الدعوة .

٨ ـ التربية على حرب العصابات .

٩ ـ تربية جيل الدعوة ،والامتحانات العشر فى الحديبية .

١٠ ـ التربية باستثارة الطاقات ، وتفجيرها وإبداعها .

١١ ـ التربية بتنميتها وتوحيدها .

١٢ ـ التربية بالثناء والأوسمة الربانية والنبوية .

١٣ ـ التربية على أداء الحقوق للعدو قبل الصديق .

١٤ ـ مدرسة التربية فى خيبر .

١٥ ـ التربية بالزواج .

١٦ ـ التربية بالثورة .

١٧ ـ التربية بالهجرة .

وغير ذلك من هذه الخطوط التى تحتاج إلى الوقوف ملياً عندها حين نعزم على بناء جيل قيادى على خطا ذلك الجيل . هذا الجيل الذى وصفه ربه :

١ ـ أشداء على الكفار .

٢ ـ رحماء بينهم .

٣ ـ تراهم ركعاً سجداً .

٤ ـ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .

٥ ـ سيماهم فى وجوهم من أثر السجود .

وهذه المواصفات الخمسة ، التى تناولت القلوب الموصولة فى الله فهى خالصة دائماً له ﴿ **يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً** ﴾ . وتنعكس هذه القلوب رحمة مهداة فى الأمة ، لا صراعاً على المناصب أو فتكاً فى ذات البين .

وتناولت السلوك ، فهم فى كل أحوالهم عباد الله ، ﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** ﴾ وهم السهام فى نحور العدو ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ** ﴾ . وينعكس هذا على وصف أجسادهم ووجوهم وسحناتهم ﴿ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ .

ولتحقيق هذه المواصفات الخمسة للقيادات التاريخية التى تغير التاريخ كله من الضلال إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، كانت تلك التربية الطويلة المدى ، المتصبرة الخطى ، المتتابعة الجهد ، المتغلبة على الصعاب ، المصممة على الهدف ، لتنتقل بهذه اللبنات الرخوة الطرية إلى اللبنات المرصوصة القوية الصلبة فى كل ذرة من ذراتها .

كان ذلك السفر الذى حاول أن يجيب على السؤال :

كيف كانت تربية هذا الجيل القائد ؟

لنتابع معه وبعده بناء الجيل الجديد الذى يفرز القيادات ، ويبرزها ويرتفع ببناء الجنود من المئات إلى الألوف وعشرات الألوف من خلال التربية المستمرة التى هى عنوان الحلقة القادمة ، ثم نختتم لقاءنا مع هذا المنهج من خلال التربية الإصلاحية التى يستفيض فيها الحديث عن عام الوفود ما حفل فيه من دخول الناس فى دين الله أفواجاً ، لكننا وقفنا هنا مع خيرة أهل الأرض ـ أهل بيعة الرضوان ـ ومن انضم إليهم وشمله هذا الوصف ـ ونتابع بعده عملية البناء من البانى الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين معه من البناة والقادة والهداة .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(1) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غرة ربيع الأول ، مكة المكرمة ١٤١٥ هـ

منير محمد الغضبان

---

(١) الفتح / ٢٩ .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

هذا الكتاب

★ مما لا شك فيه أنه توجد أعداد وفيرة ضخمة تملأ كل فج، جاهزة للتضحية والبذل، تتوقد حماسا وحيوية أن ترى الإسلام يسود، لكنها تحتاج إلى القائد المبصر، والرائد الحكيم الذى يقود بها فى لجج البحار، فيكون الربان الماهر الذى يقودها إلى شاطىء السلامة، ويحقق بها موعود الله فى الأرض.

★ ولإيجاد هذا القائد لا بد من الوقوف بين يدى المصطفى ﷺ قائد ركب الإيمان فى الوجود والنظر إلى الجيل الذى صاغه حتى كان -أى جيل الصحابة- من كبار القادة الذى نقل روح النبوة وهديها إلى كل أرجاء الوجود، فحكموا بهذا الهدى، وأضاؤا الوجود بهذا النور.

★ وهذا الكتاب - بأجزائه الأربعة - يضع أيدينا على المنهج الذى ربى به النبى ﷺ أصحابه حتى أصبحوا جيلاً قيادياً فذاً عز نظيره فى التاريخ.

★ والذين يحملون عبء قيادات العمل الاسلامى فى الارض مدعوون إلى الوقوف على هذه التربية وهو ما يهدف إليه هذا الكتاب.

ودار الوفاء

يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، رجاء أن يعم به النفع، ويهدى به الله إلى أقوم سبيل،،

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM